شرح
الثلاثة الأصول

للإمام محمد بن عبد الوهاب

وبهامشه تعليقات للشيخ
محمد منير الدمشقي

شرح أصحاب الفضيلة

عبد العزيز بن عبد الله بن باز
عبد الرحمن بن محمد بن قاسم
محمد بن صالح العثيمين
صالح بن فوزان الفوزان
صالح بن عبد العزيز آل الشيخ

إعداد:
مركز العروة الوثقى
للدراسات والأبحاث العلمية

دار ابن حزم
القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م

رقم الإيداع: ٢٠٠٨/٣٢٣٤

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة

جمهورية مصر العربية
٢٢ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر
القاهرة

تليفون: ٠٠٢٠٢٢٥١٤٣١٤١
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٢٥١١١٧٥٠

شرح الثلاثة الأصول

تأليف

شيخ الإسلام المجدد

محمد بن عبد الوهاب

شرح أصحاب الفضيلة

عبد العزيز بن عبد الله بن باز — عبد الرحمن بن محمد بن قاسم

محمد بن صالح العثيمين — صالح بن فوزان الفوزان

صالح بن عبد العزيز آل الشيخ

وبهامشه تعليقات

الشيخ محمد بن منير الدمشقي

دار ابن حزم

القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالىٰ من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء:١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١]

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمدﷺ، وإن شر الأمور محدثاتها، وإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار. وبعد:

إن أول ما يجب على المسلم الاعتناء به هو العقيدة وتصحيحها وتخليصها لله عز وجل من شوائب الشرك والخرافات، والبدع والضلالات في زمن انتشرت فيه البدع وعلا صوت أبواقها، ولكن يأبىٰ الله إلا أن يتم نوره، ويظهر دينه، ويعز جنده؛ فيخرج علينا بين الحين والأخر رجالٌ استعملهم الله لدينه فسخروا أنفسهم لنصرة كلمة الحق وإعلاء رايته، فأثروا المكتبة الإسلامية بما كتبوه في العقيدة من كتب مطولات رُدَّ فيها على أهل البدع والضلالات، وأُخر مختصرات كي يسهل على الجميع -طلبة علم وغيرهم- حفظها، أو على الأقل فهمها واستيعابها.

وكان من بين هؤلاء العلماء الأجلاء: الإمام العلامة المجدد الشيخ محمد بن عبدالوهاب، والذي كان -بحقّ- سيفًا مسلولًا على الباطل وأهله.

فكان من بين مؤلفاته رحمه الله هذا المؤلف الذي بين أيدينا «ثلاثة الأصول» والذي بيّن فيه بأسلوبٍ وجيزٍ واضحٍ أركان العقيدة الإسلامية مدعمة بالأدلة من الكتاب والسنة.

فكان رحمه الله يُعَلِّمها لطلابه، وسار العلماءُ من بعده على منواله؛ لجليل قدرها وعظيم نفعها.

وسيرًا على هذا المنوال نضع بين يديك أيها القارئ الكريم مجموعة شروحٍ لهذه الرسالة النافعة لجماعة من أهل العلم ممن شهد القاصي والداني بعلمهم واعترف بفضلهم.

عملنا في الكتاب:

١- عمل ترجمة مختصرة للماتن والشراح.

٢- ضبط المتن ضبطًا إعرابيًّا مع مراعاة قواعد الإملاء والترقيم.

٣- عزو الآيات القرآنية إلى مواضعها في المصحف بذكر اسم السورة ورقم الآية.

٤- تخريج الأحاديث النبوية مع بيان الحكم عليها بالصحة أو الضعف.

٥- إخراج شروح العلماء على طريقة الدروس، ثم نفصل بين الشرح والمتن بكلمة «الشرح»، ثم نضع شرح العلماء مبتدئين بـ«**قال العلامة** ...» في بداية شرحه؛ كي يسهل على طالب العلم تناولها.

٦- قمنا بوضع عناوين لدروس الكتاب؛ وذلك لتقريب معناها ولتسهيل قراءتها والإفادة منها، وتم وضعها بين معقوفين لتمييزها عن العناوين التي من وضع المصنف.

٧- إضافة تعليقات الشيخ محمد منير الدمشقي، دون الحديثية منها اكتفاءً بتخريجنا للأحاديث وبيان الحكم عليها بالصحة أو الضعف، ورمزنا لها بـ [الدمشقي]

تراجم العلماء

ترجمة الإمام محمد بن عبد الوهاب:

هوشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي بن محمد بن أحمد بن راشد من بني تميم.

ولد في بلدة العيينة سنة١١١٥هـ، حفظ القرآن قبل بلوغ عشر سنين، وهبه الله عز وجلَّ فهمًا ثاقبًا وذكاءً مفرطًا؛ فأقبل على المطالعة والبحث والتأليف. وفي سنة١١٥٣هـ أخذ يدعو بالدعوة السلفية إلى توحيد الله وإنكار المنكر ومهاجمة المبتدعة أهل الأوثان.

وفاته: توفي رحمه الله عام١٢٠٦هـ فرحمه الله رحمة واسعة، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

تراجم الشراح:

١- ترجمة العلامة ابن باز:

هو العلامة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله آل باز.

ولد بمدينة الرياض عام ١٣٣٠هـ فحفظ القرآن الكريم دون البلوغ، وبدأ في تلقي العلوم الشرعية، وفي العشرين من عمره عام ١٣٥٠هـ كُفَّ بصره، ولكن لم يثنه ذلك عن طلب العلم، وقد تولى الشيخ عددًا من المناصب، حتى عُين رئيسًا عامًّا لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد.

وتوفي رحمه الله صباح الخميس الموافق ٢٧ محرم ١٤٢٠هـ. نسأل الله أن يدخله فسيح جناته، وأن يرفع درجاته في العليين . آمين.

٢- ترجمة العلامة ابن قاسم:

هو عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي القحطاني نسبًا، فقيه حنبلي من أعيان نجد.

ولد بقرية (البير) من قرى (المحمل) قرب الرياض عام ١٣١٢هـ، وأولع في أوليته بالتاريخ والأنساب والجغرافيا، ووقعت له قضية بسبب التاريخ فأحرق كثيرًا من أوراقه.

ومن مؤلفاته:

- السيف المسلول على عابد الرسول.

- وجمع فتاوى ابن تيمية، وتوفي رحمه الله سنة ١٣٩٢هـ.

٣- ترجمة العلامة ابن عثيمين:

هو صاحب الفضيلة الشيخ العلامة المحقق، محمد بن صالح بن محمد بن سليمان ابن عبد الرحمن آل عثيمين، من الوهبة من بني تميم.

مولده: ولد في ليلة السابع والعشرين في شهر رمضان عام ١٣٤٧هـ في عنيزة -إحدىٰ مدن القصيم- في المملكة العربية السعودية.

أقبل علىٰ طلب العلم الشرعي، فهُرِع إلىٰ العلماء ينهل من معينهم، ويقطف من أزهار بساتين علومهم.

وكانت للشيخ رحمه الله تعالىٰ جهودًا عظيمة في نشر العلم النافع وإفادة طلاب العلم؛ فصدرت له الكثير من الكتب، والرسائل، والمحاضرات، والفتاوىٰ، والخطب، واللقاءات، والمحاضرات، إلىٰ جانب آلاف الساعات الصوتية التي سجلت خطبه ومحاضرته ودروسه رحمه الله تعالىٰ.

وفاته: توفي رحمه الله في مدينة جدَّة قبيل مغرب يوم الأربعاء الخامس عشر من شهر شوال عام ١٤٢١هـ، وصُلي عليه في المسجد الحرام وسط حشود غفيرة من المشيعين في مشهد مهيب، فرحمه الله تعالىٰ رحمة واسعة، وأجزل له الثواب لقاء ما قدم للأمة ونفعها به.

٤- ترجمة العلامة الفوزان:

هو فضيلة الشيخ الدكتور: صالح بن فوزان بن عبد الله، من آل فوزان من أهل الشماسية، الوداعين من قبيلة الدواسر.

ولد عام ١٣٥٤هـ، وتوفي والده وهو صغير، فتربىٰ في أسرته، وتعلم القرآن الكريم، وتعلم مبادئ القراءة والكتابة، ثم تدرج في مراحل التعليم المختلفة حتىٰ نال درجة الدكتوراه من كلية الشريعة بالرياض في تخصص الفقه، ثم تدرج في المناصب العلمية حتىٰ أصبح عضوًا في اللجنة الدائمة للإفتاء والبحوث العلمية، ولا يزال علىٰ رأس العمل، وقد تتلمذ فضيلة الشيخ علىٰ أيدي عدد من العلماء والفقهاء البارزين.

نسأل الله تعالىٰ أن ينفع به، وأن يجعل عمله في ميزان حسناته ، إنه سميع مجيب.

٥- ترجمة العلامة صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ:

هو صالح بن عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ، ولد في مدينة الرياض سنة ١٣٧٨ هـ ، ١٩٥٩ م، نبغ في العلوم الشرعية منذ صغره، والتزم الأخذ من أكابر العلماء، مع اهتمامه بالبحث والاطلاع والتأليف.

منح إجازات علمية عالية من عدد من علماء المملكة العربية السعودية، وتونس، والمغرب، وباكستان، والهند.

هذا وقد بلغنا جهدنا في تصحيح نص الكتاب وضبطه، ونسأل الله أن ينفع به الطلاب، وأن يجازينا به الأجر والثواب، وأن يغفر لمن قام بجمعه، ولمن عمل علىٰ ضبطه وإخراجه، ولمن قرأه.

ونسأله أن يتقبل هذا العمل ويعفو عما فيه من تقصير وزلل.

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الأول:

[أربع مسائل يجب تعلمها]

اعْلَمْ رَحِمكَ الله أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا تَعَلُّمُ أَرْبَعِ مَسَائِلَ:

الأُولَى: العِلْمُ. وَهُوَ: مَعْرِفَةُ الله، ومَعْرِفَةُ نَبِيِّه، ومَعْرِفَةُ دِيْنِ الإِسْلاَمِ بالأَدِلَّةِ.

الثَّانِيةُ: العَمَلُ بِهِ. الثَّالِثَةُ: الدَّعْوَةُ إِلَيْهِ. الرَّابِعَةُ: الصَّبْرُ عَلَى الأَذَى فِيْهِ. والدَّلِيلُ قَوْلُه تَعَالَى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾[1] [العصر]. قَالَ الشَّافِعِيُّ -رحمه الله تعالَى-: «لو مَا أَنْزَلَ الله حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ إلاَّ هَذِهِ السُّورَة لَكَفَتْهُمْ». وقَالَ البُخَارِيُّ -رحمه الله تعالى-: «بابُ الْعِلْمُ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ». والدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى[2]: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾[محمد:١٩] فَبَدَأَ بِالْعِلْمِ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ.

الشرح

قال العلامة ابن باز:

❐ قوله: (اعْلَمْ رَحِمَكَ اللهُ أَنَّه يَجِبُ عَلَيْنَا تعلُّمَ أربعِ مسائلَ)

● هذه المسائل يجب أن يتعلمها المؤمن والمؤمنة صغارًا وكبارًا.

❐ قوله: (الأولى: العِلمُ)

● فعلى الإنسان أن يتعلم ويتبصر؛ حتى يكون على بينة، ويعرف دين الله الذي خلق من أجله، وهذا العلم: هو معرفة الله، ومعرفة نبيه، ومعرفة دين الإسلام بالأدلة، فهذا أول

---

(١) أقسم جل جلاله بالعصر -وهو الدهر- لما فيه من العبر من جهة مرور الليل والنهار وهو أكبر دليل على الصانع[الدمشقي].

(٢) الذي في «صحيح البخاري» كما في النسخ التي بأيدينا «باب العلم قبل القول والعمل» لقول الله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فبدأ بالعلم ا هـ[الدمشقي].

شيء: أن يتبصر العبد من هو ربه؟ فيعرف أن ربَّه الخالق الذي خلقه، ورزقه، وأسدى إليه النعم، وخلق مَن قبله، ويخلق مَن بعده، هو رب العالمين، وأنه الإله الحق المعبود الذي لا يستحق العبادة سواه أبدًا، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، ولا جن، ولا إنس، ولا صنم، ولا غير ذلك.

بل العبادة حق لله وحده، فهو المعبود بحق، وهو المستحق بأن يعبد، وهو رب العالمين، وهو ربك وخالقك وإلهك الحق سبحانه وتعالى.

❑ قوله: (وهو معرفةُ اللهِ)

● فتعرف هذه المسألة الأولى: وهي أن تعرف ربَّك ونبيَّك ودينَك بالأدلة: قال الله وقال الرسول، لا بالرأي ولا بقول فلان، بل بالأدلة من الآيات والأحاديث، وذلك هو دين الإسلام الذي أنت مأمور بالدخول فيه، والالتزام به، وهو عبادة الله الذي قال فيها سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾[الذاريات:٥٦]. هذه العبادة: هي الإسلام، وهي: طاعة الله ورسوله، والقيام بأمر الله وترك محارمه.

هذه هي العبادة التي خُلق الناس لأجلها وأمر الله بها الناس في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾[البقرة:٢١]، يعني: اعبدوه بطاعة أوامره واجتناب نواهيه، وإسلام الوجه له، وتخصيصه بالعبادة سبحانه وتعالى.

❑ قوله: (ومَعْرِفَةُ نَبِيِّه)

● ومن ذلك أن تعرف نبيك: وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي القرشي المكي ثم المدني -عليه الصلاة والسلام- فتعرف أنه نبيك وأن الله أرسله إليك بدين الحق يعلمك ويرشدك فتؤمن بأنه رسول الله حقًّا، وأن الله أرسله للعالمين جميعًا من الجن والإنس، وأن الواجب اتباعه، والسير على منهاجه. وسيأتي تفصيل هذا في الأصل الثالث من الأصول الثلاثة.

❑ قوله: (ومَعْرِفَةُ دِيْنِ الإِسْلامِ بالأَدِلَّةِ، الثَّانِيةُ العَمَلُ بِهِ)

● أي: أن تعمل بهذا الدين: من صلاةٍ، وصومٍ، وجهادٍ، وحجٍّ، وإيمانٍ، وتقوى، فتعمل بالإسلام؛ لأنك مخلوق له، ومخلوق لعبادة الله، فعليك أ ن تعلم وتعمل به فتعبد الله وحده، وتقيم الصلاة، وتؤدي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت، وتؤمن بالله

وملائكته ورسله وكتبه وباليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتبر والديك، وتصل الأرحام، إلى غير ذلك فتعمل بما أمرك الله به، وتنتهي عما نهاك الله عنه، وتترك المعاصي التي أنت منهي عنها، وتفعل الواجبات التي أنت مأمور بها.

□قوله: (الثَّالِثَةُ: الدَّعْوَةُ إِلَيْهِ)

● أي: أن تدعو إلى هذا الدين فتنصح الناس بأن يستقيموا عليه، وترشدهم وتأمرهم بالمعروف، وتنهاهم عن المنكر. هذه هي الدعوة إلى دين الإسلام. فعلى كل مسلم أن يدعو إلى الله حسب طاقته وعلمه. فكلُّ واحدٍ -رجل أو امرأة- عليه قسط من هذا الواجب: من التبليغ، والدعوة، والإرشاد، والنصيحة، وأن يدعو إلى توحيد الله، وإلى الصلاة والمحافظة عليها، وإلى الزكاة وأدائها، وإلى صوم رمضان، وحج البيت مع الاستطاعة، وإلى بر الوالدين، وصلة الأرحام، وترك المعاصي كلها.

□قوله: (الرَّابِعَةُ: الصَّبْرُ عَلَى الأَذَى فِيهِ)

● أي: يصبر على الأذى في هذه الأشياء، فقد يحصل للإنسان أذى، قد يتعب من المدعو أو غيره، من أهله أو غيرهم، فالواجب: الصبر، واحتساب الأجر عند الله؛ فالمؤمن يصبر على إيمانه بالله، ويصبر على العمل بما أوجب الله عليه، وترك ما حرم الله عليه، ويصبر في الدعوة إلى الله، والتعليم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فلابد من الصبر في هذه الأمور كلها. فالدين كله يحتاج إلى صبر: صبر على دعوة الله وحده، وصبر على أن تصلي، وتزكي، وتصوم، وتحج، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وصبر عن المحارم والسيئات، فتحذر من قربها. فالإنسان إذا لم يصبر؛ وقع فيما حرم الله عليه، أو ترك ما أوجب الله عليه؛ ولهذا قال تعالى لرسوله: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾[الأحقاف:٣٥]، وقال سبحانه: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾[الطور:٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾[النحل:١٢٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ١٠﴾[الزمر:١٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦﴾[الأنفال:٤٦]، يعني: اصبروا على طاعة الله، وترك معصيته، واحذروا مخالفة أمره وارتكاب نهيه.

□ قوله: (والدليل...)

●وهذا هو الدليل على هذه المسائل الأربع: ففي هذه السورة العظيمة الحجة لهذه الأمور، وهذا هو الدين كله. فالدين كله إيمان وعمل ودعوة وصبر. إيمان بالحق وعمل به

ودعوة إليه وصبر على الأذى فيه، والناس كلهم في خسارة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[العصر:٣] الآية؛ أي: الذين استثناهم الله، فجميع بني آدم في خسران وعلى طريق الهلاك إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وتواصوا بالحق، وتواصوا بالصبر، فهؤلاء هم الرابحون، وهم السعداء. وقد أقسم الله على هذا بقوله: ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾[العصر:١] وهو الصادق سبحانه وتعالى وإن لم يقسم، ولكن أقسم لتأكيد المقام. الله سبحانه وتعالى يقسم بما شاء من خلقه، فلا أحد يتحجر عليه، فأقسم بالسماء ذات البروج، وأقسم بالسماء والطارق، وبالضحى، وبالشمس وضحاها، وبالليل إذا يغشى، بالنازعات، وغير ذلك؛ لأن المخلوقات تدل على عظمته، وعلى أنه سبحانه هو المستحق للعبادة ولبيان عظم شأن هذه المخلوقات التي تدل على وحدانيته وأنه المستحق للعبادة وحده. وأما المخلوق فليس له أن يقسم إلا بربه، فلا يقسم ولا يحلف إلا بالله، ولا يجوز له أن يحلف بالأنبياء، ولا بالأصنام، ولا بالصالحين، ولا بالأمانة، ولا بالكعبة، ولا بغيرها. هذا هو الواجب على المسلم؛ لقول النبي ﷺ «من حلف بشيء دون الله فقد أشرك»[٣] أخرجه الإمام أحمد بإسناد صحيح. وقال عليه الصلاة والسلام: «من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت»[٤] فالواجب على كل مسلم ومسلمة الحذر من الحلف بغير الله، وأن تكون أيمانهم كلها بالله وحده سبحانه وتعالى.

قوله: (قَالَ الشَّافِعِيُّ رحمه الله تعالَى)

● الشافعي: هو الإمام المشهور، أحد العلماء الكبار، وأحد الأئمة الأربعة، وهو محمد بن إدريس الشافعي المطلبي، المولود سنة خمسين ومائة، وتوفي سنة أربع ومائتين

قوله: (لو مَا أَنْزَلَ الله...)

● يقول رحمه الله: لو ما أنزل الله حجة على خلقه إلا هذه السورة لكفتهم، وفي رواية: «لو فكر الناس في هذه السورة لكفتهم»؛ أي: لو نظروا فيها وتأملوا فيها لكانت كافية في إلزامهم بالحق، وقيامهم بما أوجب الله عليهم، وترك ما حرمه عليهم ؛ لأن الله بين أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر هم الرابحون،

---

(٣) أخرجه أحمد (٤٧/١)، من حديث عمر ﷺ، وصححه العلامة الألباني في «الصحيحة» (٢٠٤٢).

(٤) أخرجه البخاري (٦١٠٨)، ومسلم (١٦٤٦/٣)، وغيرهما من حديث عمر بن الخطاب ﷺ.

ومن سواهم خاسر، وهذه حجة قائمة على وجوب التواصي، والتناصح، والإيمان والصبر، والصدق، وأنه لا طريق للسعادة والربح إلا بهذه الصفات الأربع: إيمان صادق بالله ورسوله، وعمل صالح، وتواصٍ بالحق، وتواصٍ بالصبر.

□قوله: (وَقَالَ البُخَارِيُّ...)

● البخاري: هو أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري، من بُخارىٰ في الشرق الأوسط. ولد سنة أربع وتسعين ومائة، في آخر القرن الثاني، ومات سنة ست وخمسين ومائتين في وسط القرن الثالث. كان عمره اثنتين وستين سنة. وهو صاحب «الصحيح»، وله مؤلفات أخرىٰ عظيمة نافعة رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: باب: العلم قبل القول والعمل؛ لقول الله سبحانه: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد:١٩].

فبدأ بالعلم قبل القول والعمل. فالإنسان عليه أن يتعلم أولًا، ثم يعمل؛ فيتعلم دينه ويعمل علىٰ بصيرة، والله أعلم.

قال العلامة ابن قاسم:

□قوله: (بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ)

● ابتدأ المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتابه بالبسملة اقتداءً بالكتاب العزيز، وتأسيًا بالنبي ﷺ في مكاتباته ومراسلاته، وعملًا بحديث: «كل أمر ذي بالٍ» أي: حال وشأن يهتم به شرعًا «لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع»(٥)، وفي رواية: «أجذم»(٦)، وفي رواية: «أبتر»(٧) والمعنىٰ من جميع الروايات: أنه ناقص البركة، والبداءة بها للتبرك والاستعانة علىٰ ما يهتم به، واقتصر علىٰ البسملة؛ لأنها من أبلغ الثناء والذكر والخبر.

---

(٥) أخرجه السبكي في «طبقات الشافعية الكبرىٰ» (١٢/١)، وضعفه العلامة الألباني في «الإرواء» (١).

(٦) أخرجه أبو داود (٤٨٤٠)، بلفظ: «كل كلام لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أجذم»، والطبراني (١٤١/٧٢/١٩)، بلفظ: «كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بالحمد أقطع أو أجذم»، وضعفه العلامة الألباني في «ضعيف سنن أبي داود».

(٧) أخرجه أحمد (٣٥٩/٢)، بلفظ: «كل كلام أو أمر ذي بال لا يفتح بذكر الله عز وجل فهو أبتر، أو قال أقطع»، والنسائي (١٠٣٣١)، بلفظ: «كل كلام لا يبدأ في أوله بذكر الله فهو أبتر».

❏ قوله: (اعْلَمْ رَحِمَكَ الله)

● اعلم: فعل أمر من العلم، وهو حكم الذهن الجزم المطابق للواقع؛ أي: كن متهيئًا ومتفهمًا لما يلقى إليك من العلوم.

وكلمة (اعلم) يؤتى بها عند ذكر الأشياء المهمة الذي ينبغي للمتعلم أن يصغي إلى ما يلقى إليه منها، وما أقره المصنف هنا من أصول الدين حقيق بأن يهتم به غاية الاهتمام، ويعتني به أشد الاعتناء، ويصغى إليه حقيقة الإصغاء.

و(رحمك الله): دعاء لك بالرحمة؛ أي: غفر الله لك ما مضى، ووفقك وعصمك فيما يستقبل، وإذا قرنت الرحمة بالمغفرة، فالمغفرة: لما مضى، والرحمة: سؤال السلامة من ضرر الذنوب وشرها في المستقبل، وكثيرًا ما يجمع رَحِمَهُ اللهُ عندما يرشد الطالب بتقرير الأصول المهمة- بينها وبين الدعاء له، وهذا من حسن عنايته ونصحه وقصده الخير للمسلمين.

❏ قوله: (يَجِبُ عَلَيْنَا تَعَلُّمُ أَرْبَعِ مَسَائِلَ)

● أي: يلزم كل فرد من أفراد المكلفين -ذكرًا كان أو أنثى، حرًا أو عبدًا- تعلم أربع مسائل: جمع مسألة، من السؤال: وهو ما يبرهن عنه في العلم، والواجب: ما لا يعذر أحد بتركه، وعند الأصوليين: ما يثاب فاعله ويعاقب تاركه؛ فيجب على كل فرد منا العلم بهذه الأربع المسائل.

❏ قوله: (الأُولَى: العِلْمُ).

● وهو معرفة الهدى بدليله، والعلم إذا أطلق فالمراد به العلم الشرعي الذي تفيد معرفته ما يجب على المكلف من أمر دينه، والعلم الشرعي على قسمين: فرض عين، وفرض كفاية، وما ذكر رَحِمَهُ اللهُ فهو فرض عين على الذكر والأنثى، والحر والعبد، لا يعذر أحد بالجهل به، وفي الحديث عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «طلب العلم فريضة»[٨]، وقال أحمد: يجب أن يطلب من العلم ما يقوم به دينه. قيل له: مثل أي شيء؟ قال: الذي لا يسعه جهله صلاته وصيامه ونحو ذلك، وقال المصنف رحمه الله: إن طلب العلم فريضة، وإنه شفاء للقلوب المريضة.

---

(٨) أخرجه ابن ماجه (٢٢٤)، والطبراني (١٠٤٣٩)، وفي «الأوسط» (٢٠٠٨)، وفي «الصغير» (٢٢/الروض)، من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وصححه العلامة الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

وإن أهم ما على العبد معرفة دينه، الذي معرفته والعمل به سبب لدخول الجنة، والجهل به وإضاعته سبب لدخول النار، أعاذنا الله منها. ا.هـ

فما كان واجبًا على الإنسان العمل به كأصول الإيمان، وشرائع الإسلام، وما يجب اجتنابه من المحرمات، وما يحتاج إليه في المعاملات، ونحو ذلك مما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب عليه العلم به، بخلاف القدر الزائد على ما يحتاج إليه المعين، فإنه من فروض الكفايات التي إذا قام بها من يكفي سقط الإثم عن الباقين، ثم إن طلب العلم فيما هو فرض كفاية أفضل من قيام الليل وصيام النهار والصدقة بالذهب والفضة. قال أحمد: تعلم العلم وتعليمة أفضل من الجهاد وغيره مما يتطوع به. ا.هـ.

فإن العلم هو الأصل والأساس، وأعظم العبادات، وآكد فروض الكفايات، بل به حياة الإسلام والمسلمين، والتطوعات إنما هي شيء مختص بصاحبه لا يتعدى إلى غيره، وهو الميراث النبوي ونور القلوب، وأهله هم أهل الله وحزبه، وأولى الناس به وأقربهم إليه، وأخشاهم له وأرفعهم درجات.

❑ قوله: (وَهُوَ: مَعْرِفَةُ اللهِ)

● أي: بما تعرف به إلينا في كتابه وسنة رسوله ﷺ من أسمائه وصفاته وأفعاله، ولا يكون الإنسان على حقيقة من دينه إلا بعد العلم بالله -سبحانه وتعالى-.

❑ قوله: (ومَعْرِفَةُ نَبِيِّه)

● ﷺ فإنه الواسطة بيننا وبين الله في تبليغ رسالة الله، ومعرفته فرض على كل مكلَّف، وأحد مهمات الدين، و النبي: رجل أُوحِيَ إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه، فإن أمر به فرسول.

❑ قوله: (ومَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلَامِ بالأَدِلَّةِ)

● أي: معرفة دين الإسلام الذي تعبد الله الخلقُ به بالأدلة من الكتاب والسنة. والأدلة: جمع دليل، والدليل: هو ما يوصل إلى المطلوب، وفيه إشارة إلى أنه لا يصلح فيه التقليد، بل إذا لقي الله فإذا معه حجج الله وبراهينه، وهذا المقدار من العلم يجب تعلمه، بل يعمل المرء بشيء وهو لا يعرفه؟!

وجهل الإنسان حقيقة ما أمر الله به من أعظم الإثم، والعمل بغير علم طريق النصارى، والعلم بلا عمل طريق اليهود، وقد أمرنا الله أن نسأله في كل ركعة أن يهدينا

الصراط المستقيم، وهو طريق الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

قوله: (الثَّانِيَةُ العَمَلُ بِهِ)

● فالعمل: هو ثمرة العلم، والعلم مقصود لغيره، فهو بمنزلة الشجرة، والعمل بمنزلة الثمرة، فلا بد مع العلم بدين الإسلام العمل به، فإن الذي معه علم ولا يعمل به شر من الجاهل، وفي الحديث: «أشد الناس عذابًا عالم لم ينفعه الله بعلمه»[9]، وهو أحد الثلاثة الذين أخبر النبي ﷺ أنهم أول من تسعر بهم النار يوم القيامة. وقد قيل:

وعامل بعلمه لم يعملن ... معذب من قبل عباد الوثن

قوله: (الثَّالِثَةُ: الدَّعْوَةُ إِلَيْهِ)

● فإذا حصل له بتوفيق الله العلم بدين الإسلام والعمل به؛ فيجب عليه السعي في الدعوة إليه، كما هي طريقة الرسل وأتباعهم. وأعلى مراتب العلم: الدعوة إلى الحق وسبيل الرشاد، ونفي الشرك والفساد، فإنه ما من نبي يبعث إلى قومه إلا ويدعوهم إلى طاعة الله وإفراده بالعبادة، وينهاهم عن الشرك ووسائله وذرائعه، ويبدأ بالأهم فالأهم بعد ذلك من شرائع الإسلام.

قوله: (الرَّابِعَةُ: الصَّبْرُ عَلَى الأَذَى فِيهِ)

● لأن من قام بدين الإسلام ودعا الناس إليه فقد تحمل أمرًا عظيمًا، وقام مقام الرسل في الدعوة، وقصد أن يحول بين الناس وبين شهواتهم وأهوائهم واعتقاداتهم الباطلة، فحينئذ لابد أن يؤذوه، فعليه أن يصبر ويحتسب. وهذه الأربع أوجب الواجبات.

قوله: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١﴾

● أقسم تعالى بالعصر، وهو الدهر الذي هو زمن تحصيل الأرباح والعمال الصالحة للمؤمنين، وزمن الشقاء للمعرضين، ولما فيه من العبر والعجائب للناظرين.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢﴾

● أي: جنس الإنسان من حيث هو إنسان في خسار في مسعاه ولابد، إلا من

---

(٩) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٧٧٨)، والطبراني في «الصغير» (٥٠٧/ الروض)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وضعفه العلامة الألباني في «الضعيفة» (١٦٣٤).

استثنى الله في هذه السورة، وهو من قام بهذه الخصال: الإيمان بالله، والعمل الصالح في نفسه، وأمر غيره به، والصبر على ما ناله فيه.

□ قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾

● استثنى سبحانه وتعالى الذين آمنو فإنهم ليسوا في خسر، ففيه ما يوجب الجد والاجتهاد في معرفة الإيمان و التزامه، وفيه العلم، فإنه لا يمكن العمل بدون علم، وفيه حياة الإنسان.

□ قوله: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾

● أي: ليسوا في خسر، بل فازوا وربحوا؛ لأنهم اشتروا الآخرة الباقية بالدنيا الفانية، وفيه الحض على العلم، فإن العامل بغير علم ليس من عمله على طائل، وفيه العمل وهو ثمرة العلم.

□ قوله: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾

● أوصى بعضهم بعضًا بالإيمان بالله وتوحيده، وبالكتاب والسنة والعمل بما فيهما، ومنه الدعوة إليه.

□ قوله: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾

● أي: على أداء الفرائض، وإقامة أمر الله وحدوده، ويدخل فيه الحق الواجب والمستحب، وفيه الصبر على الأذى فيه، فإن من قام بالدعوة إلى الله فلابد أن يحصل له من الأذى بحسب ما قام به. وفي هذه السورة الكريمة التنبيه على أن جنس الإنسان كله في خسار إلا من استثنى الله، وهو من كمل قوته العلمية بالإيمان بالله، وقوته العملية بالطاعات، فهذا كماله في نفسه، ثم كمل غيره بوصيته له بذلك وأمره به، وبملاك ذلك وهو الصبر، وهذا غاية الكمال. ومعنى ذلك في القرآن كثير، وقال ابن القيم: جهاد النفس أربع مراتب:

أحدها: أن يجاهدها على تعلم الهدى ودين الحق الذي لا فلاح لها ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا به، ومتى فاتها علمه شقيت في الدارين.

الثانية: أن يجاهدها على العمل به بعد علمه، وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها.

الثالثة: أن يجاهدها على الدعوة إليه، وتعليمه من لا يعلمه، وإلا كان من الذين

يكتمون ما انزل الله من الهدىٰ والبيّنات، ولا ينفعه علمه، ولا ينجيه من عذاب الله.

الرابعة: أن يجاهدها على الصبر علىٰ مشاق الدعوة إلىٰ الله وأذىٰ الخلق، ويتحمل ذلك كله لله.

فإذا استكمل هذه المراتب الأربع؛ صار من الربانين، فإن السلف مجمعون علىٰ أن العالم لا يستحق أن يسمىٰ ربَّانيًا حتىٰ يعرف الحق ويعمل به، ويعلمه، فمن علم وعمل وعلّم فذلك يدعىٰ عظيمًا في ملكوت السماء.

❑ قوله: (قَالَ الشَّافِعِيُّ رحمه الله تعالَىٰ)

● هو محمد بن إدريس القرشي، الإمام الشهير، المتوفىٰ سنة أربع ومائتين، -رحمه الله تعالىٰ-.

❑ قوله: (لو مَا أَنْزَلَ الله حُجَّةً عَلَىٰ خَلْقِهِ إِلاَّ هَذِهِ السُّورَةَ لَكَفَتْهُمْ)

● لعظم شأنها مع غاية اختصارها، لو فكر الناس فيها لكفتهم، لجمعها للخير بحذافيره، فإنها دلت علىٰ العلم والعمل، فالدعوة إلىٰ الحق، والصبر علىٰ الأذىٰ فيه، فتضمنت جميع مراتب الكمال الإنساني، فهي حقيقة بأن يقال فيها ما قاله هذا الإمام الجليل، وقال شيخ الإسلام: هو كما قال، فإن الله أخبر أن جميع الناس خاسرون إلا من كان في نفسه مؤمنًا صالحًا، ومع غيره موصيًا بالحق موصيًا بالصبر.

❑ قوله: (وقَالَ البُخَارِيُّ رحمه الله تعالَىٰ)

● هو محمد بن إسماعيل، جبل الحفظ، صاحب الصحيح الذي هو أصح الكتب بعد كُتاب الله، المتوفىٰ سنة مائتين وست وخمسين رحمه الله.

❑ قوله: (بَابُ الْعِلْمُ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ)

● ترجم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالبداءة بالعلم؛ لأن تعلم العلم الفرض مقدم علىٰ القول والعمل، وذلك أن قول المرء وعمله لا يصلح إلا إذا صدر عن علم، وفي الحديث: «من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد»[١٠]، وقد قيل:

وكـــل مـــن بغيـــر علـــم يعمـــل ... أعمالـــــه مـــــردودة لا تقبـــــل

وهل تمكن عبادة الله التي هي حقه علىٰ خلقه وخلقهم لها إلا بالعلم؟!

---

(١٠) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨)، من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

□ قوله: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾

● استدل المصنف رحمه الله بهذه الآية الكريمة على وجوب البداءة بالعلم قبل القول والعمل، كما استدل بها البخاري رحمه الله على صحة ما ترجم به، وذلك أن الله تعالى أمر نبيه ﷺ بأمرين: بالعلم ثم بالعمل، والمبدوء به العلم في قوله: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، ثم أعقبه بالعمل في قوله: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾[محمد:١٩]؛ فدل على أن مرتبة العلم مقدمة على مرتبة العمل، وأن العلم شرط في صحة القول والعمل، فلا يعتبر إلا به، فهو مقدم عليهما؛ لأنه مصحح النية المصححة للعمل.

□ قوله: (فَبَدَأَ بِالْعِلْمِ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ)

● حيث قال: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ثم قال: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾، ولا يبدأ إلا بالأهم فالأهم، وقال ﷺ: «ابدأوا بما بدأ الله به»[١١].

قال العلامة العثيمين:

□ قوله: (بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ)

● ابتدأ المؤلف رحمه الله كتابه بالبسملة اقتداء بكتاب الله ﷻ فإنه مبدوء بالبسملة، واتباعًا لحديث: «**كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله فهو أبتر**». واقتداءً بالرسول ﷺ، فإنه يبدأ كتبه بالبسملة.

الجار والمجرور: متعلق بمحذوف فعل مؤخر مناسب للمقام تقديره: باسم الله أكتب أو أصنف.

وقدرناه فعلًا؛ لأن الأصل في العمل الأفعال.

وقدرناه مؤخرًا لفائدتين:

الأولى: التبرك بالبداءة باسم الله سبحانه وتعالى.

الثانية: إفادة الحصر؛ لأن تقديم المتعلق يفيد الحصر.

وقدرناه مناسبًا؛ لأنه أدل على المراد فلو قلنا مثلاً عندما نريد أن نقرأ كتابًا: باسم الله نبتدئ، ما يدرى بماذا نبتدئ، لكن باسم الله أقرأ يكون أدل على المراد

---

(١١) أخرجه مسلم (١٢١٨)، وأبو داود (١٩٠٥)، وغيرهما من حديث جابر رضي الله عنه.

الذي أبتدئ به.

«الله»: علم علَىٰ الباري جل وعلا وهو الاسم الذي تتبعه جميع الأسماء حتىٰ إنه في قوله تعالَىٰ: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ۝٢ ﴾ [إبراهيم: ١، ٢]، لا نقول: إن لفظ الجلالة: «الله»: صفة بل نقول: هي عطف بيان لئلا يكون لفظ الجلالة تابعًا تبعية النعت للمنعوت.

«الرَّحْمَن»: اسم من الأسماء المختصة بالله ﷻ لا يطلق علَىٰ غيره والرحمن معناه المتصف بالرحمة الواسعة.

«الرَّحِيم»: يطلق علَىٰ الله ﷻ وعلَىٰ غيره، ومعناه: ذو الرحمة الواصلة، فالرحمن: ذو الرحمة الواسعة، والرحيم ذو الرحمة الواصلة فإذا جمعا؛ صار المراد بالرحيم: الموصل رحمته إلَىٰ من يشاء من عباده كما قال الله تعالَىٰ: ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ ۝٢١ ﴾ [العنكبوت: ٢١]

❏ قوله: (اعْلَمْ)

● العلم: هو إدراك الشيء علَىٰ ما هو عليه إدراكًا جازمًا.

مراتب الإدراك ست:

الأولَىٰ: العلم: وهو إدراك الشيء علَىٰ ما هو عليه إدراكًا جازمًا.

الثانية: الجهل البسيط: وهو عدم الإدراك بالكلية.

الثالثة: الجهل المركب: وهو إدراك الشيء علَىٰ وجه يخالف ما هو عليه.

الرابعة: الوهم: وهو إدراك الشيء مع احتمال ضد راجح.

الخامسة: الشك: وهو إدراك الشيء مع احتمال مساوٍ.

السادسة: الظن: وهو إدراك الشيء مع احتمال ضد مرجوح.

والعلم ينقسم إلَىٰ قسمين: ضروري ونظري.

فالضروري: ما يكون إدراك المعلوم فيه ضروريًّا بحيث يضطر إليه من غير نظر ولا استدلال كالعلم بأن النار حارة مثلًا.

والنظري: ما يحتاج إلَىٰ نظر واستدلال؛ كالعلم بوجوب النية في الوضوء.

قوله: (رَحِمَكَ الله)

أفاض عليك من رحمته التي تحصل بها علىٰ مطلوبك وتنجو من محذورك، فالمعنىٰ غفر الله لك ما مضىٰ من ذنوبك، ووفقك وعصمك فيما يستقبل منها، هذا إذا أفردت الرحمة، أما إذا قرنت بالمغفرة فالمغفرة لما مضىٰ من الذنوب، والرحمة والتوفيق للخير والسلامة من الذنوب في المستقبل.

وصنيع المؤلف -رحمه الله تعالىٰ- يدل علىٰ عنايته وشفقته بالمخاطب وقصد الخير له.

قوله: (يَجِبُ عَلَيْنَا تَعَلُّمُ أَرْبَعِ مَسَائِلَ)

هذه المسائل التي ذكرها المؤلف -رحمه الله تعالىٰ- تشمل الدين كله فهي جديرة بالعناية لعظم نفعها.

قوله: (وَهُوَ: مَعْرِفَةُ اللهِ)

أي: معرفة الله ﷻ بالقلب معرفة تستلزم قبول ما شرعه والإذعان والانقياد له، وتحكيم شريعته التي جاء بها رسوله محمد ﷺ ويتعرف العبد علىٰ ربه بالنظر في الآيات الشرعية في كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ.

والنظر في الآيات الكونية التي هي المخلوقات، فإن الإنسان كلما نظر في تلك الآيات ازداد علمًا بخالقه ومعبوده قال الله ﷻ: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١].

قوله: (ومَعْرِفَةُ نَبِيِّه)

أي: معرفة رسوله محمد ﷺ المعرفة التي تستلزم قبول ما جاء به من الهدىٰ ودين الحق، وتصديقه فيما أخبر، وامتثال أمره فيما أمر، واجتناب ما نهىٰ عنه وزجر، وتحكيم شريعته والرضا بحكمه قال الله ﷻ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النور: ٥١]، وقال تعالىٰ: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء: ٥٩]، وقال ﷻ: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور: ٦٣]. قال الإمام أحمد رحمه الله:

«أتدري ما الفتنة؟ الفتنة الشرك، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك».

❑ قوله: (ومَعْرِفَةُ دِيْنِ الإِسْلاَمِ)

●الإسلام بالمعنى العام هو التعبد لله بما شرع منذ أن أرسل الله الرسل إلى أن تقوم الساعة كما ذكر الله ﷻ ذلك في آيات كثيرة تدل على أن الشرائع السابقة كلها إسلام لله ﷻ. قال الله تعالى عن إبراهيم: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾[البقرة:١٢٨].

والإسلام بالمعنى الخاص بعد بعثة النبي ﷺ يختص بما بعث به محمد ﷺ؛ لأن ما بعث به النبي ﷺ نسخ جميع الأديان السابقة فصار من اتبعه مسلمًا ومن خالفه ليس بمسلم، فأتباع الرسل مسلمون في زمن رسلهم، فاليهود مسلمون في زمن موسى ﷺ، والنصارى مسلمون في زمن عيسى ﷺ، وأما حين بعث النبي محمد ﷺ فكفروا به فليسوا بمسلمين.

وهذا الدين الإسلامي هو الدين المقبول عند الله النافع لصاحبه، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾[آل عمران:١٩]، وقال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾[آل عمران:٨٥] وهذا الإسلام هو الإسلام الذي امتن الله به على محمد ﷺ وأمته، قال الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[المائدة:٣].

❑ قوله: (بالأَدِلَّةِ)

●جمع دليل، وهو ما يرشد إلى المطلوب، والأدلة على معرفة ذلك سمعية، وعقلية، فالسمعية ما ثبت بالوحي وهو الكتاب والسنة، والعقلية ما ثبت بالنظر والتأمل، وقد أكثر الله ﷻ من ذكر هذا النوع في كتابه فكم من آية قال الله فيها: ومن آياته كذا وكذا وهكذا يكون سياق الأدلة العقلية الدالة على الله تعالى.

وأما معرفة النبي ﷺ بالأدلة السمعية، فمثل قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾[الفتح:٢٩] الآية. وقوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾[آل عمران:١٤٤] وبالأدلة العقلية؛ بالنظر والتأمل فيما أتى به من الآيات البينات التي أعظمها كتاب الله ﷻ المشتمل على الأخبار الصادقة النافعة والأحكام المصلحة العادلة، وما جرى على يديه من خوارق العادات، وما أخبر به من أمور الغيب التي لا تصدر إلا عن وحي والتي صدقها ما وقع منها.

❑ قوله: (الثَّانِيةُ العَمَلُ بِهِ)

●أي: العمل بما تقتضيه هذه المعرفة من الإيمان بالله والقيام بطاعته بامتثال أوامره واجتناب نواهيه من العبادات الخاصة، والعبادات المتعدية، فالعبادات الخاصة مثل الصلاة، والصوم، والحج، والعبادات المتعدية كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله وما أشبه ذلك.

والعمل في الحقيقة هو ثمرة العلم، فمن عمل بلا علم فقد شابه النصارىٰ، ومن علم ولم يعمل فقد شابه اليهود.

❑ قوله: (الثَّالِثَةُ: الدَّعْوَةُ إِلَيْهِ)

●أي: الدعوة إلَىٰ ما جاء به الرسول ﷺ من شريعة الله تعالَىٰ علَىٰ مراتبها الثلاث أو الأربع التي ذكرها الله ﷻ في قوله: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[النحل:١٢٥]، والرابعة قوله: ﴿وَلَا تُجَـٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ﴾[العنكبوت:٤٦].

ولابد لهذه الدعوة من علم بشريعة الله ﷻ حتىٰ تكون الدعوة عن علم وبصيرة. لقوله تعالَىٰ: ﴿قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾[يوسف:١٠٨]، والبصيرة تكون فيما يدعو إليه بأن يكون الداعية عالمًا بالحكم الشرعي، وفي كيفية الدعوة، وفي حال المدعو.

ومجالات الدعوة كثيرة؛ منها: الدعوة إلَىٰ الله تعالَىٰ بالخطابة، وإلقاء المحاضرات، ومنها الدعوة إلَىٰ الله بالمقالات، ومنها الدعوة إلَىٰ الله بحلقات العلم، ومنها: الدعوة إلَىٰ الله بالتأليف ونشر الدين عن طريق التأليف، ومنها: الدعوة إلَىٰ الله في المجالس الخاصة، فإذا جلس الإنسان في مجلس في دعوة مثلًا فهذا مجال للدعوة إلَىٰ الله ﷻ، ولكن ينبغي أن تكون علَىٰ وجه لا ملل فيه ولا إثقال، ويحصل هذا بأن يعرض الداعية مسألة علمية علَىٰ الجالسين، ثم تبتدئ المناقشة، ومعلوم أن المناقشة والسؤال والجواب له دور كبير في فهم ما أنزل الله علَىٰ رسوله وتفهيمه، وقد يكون أكثر فعالية من إلقاء خطبة أو محاضرة إلقاءً مرسلًا كما هو معلوم.

والدعوة إلَىٰ الله ﷻ هي وظيفة الرسل عليهم الصلاة والسلام وطريقة من تبعهم

بإحسان، فإذا عرف الإنسان معبوده، ونبيه، ودينه ومَنَّ الله عليه بالتوفيق لذلك فإن عليه السعي في إنقاذ إخوانه بدعوتهم إلَىٰ اللهﷻ وليبشر بالخير، قال النبيﷺ لعلي بن أبي طالبرضي الله عنه يوم خيبر: «انفذ علَىٰ رسلك حتىٰ تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلَىٰ الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالَىٰ فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حمر النعم»[١٢]. متفق علَىٰ صحته. ويقولﷺ فيما رواه مسلم: «من دعا إلَىٰ هدىٰ كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلَىٰ ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا»[١٣]. وقالﷺ فيما رواه مسلم أيضًا: «من دل علَىٰ خير فله مثل أجر فاعله»[١٤].

قوله: (الرَّابِعَةُ: الصَّبْرُ عَلَىٰ الأَذَىٰ فِيهِ)

●الصبر: حبس النفس علَىٰ طاعة الله، وحبسها عن معصية الله، وحبسها عن التسخط من أقدار الله فيحبس النفس عن التسخط والتضجر والملل، ويكون دائمًا نشيطًا في الدعوة إلَىٰ دين الله وإن أوذي، لأن أذية الداعين إلَىٰ الخير من طبيعة البشر إلا من هدىٰ الله قال الله تعالَىٰ لنبيهﷺ: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾[الأنعام:٣٤]، وكلما قويت الأذية قرب النصر، وليس النصر مختصًّا بأن ينصر الإنسان في حياته ويرىٰ أثر دعوته قد تحقق بل النصر يكون ولو بعد موته بأن يجعل الله في قلوب الخلق قبولًا لما دعا إليه وأخذًا به وتمسكًا به فإن هذا يعتبر نصرًا لهذا الداعية وإن كان ميتًا، فعلَىٰ الداعية أن يكون صابرًا علَىٰ دعوته مستمرًّا فيها، صابرًا علَىٰ ما يدعو إليه من دين اللهﷻ، صابرًا علَىٰ ما يعترض دعوته، صابرًا علَىٰ ما يعترضه هو من الأذىٰ، وها هم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أوذوا بالقول وبالفعل قال الله تعالَىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢﴾[الذاريات:٥٢] وقالﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾[الفرقان:٣١] ولكن علَىٰ الداعية أن يقابل ذلك بالصبر، وانظر إلَىٰ قول اللهﷻ لرسولهﷺ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ۝٢٣﴾[الإنسان:٢٣]. كان من المنتظر أن يقال: فاشكر نعمة ربك ولكنهﷻ قال: ﴿فَاصْبِرْ

(١٢) أخرجه البخاري (٣٧٠١)، ومسلم (٢٤٠٦)، وغيرهما من حديث سهل بن سعدرضي الله عنه.

(١٣) أخرجه مسلم (٢٦٧٤)، وأبو داود (٤٦٠٩)، وغيرهما من حديث أبي هريرةرضي الله عنه.

(١٤) أخرجه مسلم (١٨٩٣)، وأبو داود (٥١٢٩)، وغيرهما من حديث أبي مسعود الأنصاريرضي الله عنه.

لِحُكۡمِ رَبِّكَ ﴾ [الإنسان:٢٤] وفي هذا إشارة إلَىٰ أنَّ كل من قام بهذا القرآن فلابد أن يناله مما يحتاج إلَىٰ صبر، وانظر إلَىٰ حال النبي ﷺ حين ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[١٥]. فعلَىٰ الداعية أن يكون صابرًا محتسبًا.

والصبر ثلاثة أقسام:

١- صبر علَىٰ طاعة الله.

٢- صبر عن محارم الله.

٣- صبر علَىٰ أقدار الله التي يجريها؛ إما مما لا كسب للعباد فيه، وإما مما يجريه الله علَىٰ أيدي بعض العباد من الإيذاء والاعتداء.

قوله: (وَالدَّلِيلُ قوله تعالَىٰ: ﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ١ ﴾)

● أي علَىٰ هذه المراتب الأربع قوله تعالَىٰ: ﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ١ ﴾ أقسم الله ﷻ في هذه السورة بالعصر الذي هو الدهر وهو محل الحوادث من خير وشر، فأقسم الله ﷻ به علَىٰ أن الإنسان كل الإنسان في خسر إلا من اتصف بهذه الصفات الأربع: الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر.

قال ابن القيم - رحمه الله تعالَىٰ-: جهاد النفس أربع مراتب:

إحداها: أن يجاهدها علَىٰ تعلم الهدىٰ ودين الحق الذي لا فلاح لها ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا به.

الثانية: أن يجاهدها علَىٰ العمل به بعد علمه.

الثالثة: أن يجاهدها علَىٰ الدعوة إليه وتعليمه من لا يعلمه.

الرابعة: أن يجاهدها علَىٰ الصبر علَىٰ مشاق الدعوة إلَىٰ الله وأذىٰ الخلق ويتحمل ذلك كله لله، فإذا استكمل هذه المراتب الأربع صار من الربانيين.

فالله ﷻ أقسم في هذه السورة بالعصر علَىٰ أن كل إنسان فهو في خيبة وخسر مهما كثر ماله وولده وعظم قدره وشرفه إلا من جمع هذه الأوصاف الأربعة:

أحدها: الإيمان ويشمل كل ما يقرب إلَىٰ الله تعالَىٰ من اعتقاد صحيح وعلم نافع.

الثاني: العمل الصالح وهو كل قول أو فعل يقرب إلَىٰ الله بأن يكون فاعله لله مخلصًا

---

(١٥) أخرجه البخاري (٣٤٧٧)، ومسلم (١٧٩٢)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

ولمحمد ﷺ متبعًا.

الثالث: التواصي بالحق وهو التواصي علَىٰ فعل الخير والحث عليه والترغيب فيه.

الرابع: التواصي بالصبر بأن يوصي بعضهم بعضًا بالصبر علَىٰ فعل أوامر الله تعالَىٰ، وترك محارم الله، وتحمل أقدار الله.

والتواصي بالحق والتواصي بالصبر يتضمنان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اللذين بهما قوام الأمة وصلاحها ونصرها وحصول الشرف والفضيلة لها: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

❑ قوله: (قَالَ الشَّافِعِيُّ رحمه الله تعالَىٰ)

●هو أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع الهاشمي القرشي، ولد في غزة سنة ١٥٠ هـ وتوفي بمصر سنة ٢٠٤ هـ وهو أحد الأئمة الأربعة علَىٰ الجميع رحمة الله تعالَىٰ.

❑ قوله: (لو مَا أَنْزَلَ الله حُجَّةً عَلَىٰ خَلْقِهِ إلاَّ هَذِهِ السُّورَة لَكَفَتْهُمْ)

●مراده رَحِمَهُ اللَّهُ أن هذه السورة كافية للخلق في الحث علَىٰ التمسك بدين الله بالإيمان، والعمل الصالح، والدعوة إلَىٰ الله، والصبر علَىٰ ذلك، وليس مراده أن هذه السورة كافية للخلق في جميع الشريعة، وقوله: (لو مَا أَنْزَلَ الله حُجَّةً عَلَىٰ خَلْقِهِ إلاَّ هَذِهِ السُّورَة لَكَفَتْهُمْ)؛ لأن العاقل البصير إذا سمع هذه السورة أو قرأها فلا بد أن يسعىٰ إلَىٰ تخليص نفسه من الخسران وذلك باتصافه بهذه الصفات الأربع: الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر.

❑ قوله: (وقَالَ البُخَارِيُّ رحمه الله تعالَىٰ)

● هو أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، ولد ببخارىٰ في شوال سنة أربعة وتسعين ومائة ونشأ يتيمًا في حجر والدته، وتوفي رَحِمَهُ اللَّهُ في خرتنك بلدة علَىٰ فرسخين من سمرقند ليلة عيد الفطر سنة ست وخمسين ومائتين.

❑ قوله: (بابُ الْعِلْمُ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ)

●استدل البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ بهذه الآية علَىٰ وجوب البداءة بالعلم قبل القول والعمل

وهذا دليل أثري يدل علَىٰ أن الإنسان يعلم أولًا ثم يعمل ثانيًا، وهناك دليل عقلي نظري يدل علَىٰ أن العلم قبل القول والعمل وذلك لأن القول أو العمل لا يكون صحيحًا مقبولًا حتىٰ يكون علَىٰ وفق الشريعة، ولا يمكن أن يعلم الإنسان أن عمله علَىٰ وفق الشريعة إلا بالعلم، ولكن هناك أشياء يعلمها الإنسان بفطرته كالعلم بأن الله إله واحد فإن هذا قد فطر عليه العبد ولهذا لا يحتاج إِلَىٰ عناء كبير في التعلم، أما المسائل الجزئية المنتشرة فهي التي تحتاج إِلَىٰ تعلم وتكريس جهود.

قال العلامة الفوزان:

❑ قوله: (بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ)

ابتدأ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الرسالة بالبسملة اقتداءً بكتاب الله ﷻ، فإن أول ما يقع عليه بصرك في المصحف، وقبل كل سورة منه: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

فالبداءة بها في الرسائل، وفي الكتب، وفي المؤلفات اقتداءً بكتاب الله ﷻ، وكذلك النبي ﷺ كان يكتبها في أول رسائله حينما يكتب إلىٰ الأمراء والرؤساء، وإلىٰ من في أقطار الأرض يدعوهم إلىٰ الإسلام، يبدأ كتابته بـ «بسم الله الرحمن الرحيم».

وكان ﷺ يفتتح أحاديثه وكلامه بـ «بسم الله الرحمن الرحيم»، مما يدل علىٰ أن البداءة بـ «بسم الله الرحمن الرحيم» سنة الرسول ﷺ، كما أن سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما كتب إلىٰ بلقيس ملكة سبأ بدأ كتابه بـ «بسم الله الرحمن الرحيم»: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ۝٢٩ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ۝٣١﴾ [النمل:٢٩-٣١]

ينبغي البدء بـ «بسم الله الرحمن الرحيم» في كل أمر له أهمية، وكل مؤلَّف له أهمية، وله قيمة، وكل رسالة.

وعلىٰ هذا فالذين لا يبدءون مؤلفاتهم ورسائلهم بـ «بسم الله الرحمن الرحيم»؛ هؤلاء تركوا السنة النبوية، والاقتداء بكتاب الله ﷻ، وربما بسبب ذلك أن كتبهم هذه ورسائلهم ليس فيها بركة وليس فيها فائدة؛ لأنها إذا خلت من «بسم الله الرحمن الرحيم»، فإنها منزوعة الفائدة.

لماذا تركوا «بسم الله الرحمن الرحيم»؟ إنما تركوها لأنها سُنة، وهم يَنْفِرون من السنة، أو يقلدون من ينفر من السنة، فينبغي التنبه لمثل هذا.

فمعنىٰ «بسم الله الرحمن الرحيم»: الاستعانة باسم الله.

فقوله: بسم الله: جار ومجرور متعلق بمحذوف، تقديره: أستعين بسم الله الرحمن الرحيم، أو أبتدئ بـ «بسم الله الرحمن الرحيم» تبركًا بها واستعانة بالله ﷻ.

فهي مطلع عظيم للكلام وللكتب والرسائل، فالإنسان يستعين بالله في بدايتها ويتبرَّك باسمه سبحانه وتعالىٰ.

❑قوله: (اعْلَمْ)

●كلمة تشير إلىٰ الاهتمام بالموضوع فإذا قال: اعلم؛ فمعناه: أن الأمر الذي سيلقيه عليك أمر مهم، فهذه الكلمة تدل علىٰ أهمية الموضوع التي يبدأ بها فيه.

ومعنىٰ اعلم: فعل أمر من العلم؛ أي: تعلم، والعلم: هو إدراك الشيء علىٰ ما هو عليه في الواقع أو تصور الشيء علىٰ طبق الواقع.

وإدراك الشيء علىٰ خلاف ما هو عليه في الواقع، أو تصور الشيء علىٰ خلاف الواقع فهو الجهل وهو ضدُّ العلم.

❑قوله: (رَحِمَكَ الله)

● هذا دعاء لطالب العلم، فالشيخ يدعو لطلبة العلم بأن يرحمهم الله، وأن يلقي عليهم رحمته -سبحانه وتعالىٰ- فهذا فيه التلطُّف من المعلِّم بالمتعلِّم، وأنه يبدأ بالكلام الطيب والدعاء الصالح حتىٰ يؤثر ذلك فيه، ويقبل علىٰ معلمه، أما إذا بدأ المعلم بالكلام القاسي والكلام غير المناسب، فإن هذا يُنفِّره.

فالواجب علىٰ المعلِّم وعلىٰ من يدعو إلىٰ الله، وعلىٰ من يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر التلطف بمن يخاطبه بالدعاء والثناء عليه والكلام اللَّين فإن هذا أدعىٰ للقبول.

أما المعاند والمكابر فإن هذا له خطاب آخر قال الله سبحانه: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ۝٤٦﴾[العنكبوت:٤٦].

فالذين ظلموا من أهل الكتاب وعاندوا وكابروا هؤلاء لا يخاطبون بالتي هي أحسن بل يخاطبون بما يردعهم، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝٧٣﴾[التوبة:٧٣]، المنافقون لا يجاهدون بالسلاح، وإنما يجاهدون بالحجة والكلام والرد عليهم بالغلظة ردعًا لهم وتنفيرًا للناس عنهم، وقال تعالىٰ فيهم: ﴿وَقُل

﴿لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ۝﴾[النساء:٦٣]، هؤلاء لهم خطاب خاص؛ لأنهم أهل عناد ومكابرة ولا يريدون الحق بل يريدون تضليل الناس فهؤلاء يخاطبون بما يليق بهم.

أما الطالب المسترشد فهذا يخاطب بالرفق والرحمة واللطف؛ لأنه يريد الحق ويريد العلم والفائدة.

❑قوله: (اعْلَمْ رَحِمَكَ الله)

● دعاء لك بالرحمة، فإذا رحمك الله، فإنك تكون سعيدًا بها في الدنيا والآخرة، إذا دخلت في رحمة الله، وهذا دعاء ومن عالم جليل، ورجل صالح يرجىٰ له القبول إن شاء الله.

❑قوله: (يَجِبُ)

●الواجب: هو ما يثاب فاعله ويعاقب تاركه، والمستحب: هو ما يثاب فاعله ولا يعاقب تاركه، والمباح: لا ثواب في فعله ولا عقاب في تركه.

فقوله: (يجب)، يعني: أن هذا الأمر ليس من المستحب، ولا من المباح؛ بل هو من الواجب العيني.

فإذا تركنا تعلُّمَ هذه المسائل فإننا نأثم لأن هذا شأن الواجب، لم يقل: يستحب لنا أو يستحسن لنا، بل قال: يجب علينا وجوبًا، والوجوب معناه: الحتم، من تركه يأثم، ولأن العلم لا يحصل عليه إلا بالتعلم، والتعلم يحتاج إلىٰ عناية وجهد ووقت، ويحتاج إلىٰ فهم وإلىٰ حضور قلب، هذا هو التعلم.

❑قوله: (أَرْبَعِ مَسَائِلَ)

●يعني: مباحث، سميت مسائل؛ لأنها يجب أن يُسأل عنها، وأن يُعنىٰ بها.

❑قوله: (العِلْمُ)

● المراد بالعلم هنا: هو العلم الشرعي؛ لأنه هو الذي يجب تعلمه، وهذه المسائل يجب تعلمها علىٰ كل مسلم من ذكر أو أنثىٰ، أو حرٍّ أو عبدٍ، أو غني أو فقير، أو ملك أو صعلوك، كل مسلم يجب عليه أن يتعلم هذه المسائل الأربع.

وهذا ما يسميه العلماء بـ«الواجب العَيْنِيِّ»، وهو الذي يجب علىٰ كل أحد من المسلمين، فالصلوات الخمس علىٰ الرجال والنساء، وصلاة الجماعة في المساجد علىٰ الرجال، هذا واجب علىٰ كل فرد من المسلمين أن يتعلمها؛ ولذلك قال: يجب علينا، ولم يقل: يجب علىٰ بعضنا، وإنما قال: يجب علينا، يعني: معشر المسلمين، فهذا من العلم

الذي يجب تعلمه على الأعيان؛ لأن العلم على قسمين:

الأول: ما يجب تعلُّمه على الأعيان، فلا يُعذَرُ أحد بجهله، وهو ما لا يستقيم الدين إلا به، مثل أركان الإسلام الخمسة التي هي: الشهادتان، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج بيت الله الحرام، لا يجوز لمسلم أن يجهلها، بل لابدَّ أن يتعلمها.

لأن تعلم معنى الشهادتين: إنما هو تعلم العقيدة، يتعلم المسلم العقيدة من أجل العمل بها، ويتعلم ما يضادها من أجل أن يتجنبه، هذا مضمون الشهادتين.

كذلك يتعلم أركان الصلاة، وشروط الصلاة، وواجبات الصلاة، وسنن الصلاة، لابد أن يتعلم بالتفصيل هذه الأمور، ليس مجرد أنه يصلي وهو لا يعرف أحكام الصلاة. كيف يعمل الإنسان عملًا وهو لا يعلم هذا العمل الذي يؤديه؟ كيف يؤدي الصلاة وهو جاهل بأحكامها؟ فلا بد أن يتعلم أحكام الصلاة، ومبطلات الصلاة، لا بد من تعلم هذا.

كذلك يتعلم أحكام الزكاة، ويتعلم أحكام الصيام، ويتعلم أحكام الحج، فإذا أراد أن يحُج وَجبَ عليه تعلم أحكام الحج، وأحكام العمرة، من أجل أن يؤدي هذه العبادات على الوجه المشروع.

وهذا القسم لا يعذر أحد بجهله، وهو ما يسمى: بالواجب العيني على كل مسلم.

القسم الثاني من أقسام العلم: فهو ما زاد عن ذلك من الأحكام الشرعية التي تحتاجها الأمة بمجموعها، وقد لا يحتاجه كل أحد بعينه مثل: أحكام البيع، وأحكام المعاملات، وأحكام الأوقاف، والمواريث، والوصايا، وأحكام الأنكحة، وأحكام الجنايات، هذه لا بدَّ منها للأمة؛ لكن لا يجب على كل فرد من الأمة أن يتعلمها؛ بل إذا تعلمها من يحصل به المقصود من العلماء كفى هذا؛ ليقوموا بحاجة المسلمين من قضاء، وإفتاء، وتعليم وغير ذلك، هذا يسمى واجب الكفاية الذي إذا قام به من يكفي سقط الإثم عن الباقين، وإذا تركه الجميع أثموا جميعًا.

فلابد للأمة من أناس يتعلمون هذا القسم؛ لأنهم بحاجة إليه، لكن ما يقال لكل واحد: يجب عليك أن تتفقه في هذه الأبواب؛ لأنه قد لا يتأتى هذا لكل أحد، وإنما يختص هذا بأهل القدرة، وأهل الاستطاعة من الأمة؛ ولأنه إذا تعلم هذا بعضُ الأمة قام بالواجب، بخلاف القسم الأول فكل واحد مسئول عنه في نفسه؛ لأنه لا يمكن أن يعمل هذه الأعمال إلا عن علم؛ ولهذا قال الشيخ: يجب علينا، ولم يقل: يجب على المسلمين، أو يجب على بعضهم، بل قال: يجب علينا؛ أي: على كل واحد منا وجوبًا عينيًّا.

ولنعلم -أيضًا- قبل الدخول في المسائل: أن المراد بالعلم الذي يجب على الأمة إما وجوبًا عينيًا، أو كفائيًا، أنه العلم الشرعي الذي جاء به الرسول ﷺ.

أما العلم الدنيوي كعلم الصناعات، والحِرَف، والحساب، والرياضيات، والهندسة، فهذا العلم مباح، يباح تعلمه، وقد يجب إذا احتاجت الأمة إليه، يجب على من يستطيع؛ لكن ليس هو العلم المقصود في القرآن والسنة، والذي أثنى الله -تعالى- على أهله ومدحهم، والذي قال فيه النبي ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء»[١٦]، المراد: العلم الشرعي.

وأما العلم الدنيوي فمن جهلَه فلا إثم عليه، ومن تعلَّمه فهو مباح له، وإذا نفع به الأمة فهو مأجور عليه ومثاب عليه، ولو مات الإنسان وهو يجهل هذا العلم لم يؤاخذ عليه يوم القيامة، لكن من مات، وهو يجهل العلم الشرعي خصوصًا العلم الضروري، فإنه يسأل عنه يوم القيامة، لِمَ لَمْ تتعلم؟ لماذا لَمْ تسأل؟ الذي يقول: إذا وضع في قبره: ربي الله والإسلام ديني ونبيي محمد ﷺ هذا ينجو، يقال له: من أين حصَّلت هذا؟ يقول: قرأت كتاب الله وتعلمته.

أما الذي أعرض عن ذلك؛ فإنه إذا سئل في قبره فإنه يقول: هاه هاه لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته، فهذا يؤجج عليه قبره نارًا -والعياذ بالله- ويضيِّق عليه فيه حتى تختلف أضلاعه، ويصبح في حفرة من حفر النار؛ لأنه ما درى وما تلا فيقال له: «لا دريت ولا تليت، -أو: لا تلوت-»[١٧] فهو لم يتعلم، ولم يَقْتَدِ بأهل العلم، وإنما هو ضائع في حياته، فهذا الذي يئول إلى الشَّقاء، والعياذ بالله.

فقوله: (العلم): هذا هو العلم الشرعي المطلوب منا جماعةً وأفرادًا، وهو معرفة الله بأسمائه وصفاته، ومعرفة حقه علينا، وهو عبادته وحده لا شريك له، فأولُ ما يجب على العبد هو معرفةُ ربه ﷻ وكيف يعبده.

❑ قوله: (وَهُوَ: مَعْرِفَةُ اللهِ)

● كيف يعرف العبد ربه؟ يعرفه بآياته ومخلوقاته، فمن آياته: الليل والنهار، ومن مخلوقاته الشمس والقمر، كما يأتي بيان هذا -إن شاء الله-.

---

(١٦) أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وغيرهم من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، وصححه العلامة الألباني في «صحيح الجامع» (٦٢٩٧).

(١٧) أخرجه البخاري (١٣٣٨)، و(١٣٧٠) مختصرًا، وغيرهما من حديث أنس رضي الله عنه.

يعرف الله بآياته الكونية وآياته القرآنية، إذا قرأ القرآن، عرف الله -سبحانه وتعالى- أنه هو الذي خلق السماوات والأرض، وأنه هو الذي سخر ما في السماوات والأرض، وأنه هو الذي يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير، وأنه الرحمن الرحيم، فالقرآن يعرف بالله، ﷻ وأنه هو الذي أنعم علينا بجميع النعم، وأنه هو الذي خلقنا ورزقنا، فإذا قرأت القرآن عرفت ربك -سبحانه وتعالى- بأسمائه وصفاته وأفعاله.

وإذا نظرت في الكون عرفت ربك -سبحانه وتعالى- أنه هو الذي خلق هذا الخلق، وسَخَّر هذا الكون وأجراه بحكمته وعلمه -سبحانه وتعالى-، هذا هو العلم بالله ﷻ.

❑قوله: (ومَعْرِفَةُ نَبِيِّه)

● هو محمد ﷺ لأنه هو المبلغ عن الله ﷻ، وهو الواسطة بيننا وبين الله ﷻ في تبليغ الرسالة، لا بد أن تعرفه، تعرف من هو؟ وتعرف نسبه وتعرف بلده، وتعرف ما جاء به ﷺ تعرف كيف بدأه الوحي؟ وكيف قام بالدعوة إلى الله ﷻ في مكة والمدينة، تعرف سيرة الرسول ﷺ ولو باختصار.

الرسول ﷺ هو: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف إلى آخر النسب النبوي الذي ينتهي إلى إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، وتعرف كيف عاش قبل البعثة، وكيف جاء الوحي من الله ﷻ، وماذا عمل -عليه الصلاة والسلام- بعد بعثته، تعرف ذلك بدراسة سيرته ﷺ ولا يليق بالمسلم أن يجهل الرسول ﷺ كيف تتبع شخصًا، وأنت لا تعرفه؟! هذا غير معقول.

❑قوله: (ومَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلَامِ)

● الذي هو دين هذا الرسول ﷺ بل هو دين الله ﷻ الذي أمر به عباده، والذي أمرك باتباعه، وأنت مطالب به لا بدَّ أن تعرف هذا الدين، والإسلام هو دين جميع الرسل.

كل الرسل دينهم الإسلام بالمعنى العام، فكل من اتبع رسولًا من الرسل، فهو مسلم لله ﷻ منقادًا له، موحد له، هذا الإسلام بمعناه العام، إنه دين الرسل جميعًا، فالإسلام هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص[١٨] من الشرك وأهله.

أما الإسلام بمعناه الخاص: فهو الذي بعث الله به نبيه محمدًا ﷺ لأنه بعد بعثة

---

(١٨) انظر: هامش رقم (١٢٠).

الرسولﷺ لا دين إلا دينه -عليه الصلاة والسلام-، والإسلام انحصر في اتباعهﷺ، فلا يمكن لليهودي أن يقول: أنا مسلم، أو النصراني يقول: أنا مسلم، بعد بعثة النبيﷺ وهو لا يتبعه، فالإسلام بعد بعثة النبي هو اتباعهﷺ قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾[آل عمران:٣١] هذا هو الإسلام بمعناه العام وبمعناه الخاص.

❑قوله: (بالأَدِلَّةِ)

● لا بالتقليد، وإنما بالأدلة من القرآن، ومن السنة؛ هذا هو العلم.

قال ابن القيم في الكافية الشافية:

العلم قال الله قال رسوله ... قال الصحابة هم أولو العرفان

ما العلم نصبك للخلاف سفاهة ... بين الرسول وبين رأي فلان

هذا هو العلم، العلم هو: علم الكتاب والسنة، أما أقوال العلماء فهي تشرح وتوضح فقط كلام الله وكلام رسولهﷺ، وقد يكون فيها أو في بعضهما خطأ، والأدلة ليست كلام العلماء إنما الأدلة هي الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وأما كلام العلماء فهو شارح وموضح ومبين لذلك لا أنه دليل في نفسه.

هذه هي المسألة الأولى، وهي الأساس، بدأ بها الشيخ -رحمه الله-؛ لأنها هي الأساس، وإنما يُبدأ بالعقيدة وبالأساس بالتعلم والتعليم والدعوة إلى اللهﷻ، يبدأ بالعقيدة؛ لأنها هي الأصل وهي الأساس.

❑قوله: (العَمَلُ بِهِ)

● أي بالعلم؛ لأنه لا يكفي أن الإنسان يعلم ويتعلم بل لا بد أن يعمل بعلمه، فالعلم بدون عمل إنما هو حجة على الإنسان، فلا يكون العلم نافعًا إلا بالعمل، أما من عَلِمَ ولم يعمل فهذا مغضوب عليه؛ لأنه عرف الحق وتركه على بصيرة.

والناظم يقول:

وعالم بعلمه لم يعملن ... معذبٌ من قَبل عُبَّاد الوثن

وهذا مذكور في الحديث الشريف: «إن من أول من تسعر بهم النار يوم القيامة، عالم

لم يعمل بعلمه»[١٩] العلم مقرون بالعمل، والعمل هو ثمرة العلم، فعلم بلا عمل كشجرة بلا ثمر، لا فائدة فيها، والعلم إنما أنزل من أجل العمل.

كما أن العمل بدون علم يكون وبالًا وضلالًا على صاحبه، إذا كان الإنسان يعمل بدون علم فإن عمله وبال وتعب على صاحبه، قال ﷺ «من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد»[٢٠].

ولهذا نقرأ في الفاتحة في كل ركعة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة:٦،٧].

فسمى الله الذين يعملون بدون علم: الضالين، والذين يعلمون ولا يعملون: بالمغضوب عليهم، فلنتنبه لذلك فإنه مهم جدًا.

❑قوله: (الدَّعْوَةُ إِلَيْهِ)

●أي: لا يكفي أن يتعلم الإنسان ويعمل في نفسه، ولا يدعو إلى الله ﷻ، بل لا بد أن يدعو غيره،فيكون نافعًا لنفسه، ونافعًا لغيره؛ ولأن هذا العلم أمانة، ليس بملك لك تختزنه وتحرم الناس منه، والناس بحاجة إليه، فالواجب عليك التبليغ والبيان، ودعوة الناس إلى الخير، هذا العلم الذي حمّلك الله إياه ليس وقفًا عليك؛ وإنما هو لك ولغيرك، فلا تحتكره على نفسك وتمنع الناس من الانتفاع به، بل لابد من تبليغه ولا بد من بيانه للناس، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران:١٨٧].

هذا ميثاق أخذه الله على العلماء أن يبينوا للناس ما علّمهم الله من أجل أن ينشروا الخير، ويخرجوا الناس من الظلمات إلى النور، وهذا عمل الرسل –عليهم الصلاة والسلام– ومن اتبعهم، قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٠٨﴾ [يوسف:١٠٨] هذه طريقة الرسول ﷺ وطريقة أتباعه، العلم والعمل والدعوة إلى الله ﷻ فمن لم يدع وهو قادر على الدعوة وعنده وكتمه، فإنه يلجم بلجام من نار يوم القيامة كما في الحديث[٢١].

---

(١٩) أخرجه مسلم (١٩٠٥)، والنسائي (٣١٣٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢٠) سبق تخريجه.

(٢١) أخرجه أبو داود (٣٦٥٨)، والترمذي (٢٦٤٩)، وابن ماجه (٢٦١)، وغيرهم من حديث أبي

□قوله: (الصَّبْرُ عَلَىٰ الأَذَىٰ فِيْهِ)

●معلوم أن من دعا الناس، وأمر بالمعروف، ونهىٰ عن المنكر، فإنه سيتعرض للأذىٰ من الأشرار؛ لأن كثيرًا من الناس لا يريدون الخير؛ بل يريدون الشهوات، والمحرمات والأهواء الباطلة، فإذا جاء من يدعوهم إلىٰ الله، ويردهم عن شهواتهم، فلا بد أن يكون منهم رد فعل بالقول أو بالفعل.

فالواجب علىٰ من يدعو إلىٰ الله، ويريد وجه الله أن يصبر علىٰ الأذىٰ، وأن يستمر في الدعوة إلىٰ الله، وقدوته في ذلك الرسل -عليهم الصلاة والسلام- وخيرتهم وخاتمهم محمد ﷺ.

ماذا لقي من الناس؟ وكم لقي من الأذىٰ بالقول والفعل؟ قالوا: ساحر وكذاب، وقالوا: مجنون، وقالوا فيه من الأقوال التي ذكرها الله ﷻ في القرآن، وتناولوه بالأذىٰ؛ قذفوه بالحجارة حتىٰ أدموا عقبه ﷺ لما دعاهم إلىٰ الله ﷻ، وألقوا سلا جزور علىٰ ظهره، وهو ساجد عند الكعبة، وتوعدوه بالقتل وهدَّدوه، وفي غزوة أحد، جرىٰ عليه وعلىٰ أصحابه ما جرىٰ، عليه الصلاة والسلام، كسروا رباعيته وشجوه في رأسه ﷺ وقع في حفرة، وهو نبي الله، كل هذا أذىٰ في الدعوة إلىٰ الله ﷻ، لكنه صبر وتحمل، وهو أفضل الخلق -عليه الصلاة والسلام-، فلا بد للذي يقوم بهذه الدعوة أن يتعرض للأذىٰ علىٰ حسب إيمانه ودعوته؛ ولكن عليه أن يصبر، ما دام أنه علىٰ حق، فإنه يصبر ويتحمل فهو في سبيل الله وما يناله من الأذىٰ، فهو في كفة حسناته أجر من الله -سبحانه وتعالىٰ.

□قوله: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١﴾

● هذه المسائل الأربع يجب أن تتعلمها بالتفصيل، هل من دليل علىٰ ما قاله الشيخ؟ إن هذه المسائل الأربع يجب علينا تعلمها، وهو وعدنا أنه لا يقول شيئًا إلا بدليل، فأين الدليل؟

قال: الدليل علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر:١-٣]

هذه هي المسألة الأولىٰ: العلم؛ لأن الإيمان لا يكون إلا بعلم، وهو معرفة الله ﷻ ومعرفة نبيه، ومعرفة دين الإسلام بالأدلة.

=

هريرة رضي الله عنه، وصححه العلامة الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

المسألة الثانية: وعملوا الصالحات، هذا العمل بالعلم.

المسألة الثالثة: وتواصوا بالحق، فهذه الدعوة إلى العلم والعمل.

المسألة الرابعة: وتواصوا بالصبر على الأذى في سبيل الدعوة إلى العلم والعمل.

فقوله سبحانه: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ ﴾.

الواو: واو القسم.

والعصر: اسم مقسم به مجرور وعلامة جره الكسرة، والمراد به: الوقت والزمان.

أقسم الله تعالى بالزمان والوقت وهو مخلوق، والله -جل وعلا- يقسم بما شاء من الخلق، والمخلوق لا يقسم إلا بالله، والله لا يقسم إلا بشيء له أهمية، وفيه آية من آياته -سبحانه وتعالى- فهذا الزمان فيه عبرة وله أهمية؛ ولذلك أقسم الله بالعصر، وبالليل إذا يغشى، وأقسم بالضحى.

أما المخلوق فإنه لا يقسم إلا بالله، ولا يجوز لنا أن نحلف بغير الله، قال ﷺ: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»[٢٢].

وقال: «من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت»[٢٣].

فالله يقسم بما شاء، ولا يقسم إلا بما له أهمية، وفيه عبرة، ما هي العبرة في هذا الزمان؟ العبر عظيمة: تعاقب الليل والنهار، وتقارضهما، هذا يأخذ من هذا، وهذا يأخذ من هذا، يطول هذا، ويقصر هذا، تعاقبهما على هذا النظام العجيب الذي لا يتخلف ولا يتغير.

هذا دليل على قدرة الله -سبحانه وتعالى-، ثم ما يجري في هذا الوقت من الحوادث والكوارث ومن المصائب ومن النعم ومن الخيرات، ما يجري في هذا الوقت هذا من العبر.

وكذلك فإن الليل والنهار مجال للعمل الصالح، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾[الفرقان:٦٢]؛ أي: يتعاقبان يخلف هذا هذا: ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ۝٦٢﴾[الفرقان:٦٢]، وفي بعض القراءات: «لمن أراد أن يَذْكُرَ»[٢٤].

فالليل والنهار كسب عظيم لمن استغلهما في طاعة الله ﷻ ومجال العمل هو الليل

---

(٢٢) أخرجه أبو داود (٣٢٥١)، والترمذي (١٥٣٥)، وأحمد (٦٧/٢)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وصححه العلامة الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٢٣) سبق تخريجه.

(٢٤) هي قراءة حمزة والكسائي «السبعة» (ص٤٦٥، ٤٦٦).

والنهار، ما عندك غير الليل والنهار، هما مجال العمل والكسب الطيب للدنيا والآخرة، في الليل والنهار عبر وفوائد لذلك أقسم الله بالعصر.

ما هو جواب القسم؟

هو قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢﴾[العصر:٢] الإنسان؛ جميع بني آدم لم يستثن أحدًا لا الملوك ولا الرؤساء، ولا الأغنياء، ولا الفقراء، ولا الأحرار، ولا العبيد، ولا الذكور، ولا الإناث، فـ «أل» في الإنسان للاستغراق، كل بني آدم في خسر؛ أي: في خسارة وهلاك إذا ضيعوا هذا الوقت الثمين، واستعملوه في معصية الله، وفيما يضرهم.

وهذا الوقت الذي هو رخيص عند كثير من الناس، يطول عليهم الوقت، يملون ويقولون: نريد قتل الوقت، يأتون بالملهيات، أو يسافرون للخارج لقضاء العطلة والوقت، أو يضحكون ويمزحون لقطع الوقت، فهؤلاء الذين قطعوه وضيعوه سيكون خسارة وندامة عليهم يوم القيامة، وهو مصدر سعادتهم لو حافظوا عليه.

فجميع بني آدم في خسارة وهلاك إلا من اتصف بأربع صفات هي: العلم، والعمل، والدعوة إلى الله، والصبر على الأذى.

فمن اتصف بهذه الصفات الأربع نجى من هذه الخسارة.

ولا يمكن الإيمان بالله إلا بالعلم الذي هو معرفة الله.

﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[العصر:٢]؛ أي: عملوا الأعمال الصالحة من واجبات ومستحبات، فاستغلوا وقتهم بعمل الصالحات بما يفيدهم في دينهم ودنياهم، حتى العمل للدنيا فيه خير وفيه أجر إذا قصد به الاستعانة على الطاعة، فكيف بالعمل للآخرة، المهم أنك لا تضيع الوقت بل تستعمله في شيء يفيدك وينفعك.

﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾[العصر:٣]: أمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، ودعوا إلى الله ﷻ، وعلّموا العلم النافع، ونشروا العلم، والخير في الناس، أصبحوا دعاة إلى الله ﷻ.

﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾[العصر:٣]: صبروا على ما ينالهم، والصبر في اللغة: الحبس، والمراد به هنا: حبس النفس على طاعة الله، وهو ثلاثة أنواع:

الأول: صبر على طاعة الله.

الثاني: صبر عن محارم الله.

الثالث: صبر على أقدار الله.

فالأول: صبر على طاعة الله؛ لأن النفس تريد الكسل وتريد الراحة، فلا بد أن يصبرها الإنسان على الطاعة، وعلى الصلاة، وعلى الصيام، وعلى الجهاد في سبيل الله، وإن كانت تكره هذه الأمور، يصبرها ويحبسها على طاعة الله.

والثاني: صبر عن محارم الله، النفس تريد المحرمات والشهوات، تميل إليها وتنزع إليها، فلابد أن يربطها ويحبسها عن المحرمات، وهذا يحتاج إلى صبر، وليس من السهل منع النفس عن الشهوات المحرمة، من ليس عنده صبر، فإن نفسه تتغلب عليه وتجنح إلى المحرمات.

الثالث: الصبر على أقدار الله المؤلمة: المصائب التي تصيب الإنسان من موت قريب، أو ضياع مال، أو مرض يصيب الإنسان.

لا بد أن يصبر على قضاء الله وقدره لا يجزع، ولا يتسخط بل يحبس اللسان عن النياحة والتسخط ويحبس النفس عن الجزع، ويحبس الجوارح عن لطم الخدود، وشق الجيوب. هذا هو الصبر على المصائب.

أما المعائب فلا يصبر عليها، بل يتوب إلى الله وينفر منها، ولكن عند المصائب التي لا دخل لك فيها، بل هي من الله ﷻ قدرها عليك ابتلاءً وامتحانًا أو عقوبة لك على ذنوب فعلتها، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠﴾ [الشورى:٣٠].

فإذا حصلت للمسلم مصيبة في نفسه، أو ماله، أو ولده، أو قريبه، أو أحد إخوانه من المسلمين فعليه بالصبر والاحتساب، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾ [البقرة:١٥٦،١٥٧] هذا هو الصبر.

ومن ذلك: الصبر على الأذى في الدعوة إلى الله ﷻ، فإن هذا من المصائب، فعليك أن تصبر على ما تلقى من الأذى في سبيل الخير، ولا تنثني عن فعل الخير؛ لأن بعض الناس يريد فعل الخير، لكن إذا واجهه شيء يكرهه قال: ليس من الواجب علي أن أدخل نفسي في هذه الأمور، ثم يترك التعليم إن كان معلمًا، يترك الدعوة إلى الله، يترك الخطابة إن كان خطيب مسجد، يترك إمامة المسجد، يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هذا لم يصبر على ما ناله من الأذى.

وإذا كنت مخطئًا عليك بالرجوع إلى الحق والصواب، أما إن كنت على حق، ولم تخطئ فعليك بالصبر والاحتساب واستشعر أن هذا في سبيل الله ﷻ وأنك مأجور عليه، وتذكر ما حصل للأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- من الأذى وكيف صبروا وجاهدوا في سبيل الله حتى نصرهم الله ﷻ.

❑قوله: (الشَّافِعِيُّ...)

● هو الإمام محمد بن إدريس الشافعي نسبة إلى جده الرابع اسمه شافع، وهو من قريش، من بني المطلب، توفي سنة ٢٠٤هـ، وهو أحد الأئمة الأربعة، وقال هذه المقالة؛ لأن الله بين في هذه السورة أسباب الشقاوة وأسباب السعادة.

فأسباب السعادة: أن يتصف الإنسان بهذه الصفات الأربع: العلم، والعمل، والدعوة، والصبر على الأذى في سبيل الله تعالى، فقامت الحجة من الله على خلقه بهذه السورة، إن الله سبحانه يقول لهم إنِّي قد بينت لكم أسباب السعادة في هذه السورة القصيرة المختصرة.

والقرآن كله والسنة هما تفاصيل لهذه المسائل الأربع، لكن هذه السورة بينت أسباب السعادة مجملة، فقامت بها الحجة على الخلق، وبقية نصوص القرآن والسنة مفصِّلَة ومبيِّنة لهذه المسائل الأربع.

وليس معنى كلام الشافعي أن هذه السورة تكفي الناس، لو ما أنزل الله غيرها؛ لكنها أقامت الحجة عليهم؛ لأن الله بين فيها أسباب السعادة وأسباب الشقاوة، فلا أحد يوم القيامة يقول: أنا لا أعرف أسباب السعادة، ولا أعرف أسباب الشقاوة وهو يقرأ هذه السورة المختصرة الوجيزة.

❑قوله: (البُخَارِيُّ)

●هو الإمام محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري، نسبة إلى بخارى بلدة في المشرق، إمام أهل الحديث وجبل الحفظ -رحمه الله-، صاحب «الصحيح» الذي هو أصح الكتب بعد كتاب الله.

❑قوله: (الْعِلْمُ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ)

●لأن العمل لا ينفع إلا إذا كان مبنيًّا على علم، أما العمل المبني على جهل فإنه لا ينفع صاحبه بل يكون وبالًا وضلالًا عليه يوم القيامة، فلا بد أن يقدم تعلم العلم قبل العمل.

❑ قوله: (وَالدَّلِيلُ)

● أي على هذه الترجمة قوله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾[محمد:١٩] حيث بدأ بالعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ﴾ هذا هو العمل فبدأ سبحانه بالعلم قبل العمل؛ لأن العمل إذا كان على جهل فإنه لا ينفع صاحبه، فيبدأ الإنسان بالعلم أولًا ثم يعمل بما علمه، هذا هو الأساس.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

❑ قوله: (اعْلَمْ رَحِمَكَ الله)

● قال الشيخ رحمه الله تعالى في أول هذه الرسالة (اعلمْ رحمكَ الله)، أو (اعلم رحمني الله وإياك) وهذا فيه التلطف، وفيه تنبيه إلى أن مبنى هذا العلم على التلطف، وعلى الرحمة بالمتعلمين؛ لأنه دعا له بالرحمة، وكان العلماء يَرْوُون ويُروُّون لمن بعدهم فيمن طلب الإجازة في الحديث، رواية حديث: «الراحمون يرحمهم الرحمان»[25]، وهذا الحديث هو المعروف عند أهل العلم بالحديث بالمسلسل بالأولية لما؟ لأن كل راوٍ يقول لمن بعده: حدثني شيخي، وهو أول حديث سمعته منه...فعلماء الحديث يروون هذا الحديث لتلامذتهم ويكون أول حديث فيما يروون ألا وهو حديث: «الراحمون يرحمهم الرحمان» ففي الإجازات ترى أن كل شيخ يقول عن شيخه: حدثني فلان وهو أول حديث سمعته منه، قال: حدثني شيخي فلان وهو أول حديث سمعته منه، إلى أن يصل إلى منتهاه.

قال الرسول ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمان، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»[26]، قال العلماء سبب ذلك أن مبنى هذا العلم الرحمة، ونتيجته الرحمة في الدنيا، وغايته الرحمة في الآخرة، لهذا الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ نبه على ذلك تنبيهًا لطيفًا دقيقًا حيث قال: (اعلمْ -رحمكَ الله)؛ دعاء للمتعلم بالرحمة؛ ذلك لأن مبنى التعلم بين المعلم والمتعلم هو التراحم كلٌّ بما يناسبه.

---

(٢٥) أخرجه أبو داود (٤٩٤١)، والترمذي (١٩٢٤)، وأحمد (١٦٠/٢)، وغيرهم من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وصححه العلامة الألباني في «صحيح الجامع» (٣٥٢٢).

(٢٦) سبق تخريجه.

❑ قوله: (يَجِبُ عَلَيْنَا تَعَلُّمُ أَرْبَعِ مَسَائِلَ)

●الوجوب هاهنا المقصود به: ما يشمل الوجوب العيني والوجوب الكفائي؛ أما بالنسبة للأول ألا وهو العلم، فما ذكره واجب علينا أن نتعلمه وجوبًا عينيًّا، هو معرفة ثلاثة الأصول؛ معرفة العبد ربه، ومعرفة العبد دينه، ومعرفة العبد نبيه، هذا واجب فمثل هذا العلم لا ينفع فيه التقليد، واجب فيه أن يحصله العبدُ بدليله، والعبارة المشهورة عند أهل العلم: أن التقليد لا ينفع في العقائد، بل لابد من معرفة المسائل التي يجب اعتقادها بدليلها، هذا الدليل أعم من أن يكون نصا من القرآن، أو من السنة، أو من قول صاحبي، أو من إجماع، أو قياس، وسيأتي تفصيل الدليل إن شاء الله تعالىٰ في موضعه.

هذا التقليد لا يجوز في العقائد عند أهل السنة والجماعة، وكذلك لا يجوز عند المبتدعة من الأشاعرة والماتريدية والمتكلمة، لكن ننتبه إلىٰ أن الوجوب عند أهل السنة يختلف عن الوجوب عند أولئك في هذه المسألة، والتقليد عند أهل السنة يختلف عن التقليد عند أولئك، فأولئك يرون أن أول واجب هو النظر، فلا يصح الإيمان إلا إذا نظر، ويقصدون بالنظر؛ النظر في الآيات المرئية؛ -في الآيات الكونية-، ينظر إلىٰ السماء، يستدل علىٰ وجود الله جل وعلا بنظره، أما أهل السنة فيقولون: يجب أن يأخذ الحق بالدليل، وهذا الدليل يكون بالآيات المتلوّة، أولئك يحيلون علىٰ الآيات الكونية المرئية بنظرهم، بنظر البالغ، وأما أهل السنة فيقولون: لابد من النظر في الدليل، لا لأجل الاستنباط، ولكن لأجل معرفة أن هذا قد دلَّ عليه دليل، في أي المسائل؟ في المسائل التي لا يصح إسلام المرء إلا بها؛ مثل معرفة المسلم أن الله جل وعلا هو المستحق للعبادة دون ما سواه، هذا لابد أن يكون عنده برهان عليه، يعلمه في حياته، ولو مرة، يكون قد دخل في هذا الدين بعد معرفة الدليل؛ ولهذا كان علماؤنا يعلمون العامة في المساجد، ويحفظونهم هذه الرسالة «ثلاثة الأصول» لأجل عظم شأن الأمر.

❑ قوله: (الأُولَىٰ: العِلْمُ)

●أول المسائل الأربع التي يجب علينا تعلُّمها: العلم، والعلم أجمله هاهنا بما سيأتي تفصيله في الرسالة، رسالة ثلاثة الأصول شرح لهذا الواجب الأول.

❑ قوله: (الثَّانِيةُ العَمَلُ بِهِ)

●الثاني: العمل: العمل بالعلم، والعمل بالعلم منه ما تركه كفر، ومنه ما تركه

معصية، ومنه ما تركه مكروه، ومنه ما تركه مباح، كيف يكون ذلك؟ العلم ينقسم، فالعلم بالتوحيد؛ بأن الله جل وعلا هو المستحق للعبادة وحده، إذا علمه العبد ولم يعمل بهذا العلم بأن أشرك بالله جل وعلا لم ينفعه علمه، فكان ترك العمل في حقه كفرًا، وقد يكون معصية بأن علم مثلًا أن الخمر حرام شُربها، حرام بيعها، حرام شراؤها، حرام سقيها، حرام استسقاؤها، ونحو ذلك، وخالف العلم الذي عنده، عَلِمَ أنه حرام فخالف، فتكون مخالفته معصية؛ يعني: ارتكب كبيرة من كبائر الذنوب في هذه المسألة، منه ما هو مكروه؛ إذا علم أن النبي عليه الصلاة والسلام، كان يصلي على هيئة، وصِفة معينة، فخالفه في سنة من السنن بعد عِلمه بها، ترك العمل بالعلم الذي عنده هذا مكروه؛ لأنه ترك العمل بسنة ليس بواجب، فيكون تركه مكروه، ويكون العمل بذلك مستحبًا، وقد يكون العمل بالعلم مباحًا، وتركه مباحًا أيضًا، بمثل المباحات، والعادات ونحو ذلك، كأن بلغنا من العلم أن النبي عليه الصلاة والسلام كان من هيئته في لباسه كذا وكذا، كانت مشيته على نحو ما، هذه الأمور الجبلية الطبيعية، فيما نتعلمه، مما لم نخاطب فيها بالإقتداء، إذا ترك العمل بها، كان تركه مباحًا له لأنه لم يخاطب المسلم أن يقتدي بمثل هذه الأمور بنحو سير النبي عليه الصلاة والسلام، بصوته، بالأمور الجبلية التي كان عليها عليه الصلاة والسلام، فيكون العمل بذلك مباح، وقد يُؤجر عليه إذا نوى الإقتداء، بنية الإقتداء، فيكون ترك العمل أيضًا مباحًا. العمل هذا أخذه من قوله جل وعلا: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾[الانشقاق:٢٥] كما سيأتي.

❑ قوله: (الثَّالِثَةُ: الدَّعْوَةُ إِلَيْهِ)

●الثالث: الدعوة إليه: إذا علم وعمل فإنه يدعو إلى ذلك والدعوة قد تكون بالمقال، وقد تكون بالفعال؛ لأن الامتثال بالفعل دعوة، فإذا امتثل المسلم لما أُمر به، فإن هذا يجعله يرشد غيره إرشادًا صامتًا، بالفعل إلى أن هذا مطلوب، والثاني الدعوة بالقول؛ باللسان، والدعوة باللسان قد تكون واجبة، وقد تكون مستحبة، فيتفرع عن الدعوة باللسان أنواع من الدعوة منها الدعوة بالكتابة بالقلم؛ في تأليف، أو في رسائل أو نحو ذلك، منها النصائح المختلفة، والمواعظ، ونحو ذلك.

❑ قوله: (الرَّابِعَةُ: الصَّبْرُ عَلَى الأَذَىٰ فِيْهِ)

●بعد الدعوة، الواجب الرابع: أن يتعلم الداعية -الذي علم، ثم عمل ثم دعا-، أنه يجب عليه أن يصبر: لأن سنة الله جل وعلا في خلقه لم يجعل القبول حاصلًا للنبيين والمرسلين الذين هم أفضل الخلق وأعلاهم درجة، وإنما عورضوا، و أوذوا، وحصل لهم ما حصل، فالداعية يحتاج إلىٰ أن يصبر كما صبر المرسلون، بل إن النبي عليه الصلاة والسلام، أُمر بأن يحتذي حذو الصابرين بقول الله جل وعلا: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾[الأحقاف:٣٥]، فالصبر في غاية المهمات لمن علِم، فعمل، فدعا، يحتاج إلىٰ أن يصبر، فإن لم يصبر، كان من الذين يستخفهم الذين لا يوقنون، قال جل وعلا: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ۝٦٠﴾[الروم:٦٠] ؛ قد حذر النبي عليه الصلاة والسلام أصحابه من العجلة قال: «ولكنكم قوم تستعجلون»[٢٧].

هذه المسائل الأربع واجب تعلمها، والعمل بها؛ العلم، والعمل، والدعوة، والصبر، ودليل ذلك قول الله جل وعلا بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾[العصر].

❑ قوله: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١﴾

● قال جل وعلا: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١﴾، العصر هو: الزمان، أقسم الله جل وعلا به لشرفه؛ الزمان المطلق، والعصر يعني: الدهر، والزمن، والعمر، والوقت؛ لأنه أشرف شيء أُعطيه الإنسان، أنْ أعطي عمرًا فيه يعبد الله جل وعلا، ويطيعه، فبسبب العمر عبَدَ الله، وبسبب العمر شرُف، إن كتب الله جل وعلا له الجنة -أن يكون من أهل الجنة-، فهو شريف القدر، عظيم القدر، ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١﴾ جواب القسم؛ يعني: ما معنىٰ جواب القسم؟ يعني لأي شيء جاء القسم؟ لما أقسم الله جل وعلا بالعصر؟ قال جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢﴾[العصر:٢]، فجواب القسم هو ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢﴾، وأكد ذلك، بـ(إنَّ) وباللام في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢﴾، ومن المتقرر في علم المعاني من علوم البلاغة، أن (إنّ واللام من أنواع المؤكدات)، اجتمع هاهنا أنواع من المؤكدات، الأول: القسم، الثاني: مجيء إنّ، الثالث: مجيء اللام التي تسمىٰ المزحلقة، أو المزحلِفة، مجيء اللام في خبر إنّ.

---

(٢٧) أخرجه البخاري (٣٦١٢)، وغيره من حديث خباب بن الأرت رضي الله عنه.

❑ قوله: (﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢﴾)

● قال جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢﴾، وأهل العلم بالمعاني يقولون: إن مجيء المؤكدات يصلح إذا كان المخاطَبُ منكِرًا لما اشتمل عليه الكلام. فمثلًا تقول لمن لم يكن عنده الخبر، فلان قادم، لا يصلح أن تقول: إنّ فلانًا لقادم وذاك لم ينكر الكلام، ويريد أن يستقبل الخبر، تقول: فلان قادم، فأخبرته بقدوم فلان، لكن إن كان منكرًا له، أو منزل منزلة المنكر له، فإنك تؤكد الكلام له؛ لكي يزيد انتباهه، ويعظم إقراره لما اشتمل عليه.

المشركون لأجل ما هم فيه من شرك، وما عاندوا فيه الرسالة، حالهم بل ومقالهم أنهم هم أصحاب النجاة ﴿وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰ﴾[فصلت:٥٠]، فهم ينكرون أنهم سيكونون في خسارة، و ينكرون -طائفة أخرىٰ منهم- أن يكون الإنسان سيرجع إلىٰ خسارة، وأنه لن ينجوا إلا أهل الإيمان، فأكد الله جل وعلا ذلك لأجل إنكارهم بالمقال والفعل وبالحال، بقوله: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢﴾؛ يعني: إن جنس الإنسان، الألف واللام هذه للجنس (ال الجنسية، ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾؛ يعني: جنس الإنسان ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢﴾، جنس الإنسان في خسر؛ أي: في خسارة عظيمة، إلا ما اُستثني، وهذا نوع آخر من شد الذهن لقبول الكلام، ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢﴾؛ كل الناس، كل إنسان في هلاك وخسارة، ثم استثنىٰ فقال ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، هؤلاء الذين استثناهم الله جل وعلا هم أصحاب هذه المسائل الأربعة التي ذكرها الشيخ رحمه الله تعالىٰ،

❑ قوله: (﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾)

● والإيمان قول وعمل واعتقاد؛ هذا الاعتقاد هو العلم، لأن العلم مورده القلب والعقل، هذا العلم، فأهل العلم ناجون من الخسارة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، ألم نقل: إن الإيمان قول وعمل واعتقاد؟

❑ قوله: (﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾)

● وهنا قال: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فعطف بالواو العمل علىٰ الإيمان، وأهل اللغة -النحاة- يقولون: إن الواو تأتي كثيرًا للمغايرة، فهل معنىٰ ذلك أن العمل غير الإيمان؟ وأن مسمىٰ الإيمان لا يدخل فيه العمل؟ الجواب: لا، ذلك لأن المغايرة تكون بين حقائق

الأشياء، وحقيقة الإيمان أكبر من حقيقة العمل؛ لأن العمل جزء من الإيمان؛ العمل بعض الإيمان، وعطف الخاص على العام يأتي كثيرًا، وكذلك عطف العام على الخاص يأتي كثيرًا بالواو، مثل قول الله جل وعلا: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾[البقرة:٩٨]، هنا ﴿وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾أليسا من الملائكة؟ لما عطفهم على الملائكة؟ عطفٌ للخاص على العام، إذن لماذا يعطف الخاص على العام مع دخول الخاص في العام؟ لابد يكون له قصد، لابد أن يكون ثَم فائدة، والفائدة: التنبيه على أنه في الحكم مثل الأول، ولهذا قال جل وعلا هنا: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، والشيخ -رحمه الله تعالى- فهم ذلك؛ فقال: (يجب علينا تعلم أربع هذه المسائل)، فذكر العلم ثم العمل؛ لأنه قال: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، فلما عطف الخاص على العام دل على شرفه، وعلى أنه يهتم به، وعلى مزيد مكانته، ثم لأنه في الحكم مثل الأول.

❑ قوله: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ﴾

● قال جل وعلا بعد ذلك: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣﴾؛ يعني: دعا بعضهم بعضًا إلى الحق، ودعا بعضهم بعضًا إلى الصبر، وهذه هي المسائل الأربعة.

❑ قوله: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣﴾

● الصبر أقسامٌ ثلاثة: صبر على الطاعة، وصبر عن المعصية، وصبر على قدر الله المؤلم، بل صبر على أقدار الله التي تسرّ والتي تؤلم، هذه أنواع الصبر الثلاثة؛ وكلها يحتاج إليها العالمون، العاملون، الدعاة.

❑ قوله: (قَالَ الشَّافِعِيُّ -رحمه الله تعالَى-: «لو مَا أَنْزَلَ الله حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ إلاَّ هَذِهِ السُّورَة لَكَفَتْهُمْ»)

● يعني: لو ما أنزل الله جل وعلا من القرآن حجة على الخلق، مع رسول الله ﷺ إلا هذه السورة، لكفى بها حجة؛ لأنها اشتملت على أن كل الناس آيلون إلى خسارة ووبال وهلاك، إلا أهل هذه الأوصاف؛ وهم المؤمنون. معنى ذلك: إذا خوطبنا بهذه السورة، لو خوطبنا بها وحدها، مؤمنون بمن؟ لابد هناك شيء يؤمن به، ثم يعملون، يعملون على أي شيء؟ وبأي شيء؟ لابد أن هناك سبيلًا؛ وهو سنة النبي عليه الصلاة والسلام، هناك تواصي بالحق، دعوة إلى ذلك، وتواصي بالصبر؛ صبر على هذا، فترى أن

هذه السورة اشتملت على كل ما يدل الخلق على ربهم جل وعلا، ويقودهم إلى اتباع رسالة النبي عليه الصلاة والسلام.

❑ قوله: (وَقَالَ الْبُخَارِيُّ...)

● ثم ذكر قول البخاري رحمه الله تعالى في «صحيحه»، كما نقل الشيخ رحمه الله، (باب العلم قبل القول والعمل) وساق قول الله جل وعلا: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾[محمد:١٩]، فبدأ بالعلم قبل العمل والقول؛ الذي هو الاستغفار، لِمَ ذكر الشيخ هذا؟ لأجل أن هذه الرسالة؛ رسالة علم، كلها شرح وبيان للمسألة الأولى، للواجب الأول، ألا وهو العلم، فينبه طالب العلم إلى أن العلم مهم للغاية، حتى إنه قبل القول والعمل، فقبل أن يستغفر العبد، لابد أن يعلم العلم الواجب عليه، وهذا العلم هو الذي ينجيه بنفسه، هو الذي ينجي به نفسه -بفضل الله جل وعلا- إذا سئل عن هذه المسائل الثلاثة.

الشيخ رحمه الله تعالى يريد أن يبين لك، ثلاثة الأصول هذه، والمسائل المتعلقة بها، فأكد لك أهمية العلم بقوله، فيما ساق عن البخاري.

والعلم قبل العمل ولاشك؛ ولهذا قال ابن القيم رحمه الله تعالى، وما أحسن ما قال، يقول:

والجهــلُ داء قاتــلٌ وشفــاؤه	أمــران فــي التركيــب متفقــانِ
نــص مــن القــرآن أو مــن سنــة	وطبيــب ذاك العــالم الربانــي
والعلــم أقــسام ثــلاث مالــها	مــن رابــع والحــق ذو تبيــانِ
علــم بأوصــاف الإلــه وفعلــه	وكــذلك الأســماء للديــانِ
والأمــر والنهــي الــذي هــو دينــه	وجــزاؤه يــوم المعــاد الثانــي
والكــلُ فــي القــرآن والــسنن التــي	جــاءت عــن المبعــوث بالفرقــان
والله مــا قــال امــرؤ متحذلــق	بــسواهما إلا مــن الهذيــان

بين أن الجهل داء قاتل، بما يُزال الجهل؟ قال: (بنص من القرآن أو من السنة).

من طبيب ذاك الذي يرشدك ويبين لك؟ قال: (وطبيب ذاك العالم الرباني)، ليس كل منتسب للعلم ولكن هو العالم الرباني، الذين وصفهم الله جل وعلا في سورة آل عمران،

بقوله: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ۝٧٩﴾[آل عمران:٧٩]، ثم بين هذا العلم الذي تسعىٰ إليه ما هو ؟ فقال:

علـــم بأوصـــاف الإلـــه وفعلـــه وكـــذلك الأســـماء للديـــانِ

هذه شملت التوحيد؛ توحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، ثم قال العلم الثاني: (والأمر والنهي الذي هو دينه)، يعني: الفقه؛ الأمر والنهي، الأحكام؛ الحلال والحرام، هذا مأمور به، وهذا منهي عنه، هذا افعله، وذاك لا تفعله، هذا النوع الثاني من العلم النافع. والثالث: (وجزاءه يوم المعاد الثاني) الذي هو العلم بما يكون يوم القيامة، ووسائل ذلك.

❑ قوله: (فَبَدَأَ بِالْعِلْمِ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ)

●الشيخ رحمه الله تعالىٰ يقول: (العلم قبل القول والعمل)، نعم، وصدق رحمه الله، فالعلم إذا كان قبل القول والعمل بورك لصاحبه في القليل، وإن كان العملُ و القول قبل العلم ربما كانت الأعمال و الأقوال جبالًا، ولكنها ليست علىٰ سبيل نجاة، ولهذا روىٰ الإمام أحمد في «الزهد» وأبو نعيم وجماعة عن أبي الدّرداء أنه قال: «يا حبذا نوم الأكياس وإفطارهم، كيف يغبِطُنا سهر الحمقىٰ وصومهم، ولمثقال ذرة مع بِرّ ويقين أعظم عند الله من أمثال الجبال عبادةً من المغترين» يقول: يا حبذا؛ يعني: يتمنىٰ نوم الأكياس، الأكياس من؟ «إن لله عبادا فطنا» هؤلاء هم الأكياس الذين حيوا؛ قلوبهم صحيحة، عقولهم صحيحة، يقول: يا حبذا نوم الأكياس؛ أهل العلم، وإفطارهم، ناموا، -والحمقىٰ علىٰ كلام أبي الدرداء- سهروا ليلهم في صلاة، لكن هؤلاء لا يستوون عند أبي الدرداء مع أولئك؛ لأن أولئك عبدوا الله جل وعلا علىٰ جهل، وهؤلاء عبدوا الله بعبادات قليلة، ولكنها علىٰ علم وبصيرة فكانوا أعظم أجرًا، بحيث قال أبو الدرداء ﷺ: «ولمثقال ذرة مع بر ويقين أعظم من أمثال الجبال عبادة من المغترين»؛ لهذا نقول: العلم في غاية الأهمية، ويُبدأ به قبل أي شيء، خاصة العلم الذي يصحح العبادة، يصحح العقيدة، ويصحح القلب، ويجعل المرء في حياته يسير علىٰ بيّنة وفق سنة الرسول عليه الصلاة والسلام ليس علىٰ جهالة.

الدرس الثاني:

[ثلاث مسائل يجب تعلمها]

اعْلَمْ رَحِمَكَ الله: أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ تَعَلُّمُ ثَلاثِ هَذِهِ الْمَسَائِلِ والْعَمَلُ بِهِنَّ. الأولَى: أَنَّ الله خَلَقَنَا وَرَزَقَنَا وَلَمْ يَتْرُكْنَا هَمَلاً، بَل أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولاً. فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ. والدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝١٥ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ۝١٦﴾ [المزمل: ١٥، ١٦].

الثَّانِيةُ: أَنَّ الله لاَ يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ أَحدٌ فِي عِبَادَتِهِ لا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، ولاَ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ. والدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ۝١٨﴾ [الجن: ١٨].

الثَّالِثَةُ: أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ وَوَحَّدَ الله لاَ يَجُوزُ لَهُ مُوَالاةُ مَنْ حَادَّ الله وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانَ أَقْرَبَ قَرِيبٍ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٢٢﴾ (٢٨) [المجادلة: ٢٢].

الشرح

قال العلامة ابن باز:

قوله: (اعْلَمْ رَحِمَكَ الله أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ)

● هذه المسائل الثلاث من أهم المسائل التي تتعلق بالتوحيد وحقوقه.

---

(٢٨) معنى الآية -والله أعلم- لا تجد قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر؛ أي: البعث والنشور -وهو يوم القيامة- يوادون من حاد الله ورسوله؛ أي: «يجعلون مودة بينهم وبين من حاد وشاق الله ورسوله وعاند شرعه»، ولو كانوا من الأقربين، قيل: نزلت هذه الآية الشريفة في أبي عبيدة بن الجراح حين قتل أباه يوم بدر، وكان من المحادين المعاندين لرسول الله ﷺ؛ ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين جعل الأمر شورى بعده في أولئك الستة رضي الله عنهم: ولو كان أبو عبيدة حيًا لاستخلفته، ويكون من اتصف بذلك ممن كتب الله في قلبه الإيمان والسعادة وقررها في قلبه بقوة منه وزين الإيمان في بصيرته، فهلا فعل علماؤنا ذلك بمن انقلب منهم على عقبيه وحاد الله ورسوله، وعاند شرعه ورد على القرآن والسنة بزعمه الفاسد ونشر المقالات في الجرائد والمجلات ضد الإسلام وأهله، كما يفعلون فيما إذا نزلت درجاتهم وخفضت مرتباتهم ولو نقص من أحدهم رغيف من جرايته لقام وتخبط وأرغى وأزبد، فما لهم عن الحق معرضون؟ [الدمشقي].

□قوله: (الأولى: أَنَّ الله خَلَقَنَا وَرَزَقَنَا...)

● الله خلق الخلق؛ ليعبدوه فلم يخلقهم هملًا، ولا سدًا، ولا عبثًا، لكنه خلقهم لأمر عظيم، ولحكمة عظيمة فيها سعادتهم، وفيها نجاتهم، وهي: أن يعبدوا الله وحده لا شريك له كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝﴾[الذاريات:٥٦]. وهذه العبادة أمرهم الله بها في قوله سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾[البقرة:٢١]، ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[الإسراء:٢٣]وفي قوله: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾[النساء:٣٦]، وفي قوله: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝﴾[الزمر:٢] وفي قوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[البينة:٥]، في آيات كثيرة أمرهم فيها بالعبادة، وهي توحيده جل وعلا، وتخصيصه بالعبادة من: دعاء، وخوف، ورجاء، وتوكل، ورغبة، ورهبة، وصلاة، وصوم وغير ذلك. فهو المستحق للعبادة جل وعلا دون كل ما سواه، ويدخل في ذلك فعل الأوامر، وترك النواهي؛ فأداء الأوامر التي أمرك الله بها ورسوله، وترك النواهي التي نهاك الله عنها ورسوله؛ كل هذا داخل في العبادة، وهذا هو الإسلام، وهو الدين، وهو الإيمان، وهو الهدى. فلا تُصلِّ إلا لله، ولا تركع إلا له، ولا تذبح إلا له، ولا تدع إلا إياه، ولا تتوكل إلا عليه إلى غير ذلك من العبادات.

أما الاستعانة بحاضر قادر فيما يقدر عليه ؛ فهذا ليس بعبادة، كما قال سبحانه في قصة موسى: ﴿فَٱسْتَغَـٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾[القصص:١٥]؛ فإن موسى قادر على أن يغيثه. أما دعاء الميت، ودعاء الغائب الذي لا يسمع كلامك، أو دعاء الصنم أو الجن أو الأشجار، ونحوها ؛ فهذا شرك المشركين، وهو الشرك الأكبر الذي قال الله فيه: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝﴾[لقمان:١٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝﴾[الأنعام:٨٨]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[النساء:٤٨]، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[الزمر:٦٥]، فالله خلقنا ورزقنا ولم يتركنا هملًا، بل أمرنا بتوحيده، وطاعته، وترك معصيته.

□قوله: (بَل أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولًا)

●وأرسل إلينا رسولًا: هو محمد عليه الصلاة والسلام بكل ما تقدم، وأنزل عليه

القرآن بذلك؛ لنستقيم على ما فيه من الهدى، ونعمل بما فيه من الأوامر، وننتهي عما فيه من النواهي، وعلى يد محمد رسول الله ﷺ خاتم النبيين والمرسلين. جاء ليُعَلِّم الناس دينهم ؛ فهو خاتم الأنبياء وإمامهم وأفضلهم.

☐قوله: (فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ...)

●فمن أطاع هذا الرسول واستقام على دينه؛ فله الجنة، ومن عصى هذا الرسول وحاد عن دينه؛ فله النار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾[المزمل:١٥]، يعني: بأعمالكم ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝١٥﴾[المزمل:١٥]، فهو مرسل عليه الصلاة والسلام ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ۝١٦﴾[المزمل:١٦] ؛ أي: أخذنا فرعون أخذًا وبيلًا في الدنيا بالغرق، وفي الآخرة بالنار.

☐قوله: (الثَّانِيةُ: أَنَّ اللهَ لاَ يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ أَحدٌ فِي عِبَادَتِهِ)

●هذه المسألة الثانية إنما هي تحقيق للمسألة الأولى: أن تعلم أن الله لا يرضى أن يشرك معه أحد في عبادته، كما أنه الخالق، الرازق، المحيي، المميت، الذي خلقك وأعطاك النعم، فهو سبحانه لا يرضى أن يشرك معه أحد من الخلق: لا نبي مرسل، ولا ملك مقرب، ولا غيرهما؛ لأن العبادة حق الله وحده، كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[الإسراء:٢٣]، وكما قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾[الفاتحة:٥] ؛ لأن الإشراك به هو أعظم الذنوب، وقد جاء في الآيات الكثيرة الأمر بإخلاص العبادة لله وحده، والنهي عن عبادة ما سواه، فتجمع بين أمرين: فتؤمن بأن الله هو الخالق، الرازق، المحيي، المميت، وتؤمن بأنه سبحانه هو المستحق للعبادة: من ذبحٍ، وصلاةٍ، وصومٍ، وغير ذلك من العبادات، كما قال سبحانه: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[البقرة:١٦٣]، وقال سبحانه: ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ۝١٨﴾[الجن:١٨].

☐قوله: (الثَّالِثَةُ: أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ وَوَحَّدَ اللهَ...)

●وهذه هي المسألة الثالثة، وهي من أهم الواجبات أن يعلم كل مسلم ومسلمة أنه لا يجوز له أن يوالي المشركين، أو يحبهم، فكل من أطاع الله ورسوله ووحد الله جل وعلا يلزمه أن يعادي الكفار ويبغضهم في الله، ولا يجوز له موالاتهم ومحبتهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا﴾الآية[المجادلة:٢٢]؛ أي: لا تجد يا محمد، قومًا أهل إيمان صادق يوادون

من حاد الله ورسوله. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾[المائدة:٥١]، وقال ﷻ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾[الممتحنة:٤]. فلا بد من البغضاء والعداوة لأعداء الله، ومودة المؤمنين ومحبتهم، هكذا المؤمن يحب أولياء الله، ويتعاون معهم على الخير، ويكره أعداء الله ويبغضهم ويعاديهم في الله، وإن دعاهم إلى الله، وإن أقرهم في بلاده وأخذ منهم الجزية كوليّ الأمر؛ لأن الرسول ﷺ أخذ الجزية من اليهود والنصارى والمجوس، وأَخْذُ الجزية منهم فيه عون للمسلمين، لا محبة لهم.

وتؤخذ الجزية منهم إذا لم يدخلوا في الإسلام، ولا يقاتَلون بل يقرون مع بغضهم في الله، وعدم موالاتهم.

فإن أبوا الإسلام والجزية قوتلوا مع القدرة، وهذا خاص بأهل الكتاب والمجوس، أما بقية الكفار فلا تقبل منهم الجزية، بل يقاتلون حتى يدخلوا في الإسلام؛ كالوثنيين، والشيوعيين، وغيرهم من أصناف الكفرة مع القدرة على ذلك؛ لقول الله سبحانه: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾[الأنفال:٣٩]، وقوله سبحانه: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾[التوبة:٤١]، وقوله سبحانه: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾[التوبة:٥]. والآيات في هذا المعنى كثيرة، ومراده سبحانه مع القدرة على ذلك؛ لقوله ﷻ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[البقرة:٢٨٦]، وقوله سبحانه: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾[التغابن:١٦] الآية؛ ولأنه ﷺ لم يقاتل المشركين حتى قوي على ذلك، ثم قال تعالى في آخر الآية: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾[المجادلة:٢٢]؛ أي: قواهم بقوة منه.

قال العلامة ابن قاسم:

❑ قوله: (أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ)

● مكلف من ذكر وأنثى، حر وعبد، وجوبًا عينيًّا، يعاقب المرء على تركه.

❑ قوله: (تَعَلُّمُ ثَلاثِ هَذِهِ الْمَسَائِلِ والْعَمَلُ بِهِنَّ)

● أي: معرفتهن، واعتقاد معانيهن، والعمل بمدلولهن، فإن العمل هو ثمرة العلم.

❑ قوله: (أَنَّ الله خَلَقَنَا وَرَزَقَنَا)

● أي: أوجدنا بعد أن لم نكن شيئًا لعبادته، ورزقنا النعم لنستعين بها على ما خلقنا له.

❑ قوله: (وَلَمْ يَتْرُكْنَا هَمَلًا)

● أي: مهملين معطلين سدى، شبه البهائم لا نؤمر ولا ننهى، قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦﴾[القيامة:٣٦]، وقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝١١٥ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[المؤمنون:١١٥،١١٦]، وفي الحديث القدسي:«ابن آدم، خلقتك لأجلي فلا تلعب، وخلقت كل شيء لأجلك فلا تتعب»[(٢٩)]، بل خلقنا لنعبده وحده لا شريك له.

❑ قوله: (بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولًا)

● هو محمدﷺ، أرسله بالهدى ودين الحق، وهذا أصل عظيم من أصول الدين يجب علينا معرفته، واعتقاده، والعمل بمقتضاه.

❑ قوله: (فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ)

● لأن طاعته طاعة لله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝١٣﴾[النساء:١٣]، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝٥٢﴾[النور:٥٢].

❑ قوله: (وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ)

● أعاذنا الله منها ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَـٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝١٤﴾[النساء:١٤]، وقد أمرنا الله بطاعته ونهانا عن معصيته في غير موضع من كتابه.

❑ قوله. ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَـٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾

● معشر الثقلين بأعمالكم يوم القيامة، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾[البقرة:١٤٣] عدلًا خيارًا ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ

---

(٢٩) لم أجد لأحد من أهل العلم -فيما أعلم- كلامًا على هذا الحديث.

شَهِيدًا ﴾[البقرة:١٤٣].

❑ قوله: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾

● هو موسى كليم الرحمن ﷺ كما أخبر الله به في غير موضع من كتابه.

❑ قوله: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾

● أي: عصى فرعون رسول الله موسى ﷺ وأبى إلا التمادي في الكفر والطغيان

❑ قوله: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾

● شديدًا مهلكًا، وذلك بإغراقه وجنوده في البحر، فلم يفلت منهم أحد، ثم بعد ذلك في عذاب البرزخ إلى يوم القيامة، ثم عذاب النار، قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾[غافر:٤٦]؛ أي: يعرضون عليها في البرزخ يعذبون بها ﴿غُدُوًّا﴾ أول النهار ﴿وَعَشِيًّا﴾ آخره ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾[غافر:٤٦]، فهذه عاقبة العاصين للرسل، وجزاء المخلفين لأمرهم؛ أي: فاحذروا أنتم أيها الأمة أن تعصوا نبيكم محمدًا ﷺ فيحل بكم، كما حل بهم من عقاب الله وأليم عذابه في الدنيا والبرزخ في الآخرة، نعوذ بالله من ذلك. وفي القرآن آيات كثيرة في بيان سعادة من أطاع الرسل وشقاوة من عصاهم.

❑ قوله: (أَنَّ الله لاَ يَرْضَىٰ أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ أَحَدٌ)

● فهو سبحانه المستحق لها وحده، ومن سواه لا يستحق شيئا منها، وفي الحديث القدسي: «إني والجن والإنس في نبأ عظيم، أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر سواي، أتحبب إليهم بالنعم ويتبغضون إلي بالمعاصي»(٣٠)؛ ولأن الشرك أظلم الظلم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾[لقمان:١٣]، والظلم: وضع الشيء في غير موضعه. وسمى الله المشرك ظالما؛ لأنه وضع العبادة في غير موضعها، وصرفها لغير مستحقها، وأخبر تعالى أنه لا يرضى لعباده الكفر، وإنما يرضى لهم الإسلام، كما قال تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[المائدة:٣]، وفي الحديث: «إن الله يرضى لكم ثلاثًا: أن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئًا..»(٣١) الحديث

---

(٣٠) أخرجه الطبراني في «مسند الشاميين» (٩٧٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٥٦٣)، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، وضعفه العلامة الألباني في «الضعيفة» (٢٣٧١).

(٣١) أخرجه أحمد (٢/٣٦٧)، وابن حبان (٨/١٨٢/إحسان)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦/٢٥)، من

❑ قوله: (لا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، ولاَ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ)

● أي: لا يرضى سبحانه أن يجعل له شريك في عبادته، لا ملك مقرب عنده ولا نبي مرسل، يعني: فضلًا عن غيرهما من سائر المخلوقات. فإذا لم يرض بعبادة من كان قريبًا منه كالملائكة. ولا نبيًّا مرسلًا ــو هم أفضل الخلقــ فغيرهم بطريق الأولى؛ لأن العبادة لا تصلح إلا لله وحده، فكما أنه المتفرد بالخلق والرزق والتدبير فهو المستحق للعبادة وحده دون من سواه.

❑ قوله: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾

● أي: وأن المواضع التي بنيت للصلاة والعبادة وذكر الله، أو أعضاء السجود لله فلا تعبدوا، نهي عام لجميع الخلق الإنس والجن فيها، أو بها مع الله أحدا، و﴿أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾[الجن:١٨] نكرة في سياق النهي شملت جميع ما يدعى من دون الله، سواء كان المدعو من دون الله صنمًا، أو وليًّا، أو شجرةً، أو قبرًا، أو جنيًّا، أو غير ذلك، فإن دعاء غير الله هو الشرك الأكبر والذنب الذي لا يغفر إلا بالتوبة منه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[النساء:٤٨]، ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾[المائدة:٧٢].

❑ قوله: (أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ وَوَحَّدَ الله)

● أي: المسألة الثالثة من المسائل الثلاث التي يجب على المكلف معرفتها، واعتقادها، والعمل بموجبها: أن من أطاع الرسول فيما أمر به، واجتنب ما نهى عنه ووحد الله في عبادته.

❑ قوله: (لاَ يَجُوزُ لَهُ مُوَالاةُ مَنْ حَادَّ الله وَرَسُولَهُ)

● بل يجب عليه أن يصارمهم ويقاطعهم ويعاديهم أشد المعاداة.

والمحادون لله: وهم الكافرون بالله وقد حرم الله موالاتهم على كل مسلم ومسلمة.

والموالاة: الموادة، والصداقة ضد المعاداة. والمحادة هي: المجانبة والمخالفة والمغاضبة والمعاداة، ولها أيضًا عند أهل العلم معنيان:

=

حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أحدهما: أن الكفار كانوا في حد والمؤمنون في حد، المؤمنون في حد الله ورسوله، وهو الإيمان، والمشركون في حد إبليس وجنوده، وهو الكفر.

والقول الثاني: إنه ليس بين الكافرين والمسلمين إلا الحديد، يعني: القتال بالحديد.

❑ قوله: (وَلَوْ كَانَ أَقْرَبَ قَرِيبٍ)

● أي: ولو كان من حاد الله ورسوله ابنك أو أباك أو أخاك أو عشيرتك، فإن الله قطع التواصل والتوادد، والتعاقل والتوارث، وغير ذلك من الأحكام والعلائق وقرب الإنسان بين المسلمين والكفار، فإن القرب هو في الحقيقة قرب الدين لا قرب النسب، فالمسلم ولو كان بعيد الدار فهو أخوك في الله، والكافر ولو كان أخوك في النسب فهو عدوك في الدين، وحرام على كل مسلم موالاتهم، بل يجب اتخاذهم أعداء وبغضاء.

❑ قوله: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾

● خطاب للنبي ﷺ أنه لا يجد قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر الإيمان الواجب ﴿يُوَآدُّونَ﴾؛ أي: يوالون ويحبون من حاد الله ورسوله، وهم الكافرون، وإن كانوا أقرب قريب، فلا يجتمع الإيمان ومحبة أعداء الله، بل لا تجد المؤمنين إلا محادين من حاد الله ورسوله، معادين من عادى الله ورسوله، فإن الموادة: المحابة، مفاعلة من المحبة، ولا ريب أن الإيمان الواجب يوجب محادة من حاد الله ورسوله، كما أنه يستلزم محبة من يحب الله ورسوله وموالاتهم، فمن والى الكافرين فقد ترك واجبًا من واجبات الإيمان، واستحق أن ينفي عنه الإيمان كما في النصوص. وكذا من ترك موالاة المؤمنين فقد ترك واجبًا من واجبات الإيمان، واستحق أن ينفي عنه الإيمان ولا يلزم من نفيه عنهم أن ينتفي بالكلية.

❑ قوله: ﴿وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾

● أي: لا يوادن من حاد الله ورسوله ولو كانوا الأقربين، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾[آل عمران:٢٨] : أصدقاء وأصحابا ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾[آل عمران:٢٨]، الآية، وقال: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾[التوبة:٢٤] إلى قوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[التوبة:٢٤]، وختمها بقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾[التوبة:٢٤]، فسماهم فاسقين بذلك.

❑ قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾

● أي: أولئك الذين لم يوادوهم أثبت الله في قلبهم الإيمان وأرساه، فهي موقنة مخلصة، وكتب السعادة، وزين الإيمان في بصائرهم.

❑ قوله: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾

● أي: قواهم بنصر منه، ونور قلوبهم بالإيمان وبالقرآن وحججه، وسمى نصره إياهم روحا؛ لأن به أمرهم.

❑ قوله: ﴿وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾

● الجنة: اسم لدار جمعت أنواع النعيم الذي أعلاها النظر إلى وجه الله الكريم، ﴿وَيُدۡخِلُهُمۡ﴾[المجادلة:٢٢]؛ أي: يسكنهم جنات في دار كرامته التي أعدت للمتقين، وسميت اسم البساتين؛ لأنها أشجار مثمرة، وأنهار جارية، وقصور عالية تجري من تحت أشجارها، ومساكنها المياه في الأنهار، وفي الحديث: «أنهار الجنة في غير أخدود»(٣٢) ﴿خَٰلِدِينَ﴾ دائمين ﴿فِيهَا﴾[المجادلة:٢٢] ﴿لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ١٠٨﴾[الكهف:١٠٨].

❑ قوله: ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾

● وهذا أعلى مراتب النعيم وفيه سر بديع، وهو أنهم لما أسخطوا القرائب والعشائر في الله عوضهم الله بالرضى عنهم، وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم، والفوز العظيم والفضل العميم.

❑ قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ﴾

● لما ذكر هذه النعم أتبعه بما يوجب ترك الموالاة لأعداء الله، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ أي: الموالون أولياء الله، المصارمون أعداء الله هم ﴿حِزۡبُ ٱللَّهِ﴾ وأنصاره في أرضه، وعباده المقربون، وأهل كرامته.

❑ قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٢٢﴾

● الفائزون في الدنيا والآخرة، الناجون يوم القيامة، وفي الحديث: «اللهم لا تجعل لفاجر، ولا لفاسق عندي يدا ولا نعمة، فإني وجدت فيما أوحيته إلي»(٣٣) ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا

---

(٣٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٣٩٥٩)، من حديث مسروق رحمه الله موقوفًا.

(٣٣) قال العراقي رحمه الله في «تخريج الإحياء» (١١٦/٢): «أخرجه ابن مردويه في «التفسير» من رواية كثير =

يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾[المجادلة:٢٢]، وظهر بهذا أنه يجب على كل مسلم مقاطعة المشركين ومنابذتهم.

قال العلامة العثيمين:

❑ قوله: (أَنَّ الله خَلَقَنَا)

●ودليل ذلك -أعني أن الله خلقنا- سمعي وعقلي:

أما السمعي: فكثير ومنه قوله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۝٢﴾[الأنعام:٢] وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾[الأعراف:١١] الآية، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٦﴾[الحجر:٢٦]، وقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ۝٢٠﴾[الروم:٢٠]، وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝١٤﴾[الرحمن:١٤] وقوله: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾[الرعد:١٦]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾[الصافات:٩٦] وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾[الذاريات:٥٦] إلى غير ذلك من الآيات.

أما الدليل العقلي على أن الله خلقنا فقد جاءت الإشارة إليه في قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥﴾[الطور:٣٥] فإن الإنسان لم يخلق نفسه؛ لأنه قبل وجوده عدم والعدم ليس بشيء وما ليس بشيء لا يوجد شيئًا، ولم يخلقه أبوه ولا أمه ولا أحد من الخلق، ولم يكن ليأتي صدفة بدون موجد؛ لأن كل حادث لا بد له من محدث، ولأن وجود هذه المخلوقات على هذا النظام البديع والتناسق المتآلف يمنع منعًا باتًا أن يكون صدفة. إذ الموجود صدفة ليس على نظام في أصل وجوده فكيف يكون منتظمًا حال بقائه وتطوره، فتعين بهذا أن يكون الخالق هو الله وحده فلا خالق ولا آمر إلا الله، قال الله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾[الأعراف:٥٤].

ولم يعلم أن أحدًا من الخلق أنكر ربوبية الله سبحانه وتعالى إلا على وجه المكابرة، كما حصل من فرعون، وعندما سمع جبير بن مطعم رسول الله ﷺ يقرأ سورة الطور فبلغ

=

بن عطية عن رجل لم يسم، ورواه أبو منصور الديلمي في «مسند الفردوس» من حديث معاذ رضي الله عنه، وأبو موسى المديني في كتاب «تضييع العمر والأيام» مرسلًا، وأسانيده كلها ضعيفة».

قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الطور:٣٥-٣٧]، وكان جبير بن مطعم يومئذ مشركًا فقال: «كاد قلبي أن يطير وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي»(٣٤).

❑ قوله: (وَرَزَقَنَا)

●أدلة هذه المسألة كثيرة من الكتاب والسنة والعقل، أما الكتاب: فقال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات:٥٨] وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُلِ اللَّهُ﴾ [سبأ:٢٤] وقوله: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ [يونس:٣١] والآيات في هذا كثيرة.

وأما السنة: فمنها قوله ﷺ في الجنين: «يبعث إليه ملك فيؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أم سعيد»(٣٥).

وأما الدليل العقلي على أن الله رزقنا؛ فلأننا لا نعيش إلا على طعام وشراب، والطعام والشراب خلقه الله ﷻ كما قال الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الواقعة:٦٣-٧٠] ففي هذه الآيات بيان أن رزقنا طعامًا وشرابًا من عند الله ﷻ.

❑ قوله: (وَلَمْ يَتْرُكْنَا هَمَلًا)

● هذا هو الواقع الذي تدل عليه الأدلة السمعية والعقلية:

أما السمعية: فمنها قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [المؤمنون:١١٥، ١١٦] وقوله: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة:٣٦-٤٠].

---

(٣٤) أخرجه البخاري -مفرقًا- طرفه الأول (٤٨٥٤)، وطرفه الثاني (٤٠٢٣) من حديث جبير بن مطعم ﷺ.

(٣٥) أخرجه البخاري (٦٥٩٤)، ومسلم (٢٦٤٣)، من حديث ابن مسعود ﷺ.

وأما العقل: فلأن وجود هذه البشرية لتحيا ثم تتمتع كما تتمتع الأنعام ثم تموت إلىٰ غير بعث ولا حساب أمر لا يليق بحكمة اللهﷻ، بل هو عبث محض، ولا يمكن أن يخلق الله هذه الخليقة ويرسل إليها الرسل ويبيح لنا دماء المعارضين المخالفين للرسل عليهم الصلاة والسلام ثم تكون النتيجة لا شيء، هذا مستحيل علىٰ حكمة اللهﷻ.

❏ قوله: (بَل أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولًا)

● أي: أن اللهﷻ أرسل إلينا معشر هذه الأمة -أمة محمد ﷺ- رسولًا يتلو علينا آيات ربنا، ويزكينا، ويعلمنا الكتاب والحكمة، كما أرسل إلىٰ من قبلنا، قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر:٢٤] ولا بد أن يرسل الله الرسل إلىٰ الخلق لتقوم عليهم الحجة وليعبدوا الله بما يحبه ويرضاه قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء:١٦٣-١٦٥] ولا يمكن أن نعبد الله بما يرضاه إلا عن طريق الرسل -عليهم الصلاة والسلام-؛ لأنهم هم الذين بينوا لنا ما يحبه الله ويرضاه، وما يقربنا إليهﷻ فبذلك كان من حكمة الله أن أرسل إلىٰ الخلق رسلًا مبشرين ومنذرين، الدليل قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾ [المزمل:١٥،١٦].

❏ قوله: (فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ)

● هذا حق مستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران:١٣٢،١٣٣] ومن قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾﴾ [النساء:١٣] ومن قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النور:٥٢] وقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء:٦٩] وقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب:٧١] والآيات في ذلك كثيرة.

ومن قوله ﷺ: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى. فقيل: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني دخل النار»[٣٦]. رواه البخاري.

❑ قوله: (وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ)

● هذا أيضًا حق مستفاد من قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾[النساء:١٤] وقوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾[الأحزاب:٣٦] وقوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾[الجن:٢٣] ومن قوله ﷺ في الحديث السابق: «ومن عصاني دخل النار».

❑ قوله: (الثَّانِيَةُ...)

● أي: المسألة الثانية مما يجب علينا علمه أن الله سبحانه وتعالى لا يرضى أن يشرك معه في عبادته أحد، بل هو وحده المستحق للعبادة، ودليل ذلك ما ذكره المؤلف رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾[الجن:١٨] فنهى الله تعالى أن يدعو الإنسان مع الله أحدًا، والله لا ينهى عن شيء إلا وهو لا يرضاه سبحانه وتعالى، وقال الله ﷻ: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾[الزمر:٧]، وقال تعالى: ﴿فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾[التوبة:٩٦]، فالكفر والشرك لا يرضاه الله سبحانه وتعالى، بل إنما أرسل الرسل وأنزل الكتب لمحاربة الكفر والشرك والقضاء عليهما، قال الله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾[الأنفال:٣٩]، وإذا كان الله لا يرضى بالكفر والشرك فإن الواجب على المؤمن أن لا يرضى بهما؛ لأن المؤمن رضاه وغضبه تبع رضا الله وغضبه، فيغضب لما يغضب الله ويرضى بما يرضاه الله ﷻ، وكذلك إذا كان الله لا يرضى الكفر ولا الشرك فإنه لا يليق بمؤمن أن يرضى بهما. والشرك أمره خطير، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[النساء:٤٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾[المائدة:٧٢]، وقال النبي ﷺ: «من لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئًا دخل النار»[٣٧].

---

(٣٦) أخرجه البخاري (٧٢٨٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣٧) أخرجه مسلم (٩٣/١٥٢)، وأحمد (٣٢٥/٣)، وعبد بن حميد (١٠٦٠/منتخب)، والطبراني في

❑ قوله: (الثَّالِثَةُ...)

●أي: المسألة الثالثة مما يجب علينا علمه: الولاء والبراء، والولاء والبراء أصل عظيم جاءت فيه النصوص الكثيرة قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾[آل عمران:١١٨]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾[المائدة:٥١]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾[المائدة:٥٧]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾[التوبة:٢٣،٢٤]، وقال ﷻ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾[الممتحنة:٤] الآية. ولأن موالاة من حاد الله ومداراته تدل على أن ما في قلب الإنسان من الإيمان بالله ورسوله ضعيف؛ لأنه ليس من العقل أن يحب الإنسان شيئًا هو عدو لمحبوبه، وموالاة الكفار تكون بمناصرتهم ومعاونتهم على ما هم عليه من الكفر والضلال، وموادتهم تكون بفعل الأسباب التي تكون بها مودتهم فتجده يوادهم؛ أي: يطلب ودهم بكل طريق، وهذا لا شك ينافي الإيمان كله أو كماله، فالواجب على المؤمن معاداة من حادَّ الله ورسوله ولو كان أقرب قريب إليه، وبغضه والبعد عنه، ولكن هذا لا يمنع نصيحته ودعوته للحق.

قال العلامة الفوزان:

❑قوله: (اعْلَمْ)

●هذه الكلمة قلنا فيما سبق: أنها كلمة يؤتى بها للاهتمام بما بعدها ومعناها: تعلم وافهم وتيقن.

=

«مسند الشاميين»، (١٠٢٠)، وغيرهم من حديث جابر ﷺ.

❑قوله: (رَحِمَكَ الله)

●هذا دعاء لك بالرحمة، وهذا -أيضًا- كما سبق في أن المعلم ينبغي أن يتلطف مع المتعلم، وأن يدعو له ويرغبه، فإن هذا من أعظم وسائل التعليم، ولا ينبغي له أن يقابل المتعلم بالقسوة والشدة والغلظة؛ لأن هذا ينفر عن العلم، ثم هذا -أيضًا- يدل على النصح من الشيخ، وأنه يريد النصيحة والمنفعة والتوجيه السديد.

❑قوله: (أَنَّهُ يَجِبُ)

●الوجوب معروف عند الأصوليين، والواجب هو الشيء الذي لا بد منه، وقد عرَّفه الأصوليون بأنه: ما يثاب فاعله، ويعاقب تاركه.

وأصل الوجوب في اللغة: الثبوت والاستقرار يقال: وجب كذا أي: ثبت واستقر، قال تعالى في البدن: ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ﴾ [الحج:٣٦] أي: سقطت على الأرض واستقرت ميتة بعد ذكاتها ﴿ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ﴾ [الحج:٣٦].

فقوله: (يجب)، يدل على أن الأمر ليس من باب الاستحباب، من شاء فعل، ومن شاء ترك، بل الأمر من باب الإلزام من الله -سبحانه وتعالى- ليس هذا الإيجاب من قبل الشيخ، وإنما هو من قبل الله ﷻ فيما أنزل في الكتاب والسنة من إلزام العباد بهذه المسائل.

❑قوله: (عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ)

●أي: يجب على كل ذكر وأنثى من المسلمين سواء كانوا أحرارًا أو عبيدًا، أو ذكورًا أو إناثًا؛ لأن المرأة تشارك الرجل في كثير من الواجبات إلا ما خصه الدليل بالرجال، فإنه يختص بهم مثل وجوب صلاة الجماعة في المساجد، وصلاة الجمعة ومثل زيارة القبور فإنها خاصة بالرجال، ومثل الجهاد في سبيل الله فإنه خاص بالرجال.

فما دل الدليل على اختصاصه بالرجال فإنه يختص بهم، وإلا فإن الأصل أن الرجال والنساء سواء في الواجبات، وتجنب المحرمات وسائر التكاليف.

ومن ذلك: أن تعلُّم العلم واجب على الرجال والنساء؛ لأنه لا يمكن عبادة الله -جل وعلا- التي خلقنا من أجلها إلا بتعلم العلم الذي نعرف به عبادة ربنا، فهذا واجب على الرجال والنساء أن يتعلموا أمور دينهم، لا سيما أمور العقيدة.

□قوله: (تَعَلُّمُ ثَلاثِ هَذِهِ الْمَسَائِلِ)

●التعلم هنا معناه: التلقي عن العلماء والحفظ والفهم والإدراك، هذا هو التعلم، ليس المراد مجرد قراءة أو مطالعة حرة، كما يسمونها هذا ليس تعلُّمًا إنما التعلم هو: التلقي عن أهل العلم مع حفظ ذلك وفهمه وإدراكه تمامًا، هذا هو التعلم الصحيح، أما مجرد القراءة والمطالعة، فإنها لا تكفي في التعلُّم، وإن كانت مطلوبة، وفيها فائدة، لكنها لا تكفي، ولا يكفي الاقتصار عليها.

ولا يجوز التتلمذ على الكتب، كما هو الواقع في هذا الوقت؛ لأن التتلمذ على الكتب خطير جدًّا يحصل منه مفاسد وتعالم أضر من الجهل؛ لأن الجاهل يعرف أنه جاهل، ويقف عند حده، لكن المتعالم يرى أنه عالم، فيحلُّ ما حرم الله، ويحرم ما أحل الله، ويتكلم ويقول على الله بلا علم فالمسألة خطيرة جدًا.

فالعلم لا يؤخذ من الكتب مباشرة إنما الكتب وسائل، أما حقيقة العلم فإنها تؤخذ عن العلماء جيلًا بعد جيل، والكتب إنما هي وسائل لطلب العلم.

□قوله: (الأولى: أَنَّ اللهَ خَلَقَنَا)

●أي: أوجدنا من العدم، فنحن من قبل أن يخلقنا لم نكن شيئا، كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾ [الإنسان:١]، وقال سبحانه: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩﴾ [مريم:٩]، كان الإنسان قبل أن يخلق ليس بشيء، والذي أوجده وخلقه هو الله ﷻ، قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥﴾ [الطور:٣٥].

□قوله: (وَرَزَقَنَا)

●لما كنا نحتاج إلى الرزق، إلى الطعام والشراب، والملابس والمساكن، والمراكب والمصالح، علم سبحانه حاجتنا فسخر لنا ما في السماوات والأرض كله لمصالحنا من أجل بقائنا على قيد الحياة، ومن أجل أن نستعين بذلك على ما خلقنا لأجله، وهو عبادة الله -سبحانه وتعالى-.

□قوله: (وَلَمْ يَتْرُكْنَا هَمَلًا)

●الهمل: هو الشيء المهمل المتروك الذي لا يُعبأ به، فالله خلقنا ورزقنا لحكمة، ما

خلقنا عبثًا ولا سدى، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾[المؤمنون:١١٥].

وقال سبحانه: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾﴾[القيامة:٣٦-٣٨].

وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾﴾[ص:٢٧].

الله إنما خلقنا وخلق لنا هذه الأرزاق والإمكانيات لحكمة عظيمة وغاية جليلة، وهي أن نعبده -سبحانه وتعالى- ولم يخلقنا كالبهائم التي خلقت لمصالح العباد ثم تموت وتذهب؛ لأنها ليست مكلفة ولا مأمورة ولا منهية، إنما خلقنا لعبادته، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾[الذاريات:٥٦-٥٨]، ولم يخلقنا لهذه الحياة الدنيا فقط نعيش فيها، ونسرح ونمرح، ونأكل ونشرب ونتوسع فيها، وليس بعدها شيء، وإنما الحياة مزرعة ومسوق للدار الآخرة نتزود فيها بالأعمال الصالحة، ثم نموت وننتقل منها، ثم نبعث ثم نحاسب ونجازى بأعمالنا.

هذه هي الغاية من خلق الجن والإنس، والدليل على ذلك آيات كثيرة تدل على البعث والنشور والجزاء والحساب، والعقل يدل على هذا، فإنه لا يليق بحكمة الله -سبحانه وتعالى- أن يخلق هذا الخلق العجيب، وأن يسخِّر هذا الكون لبني آدم ثم يتركهم يموتون ويذهبون بدون نتيجة، هذا عبث، فلا بد أن تظهر نتائج هذه الأعمال في الدار الآخرة.

ولهذا قد يكون من الناس من يفني عمره في عبادة الله وفي طاعته، وهو في فقر وفي حاجة، وقد يكون مظلومًا مضغوطًا عليه ومضيقًا عليه، ولا ينال شيئًا من جزاء عمله في هذه الدنيا، وعلى العكس يكون من الناس كافر ملحد شرير يسرح ويمرح في هذه الحياة، ويتنعم ويعطى ما يشتهي، ويرتكب ما حرَّم الله، ويظلم العباد ويعتدي عليهم، ويأكل أموالهم، ويقتل بغير حق، ويتسلط ويتجبر ثم يموت على حاله، ما أصابه شيء من العقوبة، هل يليق بعدل الله -سبحانه وتعالى- وحكمته أن يترك هذا المطيع بدون جزاء، وأن يترك هذا الكافر بدون مجازاة، هذا لا يليق بعدله -سبحانه وتعالى- ولذلك جعل

دارًا أخرىٰ يجازىٰ فيها المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، فتظهر فيها ثمرات الأعمال.

فالدنيا دار عمل، وأما الآخرة فهي دار جزاء إما جنة وإما نار، ولم يتركنا هملًا، كما يظن الملاحدة والدهريون، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾[الجاثية:٢٤]، هذه مقالة الملاحدة الذين لا يؤمنون بالبعث والنشور.

وقد أنكر الله ﷻ عليهم فقال: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾[القلم:٣٥،٣٦]، وقال تعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾[الجاثية:٢١].

وقال تعالىٰ: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾[ص:٢٨]. فهذا لا يمكن ولا يكون أبدًا.

□قوله: (بَل أَرْسَلَ إِلَيْنَا)

لمَّا كانت العبادة لا يجوز أن نأخذها من استحساننا أو تقليد فلان وعلان من الناس، أرسل الله إلينا رسلًا تبين لنا كيف نعبده؛ لأن العبادات توقيفية لا يجوز أن يعبد الله بشيء إلا بما شرعه.

فالعبادات توقيفية علىٰ ما جاءت به الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، فالحكمة من إرسال الرسل أن يبيّنوا للناس كيف يعبدون ربهم، وينهونهم عن الشرك والكفر بالله ﷻ.

هذه مهمة الرسل -عليهم الصلاة والسلام-؛ ولهذا يقول عليه الصلاة والسلام: «من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد»[٣٨]، فالعبادة توقيفية، والبدع مردودة، والخرافات مردودة، والتقليد الأعمىٰ مرفوض لا تؤخذ العبادات إلا من الشريعة التي جاء بها الرسول ﷺ.

□قوله: (رَسُولًا)

●هو محمد ﷺ خاتم النبيين، أرسله ليبيّن لنا لماذا خلقنا؟ ويبيّن لنا كيف نعبد الله ﷻ، وينهانا عن الشرك والكفر والمعاصي، هذه مهمة الرسول ﷺ وقد بلغ البلاغ المبين، وأدىٰ الأمانة، ونصح الأمة عليه الصلاة والسلام، وبين ووضح، وتركنا علىٰ المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، وهذا كما في قوله تعالىٰ: ﴿الْيَوْمَ

---

(٣٨) سبق تخريجه.

أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا ﴾[المائدة:٣].

❑قوله: (فَمَنْ أَطَاعَهُ)

●أي: فيما أمر به، دخل الجنة.

❑وقوله: (وَمَنْ عَصَاهُ)

●أي: فيما نهى عنه، دخل النار.

وهذا مصداقه كثير في القرآن، قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[النساء:٨٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾[النساء:٦٤]، وقال سبحانه: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْ﴾[النساء:٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾[النور:٥٦]، فمن أطاعه اهتدى ودخل الجنة، ومن عصاه ضل ودخل النار، قال ﷺ : «كلكم يدخل الجنة إلا من أبى، قالوا: يا رسول الله ومن يأبى؟ قال: من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى»(٣٩).

فقوله أبى؛ أي: أبى أن يدخل الجنة.

وقال: «لا يسمع بي يهودي ولا نصراني، ثم لا يؤمن بالذي جئت به إلا دخل النار»(٤٠).

فمن أطاعه دخل الجنة ومن عصاه دخل النار، وهذا هو الفارق بين المؤمن والكافر.

❑ قوله: (والدَّلِيلُ...)

●أي: على إرسال الرسول ﷺ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ﴿١٦﴾﴾[المزمل:١٥،١٦].

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ﴾: الضمير راجع إلى الله -سبحانه وتعالى-، وهذا ضمير المعظم نفسه؛ لأنه عظيم -سبحانه وتعالى-.

﴿أَرۡسَلۡنَآ﴾ كذلك هذا ضمير العظمة، ومعنى أرسلنا: بعثناه وأوحينا إليه.

﴿إِلَيۡكُمۡ﴾: يا معشر الثقلين الجن والإنس، خطاب لجميع الناس؛ لأن رسالة هذا

---

(٣٩) سبق تخريجه.

(٤٠) أخرجه مسلم (١٥٣)، وأحمد (٢/٣١٧)، وغيرهما من حديث أبي هريرة ﷺ.

الرسول عامة لجميع الناس إلى أن تقوم الساعة.

﴿رَسُولًا﴾: هو محمد ﷺ.

﴿شَاهِدًا عَلَيْكُمْ﴾: أي عند الله -سبحانه وتعالى- يوم القيامة بأنه بلغكم رسالة الله وأقام الحجة عليكم، كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[النساء:١٦٥]، فلا أحد يوم القيامة يقول: أنا لم أدر أني مخلوق للعبادة، أنا لم أدر ماذا يجب علي، ولم أدر ماذا يحرم علي، لا يمكن أن يقول هذا؛ لأن الرسل عليهم الصلاة والسلام- قد بلغتهم، وهذه الأمة المحمدية تشهد عليهم، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[البقرة:١٤٣].

فهذه الأمة تشهد على الأمم السابقة يوم القيامة أن رسلها بلغتها رسالات الله، بما يجدونه من كتاب الله ﷻ؛ لأن الله قصَّ علينا نبأ الأمم السابقة والرسل وما قالوه لأممهم.

كل هذا عرفناه من كتاب الله ﷻ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ﴾: وهو محمد ﷺ؛ عليكم، يا أمة محمد شهيدًا، يشهد عليكم عند الله أنه أقام عليكم الحجة وبلغكم الرسالة، ونصحكم في الله. فلا حجة لأحد يوم القيامة بأن يقول: ما بلغني شيء، ما جاءني من نذير، حتى الكفار يعترفون عندما يلقون في النار، قال تعالى: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ۝٩﴾[الملك:٨،٩]، يقولون للرسل: أنتم في ضلال، فهم يكذِّبون الرسل ويضللونهم.

هذه الحكمة في إرسال الرسل؛ إقامة الحجة على العباد، وهداية من أراد الله هدايته، الرسل يهدي الله بهم من يشاء، ويقيم الحجة على من عاند وجحد وكفر.

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝١٥﴾[المزمل:١٥]: الرسول هو موسى -عليهم الصلاة والسلام-، وفرعون هو الملك الجبار في مصر الذي ادعى الربوبية، وفرعون: لقب لكل من ملك مصر يقال له: فرعون، المراد به هنا فرعون الذي أدعى الربوبية: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ۝٢٤﴾[النازعات:٢٤].

﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾[المزمل:١٦] : هو موسى، كفر به فرعون، كما قص الله في كتابه ما جرى بين موسى وفرعون، وما انتهى إليه أمر فرعون وقومه.

﴿فَأَخَذْنَٰهُ﴾[المزمل:١٦]؛ أي: أخذنا فرعون بالعقوبة وهو أن الله أغرقه هو وقومه في البحر، ثم أدخلهم النار: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾[نوح:٢٥]. فصار في النار في البرزخ.

قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾[غافر:٤٦]. هذا في البرزخ قبل الآخرة، يعرضون على النار صباحًا ومساءً إلى أن تقوم الساعة، وهذا دليل على عذاب القبر، والعياذ بالله، ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾[غافر:٤٦]؛ أي: شديدًا قويًا لا هوادة فيه، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾[هود:١٠٢].

هذه ثلاثة عقوبات:

الأولى: أن الله أغرقهم ومحاهم عن آخرهم في لحظة واحدة.

الثاني: أنهم يعذبون في البرزخ إلى أن تقوم الساعة.

الثالثة: أنهم إذا بعثوا يوم القيامة يدخلون أشد العذاب، والعياذ بالله.

وكذلك من عصى محمدًا ﷺ فإن مآله أشد من مآل قوم فرعون؛ لأن محمدًا هو أفضل الرسل فمن عصاه تكون عقوبته أشد.

﴿أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾[المزمل:١٦]؛ أي: شديدًا قويًا لا هوادة فيه، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾[هود:١٠٢]

فهذه الآية دليل على منة الله علينا بإرسال الرسول محمد ﷺ إلينا، وأن الغرض من إرساله أن يبين لنا طريق العبادة، فمن أطاعه دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار، كما دخل آل فرعون النار لما عصوا رسولهم موسى -عليه الصلاة والسلام-.

وكذلك أعداء الرسل كلهم هذا سبيلهم وهذا طريقهم.

❑ قوله: (الثَّانِيَةُ)

● هذه المسألة متعلقة بالمسألة الأولى؛ لأن الأولى: هي بيان وجوب عبادة الله واتباع الرسول ﷺ، وهو معنى الشهادتين، معنى شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمدًا رسول الله.

والمسألة الثانية: أن العبادة إذا خالطها شرك فإنها لا تقبل؛ لأنه لا بد أن تكون العبادة خالصة لوجه الله ﷻ.

فمن عبد الله وعبد معه غيره فعبادته باطلة، وجودها كعدمها؛ لأن العبادة لا تنفع إلا مع الإخلاص والتوحيد، فإذا خالطها شرك فسدت، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾[الزمر:٦٥].

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾[الأنعام:٨٨] فالعبادة لا تسمى عبادة إلا مع التوحيد، كما أن الصلاة لا تسمى صلاة إلا مع الطهارة، فإذا خالط الشرك العبادة أفسدها، كما أن الطهارة إذا خالطها ناقض من نواقض الوضوء أفسدها وأبطلها، ولهذا يجمع الله في كثير من الآيات بين الأمر بعبادته والنهي عن الشرك.

قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾[النساء:٣٦]، وقال: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾[البينة:٥]، وقالﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾[الأنبياء:٢٥].

فقوله تعالى: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا﴾[النحل:٢]، فيه أمران: فيه نفي الشرك، وفيه إثبات العبادة لله تعالى.

وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾[الإسراء:٢٣] ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[النحل:٣٦]. قرن بين عبادة الله واجتناب الطاغوت؛ لأن عبادة الله لا تكون عبادة إلا مع اجتناب الطاغوت وهو الشرك، قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾[البقرة:٢٦٥].

فالإيمان بالله لا يكفي إلا مع الكفر بالطاغوت، وإلا فالمشركون يؤمنون بالله لكنهم يشركون به، ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾[يوسف:١٠٦].

بين سبحانه أن عندهم إيمان بالله، ولكن يفسدونه بالشرك والعياذ بالله.

هذا معنى قول الشيخ، أن من عبد الله وأطاع الرسول فإنه لا يشرك بالله شيئًا، لأن الله لا يرضى أن يشرك معه أحد في عبادته.

قال ﷺ يرويه عن ربهﷻ: « قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل

عملًا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه»[٤١].

هناك قوم يصلون ويشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويكثرون من ذلك ويصومون ويحجون لكنهم يدعون الأضرحة، ويعبدون الحسن، والحسين، والبدوي، وفلانًا، وعلانًا، ويستغيثون بالأموات، هؤلاء عبادتهم باطلة؛ لأنهم يشركون بالله ﷻ يخلطون العبادة بالشرك، فعملهم باطل حابط حتى يوحدوا الله ﷻ ويخلصوا له العبادة ويتركوا عبادة ما سواه.

وإلا فإنهم ليسوا على شيء، فيجب التنبه لهذا؛ لأن الله لا يرضى أن يشرك معه في عبادته أحد كائنًا من كان، لا يرضى سبحانه بمشاركة أحد مهما كان؛ لئلا يقول أحد: أنا أتخذ من الأولياء والصالحين والطيبين شفعاء، أنا لا أعبد الأصنام والأوثان كما هو في الجاهلية، أنا أتخذ هؤلاء شفعاء لا أعبدهم، فنقول له: هذه مقالة الجاهلية اتخذوهم شفعاء عند الله لأنهم صالحون وأولياء من أولياء الله، والله لا يرضى بهذا.

❐قوله: (لا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، ولاَ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ)

●الملك المقرب: هو أفضل الملائكة مثل: جبريل ﷺ، وحملة العرش ومن حوله، والملائكة المقربون من الله -سبحانه وتعالى-، فمع قرب المكان من الله ﷻ وقرب العبادة والمكانة عند الله، لو أشركهم أحد مع الله في العبادة فإن الله لا يرضى بأن يشرك معه ملك مقرب ولا نبي مرسل كمحمد ﷺ وعيسى ونوح وإبراهيم -أولي العزم- لا يرضى أن يشرك معه أحد ولو كان من أفضل الملائكة، ولو كان من أفضل البشر.

فهو لا يرضى أن يشرك معه أحد من الملائكة ولا من الرسل، فكيف بغيرهم من الأولياء والصالحين، فغير الملائكة والرسل من باب أولى لا يرضى الله بإشراكهم معه في العبادة، وهذا رد على أولئك الذين يزعمون أنهم يتخذون الصالحين والأولياء شفعاء عند الله؛ ليقربوهم عند الله زلفى، كما قال أهل الجاهلية: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[الزمر:٣].

وإلا فهم يعتقدون أن هؤلاء لا يخلقون، ولا يرزقون، ولا يملكون موتًا، ولا حياةً، ولا نشورًا، وإنما قَصْدُهُم التوسط عند الله ﷻ؛ ولذلك صرفوا لهم شيئًا من العبادة تقربًا

(٤١) أخرجه مسلم (٢٩٨٥)، وابن ماجه (٤٢٠٢)، وغيرهما من حديث أبي هريرة ﷺ.

إليهم، ذبحوا للقبور، ونذروا للقبور، واستغاثوا وهتفوا بالأموات.

❑ قوله: (والدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى...)

●لا يرضى الله بمشاركة أحد كائنا من كان، وهذا صريح في القرآن والسنة، لكن لمن يعقل، ويتدبر، وينبذ التقليد الأعمى، والتعلل الباطل، ويتنبه لنفسه، والدليل على أن الله لا يرضى أن يشرك معه أحد كائنا من كان قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ⑱﴾[الجن:١٨] المساجد: هي بيوت الله، وهي المواطن المعدة للصلاة، وهي أحب البقاع إلى الله، وهي بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، يجب أن تكون هذه المساجد مواطنًا لعبادة الله وحده لا يحدث فيها شيء لغير الله، فلا تبنى عليها القبور والأضرحة؛ لأن النبي ﷺ لعن من فعل ذلك، وأخبر أن هذا هو فعل اليهود والنصارى، ونهانا عن ذلك في آخر حياته، وهو في سكرات الموت عليه الصلاة والسلام بقوله: «ألا إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد -هذا يقوله وهو في سكرات الموت- ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك»[٤٢].

ويقول ﷺ : «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[٤٣].

فالمساجد يجب أن تطهر من آثار الشرك والوثنية، وألا تقام على القبور، أو يدفن فيها الأموات بعد بنائها، بل تكون مواطن عبادة الله وحده، تقام فيها الصلاة، ويذكر فيها اسم الله، ويتلى فيها القرآن، وتقام فيه الدروس النافعة، ويعتكف فيها للعبادة هذه هي وظيفة المساجد.

أما أن تقام فيها أوثانٌ تعبد من دون الله، فهذه ليست مساجد، هذه مشاهد شرك، وإن سماها أهلها مساجد؛ لأن الله يقول: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾، أي: لا لغيره؛ ولأن المساجد هي محل اجتماع الناس وتلاقيهم، فيجب أن تكون طاهرة من الشرك والبدع والخرافات؛ لأن الناس يتلقون فيها العلم والعبادة.

فإذا وجدوا في المساجد شيئًا من الشرك والخرافات تأثروا بذلك، ونشروه في الأرض، فيجب أن تكون المساجد مطهرة من الشرك.

---

(٤٢) أخرجه مسلم (٥٣٢)، والنسائي في «الكبرى» (١١٠٥٨)، وغيرهما من حديث جندب رضي الله عنه.

(٤٣) أخرجه البخاري (٤٣٦)، ومسلم (٥٣١)، وغيرهما من حديث عائشة، وابن عباس رضي الله عنهما.

وأعظمها: المسجد الحرام، كما أمر الله -جل وعلا- بتطهيره، قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾[الحج:٢٦]، طهره من ماذا؟ طهره من الشرك والبدع والخرافات، كما أنه -أيضًا- يطهر من النجاسات والقاذورات.

فقوله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُوا﴾؛ لا: ناهية، وتدعو: فعل مضارع مجزوم بـ: لا الناهية، وعلامة جزمه حذف النون؛ لأن أصله تدعون، فدخل عليه الجازم، وهو لا الناهية.

فلا تدعوا أيها الناس، مع الله أحدًا، لا تستغيثوا بأحد مع الله، كأن يقول: يا الله، يا محمد، يا الله، يا عبد القادر، أو يقول: يا عبد القادر، يا محمد، أو ما أشبه ذلك، فإن الله لا يرضى بذلك، ولا يقبله.

وقوله تعالى: ﴿أَحَدًا﴾: نكرة في سياق النهي فتعم كل أحد، لا يستثنى أحد، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، ولا صنم، ولا وثن، ولا قبر، ولا شيخ، ولا ولي، ولا حي، ولا ميت كائنًا من كان.

فهي تعم كل من دعي من دون الله: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾، فدلت هذه الآية على أن العبادة لا تنفع إلا مع التوحيد، وأنها إذا خالطها الشرك، فإنها تبطل وتكون وبالًا على صاحبها، ثم قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾؛ يجب أن تبنى بنية خالصة لا يكون القصد من بنائها الرياء والسمعة وتخليد الذكر، كما يقولون، وتكون آثارًا إسلامية هذا كله باطل.

المساجد تبنى للعبادة، وبقصد العبادة، وتكون النية فيها خالصة لله ﷻ، وأيضا تبنى من كسب طيب، لا تبنى من كسب حرام؛ لأنها لله ﷻ و«إن لله لا يقبل إلا طيبا»[٤٤]، فتبنى المساجد من نفقة حلال، وتكون نية بانيها خالصة لوجه الله ﷻ لا يريد من بنائه مدحًا من الناس، أو تخليدًا لذكره، أو رياء، أو سمعة؛ فإن بناء المساجد عبادة، والعبادة يجب أن تكون خالصة لله ﷻ.

□قوله: (أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسولَ...)

●لا يجوز لمن فعل ذلك موالاة من حاد الله ورسوله، ولو كان أقرب قريب.

---

(٤٤) أخرجه مسلم (١٠١٥)، والترمذي (٢٩٨٩)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

هذه مسألة الولاء والبراء، وهي تابعة للتوحيد، من حقوق التوحيد: الولاء لأولياء الله، والبراء من أعداء الله، والموالاة والولاء بمعنى واحد، والولاء يراد به المحبة بالقلب، ويراد به المناصرة والمعاونة، ويراد به الإرث والعقل في الديات.

فالمسلم يوالي أولياء الله بمعنى: أنه يحصر محبته على أولياء الله ويناصرهم، فالمسلم يكون مع المسلمين بعضهم من بعض، كما قال تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾[الأنفال:٧٥].

فالتعاقل في ديات الخطأ يكون بين المسلمين، وهو ما يسمى بالتكافل، كل هذا يدخل في الولاء، فلا يكون بين مسلم وكافر، والمحبة، والنصرة، والميراث، والعقل، وولاية النكاح، وولاية القضاء إلى غير ذلك.

فلا يكون بين مسلم وكافر، وإنما يكون هذا بين المسلمين؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ ﴾[النساء:١٤١]، هكذا يجب أن يتميز المؤمنون عن الكفار، فلا يجوز لمن وحد الله، وأطاع الرسول ﷺ موالاة من حاد الله.

والمحادة معناها: أن يكون الإنسان في جانب، والله ورسوله والمؤمنون في جانب، ويكون المحاد في جانب الكفار هذه هي المحادة.

□قوله: (وَلَوْ كَانَ أَقْرَبَ قَرِيبٍ)

●أي: نسبًا، فإذا كان قريبك محادًّا لله ورسوله، فيجب عليك محادَّته ومقاطِعته، ومن كان وليًا لله ورسوله وجب عليك أن تحبه وتواليه، ولو كان بعيدًا من النسب عنك، لو كان أعجميًا أو أسود أو أبيض أو أحمر يجب عليك أن تواليه، وأن تحبه سواء كان من بلدك أو من أقصى الشرق أو من أقصى الغرب، قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾[التوبة:٧١]؛ أي: بينهم المحبة والتناصر والتعاون، وبينهم الألفة هذا بين المؤمنين.

□قوله: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾

● قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ﴾: هذا خطاب للنبي ﷺ ؛ أي: لا يقع هذا ولا يكون موجودا أبدًا، أن يكون مؤمن بالله ورسوله يحب الكفار، فإن أحبهم، فإنه ليس بمؤمن، ولو

كان يدعي ذلك.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في الكافية الشافية:

أتحبُّ أعداءَ الحبيب وتدعي حبًّا له ما ذاك في إمكان

وكذا تعادي جاهدًا أحبابه أين المحبَّة يا أخا الشيطان

فهذا لا يمكن أبدًا أن يحب الكفار، يقول: أنا أحب الله ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾[الممتحنة:١-٤].

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ١١٤﴾[التوبة:١١٤]. هذه ملة إبراهيم تبرأ من أبيه، أقرب الناس إليه لما تبين له أنه عدو الله.

ودلت الآية -أيضًا- على أن محبة الكافر تتنافى مع الإيمان بالله واليوم الآخر، إما مع أصله أو مع كماله، لكن إن كانت محبتهم معها تأييد لمذهبهم وكفرهم، فهذا خروج عن الإسلام، أما إن كان مجرد محبة من غير مناصرة لهم، فهذا يعتبر منقصًا للإيمان وفسقًا ومضعفًا للإيمان.

قيل: إن هذه الآية نزلت في أبي عبيدة بن الجراح -رضي الله تعالى عنه- لما قتل أباه يوم بدر؛ لأن أباه كان على الكفر، وكان يريد أن يقتل ابنه أبا عبيدة، فقتله أبو عبيدة ؛ لأنه عدو الله، ولم يمنعه أنه أبوه، لم يمنعه ذلك من قتله غضبًا لله -سبحانه وتعالى-.

❏قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾

● قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ أي: الذين يبتعدون عن محبة ومودة من حاد الله ورسوله.

وقوله: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾؛ أي: أثبت الله في قلوبهم، ورسخ الله في قلوبهم الإيمان.

❏قوله: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾

● **التأييد** معناه: التقوية، قواهم بروح منه، والروح لها عدة إطلاقات في القرآن،

منها الروح التي هي النفس التي بها الحياة، ومنها: الوحي، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى:٥٢] ومنها جبريل عليه السلام أنه روح القدس، والروح الأمين.

قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [النحل:١٠٢] وقال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ [الشعراء:١٩٣] ومنها: ما في هذه الآية، وهي القوة.

فأيدهم بروح منه؛ أي: بقوة منه -سبحانه وتعالى، قوة إيمان في الدنيا، وفي الآخرة: ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ [المجادلة:٢٢] جمع جنة، والجنة في اللغة البستان، سمي جنة؛ لأنه مجتن بالأشجار؛ أي: مستتر ومغطى بالأشجار الملتفة؛ لأن الجنة ظلال وأشجار وأنهار وقصور وأعلاها وسقفها عرش الرحمن- سبحانه وتعالى.

❑ قوله تعالى: (﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾)

● أي: باقين فيها لا يتحولون عنها، قال تعالى: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الكهف:١٠٨] لا يخافون من موت، ولا يخافون من أحد يخرجهم ويطردهم، مثل ما في الدنيا، قد يكون الإنسان في الدنيا في قصور؛ لكن لا يسلم من الموت، فيخرج منها، ولا يسلم من الأعداء يتسلطون عليه ويخرجونه، الإنسان في الدنيا دائمًا خائف.

❑ قوله: (﴿رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾)

● لما أغضبوا أقرباءهم من الكفار، وعادوهم منحهم الله الرضا منه -سبحانه وتعالى- جزاء لهم، فهم عوضوا بإغضابهم لأقاربهم الكفار، عوضوا برضا الله- سبحانه وتعالى، رضي الله عنهم ورضوا عنه.

❑ قوله: (﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ﴾)

● أي: جماعة الله، وأما الكفار فهم حزب الشيطان، كما قال الله تعالى عنهم: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [المجادلة:١٩] أي: جماعة الشيطان وأنصار الشيطان، أما هؤلاء فهم أنصار الرب.

فهذه المسألة تتعلق بعداوة الكفار، وعدم موالاتهم، وهي لا تقتضي أننا نقاطع الكفار في الأمور والمنافع الدنيوية، بل يستثنى من ذلك أمور:

الأول: أنه مع بغضنا لهم وعداوتنا لهم يجب أن ندعوهم إلى الله -سبحانه وتعالى،

يجب أن ندعوهم إلى الله ولا نتركهم، ونقول هؤلاء أعداء الله وأعداؤنا، يجب علينا أن ندعوهم إلى الله لعل الله أن يهديهم، فإن لم يستجيبوا فإنا نقاتلهم مع القدرة، فإما أن يدخلوا في الإسلام، وإما أن يبذلوا الجزية إن كانوا من اليهود والنصارى أو المجوس وهم صاغرون، ويخضعون لحكم الإسلام، ويتركون على ما هم عليه؛ لكن بشرط دفع الجزية وخضوعهم لحكم الإسلام.

أما إن كانوا غير كتابيين وغير مجوس، ففي أخذ الجزية منهم خلاف بين العلماء.

الثاني: لا مانع من مهادنة الكفار عند الحاجة، إذا احتاج المسلمون لمهادنتهم؛ لكون المسلمين لا يقدرون على قتالهم، ويخشى على المسلمين من شرهم، لا بأس بالمهادنة إلى أن يقوى المسلمون على قتالهم، أو إذا طلبوا هم المهادنة: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال:٦١] فيهادنون؛ لكن ليس هدنة دائمة، إنما هدنة مؤقتة مؤجلة إلى أجل حسب رأي إمام المسلمين، لما فيه من المصلحة.

الثالث: لا مانع من مكافأتهم على الإحسان إذا أحسنوا للمسلمين، لا مانع أن يكافئون على إحسانهم، قال الله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾ [الممتحنة:٨].

الرابع: الوالد الكافر يجب على ولده المسلم أن يبر به؛ لكنه لا يطيعه في الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ۝١٤ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾ [لقمان:١٤، ١٥] الوالد له حق، وإن كان كافرًا؛ لكن لا تحبه المحبة القلبية، بل تكافئه على تربيته لك، وأنه والد وله حق تكافئه على ذلك.

الخامس: تبادل التجارة معهم والشراء منهم، شراء الحاجات منهم، واستيراد البضائع والأسلحة منهم بالثمن؛ لا بأس بذلك، وقد كان النبي ﷺ يتعامل مع الكفار، وكذلك عامل ﷺ أهل خيبر، وهم يهود على أن يزرعوا الأرض بجزء مما يخرج منها، ليس هذا من الموالاة والمحبة، وإنما هو تبادل مصالح. يجب أن نعرف هذه الأمور، وأنها لا تدخل في الموالاة، وليس منهيًا عنها.

كذلك الاستدانة، منهم النبي ﷺ استدان من اليهودي طعامًا، ورهن درعه عنده، ومات ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي بطعام اشتراه لأهله، لا مانع من هذا؛ لأن هذه أمور دنيوية ومصالح، ولا تدل على المحبة والمودة في القلوب، فلا بد أن نفرق بين هذا وهذا؛ لأن بعض الناس إذا سمع نصوص العداوة للكفار وعدم محبتهم، قد يفهم أنه لا يتعامل معهم، ولا يتصل بهم نهائيًا، وأن تكون مقاطعة نهائية.

لا! هذا محدد بأحكام وبحدود وبشروط معروفة عند أهل العلم، مأخوذة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

السادس: أباح الله التزوج من نساء أهل الكتاب، بشرط أن يكنَّ عفيفات في أعراضهن، وأباح الله لنا أكل ذبائحهم.

السابع: لا بأس بإجابة دعوتهم، وأكل طعامهم المباح، كما فعل النبي ﷺ .

الثامن: الإحسان إلى الجيران من الكفار؛ لأن لهم حق الجوار.

التاسع: لا يجوز ظلمهم قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[المائدة:٨].

<u>قال العلامة صالح آل الشيخ:</u>

❑قوله: (اعْلَمْ رَحِمَكَ الله أَنَّهُ يَجِبُ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ تَعَلُّمُ ثَلاثِ هَذِهِ الْمَسَائِلِ والْعَمَلُ بِهِنَّ)

●فهذه المسائل الثلاث التي ذكرها الشيخ رحمه الله تعالى صلةً لما قبلها، وتمهيدًا لما بعدها، فأعاد وكرر بقوله: (اعلم رحمك الله)، وفي هذا ما فيه من التلطف بالمتعلمين، اعلم أنه يجب على كل مسلم ومسلمة تعلم ثلاث هذه المسائل مع المسائل الأربع التي سبقت، وهذه المسائل يجب أن يتعلمها كل مسلم وكل مسلمة؛ لأن فيها بيان أصل الدين وقاعدة الدين:

❑قوله: (الأولى: أَنَّ الله خَلَقَنَا وَرَزَقَنَا)

●الأولى من تلكم المسائل: أن الله ﷻ خلق الخلق لغاية، لم يخلقهم لغير غاية، لم يخلقهم سدًا ولا عبثًا سبحانه وتعالى عما يصفون، بل إنما خلق الخلق لغاية، قال جل وعلا: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[الملك:٢].

❑قوله: (وَلَمْ يَتْرُكْنَا هَمَلًا)

● وقال جل وعلا: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون:١١٥] يعني: لغير غاية ولغير حكمة ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون:١١٥] وأنه لن يكون بعث بعد خلقكم، وأنه لن يكون إرجاع لكم إلىٰ من خلقكم، هذا الظن فيه قدح في حكمة الله جل وعلا، لذلك قال جل وعلا بعدها: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ [المؤمنون:١١٦]تعالىٰ عما يصفه به المبطلون، تعالىٰ عما يظنه عليه الجاهلون القادحون في حكمته؛ فإذن الخلق مخلوقون لغاية، ما هذه الغاية؟ هي ما بينها في قوله جل وعلا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨] الله جل وعلا ما خلق الجن والإنس إلا لغاية واحدة وهي الابتلاء؛ ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك:٢] الاختبار؛ اختبار في أي شيء؟ في عبادته هل يعبد وحده لا شريك له أم يتخذ المخلوق هذا آلهة أخرىٰ مع الله جل وعلا؟ وهذه مسألة -ولا شك- عظيمة.

❑قوله: (بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولًا)

●الإنسان خلق لهذه الغاية، لكن يحتاج إلىٰ من يبصره بهذه الغاية، ويعلمه القصد من خلقه، ويعلمه كيف يصل إلىٰ عبادة ربه علىٰ الوجه الذي يرضىٰ به الله جل وعلا عنه، فبعث الله جل وعلا رسلًا مبشرين ومنذرين يدلون الخلق إلىٰ وعلىٰ خالقهم، يعرفونهم بمن يستحق العبادة وحده، ويعرفونهم بالطريق التي أذن من خلقهم أن يعبدوه بها؛ قال جل وعلا لنبينا محمد عليه الصلاة والسلام: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [سبأ:٢٨] وقال جل وعلا: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [المزمل:١٥] وكل أمة قد خلا فيها نذير، كما قال جل وعلا: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر:٢٤] نذير ينذرهم ويبشرهم؛ يبشر من أطاع وينذر من النار، ويخوف من النار ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦] فثبت بهذه النصوص أن الله جل وعلا لم يترك الخلق وشأنهم بعد أن خلقهم؛ بل بعث لهم رسلًا يعلمونهم ويهدونهم ويبصرونهم الطريق التي يرضىٰ الله جل وعلا بها أن يعبدوه بها دون ما سواها من الطرق الموصلة، وتلكم الطريق طريق واحدة، ليست بطرق متعددة كما قال جل

وعلا: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾[الفاتحة:٦] فهو صراط واحد، وهناك صرط أخرى، هي صرط أهل الضلال والجهل والغواية، والهوى، أما الطريق الموصلة إلى الله جل وعلا فهي طريق المرسلين الذي جاءوا به من عند الله جل وعلا؛ وهو دين الإسلام العام، كما قال جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾[آل عمران:١٩]، الاستسلام لله جل وعلا بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله، الرسل بينوا للناس هذه الغاية، ودلوهم على عبادة الله جل وعلا وحده دون ما سواه، فقامت العداوة بين الرسل وبين أقوامهم في هذا الأصل؛ حيث إن الخلق يريدون أن يعبدوا الله جل وعلا بالطريقة التي يحبون لا بالطريقة التي يحبها الله جل وعلا، ولهذا قال بعض أئمة السلف: «ليس الشأن أن تُحِب ولكن الشأن أن تُحَب»؛ ليس الشأن أن تحب الله، فإن محبة الله جل وعلا يدعيها المشركون، يدعيها الضالون، كل قوم بعث فيهم الرسل يدعون أنهم يريدون وجه الله، يريدون ما عند الله يحبونه، ربما يتصدقون ويصلون ويدعون ويتقربون، وما فعل أهل الجاهلية -جاهلية العرب- منا ببعيد، لكن ليس الشأن أن يحب المحبُّ ربَّه، ولكن الشأن أن يحب العبدَ ربُّه؛ الشأن أن يحب الله جل وعلا العبد، متى يكون ذلك؟ لابد أن يبحث العبد عن سبيل محبة الله جل وعلا له

❑قوله: (فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ)

● هذا السبيل بينه الله جل وعلا في قوله: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾[آل عمران:٣١] زعمًا ﴿فَٱتَّبِعُونِي﴾[آل عمران:٣١] طاعة ﴿يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾[آل عمران:٣١]؛ فإذن سبيل محبةِ الله للعبد هي طاعة الرسل، واتباع الرسل وخاتم المرسلين نبينا محمدﷺ الذي ببعثته وبرسالته نسخت جميع الرسالات ونسخت جميع الكتب من قبله عليه الصلاة والسلام، فبقي للناس طريق واحد يصلون به إلى ربهم جل وعلا؛ ألا وهو طريق محمد عليه الصلاة والسلام، إذ هو الواسطة العملية للاتباع؛ لاتباعه للوصول إلى الله جل وعلا، فمن اتبع واهتدى بغير هدي النبي عليه الصلاة والسلام، هذا النبي الخاتم، فهو من الضالين الذين تنكبوا سبيل الحق.

هذا الأصل الأول، وهذه المسألة الأولى عظيمة جدًّا؛ لأنها إذا استقرت في قلب العبد قادته إلى كل خير، يعلم أنه ما خلق إلا لغاية. ما هذه الغاية؟ هي عبادة الله وحده دون ما سواه.

كيف أعرف طرق هذه العبادة؟ باتباع النبي عليه الصلاة والسلام. فتَلَخَّص الدين في هذه المسألة العظيمة، وما أحسن قول شمس الدين ابن القيم في نونيته بعد أبيات قال:

فلواحد كن واحدًا في واحد أعني سبيل الحق والإيمان

(لواحد) لله جل وعلا وحده دون ما سواه، (كن واحدًا) في قصدك وإرادتك وتوجهك وطلبك، (في واحد) في طريق واحد، قال بعدها: (أعني سبيل الحق والإيمان) الذي هو سبيل النبي عليه الصلاة والسلام.

❑قوله: (الثانية: أَنَّ الله لاَ يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ أحدٌ فِي عِبَادَتِهِ)

●المسألة الثانية: أن الله جل وعلا لا يرضى أن يشرك معه أحد في عبادته، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، بل كلٌّ عبيد لله جل وعلا. الله جل وعلا إنما يرضى التوحيد، يرضى أن يعبد وحده دون ما سواه، فمن أشرك مع الله جل وعلا إلهًا آخر فقد نقض الغاية العملية التي كلف بها من خَلْقِهِ ومن إيجَادِهِ، قال جل وعلا ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ۝١٨﴾ [الجن:١٨]، ﴿فَلَا تَدْعُواْ﴾ دعاء مسألة، ودعاء عبادة مع الله أحدًا.

المساجد يفعل فيها شيئان:

- الأول: سؤال الله جل وعلا، دعاء الله جل وعلا دعاء المسألة، هذا نوع.

- والثاني: عبادة الله جل وعلا بأنواع العبادات من الصلاة؛ الفرض والنفل، ومن التلاوة، ومن الذكر، ومن التعلم والتعليم، ونحو ذلك.

قال جل وعلا: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾، ﴿ٱلْمَسَٰجِدَ﴾ أقيمت لله جل وعلا؛ لعبادته وحده دون ما سواه، فلا تدعو دعاء مسألة أحدًا غير الله، ولا تدعو دعاء عبادة أحدًا غير الله، وكما أن المصلي لا يصلي إلا لله، فكذلك في المسجد وفي غيره فلا يسأل ولا يدعو إلا الله جل وعلا.

دعاء المسألة: هو الذي يسميه العامة أو يسميه الناس: الدعاء، وهو المقصود به، إذا قيل: دعا فلان؛ يعني: سأل به الله جل وعلا قال: اللهم اعطني، اللهم قني، اللهم اغفر لي. ونحو ذلك، هذا يسمى دعاء المسألة.

أما دعاء العبادة: فهو العبادة نفسها؛ لأن المتعبد لله جل وعلا بصلاة أو بذكر هو سائل لله جل وعلا؛ لأنه إنما عبد أو صلى، أو صام، أو زكى، أو ذكر، أو تلا؛ رغبة في

الأجر، كأنه سأل الله جل وعلا الثواب، لهذا يقال: الدعاء قسمان: دعاء مسألة، ودعاء عبادة، قال جل وعلا: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾[غافر:٦٠]، قال في أول الآية: ﴿ادْعُونِي﴾، وقال في آخرها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ فدل على أن الدعاء عبادة، أو هو العبادة، ولهذا فسر السلف الاستجابة في قوله: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ بتفسيرين:

﴿أَسْتَجِبْ﴾ بمعنى أعطكم ما سألتم، أو أثبكم؛ أدعوني أثبكم، إذا كانت في هذا التقسيم (أدعوني أثبكم) بهذا المعنى فيكون الدعاء هنا بمعنى العبادة؛ لأنها هي التي يتعلق بها الثواب، وإذا كانت الإجابة هنا بمعنى إعطاء السؤل يكون الدعاء هنا دعاء مسألة.

وهذه المسألة مقررة تقريرًا واضحًا في كتب أهل العلم؛ ألا وهي أن قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾، أنه يشمل نوعي الدعاء؛ دعاء المسألة ودعاء العبادة. وقد جاء في الحديث الصحيح عن النعمان بن بشير أن النبي ﷺ قال: «الدُّعَاءُ هو العِبَادَةِ» [(٤٥)]، وفي معناه ما جاء عن أنس مرفوعًا «الدُّعاءُ مُخُّ العِبادَةِ» [(٤٦)].

الله -جل وعلا- لا يرضى أن يشرك معه أحد، قد يتوهم أن المخلوق إذا بلغ إلى غاية عظيمة أنه يمكن أن يوصل إلى الله جل وعلا باتخاذه واسطة، باتخاذه وسيلة، وأعلى المخلوقات مقامًا عند الخالق: الملائكة والرسل والأنبياء؛ لهذا نفى الشيخ -رحمه الله تعالى- هذين فقال: (الله جل وعلا لا يرضى أن يشرك معه أحد، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل)، (لا ملك مقرب) حتى ولو كان جبريل الذي هو سيد الملائكة وأشرفهم وأعظمهم. (ولا نبي مرسل) حتى النبي عليه الصلاة والسلام. دليل ذلك: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾، وجه الاستدلال: أن ﴿أَحَدًا﴾ نكرة جاءت في سياق النفي، وقد تقرر أن النكرات إذا أتت في سياق النفي، أو النهي، أو الشرط، أو الاستفهام، فإنها تعم. قال: ﴿

---

(٤٥) أخرجه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩)، وابن ماجه (٣٨٢٨)، وغيرهم من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه، وصححه العلامة الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٤٦) أخرجه الترمذي (٣٣٧١)، والطبراني في «الأوسط» (٣١٩٦)، وغيرهما من حديث أنس رضي الله عنه، وضعفه العلامة الألباني في «ضعيف سنن الترمذي».

﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ۝﴾ يدخل في ﴿أَحَدًا﴾ الملائكة، ويدخل فيه الأنبياء.

هذا الأصل يجب على كل مسلم ومسلمة أن يعلمه علمًا يقينيًا لاشك فيه ولا شبهة، بدليله وهو قوله: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ۝﴾، فلا يخطر على قلب المسلم أو المسلمة أنه يمكن أن يدعو غير الله، أو أن يستغيث بغير الله، أو أن يتوجه إلى غير الله بأي نوع من أنواع العبادات، حتى ولو كان المتوجه إليه ملك مقرب، أو نبي مرسل.

ومن المتقرر أن ثَمَّ فرقًا بين النبي والرسول؛ فليس كل نبي رسولًا، بينما كل رسول نبي، وقول الشيخ هنا: (ولا نبي مرسل)؛ لأن الرسالة أرفع درجة من النبوة. والفرق بينهما: أن النبي: هو من أوحي إليه بشرع، وأمر بتبليغه إلى قوم موافقين له، أو لم يؤمر بالتبليغ.

والرسول: هو من أوحي إليه بشرع، أو كتاب، وأمر بتبليغه إلى قوم مخالفين.

فإذن النبي مرسل، وقد يكون مرسلًا إلى نفسه، لكنه ليس بالرسول بالمعنى الأخص.

وبهذا يتضح المقام بقوله، وذلك لقول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾[الحج:٥٢]، فأثبت أن الرسول مرسل، وأن النبي أيضًا يقع عليه الإرسال قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ﴾، (الرسول) يقع عليه الإرسال. ﴿وَلَا نَبِيٍّ﴾ أيضًا النبي يقع عليه الإرسال؛ يعني: يؤمر أن يبلغ ذلك لمن يوافقه هذا النبي، مثل أنبياء بني إسرائيل إذا مات فيهم نبي؛ خلفه نبي يبلغ من يوافقه في عقيدته، من يوافقه في اتباعه لشريعة النبي؛ الرسول الذي قبله، إذا بلغ موافقًا، وكان هذا التبليغ مأمورًا به من الله جل وعلا، ومعه شرع، أو بعض شرع، فإن هذا نبي وقد لا يكون مأمورًا بتبليغه إلى قوم موافقين، فقد يبلغ نفسه، وعلى هذا يحمل بأحد تفاسير أو شروح العلماء، ما جاء في الحديث: «أن النبي يأتي يوم القيامة وليس معه أحد»(٤٧) قد يكون لأنه لم يستجب له، وقد يكون بأنه إنما أمر أو أوحي إليه لنفسه لا لغيره.

❏قوله: (الثالثة: أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ وَوَحَّدَ الله ...)

●المسألة الثالثة: أن من وحد الله وأطاع الرسول واتبع دين الإسلام لا يجوز له أن يوالي من حاد الله ورسوله، ولو كان أقرب قريب، لا يجوز له أن يوالي من حاد الله

(٤٧) أخرجه البخاري (٥٧٠٥)، ومسلم (٢٢٠)، وغيرهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

ورسوله، ولو كان ذلك أباه أو أمه أو أخاه أو أخته أو قريبه، وذلك لقول الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [المجادلة:٢٢] إلى آخر الآية، وقال جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٢٣﴾ [التوبة:٢٣] وقال جل وعلا: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة:٥١] لما ذكر اليهود والنصارى، فأصل الدين الذي هو من معنى كلمة التوحيد الولاء والبراء؛ الولاء للمؤمنين وللإيمان، والبراءة من المشركين والشرك، ولهذا يعرف علماؤنا الإسلام بأنه: الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله.

وهاهنا تنبيه على أنه في بعض نسخ كتاب الشيخ أنه عرف الإسلام بهذا وقال في آخره: (والخلوص من الشرك وأهله)، والمعروف عنه في النسخ الصحيحة التي قرأت على العلماء (البراءة من الشرك وأهله)؛ لأن البراءة تشمل الخلوص وزيادة[48]، وهي الموافقة لقول الله جل وعلا: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [الزخرف:٢٦،٢٧]

هنا قال: (لا يجوز لمن وحد الله، وأطاع الرسول، واتبع دين الإسلام، أن يوالي أحدًا من المشركين)، (الموالاة) معناها: أن تتخذه وليًا، وأصلها من الولاية، والولاية هي المحبة، قال جل وعلا: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ [الكهف:٤٤] يعني: هنالك المحبة والمودة والنصرة لله الحق، فأصل الموالاة المحبة والمودة، ولهذا استدل بقوله: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ﴾ [المجادلة:٢٢] ففسر الموالاة بأنها الموادة، وهذا معناه أن أصل الموالاة في القلب، وهو محبة الشرك أو محبة أهل الشرك والكفر. فأصل الدين أن من دخل في (لا إله إلا الله) فإنه يحب هذه الكلمة وما دلت عليه من التوحيد، ويحب أهلها، ويبغض الشرك المناقض لهذه الكلمة، ويبغض أهله. فكلمة الولاء والبراء هي معنى الموالاة والمعاداة، وهي بمعنى الحب والبغض، فإذا قيل: الولاء والبراء في الله هو بمعنى الحب والبغض في الله، وهو بمعنى الموالاة والمعاداة في الله؛ ثلاثة بمعنى

(٤٨) سيأتي مزيد إيضاح لهذه المسألة في الدرس العاشر، تحت شرح الشيخ حفظه الله.

واحد، فأصله القلب؛ محبة القلب، إذا أحب القلب الشرك صار مواليًا للشرك، إذا أحب القلب أهل الشرك صار مواليًا لأهل الشرك، كذلك إذا أحب القلب الإيمان صار مواليًا للإيمان، إذا أحب القلب الله صار مواليًا لله، إذا أحب القلب الرسول صار وليًا ومواليًا للرسول ﷺ، وإذا أحب القلب المؤمنين صار مواليًا ووليًا للمؤمنين؛ قال جل وعلا: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾[المائدة:٥٥،٥٦]؛ يعني: من يحب وينصر الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون.

الموالاة؛ موالاة المشركين والكفار محرمة وكبيرة من الكبائر، وقد تصل بصاحبها إلى الكفر والشرك، ولهذا ضبطها العلماء بأن قالوا: تنقسم الموالاة باسمها العام إلى قسمين: الأول: التولي، والثاني: الموالاة.

- أما التولي؛ فهو الذي جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾[المائدة:٥١]، تولاه توليًا؛ التولي معناه محبة الشرك وأهل الشرك، محبة الكفر وأهل الكفر، أو نصرة الكفار على أهل الإيمان، قاصدًا ظهور الكفر على الإسلام، بهذا الضابط يتضح معنى التولي. وتولي الكفار والمشركين -كما ذكرت لكم- كفر أكبر، وإذا كان من مسلم فهي ردة.

ما معنى التولي؟ معناه: محبة الشرك وأهل الشرك (لاحظ الواو)؛ يعني: يحب الشرك وأهل الشرك جميعًا مجتمعة، أو أن لا يحب الشرك ولكن ينصر المشرك على المسلم، قاصدًا ظهور الشرك على الإسلام، هذا الكفر الأكبر الذي إذا فعله المسلم صار ردة في حقه والعياذ بالله.

- القسم الثاني الموالاة: والموالاة المحرمة من جنس محبة المشركين والكفار، لأجل دنياهم، أو لأجل قراباتهم، أو لنحو ذلك، وضابطه: أن تكون محبة أهل الشرك لأجل الدنيا، ولا يكون معها نصرة؛ لأنه إذا كان معها نصرة على مسلم بقصد ظهور الشرك على الإسلام صار توليًا، وهو في القسم المكفر، فإن أحب المشرك والكافر لدنيا، وصار معه نوع موالاة، معه لأجل الدنيا، فهذا محرم ومعصية، وليس كفرًا؛ دليل ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾[الممتحنة:١]، قال علماؤنا رحمهم الله تعالى: أثبت الله جل وعلا في هذه الآية أنه حصل ممن ناداهم باسم

الإيمان اتخاذ المشركين والكفار أولياء بإلقاء المودة لهم. وذلك كما جاء في «الصحيحين»، وفي التفسير في قصة حاطب المعروفة: «حيث إنه أرسل بخبر رسول الله ﷺ -هذه عظيمة من العظائم- للمشركين لكي يأخذوا حذرهم من رسول الله ﷺ فلما كشف الأمر، قال عمر رضي الله عنه للنبي عليه الصلاة والسلام: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق. قال النبي عليه الصلاة والسلام لعمر: أتركه يا عمر، يا حاطب ما حملك على هذا؟ -فدل على اعتبار القصد؛ لأنه إن كان قصد ظهور الشرك على الإسلام، وظهور المشركين على المسلمين، فهذا يكون نفاقًا وكفرًا، وإن كان له مقصد آخر فله حكمه. قال عليه الصلاة والسلام -مستبينًا الأمر- ما حملك يا حاطب على هذا؟ قال: يا رسول الله، والله ما حملني على هذا محبة الشرك وكراهة الإسلام، ولكن ما من أحد من أصحابك إلا وله يد يحمي بها ماله في مكة، وليس لي يد أحمي بها مالي في مكة، فأردت أن يكون لي بذلك يدًا أحمي بها مالي في مكة. فقال النبي عليه الصلاة والسلام: صدقكم»(٤٩). الله جل وعلا قال في بيان ما فعل حاطب: ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١﴾[الممتحنة:١]؛ يعني: حاطبًا، ففعله ضلال. وما منع النبي عليه الصلاة والسلام من إرسال عمر -أو ترك عمر- إلا أن حاطبًا لم يخرج من الإسلام بما فعل؛ ولهذا جاء في رواية أخرى قال: «إن الله اطلع على أهل بدر، فقال: افعلوا ما شئتم لقد غفرت لكم»(٥٠). قال العلماء: لعلمه جل وعلا بأنهم يبقون ويموتون على الإسلام. دلت هذه الآية وهي قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾[الممتحنة:١]، مع بيان سبب نزولها من قصة حاطب، أن إلقاء المودة للكافر لا يسلب اسم الإيمان؛ لأن الله ناداهم باسم الإيمان، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مع إثباته جل وعلا أنهم ألقوا المودة.

ولهذا استفاد العلماء من هذه الآية، ومن آية سورة المائدة: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾[المائدة:٥١]، ومن آية المجادلة التي ساقها الشيخ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾[المجادلة:٢٢] -استفادوا أن الموالاة تنقسم

---

(٤٩) أخرجه البخاري (٣٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤)، وغيرهما من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٥٠) أخرجه أحمد (٢/٢٩٥)، والحاكم (٦٩٦٨)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه العلامة الألباني في «صحيح الجامع» (١٧١٩)

إلى تولٍّ وموالاة؛ الموالاة بالاسم العام منه تولٍّ وهو المكفر بالضابط الذي ذكرته لك، ومنه موالاة وهو نوع مودة لأجل الدنيا ونحو ذلك.

والواجب أن يكون المؤمن محبًا لله جل وعلا ولرسوله وللمؤمنين، وأن لا يكون في قلبه مودة للكفار ولو كان لأمور الدنيا، إذا عامل المشركين أو عامل الكفار في أمور الدنيا، إنما تكون معاملة ظاهرة بدون ميل القلب، ولا محبة القلب؛ لأن المشرك حمل في قلبه مسبة الله جل وعلا؛ لأن المشرك ساب لله جل وعلا بفعله، إذ اتخذ مع الله جل وعلا إلهًا آخر، والمؤمن متولٍّ لله جل وعلا ولرسوله وللذين آمنوا، فلا يمكن أن يكون في قلبه مودة لمشرك حمل الشرك والعياذ بالله.

هذه الثلاث مسائل من المهمات العظيمات:

الأولى: أن يعلم المرء الغاية من خلقه، وإذا علم الغاية، عليه أن يعلم الطريق الموصلة لإنفاذ هذه الغاية.

الثانية: ليعلم أن الطريق واحدة، وأن الله جل وعلا لا يرضى الشرك به، حتى بالمقربين عنده، والذين لهم المقامات العالية عنده جل وعلا، لا يرضى أن يشرك معه أحد.

الثالثة: أن لا يكون في قلب الموحد؛ الذي وحد الله، وأطاع الرسول، وخلص من الشرك، محبة للمشركين.

هذه الثلاث هي أصول الإسلام بأحد الاعتبارات، أسأل الله جل وعلا أن يجعلني وإياكم ممن تحققوا بها قولًا وعملًا واعتقادًا وانقيادًا.

الدرس الثالث:

[الحنيفية ملة إبراهيم]

اعْلَمْ أَرْشَدَكَ الله لِطَاعَتِهِ: أَنَّ الحَنِيفِيَّةَ مِلَّةَ إبْرَاهِيمَ: أَنْ تَعْبُدَ الله وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ. وَبِذَلِكَ أَمَرَ الله جَمِيعَ النَّاسِ وَخَلَقَهُمْ لَهَا كَمَا قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾[الذاريات:٥٦] ومَعْنَى يَعْبُدُونِ: يُوَحِّدُونِ.

وَأَعْظَمُ مَا أَمَرَ الله بِهِ التَّوْحِيدُ وَهُوَ: إِفْرَادُ الله بِالعِبَادَةِ.

وَأَعْظَمُ مَا نَهَى عَنْهُ الشِّرْكُ. وَهُوَ: دَعْوَةُ غَيْرِهِ مَعَهُ، والدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾[النساء:٣٦].

الشرح

قال العلامة ابن باز:

□قوله: (اعْلَمْ أَرْشَدَكَ الله لِطَاعَتِهِ)

●قال رحمه الله: اعلم أرشدك الله لطاعته، جمع رَحِمَهُ اللهُ بين التعليم والدعاء.

□قوله: (أَنَّ الحَنِيفِيَّةَ مِلَّةَ إبْرَاهِيمَ...)

● الحنيفية: ملة إبراهيم، وهي: أن تعبد الله مخلصًا له الدين، وهي التي قال الله فيها لنبيه: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾[النحل:١٢٣]، فالحنيفية: هي الملة التي فيها الإخلاص لله وموالاته، وترك الإشراك به سبحانه، والحنيف: هو الذي أقبل على الله، وأعرض عما سواه، وأخلص له العبادة: كإبراهيم، وأتباعه، وهكذا الأنبياء وأتباعهم.

□قوله: (وَبِذَلِكَ أَمَرَ الله جَمِيعَ النَّاسِ وَخَلَقَهُمْ لَهَا...)

●قال: وبذلك أمر الله جميع الناس وخلقهم لها، فأمرهم بالتوحيد والإخلاص، وخلقهم ليعبدوه، وأمرهم بأن يعبدوه وحده في صلاتهم، وصومهم، ودعائهم، وخوفهم، ورجائهم، وذبحهم، ونذرهم، وغير ذلك من أنواع العبادة، كله لله، كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[الإسراء:٢٣]، وقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾[الفاتحة:٥]، وقال سبحانه: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ﴾[الزمر:٢] وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾[البقرة:٢١]. هذه العبادة هي التي خلق لها الناس، خلق لها الثقلان وهي توحيد الله، وطاعة أوامره، واجتناب نواهيه، قال الله

تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾[الذاريات:٥٦]، يعني: يوحدوني في العبادة، ويخصوني بها؛ بفعل الأوامر، وترك النواهي إلىٰ غير ذلك من الآيات.

قوله: (وَأَعْظَمُ مَا أَمَرَ الله بِهِ التَّوْحِيدُ)

●التوحيد: إفراد الله بالعبادة فتقصده بالعبادة دون كل من سواه، فلا تعبد معه صنمًا، ولا نبيًا، ولا ملكًا، ولا حجرًا، ولا جنيًا، ولا غير ذلك.

قوله: (وَأَعْظَمُ مَا نَهَىٰ عَنْهُ الشِّرْكُ)

●الشرك: دعوة غيره معه، وقد قال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٨٨﴾[الأنعام:٨٨]، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ۝٦٥﴾[الزمر:٦٥]، وفي «الصحيحين»: «أن النبي ﷺ سئل: أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله ندًا وهو خلقك، قيل: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك، قيل: ثم أي؟ قال: أن تزني بحليلة جارك»[٥١]، فبين ﷺ أن الشرك أعظم الذنوب وأشدها وأخطرها.

وفي الحديث الآخر يقول ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر، قلنا: بلىٰ يا رسول الله، قال: الإشراك بالله»[٥٢]. الحديث متفق عليه. فالتوحيد: هو إفراد الله بالعبادة، والشرك: هو دعوة غير الله مع الله: تدعوه، أو تخافه، أو ترجوه، أو تذبح له، أو تنذر، أو غير ذلك من أنواع العبادة، هذا الشرك الأكبر سواء كان المدعو نبيًا، أو جنيًا، أو شجرًا، أو حجرًا، أو غير ذلك؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾[النساء:٣٦]، فـ﴿شَيْـًٔا﴾[النساء:٣٦]: نكره في سياق النهي، فتعم كل شيء، وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[البينة:٥]، فأعظم ما أمر الله به التوحيد: وهو إفراد الله بالعبادة، وأعظم ما نهىٰ الله عنه هو الشرك بالله ﷻ، كما تقدم ؛ ولهذا أكثر سبحانه وتعالىٰ في القرآن من الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك.

قال العلامة ابن قاسم:

قوله: (اعْلَمْ أَرْشَدَكَ الله لِطَاعَتِهِ)

● هداك ووفقك لما ينفعك في دنياك وآخرتك، والرشد: الاستقامة علىٰ طريق

---

(٥١) أخرجه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦)، بلفظ: «تزاني» وغيرهما من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٥٢) أخرجه البخاري (٢٦٥٤)، ومسلم (٨٧)، وغيرهما من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

الحق، ضد الغي.

❑ قوله: (أَنَّ الحَنِيفِيَّةَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ: أَنْ تَعْبُدَ الله وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ)

● أي: الحنيفية طريقة وشريعة الخليل إبراهيم وجميع الأنبياء عليهم السلام، هي ما قررها به المصنف أن تعبد الله مخلصًا له الدين، فهذه هي حقيقة ملة إبراهيم عبادة الله بالإخلاص، والإخلاص: حب الله وإرادة وجهه، وعبادة الله بالإخلاص وترك عبادة ما سواه هي المذكورة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾[النحل:١٢٣]، وفي قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾[النحل:١٢٠]، والحنيف: مشتق من الحنف، وهو الميل. فالحنيف: المائل عن الشرك قصدا إلى التوحيد، والحنيف: المستقيم المستمسك بالإسلام، المقبل على الله، المعرض عن كل ما سواه، وكل من كان على دين إبراهيم عليه السلام.

❑ قوله: (وَبِذَلِكَ أَمَرَ الله جَمِيعَ النَّاسِ وَخَلَقَهُمْ)

● أي: وبالإخلاص في جميع ما تعبدنا الله به، الذي هو ملة إبراهيم أمر الله بها جميع الناس، وخلق لها جميع الثقلين الجن والإنس

❑ قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾

● أي: ما أوجد سبحانه وتعالى الثقلين إلا لحكمة عظيمة، وهذه الحكمة العظيمة هي عبادة الله وحده لا شريك له، وترك عبادة ما سواه، وأفادت أن الخلق لم يخلقوا عبثًا ولم يتركوا سدىً.

وَهُوَ: إِفْرَادُ الله بِالعِبَادَةِ.

وَأَعْظَمُ مَا نَهَى عَنْهُ الشِّرْكُ. وَهُوَ: دَعْوَةُ غَيْرِهِ مَعَهُ

❑ قوله: (ومَعْنَى يَعْبُدُونِ يُوَحِّدُونِ)

● قال ابن عباس: كل موضع في القرآن ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ فمعناه: وحدوا الله، وجاء -أيضًا- عبادة الله توحيد الله، والعبادة في اللغة: التذلل والخضوع، من قولهم: طريق معبد؛ أي: مذلل قد وطأته الأقدام، وسميت وظائف الشرع على المكلفين عبادات؛ لأنهم يفعلونها لله خاضعين ذالين، ويأتي تعريفها في الشرع.

❑ قوله: (وَأَعْظَمُ مَا أَمَرَ الله بِهِ التَّوْحِيدُ)

● وهو أعظم فريضة فرضها الله على العباد علمًا وعملًا، ولأجله أرسلت الرسل وأنزلت الكتب، وبه تكفر الذنوب، وتستوجب الجنة، وينجى من النار.

❑ قوله: (وَهُوَ: إِفْرَادُ الله بِالعِبَادَةِ)

● فهو في الأصل من وحده توحيدًا: جعله واحدًا؛ أي: فردًا، ووحده: قال: إنه واحد أحد، وقال: لا إله إلا الله، والواحد الأحد: وصف اسم الباري لاختصاصه بالأحدية.

وأقسام التوحيد ثلاثة: توحيد الربوبية، وهو: العلم أن الله رب كل شيء وخالقه، والثاني: توحيد الأسماء والصفات، وهو: أن يوصف الله بما وصف به نفسه ووصفه به رسول الله ﷺ، والثالث: توحيد الإلهية، وهو إخلاص العبادة لله وحده بجميع أفراد العبادة.

❑ قوله: (وَأَعْظَمُ مَا نَهَى عَنْهُ الشِّرْكُ)

● الشرك: النصيب، واسم من أشرك بالله إذا كفر به، وهو أعظم ذنب عصي الله به، وأي ذنب أعظم من أن يجعل مع الله شريك في ألوهيته أو ربوبيته أو أسمائه أو صفاته؟! وكما أن الشرك أظلم الظلم وأبطل الباطل كما تقدم فهو هضم للربوبية، وتنقص للألوهية، وسوء ظن برب العالمين، وهو أقبح المعاصي؛ لأنه تسوية للمخلوق الناقص بالخالق الكامل من جميع الوجوه.

❑ قوله: (وَهُوَ: دَعْوَةُ غَيْرِهِ مَعَهُ)

● أي: طلب غير الله مع الله، وسؤال غيره معه من ملك، أو نبي، أو ولي، أو شجرة، أو حجر، أو قبر، أو جني والاستعانة به، والتوجه إليه، وغير ذلك من أنواع العبادة.

❑ قوله: (﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾)

● يأمر سبحانه عباده بعبادته وحده لا شريك له، فإنه الخالق الرازق المنعم المتفضل على خلقه، فهو المستحق منهم أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئًا، و ﴿ شَيْـًٔا﴾ نكرة في سياق النهي، فعمَّ الشرك قليله وكثيره، وقرن -سبحانه- العبادة التي فرضها على عباده بالنهي عن الشرك الذي حرمه، فدلت على أن اجتناب الشرك شرط في صحة العبادة، وتسمى هذه الآية: آية الحقوق العشرة؛ لأنها اشتملت على حقوق عشرة: أحدها: الأمر بالتوحيد، ثم عطف عليه التسعة الباقية، وابتداؤه تعالى بالأمر بالتوحيد والنهي عن

الشرك أدل دليل على أنه هو أهمها، فإنه لا يبدأ إلا بالأهم فالأهم، فدلت على أن التوحيد أوجب الواجبات، وأن ضده هو الشرك أعظم المحرمات.

قال العلامة العثيمين:

❑ قوله: (اعْلَمْ)

● تقدم الكلام على العلم فلا حاجة إلى إعادته هنا.

❑ قوله: (أَرْشَدَكَ)

● الرشد: الاستقامة على طريق الحق.

❑ قوله: (لِطَاعَتِهِ)

● الطاعة: موافقة المراد فعلًا للمأمور وتركًا للمحظور.

❑ قوله: (الحَنِيفِيَّةَ)

● هي الملة المائلة عن الشرك، المبنية على الإخلاص لله ﷻ.

❑ قوله: (مِلَّةَ)

● أي: طريقه الديني الذي يسير عليه عليه الصلاة والسلام.

❑ قوله: (إِبْرَاهِيمَ)

● هو خليل الرحمن قال ﷻ: ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ ﴾[النساء:١٢٥] وهو أبو الأنبياء، وقد تكرر ذكر منهجه في مواضع كثيرة للاقتداء به.

❑ قوله: (أَنْ تَعْبُدَ الله)

● هذه خبر «أن» في قوله: «أن الحنيفية» والعبادة بمفهومها العام هي «التذلل لله محبةً وتعظيمًا بفعل أوامره واجتناب نواهيه على الوجه الذي جاءت به شرائعه».

أما المفهوم الخاص للعبادة -يعني تفصيلها- فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال، والأعمال الظاهرة والباطنة كالخوف، والخشية، والتوكل، والصلاة، والزكاة، والصيام، وغير ذلك من شرائع الإسلام».

❑ قوله: (مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ)

● الإخلاص: هو التنقية والمراد به: أن يقصد المرء بعبادته وجه الله ﷻ، والوصول إلى دار كرامته بحيث لا يعبد معه غيره لا ملكًا مقربًا ولا نبيًا مرسلًا، قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ

أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾[النحل:١٢٣]. وقال الله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾[البقرة:١٣٠-١٣٢].

❏ قوله: (وَبِذَٰلِكَ)

●أي: بالحنيفية وهي عبادة الله مخلصًا له الدين، أمر الله جميع الناس وخلقهم لها، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾[الأنبياء:٢٥]، وبين الله ﷻ في كتابه أن الخلق إنما خلقوا لهذا فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[الذاريات:٥٦].

❏ قوله: (يُوَحِّدُونِ)

●يعني: التوحيد من معنى العبادة وإلا فقد سبق لك معنى العبادة، وعلى أي شيء تطلق، وأنها أعم من مجرد التوحيد.

واعلم أن العبادة نوعان:

عبادة كونية: وهي الخضوع لأمر الله تعالى الكوني، وهذه شاملة لجميع الخلق لا يخرج عنها أحد لقوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾[مريم:٩٣]، فهي شاملة للمؤمن والكافر، و البر والفاجر.

والثاني: عبادة شرعية وهي الخضوع لأمر الله تعالى الشرعي، وهذه خاصة بمن أطاع الله تعالى واتبع ما جاءت به الرسل مثل قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾[الفرقان:٦٣]. فالنوع الأول لا يحمد عليه الإنسان؛ لأنه بغير فعله؛ لكن قد يحمد على ما يحصل منه من شكر عند الرخاء وصبر على البلاء بخلاف النوع الثاني فإنه يحمد عليه.

❏ قوله: (التَّوْحِيدُ وَهُوَ: إِفْرَادُ اللهِ بِالعِبَادَةِ)

●التوحيد لغة: مصدر وحد يوحد؛ أي: جعل الشيء واحدًا، وهذا لا يتحقق إلا بنفي وإثبات، نفي الحكم عما سوى الموحد وإثباته له، فمثلًا نقول: إنه لا يتم للإنسان التوحيد حتى يشهد أن لا إله إلا الله فينفي الألوهية عما سوى الله تعالى ويثبتها لله وحده.

وفي الاصطلاح: عرّفه المؤلف بقوله: «التوحيد هو إفراد الله بالعبادة»؛ أي: أن تعبد الله وحده لا تشرك به شيئًا، لا تشرك به نبيًا مرسلًا، ولا ملكًا مقربًا ولا رئيسًا ولا ملكًا ولا أحدًا من الخلق، بل تفرده وحده بالعبادة محبة وتعظيمًا، ورغبةً ورهبةً، ومراد الشيخ رحمه الله: التوحيد الذي بعثت الرسل لتحقيقه؛ لأنه هو الذي حصل به الإخلال من أقوامهم.

وهناك تعريف أعم للتوحيد وهو: «إفراد الله سبحانه وتعالىٰ بما يختص به».

وأنواع التوحيد ثلاثة:

الأول: توحيد الربوبية وهو: «إفراد الله سبحانه وتعالىٰ بالخلق، والملك والتدبير» قال الله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[الزمر:٦٢]، وقال تعالىٰ: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[فاطر:٣]، وقال تعالىٰ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾[الملك:١]، وقال تعالىٰ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٥٤﴾[الأعراف:٥٤].

الثاني: توحيد الألوهية وهو: «إفراد الله سبحانه وتعالىٰ بالعبادة بأن لا يتخذ الإنسان مع الله أحدا يعبده ويتقرب إليه كما يعبد الله تعالىٰ ويتقرب إليه».

الثالث: توحيد الأسماء والصفات وهو «إفراد الله سبحانه وتعالىٰ بما سمىٰ به نفسه ووصف به نفسه في كتابه، أو علىٰ لسان رسوله ﷺ، وذلك بإثبات ما أثبته، ونفي ما نفاه من غير تحريف، ولا تعطيل، ومن غير تكييف، ولا تمثيل».

ومراد المؤلف هنا: توحيد الألوهية وهو الذي ضل فيه المشركون الذين قاتلهم النبي ﷺ واستباح دماءهم وأموالهم وأرضهم وديارهم وسبىٰ نساءهم وذريتهم، وأكثر ما يعالج الرسل أقوامهم علىٰ هذا النوع من التوحيد. قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾[النحل:٣٦]. فالعبادة لا تصح إلا لله ﷻ، ومن أخل بهذا التوحيد فهو مشرك كافر وإن أقر بتوحيد الربوبية والأسماء والصفات، فلو فرض أن رجلًا يقر إقرارًا كاملًا بتوحيد الربوبية والأسماء والصفات، ولكنه يذهب إلىٰ القبر فيعبد صاحبه أو ينذر له قربانًا يتقرب به إليه فإنه مشركٌ كافرٌ خالدٌ في النار، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝٧٢﴾[المائدة:٧٢]،

وإنما كان التوحيد أعظم ما أمر الله؛ لأنه الأصل الذي ينبني عليه الدين كله، ولهذا بدأ به النبيﷺ في الدعوة إلى الله، وأمر من أرسله للدعوة أن يبدأ به.

❏ قوله: (وَأَعْظَمُ مَا نَهَى عَنْهُ الشِّرْكُ)

●وذلك لأن أعظم الحقوق هو حق الله ﷻ، فإذا فرط فيه الإنسان فقد فرط في أعظم الحقوق وهو توحيد الله ﷻ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣﴾[لقمان:١٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ۝٤٨﴾[النساء:٤٨]، وقال ﷻ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ۝١١٦﴾[النساء:١١٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝٧٢﴾[المائدة:٧٢] وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾[النساء:٤٨] وقال النبيﷺ: «أعظم الذنب أن تجعل لله ندًا وهو خلقك»[٥٣]. وقال عليه الصلاة والسلام فيما رواه مسلم عن جابر ﷺ: «من لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة ومن لقيه يشرك به شيئًا دخل النار»[٥٤]. وقال النبيﷺ: «من مات وهو يدعو لله ندًا دخل النار»[٥٥]. رواه البخاري.

واستدل المؤلف -رحمه الله تعالى- لأمر الله تعالى بالعبادة ونهيه عن الشرك بقوله ﷻ: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾[النساء:٣٦] فأمر الله سبحانه وتعالى بعبادته ونهى عن الشرك به، وهذا يتضمن إثبات العبادة له وحده، فمن لم يعبد الله فهو كافر مستكبر، ومن عبد الله وعبد معه غيره فهو كافر مشرك، ومن عبد الله وحده فهو مسلم مخلص. والشرك نوعان: شرك أكبر، وشرك أصغر.

فالنوع الأول: الشرك الأكبر وهو: كل شرك أطلقه الشارع وكان متضمنًا لخروج الإنسان عن دينه.

النوع الثاني: الشرك الأصغر وهو: كل عمل قولي أو فعلي أطلق عليه الشرع وصف الشرك؛ ولكنه لا يخرج من الملة.

وعلى الإنسان الحذر من الشرك أكبره وأصغره فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن

---

(٥٣) سبق تخريجه.

(٥٤) سبق تخريجه.

(٥٥) أخرجه البخاري (٤٤٩٧)، وغيره من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ.

يُشْرَكَ بِهِۦ﴾[النساء:٤٨]. قال بعض أهل العلم: هذا الوعيد يشمل كل شرك ولو كان أصغر.

قال العلامة الفوزان:

❑قوله: (اعْلَمْ أَرْشَدَكَ الله)

●هذا كأنه بداية رسالة ثالثة؛ لأنه مضى رسالتان:

الرسالة الأولى: المسائل الأربع التي تضمنتها سورة العصر.

والرسالة الثانية: المسائل الثلاث التي سبقت.

والرسالة الثالثة: هي هذه، وستأتي الرسالة الرابعة، وهي ثلاثة الأصول.

فقوله رحمه الله: (اعلم): تقدم الكلام على لفظها وبيان معناها، والمقصود من الإتيان بها.

❑قوله: (أَرْشَدَكَ الله)

●هذا دعاء من الشيخ رحمه الله لكل من يقرأ هذه الرسالة متفهمًا لها يطلب العمل بها بأن يرشده الله، والإرشاد: هو الهداية إلى الصواب والتوفيق للعلم النافع والعمل الصالح.

والرشد ضد الغي، قال تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾[البقرة:٢٦٥] وقال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا﴾[الأعراف:١٤٦] والرشد هو دين الإسلام، والغيُّ دين أبي جهل وأمثاله.

❑قوله: (أَرْشَدَكَ الله لِطَاعَتِهِ)

●هذا دعاء عظيم، فإن المسلم إذا أرشده الله لطاعته فقد سعد في الدنيا والآخرة.

والطاعة: هي امتثال ما أمر الله به واجتناب ما نهى الله عنه، هذه هي الطاعة: أن تطيع الله في أوامره فتفعلها، وفي نواهيه فتجتنبها امتثالًا لأمر الله وابتغاء وجه الله ﷻ ترجو ثوابه، وتخاف عقابه، فمن وفق لطاعة الله، وأرشد لطاعة الله، فإنه يسعد في الدنيا والآخرة.

❑قوله: (أَنَّ الحَنِيفِيَّةَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيم)

●أي: الذي يجب أن تعلمه، وأن تعرفه أن الحنيفية ملة إبراهيم.

والحنف في اللغة: الميل.

فمعنى الحنيفية: هي الملة المائلة عن الشرك إلى التوحيد، وإبراهيم -عليه الصلاة والسلام- كان حنيفًا مسلمًا، حنيفًا؛ أي: مائلًا عن الشرك، ومعرضًا عنه إلى التوحيد،والإخلاص

ﷻ، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾[النحل:١٢٠].

فالحنيف من أوصاف إبراهيم ﷺ بمعنىٰ أنه معرض عن الشرك ومائل عنه بالكلية إلىٰ التوحيد، متوجه بكل وجهته إلىٰ التوحيد والإخلاص ﷻ قال الله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾[النحل:١٢٣] وقال سبحانه: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾[آل عمران:٦٧].

هذه أوصاف إبراهيم ﷺ العظيمة، منها أنه كان حنيفًا، وأن ملته الحنيفية هي الملة الخالصة ﷻ التي ليس فيها شرك، وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يتبع هذه الملة بقوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾.

وأمرنا نحن كذلك أن نتبع ملة إبراهيم ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾[الحج:٧٨] وهي دين جميع الرسل.

ولكن لكون إبراهيم -عليهم الصلاة والسلام- أفضل الأنبياء بعد نبينا محمد ﷺ لاقىٰ في سبيل الدعوة إلىٰ التوحيد من التعذيب، ومن الامتحان ما لم يلقه غيره، فصبر علىٰ ذلك. ولكونه أبا الأنبياء، فإن الأنبياء الذين جاءوا من بعده كلهم من ذريته -عليهم الصلاة والسلام- فالحنيفية ملة جميع الأنبياء، وهي الدعوة إلىٰ التوحيد والنهي عن الشرك، هذه ملة جميع الرسل؛ لكن لمَّا كان لإبراهيم مواقف خاصة نحو هذه الملة نسبت إليه ولمن جاء بعده، والأنبياء كلهم من بعده كانوا علىٰ ملة إبراهيم، وهي ملة التوحيد والإخلاص ﷻ.

ما هي هذه الملة التي أمر نبينا ﷺ باتباعها وأمرنا باتباعه؟ يجب علينا أن نعرفها؛ لأن المسلم يجب عليه أن يعرف ما أوجب الله عليه من أجل أن يمتثله، ومن أجل ألاَّ يخل به، لا يكفي الانتساب بدون معرفة، لا يكفي أن ينتسب للإسلام، وهو لا يعرفه، ولا يعرف ما هي نواقض الإسلام، وما هي شرائع الإسلام، وأحكام الإسلام، ولا يكفي الانتساب لملة إبراهيم، وأنت لا تعرفها، وإذا سئلت عنها تقول: لا أدري، هذا لا يجوز، يجب أن تعرفها جيدًا من أجل أن تسير عليها علىٰ بصيرة، وألا تُخِلَّ بشيءٍ منها.

قوله: (أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ)

● هذه ملة إبراهيم، أن تعبد الله مخلصًا له الدين. تجمع بين الأمرين: العبادة

والإخلاص، فمن عَبَدَ الله، ولم يخلص له الدين لم تكن عبادته شيئًا، فمن عبد الله، فصام، وحج، وصلىٰ، واعتمر، وتصدق، وزكّىٰ، وفعل كثيرًا من الطاعات؛ لكنه لم يخلص لله ﷻ في ذلك؛ إما لأنه فعل كل ذلك رياء أو سمعة؛ أو أنه خلط عمله بشيء من الشرك، كالدعاء لغير الله، والاستغاثة بغير الله، والذبح لغير الله، فإن هذا لم يكن مخلصًا في عبادته، بل هو مشرك، وليس علىٰ ملة إبراهيم -عليهم الصلاة والسلام-.

كثير ممن ينتسبون إلىٰ الإسلام اليوم يقعون في الشرك الأكبر، من دعاء غير الله وعبادة القبور، والأضرحة، والذبح لها، والنذر لها، والطواف بها، والتبرك بها، والاستغاثة بالأموات، وغير ذلك، وهم يقولون: إنهم مسلمون، هؤلاء لم يعرفوا ملة إبراهيم -عليهم الصلاة والسلام- التي عليها نبيهم محمد ﷺ لم يعرفوها، أو عرفوها وخالفوها علىٰ بصيرة -والعياذ بالله-، وهذا أشد.

فملة إبراهيم لا تقبل الشرك بأي وجه من الوجوه، ومن خلط عمله بشرك، فليس علىٰ ملة إبراهيم، وإن كان ينتسب إليها، ويزعم أنه مسلم، فالواجب أن تعرف ملة إبراهيم، وأن تعمل بها، وأن تلتزمها بأن تعبد الله مخلصًا له الدين، لا يكون في عبادتك شيء من الشرك الأصغر أو الأكبر.

هذه ملة إبراهيم ﷺ -الحنيفية- التي أعرضت عن الشرك بالكلية، وأقبلت علىٰ التوحيد بكليتها، أن تعبد الله مخلصًا له الدين.

❑قوله: (وَبِذَلِكَ أَمَرَ الله)

●الإشارة ترجع إلىٰ قوله: أن تعبد الله مخلصًا له الدين؛ أي: وبعبادة الله مخلصًا له الدين أمر الله جميع الخلق، أمر الله جميع الناس عربهم وعجمهم، أبيضهم وأسودهم، كل الناس من عهد آدم إلىٰ آخر بشر في الدنيا، كلهم أمرهم الله بعبادته مع الإخلاص في العبادة، قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٢﴾[البقرة:٢١،٢٢]؛ أنه لا ندَّ له، ولا شبيه له، ولا نظير له، ولا كفؤ له، فهذا نهي عن الشرك الأكبر وعن الشرك الأصغر. أمر الله بذلك جميع الناس من أولهم إلىٰ آخرهم.

قوله: (وَخَلَقَهُمْ لَهَا)

أي: لعبادته وحده لا شريك له سبحانه، خلقوا من أجلها، ذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝﴾ [الذاريات:٥٦]. وأمروا بذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة:٢١].

هذا معنى قول الشيخ: (خلقهم لها وأمرهم بها)، جمع الأمرين في قوله: «وبذلك أمر الله جميع الناس وخلقهم لها»، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝﴾ [الذاريات:٥٦].

فقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ﴾؛ الله هو الخالق، هو الذي خلق الأشياء كلها، ومن ذلك أنه خلق الجن والإنس، وأعطاهم العقول، وكلفهم بعبادته وحده لا شريك له، خصهم بالأمر بعبادته؛ لأن الله أعطاهم عقولًا، وأعطاهم ما يميزون به بين الضار والنافع، والحق والباطل، وخلق الأشياء كلها لمصالحهم ومنافعهم.

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية:١٣] كل مسخر لبني آدم من أجل أن يستعينوا به على ما خلقوا من أجله، وهو عبادة الله سبحانه وتعالى، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝﴾.

والجن عالم من عالم الغيب لا نراهم، وهم مكلفون بالعبادة، ومنهيون عن الشرك وعن المعصية مثل بني آدم، لكن يختلفون عن بني آدم في الخلقة.

أما من ناحية الأوامر والنواهي، فهم مثل بني آدم مأمورون ومنهيون، والجن عالم من عالم الغيب لا نراهم؛ لكنهم موجودون، والإنس هم بنو آدم، سموا بالإنس؛ لأن بعضهم يأنس ببعض، يجتمعون ويتآلفون، والجن سموا جِنًّا من الاجتنان وهو الاختفاء، ومنه الجنين في البطن؛ لأنه مختف، وجنه الليل إذا ستره، والمِجَنُّ: الذي يتخذ دون السهام، فالاجتنان والجنان هو الشيء الخفي المستتر، فالجن مستترون عنا لا نراهم.

وهم عالم موجود من أنكرهم فهو كافر؛ لأنه مكذب لله ورسوله ولإجماع المسلمين، فقد بين الله ﷻ أنه لم يخلق الجن والإنس إلا لعبادته لا لشيء آخر، فهو لم يخلقهم لأجل أن ينفعوه أو يضروه، أو يعتز بهم من ذلة، أو يتكثر بهم من قلة؛ لأنه غني عن العالمين، وما خلقهم لحاجة إليهم، ما خلقهم لأجل أن يرزقوه أو يكتسبوا له

الأموال: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ۝٥٨﴾[الذاريات:٥٧،٥٨].

فالله ليس بحاجة إلى الخلق، وإنما خلق الجن والإنس لشيء واحد فقط وهو أن يعبدوه، وهو ليس بحاجة إلى عبادتهم، وإنما هم المحتاجون إليها؛ لأنهم إذا عبدوا الله أكرمهم وأدخلهم الجنة، فمصلحة العبادة راجعة إليهم، ومضرة المعصية عائدة إليهم، أما الله -جل وعلا- لا تضره طاعة المطيع ولا معصية العاصي

قال سبحانه وتعالى: ﴿إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٨﴾[إبراهيم:٨] الله لا تضره معصية العاصي، ولا تنفعه طاعة المطيع، وإنما هذا راجع إلى الخلق أنفسهم، إن أطاعوه انتفعوا، وإن عصوه تضرروا بمعصيته.

❑قوله: (ومَعْنَى يَعْبُدُونِ يُوَحِّدُونِ)

●يوحدون؛أي: يفردوني بالعبادة، فالعبادة والتوحيد بمعنى واحد، التوحيد يفسر بالعبادة، والعبادة تفسر بالتوحيد، ومعناهما واحد، ففي هذا رد على من فسر التوحيد بأنه الإقرار بأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت المدبر، فهذا ليس هو التوحيد الذي خلق الخلق من أجله، وإنما خلق الخلق من أجل توحيد العبادة، وهو توحيد الألوهية.

أما من أقر بتوحيد الربوبية فقط، فإنه ليس موحدًا، وليس من أهل الجنة، بل هو من أهل النار؛ لأنه لم يأت بالتوحيد الذي خلق من أجله والعبادة.

❑قوله: (وَأَعْظَمُ مَا أَمَرَ الله بِهِ التَّوْحِيدُ)

● هذا مهم جدًا، إن التوحيد أعظم ما أمر الله به، كل الأوامر التي أمر الله بها كلها بعد التوحيد.

الدليل على أن أعظم ما أمر الله به التوحيد قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾[النساء:٣٦] إلى آخر الآية.

هذه الآية فيها عشرة حقوق؛ ولهذا تسمى آية الحقوق العشرة، أول هذه الحقوق حق الله سبحانه: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾، ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾ هذا هو الحق الثاني، ﴿وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾هذا هو الحق الثالث.

وذوو القربى: هم الذين تجمعك بهم قرابة نسبية من جهة الأب أو الأم، كالآباء

والأجداد، والأعمام والعمات، والأخوال والخالات، والإخوة والأخوات، وأولاد الإخوة والأخوات، وأولاد الأعمام والعمات، هؤلاء هم ذوو القربى، لهم حق القرابة.

﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ الأيتام من المسلمين، وهم كل من مات أبوه وهو صغير، ولم يبلغ، وصار بحاجة إلى من يسد مسد أبيه في رعاية هذا الطفل تربية وإنفاقًا والقيام بمصالحه، ورفع ما يضره؛ لأنه ليس له أب يحميه، وينفق عليه، ويدافع عنه، فهو بحاجة إلى من يساعده؛ لأنه فقد أباه وعائله، وله حق في الإسلام.

المهم أن الله بدأها بحقه سبحانه وتعالى قوله: ﴿وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ لم يقتصر على قوله: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾؛ لأن العبادة لا تصح مع الشرك ولا تنفع، ولا تسمى عبادة إلا إذا كانت خالصة لله ﷻ إن كان معها شرك، فإنها لا تكون عبادة مهما أتعب الإنسان نفسه فيها، قرن الأمر بالعبادة بالنهي عن الشرك؛ إذ لا تصح العبادة مع وجود الشرك أبدًا.

هذا دليل على قول الشيخ: «أعظم ما أمر الله به التوحيد»، حيث إن الله بدأ به في آيات كثيرة منها هذه الآية، ومنها قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[الإسراء:٢٣]، فبدأ -سبحانه وتعالى- بالتوحيد، وهذا يدل على أنه أعظم ما أمر الله به.

﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ﴾[الأنعام:١٥١].

هذا دليل على ما يأتي أن أعظم ما نهى الله عنه الشرك، إذا كان أعظم ما أمر الله به التوحيد، فإنه يجب أن يبدأ الإنسان بتعلم العقيدة قبل كل شيء، العقيدة هي الأساس، فيجب أن يبدأ بها بالتعلم والتعليم، وأن يداوم على تدريسها وبيانها للناس؛ لأنها هي أعظم ما أمر الله به، فليس من المناسب أن تجعلها آخر الأشياء، أو لا يؤبه بها؛ لأن الآن هناك دعاة يزهدون في تعليم التوحيد والعقيدة، هناك أناس ابتلوا بهذا؛ ولأن الإخلال بها إخلال بالدين كله فيجب العناية بها.

وما هو التوحيد؟ هل هو أن تقر بأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت؟ لا.

التوحيد هو: إفراد الله بالعبادة؛ لأن الله قال: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦﴾.

وقال أهل التفسير: يعبدون؛ أي: يوحدون، ففسروا التوحيد بالعبادة.

إذن فالتوحيد: هو إفراد الله بالعبادة، وليس هو الإقرار بأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت المدبر؛ لأن هذا موجود في الفطر، موجود في عقول العقلاء، لا يوجد عاقل في الدنيا يعتقد أن أحدا خلق السماوات والأرض غير الله سبحانه وتعالى، لا يوجد أحد في العالم كله وما فيه من الكفار والملاحدة يعتقد أن أحدًا خلق بشرًا: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[الزخرف:٨٧] .

لا يوجد عاقل في العالم يعتقد أن بشرًا يخلق بشرًا إنسانًا يمشي على الأرض ويتكلم ويأكل ويشرب، هل يوجد عاقل يعتقد هذا؟ ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦﴾[الطور:٣٥،٣٦] . توحيد الربوبية موجود في الفطر والعقول؛ لكنه لا يكفي بدون توحيد العبادة وهو إفراد الله بالعبادة.

ولهذا قال الشيخ: التوحيد هو إفراد الله بالعبادة، وليس هو إفراد الله بالخلق والرزق والإحياء والإماتة؛ لأن هذا شيء معروف، ولا يكفي توحيد الربوبية في تعريف التوحيد.

❑قوله: (وَأَعْظَمُ مَا نَهَى عَنْهُ الشِّرْكُ)

●هذه فائدة عظيمة؛ لأن بعض الناس يعتقدون أن هناك أشياء هي أعظم الجرائم، وأعظم ما نهى الله عنه، فيقول: الربا هو أعظم المحرمات، الزنا هو أعظم المحرمات؛ ولذلك يركزون على النهي عن الربا، وعن الزنا، وعن فساد الأخلاق؛ ولكن لا يهتمون بأمر الشرك، ولا يحذرون منه، وهم يرون الناس واقعين فيه، فهذا من الجهل العظيم بشريعة الله -سبحانه وتعالى-.

فأعظم ما نهى الله عنه هو الشرك، فهو أعظم من الربا، وأعظم من شرب الخمر، وأعظم من السرقة، وأعظم من أكل أموال الناس بالباطل، وأعظم من القمار والميسر، هو أعظم المحرمات؛ والدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝١٥١ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ إلى آخر الآيات[الأنعام:١٥١،١٥٢] ، وهذه الآيات تسمى بالوصايا العشر، ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١٥٢﴾.

هذه المحرمات بدأها الله بقوله: ﴿ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ فدل على أن الشرك هو أعظم ما نهى الله عنه.

وفي سورة الإسراء قال الله تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾[الإسراء:٢٢].

بدأ بالنهي عن الشرك، وختمها بالنهي عن الشرك فقال: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ ﴾[الإسراء:٣٩].

فدل على أنه أعظم ما نهى الله عنه، هذا يدل على قول الشيخ: وأعظم ما نهى الله عنه الشرك.

وفي الحديث الصحيح أن النبي ﷺ سئل: «أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله ندًا وهو خلقك، قيل: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك، قيل: ثم أي؟ قال: أن تزاني حليلة جارك»[٥٦].

وأنزل الله تصديق ذلك في قوله: ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ ﴾[الفرقان:٦٨].

فبدأ بالشرك في قوله: أن تجعل لله ندًا -أي شريكًا- وهو خلقك، وقال: هو أعظم الذنوب؛ لأنه سئل: أي الذنب أعظم؟ فبدأ بالشرك.

وقال ﷺ : «اجتنبوا السبع الموبقات! قيل وما هن يا رسول الله؟! قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق...»[٥٧]. إلخ الحديث

بدأها بالشرك؛ فدل على أن الشرك هو أعظم الذنوب؛ ولذلك فالمشرك لا يدخل الجنة أبدا، قال تعالى: ﴿ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ ﴾[المائدة:٧٢]، المشرك لا يغفر الله له: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾[النساء:٤٨].

فدل ذلك على تحريم الجنة على المشرك، وأن الله لا يغفر له، ودل هذا على أن الشرك أعظم الذنوب؛ لأن الذنوب ما عدا الشرك قابلة للمغفرة: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ فالزنا، والسرقة، وشرب الخمر، والربا كله داخل تحت

---

(٥٦) سبق تخريجه.

(٥٧) أخرجه البخاري (٦٨٥٧)، ومسلم (٨٩)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

المشيئة، إن شاء الله غفر لصاحبه، وإن شاء عذبه.

أما الشرك فإنه لا يغفر، حكم الله أنه لا يغفره، وكذا العاصي وإن كان عنده كبائر دون الشرك، فإنه لا تحرم عليه الجنة، مآله إلى الجنة، إما أن يغفر الله له من أول وهلة، ويدخله الجنة، وإما أن يخرج من النار بعد تعذيبه ويدخل الجنة، المؤمن مهما كان منه من الفسق والمعاصي التي دون الشرك فإنه لا يقنط من رحمة الله، ولا يحرم من الجنة، وهو داخل تحت المغفرة بمشيئة الله سبحانه وتعالى.

أما المشرك فإنه محروم من ذلك كله والعياذ بالله، فدل على أن الشرك هو أعظم الذنوب، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٌ ۝١٣﴾[لقمان:١٣].

وقال سبحانه: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ۝٤٨﴾[النساء:٤٨] ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ۝١١٦﴾ [النساء:١١٦] كل هذا يدل على أن الشرك أعظم الذنوب، وإذا كان الشرك أعظم الذنوب، فإنه يجب على العلماء والمتعلمين النهي عنه والتحذير منه، وألا يسكتوا عن التحذير من الشرك، وأنه يجب جهاد المشركين مع القدرة، كما جاهدهم رسول الله ﷺ.

قال تعالى: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖ﴾[التوبة:٥] فيجب التحذير من الشرك وبيانه للناس حتى يجتنبوه، هذا الذي يجب.

أما أن يسكت عن الشرك، ويترك الناس يهيمون في عبادة غير الله، وهم يدعون الإسلام، ولا أحد ينهي ولا أحد يحذر، فالأمر خطير جدًّا، هناك ناس يتجهون إلى النهي عن الربا والزنا وفساد الأخلاق، هذه أمور نعم محرمة وفساد؛ لكن الشرك أعظم، فلماذا لا يهتم بالنهي عن الشرك، والتحذير من الشرك، وبيان ما يقع فيه كثير من الناس في الشرك الأكبر وهم يدعون الإسلام؟

لماذا هذا التساهل في أمر الشرك والتغافل عنه، وترك الناس يقعون فيه، والعلماء موجودون، بل يعيشون مع هؤلاء ويسكتون عنهم؟

الواجب: أن يتجه أولًا إلى النهي عن هذا الخطر العظيم الذي فتك بالأمة فتكًا ذريعًا، كل ذنب دونه فهو أهون منه، والواجب أن يبدأ بالأهم فالأهم.

□قوله: (وَهُوَ: دَعْوَةُ غَيْرِهِ مَعَهُ)

●هذا تعريف الشرك: هو دعوة غيره معه، بمعنى: أن يصرف شيء من العبادة لغير الله من ملك من الملائكة أو نبي من الأنبياء، أو صالح من الصالحين، أو بنية من البنيات، أو غير ذلك من كل المخلوقات، فمن صرف شيئًا من العبادة لغير الله، فهذا هو أعظم ما نهى الله عنه، هذا هو الشرك.

فاعرفوا تفسير التوحيد وتفسير الشرك؛ لأن هناك من الناس من يفسر التوحيد بغير تفسيره، ومن يفسر الشرك بغير تفسيره.

من الناس من يقولون: إن الشرك هو الشرك في الحاكمية، وهذا ظهر الآن مع الأسف، الحكم بغير ما أنزل الله نوع من أنواع الشرك يسمى: شرك الطاعة، لا شك أن طاعة المخلوق في تحليل ما حرم الله، أو تحريم ما أحل الله هذا نوع من الشرك؛ لكن هناك ما هو أعظم منه، وهو عبادة غير الله ﷻ بالذبح والنذر والطواف والاستغاثة، فالواجب: أن يحذر من الشرك كله لا يؤخذ منه، ويترك ما هو أعظم وأخطر منه، فلا يفسر الشرك بأنه شرك الحاكمية فقط أو الشرك السياسي، ويقولون: الشرك بالقبور هذا شرك ساذج؛ أي: هين، هذه جراءة على الله -سبحانه وتعالى، الشرك أعظم ما نهى الله عنه، وهو دعوة غيره معه، هذا هو الشرك.

ومنهم من يقول: الشرك هو محبة الدنيا ومحبة المال. المال جعله الله محبوبًا حبا طبيعيًا ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠﴾[الفجر:٢٠]، ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾[العاديات:٨] أي: المال ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ﴾إلى قوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم﴾[التوبة:٢٤].

قال: أحب إليكم، ما أنكر عليهم أنهم يحبونه؛ لكن أنكر عليهم أنهم يقدمون محبته على محبة الله، محبة المال ليست شركًا؛ لأن هذه محبة طبيعية، الناس يحتاجون إلى المال ويحبونه، محبة المال ليست شركًا؛ لأنه من محبة المنافع التي ينتفع بها الإنسان؛ لكن هؤلاء الذين يقولون هذه المقالات إما أنهم جهال لم يتعلموا التوحيد والشرك، وإما أنهم معرضون يريدون صرف الناس عن هذه الحقائق إلى أشياء هم يريدونها، ومآرب يريدونها، والله أعلم بالمقاصد.

المهم: أن هذا ليس هو الشرك، الشرك هو دعوة غير الله معه، أو صرف شيء من

أنواع العبادة لغير الله: كالذبح، والنذر، والدعاء، والاستغاثة، والاستعانة، والالتجاء، والخوف، والرجاء، وغير ذلك، هذا هو الشرك الذي هو أعظم الذنوب، دعوة غيره معه سبحانه وتعالى؛ لأن الدعاء هو أعظم أنواع العبادة، كما قال سبحانه: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ﴾[الرعد:١٤]. وقال: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾[غافر:١٤]. فدعاء غير الله هو الشرك الذي حرمه الله ورسوله.

أما هذه الجزئيات التي يجعلونها هي الشرك فليس كذلك؛ لكن يقال: إن بعضها جزء من الشرك؛ وإن هناك ما هو أخطر منه وأهم منه؛ لأن الشرك يتفاوت، بعضه أشد من بعض والعياذ بالله.

❑قوله: (والدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾)

● قلنا: إن الدليل على أن أعظم ما أمر الله به هو التوحيد قوله: ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾[النساء:٣٦] ثم ذكر بقية الحقوق، فكونه بدأ بالتوحيد والنهي عن الشرك، هذا دليل على أن التوحيد هو أعظم ما أمر الله به؛ لأنه قال: ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾، وأتبعه بقوله: ﴿ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾، فهذا نهي، فبدأ الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك، فدل على أن أعظم ما أمر الله به التوحيد، وأعظم ما نهى عنه الشرك؛ لأن الله بدأ بذلك، ولا يبدأ سبحانه إلا بالأهم فالأهم، هذا وجه الدلالة من الآية.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

❑ قوله: (اعْلَمْ أَرْشَدَكَ الله لِطَاعَتِهِ)

●هذا فيه تلطف ثالث منه رحمه الله تعالى؛ حيث دعا للمتعلم بقوله: (اعلم أرشدك الله)، وهذا الذي ينبغي على المعلمين؛ أن يكونوا متلطفين بالمتعلمين؛ لأن التلطف والتعامل معهم بأحسن ما يجد المعلم هذا يجعل قلب المتعلم قابلًا للعلم، منفتحًا له، مقبلًا عليه.

❑قوله: (أَنَّ الحَنِيفِيَّةَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيم: أَنْ تَعْبُدَ الله وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ)

● (الحنيفية ملة ﷺ) هي التي أمر الله جل وعلا نبيه، وأمر الناس أن يكونوا عليها، قال جل وعلا: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾[النحل:١٢٣]، وملة إبراهيم هي التوحيد؛ لأنه هو الذي تركه فيمن بعده؛ حيث قال جل وعلا: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ

وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ٢٧﴾[الزخرف:٢٦،٢٧]، هذه الكلمة: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ اشتملت على نفي في الشق الأول، وعلى إثبات في الشق الثاني، ﴿إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦﴾البراءة نفي، ثم أثبت فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ فتبرأ من المعبودات المختلفة، وأثبت أنه عابد للذي فطره وحده، وهذا هو معنى كلمة التوحيد، ولهذا قال جل وعلا بعدها: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٢٨﴾؛ يعني: لعلهم يرجعون إليها، وعقب إبراهيمعليه السلام منهم العرب، أليس ومنهم أتباع الأنبياء، فهو أبو الأنبياء، ومعنى ذلك: أنه أب لأقوام الأنبياء، ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٢٨﴾إليها، وهذه الكلمة هي كلمة التوحيد لا إله إلا الله؛ لأن التوحيد هو ملة إبراهيم، لا إله إلا الله معناها ما قال إبراهيمعليه السلام: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾، فـ (لا إله) مشتملة على البراءة من كل إله عبد، و(إلا الله) إثبات*للعبادة؛ إثبات لعبادة الله وحده دونما سواه، ولهذا يقول العلماء: (لا إله إلا الله) معناها: لا معبود حق أو بحق إلا الله. معنى ذلك: أن كل المعبودات إنما عبدت بغير الحق، قال جل وعلا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٦٢﴾[الحج:٦٢]، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾، ولكونه جل وعلا هو الحق كانت عبادته وحده دون ما سواه هي الحق، قال: (لا إله)؛ أي: لا إله بحق، لا معبود بحق، لكن ثم معبودات بغير الحق، ثم معبودات بالباطل، ثم معبودات بالبغي، بالظلم والعدوان، لكن المعبود بحق ينفى عن جميع الآلهة إلا الله جل وعلا، فإنه هو وحده المعبود بحق. هذه الكلمة هي التي ألقاها إبراهيمعليه السلام في عقبه، وهذا مراد الشيخ رحمه الله تعالى بما ذكر.

□قوله: (وَأَعْظَمُ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ التَّوْحِيدُ)

●وبين أن أعظم الواجبات، أعظم ما أمر به إبراهيم الخليلعليه السلام، وما أمر به النبيﷺ التوحيد، وأعظم ما نهى عنه الشرك، ومعنى ذلك أن أعظم دعوة الأنبياء والمرسلين من إبراهيمعليه السلام، بل من نوحعليه السلام إلى نبينا محمدﷺ، أعظم ما يُدعى إليه بالأمر هو الأمر بتوحيد الله جل وعلا، وأعظم ما ينهى عنه ويؤمر الناس بتركه هو الشرك، فأعظم ما أمر به التوحيد، وأعظم ما نهي عنه الشرك؛ لأن التوحيد هو حق الله جل وعلا، ومن أجله بعثت الرسل، ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ

ﭐﻟﻄَّٰﻐُﻮﺕَ﴾[النحل:٣٦]، فالغاية من بعث الرسل أن تبين للناس، وأن تقول للناس اعبدوا الله وحده دون ما سواه، هذا الأمر، ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[النحل:٣٦]؛ يعني: اتركوا الشرك ومظاهر الشرك.

إذن أعظم مأمور به هو التوحيد، أعظم ما دعا إليه الرسل والأنبياء من نوح عليه السلام إلى نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، أعظم ما دعي إليه من المأمورات التوحيد، وأعظم ما نهي عنه من المنهيات هو الشرك؛ لأن الغاية من خلق الإنسان هي عبادة الله وحده، فصار الأمر بالتوحيد هو الأمر لهذا المخلوق بأن يعلم وأن ينفذ غاية الله جل وعلا من خلق هذا المخلوق. والنهي عن الشرك معناه: النهي عن أن يأخذ هذا المخلوق بطريق أو بفعل يخالف الغاية بفعله، وهذا ولا شك -كما ترى- يقود إلى فهم التوحيد، وإلى فهم حق الله جل وعلا، وفهم دعوة الحق بأعظم ما يكون الفهم؛ لأنك تنظر إلى أن إنفاذ المرء مما خلق من أجله هو أعظم ما يُدعى إليه، ونهي المرء عن ما يصده عما خلق من أجله هذا أعظم ما ينهى عنه، ولهذا كانت دعوة المصلحين، ودعوات المجددين على مر العصور بهذه الأمة هي في الدعوة إلى التوحيد ولوازمه و النهي عن الشرك وذرائعه.

الدرس الرابع:

[الأصول الثلاثة]

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَا الأُصُولُ الثَّلَاثَةُ الَّتِي يَجِبُ عَلَىٰ الإِنسَانِ مَعْرِفَتُهَا؟ فَقُلْ: مَعْرِفَةُ العَبْدِ رَبَّهُ، ودِينَهُ، ونَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ.

الشرح

قال العلامة ابن باز:

❏قوله: (فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَا الأُصُولُ الثَّلَاثَةُ الَّتِي يَجِبُ عَلَىٰ الإِنسَانِ مَعْرِفَتُهَا؟)

●هذه الأصول الثلاثة تجمع الدين كله: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ وهي التي يُسأل عنها العبد في قبره.

قال العلامة ابن قاسم:

❏قوله: (فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَا الأُصُولُ الثَّلَاثَةُ الَّتِي يَجِبُ عَلَىٰ الإِنسَانِ مَعْرِفَتُهَا؟)

● أي: إذا سألك سائل، فقال لك: ما الأصول الثلاثة التي يجب علىٰ كل مكلف معرفتها والعمل بمقتضاها؟

❏ قوله: (فَقُلْ: مَعْرِفَةُ العَبْدِ رَبَّهُ)

● أي: بما تعرف به إليه في كتابه، وعلىٰ لسان رسوله ﷺ ومن وحدانيته، وأسمائه، وصفاته، وهذا أصل الأصول، فيجب علينا أن نعرفه علىٰ بصيرة ويقين.

❏ قوله: (ودِينَهُ)

● الذي تعبدنا به، وهو فِعْلُ ما أوجب علينا أن نفعله، وتَرْكُ ما أوجب علينا أن نتركه، وهذا أصل عظيم فيجب علينا معرفته.

❏ قوله: (ونَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ)

● فإنه الواسطة بيننا وبين الله ﷻ، ولا طريق لنا إلىٰ ما تعبدنا به إلا بما جاء به ﷺ وهو إن كان بشرًا فأهمية معرفته من أهمية معرفة مرسله وما أرسل به، وذكر المصنف رحمه الله هذه الأصول الثلاثة مجملة، ثم ذكرها بعد ذلك مفصلة أصلًا أصلًا؛ تتميمًا للفائدة، وتنشيطًا للقارئ، فإنه إذا عرفها مجملة وعرف ألفاظها وضبطها بقي متشوقًا إلىٰ معرفة

معانيها، وهي المقصود بهذه النبذة وما تقدمها من المسائل، فلعل بعض تلاميذه قرنها بها.

قال العلامة العثيمين:

❑ قوله: (فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَا الأُصُولُ الثَّلاثَةُ؟)

●الأصول: جمع أصل، وهو ما يبنى عليه غيره، ومن ذلك أصل الجدار وهو أساسه، وأصل الشجرة الذي يتفرع منه الأغصان، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾﴾ [إبراهيم:٢٤]

وهذه الأصول الثلاثة يشير بها المصنف رحمه الله إلى الأصول التي يسأل عنها الإنسان في قبره: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟

أورد المؤلف -رحمه الله تعالى- هذه المسألة بصيغة السؤال؛ وذلك من أجل أن يتنبه الإنسان لها؛ لأنها مسألة عظيمة وأصول كبيرة؛ وإنما قال: إن هذه هي الأصول الثلاثة التي يجب على الإنسان معرفتها؛ لأنها هي الأصول التي يسأل عنها المرء في قبره إذا دفن وتولى عنه أصحابه أتاه ملكان فأقعداه فسألاه من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فأما المؤمن فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد، وأما المرتاب أو المنافق فيقول: هاه هاه لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته.

❑ قوله: (مَعْرِفَةُ العَبْدِ رَبَّهُ)

●**معرفة الله تكون بأسباب:**

منها: النظر والتفكر في مخلوقاته ﷻ فإن ذلك يؤدي إلى معرفته ومعرفة عظيم سلطانه وتمام قدرته، وحكمته، ورحمته، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ [الأعراف:١٨٥] وقال ﷻ: ﴿إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟﴾ [سبأ:٤٦] وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران:١٩٠] وقال ﷻ: ﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾ [يونس:٦] وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ

﴿وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝﴾ [البقرة:١٦٤].

ومن أسباب معرفة العبد ربه: النظر في آياته الشرعية وهي الوحي الذي جاءت به الرسل -عليهم الصلاة والسلام- فينظر في هذه الآيات وما فيها من المصالح العظيمة التي لا تقوم حياة الخلق في الدنيا ولا في الآخرة إلا بها، فإذا نظر فيها وتأملها وما اشتملت عليه من العلم والحكمة ووجد انتظامها وموافقتها لمصالح العباد عرف بذلك ربه ﷻ كما قال الله ﷻ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ۝﴾ [النساء:٨٢].

ومنها: ما يلقي الله ﷻ في قلب المؤمن من معرفة الله سبحانه وتعالى حتى كأنه يرى ربه رأي العين، قال النبي عليه الصلاة والسلام حين سأله جبريل: ما الإحسان؟ قال: **«أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»**[٥٨].

❑ قوله: (ودِينَهُ)

●أي: معرفة الأصل الثاني، وهو دينه الذي كلف العمل به وما تضمنه من الحكمة والرحمة ومصالح الخلق، ودرء المفاسد عنها، ودين الإسلام من تأمله حق التأمل تأملًا مبنيًا على الكتاب والسنة عرف أنه دين الحق، وأنه الدين الذي لا تقوم مصالح الخلق إلا به، ولا ينبغي أن نقيس الإسلام بما عليه المسلمون اليوم، فإن المسلمين قد فرَّطوا في أشياء كثيرة وارتكبوا محاذير عظيمة حتى كأن العائش بينهم في بعض البلاد الإسلامية يعيش في جو غير إسلامي.

والدين الإسلامي -بحمد الله تعالى- متضمن لجميع المصالح التي تضمنتها الأديان السابقة، متميز عليها بكونه صالحًا لكل زمان ومكان وأمة، ومعنى كونه صالحًا لكل زمان ومكان وأمة: أن التمسك به لا ينافي مصالح الأمة في أي زمان أو مكان؛ بل هو صلاحها وليس معناه: أنه خاضع لكل زمان ومكان وأمة، فدين الإسلام يأمر بكل عملٍ صالحٍ وينهى عن كل عملٍ سيئ فهو يأمر بكل خلقٍ فاضلٍ، وينهى عن كل خلقٍ سافلٍ.

❑ قوله: (ونَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ)

●هذا هو الأصل الثالث وهو معرفة الإنسان نبيه محمدًا ﷺ، وتحصل بدراسة حياة النبي ﷺ وما كان عليه من العبادة، والأخلاق، والدعوة إلى الله ﷻ، والجهاد في سبيله

---

(٥٨) سبق تخريجه.

وغير ذلك من جوانب حياته عليه الصلاة والسلام، ولهذا ينبغي لكل إنسان يريد أن يزداد معرفة بنبيه وإيمانًا به أن يطالع من سيرته ما تيسر في حربه وسلمه، وشدته ورخائه وجميع أحواله نسأل اللهﷻ أن يجعلنا من المتبعين لرسولهﷺ، باطنًا وظاهرًا، وأن يتوفانا على ذلك، إنه وليه والقادر عليه.

قال العلامة الفوزان:

❑قوله: (الأُصُولُ)

●جمع أصل، والأصل: ما يبنى عليه غيره.

والفرع: ما يبنى على غيره، فهذه سميت بالأصول؛ لأنها يبنى عليها غيرها من أمر الدين؛ فلذلك سميت أصولًا، لأنها يبنى عليها أمر الدين. وكل الدين يدور على هذه الأصول الثلاثة.

❑قوله: (مَعْرِفَةُ العَبْدِ رَبَّهُ)

●ربه: منصوب؛ لأنه مفعول لمعرفة؛ لأن المصدر: معرفة، أضيف إلى اسم الفاعل (العبد) والمصدر إذا أضيف يعمل عمل فعله عند النحويين، فالمصدر هنا أضيف فيعمل عمل الفعل.

❑قوله: (ودِينَهُ ونَبِيَّهُ)

●معطوف عليه؛ أي: على المنصوب، هذه أصول الدين إجمالًا. وسيأتي تفصيلها في كلام الشيخ رَحِمَهُ اللهُ إن شاء الله.

لماذا خص هذه الأصول الثلاثة؟

لأنها هي الأساسات لدين الإسلام؛ ولأنها هي المسائل التي يسأل عنها العبد حين يوضع في قبره؛ لأن العبد إذا وضع في قبره وسُوِّي عليه التراب، وانصرف عنه الناس راجعين إلى أهلهم جاءه ملكان في القبر، فتعاد روحه في جسده، ويحيا حياة برزخية، ليست حياة مثل حياة الدنيا، حياة الله أعلم بها، فيجلسانه في قبره، فيقولان له: من ربك، وما دينك، ومن نبيك؟

فالمؤمن يقول: ربي الله، وديني الإسلام، ومحمد ﷺ نبيي، فيقال له: كيف عرفت؟ يقول: قرأت كتاب الله فدريت وعرفت، فينادي مناد: أن صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة،

وافتحوا له بابًا من الجنة، ويوسع له في قبره مد البصر، فيأتيه من ريح الجنة وروحها، فينظر إلىٰ مسكنه في الجنة، فيقول: يا رب أقم الساعة؛ حتىٰ أرجع إلىٰ أهلي ومالي.

وأما المرتاب الذي عاش علىٰ الريبة والشك وعدم اليقين، وإن كان يدعي الإسلام، إذا كان عنده شكوك وعنده ريب في دين الله كالمنافق، فإنه يتلجلج، فإذا قالوا له: من ربك؟ يقول: لا أدري، وإذا قالوا: ما دينك؟ يقول: لا أدري، وإذا قيل: من نبيك؟ يقول: لا أدري، هاه هاه لا أدري؛ سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته[٥٩].

يعني: أنه في الدنيا يقول ما يقوله الناس من غير إيمان، هذا المنافق -والعياذ بالله-، هذا المنافق الذي أظهر الإسلام، وهو لا يعتقده في قلبه، وإنما أظهره من أجل مصالحه الدنيوية، فيقول في الدنيا: ربي الله، وهو غير مؤمن بها، قلبه منكر والعياذ بالله!!

يقول: ديني الإسلام، وهو لا يؤمن بالإسلام، قلبه منكر!!

يقول: نبيي محمدﷺ، وهو لا يؤمن برسالة محمد في قلبه!!

إنما يقول بلسانه فقط، هذا هو المنافق، فيقال له: لا دريت ولا تَلَيْتَ، فيضرب بمرزبة من حديد يصيح بها صيحة لو سمعه الثقلان لصعقوا، يسمعها كل شيء إلا الإنسان، لو سمعه لصعق؛ أي لمات من الهول، ويضيق عليه في قبره حتىٰ تختلف أضلاعه، ويفتح له باب إلىٰ النار، فيأتيه من سمومها وحرها، فيقول: يا رب لا تقم الساعة، هذه عيشته وحالته في القبر، والعياذ بالله؛ لأنه ما أجاب بالجواب السديد.

ولذلك ينادي مناد: أن كذب عبدي، فأفرشوه من النار، وافتحوا له بابًا من النار، والعياذ بالله.

فإذا كانت هذه المسائل بهذه الأهمية وجب علينا أن نتعلمها، وأن نعتقدها، ولا يكفي التعلم فقط، بل نتعلمها ونعتقدها، ونؤمن بها، ونعمل بها ما دمنا علىٰ قيد الحياة، لعل الله أن يثبتنا عند السؤال في القبر.

يقول الله تعالىٰ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۝٢٧﴾ [إبراهيم:٢٧].

---

(٥٩) أخرجه أبو داود (٤٧٥٣)، وأحمد (٢٨٧/٤)، وغيرهما من حديث البراء بن عازب ﷺ، وصححه العلامة الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

فهذه الأصول الثلاثة لها أهمية عظيمة؛ ولهذا ركز عليها الشيخ في هذه الرسالة ووضحها من أجل أن ندرسها، ونتمعَّن فيها ونعتقدها ونعمل بها، لعل الله أن يثبتنا وإياكم بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

□ قوله: (فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَا الأُصُولُ الثَّلاثَةُ الَّتِي يَجِبُ عَلَى الإِنسَانِ مَعْرِفَتُهَا؟ فَقُلْ: مَعْرِفَةُ العَبْدِ رَبَّهُ، ودِينَهُ، ونَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ)

●معرفة العبد ربه، يعني: معرفة العبد معبوده؛ لأن الربوبية في هذا المقام يراد بها العبودية؛ لأن الابتلاء للأنبياء والمرسلين لم يقع في معاني الربوبية، ألم تر أن الله جل وعلا قال: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾[يونس:٣١] هذه مقتضيات الربوبية ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾[يونس:٣١]. المشركون في كل زمان لم يكونوا ينازعون في توحيد الله جل وعلا في ربوبيته، ولهذا فسر العلماء سؤال القبر: من ربك؟ بمن معبودك؛ لأن الابتلاء لم يقع في الربوبية، وقد سئل الشيخ الإمام رحمه الله تعالى عن الفرق بين الربوبية والألوهية في بعض النصوص -في أحد الأسئلة التي وجهت إليه- فكان من جوابه أن قال: هذه مسألة عظيمة، وذلك أن الربوبية إذا أطلقت، أو إذا أفردت فإنه يدخل فيها الألوهية؛ لأن الربوبية تستلزم الألوهية، وتوحيد الربوبية يستلزم توحيد الإلهية، والألوهية تتضمن الربوبية؛ لأن الموحد لله جل وعلا في ألوهيته هو -ضمنًا- مقر بأن الله جل وعلا هو واحد في ربوبيته، ومن أيقن أن الله جل وعلا واحد في ربوبيته استلزم ذلك أن يكون مقرًّا بأن الله جل وعلا واحد في استحقاق العبادة، ولهذا تجد في القرآن أكثر الآيات فيها إلزام المشركين بما أقروا به ألا وهو توحيد الربوبية على ما أنكروه ألا وهو توحيد الإلهية؛ مثل قول الله -جل وعلا-في سورة الزمر: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[الزمر:٣٨] هذا توحيد الربوبية، قال بعدها: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾، قال: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم﴾ والفاء هنا رتبت ما بعدها على ما قبلها؛ وما قبلها هو توحيد الربوبية وما بعدها هو توحيد الإلهية، ولهذا في القرآن يكثر أن يحتج على

المشركين بإقرارهم بتوحيد الربوبية على ما أنكروه ألا وهو توحيد الإلهية، لهذا قال جل وعلا: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾[آل عمران:٨٠]، المعنى بـ(أربابًا)؛ أي: معبودين وكذلك قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾[التوبة:٣١]؛ يعني: معبودين؛ لأن عدي بن حاتم لما قال للنبي عليه الصلاة والسلام: إنا لم نعبدهم. ففهم معنى الربوبية في الآية معنى العبادة، وهذا هو الذي يفهمه من يعرف اللسان العربي، قال النبي عليه الصلاة والسلام -كما هو معروف-: «ألم يحلوا لكم الحرام فأحللتموه، ألم يحرموا عليكم الحلال فحرمتموه. قال: بلى. فقال: فتلك عبادتهم»[٦٠].

إذن الربوبية تطلق ويراد منها العبودية في بعض المواضع، تارة بالاستلزام، وتارة بالقصد. وبعض علمائنا قال: إن لفظ الألوهية والربوبية يمكن أن يدخل في الألفاظ التي يقال: إنها إذا اجتمعت تفرقت وإذا تفرقت اجتمعت، وهذا وجيه.

والمعرفة ترادف العلم في حق المخلوق في أكثر المواضع، أما في حق الله جل وعلا فإن الله جل وعلا يوصف بالعلم، ولا يوصف بالمعرفة، وذلك لأن العلم قد لا يسبقه جهل، بينما المعرفة يسبقها جهل؛ عرف الشيء بعد أن كان جاهلًا به، لكن العلم قد لا يسبقه جهل به، ولهذا يوصف الله جل وعلا بالعلم، ولا يوصف بالمعرفة. أيضًا يقال: إن التعبير بالعلم أوجه في المواضع التي يحتاج فيها إلى التعبير بالمعرفة؛ وذلك لأن المعرفة أكثر ما جاءت في القرآن مذمومة؛ لأنه يتبع المعرفة الإنكار، أما العلم فأُتي به في القرآن ممدوحًا، قال جل وعلا: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾[الأنعام:٢٠]، فهنا وصفهم بالمعرفة، ثم بين أن معرفتهم تلك لم تنفعهم، وقال جل وعلا: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾[النحل:٨٣]، لكن العلم أثني عليه في القرآن، وأما المعرفة فأكثر المواضع فيها نوع ذم لها؛ لكن هذا ليس على إطلاقه؛ لأنه قد جاء في «صحيح مسلم بن الحجاج» -رحمه الله تعالى- في بعض طرق حديث ابن عباس الذي فيه إرسال معاذ إلى اليمن، أن النبي ﷺ قال له: «فليكن أول ما تدعوهم إليه إلى أن يعرفوا الله فإن هم عرفوا الله فأخبرهم أن الله افترض عليهم خمس

---

(٦٠) أخرجه الترمذي (٣٠٩٥)، والبيهقي (١٠/١١٦)، وغيرهما من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه، وحسنه العلامة الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

صلوات»[٦١] إلى آخره، فصارت المعرفة هنا بمعنى العلم بالتوحيد كما في الروايات الأُخر، لكن التعبير بالمعرفة كما استعمله الشيخ رحمه الله تعالى هنا صحيح، وذلك لأنه قد ورد الاستعمال به، وإن كان أكثر ما جاء استعمال لفظ المعرفة في كونه مذمومًا.

قال هنا: (**معرفة العبد ربه**)؛يعني: معبوده، (**معرفة العبد دينه، معرفة العبد نبيه محمدًا ﷺ**).

هذه الأصول الثلاثة هي التي سيأتي تفصيلها والجواب عليها.

ثم بدأ يشرح رحمه الله تعالى، ويفصل معرفة العبد ربه عن طريق السؤال والجواب، لأن هذا أوقع في النفس، وأقرب إلى التعليم.

---

(٦١) أخرجه البخاري (١٤٥٨)، ومسلم (١٩)، وغيرهما من حديث معاذ رضي الله عنه.

الدرس الخامس:

[الأصل الأول: معرفة العبد ربه]

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَقُلْ: رَبِّيَ اللهُ الَّذِي رَبَّانِي وَرَبَّىٰ جَمِيعَ الْعَالَمِينَ بِنِعَمِهِ. وَهُوَ مَعْبُودِي لَيْسَ لِي مَعْبُودٌ سِوَاهُ. والدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة:٢] وَكُلُّ مَا سِوَىٰ اللهِ عَالَمٌ وَأَنَا وَاحِدٌ مِن ذَٰلِكَ الْعَالَمِ.

الشرح

قال العلامة ابن باز:

❑ قوله: (فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَنْ رَبُّكَ؟)

● فإذا سأل سائل فقال: من ربك؟

❑ قوله: (فَقُلْ: رَبِّيَ اللهُ الَّذِي رَبَّانِي)

● هذا رب الجميع، كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة:٢] والعالمون: جميع المخلوقات كلهم عالمون؛ الجن والإنس، والبهائم، والجبال، والأشجار، كلها عالم. قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٥٤﴾ [الأعراف:٥٤] فهو رب الجميع، له الخلق وله الأمر، وهو المستحق بأن يعبد؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة:٢١] الآية.. وهو معبودي ليس لي معبود سواه.

❑ قوله: (والدليل...)

● يعني: الثناء كله لله، والعبادة من الثناء ومن الحمد.

❑ قوله: (وَكُلُّ مَا سِوَىٰ اللهِ عَالَمٌ)

● وكل ما سوىٰ الله عالم: من الجن، والإنس، والحيوانات، والجبال كلها عوالم.

❑ قوله: (وَأَنَا وَاحِدٌ مِن ذَٰلِكَ الْعَالَمِ)

● وأنا واحد من ذلك العالم الذي خلقه الله وأوجده وأوجب عليه طاعته، فعلىٰ جميع العالمين من المكلفين من الجن والإنس أن يطيعوا الله ورسوله ويوحدوه جل

وعلا، وهكذا الملائكة عليهم أن يعبدوا الله وحده؛ ولهذا قال تعالى عن الملائكة: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ [التحريم:٦] وقال تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ۝٢٧ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ۝٢٨﴾ [الأنبياء٢٧،٢٨]

قال العلامة ابن قاسم:

❑ قوله: (فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَن رَبُّكَ؟)

● هذا شروع في تفصيل الأصول الثلاثة التي تقدمت مجملة ذكرهاهنا مفصلة، فكأنه قال: الأصل الأول من أصول الدين الثلاثة التي يجب على العبد معرفتها، إذا قال لك قائل: من ربك؟ أي: من خالقك ورازقك ومعبودك الذي ليس لك معبود سواه؟

❑ قوله: (فَقُلْ: رَبِّيَ الله الَّذِي رَبَّانِي)

● أي: فقل ربي هو اله خالقي ومالكي.ومعبودي الذي أوجدني من العدم، ورباني بالنعمة الظاهرة والباطنة.

❑ قوله: (وَرَبَّى جَمِيعَ العَالَمِينَ بِنِعَمِه)

● أوجدهم من العدم وغذاهم بالنعم، ونعم الله لا تحصى، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل:١٨] فلله نعمة الإيجاد، ونعمة التغذية، وسائر نعمه الظاهرة والباطنة، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾ [الإنسان:١] أي: مضى عليه زمن طويل من العصور والدهور لم يكن فيها شيئًا مذكورًا؛ أي: موجودًا بل معدومًا وإنما أوجده الله من العدم ورزقه من النعم؛ ليعبده وحده.

❑ قوله: (وَهُوَ مَعْبُودِي لَيْسَ لِي مَعْبُودٌ سِوَاهُ)

● أي: هو وحده مألوهي لا غيره، كما أنه -سبحانه وتعالى- المنفرد بالخلق والرزق والتدبير، فهو وحده المستحق بأن يعبد وحده دون سواه، وهذا مدلول كلمة الإخلاص (لا إله إلا الله).

❑ قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾

● الحمد: هو الثناء على المحمود مع حبه وإجلاله وتعظيمه، والاسم الشريف علم على ربنا تبارك وتعالى لا يسمى به سواه، والرب المالك والسيد، ولا يطلق إلا على الله

تعالى، ورب: مضاف، والعالمين: مضاف إليه، والمراد: جميع المخلوقات.

وهذه الآية هي أول آية في المصحف بعد البسملة في أول سورة، وآخر دعوى أهل الجنة، وفيها تفرده بجميع الخلق وربوبيتهم وملكهم، وتصرفه فيهم بما يشاء، وهو معبودهم ليس لهم معبود سواه، فإن الرب إذا أفرد دخل فيه المعبود، فهو المالك المتصرف، المعبود وحده دون كل من سواه.

❏ قوله: (وَكُلُّ مَا سِوَىٰ الله عَالَمٌ)

● وجمعه: عوالم وعالمون، فالوجود قسمان: رب، ومربوب، فالرب: هو المالك سبحانه، المتفرد بالربوبية والإلهية، والمربوب: هو العالم، وهو كل من سوى الله من جميع الخلائق.

❏ قوله: (وَأَنَا وَاحِدٌ مِن ذَلِكَ العَالَم)

● أي: وأنا أيها الإنسان واحد من جملة تلك المخلوقات المربوبة المتعبدة بأن يكون الله وحده هو معبودها وحده.

قال العلامة العثيمين:

❏ قوله: (مَنْ رَبُّكَ؟)

●أي: من هو ربك الذي خلقك، وأمدَّك، وأعدَّك، ورزقك.

❏ قوله: (رَبِّيَ الله الَّذِي رَبَّانِي)

●التربية هي عبارة عن الرعاية التي يكون بها تقويم المربى، ويُشْعِرُ كلام المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أن الرب مأخوذ من التربية؛ لأنه قال: «الذي رباني وربى جميع العالمين بنعمه» فكل العالمين قد ربَّاهم الله بنعمه وأعدهم لما خلقوا له، وأمدهم برزقه؛ قال الله تبارك وتعالى في محاورة موسى وفرعون: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه:٤٩، ٥٠]. فكل أحدٍ من العالمين قد رباه الله ﷻ بنعمه.

ونعم الله ﷻ على عباده كثيرة لا يمكن حصرها، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤] فالله هو الذي خلقك وأعدك، وأمدك ورزقك، فهو وحده المستحق للعبادة.

❑ قوله: (وَهُوَ مَعْبُودِي)

●أي: وهو الذي أعبده وأتذلل له خضوعًا ومحبة وتعظيمًا، أفعل ما يأمرني به، وأترك ما ينهاني عنه، فليس لي أحد أعبده سوى اللهﷻ، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾[الأنبياء:٢٥] وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾[البينة:٥].

❑ قوله: (والدَّلِيلُ...)

●استدل المؤلفرَحِمَهُ ٱللَّهُ لكون الله سبحانه وتعالى مربيًا لجميع الخلق بقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾[الفاتحة:٢]؛ يعني: الوصف بالكمال والجلال والعظمة لله تعالى وحده.

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾؛ أي: مربيهم بالنعم وخالقهم ومالكهم، والمدبر لهم كما شاءﷻ.

❑ قوله: (العَالَم)

●العالم: كل من سوى الله، وسموا عالمًا؛ لأنهم علم على خالقهم ومالكهم ومدبرهم، ففي كل شيء آية لله تدل على أنه واحد.

وأنا المجيب بهذا واحدٌ من ذلك العالم، وإذا كان ربي، وجب علي أن أعبده وحده.

قال العلامة الفوزان:

❑قوله: (فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَنْ رَبُّكَ؟)

● لما بين الشيخرَحِمَهُ ٱللَّهُ الأصول الثلاثة مجملة أراد أن يبينها مفصلة واحدًا واحدًا بأدلتها من الكتاب والسنة، ومن آيات الله في الكون، ومن الأدلة العقلية، وهكذا يجب أن تبنى العقائد على أدلة الكتاب والسنة، وعلى النظر في آيات الله الكونية من أجل أن ترسخ، وتثبت في القلب، وتزول جميع الشبه.

وأما العقائد المبنية على الشبهات، وعلى الشكوك، وعلى أقوال الناس، والتقليد الأعمى، فإنها عقائد زائلة لا تثبت، وهي عُرضة للنقض، وعرضة للإبطال.

فلا تثبت العقيدة، ولا سائر الأحكام الشرعية إلا بأدلة الكتاب والسنة، وبالأدلة

العقلية المسلمة؛ ولهذا أكثر الشيخ رَحَمَهُ ٱللَّهُ من سياق الأدلة على هذه الأصول الثلاثة، فلا يمر أصل منها إلا وقد دعمه بالأدلة والبراهين اليقينية التي تطرد الشكوك والأهواء، وترسخ العقيدة في القلب.

قوله: (فَإِذَا قِيلَ لَكَ)

●أي: سئلت من ربك؟ وهذا سؤال وارد ستسأل عنه في الدنيا والآخرة، فلابد أن تعرف ربك ﷻ، وأن تجيب بجواب صحيح مبني على اليقين والبرهان، فقل: ربي الله - هذا هو الجواب- الذي رباني، وربى جميع العالمين بنعمه، هذا استدلال عقلي.

فالرب -جل وعلا- هو الذي يربي جميع عباده بنعمه، ويغذيهم برزقه، يخلقهم - بعد أن لم يكونوا شيئًا مذكورًا- في بطون أمهاتهم خلقًا من بعد خلق في ظلمات ثلاث، ويوصل إليهم الرزق حتى في بطون أمهاتهم؛ ولذلك ينمو جسم الجنين في بطن أمه ويكبر؛ لأنه يصل إليه الرزق من الله سبحانه وتعالى، ويصل إليه الغذاء.

ثم تنفخ فيه الروح، فيتحرك، ويحيا بإذن الله، هذه تربية في البطن، ثم إذا خرج، فإن الله سبحانه يربيه بنعمه بالصحة والعافية، ويدرُّ عليه لبن أمه، فيتغذى إلى أن يأكل الطعام، ويستغني عن الحليب، ثم ينمو شيئًا فشيئًا، عقله وسمعه وبصره، ينمو شيئًا فشيئًا حتى يبلغ الحلُم، ثم ينمو وينمو حتى يبلغ أشده ويبلغ أربعين سنة، ويكون في غاية القوة.

فمن الذي يغذيه من يوم أن خلقه في بطن أمه إلى أن يموت؟ من الذي يغذيه؟ ثم من الذي يسوغ هذا الطعام وهذا الشراب في جسمه، فيصل إلى كل خلية وعضلة، وإلى كل مكان في جسمه؟ من الذي يشهي إليه الطعام والشراب؟ من الذي يصرفه ويخرج منه ضرره؟ من الذي يفعل هذا ويربي هذا الإنسان؟ أليس هو الله سبحانه وتعالى؟ هذا هو الرب -سبحانه وتعالى- الذي يربي، الذي رباني وربى جميع العالمين بنعمته.

كل ما على وجه الأرض من العوالم الآدمية والحيوانية، وعالم البر والبحر، من أكبر مخلوق إلى أصغر مخلوق، في البر والبحر، كلها تتغذى بنعمه ورزقه، قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾[الملك:٢١]، وقال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾[هود:٦]، وقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦٠﴾[العنكبوت:٦٠].

هذا هو الرب سبحانه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ [يونس:٣] أما غير الله -جل وعلا- فلا يملك من ذلك شيئًا، لا الأصنام ولا غيرها، لا أحد يملك من الرزق شيئًا، وإنما هو مرزوق، مخلوق مثلك.

❑قوله: (وَهُوَ مَعْبُودِيْ)

●الرب الذي هذا شأنه هو الذي يستحق العبادة مني ومن غيري، ثم -أيضًا- نبه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه لا يكفي الإقرار بالربوبية، لا يكفي أن تقول: ربي الله الذي رباني بنعمه.

هذا لا يكفي، لا بد أن تعترف له بالعبودية، وأن تخلص له بالعبادة، وهذا هو الفرق ما بين الموحد والمشرك، فالموحد يقر بربوبية الله ﷻ وبعبوديته وحده لا شريك له، والمشرك يقر بربوبية الله؛ ولكنه مشرك في عبادته، يشرك معه غيره في عبادته، يشرك معه من لا يخلق، ولا يرزق، ولا يملك شيئًا، هذا هو الفرق ما بين الموحد والمشرك؛ الموحد يقول: ربي الله، وهو معبودي، وليس لي معبود سواه، أما المشرك فيقول: ربي الله؛ لكن العبادة عنده ليست خاصة بالله، فيعبد مع الله الأشجار، والأحجار، والأولياء، والصالحين، والقبور؛ فلذلك صار مشركًا، ولم ينفعه الإقرار بالربوبية، ولم يدخله في الإسلام.

فقوله: «وهو معبودي» أي: الإله الذي أعبده.

❑قوله: (لَيْسَ لِي مَعْبُودٌ سِوَاهُ...)

●لا من الملائكة، ولا من الرسل، ولا من الصالحين، ولا من الأشجار، والأحجار، ولا من أي شيء، ليس لي معبود سواه سبحانه وتعالى، هذا تقرير التوحيد بالدليل، وهذا دليل عقلي، ثم ذكر الدليل النقلي من القرآن.

والدليل قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة:٢].

هذه الآية هي أول القرآن في المصحف، ليس قبلها إلا بسم الله الرحمن الرحيم، وهي آخر كلام أهل الجنة، قال تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾ [يونس:١٠]، والله -جل وعلا- افتتح بها الخلق.

قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام:١].

وختم بها الخلق، قال تعالى: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٥﴾ [الزمر:٧٥] فتح بها الخلق وختم بها، فهي كلمة عظيمة.

فقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ﴾: الثناء على المحمود مع محبته وإجلاله، و«أل»: في الحمد للاستغراق؛ أي جميع المحامد لله ملكًا واستحقاقًا، فهو المستحق للحمد المطلق، وأما غيره فيحمد على قدر ما يفعل من الجميل ومن الخير، وأما الحمد المطلق الكامل فهو لله ﷻ ؛ لأن النعم كلها منه.

وحتى المخلوق إذا أسدى إليك شيئًا من الإحسان، فإنه من الله ﷻ هو الذي سخر لك هذا المخلوق، وهو الذي مكنه من أن يحسن إليك، فالحمد يرجع إلى الله سبحانه وتعالى.

وقوله: ﴿لِلَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر المبتدأ؛ أي: الحمد كائن أو مستقر لله ﷻ.

والله: معناه: ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين، وهذا الاسم لا يسمى به غيره سبحانه، لا أحد تسمَّى بـ«الله»، حتى فرعون ما قال: أنا الله، لكنه قال: أنا ربكم، فهذا الاسم خاص بالله، لا أحد يتسمَّى به أبدًا، ولا أحد يجرؤ أن يقول: أنا الله.

رب: نعت لاسم الجلالة، وهو مجرور، وهو مضاف.

العالمين: مضاف إليه مجرور وعلامة جره الياء؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم.

فواضح أن الحمد كله، والثناء كله لله رب العالمين.

وعالم الملائكة، وعالم الجمادات، والطيور، وعالم السباع، وعالم الحيوانات، وعالم الحشرات، والذر، عوالم في البر والبحر لا يعلمها إلا الله، ولا يحصيها إلا الله، كلها الله ربها.

رب العالمين: وهذا لا يقال إلا على الله -سبحانه ﷻ- لا يمكن لأحد أن يقال له: رب العالمين.

فإذا قيل: الرب: فهذا لا يطلق إلا على الله -جل وعلا- ولا ينصرف إلا إليه، أما المخلوق فيقيد، فيقال: رب الدار، رب البهيمة؛ أي: مالكها وصاحبها.

❐ قوله: (وَأَنَا وَاحِدٌ مِن ذَلِكَ العَالَم)

● ثم بين الشيخ رحمه الله وجه الاستدلال بهذه الآية؛ فيكون الله ربي؛ لأن الله رب العالمين، وأنا واحد من العالمين، فلا أحد يستطيع أن يقول: أنا لي رب غير رب العالمين، لا الكافر ولا المسلم، هذا لا يمكن أبدًا، ولا يقوله عاقل، هذا دليل على ربوبية

اللهﷻ، وما دام أنه رب العالمين، فهو المستحق للعبادة، وهذا يبطل عبادة غيره سبحانه وتعالى؛ ولذلك قال بعدها: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾[الفاتحة:٥].

وهذا يفيد الحصر؛ لأن تقديم المعمول ﴿ إِيَّاكَ ﴾وتأخير العامل﴿ نَعْبُدُ ﴾ يدل على الحصر، فإياك نعبد يختلف عن نعبدك؛ لأن نعبد هذا إثبات فقط؛ لكن: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ يتضمن النفي والإثبات؛ أي: لا نعبد غيرك، والعبادة لا تصح إلا مع النفي والإثبات، وهو معنى لا إله إلا الله، فيها نفي وإثبات، نفي الألوهية عما سوى الله، وإثباتها للهﷻ.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

❑ قوله: (فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَقُلْ: رَبِّيَ الله الَّذِي رَبَّانِي وَرَبَّى جَمِيعَ العَالَمِينَ بِنِعَمِه...)

● لفظ الربوبية فيه معنى التربية، رباه تربية، ومعنى التربية: تدريج المربى في مصاعد الكمال، كل كمال بحسبه، وأعظم أنواع التربية التي ربى بها الله جل وعلا الناس أن بعث لهم الرسل يعلمونهم، ويرشدونهم إلى ما يقربهم إلى الله جل وعلا، وهذه هي أعظم نعمة، قال جل وعلا: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾[يونس:٥٨]، فأعظم النعم المسداة إرسال الرسل، ولهذا كان من أنواع التربية التي ربى بها الله جل وعلا العالمين، ربى بها الله جل وعلا الناس، أن بعث لهم رسلًا يبشرون و ينذرون، وهناك أنواع كثيرة من التربية؛ تربية الأجسام، تربية الغرائز، تربية الفكر، تربية العقل، كل هذا قد منَّ الله جل وعلا على ابن آدم به، وكذلك إذا نظرت إلى أوسع من ذلك من خلق الله جل وعلا الواسع، والعالمين الذين هم كل ما سوى الله جل وعلا، فتجد أن معاني الربوبية والتربية بالنعم والتربية في تدريجها في مدارج الكمال بما يناسبها، والله جل وعلا أعلم بما يصلح ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾[القصص:٦٨]، وجدت أن معاني الربوبية في هذا المعنى الذي هو التربية ظاهر جدًا، أيضًا الربوبية لها معنى آخر، وهو الذي سلف من معنى توحيد الربوبية؛ يعني: اعتقاد أن الله جل وعلا هو الخالق لهذا الخلق وحده، وهو الرزاق وحده، وهو الذي يدبر الأمر، وهو القاهر، وهو ذو الملك، إلى آخر معاني الربوبية.

❑ قوله: (والدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾)

● استدل الشيخ بهذه الآية؛ معنى (الحمد): كل حمد؛ لأن الألف واللام هنا للاستغراق؛ استغراق أنواع الحمد، وكل حمد موجود، أو وجد، أو يوجد، والحمد معناه: الثناء بصفات الكمال، فهذا الحمد وهو الثناء بصفات الكمال لله، واللام هنا للاستحقاق؛ يعني: مستحقًّا لله جل وعلا، فكل أنواع الحمد مستحقة لله؛ لأن اللام هنا لام الاستحقاق.

اللام تارة تكون:

- للملك، وهذا إذا كان ما قبلها من الأعيان.

- وتارة تكون للاستحقاق، وهي إذا كان ما قبلها من المعاني.

إذا قلت: الدار لفلان، الدار عين، فتكون اللام لفلان، يعني: ملك. إذا كان ما قبل اللام معنى صارت اللام للاستحقاق، تقول: الفخر لفلان؛ أي: الفخر يستحقه فلان. (الحمد لله)، الحمد معنى؛ لهذا صارت اللام بعده للاستحقاق، فكل حمد مستحق لله، الإله الذي لا يعبد بحق إلا هو، هذا الإله نعته أنه رب العالمين.

❑ قوله: (وَكُلُّ مَا سِوَىٰ الله عَالَمٌ وَأَنَا وَاحِدٌ مِن ذَلِكَ العَالَم)

● سبق أن ذكرنا أن ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ جمع عالم، والعالم اسم لأجناس ما يعلم، وهو كل ما سوى الله جل وعلا، كما قال الشيخ رحمه الله تعالى: (وكل من سوى الله عالم وأنا واحد من ذلك العالم) عالم الإنسان، عالم الطير، عالم النبات، عالم الملائكة، عالم الجن، عالم السموات، عالم الأراضين، عالم الماء، إلى آخره، فالعالم كل ما سوى الله جل وعلا من الأجناس المختلفة؛ إذن ما دام أنك واحد من ذلك العالم فأول من يخاطب بهذه الآية المؤمن، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فيستيقن المؤمن بتلاوته لهذه الآية ربوبية الله جل وعلا له واستحقاقه للحمد واستحقاقه جل وعلا لكل ثناء، ولكل وصف بالكمالات.

الدرس السادس:

[دليل الأصل الأول]

فَإِذَا قِيلَ لَكَ بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟ فَقُلْ: بِآيَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ، وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ والنَّهَارُ والشَّمْسُ والقَمَرُ، وَمِنْ مَخْلُوقَاتِهِ السَّمواتُ السَّبْعُ والأَرَضُونَ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُمَا.

والدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾[فصلت:٣٧]، وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا[62] وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾[الأعراف:٥٤].

وَالرَّبُّ هُوَ المَعْبُودُ، والدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا[63] وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً[64] وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا[65] وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾[البقرة:٢١،٢٢].

قَالَ ابنُ كَثِيرٍ -رحمه الله تعالَى-: «الخَالِقُ لِهذِهِ الأَشْيَاءِ هُوَ المُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ».

الشرح

قال العلامة ابن باز:

❏ قوله: (فَإِذَا قِيلَ لَكَ: بم عرفت رَبَّكَ؟)

● إذا قيل لك أيها المسلم بم عرفت ربك الذي أنت تعبده؟

❏ قوله: (فَقُلْ: بِآيَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ)

● أي: بآياته الكثيرة، وبمخلوقاته العظيمة، التي تدل على أنه الرب العظيم، وأنه

---

(٦٢) أي: مسرعا[الدمشقي].

(٦٣) أي: ذللها لكم ولم يجعلها نائية لا يمكن الاستقرار عليها[الدمشقي].

(٦٤) أي: جعل السماء كالقبة المضروبة، أو أنها كالسقف للأرض[الدمشقي].

(٦٥) الأنداد: جمع ند -بكسر النون- هو المثل والنظير[الدمشقي].

الخلاق العليم، وأنه المستحق لأن يعبد، وأنه الذي يخلق ما يشاء، ويعطي ويمنع، وينفع ويضر، بيده كل شيء سبحانه وتعالى، فهو المستحق بأن نعبده بطاعته، ودعائه، واستغاثته، وسائر أعمالنا وعباداتنا؛ لأن الله خلقنا لهذا، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[الذاريات:٥٦]، وهذه العبادة هي توحيده، وطاعته، واتباع شريعته، وتعظيم أمره ونهيه قولًا وعملًا.

□قوله: (وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَالشَّمْسُ وَالقَمَرُ)

● كل هذه تدل على أنه رب العالمين، وأنه الخلَّاق العليم، يأتي الليل بظلامه، ويذهب النهار بضيائه، ثم يجيء النهار، ويذهب الليل، وهذه الشمس تطلع على الناس في الدنيا كلها، وينتفعون بها، وهذا القمر كذلك وغير هذه من الآيات العظيمة؛ كالأرض وما فيها من جبال، وأنهار، وبحار، وأشجار، وحيوانات، وهذه السموات التي يراها الناس، كلها من آياته الدالة على عظمته، وأنه رب العالمين، وأنه الخلاق العليم، وأنه المستحق للعبادة؛ ولهذا قال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾[فصلت:٣٧]؛ يعني: لا تعبدوا هذه المخلوقات، بل اعبدوا الذي خلقها وأوجدها سبحانه وتعالى، فهو المستحق بأن يذل له العبد ويخضع له، ويطيع أوامره وينتهي عن نواهيه سبحانه وتعالى؛ تعظيمًا وتقديسًا له، وخوفًا منه، ورغبةً فيما عنده.

□قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾

● وقال سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ يعني: إن ربكم أيها العباد؛ من الجن والإنس هو الله، وربكم؛ يعني: خالقكم، وهو معبود كم الحق وحده لا شريك له: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[الأعراف:٥٤]؛ أي: ثم ارتفع على العرش، وعلا فوقه سبحانه وتعالى، فعلمه في كل مكان وهو فوق العرش، فوق جميع المخلوقات، والعرش سقف المخلوقات وهو أعلى المخلوقات، والله فوقه جل وعلا، استوى عليه استواءً يليق بجلاله لا يشابه خلقه في شيء من صفاته، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾[الشورى:١١]، وقال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾[الإخلاص:٤]، وقوله: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾[الأعراف:٥٤]؛

أي: يغطي هذا بهذا، وهذا بهذا، ﴿ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا ﴾؛ أي: سريعًا، وكل واحد يطلب الآخر، إذا انتهى هذا دخل هذا، وهكذا.. حتى تقوم الساعة. ﴿ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾؛ أي: وخلق الشمس والقمر والنجوم خلقها مسخرات بأمره، مطيعات مذللات لأمره سبحانه، ثم قال سبحانه: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾، فالخلق له والأمر له هو الخلاق الذي لا يخالف أمره الكوني الذي هو نافذ في الناس، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يس:٨٢] وقوله: ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ ﴾ [القمر:٥٠]، فأمر الله الكوني القدري لا راد له؛ ولهذا قال: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾، فـ﴿ تَبَارَكَ ﴾ [الأعراف:٥٤] يعني: بلغ في البركة النهاية، وهي صيغة لا تصلح إلا لله، فلا يقال للعبد: تباركت يا فلان، هذا لا يصلح، وإنما هو خاص بالله، كما قال تعالى: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ﴾ [الملك:١] وإنما يقال للمخلوق: بارك الله في فلان، أو فلان مبارك ، أما تباركت، فإنها لا تصلح إلا لله وحده.

□ قوله: (وَالرَّبُّ هُوَ الْمَعْبُودُ)

● والرب هو المعبود، و ﴿ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الحاقة:٤٣]: المخلوقات كلها؛ من الجن والإنس والسماء والأرض، وهو ربها سبحانه وتعالى، وهو رب الجميع، وخالق الجميع جل وعلا.

□ قوله: (والدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ﴾)

● قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [البقرة:٢١] خلق الجميع الذين قبلنا، والذين بعدنا من آدم وما قبله وما بعده، ثم قال سبحانه: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا ﴾ [البقرة:٢٢] الآية، فهو خلق الجميع؛ ليتقوه ويعبدوه، كما قال تعالى: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [البقرة:٢١]، ثم بين سبحانه بعض أفعاله فقال: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾ [البقرة:٢٢]، فجعل الأرض فراشًا للناس، ومهادًا لهم، عليها يسكنون، وعليها يبنون، وعليها ينامون، وعليها يمشون، وأرساها بالجبال، ثم قال: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾ فجعلها بناءً وسقفًا محفوظًا وهم عن آياتها معرضون، وزينها بالنجوم والشمس والقمر ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾؛ أي: من السحاب ﴿ فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ أنواع الأرزاق في كل مكان، ويحيي الله به الأرض بعد موتها، ثم قال تعالى: ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [البقرة:٢٢] أي: أشباها

ونظراء تعبدونها معه، لا صنمًا ولا جنًّا ولا ملكًا ولا غير ذلك، فالعبادة حق الله وحده، ليس له نديد ولا نظير ولا مثيل، بل هو الإله الحق، وكان المشركون يتخذون له الأنداد والنظائر والأمثال من الأصنام والجن والملائكة ويعبدونهم من دون الله، ويستغيثون بهم فأنكر الله عليهم ذلك، وبين أن هذه المخلوقات ليس لها حق في العبادة، ولا قدرة لها على شيء إلا بإذنه سبحانه وتقديره.

❑قوله: (قَالَ ابنُ كَثِيرٍ...)

●قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «تفسيره»: «الخالق لهذه الأشياء من سماء وأرض وثمار وأشجار ومطر وغير ذلك هو المستحق للعبادة سبحانه وتعالى، وأن يطاع ؛ لأنه رب الجميع، وخالق الجميع، كما قال تعالى: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾[البقرة:١٦٣].

<u>قال العلامة ابن قاسم:</u>

❑ قوله: (فَإِذَا قِيلَ لَكَ بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟)

● أي: فإذا قال لك قائل: بما استدللت على معرفتك ربك ومعبودك وخالقك؟

❑ قوله: (فَقُلْ: بِآيَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ)

● أي: فقل: عرفته بآياته ومخلوقاته التي نصبها دلالة على وحدانيته وتفرده بالربوبية والإلهية، والآيات: جمع آية، والآية: العلامة والدلالة والبرهان والحجة، والمخلوقات: جمع مخلوق وهو ما أوجد بعد العدم، وآيات الرب -سبحانه - هي دلالاته وبراهينه التي بها يعرفه العباد، ويعرفون أسماءه وصفاته وتوحيده وأمره ونهيه، وآياته العيانية الخلقية، والنظر فيها والاستدلال بها يدل على ما تدل عليه آياته القولية السمعية، والرسل تخبر عنه بكلامه الذي تكلم به وهو آياته القولية، ويستدلون على ذلك بمفعولاته التي تشهد على صحة ذلك، وهي آياته العيانية، والعقل يجمع بين هذه وهذه، فيجزم بصحة ما جاءت به الرسل، فتتفق شهادة السمع والبصر، والعقل والفطرة، وكل شيء من آياته ومخلوقاته دال على وحدانيته وتفرده بالربوبية، كما قال الشاعر:

فوا عجبًا كيف يعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد؟

ولله في كل تحريكة ... وتسكينة أبدًا شاهد

وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد

و قال آخر:

تأمل في نبات الأرض وانظر ... إلى آثار ما صنع المليك

عيون من لجين شاخصات ... بأبصار هي الذهب السبيك

على قصب الزبرجد ساجدات ... بأن الله ليس له شريك

و قال آخر:

تأمل سطور الكائنات فإنها ... من الملك الأعلى إليك رسائل

وقد خط فيها لو تأملت خطها ... ألا كل شيء ما خلا الله باطل

فإيجاد هذه المخلوقات أوضح دليل على وجود الباري -تعالى- وتفرده بالربوبية والإلهية، ونعرف ربنا تبارك وتعالى -أيضا- بصدق الرسول ﷺ بالطرق الدالة على ذلك، وهي كثيرة، فالكتاب والسنة مملوءة بذلك

❏ قوله: (وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ والنَّهَارُ)

● أي: ومن أعظم آياته المشاهدة بالإبصار الليل والنهار، وكون الليل يأتي على النهار فيغطيه وكأنه لم يكن، ثم يأتي النهار فيذهب بظلمة الليل حتى كأن الليل لم يكن، فمجيء هذا وذهاب هذا بهذه الصفة وهذه الصورة المشاهدة دال أعظم دلالة على وحدانية خالقه وموجده.

❏ قوله: (والشَّمْسُ والقَمَرُ)

● أي: ومن أعظم آياته المشاهدة بالأبصار الشمس والقمر.. وكونهما يجريان هذا الجريان المتقن ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٤٠﴾ [يس:٤٠] دال أعظم دلالة على وحدانية موجدهما تعالى وتقدس.

❏ قوله: (وَمِنْ مَخْلُوقَاتِهِ السَّموَاتُ السَّبْعُ والأَرَضُونَ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُمَا)

● أي: ومن أعظم مخلوقات الله الدالة على وحدانيته -تعالى- السماوات السبع وسعتها وارتفاعها، والأرضون السبع وامتدادها وسعة أرجائها، وما في السماوات السبع من الكواكب الزاهرة، والآيات الباهرة، وما في الأراضين السبع من الجبال والبحار، وأصناف المخلوقات من الحيوانات والنباتات وسائر الموجودات، وما بين السماوات والأرض من الأهوية والسحاب، وغير ذلك دال على وحدانية الباري ﷻ، وعلى تفرده

بالخلق والتدبير.

❑ قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾

● أي: ومن حجج وحدانيته تعالىٰ وبراهين فردانيته الدالة علىٰ ما ذكره المصنف، ما تعرف به تعالىٰ إلينا بما نراه من مخلوقاته، ومنها الليل والنهار، فمجيء هذا وذهاب هذا من دلائل قدرته وحكمته الدالة علىٰ وحدانيته، والشمس والقمر مخلوقان مسخران دائبان يجريان دالان علىٰ تفرده تعالىٰ بالخلق والتدبير، وهذا وجه استدلال المصنف بالآية؟هاهنا.

❑ قوله: ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾

● لأن السجود عبارة عن نهاية التعظيم، والشمس والقمر مخلوقان متصرف فيهما، يعتريهما التغير فلا يستحقان أن يسجد لهما.

❑ قوله: ﴿وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾

● أمر عباده أن يفردوه بالعبادة وحده، فكما أنه المتفرد بخلق الليل والنهار والشمس والقمر، وسائر المخلوقات، فهو المستحق أن يعبد وحده لا شريك له.

❑ قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾

● أي: ومن أعظم الدلائل والمعرفات التي تعرف بها -سبحانه- علىٰ عباده خلق السماوات والأرض من غير مثال سبق، وتقدير أوقاتها فيها في ستة أيام، وأصل الخلق إيجاد المعلوم علىٰ تقدير واستواء، وإبداعه من غير أصل سابق ولا ابتداء متقدم، قال تعالىٰ: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:١١٧] وقال: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام:١٤].

❑ قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾

● استواء يليق بجلاله وعظمته، قال مالك: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وبهذا قال السلف، وأدلة علوه علىٰ خلقه واستوائه علىٰ عرشه أكثر من أن تحصر، وأجمع المسلمون علىٰ ذلك.

❑ قوله: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾

● أي: يأتي بالليل فيغطي النهار ويلبسه إياه حتىٰ يذهب بنوره ويغشىٰ النهار بالليل ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف:٥٤]: طلبًا سريعًا لا يفصل بينهما شيء ولا يدرك أحدهما الآخر.

❑ قوله: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾

● مذللات جارية في مجاريها بأمر الله لا تتقدم ولا تتأخر، وإذا تأملت هذا العالم وجدته على أحسن نظام وأتمه، وأدله على وجود خالقه جل وعلا، ووحدانيته وقدرته، وكمال علمه وحكمته.

❑ قوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾

● فهو المتفرد بالخلق، كما أنه المتفرد بالأمر، فلا شريك له في الخلق، كما أنه لا شريك له في الأمر، له الخلق كله، وله الأمر كله، وبيده الخير كله، وهو على كل شيء قدير ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾[يس:٨٢].

❑ قوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٤﴾

● أي: بلغ في البركة نهايتها، إله الخلق ومليكهم، وموصل الخيرات إليهم، ودافع المكاره عنهم، والمتفرد بإيجادهم وتدبيرهم، لا إله إلا هو ولا رب سواه.

❑ قوله: (وَالرَّبُّ هُوَ الْمَعْبُودُ)

● أي: ومن معاني الرب، ومما يطلق عليه: المعبود، كما أنه يطلق على الخالق والرزاق والمالك والمتصرف ومربي جميع الخلق بالنعم، وإذا قرن بالمعبود شمل معاني عديدة، ومعنى المعبود: المألوه المستحق أن يعبد وحده دون كل من سواه.

❑ قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾

● هذا خطاب لجميع الخلق، وهو أول أمر يمر بك في المصحف الكريم، كما أن أول فعل يمر بك ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾، وتقديم المعمول هنا يفيد الحصر؛ أي: لا نعبد سواك، كما أن أول شيء دعت إليه الرسل من أولهم إلى آخرهم ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ﴾[المؤمنون:٣٢]، ومعنى: ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾، ومعنى قول الرسول: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ﴾، ومعنى ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾، هو ما فسره ابن عباس بقوله: كل موضع في القرآن ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ فمعناه: وحدوا الله، وقال: عبادة الله: توحيد الله؛ يعني: اعبدوه وحده دون كل من سواه، وهذا يفيدك: عظم شأن التوحيد، وأنه أوجب الواجبات، وأنه أول فرض على المكلف علمًا وعملًا، وهو مدلول شهادة (أن لا إله إلا الله)، التي أوجب الواجبات العلم بمعناها، والعمل بما دلت عليه، من إفراد الله بالعبادة

والبراءة من الشرك وأهله، وصدور العبادة من غير توحيد لا يسمى عبادة، وليس بعبادة، وإذا صدرت ممن أشرك فيها مع الله غيره فهي بمنزلة الجسد الذي لا روح فيه، وإذا عبد الله تارة، وأشرك معه تارة فليس بعابد لله على الحقيقة، كما سمى الله المشركين مشركين وهم يعبدون الله ويخلصون له العبادة في الشدائد، وعند ركوب البحار وتلاطم الأمواج يهربون ويفزعون ويلجئون إليه تعالى وحده، ويعرفون أن تلك الآلهة ليست شيئًا في الحقيقة، وأنها لا تنفعهم عند الكروب، ومع ذلك كله سماهم الله مشركين، بل نفى عنهم تلك العبادة بالكلية في غير موضع من كتابه، ولم يرد في العبادة إلا إفراده -تعالى- بجميع أنواعها، فمن أطاعه في جميع ما أمره به منها فقد وحده وإلا فلا، وكونه - تعالى- ربنا يفيد ويقتضي أن نعبده وحده، وأن لا نجعل له شريكًا في ربوبيته، ولا في ألوهيته وعبادته.

❑ قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾

● أي: الذي أوجدكم ومن قبلكم من العدم، فلا تجعلوا المخلوق شريكًا للخالق في عبادته، فهو - سبحانه- أغنى الشركاء عن الشرك، بل وحدوه سبحانه؛ لعلكم تنجون من عقابه وأليم عذابه.

❑ قوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾

● أي: بسطًا غير حزنة، تتمكنون من المسير فيها، والمكث على ظهرها، وتنتفعون منها بأنواع المنافع.

❑ قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾

● قبة مضروبة عليكم، وسقفًا محفوظًا مزيّنًا بالمصابيح، والعلامات التي تهتدون بها في ظلمات البر والبحر.

❑ قوله: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾

● أي: وأنزل من السحاب المطر، فإن كل ما علاك فهو سماء، فأخرج بالماء من جميع أنواع الثمرات رزقا لكم تتمتعون به، وتستعينون به على عبادته وحده، وكل صفة من هذه الصفات مفيدة ومقتضية إفراد رب العالمين بالعبادة.

❑ قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٢﴾

● أي: ومن كان هذا وصفه فهو المستحق أن تعبدوه وحده، لا تجعلوا له أندادًا: أمثالًا ونظراء بصرف شيء من أنواع العبادة لهم، وأنتم تعلمون أنها لا تماثله بوجه من الوجوه، أو كنتم تعلمون تفرده بإيجاد المخلوقات، وإنزال المطر، وجعل الأرض فراشًا، والسماء بناء، وأنه لا يرزقكم غيره، يحتج تعالىٰ عليهم بما أقروا به وعلموه من توحيد الربوبية علىٰ ما جحدوه وأنكروه من توحيد الألوهية، فإنه -تعالىٰ - كثيرًا ما يقرر في كتابه توحيد ألوهيته بتوحيد ربوبيته، فإن توحيد الربوبية هو الدليل الأوضح والبرهان الأعظم علىٰ توحيد الألوهية.

❑ قوله: (قَالَ ابنُ كَثِيرٍ...)

● هو عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي، الحافظ صاحب التفسير المشهور والتاريخ وغيرهما، المتوفىٰ سنة أربع وسبعين وسبعمائة.

❑ قوله: (الخَالِقُ لِهَذِهِ الأَشْيَاءِ هُوَ المُسْتَحِقُّ لِلعِبَادَةِ)

● يعني: أن الآيات دلت علىٰ أن الذي خلق هذه الأشياء وأوجدها من العدم علىٰ غير مثال سبق، وهو المستحق للعبادة وحده دون من لم يكن له شركة فيها ولا في غيرها وإن قل، بل من سواه -تعالىٰ وتقدس- مخلوق مربوب متصرف فيه، فيكون بذلك أوضح برهانًا أنه -سبحانه- هو المستحق أن يعبده وحده دون كل من سواه، لا إله غيره ولا رب سواه.

قال العلامة العثيمين:

❑ قوله: (بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟)

●أي إذا قيل لك: بأي شيء عرفت الله ﷻ؟

فقل: عرفته بآياته ومخلوقاته.

❑ قوله: (بِآيَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ)

●الآيات: جمع آية، وهي العلامة علىٰ الشيء التي تدل عليه وتبينه.

وآيات الله تعالىٰ نوعان: كونية وشرعية، فالكونية: هي المخلوقات، والشرعية: هي الوحي الذي أنزله الله علىٰ رسله، وعلىٰ هذا يكون قول المؤلف رحمه الله: «بآياته

ومخلوقاته» من باب عطف الخاص علَىٰ العام إذا فسرنا الآيات بأنها الآيات الكونية والشرعية، أو من باب عطف المباين المغاير إذا خصصنا الآيات بالآيات الشرعية. وعلَىٰ كل فالله ﷻ يعرف بآياته الكونية وهي المخلوقات العظيمة وما فيها من عجائب الصنعة وبالغ الحكمة، وكذلك يعرف بآياته الشرعية وما فيها من العدل، والاشتمال علَىٰ المصالح، ودفع المفاسد.

وفي كل شيءٍ له آية تدل علَىٰ أنه واحد

❑ قوله: (وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ والنَّهارُ...)

●كل هذه من آيات الله الدالة علَىٰ كمال القدرة، وكمال الحكمة، وكمال الرحمة، فالشمس آية من آيات الله ﷻ؛ لكونها تسير سيرًا منتظمًا بديعًا منذ خلقها الله ﷻ وإلَىٰ أن يأذن الله تعالَىٰ بخراب العالم، فهي تسير لمستقر لها كما قال تعالَىٰ: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٣٨﴾[يس:٣٨] وهي من آيات الله تعالَىٰ بحجمها وآثارها، أما حجمها فعظيم كبير، وأما آثارها فما يحصل منها من المنافع للأجسام والأشجار والأنهار، والبحار وغير ذلك، فإذا نظرنا إلَىٰ الشمس هذه الآية العظيمة ما مدىٰ البعد الذي بيننا وبينها ومع ذلك فإننا نجد حرارتها هذه الحرارة العظيمة، ثم انظر ماذا يحدث فيها من الإضاءة العظيمة التي يحصل بها توفير أموال كثيرة علَىٰ الناس، فإن الناس في النهار يستغنون عن كل إضاءة ويحصل بهذا مصلحة كبيرة للناس من توفير أموالهم، ويعد هذا من الآيات التي لا ندرك إلا اليسير منها.

كذلك القمر من آيات الله ﷻ حيث قدره منازل لكل ليلة منزلة ﴿وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ٣٩﴾[يس:٣٩] فهو يبدو صغيرًا ثم يكبر رويدًا رويدًا حتىٰ يكمل ثم يعود إلَىٰ النقص، وهو يشبه الإنسان، حيث إنه يخلق من ضعف ثم لا يزال يترقىٰ من قوة إلَىٰ قوة حتىٰ يعود إلَىٰ الضعف مرة أخرىٰ، فتبارك الله أحسن الخالقين.

❑ قوله: (وَالدَّلِيلُ)

●أي: والدليل علَىٰ أن الليل والنهار، والشمس والقمر من آيات الله ﷻ قوله تعالَىٰ: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ﴾[فصلت:٣٧].... إلخ؛ أي: من العلامات البينة المبينة لمدلولها الليل والنهار في ذاتهما واختلافهما، وما أودع الله فيهما من مصالح العباد

وتقلبات أحوالهم، وكذلك الشمس والقمر في ذاتهما وسيرهما وانتظامهما وما يحصل بذلك من مصالح العباد ودفع مضارهم.

ثم نهىٰ الله تعالىٰ العباد أن يسجدوا للشمس أو القمر وإن بلغا مبلغًا عظيمًا في نفوسهم؛ لأنهما لا يستحقان العبادة؛ لكونهما مخلوقين، وإنما المستحق للعبادة هو الله تعالىٰ الذي خلقهن.

❑ قوله: (قَوْلُهُ تَعَالَىٰ...)

●أي: من الأدلة علىٰ أن الله خالق السموات والأرض قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأعراف:٥٤] الآية، وفيها من آيات الله:

أولًا: أن الله خلق هذه المخلوقات العظيمة في ستة أيام ولو شاء لخلقها في لحظة؛ ولكنه ربط المسببات بأسبابها كما تقتضيه حكمته.

ثانيًا: أنه استوىٰ علىٰ العرش؛ أي: علا عليه علوًّا خاصًّا به كما يليق بجلاله وعظمته، وهذا عنوان كمال الملك والسلطان.

ثالثًا: أنه يغشي الليل النهار؛ أي: يجعل الليل غشاءً للنهار؛ أي: غطاءً له فهو كالثوب يسدل علىٰ ضوء النهار فيغطيه.

رابعًا: أنه جعل الشمس والقمر والنجوم مذللات بأمره جل سلطانه، يأمرهن بما يشاء لمصلحة العباد.

خامسًا: عموم ملكه وتمام سلطانه، حيث كان له الخلق والأمر لا لغيره.

سادسًا: عموم ربوبيته للعالمين كلهم.

❑ قوله: (وَالرَّبُّ هُوَ الْمَعْبُودُ)

●يشير المؤلف -رحمه الله تعالىٰ- إلىٰ قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف:٥٤].

فالرب هو المعبود؛ أي: هو الذي يستحق أن يعبد أو هو الذي يعبد لاستحقاقه للعبادة وليس المعنىٰ أن كل من عبد فهو رب، فالآلهة التي تعبد من دون الله واتخذها عُبَّادها

أربابًا من دون الله ليست أربابًا، والرب هو: الخالق، المالك، المدبر لجميع الأمور.

❏ قوله: (وَالدَّلِيلُ)

أي: الدليل علَىٰ أن الرب هو المستحق للعبادة.

❏ قوله: (﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾)

●النداء موجه لجميع الناس من بني آدم أمرهم الله ﷻ أن يعبدوه وحده لا شريك له؛ فلا يجعلوا له أندادًا، ويبين أنه إنما استحق العبادة لكونه هو الخالق وحده لا شريك له.

❏ قوله: (﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ﴾)

●هذه صفة كاشفة تعلل ما سبق؛ أي: اعبدوه لأنه ربكم الذي خلقكم فمن أجل كونه الرب الخالق كان لزامًا عليكم أن تعبدوه، ولهذا نقول: يلزم كل من أقر بربوبية الله أن يعبده وحده وإلا كان متناقضًا.

❏ قوله: (﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾)

●أي: من أجل أن تحصلوا علَىٰ التقوىٰ، والتقوىٰ: هي اتخاذ وقاية من عذاب الله ﷻ باتباع أوامره واجتناب نواهيه.

❏ قوله: (﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾)

●أي: جعلها فراشًا ومهادًا نستمتع فيها من غير مشقة ولا تعب كما ينام الإنسان علَىٰ فراشه.

❏ قوله: (﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾)

●أي: فوقنا؛ لأن البناء يصير فوق، فالسماء بناء لأهل الأرض وهي سقف محفوظ كما قال الله تعالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ۝٣٢﴾ [الأنبياء:٣٢].

❏ قوله: (﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾)

●أي: أنزل من العلو من السحاب ماءً طهورًا ﴿لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠﴾ [النحل:١٠].

❏ قوله: (﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾)

●أي: عطاءً لكم وفي آية أخرىٰ: ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝٣٣﴾ [النازعات:٣٣].

❏ قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

●أي: لا تجعلوا لهذا الذي خلقكم، وخلق الذين من قبلكم، وجعل لكم الأرض فراشًا والسماء بناءً، وأنزل لكم من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقًا لكم، لا تجعلوا له أندادًا تعبدونها كما تعبدون الله، أو تحبونها كما تحبون الله فإن ذلك غير لائق بكم لا عقلًا ولا شرعًا.

❏ قوله: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

●أي: تعلمون أنه لا ند له وأنه بيده الخلق والرزق والتدبير فلا تجعلوا له شريكًا في العبادة.

❏ قوله: (ابنُ كَثِيرٍ...)

● هو عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي الحافظ المشهور صاحب التفسير والتاريخ من تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية توفي سنة أربع وسبعين وسبعمائة.

قال العلامة الفوزان:

❏قوله: (فَإِذَا قِيلَ لَكَ بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟)

●أنت قلت: الله ربي، أو ربي الله الذي رباني بنعمه، ما هو الدليل على أن الله ربك الذي رباك بنعمه؟

جاء الشيخ بأدلة من الوحي ومن العقل كما سيأتي، فإذا قيل لك: بم عرفت ربك؟ لأن من ادعى شيئًا فلا بد أن يقيم الدليل على دعواه:

والدَّعاوى إذا لم يُقيموا عليها بينات أهلُها أدعياءُ

لا بد لكل مدع أن يقيم الدليل على دعواه، وإلا كانت دعواه غير صحيحة، أنت قلت: ربي الله الذي رباني، وربى جميع العالمين بنعمه، ما الدليل؟ فقل: الدليل آياته ومخلوقاته. الآيات: جمع آية، والآية في اللغة: العلامة على الشيء، والدلالة على الشيء، كما قال ﷺ : «آية المنافق ثلاث»[(٦٦)] أي: علامته.

❏قوله: (فَقُلْ: بِآيَاتِهِ)

● أي: العلامات والدلالات الدالة عليه سبحانه وتعالى. فجميع هذه الكائنات التي

(٦٦) أخرجه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ترونها كلها كانت معدومة، ثم إن الله أوجدها وخلقها بقدرته سبحانه وتعالى.

ومنها: خلق يتجدد مثل النبات والمواليد وأشياء ما كانت موجودة ثم وجدت، وأنتم تنظرون إليها، من الذي يخلقها؟ هو الله سبحانه وتعالى. هل تخلق نفسها، هل أحد من البشر خلقها؟ لا أحد ادعى هذا ولا يستطيع أن يدعي.

قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦﴾[الطور:٣٥،٣٦]. هذه الأشياء ما أوجدت نفسها، أو أوجدها غيرها من المخلوقات أبدًا لم ولن يخلق أحدٌ شجرة، أو بعوضة، أو ذبابًا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾[الحج:٧٣].

فهذا الخلق يدل على الخالق سبحانه وتعالى؛ ولهذا لما قيل لأعرابي على البديهة: بم عرفت ربك؟ قال: البعرة تدل على البعير والأثر يدل على المسير، ألا يدل هذا الكون على اللطيف الخبير.

إذا رأيت أثر قدم على الأرض أما يدلك هذا على أن أحدا مشى على هذه الأرض، إذا رأيت بعر بعير، ألا يدلك هذا على أن هذه الأرض فيها إبل، أو مر عليها بعير، البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير.

❑قوله: (وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ والنَّهارُ والشَّمْسُ والقَمَرُ)

● فالآيات على قسمين:

القسم الأول: آيات كونية تشاهد مثل: السماوات، والأرض، والنجوم، والشمس، والقمر، والجبال، والشجر، والبحار، سميت آيات؛ لأن بها دلالات على خالقها سبحانه وتعالى؛ ولهذا يقول أبو العتاهية:

فيا عجبًا كيف يُعصى الإلـ ـهُ أم كيف يَجحدُهُ الجاحدُ
وفي كلِّ شيءٍ له آية تدلُّ على أنه واحدُ
ولله في كل تحريكة وتسكينة في الورى شاهدُ

فكيف يجحد أحد الله -جل وعلا- ويقول: ليس هناك رب، هذا الكون كله، وهذه المخلوقات وجدت من غير خالق، وإن وجدت بخالق، فمن هو هذا الخالق غير الله -جل وعلا- بين لي؟ لا تجد خالقًا غير الله سبحانه وتعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ

ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ ﴾ [الرعد:١٦].

القسم الثاني: الآيات القرآنية التي تتلى من الوحي المنزل على الرسول ﷺ هذه كلها أدلة على وجود الرب سبحانه وتعالى، وعلى كماله وصفاته وأسمائه، وعلى أنه مستحق للعبادة وحده لا شريك له، كلها تدل على ذلك، الآيات الكونية والآيات القرآنية.

الآيات الكونية تدل على خالقها وموجدها ومدبرها، والآيات القرآنية فيها الأمر بعبادة الله سبحانه وتعالى، وفيها تقرير توحيد الربوبية، والاستدلال به على توحيد الألوهية، والأمر بعبادة الله سبحانه وتعالى، كل القرآن يدور على هذا المعنى، وأنزل من أجل هذا المعنى.

ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر، هذه من أعظم آياته سبحانه وتعالى، الليل المظلم الذي يغطي هذا الكون، والنهار المضيء الذي يضيء هذا الكون، فينتشر الناس لأشغالهم، قال تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [القصص:٧١-٧٣].

هذا من أعظم آيات الله، هذا الليل وهذا النهار، لا الوقت كله ليل، ولا الوقت كله نهار ؛ لأنه لو كان كذلك تعطلت مصالح العباد وتعبوا.

جعل الله لهم الليل والنهار يتعاقبان، ثم إن الليل والنهار منتظمان لا يتخلف واحد منهما ولا يتغير، على نظام واحد، مما يدل على حكمة الحكيم سبحانه وتعالى.

أفعال العباد وصناعاتهم تخرب وتختلف مهما كانت وتتعطل، وأما مخلوقات الله ﷻ فإنها لا تخرب إلا في وقت يأذن الله فيه بخرابها.

فالليل والنهار مستمران، لم يتعطل أحد فيهما، بينما صناعة الخلق تتعطل وتخرب وتفنى، وإن كانت قوية أو ضخمة.

كم تشاهدون من السيارات المرمية والطائرات والبواخر، مع أنها قوية ومعتنى بها؛ لكنها تخرب وتتعطل، هل تعطل الليل أو تعطل النهار؟ لا؛ لأن صانعه قدير حكيم جل وعلا: ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍ﴾ [النمل:٨٨].

□قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾

●هذا دليل على ربوبيته وإلاهيته سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾.

﴿وَٱلشَّمْسُ﴾: الشمس الكوكب العظيم الذي يضيء الكون سراجًا وهاجًا، كما قال الله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ⑬﴾ [النبأ:١٣]

﴿وَٱلْقَمَرُ﴾: نور يضيء الليل، ويضيء الطريق للناس

ومن مصالحهما أيضًا: إصلاح الكون بأشجاره وثماره وبحاره، فلو اختفت الشمس عن الكون لتضرر الكون وفسدت كثير من معايش الناس ومصالحهم، ولو اختفى القمر كذلك، القمر -أيضًا - فيه منافع للثمار والأشجار، مع ما فيه -أيضًا- من معرفة الحساب، قال تعالى: ﴿ وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ [يونس:٥] وقال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ [البقرة:١٨٩]

ففي الأهلة مصلحة لمعرفة المواقيت والآجال: آجال الديون وآجال العِدَدِ للنساء، ومواقيت العبادات والصيام والحج، كلها تعرف بالحساب المبني على هذين النيرين: الشمس والقمر، فالحساب الشمسي والحساب القمري فيهما مصالح للخلق أجمعين.

ومن مخلوقاته السماوات السبع، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق:١٢]، ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴾ [الملك:٣] بعضها فوق بعض، السماء الدنيا، ثم التي تليها إلى السابعة، وفوق الجميع عرش الرحمن سبحانه وتعالى.

والأرضون سبع كما قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ فهي سبع طباق أيضًا، وكل طبقة من طبقات السماوات السبع والأرضين لها سكان وعمار، ما في السماوات من الكواكب والأفلاك والشمس والقمر، وما في الأرض من المخلوقات من الدواب باختلاف أنواعها، ومن الجبال والأشجار والأحجار، ومن المعادن، ومن البحار، هذه من آيات الله سبحانه وتعالى الآيات الكونية التي تُرى وتُشاهد.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ والدليل قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝٣٧﴾ [فصلت:٣٧].

من آياته الليل: يعني: من علاماته الدالة على الربوبية وقدرته، واستحقاقه للعبادة دون سواه: الليل الذي يظلم، والنهار الذي يضيء الكون كله، هذا من عجائب آيات الله سبحانه وتعالى.

فمن الذي يجعل الكون كله مظلمًا في آن واحد؟ ثم يجعل الكون كله مضيئًا في آن واحد؟ هو الله سبحانه وتعالى، لو اجتمع الخلق على أن يضيئوا بقعة من الأرض ما استطاعوا أن يضيئوا إلا بقعة محدودة، لو جاءوا بمكائن الكهرباء التي في الدنيا كلها لا تضيء إلا جزءًا محدودًا من الأرض.

أما الشمس والقمر فهما يضيئان الأرض كلها، الليل والنهار يتعاقبان، والشمس والقمر كذلك.

قال تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت:٣٧]

هذا إبطال للشرك، لا تسجدوا للمخلوقات؛ لأن من أعظم المخلوقات الشمس والقمر؛ ولأن المشركين كانوا يعبدون الشمس ويسجدون لها، ومنهم من يعبد القمر والكواكب، مثل قوم إبراهيم، يبنون لها هياكل على صورة الكواكب ويعبدونها، فقوله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ﴾ السجود معناه: وضع الجبهة على الأرض خضوعًا للمعبود، وهو أعظم أنواع العبادة، ورسول الله ﷺ يقول: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»(٦٧).

فأعظم أنواع العبادة السجود على الأرض؛ لأن وجهك الذي هو أعزُّ شيء عندك وضعته لله على الأرض تعبدًا لله وتذللًا بين يديه سبحانه وتعالى، هذا هو السجود الحقيقي، ولا يليق التعبد به إلا لله.

أما السجود للشمس والقمر فهو سجود لمخلوق لا يستحق، فلا يجوز السجود للمخلوقات، وإنما السجود لخالق المخلوقات، أما المخلوقات فهي مثلك مخلوقة مدبَّرة متصرف فيها، وهل تسجد لمخلوق مثلك عاجز مثلك، هذا لا يجوز، أين ذهبت العقول؟!

السجود إنما يستحقه الخالق -سبحانه وتعالى - الذي لا يعجزه شيء، فالسجود حق لله ﷻ وليس حقًا للمخلوق مهما كان، هذا المخلوق من العظم والكبر فإنه مخلوق

---

(٦٧)أخرجه مسلم (٤٨٢)، وأبو داود (٨٧٥)، وغيرهما من حديث أبي هريرة ﵁.

ضعيف مدبَّر متصرَّف فيه: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت:٣٧].

فالواجب: ألا نعبد إلا الله، فإذا سجدتم له وسجدتم لغيره فإنكم لا تكونون عابدين لله العبادة الصحيحة، بل تعبدونه مع الشرك، والشرك يفسد العبادة.

قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾

● ﴿إِنَّ﴾: حرف توكيد ونصب، وهي موطئة للقسم يقدر قبلها قسم تقديره: والله.

﴿رَبَّكُمُ﴾: فهي في جواب قسم مقدر؛ أي: خالقكم ومربيكم بالنعم.

﴿اللَّهُ﴾: لا غيره سبحانه وتعالى.

ثم ذكر الدليل على ذلك فقال: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، هذا هو البرهان على ربوبية الله ﷻ أنه خلق السماوات والأرض، ولا أحد خلق شيئًا منهما، ولا أحد أعانه - سبحانه وتعالى - على ذلك، بل هو المنفرد بخلقه ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ هل أحد من المشركين أو الملاحدة عارض هذا وقال: ما خلق الله السماوات والأرض، الذي خلقها هو فلان، أو أنا الذي خلقتها، أو خلقها الصنم الفلاني؟ هل قال هذا أحد من العالم قديمًا وحديثًا، مع أن هذه الآية تتلى ليلًا ونهارًا؟ ولا أحد عارض فيها، ولا يستطيع أن يعارض أبدًا.

﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾: هذه المخلوقات الهائلة العظيمة خلقها الله في ستة أيام، وهو قادر على أن يخلقها في لحظة؛ ولكنه خلقها في ستة أيام لحكمة يعلمها سبحانه وتعالى، وستة الأيام أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة، ففي يوم الجمعة تكامل الخلق؛ ولذلك صار هذا اليوم أعظم أيام الأسبوع، وهو سيد الأيام وعيد الأسبوع، وهو أفضل الأيام.

قال رسول الله ﷺ: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة»[٦٨]؛ لأنه تكامل فيه خلق المخلوقات، وخلق فيه آدم، وأدخل الجنة وأهبط منها، وفيه تقوم الساعة، كل ذلك في يوم الجمعة، فهو أفضل الأيام، وهو آخر أيام الخلق، خلق السماوات والأرض وما فيهن.

---

(٦٨) أخرجه مسلم (٨٥٤)، والترمذي (٤٨٨)، وغيرهما من حديث أبي هريرة ﷺ.

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ حرف عطف وترتيب؛ أي: أن استواءه على العرش جاء بعد خلق السماوات والأرض؛ لأنه من صفات الأفعال التي يفعلها الله متى شاء.

ومعنى استوى: ارتفع وعلا.

العرش: هو سقف المخلوقات.

وهو في اللغة: السرير، وهو سرير ذو قوائم تحمله الملائكة وهو أعظم المخلوقات وأعلى المخلوقات.

الاستواء: صفة من صفات الله الفعلية كما يليق بجلاله سبحانه وتعالى، ليس كاستواء المخلوق على المخلوق، وليس هو بحاجة إلى العرش؛ لأنه هو الذي يمسك العرش وغيره ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ﴾[فاطر:٤١].

فالعرش محتاج إلى الله ﷻ ؛ لأنه مخلوق، والله غني عن العرش وغيره، لكنه استوى عليه لحكمة يعلمها سبحانه وتعالى، والاستواء نوع من العلو، لكن العلو صفة ذات، وأما الاستواء فهو صفة فعل يفعله إذا شاء سبحانه وتعالى.

﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ﴾[الأعراف:٥٤] يغشي الليل بالنهار، ويغطي النهار بالليل، فبينما ترون الكون مضيئًا يغطيه الليل فيصبح مظلمًا، والليل يغطيه النهار فيصبح مضيئًا.

﴿ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا ﴾ يأتي هذا بعد هذا مباشرة ولا يتأخر، فإذا أدبر الليل جاء النهار، وإذا أدبر النهار جاء الليل مباشرة لا يتأخر هذا عن هذا، وهذا من كمال قدرته سبحانه وتعالى، لا يفتر هذا عن هذا.

والشمس هي الكوكب العظيم المعروف، والقمر كذلك كوكب من الكواكب السبعة السيارة، وكل منهما يجري ويدور على الأرض، والأرض ثابتة مستقرة، جعلها قرارًا؛ أي: قارة ثابتة لمصالح العباد، والشمس وسائر الأفلاك تدور عليها، لا كما يقوله المتخرصون الآن من الذين يدعون المعرفة يقولون: إن الشمس ثابتة والأرض تدور عليها هذا عكس ما في القرآن ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾[يس:٣٨]، وهم يقولون: الشمس ثابتة، يا سبحان الله!

والنجوم: هي الكواكب.

مسخرات بأمره: مسخرات في الجريان والدوران دائمًا لا يفترن، وهذا رد على الذين يعبدون الشمس والقمر والكواكب بأنها مسخرة بأمر الله مأمورة، الله الذي يجريها، والله الذي يوقفها إذا شاء سبحانه وتعالى، فهي مسخرة مدبرة ليس لها من الأمر شيء.

يأمرها سبحانه فتجري وتدور وتضيء بأمره الكوني سبحانه وتعالى، يطلع هذا ويغرب هذا ويتعاقبان، نصب الشمس والقمر والنجوم على العطف؛ لأن السماوات: منصوبه؛ لأنها مفعول وعلامة نصبها الكسرة نيابة عن الفتحة، لأنها جمع مؤنث سالم، والأرض معطوفة على السماوات منصوبه بالفتحة، ثم قال: والشمس والقمر معطوف على المنصوب، والمعطوف على المنصوب منصوب.

مسخرات: منصوب على الحال؛ أي: حال كونها مسخرات، وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة، لأنه ملحق بجمع المؤنث السالم، قال: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾.

﴿أَلَا﴾: أداة تنبيه وتقرير. له: سبحانه وتعالى لا لغيره.

﴿الْخَلْقُ﴾: وهو الإيجاد؛ فهو القادر على الخلق إذا أراد سبحانه وتعالى يخلق ما شاء.

﴿وَالْأَمْرُ﴾: أمره سبحانه وتعالى، وهو كلامه سبحانه وتعالى الكوني والشرعي.

أمره الكوني: الذي يأمر به المخلوقات فتطيعه وتستجيب له مثل قوله: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾[فصلت:١١]، أمرهما سبحانه، وهذا أمر كوني أمر به السماوات والأرض فتكونت ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾[يس:٨٢] هذا أمر كوني.

أما الأمر الشرعي: فهو وحيه المنزل الذي يأمر به عباده، يأمرهم بعبادته، يأمرهم بالصلاة، يأمرهم بالزكاة، يأمرهم ببر الوالدين، هذا أمره الشرعي يدخل فيه الأوامر والنواهي التي في القرآن الكريم وفي السنة النبوية، هذا من أمر الله سبحانه وتعالى.

إذا كان له الخلق والأمر فماذا بقي لغيره سبحانه وتعالى؟

ولهذا يقول ابن عمر لما قرأ هذه الآية، قال:«من له شيء فليطلبه».

ودلت الآية على الفرق بين الخلق والأمر، ففيه رد على من يقولون بخلق القرآن؛ لأن القرآن من الأمر، وأمر الله ليس مخلوقًا؛ لأن الله غاير بين الخلق وبين الأمر، فجعلهم شيئين متغايرين، والقرآن داخل في الأمر فهو غير مخلوق.

وهذا ما خصم به الإمام أحمد الجهمية لما طلبوا منه أن يقول بخلق القرآن، قال:

هل القرآن من الخلق أو من الأمر؟ قالوا: القرآن من الأمر، قال: الأمر غير مخلوق، الله غاير بينه وبين الخلق، فجعل الخلق شيئًا والأمر شيئًا آخر.

الأمر كلام، وأما الخلق فهو إيجاد وتكوين، يوجد فرق بينهما.

﴿ تَبَارَكَ ٱللَّهُ ﴾، أي: تعاظم الذي هذه أفعاله سبحانه وتعالى، وهذه قدرته، وهذه مخلوقاته تبارك وتعالى.

وتبارك: فعل خاص به سبحانه، فلا يطلق على غيره، والبركة هي كثرة الخير ونماؤه، وبركات الله -جل وعلا- لا تتناهى، أما المخلوق فلا يقال له: تبارك، إنما يقال له: مبارك يعني: بارك الله فيه، وجعله مباركًا، والبركة كلها من الله سبحانه وتعالى.

﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: مثل ما سبق، ففي هذه الآية تقرير التوحيد، توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية كما سبق.

قوله: (وَالرَّبُّ هُوَ الْمَعْبُودُ)

●أي: هو الذي يستحق العبادة، وأما غيره فلا يستحق العبادة؛ لأنه ليس ربًّا، هذا وجه كلام الشيخ -رحمه الله- بقوله: «الرب هو المعبود» أي: هو الذي يستحق العبادة، ثم -أيضًا- لا يكفي أن الإنسان يقر بالربوبية، بل لا بد أن يقر بالعبودية لله سبحانه وتعالى، ويفعلها مخلصًا له سبحانه وتعالى، فما دام أقر أنه الرب فإنه يلزمه أن يقر أنه هو المعبود، وأن غيره لا يستحق شيئًا من العبادة.

والدليل على أن العبادة خاصة بالرب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾[البقرة:٢١، ٢٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾: هذا نداء من الله لجميع الناس، المؤمنين والكفار؛ لأن الله ذكر في هذه السورة، -سورة البقرة-، انقسام الناس إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: المؤمنون الذين يؤمنون بالغيب، ويؤمنون باليوم الآخر، ووصفهم بأنهم هم المفلحون في قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾[البقرة:٥].

القسم الثاني: الكفار الذين أظهروا الكفر والعناد، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ

عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾[البقرة:٦].

القسم الثالث: المنافقون الذين ليسوا مع الكفار وليسوا مع المؤمنين: ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾[النساء:١٤٣]. فهم مؤمنون في الظاهر؛ لكنهم كفار في الباطن، وهؤلاء شر من الكفار المجاهرين بكفرهم ؛ ولهذا أنزل فيهم بضع عشرة آية، بينما أنزل في المؤمنين آيات قليلة وفي الكفار آيتين.

أما المنافقون فبدأ ذكرهم من قوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا ﴾ إلى قوله: ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾[البقرة:٨-٢٠].

هذا كله في المنافقين لشدة خطرهم وقبح فعلهم، ولما ذكر هذه الأصناف الثلاثة قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ فهذا دعاء لجميع الأصناف المؤمنين والكفار والمنافقين.

قال العلماء: أول نداء في المصحف هو هذا ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ﴾.

اعبدوا: فعل أمر؛ أي: أخلصوا له العبادة، لماذا؟ لأنه ربكم، والعبادة لا تصلح إلا للرب سبحانه وتعالى، ثم ذكر الدليل على ذلك وهو قوله: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾: من الأمم كلهم، خلق الله -سبحانه وتعالى- الملائكة والجن والإنس، وجميع المخلوقات.

﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾: إذا تدبرتم هذا، فلعل هذا أن يسبب لكم التقوى إذا تدبرتم أنه الذي خلقكم، وخلق الذين من قبلكم، لعلكم تتقونه -سبحانه وتعالى- في عبادته؛ لأنه لا يقي من عذابه إلا طاعته سبحانه وتعالى، لعلكم تتقون عذابي وتتقون النار؛ لأنه لا يقيكم منها إلا عبادة ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم.

ثم واصل الاستدلال على ربوبيته وعبوديته سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا ﴾؛ أي: بساطًا ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ ﴾[نوح:١٩]؛ أي: مبسوطة، وفراشًا؛ أي: تفترشونها، تنامون عليها، تبنون عليها، تزرعون على ظهورها، تسيرون عليها في سفركم أينما تريدون، فالأرض فراش ومهاد: ﴿ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾[الذاريات:٤٨] لأجل مصالحكم.

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾: فالسماء سقف الأرض، وفيها مصالح للعباد ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

□قوله: (قَالَ ابنُ كَثِيرٍ: الخَالِقُ لِهذِهِ الأَشْيَاءِ هُوَ المُسْتَحِقُّ لِلعِبَادَةِ)

●لما بين الشيخ أن الرب هو المعبود، واستدل بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١﴾ استشهد بكلام ابن كثير -رحمه الله- في تفسيره للآية وأراد أن يبين أنواع العبادة وأدلة كل نوع، فالعبادة في اللغة معناها: التذلل والخضوع، ومنه طريق معبد؛ يعني: مذلل مخضع بالمشي عليه.

والعبادة قسمان:

القسم الأول: عبادة عامة لجميع الخلق، كلهم عباد الله، المؤمن والكافر، والفاسق والمنافق، كلهم عباد الله، بمعنى أنهم تحت تصرفه وقهره، وأنهم تجب عليهم عبادته سبحانه وتعالى، هذه عبادة عامة لجميع الخلق، مؤمنهم وكافرهم، كلهم يقال لهم: عباد الله، بمعنى: أنهم مخلوقون له، مذللون، لا يخرج أحد منهم عن قبضته وسلطانه، كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ٩٣﴾[مريم:٩٣].

هذا يشمل كل من في السماوات والأرض، المؤمن والكافر، كلهم يأتون يوم القيامة منقادين لله سبحانه وتعالى، ليس لأحد منهم شركة مع الله سبحانه وتعالى في ملكه.

القسم الثاني: عبودية خاصة بالمؤمنين، كما قال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾[الفرقان:٦٣]، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾[الحجر:٤٢]، قال الشيطان: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٤٠﴾[الحجر:٤٠]. هذه عبودية خاصة، وهي عبودية الطاعة والتقرب إلى الله بالتوحيد.

والعبادة في الشرع اختلف العلماء في تعريفها، يعني: اختلفت عباراتهم في تعريفها، والمعنى واحد.

فمنهم من يقول: العبادة غاية الذل مع غاية الحب، كما قال ابن القيم في النونية:

وعبادةُ الرَّحمن غاية حبه ... مع ذُلِّ عابده هما قطبان

فعرفها بأنها غاية الحب مع غاية الذل.

ومنهم من يقول: العبادة هي: ما أمر به شرعًا من غير اطراد عرفي ولا اقتضاء عقلي.

لأن العبادة توقيفية لا تثبت بالعقل ولا بالعرف، وإنما تثبت بالشرع، وهذا تعريف صحيح.

ولكن التعريف الجامع المانع هو ما عرفه بها شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-

حيث قال: «العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة».

هذا التعريف الجامع المانع، وهو أن العبادة اسم لجميع ما أمر الله به، ففعل ما أمر الله به طاعة لله، وترك ما نهى الله عنه طاعة لله، هذه هي العبادة، ولا تحصر أنواعها، أنواعها كثيرة، كل ما أمر الله به فهو عبادة، وكل ما نهى الله عنه فتركه، سواء كان ذلك ظاهرًا على الجوارح أو كان باطنًا في القلوب؛ لأن العبادة تكون على اللسان وتكون على القلب وتكون على الجوارح.

تكون على اللسان مثل: التسبيح، والذكر، والتهليل، والنطق بالشهادتين، كل أقوال اللسان المشروعة من ذكر الله ﷻ فإنها عبادة.

وكذلك كل ما في القلب من التقرب إلى الله ﷻ فإنه عبادة: كالخوف، والرجاء والخشية، والرغبة، والرهبة، والتوكل، والإنابة، والاستعانة، كل هذه أعمال قلب، اللجوء إلى الله بالقلب، وخشية الله، وخوفه، والرغبة إليه ومحبته سبحانه والإخلاص له والنية الصادقة لله ﷻ كل ما في القلوب من هذه الأنواع فهو عبادة.

وكذلك تكون العبادة على الجوارح مثل: الركوع، والسجود، والجهاد في سبيل الله، والجهاد بالنفس والهجرة، كل هذه عبادات بدنية، والصيام عبادة بدنية تظهر على الجوارح.

فإذن العبادة تكون على اللسان، وعلى القلب، وتكون على الجوارح، ثم هذه العبادة تنقسم إلى عبادة بدنية وإلى عبادة مالية.

العبادة البدنية: هي الثلاثة الأنواع التي قلنا، تكون على اللسان وعلى الجوارح وعلى القلب.

وتكون مالية: مثل إخراج الزكاة، مثل الإنفاق في سبيل الله، وهو الإنفاق في الجهاد قال الله تعالى: ﴿وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ﴾ [التوبة: ٢٠] قدم الأموال على الأنفس، فالجهاد بالمال عبادة مالية.

الحج يتكون من عبادة بدنية، وعبادة مالية، فأداء المناسك: الطواف، والسعي، ورمي الجمار، والوقوف بعرفة، والمبيت بمزدلفة، عبادة بدنية، أما الإنفاق فيه فهو عبادة مالية؛ لأن الحج يحتاج إلى نفقة.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

❏ قوله: (فَإِذَا قِيلَ لَكَ بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟)

● الربوبية تحتاج إلىٰ معرفة، تحتاج إلىٰ علم، وهذا العلم جاء في القرآن الدِّلالة عليه، قال جل وعلا: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [يونس:١٠١] وقال جل وعلا: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ [الأعراف:١٨٥] فالدعوة في القرآن إلىٰ النظر في الملكوت.

بِمَ استدل علىٰ ربوبية الله جل وعلا ؟

❏ قوله: (فَقُلْ: بِآيَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ، وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ والنَّهَارُ، والشَّمْسُ والقَمَرُ...)

● لا شك أن الليل والنهار والشمس والقمر من آيات الله، كما قال جل وعلا: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾ [فصلت:٣٧] وكذلك السماوات والأرض هي آيات لله جل وعلا، كما قال أبو العتاهية في شعره السائر:

وفي كل شيء له آية تدل علىٰ أنه الواحد

والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هاهنا فرق بين الآيات والمخلوقات، مع أنه في القرآن ما يثبت أن السماوات والأرض من الآيات. فلما فرَّق؟ الجواب: أن تفريق الشيخ رحمه الله تعالىٰ بينهما دقيق جدًّا، وذلك أن الآيات جمع آية، والآية هي البينة الواضحة الدالة علىٰ المراد، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨﴾ [الشعراء:٨] يعني: دلالة بينة واضحة علىٰ المراد منها، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۝٧٥﴾ [الحجر:٧٥] يعني: لدلالات واضحات بينات علىٰ المراد منها، وهنا ننظر إلىٰ أنه بالنسبة لمن سئل هذا السؤال، كون الليل والنهار والشمس والقمر آية أظهر منه عند هذا المسئول أو المجيب من السموات والأرض؛ لأن تلكمُ الأشياء التي وصفت بأنها آيات متغيرة متقلبة، تذهب وتجيء، أما السماء فهو يصبح ويرىٰ السماء، ويصبح ويرىٰ الأرض، فإِلفُه للسماء وللأرض يحجب عنه كون هذه آيات، لكن الأشياء المتغيرة التي تذهب وتجيء، هذه أظهر في كونها آية، ولهذا إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ طلب الاستدلال بالمتغيرات، قال جل وعلا: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ۝٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ۝٧٦﴾ [الأنعام:٧٥،٧٦] لأنه استدل بهذه الحركة علىٰ الحدوث،

استدل بهذا التنقل على أنه آية لغيره، فلما رأى القمر بازغًا -استدل به-، فلما رأى الشمس بازغة -استدل بها؛ لأنها متغيرات، أما السماوات والأرض فهي آيات، لكنها في الواقع عند الناظر ليست مما يدل دلالة ظاهرة واضحة على المراد عند مثل المسئول هذا السؤال، مع كونها عند ذوي الفهم وذوي الألباب العالية أنها آيات، كما وصفها الله جل وعلا في كتابه، الشمس والقمر والليل والنهار متغيرات تقبل وتذهب، فهي آيات ودلالات على الربوبية، وأن هذه الأشياء لا يمكن أن تأتي بنفسها، لكن السماء ثابتة، الأرض ثابتة ينظر إلى هذه وهذه، وتلك متغيرات والتغير يثير السؤال، لما ذهب؟ ولما جاء؟ لما أتى الليل؟ ولما أتى النهار؟ لما زاد الليل؟ ولما نقص النهار؟ وهكذا فهي في الدلالة أكثر من دلالة المخلوقات مع أن في الجميع دليلًا ودلالة، لهذا قال: **(فإذا قيل لك بما عرفت ربك؟ قل: بآياته ومخلوقاته)** فالآيات تدل على معرفة الله والعلم بالله، وكذلك المخلوقات تدل على العلم بالله والمعرفة بالله، لكن ما سمّاه آيات أخص مما سمّاه مخلوقات، وهذا جواب اعتراض قد اعترض به بعضهم على الشيخ رحمه الله تعالى، في تفريقه بين الآيات والمخلوقات. وتفريقه رعاية لحال من يُعَلَّم هذه الأصول، تفريق دقيق مناسب رحمه الله تعالى.

❑ **قوله: الدليل قوله تعالى:** ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾

● **يعني**: مما يدل عليه دلالة واضحة ظاهرة بينة جلية الليل والنهار والشمس والقمر، فإن المتأمل إذا تأمل الليل والنهار، وجد هذا يدخل في هذا، وذاك يدخل في ذاك، وهذا يطول وذاك يقصر، علم أن الليل من حيث كونه ليلًا، والنهار من حيث كونه نهارًا، أنها أشياء لا يمكن أن تأتي بنفسها، بل هي مفعول بها، ظاهر الليل ما هو؟ ذهاب الضوء. والنهار ما هو؟ مجيء الضوء. الشمس أتت بضيائها فصار نهارًا، لما ذهبت الشمس أتى القمر فصار ليلًا، هذا لا شك يدلّ على أن هذه الأشياء مفعول بها، وإذا كانت مفعولًا بها، فمن الذي فعلها؟ هذا السؤال، الجواب عليه سهل ميسور لأكثر الناظرين، بل لكل ناظر، فهذه الأشياء تدل على أنها محدثة، ولابد لها من محدث، وأن محدثها هو الذي خلقها وسيرها على هذا النحو الدقيق العجيب، وهو رب العالمين؛ لهذا قال في الآية الأخرى-آية الأعراف-: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى

سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾[الأعراف:٥٤]، ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ﴾: يجعل الليل غشاء للنهار، يطلبه؛ هذا يذهب وهذا يطلب الآخر، يجيء مرة يأخذ الليل من النهار، ويجذبه جذبًا ويطلبه طلبًا حاثًّا، ومرة النهار يأخذ ويطلب من الليل طلبًا حاثًّا، قال: يُغشي، من المُغشِي والمُغشَّي؟ هو الله جل وعلا: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾، فذكر الربوبية للعالمين بعد ذكر هذه الأصناف من الآيات والمخلوقات.

❑ قوله: (وَالرَّبُّ هُوَ الْمَعْبُودُ)

●ثم ذكر أن معنى الربوبية هو العبادة والدليل قوله جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ وهذه الآية بها أمر وهو أول أمر في القرآن، أول أمر في القرآن الأمر بعبادة الله؛ قال: ﴿ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ الرب وقعت عليه العبادة؛ لأنه مفعول به؛ اعبدوا ربكم، فالعابد هم الناس، والمعبود هو الرب، فتلخص أن الرب هو المعبود؛ لأنه قال: ﴿ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾؛ فالرب مفعول به، ما الذي فُعِلَ؟ العبادة فصار معبودًا، ولهذا ساق عن ابن كثير رحمه الله تعالى قوله: «الخالق لهذه الأشياء هو المستحق للعبادة»، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾[البقرة:٢١،٢٢] إلى آخر الآية، قال ابن كثير: الذي فعل هذه الأشياء هو المستحق للعبادة. لهذا جاء ما بعدها -ما بعد الأمر بالعبادة- كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ وهو قوله: (ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ) جاء تعليلًا لما سبق، لما كان مستحقًّا لعبادة؟ قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾، كَأنَّ سائلًا سأل: لما كان مستحقًّا للعبادة؟ لما أمرنا أن نعبده؟ قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ إلى آخره، فهذه أشياء من معاني ربوبيته، وقد ذكرنا من قبل أن الربوبية تستلزم الألوهية، وبهذا صارت الربوبية هنا في قوله: ﴿ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ هي العبودية، والرب هو المعبود، والفاعل لتلك الأشياء هو المستحق للعبادة وحده دون ما سواه؛ لأنه

هو وحده الذي خلق، وهو وحده الذي رزق، وهو وحده الذي جعل الأرض فراشًا، وهو وحده الذي جعل السماء بناءً، وهو وحده الذي أنزل من السماء ماءً، والخلق جميعًا لم يعملوا شيئًا من ذلك، فالمستحق للعبادة هو الذي فعل وخلق وصنع وبرأ وصور وأبدع تلك الأشياء.

الدرس السابع:

[أنواع العبادة]

وَأَنْوَاعُ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا مِثْلُ: الإِسْلَامِ، وَالإِيمَانِ، وَالإِحْسَانِ.

وَمِنْهُ الدُّعَاءُ، وَالْخَوْفُ، والرَّجَاءُ، والتَّوَكُّلُ، والرَّغْبَةُ، والرَّهْبَةُ، والْخُشُوعُ، والخَشْيَةُ، والإِنَابَةُ، والاستِعَانَةُ، والاستِعَاذَةُ، والاسْتِغَاثَةُ، والذَّبْحُ، والنَّذْرُ، وَغَيرُ ذَلِكَ مِن أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا كُلُّهَا لله تَعَالَىٰ. والدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ۝١٨﴾ [الجن:١٨] فَمَنْ صَرَفَ مِنْهَا شَيْئًا لِغَيْرِ الله فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ، والدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١١٧﴾ [المؤمنون:١١٧] وَفِي الحَدِيثِ: «الدُّعاءُ مُخُّ العِبَادَةِ»(٦٩)(٧٠). والدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾ [غافر:٦٠]

الشرح

قال العلامة ابن باز:

قوله: (وَأَنْوَاعُ الْعِبَادَةِ:...)

● العبادة أنواع: فمنها: الإسلام بأركانه، فكل ما أمر الله به من أعمال الإسلام عبادة؛ من صلاة وصوم وغير ذلك، وهكذا الإيمان بأعماله الباطنة؛ كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والإيمان بالقدر خيره وشره، وكذلك الخوف، والمحبة، والرجاء إلى غير ذلك، فكل ما يتعلق بالقلوب داخل في العبادة، بل هو أعلى أنواع العبادة وأعظمها، فالواجب على كل مكلف إخلاص العبادة لله وحده، فلا يدعو مع الله الأنبياء

(٦٩) قال ابن الأثير في النهاية: «مخ الشيء خالصه، وإنما كان مخها لأمرين: أحدهما: أنه امتثال أمر الله تعالى حيث قال: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ فهو محض العبادة وخالصها.

الثاني: أنه إذا رأى نجاح الأمور من الله قطع أمله عما سواه ودعاه لحاجته وحده، وهذا هو أصل العبادة؛ ولأن الغرض من العبادة الثواب عليها وهو المطلوب بالدعاء» [الدمشقية]

(٧٠) سبق تخريجه.

ولا الأولياء ولا الأصنام ولا الأشجار ولا الأحجام ولا النجوم؛ لأن العبادة حق لله وحده، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ۝١٨﴾، وقال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠٦﴾[يونس:١٠٦]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١١٧﴾، وقال ﷻ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝١٣ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ۝١٤﴾[فاطر:١٣،١٤]، فسمى سبحانه دعاءهم شركا، فالواجب على جميع المكلفين إخلاص العبادة لله وحده، رجاًء، وخوفًا، واستعانةً، واستغاثةً، وذبحًا، ونذرًا، وخشيةً لله وصلاةً وصومًا إلى غير ذلك، كله لله وحده فمن تقرب لغير الله من ولي، أو نبيٍ، أو صنمٍ، أو شجرٍ، أو حجرٍ؛ بالدعاءِ، أو بالذبحِ، أو بالنذرِ، أو بالصلاةِ، أو بالصومِ، ونحو ذلك؛ فهو مشرك كافر أشرك بالله وعبد معه سواه، كفعل المشركين الأولين من عُبَّاد القبور، وعُبَّاد الأشجار، والأحجار، والأصنام؛ ولهذا قالﷻ: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٨٨﴾[الأنعام:٨٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾[المائدة:٧٢].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٦٥ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٦٦﴾[الزمر:٦٥،٦٦].

❑قوله: (فَمَنْ صَرَفَ مِنْهَا شَيْئًا لِغَيْرِ الله فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ...)

● فكل هذه العبادات يجب إخلاصها لله، ومن صرف منها شيئًا لغير الله من صنمٍ أو شجرٍ أو حجرٍ أو قبرٍ فهو مشركٌ بالله.

لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١١٧﴾، ولغيرها من الآيات السابقات، وهذا دليل على ما تقدم.

❑قوله: (وفي الحديث: الدُّعاءُ مُخُّ العِبَادَةِ)

●وفي الحديث:«الدعاء مخ العبادة»، وفي لفظ آخر: «الدعاء هو العبادة»[71]، وقال

(٧١) سبق تخريجه.

سبحانه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾، فسمىٰ الدعاء عبادة في قوله: ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾، يعني: عن دعائي، فالدعاء هو: أن يتضرع إلىٰ الله يدعوه، ويسأله النجاة، ويسأله الرزق، كل هذا عبادة، فإذا صرفها للصنمِ، أو للشجرِ، أو للحجرِ، أو للميت؛ صار مشركًا بالله ﷻ فيجب الحذر من الشرك كله، دقيقه وجليله، وأن تكون العبادة لله وحده، لكن دعاء الحي الحاضر القادر، والاستعانة به في الشيء المقدور عليه لا بأس به ولا يعتبر داخلًا في الشرك، فلو قلت لأخيك الحاضر: يا عبد الله! أعنّي علىٰ قطع هذه الشجرة، أو علىٰ حفر هذه البئر، فلا بأس بذلك، كما قال سبحانه في قصة موسىٰ: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾[القصص:١٥] الآية، استغاثة الاسرائيلي علىٰ القبطي؛ لأن موسىٰ قادر علىٰ إغاثته، يتكلم ويسمع، أما إذا اعتمد علىٰ المخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله حاضرًا أو غائبًا أو ميتًا، واعتقد أنه ينفع من دعاه أو يضر لا بالأسباب الحسية من الشرك بالله، كما قال تعالىٰ عنهم أنهم قالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾[يونس:١٨]، فيظنون أنهم يستطيعون -بعبادتهم إياهم- أن يشفعوا لهم عند الله في حصول مطالبهم، أو أنهم يقربونهم إلىٰ الله زلفىٰ، كما قال الله -سبحانه- عنهم في الآية الأخرىٰ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[الزمر:٣].

وهذا من جهلهم وضلالهم بالشافع والمشفوع إليه، والله -سبحانه - له الشفاعة جميعًا، وهو الذي يتصرف في عباده كيف يشاء، فلا يأذن بالشفاعة إلا فيمن يرضىٰ الله عمله، ولا يشفع أحد عنده إلا بعد إذنه، كما قال تعالىٰ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[البقرة:٢٥٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾[الأنبياء:٢٨]، فالشفاعة لا تكون إلا بإذنه للشافع، ورضاه عن المشفوع فيه، وهو سبحانه لا يرضىٰ بالشفاعة إلا لأهل التوحيد، كما صحَّ عنه ﷺ أنه قال لما سأله أبو هريرة قائلًا: من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله؟ قال: «من قال: لا إله إلا الله خالصًا مِن قلبه»[٧٢] أخرجه البخاري في «صحيحه».

ولا تكون الشفاعة إلا لمن ارتضىٰ قوله وعمله من أهل التوحيد والإيمان.

---

(٧٢) أخرجه البخاري (٩٩)، وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال العلامة ابن قاسم:

❑ قوله: (وَأَنْوَاعُ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا)

● أي: وأصناف العبادة التي شرع الله لعباده القيام بها، وتعبدهم بها، والنوع: كل ضربٍ أو صنفٍ من كل شيء، وهو أخص من الجنس.

❑ قوله: (مِثْلُ الإِسْلاَمِ، وَالإِيمَانِ، وَالإِحسَانِ)

● مثل الشيء: شبيهه ونظيره، وهذه الثلاثة أعلىٰ مراتب الدين وأهم أنواع العبادة؛ فلذلك بدأ بها المصنف رحمه الله.

❑ قوله: (وَمِنْهُ الدُّعَاءُ، وَالْخَوْفُ، والرَّجَاءُ...)

● يعني: أن أنواع العبادة ليست مخصوصة بهذه الأنواع، ولا محصورة في هذه الأنواع التي أعدها رحمه الله، بل هي أنواع كثيرة جدًا.

❑ قوله: (الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا)

● إشارة إلىٰ بعض حدودها عند بعض العلماء أنها ما أمر به شرعًا من غير اطرادٍ عرفيٍ، ولا اقتضاءٍ عقليٍ، وللعلماء فيها تعاريف كثيرة، وأحسن وأجمع ما عرفت به هو ما عرفها به شيخ الإسلام بقوله: اسمٌ جامعٌ لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، وعد نحوًا مما عده المصنف، وهو من أشمل ما عرفت به، فكل فرد من أفراد العبادة داخل تحت هذه العبارة، فيدخل فيها كما ذكر ويدخل فيها ما شمله الحد، فالعبادة شملت جميع أنواع الطاعات.

❑ قوله: (كُلُّهَا لله تَعَالَىٰ)

●أي: كل جميع أنواع العبادة مما ذكر وغيره لله وحده، لا يصلح منه شيء لغير الله ﷻ، لا لملك مقرب، ولا نبي مرسل، فضلًا عن غيرها، ولا أضل ولا أظلم ممن يجعل لمخلوق مربوب منها شيئًا.

❑ قوله: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾

●في المساجد تفسيران: أحدهما: أنها المواضع التي بنيت لعبادة الله، فالمعنىٰ: أنها إنما بنيت لعبادة الله وحده، فلا تعبدوا فيها غيره، والثانية أنها الأعضاء التي خلقها ليسجد له عليها، وهي الوجه واليدان والركبتان والقدمان، فلا يسجد بها لغيره، و﴿أَحَدًا﴾كلمة

شاملة عامة، نكرة في سياق النهي، شملت الملائكة والأنبياء والصالحين وغيرهم، فلا يدعىٰ مع الله أحد من الملائكة ولا الأنبياء ولا الصالحين ولا غيرهم، فقد شملت جميع الخلق.

❑ قوله: (فَمَنْ صَرَفَ مِنْهَا شَيْئًا لِغَيْرِ الله فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ)

●أي: فمن صرف شيئًا من أنواع العبادات التي ذكر المصنف -رحمه الله تعالىٰ- مثل: أن دعا غير الله من الأموات والغائبين، أو رجاهم، أو خافهم، أو سألهم قضاء الحاجات وتفريج الكربات وإغاثة اللهفات، أو غير ذلك، فهو مشرك الشرك الأكبر، المخرج من الملة، كافر الكفر الأكبر المخرج من الملة، والشرك والكفر قد يطلقان بمعنىٰ واحد، وهو: الكفر بالله، واسم لمن لا إيمان له، وقد يفرق بينهما فيخص الشرك بقصد الأوثان وغيرها من المخلوقات، مع الاعتراف بالله، فيكون الكفر أعم.

❑ قوله: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ ﴾

●أي: ومن أشرك بالله لا حجة له ولا بينة؛ لأنه لا حجة لأحد في دعوىٰ الشرك، و ﴿ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ ﴾، صفة أخرىٰ لـ «إلهًا» لازمة له، جيء بها للتأكيد، أو جملة معترضة بين الشرط والجزاء.

❑ قوله: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾

●أي: الله يحاسبه علىٰ ذلك فيجازيه بما يستحقه علىٰ شركه، ثم أخبر أنه لا يفلح الكافرون، فسماهم كافرين ؛ لدعائهم مع الله غيره، ولا ينازع مسلم في كفر من دعا مع الله غيره، وفي الآية أوضح برهان علىٰ كفر من دعا مع الله غيره، سواء كان المدعو ملكًا أو نبيا أو شجرة أو قبرًا أو جنيًّا.

❑ قوله: (الدُّعاءُ مُخُّ العِبَادَةِ)

● هذا شروع في ذكر أدلة أنواع العبادة التي عدها مجملة، فأما الإسلام والإيمان والإحسان فسيأتي مفصلًا في الأصل الثاني، وبدأ بعدها بالدعاء؛ لأنه أهمها، فقال: وفي الحديث -يعني: عن النبي ﷺ-: «الدعاء مخ العبادة»، ومخ الشيء خالصه، وفي لفظ: «الدعاء هو العبادة»، وأتىٰ ﷺ فيه بضمير الفصل والخبر المعرف بالألف واللام؛ ليدل علىٰ الحصر، وأن العبادة ليست غير الدعاء، وإنما هي الدعاء نفسه، ثم الدعاء نوعان: دعاء مسألة: وهو طلب ما ينفع الداعي من جلب نفع أو دفع ضر، والنوع الثاني: دعاء

عباده، بأي نوع من أنواع العبادة، وهو ما لم يكن فيه سؤال ولا طلب، وهذا الحديث جاء عن النبي ﷺ مقرونًا بالآية

❑ قوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾

● أمر تعالى عباده أن يدعوه، ووعدهم أن يستجيب لهم، فدل على أن الدعاء عبادة، بل هو أجل العبادات وأساسها، ودل على أنه سبحانه يحب من عباده أن يدعوه، وأن الدعاء مما يحبه الله. وفي الحديث: «من لم يدع الله»(٧٣)، وفي رواية «من لم يسأل الله يغضب عليه»(٧٤).

❑ قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾

● سمي الدعاء عبادة، وجاء في القرآن في غير موضع أنه عبادة فصرفه لغير الله شرك أكبر، وأخبر تعالى: أن الذي منعهم من عبادة الله هو الاستكبار فجوزوا بهذا الجزاء الفظيع وهو دخولهم جهنم صاغرين ذليلين حقيرين، وعقوبةً لهم على ما تركوه من عبادة الله التي فرضها عليهم.

قال العلامة العثيمين:

❑ قوله: (وَأَنْوَاعُ الْعِبَادَةِ)

●لما بين المؤلف -رحمه الله تعالى- أن الواجب علينا أن نعبد الله وحده لا شريك له، بين فيما يأتي شيئًا من أنواع العبادة فقال: وأنواع العبادة مثل الإسلام، والإيمان، والإحسان.

وهذه الثلاثة: الإسلام، والإيمان، والإحسان هي الدين كما جاء ذلك فيما رواه مسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، قال: يا محمد أخبرني عن الإسلام؟ فقال رسول الله ﷺ: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن

---

(٧٣) أخرجه الترمذي (٣٣٧٣)، وأبو يعلى (٦٦٥٥)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وحسنه العلامة الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

(٧٤) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٦٥٨)، والترمذي (٣٣٧٣)، وابن ماجه (٣٨٢٧)، وحسنه العلامة الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلًا. قال: صدقت. قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه. قال: فأخبرني عن الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله، وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره. قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. قال: فأخبرني عن الساعة؟ قال: ما المسئو ل عنها بأعلم من السائل. قال: فأخبرني عن أماراتها. قال: أن تلد الأمة ربتها، وأن ترىٰ الحفاة العراة العالة رعاء الشاة يتطاولون في البنيان، ثم انطلق فلبثت مليًا ثم قال لي: يا عمر أتدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم»(٧٥). فجعل النبي ﷺ هذه الأشياء هي الدين، وذلك أنها متضمنة للدين كله.

❑ قوله: (كُلُّهَا لله تَعَالَىٰ)

●أي: كل أنواع العبادة مما ذكر وغيره لله وحده لا شريك له فلا يحل صرفها لغير الله تعالَىٰ.

❑ قوله: (فَمَنْ صَرَفَ مِنْهَا شَيْئًا لِغَيْرِ الله)

●ذكر المؤلف رحمه الله تعالَىٰ جملة من أنواع العبادة وذكر أن من صرف منها شيئًا لغير الله فهو مشركٌ كافرٌ واستدل بقول الله تعالَىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ۝١٨﴾، وبقوله: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١١٧﴾، ووجه الدلالة من الآية الأولَىٰ: أن الله تعالَىٰ أخبر أن المساجد وهي مواضع السجود أو أعضاء السجود لله ورتب علَىٰ ذلك قوله: ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ۝١٨﴾؛ أي: لا تعبدوا معه غيره فتسجدوا له، ووجه الدلالة من الآية الثانية: بأن الله سبحانه وتعالَىٰ بين أن من يدعو مع الله إلهًا آخر فإنه كافر؛ لأنه قال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١١٧﴾، وفي قوله: ﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾، إشارة إلَىٰ أنه لا يمكن أن يكون برهان علَىٰ تعدد الآلهة؛ فهذه الصفة ﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾، صفة كاشفة مبينة للأمر وليست صفة مقيدة تخرج ما فيه برهان؛ لأنه لا يمكن أن يكون برهان علَىٰ أن مع الله إلهًا آخر.

❑ قوله: (وَفِي الحَدِيثِ)

●هذا شروع من المؤلف -رحمه الله تعالَىٰ- في أدلة أنواع العبادة التي ذكرها في

---

(٧٥)أخرجه مسلم (٨)، والنسائي (٤٩٩٠)، وغيرهما من حديث عمر رضي الله عنه.

قوله: «وأنواع العبادة التي أمر الله بها مثل الإسلام والإيمان والإحسان ومنه الدعاء...» إلخ، فبدأ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بذكر الأدلة علَىٰ الدعاء، وسيأتي إن شاء الله تفصيل أدلة الإسلام والإيمان والإحسان.

واستدل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بما يروىٰ عن النبي ﷺ أنه قال: «الدعاء مخ العبادة».

واستدل كذلك بقوله تعالَىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾؛ فدلت الآية الكريمة علَىٰ أن الدعاء من العبادة، ولولا ذلك ما صح أن يقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾ فمن دعا غير الله ﷻ بشيء لا يقدر عليه إلا الله فهو مشرك كافر سواء كان المدعو حيًا أو مَيِّتًا. ومن دعا حيًا بما يقدر عليه مثل أن يقول: يا فلان أطعمني، يا فلان اسقني فلا شيء فيه، ومن دعا ميِّتًا أو غائبًا بمثل هذا فإنه مشرك؛ لأن الميت أو الغائب لا يمكن أن يقوم بمثل هذا؛ فدعاؤه إياه يدل علَىٰ أنه يعتقد أن له تصرفًا في الكون فيكون بذلك مشركًا.

واعلم أن الدعاء نوعان: دعاء مسألة، ودعاء عبادة.

فدعاء المسألة هو دعاء الطلب؛ أي: طلب الحاجات، وهو عبادة إذا كان من العبد لربه؛ لأنه يتضمن الافتقار إلَىٰ الله تعالَىٰ واللجوء إليه، واعتقاد أنه قادر كريم واسع الفضل والرحمة.

ويجوز إذا صدر من العبد لمثله من المخلوقين إذا كان المدعو يعقل الدعاء ويقدر علَىٰ الإجابة، كما سبق في قول القائل: يا فلان أطعمني.

وأما دعاء العبادة فأن يَتَعَبَّد به للمدعو طلبًا لثوابه وخوفًا من عقابه، وهذا لا يصح لغير الله، وصرفه لغير الله شركٌ أكبرٌ مُخرجٌ عن المِلَّةِ، وعليه يقع الوعيد في قوله تعالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾.

قال العلامة الفوزان:

قوله: (وَأَنْوَاعُ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا)

● والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أورد أمثلةً للعبادة من باب التمثيل لا من باب الحصر؛ لأنها أكثر مما ذكره، ولا يمكن استيعابها في رسالة مختصرة؛ لكن ذكر أمثلة، ولشيخ الإسلام رسالة

مستقلة اسمها «العبودية» تبحث في العبادة، وأنواع العبادة، وبيان الانحرافات التي حصلت من الصوفية وغيرهم في العبادة، وهي رسالة قيمة يحتاج طالب العلم أن يقرأها.

❑قوله: (مِثْلُ الإِسْلاَمِ، وَالإِيمَانِ، وَالإِحْسَانِ)

● هذه الأنواع الثلاثة أعظم أنواع العبادات، الإسلام، والإيمان، والإحسان، وسيأتي شرحها في كلام الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في الأصل الثاني، وذكرهاهنا ؛ لأنها من أنواع العبادة، فالإسلام بأركانه الخمسة: الشهادتان، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج بيت الله الحرام، هذه كلها عبادات مالية وبدنية، وكذلك الإيمان بأركانه الستة، وهو من أعمال القلوب: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشره، هذه عبادة قلبية.

كذلك الإحسان، وهو ركن واحد، وهو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، هذا أعلىٰ أنواع العبادة؛ لأن الإحسان هو أعلىٰ أنواع العبادة، وهذه تسمىٰ مراتب الدين؛ لأن مجموعها هو الدين؛ لأن جبريل لما سأل النبي ﷺ بحضرة أصحابه وأجابه النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان قال: «هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم»[٧٦]، فسمي هذه الثلاثة الدين.

❑قوله: (وَمِنْهُ الدُّعَاءُ، وَالْخَوْفُ، والرَّجَاءُ...)

●أي: ومن أنواع العبادة الدعاء، بدأ به لأنه أعظم أنواع العبادة.

والدعاء علىٰ قسمين: دعاء عبادة، ودعاء مسألة:

دعاء العبادة: هو الثناء علىٰ الله سبحانه وتعالىٰ كما في أول الفاتحة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾[الفاتحة:١-٥] هذا كله دعاء عبادة، ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾[الفاتحة:٦] إلىٰ آخر السورة هذا دعاء مسألة.

ودعاء المسألة: هو طلب شيء من الله ﷻ كطلب الهداية، وطلب الرزق، وطلب العلم من الله، وطلب التوفيق.

---

(٧٦) سبق تخريجه.

☐قوله: (﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾)

●**المساجد**: تطلق ويراد بها أماكن السجود والبقاع التي يصلى فيها، وهي أحب البقاع إلى الله ﷻ قد جاء الترغيب في بنائها وإعدادها، قال ﷺ: «من بنى مسجدًا لله كمفحص قطاةٍ أو أصغر بنى الله له بيتًا في الجنة»(٧٧).

يقول الله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾[التوبة:١٨] والمراد بالعمارة: العمارة الحسية والمعنوية، عمارتها بالطين، وما تحتاج إليه حتى تأوي المصلين وتظلهم من الحر وتكنهم من البرد، وعمارتها بالعبادة بالصلاة، وتلاوة القرآن، وذكر الله ﷻ.

وتطلق المساجد ويراد بها أعضاء السجود السبعة: وهي الجبهة، والأنف، واليدان، والركبتان، ورءوس القدمين؛ لأنها تسجد لله، والآية تشتمل المعنيين:

﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾؛ أي: البقاع التي يصلى فيها، وأعضاء السجود لله ﷻ.

﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾، لا تجعلوا هذه المساجد وهذه البقاع محلًّا للشرك ودعوة غير الله، بل يجب أن تطهَّر المساجد من الشرك، فلا يكون فيها قبور، ولا يكون فيها دعاء لغير الله، ولا يكون فيها بدع ومحدثات وحلقات صوفية مبتدعة.

يجب أن تطهر المساجد عن البدع والشرك والمعاصي ؛ لأنها لله ﷻ فلا يكون فيها إلا ما يرضي الله ﷻ فلا تدعوا مع الله أحدًا في هذه المساجد، أو تستخدموا أعضاءكم بالسجود لغير الله ﷻ؛ لأن هذا شرك أكبر كالذي يسجد للصنم، أو للقبر، أو يسجد للوثن فهذا يسجد لغير الله ﷻ.

الشاهد في قوله: ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾، أمر بإخلاص الدعاء له وحده.

وقوله: ﴿أَحَدًا﴾؛ يعم كل مدعو من دون الله سواء كان ملكًا، أو نبيًّا، أو وليًّا، أو شجرًا، أو حجرًا، يعم كل من دُعِيَ من دون الله ﷻ فإنه يكون شركًا أكبر.

☐قوله: (﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾)

● ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ﴾: أي أمركم ربكم، وقال: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، أمر بدعائه

---

(٧٧) أخرجه ابن ماجه (٧٣٨)، من حديث جابر رضي الله عنه، وأحمد (٢٤١/١)، وغيرهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وصححه العلامة الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

سبحانه ووعد بالاستجابة، وهذا من كرمه سبحانه وتعالى؛ لأنه غني عن دعائنا؛ ولكننا محتاجون لدعائه سبحانه وتعالى، فهو يأمرنا بما نحتاج إليه وبما يصلحنا، وهو -سبحانه- يغضب إذا تركت سؤاله بينما المخلوق يغضب إذا سألته؛ ولهذا يقول الشاعر:

الله يغضبُ إن تركتَ سؤالَه ... وبُنَيَّ آدمَ حين يُسأل يَغضَبُ

ويقول آخر:

فلو سُئِلَ الناسُ التُّرابَ لَأوشكوا ... إذا قِيلَ هاتوا أَن يَملُّوا وَيَمنَعوا

فالناس أقسام ثلاثة:

الأول: من لا يدعو الله أصلًا، فيكون مستكبرًا عن عبادة الله.

الثاني: من يدعو الله، ولكن يدعو معه غيره فيكون مشركًا.

الثالث: من يدعو الله مخلصًا له الدعاء، فهذا هو الموحد.

في الحديث أن النبي ﷺ قال: «**الدعاء مخ العبادة**».

وفي رواية: «**الدعاء هو العبادة**» فهذا يدل على عظيم الدعاء وأنه أعظم أنواع العبادة؛ لأن الرسول ﷺ قال: «**مخ العبادة**».

وفي رواية: «**الدعاء هو العبادة**»، والرواية الثانية أصح من رواية: «**الدعاء مخ العبادة**»، والمعنى واحد.

فالحديث بروايتيه يبيّن عِظَمَ الدعاء، وأنه هو النوع الأعظم من أنواع العبادة، كما قال ﷺ : «**الحج عرفة**»[(٧٨)] بمعنى أن: الوقوف بعرفة في الحج هو الركن الأعظم من أركان الحج، وليس معناه أن الحج كله هو عرفة، ولكن الوقوف بعرفة هو أعظم أركان الحج، كذلك ليست العبادة محصورة في الدعاء، ولكن الدعاء هو أعظم أنواعها؛ ولهذا قال: «**الدعاء هو العبادة**»، من باب تعظيم الدعاء وبيان مكانته.

ثم ذكر الشيخ رحمه الله أدلة أنواع العبادة التي ذكرها وهي: الخوف، والرجاء، والتوكل، والرغبة، والرهبة، والخشوع، والخشية، والإنابة، والاستعانة، والاستعاذة، والذبح، والنذر،

---

(٧٨) أخرجه أبو داود (١٩٤٩)، والترمذي (٨٨٩)، والنسائي (٣٠١٦)، وغيرهم من حديث عبد الرحمن ابن يعمر الديلي رضي الله عنه، وصححه العلامة الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

وغير ذلك من أنواع العبادة التي أمر الله بها كلها لهﷻ.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

❑ قوله: (وَأَنْوَاعُ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ الله بِهَا...)

●لما تقرر أن الرب هو المعبود، كان من المناسب أن تذكر أنواع العبادة التي يعبد الله جل وعلا بها، والتي يجب إفراد الله جل وعلا بها. والعبادة عُرِّفت بعدة تعريفات:

منها أنها: «هي كلُّ ما أُمِرَ به مِنْ غير اقتضاءٍ عقليٍّ ولا اطِّرادٍ عرفيٍّ». وهذا هو تعريف الأصوليين في كتبهم، ومعنى ذلك أن الشيء الذي أُمر به من غير أن يقتضي العقل المجرد الأمر به، ومن غير أن يَطَّرِدَ به عرف، هذا يسمى عبادة.

يفسر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى للعبادة في أول رسالته «العبودية» حيث قال:«إن العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة». وهذا التعريف مناسب؛ لأنه أيسر في الفهم أولًا، والثاني: أنه قريب المأخذ من النصوص، فقال: إن العبادة اسم جامع؛ يجمع أشياء كثيرة؛ لكل ما يحبه الله ويرضاه، كيف نصل إلى أن هذا العمل أو القول يحبه الله ويرضاه؟

الجواب: لابد أن يكون مأمورًا به، أو مخبَرًا عنه بأن الله جل وعلا يحبه ويرضاه.

أنواعها، قال:« من الأقوال والأعمال»؛ فهناك قول وعمل؛ فإذن العبادات تنقسم إلى:

- عبادات قولية.

- وعبادات عملية.

ليس ثَمَّ قسم ثالث؛ إما أن تكون قولية، وإما أن تكون عملية. قال:«الظاهرة والباطنة»؛ قد يكون القول ظاهرًا، وقد يكون باطنًا، وقد يكون العمل ظاهرًا، وقد يكون باطنًا.

فتحصَّل أن أنواع العبادات هي الأقوال والأعمال التي يحبها الله ويرضاها.

والقول: قد يكون باللسان، وقد يكون بالجنان.

قول اللسان أعمال كثيرة مما أمر الله جل وعلا به مثل: الذكر، والتلاوة، كلمة المعروف، ونحو ذلك، هذه كلها من أنواع العبادات اللسانية، قول القلب هو نيته وقصده.

التبست النية على قوم فكانوا يتلفظون بها، نعم النية قول، لكنها قول القلب، إذا قصد القلب وتوجه إلى شيء كان قائلًا به، ليس متكلمًا؛ لأن الكلام من صفات اللسان؛

كلام ظاهر، أما القول قد يكون ظاهرًا وقد يكون باطنًا.

العمل: عمل القلب وعمل الجوارح.

❑ قوله: (ومنه الدُّعاء، والخوف، والرجاء...)

●وهذه الأنواع التي ذكرها الشيخ رحمه الله تعالى ممثلًا بعضها من الأقوال و بعضها من الأعمال، بعضها ظاهر، وبعضها باطن، بعضها لساني، وبعضها قلبي، وبعضها عملي قلبي، وبعضها من عمل الجوارح.

فمثلًا الإخلاص هذا عمل القلب، التّوكل عمل القلب، لا يصلح الإخلاص -إخلاص العبادة، إخلاص الدين- إلا لله جلَّ وعلَا، كما قال تعالى: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝١ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣﴾[الزمر:١-٣]، ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ۝١٤﴾[الزمر:١٤]، التوكل كذلك من أعمال القلب التي ليست إلا لله، الخوف من أعمال القلب التي ليست إلا لله، يعني: خوف العبادة، خوف السر، سيأتي إيضاحه -إن شاء الله- في موضعه.

والرغبة، الرهبة، الإنابة، الخضوع، الذل؛ ذل العبادة، خضوع العبادة، إلى آخره وسيأتي تفصيلها إن شاء الله تعالى،هذه كلها من أعمال القلب، هي داخلة في أنواع العبادة.

والأعمال الظاهرة مثل الاستغاثة؛ الاستغاثة: طلب الغوث -طلب ظاهر-مثل الاستعانة: طلب العون، هذه من الأعمال الظاهرة، الذبح: واضح أنه من عمل الجوارح، النذر: واضح أنه من قول اللسان وعمل الجوارح، ونحو ذلك؛ فإذن هذه العبادات التي مثّل بها، أراد أن يشمل تمثيله أقسام العبادات القولية، والعملية؛ الظاهرة والباطنة، يجمعها جميعًا أنها عبادات.

❑ قوله: (والدليل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ۝١٨﴾...)

●بعد ذلك شرع المؤلف -رحمه الله تعالى وأجزل له المثوبة- في بيان أدلة كون تلك التي ذكر من العبادات، وذكر الخوف، والرجاء، والرغبة، والرهبة، والخشوع،

والتوكل، وذكر أشياء، والذبح والنذر، إلى آخره.

فكأنَّ قائلا قال: ما الدليل على أن هذه من العبادات التي من صَرَفها لغير الله جل وعلا كَفر؟

فساق الأدلة، والأدلة على هذه المسألة على نوعين:

الأول: أن يُستدل بدليل يُثبت كون تلك المسألة من العبادة، يثبت كون الخوف من العبادة، يثبت كون الرجاء من العبادة، فإذا ثبت كونه من العبادة، استُدِل بالأدلة السابقة كقوله ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ۝١٨﴾، وقوله: «الدعاء هو العبادة»، «الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَة»، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾، ونحوها من الأدلة العامة؛ بأن من توجه بالعبادة لغير الله فهو مشرك.

إذن النوع الأول متركب من شيئين، الأول: أن يقام الدليل على أن هذه المسألة من العبادة؛ على أن الخوف من العبادة، على أن الرجاء من العبادة، فإذا استقام الدليل والاستدلال على أن هذه المسألة من العبادة، استدللت بالأدلة العامة على أن من صرف شيئًا من العبادة لغير الله فهو مشرك.

النوع الثاني: خاص؛ وهو أن كل نوع من تلك الأنواع له دليل خاص، يُثبت أن صرفه لغير الله جل وعلا شرك، وأنه يجب إفراد المولى جل وعلا بذلك النوع من أنواع العبادة.

وهذا مما ينبغي أن يتنبه له طالب العلم في مقامات الاستدلال؛ لأن تنويع الاستدلال عند الاحتجاج على الخرافيين والقبوريين وأشباههم مما يقوي الحجة. تُنوّع الاستدلال مرة بأدلة مجملة، مرة بأدلة مفصلة، مرة بأدلة عامة، مرة بأدلة خاصة حتى لا يُتوهَّم أنه ليس ثَمَّ إلا دليل واحد يمكن أن ينازع المستدل به الفهم، فإذا نوعتها صارت الحجة أقوى والبرهان أجلى.

بدأ في ذكر هذه الأدلة، بعضها من النوع الأول وبعضها من النوع الثاني

فهذه صلة لما سبق الكلام عليه؛ من أن العبادة حق لله جل وعلا، وأن كل معبود سوى الله جل وعلا فإن عبادته بغير الحق وأنها بالباطل والظلم والطغيان والجور والتعدي من الخلق، فالله جل وعلا هو الذي يستحق العبادة وحده دونما سواه من خلقه.

❑ قوله: (فَمَنْ صَرَفَ مِنْهَا شَيْئًا لِغَيْرِ الله فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ...)

●(من صرف)؛ يعني: من توجه بشيء من أنواع تلك العبادات لغير الله فهو مشرك كافر، يريد الشرك الأكبر الذي يخرج من الملة، والشرك حقيقته اتخاذ الند مع الله جل وعلا، وهو المذكور في قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٢﴾[البقرة:٢٢]، والتنديد يعني: أن يُجعل لله مِثْل للاستحقاق؛ استحقاق التوجه، استحقاق العبادة، إذا جُعل لله ندٌّ بالقول أو بالعمل فذلكم هو الشرك، وكل نوع من هذه الأنواع، وغيرُها من الأنواع التي تدخل في مسمى العبادة، صرفها لغير الله جل وعلا شرك أكبر يخرج من الملة، وصاحبه مشرك كافر؛ إما الكفر الظاهر، وإما الكفر الظاهر والباطن معًا. وهذا الذي ذكره برهن له بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ وقوله هنا: ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾، هذا بيان لحقيقة من دعى مع الله جل وعلا، قال: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾، هذا الإله الآخر، وهذا الداعي منعوت بأنه لا برهان له بما فعل، ولا دليل، وإنما فعل ما فعل من دعوة غير الله لخواص وبتعديه. وقوله: ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾، ليس مفهومه أن ثم دعوة لغير الله تعالى ليس لها برهان وإنما كل دعوة لغير الله، ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾؛ أيَّ إله كان، فإن ذلك الداعي لا برهان له بما فعل، والدليل على أن دعوة غير الله جل وعلا كفر؛ قوله جل وعلا في الآية نفسها ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾، فدل على أن دعاء غير الله -كما أنه شرك- إذ دُعي إله آخر مع الله جل وعلا فهو كفر؛ لأنه قال: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾.

والشرك أقسام والعلماء يقسمون الشرك باعتبارات مختلفة.

- فتارة يُقسم الشرك إلى: شرك ظاهر وشرك خفي.
- وتارة يُقسم الشرك إلى: شرك أكبر وشرك أصغر.
- وتارة يُقسم إلى: شرك أكبر وأصغر وخفي.

وهذه تقسيمات معروفة عند العلماء، وكل تقسيم باعتبار، وهي تلتقي في نتيجة كل قسم والتعريف؛ لكنه اختلاف في التقسيم باعتبارات مختلفة.

فمثلًا من يقسمون الشرك إلى ظاهر وخفي؛ إلى جلي وخفي:

- فيكون الجلي منه ما هو أصغر ومنه ما هو أكبر، الجلي الظاهر الذي يُحَس مثل

الذبح لغير الله، النذر لغير الله هذا جلي، هذا من نوع الشرك الأكبر، هو جلي أكبر، كذلك مثل الاستغاثة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، كذلك هذه من نوع الشرك الجلي الأكبر، الحلف بغير الله تعالىٰ شرك جلي ولكنه أصغر، هذا قسم شرك جلي.

• قَسِيمُه الشرك الخفي، منه ما هو أكبر كشرك المنافقين، فإن شركهم خفي لم يظهروه وإنما أظهروا الإسلام، فما قام في قلوبهم من التنديد والشرك صار خفيًا لأنهم لم يُظهروه، فهو شرك خفي ولكنه أكبر، وهناك شرك خفي أصغر مثل يسير الرياء، فإن كان الرياء كاملًا كان ذلك شركًا أكبر كشرك المنافقين، وإن كان يسيرًا كتصنُّع المرء للعبادة لمخلوق مثله لغير الله فهذا إذا كان يسيرًا فإنه شرك أصغر خفي.

هذا نوع من أنواع التقاسيم.

بعض العلماء يقول: الشرك قسمان أكبر وأصغر:

• فإذا كان أكبر: قَسم الأكبر إلىٰ جلي وخفي.

• وقسم الأصغر إلىٰ جلي وخفي.

والأوضح أن يقسم إلىٰ ثلاثة: إلىٰ أكبر وأصغر وخفي:

• ويكون الخفي مثل يسير الرياء.

• والأصغر مثل الحلف بغير الله، تعليق التمائم ونحو ذلك.

• والأكبر مثل الذبح والنذر والاستغاثة ودعاء ودعوة غير الله جل وعلا.

هذه تقسيمات للشرك قد تجد هذا أو ذاك في كلام طائفة من أهل العلم، لكن كلّها محصلها واحد، وإنما التقسيم باعتبارات، وهي ملتقية في التعريف وفي النتيجة.

مُراد الشيخ رحمه الله تعالىٰ هاهنا بقوله: (فمَنْ صَرَفَ منها شيئًا لغيرِ الله فهو مُشرِكٌ كافرٌ) يريد الشرك الأكبر الذي يُخرج من الملة، فكل شيء صح عليه قيد العبادة فإن صرفه لغير الله -يعني التوجه به، التعبد به لغير الله- هذا كفر؛ مثل نداء الموتىٰ، أو نداء الغائبين، أو خوف السر، أو الذبح لغير الله، أو النذر لغير الله، أو الاستغاثة بالأموات، أو أنواع الطلب المختلفة من الاستعانة ونحوها، أو بعض أعمال القلوب مثل الاستعاذة ونحو ذلك. هذه كلها أنواع للعبادات؛ بعضها في القلب، وبعضها للجوارح جميعًا، من توجه بشيء منها لغير الله فهو مشرك الشرك الأكبر الذي يخرج من الملة. البرهان قوله: ﴿ وَمَن

يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾، وقد قدمت لك أن (يَدۡعُ) والدعاء في القرآن قد يكون دعاء مسألة وقد يكون دعاء عبادة، فإذا لم يكن في الدليل -في النص- قرينة تحدد أحد المعنيين، حُمل على المعنيين جميعًا؛ لأن حمل النص على أحد المعنيين دون دليل وبرهان تحكُّم في النص وذلك لا يجوز.

والعبادة لا تصلح إلا لله جل وعلا، العبادة الظاهرة أو الباطنة، القلبية أو اللسانية، أو التي موردها الجوارح، فهي لا تصلح إلا لله؛ فمن صرف شيئًا منها لغير الله فقد توجّه بالعبادة لغير الله منافيًا لما قال الله جل وعلا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾[البقرة:٢١]، ومنافيًا لإقراره بأن معبوده هو الله جل وعلا، إذا أقر العبد بأن قوله: من ربك؟ يعني: من معبودك؟ وأن الله جل وعلا قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾؛ يعني: وحده دون ما سواه، فإنه إذا توجه بشيء من هذه الأنواع لغير الله جل وعلا كان متوجهًا بالعبادة لغير الله، وذلك هو الشرك.

قوله: وفي الحديث« الدُّعاءُ مُخُّ العِبادَةِ»...)

●الدعاء هو العبادة، كما جاء في الحديث الذي استدل به الشيخ وهو قوله عليه الصلاة والسلام: «الدعاء مخ العبادة» وهو حديث أنس بن مالك، وإسناده فيه ضعف، لكن معناه هو معنى الحديث الصحيح؛ حديث النعمان بن بشير الذي رواه أبو داوود والترمذي وجماعة، وهو قوله عليه الصلاة والسلام: «الدعاء هو العبادة»؛ (هو العبادة)؛ يعني: مخ العبادة؛ لأن الدعاء هو العبادة بمنزلة قول النبيﷺ «الحج عرفة»[٧٩]، قال تعالى ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ۝١٨﴾، ﴿فَلَا تَدۡعُواْ﴾؛ يعني: كما ذكرت لكم من قبل: لا دعاء مسألة، ولا دعاء عبادة. ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ۝١٨﴾؛ يعني: لا تعبدوا مع الله أحدا، ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ۝١٨﴾، هذا نهي أن يدعوَا الناسُ أحدًا مع الله جل وعلا؛ يعني أن يعبدوا أحدًا مع الله جل وعلا، وإذا كان الدعاء هنا بمعنى دعاء المسألة فيكون معنى الآية: وأن المساجد لله فلا تسألوا سؤال عبادة مع الله أحدًا، لا تطلبوا طلب عبادة مع الله أحدًا. ولفظ ﴿تَدۡعُواْ﴾ يشمل دعاء العبادة ودعاء المسألة، فهذه الآية دليل على وجوب إفراد الله جل وعلا بالعبادة.

---

(٧٩) سبق تخريجه.

فإن قال قائل لك حين الاستدلال بها: إن الدعاء هنا هو دعاء المسألة، وغيره من أنواع العبادة التي تزعمون من الذبح والنذر ومن الاستغاثة والاستعاذة ونحو ذلك أنها لا تدخل في النهي في هذه الآية.

فيكون جوابُك: أن الدعاء في القرآن جاء بمعنيين: جاء ويراد به العبادة، وجاء ويراد به المسألة. فمثلا في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾، ظاهر أن الدعاء المراد به العبادة؛ لأنه قال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾، وكذلك في قوله تعالى مخبرًا عن قول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾ [مريم:٤٨] قال جل وعلا بعد ذلك: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [مريم:٤٩] وفي الآية الأولى أخبر عن إبراهيم أنه قال: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ﴾، ثم قال جل وعلا: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ﴾ فدل على أن إبراهيم عليه السلام حين قال: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ﴾؛ أي: وما تعبدون؛ لأن الله جل في وعلا قال بعدها: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ﴾، وهذا من الأدلة الظاهرة علي أنها تشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة.

وقد أُورد على أئمتنا رحمهم الله تعالى -حين قرروا التوحيد في مقالهم وفي كتبهم- أن هذه الآية إنما هي دليل للمسألة، وأما غيرها مما تدَّعون أنه عبادة وأن هذه الآية فيها نهي عنه؛ كالذبح والنذر ونحو ذلك أنه لا يدخل في الآية.

فكان الجواب: أن الدعاء نوعان؛ دعاء عبادة ودعاء مسألة، هذا يأتي في القرآن وذاك يأتي في القرآن، والآية تشمل النوعين؛ لأن الدعاء إذا كان في القرآن يأتي تارات لهذا وتارات لهذا، فتحديده في هذه الآية بأحد النوعين ونفي النوع الآخر، هذا نوع تحكم وهو ممتنع.

الدرس الثامن:

[دليل الخوف. الرجاء. التوكل. الرغبة. الخشية]

وَدَلِيلُ الخَوْفِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ١٧٥﴾[آل عمران:١٧٥].

وَدَلِيلُ الرَّجَاءِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ١١٠﴾[الكهف:١١٠].

وَدَلِيلُ التَّوَكُّلِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ٢٣﴾[المائدة:٢٣]، وقَالَ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[الطلاق:٣].

ودَلِيلُ الرَّغْبَةِ والرَّهْبَةِ والخُشُوعِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠﴾[الأنبياء:٩٠].

ودَلِيلُ الخَشْيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾[البقرة:١٥٠].

الشرح

قال العلامة ابن باز:

قوله: (وَدَلِيلُ الخَوْفِ...)

● **ومن ذلك الخوف وهو أقسام ثلاثة:**

الأول: خوف السر، وهذا خاص بالله؛ لأنه القادر على كل شيء وهو الذي يُخاف ويُخشى، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ١٧٥﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾[التوبة:١٨]، وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾[المائدة:٤٤].

فالواجب: خشية الله وخوفه؛ لأنه مُصرِّف القلوب ومقلِّبها والقادر على كل شيء، وهو الذي ينفع ويضر، ويعطي ويمنع، فالواجب تخصيصه بالخوف، وألا يخاف إلا الله في كل الأمور، ولكن خوف السر يختص به سبحانه؛ وهو كون الإنسان يخاف من أجل قدرة خاصة سرية ليست حسب الحس؛ ولذلك يعتقد عُبَّاد القبور: أن بعض الناس له القدرة على التصرف في الكون مع الله جل وعلا، ويعتقدون ذلك -أيضًا- في الأصنام والجن وغيرها، وهذا هو الشرك الأكبر، ويعتقد فيهم -أيضًا- أن لهم القدرة على العطاء

والمنع، وزيغ القلوب، وموت النفوس دون أسباب حسية.

الثاني: خوف الأسباب الحسِّية، كما قال تعالىٰ في قصة أُحُد لما قيل للنبي ﷺ إن المشركين قد جمعوا لكم وسيرجعون إليكم فأنزل الله في ذلك: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران:١٧٥] فالشيطان يخوف الناس من أوليائه، ويعظمهم في صدور الناس حتىٰ يخافوهم، والله يقول: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾، بل اعتمدوا عليَّ، وأعدوا العدة، ولا تبالوا بهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠] وهذا الخوف الحسي لا بأس به لكن الخوف القلبي خوف السر هذا هو المنهي عنه أما الخوف الحسي، مثل أن يخاف اللص أو السارق أو العدو، فيعد العدة من السلاح اللازم كل هذا لابد منه؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء:٧١] وقال -سبحانه- في قصة موسىٰ لما خرج من مصر خائفًا من فرعون وقومه: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص:٢١] فإن هذا الخوف خوف حسي لا بأس به؛ لكن لا يجوز خوف العدو خوفًا يمنع من جهاده، ونصر الحق، وإنما يحمله هذا الخوف علىٰ الإعداد للعدو وأخذ الحذر.

الثالث: الخوف الطبيعي الذي جُبِلَ عليه الإنسان وهذا لا حرج فيه، مثل: خوف الإنسان الحية والعقرب والسبع، فيتباعد عنها ويقتلها ويتباعد عن مظنة السباع حتىٰ لا يتأذىٰ بها. هذا أمر لابد منه، والله جبل الناس علىٰ الخوف مما يؤذي حتىٰ يتحرز منه، يخاف البرد فيلبس الثياب الغليظة، ويخاف من الجوع؛ فيأكل، ويخاف العطش؛ فيشرب. هذه أمور طبيعية لا بأس بها.

قوله: (وَدَلِيلُ الرَّجَاءِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾...)

● وهكذا الرجاء عبادة لله، فيرجو الله ويحسن به الظن كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾، فالرغبة إليه، ورجاء ما عنده عبادة له سبحانه وتعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء:٩٠] فالرغب: الرجاء، والرهب: الخوف وكلاهما عبادة، وعلىٰ العبد أن يحسن ظنه بربه، ويعمل بالأسباب الشرعية، وإن الظن الحسن مع الأخذ بالأسباب؛ يعود علىٰ العبد بالخير، وبالرحمة، وبدخول الجنة وبمغفرة الذنوب.

❑قوله: (وَدَلِيلُ التَّوَكُّلِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾)

● وهكذا التوكل عبادةً، وهو: التفويض إلى الله، والاعتماد عليه في كل الأمور مع الأخذ بالأسباب، فتعتمد على الله في السلامة من الشر، والعافية من الفتن، وحصول الرزق، وفي دخول الجنة، والنجاة من النار، مع الأخذ بالأسباب المشروعة، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣]يعني: كافيه.

❑قوله: (ودَلِيلُ الرَّغْبَةِ والرَّهْبَةِ والْخُشُوعِ والخَشْيَةِ ...)

● وهكذا الرغبة والرهبة والخشية من الله كل هذه عبادات، قال تعالى عن الأنبياء والصالحين: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء:٩٠]؛يعني: خائفين يخشون الله، ويخشعون لعظمته؛ أي: يذلون.

قال العلامة ابن قاسم:

❑ قوله: (وَدَلِيلُ الخَوْفِ)

● وأنه عبادة من العبادات القلبية، بل هو ركن العبادة الأعظم، ولا يستقيم إخلاص الدين لله الذي أمر الله به عباده إلا به، والخوف: مصدر خاف إذا فزع ووجل، لكن الخوف يتعلق بالمكروه، والفزع بما فاجأ منه، وهو: انزعاج القلب بتوقع مكروه عاجل، والوجل من غير متعد، والخوف من متعد.

❑ قوله: (﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾)

● أول الآية: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾، يُعَظِّمُهُم في صدوركم ويُوهمكم أنهم ذوو بأس، فنهاكم أن تخافو أولياءه الذين خوفكم إياهم ﴿وَخَافُونِ﴾، في مخالفة أمري، وتوكلوا علي فإني كافيكم ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾جعله شرطًا في صحة الإيمان، فكما أنه إذا دعا غير الله انتفى عنه الإيمان، فكذلك إذا خاف غير الله خوف السر، مثل أن يخاف أن يفعل شيئًا بسره، فإن الخوف أنواع: منها: خوف السر، فإذا خاف من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله فهو مشرك كافر.

❑ قوله: (وَدَلِيلُ الرَّجَاءِ)

● وأنه عبادة قبيلة من أَجَلِّ العبادات، فصرفه لغير الله شرك أكبر، والرجاء بمعنى:

التوقع والأمل ممدود.

❑ قوله: (قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾).

● أي: فمن كان يرجو ثواب الله، ويخاف عقابه، ويرجو المصير إليه، ويأمل لقاءه ورؤيته، وفسر بالمعاينة ﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا ﴾،وهو ما كان موافقا لشرع الله مقصودًا به وجهه.

❑ قوله: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾

● أي: لا يجعل مع الله شريكًا في عبادته، فإن العبادة لا تصلح إلا لله وحده لا شريك له، فـ ﴿ أَحَدًا ﴾نكرة في سياق النفي تعم كل مدعو من دون الله من الملائكة والأنبياء و الأولياء والصالحين وغيرهم، فإنه إذا رجا غير الله فهو مشرك الشرك الأكبر، وركنا العمل المتقبل: أن يكون خالصًا لله، وأن يكون صوابًا على شريعة محمدﷺ.

❑ قوله: (وَدَلِيلُ التَّوَكُّلِ)

● وهو صدق التفويض والاعتماد على الله في جميع الأمور، وإظهار العجز والاستسلام له، وتوكل عليه واتكل: استسلم إليه واعتمد عليه، ووكل إليه أمره وسلمه إليه، وعبادة من أجل العبادات، بل هو أجل أنواع العبادة وأعلى مقامات التوحيد فلا يفوض عبدا أموره ولا يعتمد إلا على اللهﷻ، فهو القادر على كل شيء، بيده الملك وهو على كل شيء قدير، وإذا كان كذلك فالمخلوق وإن كان له نوع قدرة فلا يعتمد عليه، ولو في ما أقدره الله عليه، بل يعتمد العبد على اللهﷻ وحده، فالتوكل عبادة قلبية، فإن اعتمد على غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله فذلك هو الشرك الأكبر، وإن اعتمد على الأحياء الحاضرين والسلاطين ونحوهم في ما أقدرهم الله عليه، من رزق أو دفع أذى ونحوه فهو نوع شرك أصغر، والمباح أن يوكل شخصًا بالنيابة في التصرف في أمور دنياه، لكن لا يقول: توكلت عليه، بل وكّلته،فإنه ولو وكله فلابد أن يتوكل في ذلك على اللهﷻ وحده.

❑ قوله: (قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾)

● فإخلاص التوكل على الله شرط في صحة الإيمان، ينتفي عند انتفائه، فإن تقديم المعمول وهو قوله: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ ﴾على العامل وهو كلمة ﴿ فَتَوَكَّلُوٓا۟ ﴾ يفيد الحصر؛ أي: عليه وحده ﴿فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ لا على غيره،وهذه قاعدة العربية.

❑ قوله: (وقَالَ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾)

● الحسب معناه: الكافي، وهذه الآية دليل ثانٍ ذكره المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ على أن التوكل عبادة من أجل أنواع العبادة، فمعنى الآية: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: يعتمد عليه في أموره فهو كافيه، ومن كان الله كافيه فلا مطمع لأحدٍ فيه، ولم يذكر تعالى للتوكل جزاء غير تولي كفايته العبد، فقال: ﴿فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾، ولم يأت في غيره من العبادات، فدل على عظم شأن التوكل وفضيلته، وأنه أجل أنواع العبادة، فصرفه لغير الله شرك أكبر.

❑ قوله: (ودَلِيلُ الرَّغْبَةِ والرَّهْبَةِ والْخُشُوْعِ)

● وأنّها عبادات قلبية، من أجّل العبادات، وصرفها لغير الله شرك أكبر، والرغبة: السؤال والطلب، والابتهال والتضرع، والرهبة: الخوف والفزع، والخشوع: التطامن والتذلل، وهو قريب من الخضوع؛ إلا أن الخضوع في البدن، والخشوع في القلب والبصر والصوت.

❑ قوله: (قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾)

● يعني: الأنبياء الذين سمّاهم الله في هذه السورة يبادرون ويسابقون في عمل القربات والطاعات.

❑ قوله: (﴿رَغَبًا وَرَهَبًا﴾

● ﴿رَغَبًا﴾ في رحمة الله، ﴿وَرَهَبًا﴾ من عذاب الله.

❑ قوله: (﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠﴾

● خاضعين متذللين، فدلت الآية على أن هذه الثلاثة الأنواع من أجلّ أنواع العبادة؛ فمن صرف شيئًا لغير الله فهو مشركٌ كافرٌ.

❑ قوله: (ودَلِيلُ الخَشْيَةِ)

● فعلة من خشيه: خافه واتقاه، فهي بمعنى الخوف؛ لكنها أخص منه، وهي من أجل أنواع العبادة وصرفها لغير الله شرك أكبر.

❑ قوله: (قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾...)

● أي: لا تخشوا الناس فإني وليكم واخشوني وحدي؛ فإنه تعالى هو أهل أن يخشى وحده، فأمر تعالى بخشيته وحده، ونهى عن خشية غيره، كما في الآية الثانية: ﴿فَلَا

تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ ﴾، أي: لا تخافوا منهم، ﴿ وَٱخۡشَوۡنِ ﴾؛ أي: خافوا مِنّي (الآية)؛ أي: إلىٰ آخر الآية، أو اقرأ الآية، فدلت الآيتان وما في معناها علىٰ أن الخشية عبادة من أجل العبادات، فصرفها لغير الله شرك أكبر.

قال العلامة العثيمين:

❑ قوله: (الخَوْفِ)

●الخوف هو: الذعر، وهو: انفعال يحصل بتوقع ما فيه هلاك أو ضرر أو أذىٰ، وقد نهىٰ الله سبحانه وتعالىٰ عن خوف أولياء الشيطان وأمر بخوفه وحده.

والخوف ثلاثة أنواع:

النوع الأول: خوف طبيعي كخوف الإنسان من السبع والنار والغرق، وهذا لا يلام عليه العبد،، قال الله تعالىٰ عن موسىٰ عليه الصلاة والسلام: ﴿فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ﴾[القصص:١٨]، لكن إذا كان هذا الخوف كما ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ سببًا لترك واجب أو فعل محرم كان حرامًا ؛ لأن ما كان سببًا لترك واجب أو فعل محرم فهو حرام ودليله قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٧٥﴾[آل عمران:١٧٥].

والخوف من الله تعالىٰ يكون محمودًا، ويكون غير محمود.

فالمحمود: ما كانت غايته أن يحول بينك وبين معصية الله بحيث يحملك علىٰ فعل الواجبات وترك المحرمات، فإذا حصلت هذه الغاية سكن القلب واطمأن وغلب عليه الفرح بنعمة الله، والرجاء لثوابه.

وغير المحمود: ما يحمل العبد علىٰ اليأس من روح الله والقنوط، وحينئذ يتحسر العبد وينكمش وربما يتمادىٰ في المعصية لقوة يأسه.

النوع الثاني: خوف العبادة: أن يخاف أحدًا يتعبد بالخوف له؛ فهذا لا يكون إلا لله تعالىٰ. وصرفه لغير الله تعالىٰ شرك أكبر.

النوع الثالث: خوف السر كأن يخاف صاحب القبر، أو وليًا بعيدًا عنه لا يؤثر فيه لكنه يخافه مخافَةَ سِرٍّ، فهذا أيضًا ذكره العلماء من الشرك.

❑ قوله: (الرَّجَاءِ)

● الرجاء: طمع الإنسان في أمر قريب المنال، وقد يكون في بعيد المنال، تنزيلًا له

منزلة القريب.

والرجاء المتضمن للذل والخضوع لا يكون إلا لله ﷻ، وصرفه لغير الله تعالَىٰ شرك؛ إما أصغر، وإما أكبر بحسب ما يقوم بقلب الراجي. وقد استدل المؤلف بقوله تعالَىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾.

واعلم أن الرجاء المحمود لا يكون إلا لمن عمل بطاعة الله ورجا ثوابها، أو تاب من معصيته ورجا قبول توبته، فأما الرجاء بلا عمل فهو غرور وتمنٍ مذموم.

❑ قوله: (التَّوَكُّلِ)

●التوكل علَىٰ الشيء: الاعتماد عليه. والتوكل علَىٰ الله تعالَىٰ: الاعتماد علَىٰ الله تعالَىٰ كفاية وحسبًا في جلب المنافع ودفع المضار، وهو من تمام الإيمان وعلاماته لقوله تعالَىٰ: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾، وإذا صدق العبد في اعتماده علَىٰ الله تعالَىٰ كفاه الله تعالَىٰ ما أهمه لقوله تعالَىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾؛ أي: كافيه ثم طمأن المتوكل بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾[الطلاق:٣]، فلا يعجزه شيء أراده.

واعلم أن التوكل أنواع:

الأول: التوكل علَىٰ الله تعالَىٰ: وهو من تمام الإيمان وعلامات صدقه،وهو واجب لا يتم الإيمان إلا به، وسبق دليله.

الثاني: توكل السر: بأن يعتمد علَىٰ ميت في جلب منفعة، أو دفع مضرة فهذا شرك أكبر؛ لأنه لا يقع إلا ممن يعتقد أن لهذا الميت تصرفًا سريًا في الكون، ولا فرق بين أن يكون نبيًا، أو وليًا، أو طاغوتًا عدوًا لله تعالَىٰ.

الثالث: التوكل علَىٰ الغير: فيما يتصرف فيه الغير مع الشعور بِعُلُوِّ مرتبته وانحطاط مرتبة المتوكل عنه، مثل أن يعتمد عليه في حصول المعاش ونحوه؛ فهذا نوع من الشرك الأصغر لقوة تعلق القلب به والاعتماد عليه. أما لو اعتمد عليه علَىٰ أنه سبب وأن الله تعالَىٰ هو الذي قدر ذلك علَىٰ يده فإن ذلك لا بأس به، إذا كان للمتوكل عليه أثر صحيح في حصوله.

الرابع: التوكل علَىٰ الغير فيما يتصرف فيه المتوكل بحيث ينيب غيره في أمر تجوز فيه النيابة فهذا لا بأس به بدلالة الكتاب، والسنة، والإجماع فقد قال يعقوب لبنيه: ﴿يَٰبَنِيَّ

﴿ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف:٨٧] ووكل النبي ﷺ علَىٰ الصدقة عمالًا وحفاظًا، ووكل في إثبات الحدود وإقامتها، ووكل علي بن أبي طالب رضي الله عنه في هديه في حجة الوداع أن يتصدق بجلودها وجلالها، وأن ينحر ما بقي من المئة بعد أن نحر ﷺ بيده ثلاثًا وستين. وأما الإجماع علَىٰ جواز ذلك فمعلوم من حيث الجملة.

❑ قوله: (الرَّغْبَة)

● محبة الوصول إلَىٰ الشيء المحبوب.

❑ قوله: (الرَّهْبَة)

● الخوف المثمر للهرب من المخوف؛ فهي خوف مقرون بعمل.

❑ قوله: (الْخُشُوع)

● الذل والتطامن لعظمة الله بحيث يستسلم لقضائه الكوني والشرعي.

❑ قوله: (﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠﴾)

● في هذه الآية الكريمة وصف الله تعالَىٰ الخُلَّص من عباده بأنهم يدعون الله تعالَىٰ رغبًا ورهبًا مع الخشوع له، والدعاء هنا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة، فهم يدعون الله رغبة فيما عنده وطمعًا في ثوابه مع خوفهم من عقابه وآثار ذنوبهم، والمؤمن ينبغي أن يسعىٰ إلَىٰ الله تعالَىٰ بين الخوف والرجاء، ويغلب الرجاء في جانب الطاعة لينشط عليها ويؤمل قبولها، ويغلب الخوف إذا هم بالمعصية ليهرب منها وينجو من عقابها.

وقال بعض العلماء: يغلب جانب الرجاء في حال المرض وجانب الخوف في حال الصحة؛ لأن المريض منكسر ضعيف النفس، وعسىٰ أن يكون قد اقترب أجله فيموت وهو يحسن الظن بالله ﷻ، وفي حال الصحة يكون نشيطًا مؤملًا طول البقاء فيحمله ذلك علَىٰ الأشر والبطر فيغلب جانب الخوف ليسلم من ذلك.

وقيل: يكون رجاؤه وخوفه واحدًا سواء؛ لئلا يحمله الرجاء علَىٰ الأمن من مكر الله، والخوف علَىٰ اليأس من رحمة الله، وكلاهما قبيح مهلك لصاحبه.

❑ قوله: (الخَشْيَة)

● الخشية: هي الخوف المبني علَىٰ العلم بعظمة من يخشاه وكمال سلطانه؛ لقول الله تعالَىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨]؛ أي: العلماء بعظمته وكمال

سلطانه فهي أخص من الخوف، ويتضح الفرق بينهما بالمثال؛ فإذا خفت من شخص لا تدري هل هو قادر عليك أم لا فهذا خوف، وإذا خفت من شخص تعلم أنه قادر عليك فهذه خشية. ويقال في أقسام أحكام الخشية ما يقال في أقسام أحكام الخوف.

قال العلامة الفوزان:

قوله: (وَدَلِيلُ الخَوْفِ)

الخوف نوع من أنواع العبادة وهو عبادة قلبية، وكذلك، الخوف، والخشية، والرغبة، والرهبة، والرجاء، والتوكل؛ كل هذه عبادات قلبية.

والخوف: هو توقع المكروه، وهو نوعان:

خوف العبادة، والخوف الطبيعي.

النوع الأول: خوف العبادة، هذا صرفه لغير الله شرك، وذلك بأن يخاف غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، كأن يخاف أحدًا أن يمرضه، أو أن يقبض روحه، أو يميت ولده، كما يفعل كثير من الجهال، يخافون على حمل زوجاتهم وعلى أولادهم من الجن، يخافون من السحرة، أو من الموتى، فيعملون أعمالًا شركية لأجل أن يتخلصوا من هذا الخوف، فهذا لا يقدر عليه إلا الله، الأمراض والموت والرزق وقطع الأجل، هذه أمور لا يقدر عليها إلا الله ﷻ.

كذلك إنزال البركة أو غير ذلك، هذه أمور لا تكون إلا من الله ﷻ فإذا خاف أحدًا في شيء لا يقدر عليه إلا الله فهذا شرك أكبر؛ لأنه صرف نوعًا من أنواع العبادة لغير الله ﷻ؛ كالذين يخافون من القبور، ومن الأضرحة، ومن الجن، ومن الشياطين؛ أن تمسهم بسوء أو أن تنزل بهم ضررًا، فيذهبون يتقربون إلى هذه الأشياء لدفع ضررها أو خوفًا منها، هذا شرك أكبر، يقول: أخاف إن لم أذبح له؛ أن يصيبني، أو يصيب أولادي؛ أو مالي، أو ما أشبه ذلك، كما قال قوم هود: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾[هود:٥٤] يهددونه بآلهتهم ويخوفونه بآلهتهم ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾[هود:٥٤-٥٦] هذا هو التوحيد، تحداهم كلهم هم وآلهتهم.

﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥﴾ لا تمهلوني بل من الآن فكيدوني، ولم يقدروا

عليه بشيء، بل نصره الله عليهم.

فالذي يخاف من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، هذا يكون قد أشرك الشرك الأكبر، وهذا يسمىٰ خوف العبادة.

وخوف الشرك كثير في الناس، يخافون من القبور أو من الأولياء، يخافون من الشيطان، يخافون من الجن؛ ولذلك يقومون بتقديم القربات لهم، يقدمون لهم الذبائح والنذور والأطعمة وغير ذلك من النقود يلقونها علىٰ أضرحتهم من أجل أن يسلموا من شرهم أو ينالوا من خيرهم، فهذا هو خوف العبادة.

النوع الثاني: الخوف الطبيعي: وهو أن تخاف من شيء ظاهر يقدر علىٰ ما تخافه منه، كأن تخاف من الحية، أو العقرب، أو من العدو، هذه أمور ظاهرة ومعروفة، فالخوف منها لا يسمىٰ شركًا هذا خوف طبيعي من شيء ظاهر معروف؛ لأنك تخاف من سبب ظاهر ومطلوب الوقاية منه، والحذر منه، تأخذ السلاح، تأخذ العصا لقتل الحية والعقرب وقتل السبع؛ لأن هذه أمور محسوسة، وفيها ضرر معلوم، فإذا خفت منها فهذا لا يسمىٰ شركًا بل يسمىٰ خوفًا طبيعيًا.

ولهذا قال الله في موسىٰ عليه السلام: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا﴾ [القصص: ٢١] أي: من البلد ﴿خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ٢١] خائفًا من أعدائه؛ لأنه قتل منهم نفسًا.

وهرب -عليه الصلاة والسلام- إلىٰ مَدْيَنَ، وكان يترقب ويخشىٰ أن يلحقوه، فهذا خوف طبيعي، لكن تَعَلُّم الإنسان أن يعتصم بالله ﷻ ويأخذ بالأسباب التي تدفع عنه الضرر، ويعتمد علىٰ الله ﷻ ويتوكل علىٰ الله.

قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾، هذه الآية في سورة آل عمران في قصة النبي ﷺ مع المشركين يوم أحد لما توعدهم المشركون، وقالوا: نرجع إليهم ونستأصلهم فالله -جل وعلا- يقول: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾؛ أي: أن هذا التهديد وهذا الوعيد إنما هو من الشيطان؛ أي: يخوفكم أولياءه أو يخوف من انقاد له من الناس وخاف منه، فإنه يتسلط عليهم.

قوله: (وَدَلِيلُ الرَّجَاءِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾)

● قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا﴾؛ يعني: يطمع في ثواب الله ﷻ ورؤيته عيانًا يوم القيامة،

من كان يطمع في أن يرى الله عيانًا يوم القيامة فليعمل عملًا صالحًا.

يأتي بالسبب الذي يؤهله لحصول هذا المطلوب، وهو الثواب بدخول الجنة والنجاة من النار، والنظر إلى وجه الله؛ لأن هذا متلازم، لأن من دخل الجنة فإنه يرى الله ﷻ. ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾، هذا يدل على أن الرجاء وحده لا يكفي، لابد من العمل.

أما أنك ترجو الله؛ ولكنك لا تعمل فهذا تعطيل للسبب، فالرجاء المحمود هو الذي يكون معه عمل صالح، أما الرجاء غير المحمود فهو الرجاء الذي ليس معه عمل صالح.

والعمل الصالح ما توفر فيه شرطان:

الأول: الإخلاص له ﷻ.

الثاني: المتابعة للرسول ﷺ.

فالعمل لا يكون صالحًا إلا إذا توفر فيه هذان الشرطان: أن يكون خالصًا لوجه الله ليس فيه شرك، وأن يكون صوابًا على سنة رسول الله ﷺ ليس فيه بدعة، فإذا توفر فيه الشرطان فهو صالح، وإن اختل فيه شرط فإنه يكون عملًا فاسدًا لا ينفع صاحبه.

فالعمل الذي فيه شرك يرد على صاحبه، كذلك العمل الذي فيه بدعة يرد على صاحبه، قال ﷺ: «من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد»(٨٠)؛ فهذه الآية فيها الرجاء وأنه عبادة الله ﷻ وفيها أن الرجاء لا يصح إلا مع العمل الصالح.

❑قوله: (وَدَلِيلُ التَّوَكُّلِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٢٣﴾)

●التوكل: هو التفويض والاعتماد على الله سبحانه وتعالى، وتفويض الأمور إليه - سبحانه وتعالى - هذا هو التوكل، وهو من أعظم أنواع العبادة؛ ولهذا قال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٢٣﴾،قدم الجار والمجرور على العامل ليفيد الحصر.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾،أي: عليه لا على غيره، ثم قال: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، فجعل من شرط الإيمان التوكل على الله سبحانه وتعالى، ودل على أن من لم يتوكل على الله فليس بمؤمن، فالتوكل عبادة عظيمة، فالمؤمن دائمًا يتوكل على الله، ويعتمد على الله ﷻ والله من أسمائه الوكيل؛ أي: الموكول إليه أمور عباده سبحانه وتعالى، فالتوكل لا يكون إلا على الله، ولا يجوز أن يقول: توكلت على فلان؛ لأن التوكل عبادة، والعبادة لا تكون إلا لله.

---

(٨٠)سبق تخريجه.

أما إذا أسندت إلى أحد من الخلق تصرفًا، فهذا لا يسمى توكلًا إنما يسمى توكيلًا، والوكالة معروفة أنك توكل أحدًا يقضي لك حاجة، وقد وكل النبي ﷺ من ينوبون عنه في بعض الأعمال، فالتوكيل غير التوكل، فالتوكل: عبادة لا يكون إلا لله، ولا يجوز أن تقول: توكلت على فلان، وإنما تقول وكَّلتُ فلانًا.

ومع هذا أنت توكله ولا تتوكل عليه، وإنما تتوكل على الله سبحانه وتعالى، فلاحظوا الفرق بين الأمرين التوكل والتوكيل.

ومن صفات المؤمنين ما ذكره الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾[الأنفال:٢] هذه من صفات المؤمنين، فالتوكل عبادة عظيمة لا تكون إلا لله ﷻ؛ لأنه هو القادر على كل شيء، وهو المالك لكل شيء، وهو الذي يقدر أن يحقق لك مطلوبك، أما المخلوق فإنه قد لا يقدر أن يحقق لك مطلوبك، فإنك توكله في قضاء شيء من الأمور؛ لكن تتوكل على الله في حصول ذلك الشيء.

ثم -أيضًا - لنعلم أن التوكل لا ينافي الأخذ بالأسباب، فيجمع المسلم بين التوكل على الله والأخذ بالأسباب، ولا تنافي بينهما، فأنت تعمل الأسباب التي أُمِرتَ بعملها؛ ولكن لا تعتمد على الأسباب، وإنما تعتمد على الله، أنت تزرع الزرعَ في الأرض، هذا سبب، ولكن لا تعتمد على زرعك وفعلك، بل اعتمد على الله في نمو هذا الزرع وتثميره وحمايته وإصلاحه؛ ولهذا يقول: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝٦٤﴾[الواقعة:٦٣-٦٤] فالزارع الحقيقي هو الله أما أنت فقد فعلت سببًا فقط قد ينتج هذا الزرع وينبت وقد لا ينتج، وإذا نبت قد يصلح وقد لا يصلح، قد يصاب بآفة، فيذهب.

قوله: (ودَلِيلُ الرَّغْبَةِ والرَّهْبَةِ والْخُشُوعِ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا﴾)

●الرغبة: هي طلب الشيء المحمود.

الرهبة: هي الخوف من الشيء المرهوب، قال تعالى: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ۝٤٠﴾[البقرة:٤٠] وهي نوع من الخوف، الرهبة والخوف بمعنى واحد.

الخشوع: نوع من التذلل لله ﷻ، والخضوع والذل بين يديه -سبحانه وتعالى - وهو

من أعظم مقامات العبادة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ﴾الضمير يرجع للأنبياء؛ لأن سورة الأنبياء قد ذكر الله قصص الأنبياء فيها ثم قال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ فقوله تعالى: ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أي: يتسابقون إليها، ويبادرون إليها، هذه صفة الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- لا يتكاسلون ولا يتعاجزون، وإنما يسارعون في فعل الخيرات ويتسابقون إليها.

قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا﴾ أي: طمعًا لما عند الله ﷻ طمعًا في حصول المطلوب.

قوله تعالى: ﴿وَرَهَبًا﴾؛ أي: خوفًا منا، فيدعون الله أن يرحمهم، ويدعونه ألا يعذبهم، وألا يؤاخذهم، وألا يعاقبهم، فهم يطمعون في رحمة الله ويخافون من عذابه، كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء:٥٧]

فهم يدعون الله خوفًا منه، ويدعونه -أيضًا- طمعًا فيما عنده، يدعون الله أن يقدر لهم الخير ويدفع عنهم الشر ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾؛ أي: خاضعين متذللين متواضعين لله ﷻ، فجمعوا بين الصفات الثلاث: الرغبة والرهبة والخشوع، هذه صفات الأنبياء صلى الله عليهم وسلم، وهذه الأنواع الثلاثة من أنواع العبادة لله ﷻ.

وفيها رد على الصوفية الذين يقولون: نحن لا نعبد الله رغبة في ثوابه ولا خوفًا من عقابه، وإنما نعبده محبة له فقط، هذا كلام باطل؛ لأن الأنبياء يدعون الله رغبًا ورهبًا وهم أكمل الخلق.

▭قوله: (ودَلِيلُ الخَشْيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾)

●الخشية نوع من الخوف، وهي أخص من الخوف، وقيل: الخشية: خوف يشوبه تعظيم، قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ أمر الله سبحانه وتعالى بخشيته وحده.

وقال تعالى في الآية: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [البقرة:١٥٠] فأمر بخشيته سبحانه وتعالى، وقال في صفة المصلين: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [المعارج:٢٧] أي: خائفون، هؤلاء خواص الخلق

يخافون الله ﷻ.

وقال عن الملائكة: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝﴾[النحل:٥٠] خواص الخلق من الملائكة والرسل والأولياء والصالحين يكونون على غاية عظيمة من خشية الله ﷻ والخوف منه - سبحانه وتعالى - والرهبة منه، فالرهبة والخوف والخشية، كلها بمعنى واحد وإن كان بعضها أخص من بعض.

إلا أنها يجمعها الخوف من الله سبحانه وتعالى، وهذه من صفات الأنبياء وعباد الله الصالحين، وهي أنواع عظيمة من أنواع العبادة، وهي من أعمال القلوب التي لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

▭ قوله: (وَدَلِيلُ الخَوْفِ...)

● يعني: دليل كون الخوف عبادة قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝﴾، هذا الدليل فيه أن الخوف من غير الله منهي عنه، وأن الخوف من الله جل وعلا مأمور به، فقوله جل وعلا: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾، نهي عن الخوف من غير الله، ثم قال: ﴿وَخَافُونِ﴾، وهذا أمر بالخوف من الله جل وعلا، وما دام أن الله جل وعلا أمر بالخوف منه فإنه يصدق على الخوف إذن تعريف العبادة؛ لأنه إذ أمر بالخوف منه فمعنى ذلك أن الخوف منه محبوب له مرضي عنده، فيصدق عليه تعريف شيخ الإسلام للعبادة: أنها اسمٌ جامعٌ لكل ما يحبه الله ويرضاه، وما دام أنه أمر به فمعناه أن الله جل وعلا يحبه؛ لأنه إنما يأمر شرعًا بما يحبه ويرضاه، وفي هذه الآية دليل علي النوع الثاني؛ وهو أن الخوف يجب أن يفرد به الله جل وعلا، قال هاهنا ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝﴾، فجعل حصول الإيمان مشروطًا بالخوف منه جل وعلا، قال: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝﴾؛ إن كنتم مؤمنين فخافوني ولا تخافوهم، وهذا فيه دليل على إفراد الله جل وعلا بهذا النوع من الخوف، والخوف الذي يجب إفراد الله جل وعلا به -ومن لم يفرد الله جل وعلا به فهو مشرك كافر- هو نوع من أنواع الخوف وليس كل أنواع الخوف وهو خوف السر؛ وهو أن يخاف غير الله جل وعلا بما لا يقدر عليه إلا الله جل وعلا، وهو المسمى عند العلماء خوف السر؛ وهو أن يخاف أن يصيبه هذا المخوف منه، أن يصيبه ذلك الشيء بشيء في نفسه -

يعني: في نفس ذلك الخائف- كما يصيبه الله جل وعلا بأنواع المصائب من غير أسباب ظاهرة ولا شيء يمكن الاحتراز منه، فإن الله جل وعلا له الملكوت كله، وله الملك وهو على كل شيء قدير، بيده تصريف الأمر، يرسل ما يشاء من الخير، و يمسك ما يشاء من الخير، يرسل المصائب، وكل ذلك دون أسباب يعلمها العبد، وقد يكون لبعضها أسباب، لكن هو في الجملة من دون أسباب يمكن للعبد أن يعلمها، يموت هذا، ينقضي عمر ذاك، هذا يموت صغيرًا، ذاك يموت كبيرًا، هذا يأتيه مرض، وذاك يصيبه بلاء في ماله ونحو ذلك، الذي يفعل هذه الأشياء هو الله جل وعلا، فيُخاف من الله جل وعلا خوف السر أن يصيب العبد بشيء من العذاب في الدنيا أو في الآخرة، المشركون يخافون آلهتهم خوف السر؛ أن يصيبهم ذلك الإله، ذلك السيد، ذلك الولي، أن يصيبهم بشيء كما يصيبهم الله جل وعلا بالأشياء، فيقع في قلوبهم الخوف من تلك الآلهة من جنس الخوف الذي يكون من الله جل وعلا، يوضح ذلك أن عُبّاد القبور وعباد الأضرحة وعباد الأولياء يخافون أشد الخوف من الولي أن يصيبهم بشيء إذا تُنُقِّص الولي، أو إذا لم يُقَم بحقه.

وقد حُكِيَ لي في ذلك حكاية من أحد طلبة العلم، أنه كان مجتازًا مرة مع سائق سيارة أجرة ببلدة (طنطا) المعروفة في مصر التي فيها قبر البدوي؛ والبدوي عندهم معظم، وله من الأوصاف ما لله جل وعلا؛ يعني: يعطونه من الأوصاف بعض ما لله جل وعلا، هم اجتازوا بالبلدة فأتى صغير أو متوسط في السن يسأل هذا؛ يسأله صَدقة، فأعطاه شيئًا، فحلف له بالبدوي أن يعطيه أكثر، وكان من العادة عندهم أنه من حلف له مثل ذلك فلا يمكن أن يرد، فلابد أن يعطي؛ لأنه يخاف أن لا يقيم لذلك الولي حقه، فقال هذا -وهو من طلبة العلم والمتحققين بالتوحيد- فقال: هات ما أعطيتك. فظن ذلك أنه يريد أن يعطيه زيادة، فأخذ ما أعطاه وقال: لأنك أقسمت بالبدوي فلن أعطيك شيئًا؛ لأن القسم بغير الله شرك.

هذا مثال للتوضيح ليس من باب القصص لكنه يُوضِّح المراد من خوف السر وضوحًا تامًّا.

سائق الأجرة علاهُ الخوف في وجهه، ومضى سائقًا وهو يقول: اسْتُر اسْتُر، اسْتُر اسْتُر؛ فسأله ذاك قال: تخاطب من؟ قال: أنت أهنت البدوي، وأنا أخاطبه -أي أدعوه-

بأن يستر، فإن لم...، فإننا نستحق مصيبة، وسيرسل علينا البدوي مصيبة؛ لأننا أهناه. وكان في قلبه خوف بحيث أنه مشى أكثر من مئة كيلو ولم يتكلم إلا باستر، استر. يقول: فلما وصلنا سالمين معافين توجهت له فقلت: يا فلان أين ما زعمت؟ وأين ما ذكرت من أن هذا الإله الذي تألهونه أنه سيفعل ويفعل؟ فتنفس الصعداء وقال: أصل السيد البدوي حليم!

هذه الحالة هي حالة تعلق القلب بغير الله، الذي يكون عند الخرافيين، خوف من غير الله؛ خوف السر، البدوي ميت في قبره، يخشى أن يرسل إليه أحد يقصمه، أو مصيبة في سيارته أو في نفسه، هذا هو خوف السر، وهذا هو الذي جاء في مثل قول الله جل وعلا: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾[الأنعام:٨١]، قال: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ﴾؛ لأنهم يخافون آلهتهم؛ لهذا تجد قلوبهم معلقة بآلهتهم لأنهم يخافونهم خوف السر، وقال جل وعلا مخبرًا عن قول قوم هود حيث قالوا لهود: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾، فهم خافوا الآلهة، عندهم أن الآلهة تصيب بسوء، وكان الواجب -على حد زعمهم- أن يخاف هذا من الآلهة أن تصيبه بسوء، فقالوا له: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾[هود:٥٤]؛ يعني: بمصيبة في نفسك اختل عقلك، أو اختلت جوارحك أو نحو ذلك، هذا النوع من الخوف هو الذي إذا صرف لغير الله جل وعلا فهو شرك أكبر.

هناك أنواع من الخوف: خوفٌ جائزٌ وهو الخوف الطبيعي: أن يخاف من الأسباب العادية التي جعل الله فيها ما يخاف ابن آدم منه، أن يخاف من النار أن تحرقه، يخاف من السبع أن يعدو عليه، من العقرب أن تلدغه، يخاف من ذي سلطان غشوم أن يعتدي عليه ونحو ذلك، هذا النوع خوف طبيعي من الأشياء، لا يُنقص الإيمان؛ لأنه مما جبل الله جل وعلا الخلق عليه.

هناك نوع خوفٍ محرمٌ، هذا القسم الثالث؛ لأن الخوف أقسام، قسم منه شركي؛ شرك أكبر، وقسم منه جائز، وقسم محرم وهو أن يخاف من الخلق في أداء واجب من واجبات الله، يخاف من الخلق في أداء الصلاة، يخاف إن قام للصلاة من مجلس يقطنه

كثيرون أن يعاب، فإذا خاف هذا الخوف، فإن هذا الخوف يكون محرمًا، وفي مثله نزل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾[آل عمران:١٧٣]، وقوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾؛لأن الواجب أن يُجَاهَدوا، فإذا خافوهم عن أداء ذلك الواجب، خوف ليس بمأذون به في الشرع وإنما هو من تَسْوِيل الشيطان كما قال: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾، هذا النوع من الخوف محرم، لا يجوز؛ لأن فيه تفويت فريضة من فرائض الله لأجل الخوف، خاف من غير الله لكنه ليس خوف السر، وإنما هو خوف ظاهر، وهذا محرم من المحرمات.

هذه أقسام ثلاثة مشهورة، وبها تجمع مسائل أقسام الخوف، والشرك منه وما ليس بشركي منه، وهذه المسألة مما يكثر فيها اضطراب طلاب العلم؛ لأنه ليس عندهم ضبط، للخوف الذي يحصل به إن صُرف لغير الله جل وعلا؛ الشرك الذي يوصف به من قام به أنه مشرك، أيُّ خوف هذا؟ هو خوف السِّر، ووصفه وضبط حاله هو ما ذكرته لك من قبل، فكن منه على ذكر وبينة في فهمك لهذه المسألة العظيمة.

الخوف عبادة قلبية موردها القلب، قد يظهر أثره على الجوارح.

ـــ قوله: (وَدَلِيلُ الرَّجَاءِ...)

● ذكر بعد ذلك: دليلُ الرَّجاءِ، وهو قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾، الرجاء أيضًا عبادة قلبية، حقيقتها الطمع في الحصول على شيء يرجو أن يحصل عليه.

أنواع الرجاء:

النوع الأول: رجاءطبيعي: فإن كان الرجاء لشيء ممن يملك ذلك الشيء فإن هذا رجاءٌ طبيعي؛ أرجو أن تحضر؛ لأنه يمكنك أن تحضر، أرجوك أن تفعل، يمكنك أن تفعل، هذا الرجاء ليس هو رجاء العبادة.

النوع الثاني: هو رجاء العبادة: وهو أن يطمع في شيء لا يملكه إلا الله جل وعلا، كأن يطمع في شفائه من مرض، يرجو أن يشفى، يرجو أن يدخل الجنة وينجو من النار، يرجو ألَّا يصابَ بمصيبةٍ أونحو ذلك، هذه أنواع من الرجاء، لا يمكن أن تُرجى وتُطلب وتُؤمل إلا من الله جل وعلا، وهذا هو معنى رجاء العبادة.

فالرجاء منه ما هو رجاء عبادة ومنه ما هو رجاء ليس من العبادة، والمقصود هاهنا هو رجاء العبادة.

قال جل وعلا: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ۝١١٠﴾، هذا النوع من الرجاء امتدح الله جل وعلا من قام به، قال: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾، فدل على أن هذا الرجاء ممدوحٌ مَنْ رجاهُ، وإذا كان ممدوحًا قد مدحه الله جل وعلا؛ فهو مَرضِيٌّ عند الله جل وعلا، فيصدق عليه حَدُّ العبادة من أنها: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، وهذا -من نص هذه الآية- داخل فيما يرضاه الله جل وعلا؛ لأنه أثنى على من قام به ذلك الرجاء، وقوله هنا: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾، اللقاء فُسر: بالملاقاة، وفُسر بالمعاينة، وفُسر بالرؤية؛ رؤية الله جل وعلا، ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾: لملاقاة الله جل وعلا والرجوع إليه، أو فمن كان يرجو رؤية ربه؛ لأن اللقاء يحتمل هذا وذاك، وهما تفسيران مشهوران عن السلف.

❑ قوله: (وَدَلِيلُ التَّوَكُّلِ...)

● التوكل -أيضًا- من العبادات القلبية، وحقيقته أنه يجمع شيئين:

الأول: تفويض الأمر إلى الله جل وعلا.

الثاني: عدم رؤية السبب بعد عمله.

والتفويض وعدم رؤية السبب شيئان قلبيان، فالعبد المؤمن إذا فعل السبب، وهو جزء بما تحصل به حقيقة التوكل، فإنه لا يلتفت لهذا السبب؛ لأنه يعلم أن هذا السبب لا يُحَصِّل المقصود، ولا يحصل المراد به وحده، وإنما قد يحصل المراد به وقد لا يحصل؛ لأن حصول المرادات يكون بأشياء:

- منها: السبب.
- ومنها: صلاحية المحل.
- ومنها: خلو الأمر من المضاد.

فثَمَّ ثلاثة أشياء تحصل بها المرادات:

أول سبب: نعلم بمَا خلق الله جل وعلا خلقه عليه أن هذا السبب يُنتج المسبَّب؛ النتيجة.

الثاني: صلاحية المحل لقيام الأمر المراد به.

الثالث: خلو الأمر أو المحل من المضاد له.

مثاله الدواء؛ والنبيﷺ أمر بالدواء فقال: «تداووا عباد الله»(٨١) فالمسلم الموحد يتناول الدواء باعتباره سببًا للشفاء، لكنه ليس سببًا أو ليس علة وحيدة، بل لا يحصل الشفاء بهذا وحده، وإنما لابد من أشياء أُخر، منها: أن يكون المحل الذي هو داخل الإنسان -باطن متناول الدواء- صالحًا لقبول ذلك الدواء، وهذا معنى قولي: أن يكون المحل صالحًا.

أيضًا من العلل التي يكمل بها المراد: أن يكون هذاالسبب الذي عمل خاليًا من المعارض له، قد يتناول شيء وفي البدن ما يفسد ذلك الشيء، فلا يصل إلى المقصود.

- ومنها -وهو الأعظم-: أن يأذن الله جل وعلا بأن يكون السبب مؤثرًا منتجًا للمسبّب، وهذا يدلك علي أن فعل السبب ليس كافيًا في حصول المراد.

من الأمثلة التي نُمَثِّلُ بها كثيرًا في هذا الباب غير مثال الدواء: رجل رام سفرًا على سيارة، فأعد العدة، وفعل أسباب السلامة جميعًا؛ من رعاية مثلا -للكابحات-: الفرامل، ومن رعاية للإطارات ونحو ذلك، فعل أسباب السلامة جميعًا، وسار على مهل، هذا كل ما يمكنه أن يفعله، لكن هل هذا وحده يحصل به السلامة؟ لا يحصل السلامة بهذا وحده، فهناك من قد يكون معتديًا عليه، تأتيه سيارة كبيرة، هو قد بذل أسباب السلامة، وتأتيه في طريقه، ويصاب بالمصيبة من جرّاء ذلك، فهو فعل ما يمكنه أن يفعله، لكن هناك أشياء بيد الله جل وعلا تتم السلامة باجتماعها، وليس بهذا السبب الوحيد الذي عمله العبد، لا يجوز للعبد أن يتخلى عن بذل السبب؛ لأن بذل السبب من تمام التوكل ولكن لا يُلتفت إلى السبب؛ ولهذا قال علماؤنا -علماء التوحيد من أئمة السلف ومن بعدهم-: الالتفات إلى الأسباب قدح في التوكل، الالتفات إلى الأسبابِ قدح في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسبابًا قدح في العقل، إذا التفت القلب إلى السبب وأنه ينتج المسبب هذا قدح في التوحيد.

---

(٨١) أخرجه ابن ماجه (٣٤٣٦)، وابن حبان (٦٠٦١/إحسان)، وغيرهما من حديث أسامة بن شريك ﷺ، وصححه العلامة الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

لهذا نقول: التوكل هو ما يجمع شيئين؛ الأول: تفويض الأمر إلى الله جل وعلا؛ لأن الله هو الذي بيده الملك. الثاني: عدم رؤية السبب الذي فُعل.

إذن لابد من فعل السبب، ويقوم بالقلب عدم رؤية لهذا السبب أنه ينتج المقصود وحده، وإنما يعلم أنه جزء مما ينتج المقصود، والباقي على الله جل وعلا ثم يفوض الأمر لله جل وعلا، هذا ينتج لك أن التوكل عبادة قلبية محضة، ولهذا صار صرفه لغير الله جل وعلا شرك، بمعنى أن يفوض الأمر لغير الله جل وعلا، كما يقول بعض مشايخ الصوفية لبعض مريديهم: إذا أُصبت بمصيبة فاذكرني فإني أخلِّصك منها. أذكرني؛ يقم بالقلب ذلك المتذكَّر، ذلك المذكور، وإذا قام به أنه يخلصه من ذلك الشيء، فمعناه أنه فوض الأمر إليه، وصار مُتوَكلًا على غير الله جل وعلا، وهذا هو حقيقة ما يفعله المشركون في الجاهلية ومن شابههم ممن بعدهم، ودليل التوكل قوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣ ﴾، ففي هذه الآية الأمر بالتوكل، وما دام أنه أمر به فهو عبادة؛ لأن العبادة ما أُمر به من غير اقتضاء عقلي ولا اطراد عرفي، وما دام أنه أمر به فهو راض له أن يُتوكل عليه، وهذا معناه كونه عبادة، ثم أيضا في هذا الدليل أنه جعل التوكل شرطَ الإيمان، فقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾ فمعنى ذلك أنه لا يحصل الإيمان إلا بالتوكل على الله وحده. أيضًا هنا قدم الجارّ والمجرور فقال: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾، وتقديم ما حقه التأخير في علم المعاني يفيد الحصر والقصر، أو يفيد الاختصاص، وهنا يفيدهما؛ يفيد الاختصاص، ويفيد القصر والحصر، فمعنى هذه الآية: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ ﴾: أحصروا تَوَكُلكُم في الله، اقصروا توكلكم على الله إن كنتم مؤمنين، خُصُّوا الله بتوكلكم إن كنتم مؤمنين، هذا الدليل مركب من نوعي الدليل الذَين ذكرتهما لك من قبل، النوع الأول: إثبات أن هذا الأمر عبادة، الثاني: إثبات أن هذه العبادة لايجوز صرفها لغير الله جل وعلا إلا بدليل خاص، فهو المستفاد من قوله ﴿ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾وكذلك في قوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ ﴾؛ هذا فيها الثناء على من يتوكل على الله، ففيها الدليل على أن التوكل على الله عمل يحبه الله ويرضاه، ومعنى ذلك أنه من أنواع العبادات، هذا هو توكل العبادة.

وهناك شيء آخر ليس من توكل العبادة، وهو التوكيل وهو المعروف في باب الوكالة

عند الفقهاء، وكلت فلانًا في أمري، (ووكل علي) كما جاء في الحديث: «ووكل علي عقيلا في خصومة»[٨٢] هذا من باب الوكالة، وهو شيء آخر غير التوكل، التوكيل والوكالة باب آخر، أما التوكل فهو عبادة قلبية، يضبط ذلك أن الوكالة فيها المعنى الظاهر، فيها شيء ظاهر، أما التوكل فهو عمل قلبي.

على كل حال، لهذه الجمل مزيد تفصيل؛ لكن المقام يضيق عن تفصيلات ما يتعلق بهذه الأنواع من العبادات، وتفصيلها في كتاب التوحيد؛ لأن كل واحدة منها عُقد لها باب في كتاب التوحيد.

❑ قوله: (ودَلِيلُ الرَّغْبَةِ والرَّهْبَةِ والْخُشُوعِ قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾)

● هذه الآية فيها المسارعة للخيرات، الدعاء رغبًا ورهبًا ووصفُهم بأن حالهم أنهم كانوا خاشعين لله، ففيها أنواع من العبادات، خصّ الشيخ منها بالاستدلال الرغبة والرهبة والخشوع، ووجه الاستدلال من الآية أن الله جل وعلا أثنى على الأنبياء والمرسلين الذين ذكرهم في سورة الأنبياء، -التي هذه الآية في أواخرها- بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾؛ يعني: ويدعوننا راغبين، ويدعوننا ذوي رغبة وذوي رهبة وذوي خشوع، وهذا في مقام الثناء على الأنبياء والمرسلين، وما دام أنه أثنى عليهم فإن هذه العبادات من العبادات المرضية له فتدخل في حد العبادة.

الرغبة رجاء خاص، والرهبة خوف خاص وَوجَلٌ خاص، والخشوع هو التطامن والذل، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾[فصلت:٣٩]، يعني: ليس فيها حركة للنبات، ليس فيها حياة؛ متطامنة ذليلة ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾[فصلت:٣٩]، فالخشوع سكون فيه ذل وخضوع، هذا الخشوع الذي هو نوع من أنواع العبادة، وتلك الرغبة وتلك الرهبة من العبادات القلبية، التي يظهر أثرها على الجوارح.

لو تأملت أو رأيت حال المشركين عند آلهتهم، حال عباد القبور -مثلًا- عند

(٨٢) ذكره محمد بن الحسن الشيباني في المبسوط، كتاب الوكالة باب الشهادة في الوكالة، وأبو إسحاق الشيرازي، كتاب الوكالة.

أوثانهم، عند المَشَاهِد، لوجدت أنهم في خشوع، ليسوا عليه في مساجد الله التي ليس فيها قبر ولا قبة، وهذا مُشاهد، فإنه يكون عنده وَجَلٌ خاص، رهبة، ومزيد رجاء هو الرغبة، وخشوع وتطامن وعدم حركة وسكون في الجوارح والأنفاس وحتى في الألفاظ، في الرؤية، وهذا كله مما لا يسوغ أن يكون إلا لله؛ لأن المسلم في صلاته إذا صلى فإنه يكون يقوم به الرغبة، يقوم به الرهبة المستفادة من قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾، ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ تفتح له باب الرغبات وباب الرجاء، و ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ يفتح عليه باب الرغبة، باب الخوف من الله جل وعلا، فتأتي عبادته حال كونه راغبًا راهبًا، والخشوع سكونه وخضوعه وعدم حراكه في صوته وفي عمله، هذا لله جل وعلا في عبادة الصلاة، والخشوع يكون بالصوت، ويكون بالأعمال كما قال جل وعلا: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا ۝١٠٨﴾[طه:١٠٨]، فالهمس لا ينافي الخشوع في الصوت، وهذه حال المصلي حين يناجي ربه جل وعلا، فهو في حال رغبة ورجاء، وفي حال رغبة ورهبة، وفي حال خشوع لربه جل وعلا، يزيد هذا في القلب، وربما غلب عليه حتى نال المقامات العالية في تلك العبادة، وربما قلَّ وَضَعُف حتى لم يُكتب من صلاته إلا عشرها أو إلا تسعها، هذا لأنه من أنواع العبادات التي يحبها الله جل وعلا ويرضاها.

فإذن وجه الاستدلال: أن الله جل وعلا أثنى على أولئك الأنبياء، وعلى أولئك المرسلين؛ لأنهم ذوو رغب، وذوو رهب، وذوو خشوع لله جل وعلا، وبالأخص هذا الدليل العام، وبالدليل الخاص في الخشوع وحده، قال هنا: ﴿وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠﴾، وكما قدمت أن الجارّ والمجرور هنا قدم على ما يتعلق به وهو اسم الفاعل (خاشع)؛ لأن الجارّ والمجرور -كما أسلفت لك- يتعلق بالفعل أو ما فيه معنى الفعل فهو اسم الفاعل أو اسم المفعول أو ما أشبهه من مصدر ونحو ذلك، وهنا قال: ﴿وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠﴾أصل سَبْقِ الكلام: كانوا خاشعين لنا. فلما قدم ما حقه التأخير كان ذلك مفيدًا للاختصاص وللحصر وللقصر كما هو معلوم في علم المعاني.

الدرس التاسع:

[دليل: الإنابة. الاستعاذة. الاستغاثة. الذبح. النذر]

وَدَلِيلُ الإِنَابَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾ [الزمر:٥٤]. وَدَلِيلُ الاسْتِعَانَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥]. وَفِي الحَدِيثِ: «إِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ»(٨٣)(٨٤). وَدَلِيلُ الاسْتِعَاذَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ۝١﴾ [الفلق:١]، وقوله تعالى: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ [الناس:١].

وَدَلِيلُ الاسْتِغَاثَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ﴾ الآية [الأنفال:٩].

وَدَلِيلُ الذَّبْحِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ [الأنعام:١٦٢، ١٦٣]. وَمِنَ السُّنَّةِ: «لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ»(٨٥)(٨٦).

وَدَلِيلُ النَّذْرِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا(٨٧) ۝٧﴾ [الإنسان:٧].

الشرح

قال العلامة ابن باز:

قوله: (وَدَلِيلُ الإِنَابَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾).

● وهكذا الإنابة عبادة: قال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾، والإنابة معناها: الرجوع إلى الله، والتوبة إليه، والاستقامة على طاعته، فهذه عبادة لله يجب على الناس أن ينيبوا إلى الله، ويرجعوا إليه، ويتوبوا إليه، ويستقيموا على طاعته.

---

(٨٣) المعنى: إذا أردت طلب المعونة في تحمل المئونة المتعلقة بأمر الدنيا والآخرة فاستعن بالله؛ إذ لا معين سواه، ولا فاتح باب، ولا مانح عطاء إلا إياه، فلا بد من قطع الواسطة في مقام قربه كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، أي: ما نعبد إلا إياك، ولا نستعين إلا بك [الدمشقي].

(٨٤) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد (١/ ٢٩٣)، وصححه العلامة الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

(٨٥) اللعن: البعد عن مظان الرحمة ومواطنها، واللعين والملعون: من حقت عليه اللعنة [الدمشقي].

(٨٦) أخرجه مسلم (١٩٧٨)، وأحمد (١/ ١٠٨)، وغيرهما من حديث علي رضي الله عنه.

(٨٧) أي: منتشرًا عامًا على الناس، نسأل الله حسن الخاتمة [الدمشقي].

❑قوله: (وَدَلِيلُ الاسْتِعَانَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾...)

● وهكذا الاستعانة عبادة كما قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، وفي الحديث: «إذا استعنتَ فاستعنْ بالله»(٨٨)، فيستعين العبد بالله، فتقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك، اللهم أعني على طاعتك، اللهم أَعِنِّي على كل خير، إلى غير هذا، تستعين بالله في كل المهمات.

❑قوله: (وَدَلِيلُ الاستِعَاذَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١﴾)

● وهكذا الاستعاذة عبادة: أن تستعيذ بالله من الشرور، وتلجأ إليه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١﴾، وقوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١﴾، فالاستعاذة بالله من الشيطان، ومن كل مؤذٍ، ومن كل عدوٍ، أمر مأمور به، كما قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾[الأعراف:٢٠٠].

❑قوله: (وَدَلِيلُ الاستِغَاثَةِ...)

●وهكذا الاستغاثة: عبادة أن تستغيث بالله في الشدائد من عدو، أو تطلبه إنزال الغيث المبارك، أو يكشف الضر، كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾.

❑ قوله: (وَدَلِيل الذَّبحِ...)

وهكذا الذبح عبادة: قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾؛ أي: ذبحي، ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٦٢﴾.

❑ قوله: (ودليل النذر...)

وهكذا النذر عبادة: قال تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾[البقرة:٢٧١]، الآية، وقال ﷺ: «مَنْ نَذَرَ أنْ يطيعَ الله فليُطِعْهُ، ومن نذَرَ أنْ يعصِيهِ فلا يعْصِه»(٨٩)، فالنذر عبادة وطاعة لله، إذا فعله الإنسان لزمه الوفاء، والنذر مكروه ؛ لأن فيه التزامًا، وفيه مشقة ؛ ولهذا نهى النبيﷺ عن النذر وقال: «إن النذر لا يأتي بخير»(٩٠)، ولكن إذا نذر طاعة لزمه الوفاء ؛ لقول الرسولﷺ : «مَنْ نذر

---

(٨٨) سبق تخريجه.

(٨٩) أخرجه البخاري (٦٦٩٦)، وأبو داود (٣٢٨٩)، وغيرهما من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٩٠) أخرجه البخاري بنحوه (٦٦٠٨)، ومسلم (١٦٣٩)، وغيرهما من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

أن يطيعَ الله، فليطعه»، فإذا نذر عبادةً من صلاةٍ، أو صومٍ، أو غيرهما؛ لزمه الوفاء لما تقدم.

قال العلامة ابن قاسم:

❑ قوله: (ودَلِيلُ الإِنَابَةِ)

●وأنها من أَجَلِّ أنواع العبادات، وهي التوبة بل أعلىٰ من مقام التوبة؛ فإن التوبة الإقلاع عن الذنب، والندم علىٰ ما فات، والعزم علىٰ أن لا يعود إليه والإنابة تدل علىٰ ذلك، وتدل علىٰ الإقبال علىٰ الله بالعبادات، والإقبال علىٰ الله رجوع عما لا ينبغي بالكلية وقصد إلىٰ ما ينبغي من رضاه.

❑ قوله: (قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ ﴾)

●أي: وأقبلوا إلىٰ ربكم وارجعوا إليه بالطاعة ﴿وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾: أخلصوا له التوحيد ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝﴾ أي: بادروا بالتوبة إلىٰ العمل الصالح قبل حلول النقمة، وأمره تعالىٰ عباده بالإنابة ظاهر في أنها عبادة، وأنه يحبها شرعًا ودينًا، فصرفها لغير الله شرك أكبر.

❑ قوله: (وَدَلِيلُ الاسْتِعَانَةِ)

●وأنها عبادة، بل أجلّ العبادات، وهي تجمع أصلين: الثقة بالله، والاعتماد عليه، قال شيخ الإسلام: تأملت أنفع الدعاء فإذا هو سؤال الله العون علىٰ مرضاته، ثم رأيته في الفاتحة في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾.

❑ قوله: (قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾)

● الدين كله يرجع إلىٰ هذين المعنيين، وسر الخلق والكتب والشرائع والثواب والعقاب يرجع إلىٰ هاتين الكلمتين، وعليهم مدار العبودية والتوحيد، والأول: تبرؤ من الشرك، والثاني: تبرؤ من الحول والقوة، وهذا المعنىٰ في غير آية من كتاب الله، وتقديم المعمول علىٰ العامل يفيد الحصر؛ أي نستعين بك وحدك دون كل من سواك، فهذا النوع أجلّ أنواع العبادة، فصرفه لغير الله شرك أكبر، وكذا قوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي: لا نعبد أحدًا سواك، فالعبادة لله وحده و الاستعانة به وحده جلّ وعلا وتقدّس.

❑ قوله: (وَفِي الحَدِيثِ: «إِذَا استَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ»)

●هذه قطعة من حديث جليل رواه الترمذي وصححه من حديث ابن عباس، أوله:

«احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك»[٩١] أي: احفظ حدوده وأوامره يحفظك حيث توجهت: «وإذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله»، وهذا كأنه منتزع من قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾، وقال تعالى: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾[النساء:٣٢] ولا يحصل للعبد مطلوبه إلا إذا كان سائلا الله مستعينا به وحده، معتمدا عليه في جميع أموره، وفي هذا الحديث حصر الاستعانة بالله وحده دون غيره من الخلق، والدلالة على أنها أجل العبادات، وعليها مدار الدين، فإذا استعان أحد بغير الله فهو مشرك الشرك الأكبر.

❏ قوله: (وَدَلِيلُ الاستِعَاذَةِ)

● وأنها عبادة من أجل أنواع العبادات، والاستعاذة هي: الالتجاء والاعتصام والتحرز وحقيقتها الهرب من شيء تخافه إلى من يعصمك منه والعياذ لدفع المكروه واللياذ لطلب المحبوب، قال الشاعر:

يا من ألوذ به فيما أؤمله ومن أعوذ به فيما أحاذره

لا يجبر الناس عظما أنت كاسره ولا يهيضون عظما أنت جابره.

❏ قوله: (قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝﴾)

● أمر نبيه ﷺ أن يستعيذ بفالق الإصباح من شر جميع المخلوقات، ومن شر الغاسق والحاسد، والفلق: الصبح، وقيل سبب تخصيص المستعيذ به: أن القادر على إزالة هذه الظلمة عن العالم هو القادر أن يدفع عن المستعيذ ما يخافه ويخشاه.

❏ قوله: (قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝﴾)

● أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يستعيذ به من الوسواس الخناس، يعني: الشيطان الجاثم على قلب الإنسان، فإذا ذكر الله خنس، وإذا غفل وسوس، وذكر تعالى ثلاث صفات من صفاته: الربوبية، والملك، والإلهية. وثبت عنه ﷺ: «أن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم»[٩٢]، وأخبر أنه لم يتعوذ متعوذ بمثل هاتين السورتين، والأمر بالاستعاذة به

---

(٩١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد (١/٢٩٣، ٣٠٣)، وغيرهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٩٢) أخرجه مسلم (٢١٧٤)، وأبو داود (٤٧١٩)، وغيرهما من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

تعالىٰ كثير في الكتاب و السنة، منها قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ ﴾[آل عمران:٣٦]، ﴿ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾[البقرة:٦٧]، ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾[النحل:٩٨]، ومن السنة: «أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق»[٩٣]، فدل علىٰ أن الاستعاذة بالله عبادة من أجلّ العبادات فصرفها لغير الله شرك أكبر.

❑ قوله: (وَدَلِيلُ الاستِغَاثَةِ...)

● وأنها عبادة من أجل العبادات وأفضل أنواعها، وهي أخص أنواع الدعاء، فإن دعاء المكروب يقال له: استغاثة، والاستغاثة هي طلب الإغاثة، وهو الإنقاذ من الضيق والشدة، وأكثر ما يقال: غيّاث المستغيثين؛ أي: مدرك عباده في الشدائد إذا دعوه، ومجيبهم ومخلِّصهم؛ فإذا صرفها أحد لغير الله كأن يستغيث بالأصنام أو الأموات أو الغائبين أو نحوهم فهو مشرك كافر.

❑ قوله: (قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾)

● أي: إذ تستجيرون ربكم وتطلبون منه الغوث فاستجاب لكم، وذلك أنه لما كان يوم بدر ونظر رسول الله ﷺ إلىٰ كثرة المشركين جعل يهتف بربه ويناشده، فأمدّه الله بالنصر علىٰ عدوه، فقتلوا وأسروا، وظهر الإسلام، وسمي يوم الفرقان، فدلت الآية علىٰ أن الاستغاثة عبادة فصرفها لغير الله شرك.

❑ قوله: (وَدَلِيلُ الذَّبْحِ...)

● أي: ذبح القربان لله تعالىٰ من الضحايا والهدايا ونحو ذلك، وأنه عبادة من أفضل العبادات وأفضل القربات إلىٰ الله تعالىٰ، والذبح يقال للبقر والغنم، وأما الإبل فالنحر، ويجوز العكس، وعبر بالذبح؛ لأنه الأكثر.

❑ قوله: (قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾)

● أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يعبدون غير الله، ويذبحون لغيره: ﴿ إِنَّ

---

(٩٣) أخرجه مسلم (٢٧٠٩)، وأبو داود (٣٨٩٨)، والترمذي (٣٤٣٧)، وغيرهم، من حديث خولة بنت حكيم السلمية رضي الله عنها.

صَلَاتِي وَنُسُكِي ﴾؛ أي: ذبحي، والناسك: المخلص لله، ﴿ وَمَحْيَايَ ﴾؛ أي: ما أحيا عليه من العمل الصالح، ﴿ وَمَمَاتِي ﴾أي: ما أموت عليه، ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ في شيء من ذلك، ولا في غيره من أنواع العبادة، ﴿ وَبِذَٰلِكَ ﴾القول والطريق ﴿ أُمِرْتُ ﴾، وقد جمع تعالىٰ بين هاتين العبادتين اللتين هما أفضل العبادات وأفضل القربات لله تعالىٰ في هذه الآية، كما جمع بينهما في الآية الثانية، وهي قوله ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾ ﴾[الكوثر:٢]؛ أي: أخلص لربك الصلاة ونحر البدن ونحوها علىٰ اسمه وحده، فالصلاة أفضل العبادات البدنية، والذبح أفضل العبادات المالية، وإنما كان الذبح أفضلها؛ لأنه يجتمع فيه أمران: الأول: أنه طاعة لله، والثاني: أنه بذل ماله وطابت به نفسه، والبذل مشترك في جنس المال، لكن زاد الذبح علىٰ غيره،من حيث أن الحيوانات محبوبة لأربابها، يوجد لذبحها ألم في النفوس من شدة محبتها، فإذا بذله لله وسمحت نفسه بإيذاق الحيوان الموت صار أفضل من مطلق العبادات المالية، وكذلك ما يجمع له عند النحر إذا قارنه الإيمان، والإخلاص من قوة اليقين، وحسن الظن بالله أمر عجيب فصرفه لغير الله شرك أكبر.

❑ قوله: (وَمِنَ السُّنَّة)

● أي: والدليل علىٰ أن الذبح عبادة من سنة رسول الله ﷺ التي أمرنا باتباعها، وقال: «**تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا: كتاب الله وسنتي**»(٩٤)، وقال: «**عليكم بسنتي**»(٩٥)، وقال: «**تركتكم علىٰ المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك**»(٩٦).

❑ قوله: («لَعَنَ الله مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ الله»(٩٧))

● اللعن: الطرد والإبعاد، والملعون: من حقت عليه اللعنة أو دعي بها عليه، واللعن

---

(٩٤) أخرجه الحاكم (١/١٧٢)، والدارقطني (٤/٢٤٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال العلامة الألباني في «منزلة السنة في الإسلام»: «رواه مالك بلاغًا والحاكم موصلًا بإسناد حسن».

(٩٥) أخرجه ابن ماجه (٤٣)، وأحمد (٤/١٢٦)، وغيرهما من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه، وصححه العلامة الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

(٩٦) انظر: ما قبله.

(٩٧) سبق تخريجه.

من الخلق: السب، وقال شيخ الإسلام: (إن الله يلعن من استحق اللعن بالقول، كما يصلي على من استحق الصلاة من عباده، وقال: وما ذبح لغير الله مثل أن يقول: هذه ذبيحة لكذا، وتحريمه أظهر من تحريم ما ذبح للحم، وقال فيه: بسم المسيح أو نحوه، وإذا حرم فلأن يحرم ما قيل فيه لأجل المسيح أو قصد به أولى)اهـ.

ودل الحديث على أن الذبح عبادة؛ لأن الله لعن من صرفه لغيره، و العبادة كلها مختصة بالله، فإذا صرفها أحد لغير الله بأن ذبح للأصنام أو للقبور المعبودة من دون الله التماسًا لشفاعة أربابها أو للزيران أو للزهرة أو لقدوم سلطان أو نحو ذلك مشرك كافر.

❑ قوله: (وَدَلِيلُ النَّذْرِ)

● وأنه عبادة يجب إخلاصها لله تعالى، والنذر في اللغة: الإيجاب، ومنه قولهم: نذرت دم فلان إذا أوجبته، وشرعًا: إيجاب المكلف على نفسهما ليس واجبًا عليه شرعًا، تعظيمًا للمنذور له.

❑ قوله: (قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾)

● أي: يتعبدون لله بما أوجبوه على أنفسهم بطريق النذر، فأثنى الله عليهم بالإيفاء به، وهو سبحانه لا يثني إلا على فاعل عبادة، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ [البقرة:٢٧٠] يعني: وسيجازيكم عليه، فدل على أنه عبادة، فصرفه لغير الله شرك أكبر، وفي الحديث: «من نذر أن يطيع الله فليطعه»[٩٨].

❑ قوله: (﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾)

● منتشرًا فاشيًا عامًا بين الناس إلا من رحمه الله.

قال العلامة العثيمين:

❑ قوله: (الإِنَابَةِ)

●الإنابة: الرجوع إلى الله تعالى بالقيام بطاعته واجتناب معصيته، وهي قريبة من معنى التوبة إلا أنها أرق منها لما تشعر به من الاعتماد على الله واللجوء إليه ولا تكون إلا لله تعالى ودليلها قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾.

والمراد بقوله تعالى: ﴿وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾، الإسلام الشرعي، وهو الاستسلام لأحكام الله

(٩٨)سبق تخريجه.

الشرعية، وذلك أن الإسلام لله تعالَىٰ نوعان:

الأول: إسلام كوني: وهو الاستسلام لحكمه الكوني وهذا عام لكل من في السموات والأرض من مؤمنٍ وكافرٍ، وبرٍّ وفاجرٍ لا يمكن لأحد أن يستكبر عنه ودليله قوله تعالَىٰ: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ۝٨٣﴾ [آل عمران:٨٣].

الثاني: إسلام شرعي: وهو الاستسلام لحكمه الشرعي وهذا خاص بمن قام بطاعته من الرسل وأتباعهم بإحسان، ودليله في القرآن كثير، ومنه هذه الآية التي ذكرها المؤلف رحمه الله.

❑ قوله: (الاسْتِعَانَةِ)

●الاستعانة: طلب العون وهي أنواع:

الأول: الاستعانة بالله وهي: الاستعانة المتضمنة لكمال الذل من العبد لربه، وتفويض الأمر إليه، واعتقاد كفايته وهذه لا تكون إلا لله تعالَىٰ ودليلها قوله تعالَىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، ووجه الاختصاص: أن الله تعالَىٰ قَدَّمَ المعمول ﴿إِيَّاكَ﴾،وقاعدة اللغة العربية التي نزل بها القرآن: أن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر والاختصاص، وعلَىٰ هذا يكون صرف هذا النوع لغير الله تعالَىٰ شركًا مخرجًا عن الملة.

الثاني: الاستعانة بالمخلوق علَىٰ أمرٍ قادرٍ عليه فهذه علَىٰ حسب المستعان عليه فإن كانت علَىٰ بر فهي جائزة للمستعين مشروعة للمعين؛ لقوله تعالَىٰ: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٢].

وإن كانت علَىٰ إثم فهي حرام علَىٰ المستعين والمعين لقوله تعالَىٰ: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة:٢].

وإن كانت علَىٰ مباح فهي جائزة للمستعين والمعين؛ لكن المعين قد يثاب علَىٰ ذلك ثواب الإحسان إلَىٰ الغير ومن ثم تكون في حقه مشروعة؛ لقوله تعالَىٰ: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٩٥﴾ [البقرة:١٩٥].

الثالث: الاستعانة بمخلوق حي حاضر غير قادر، فهذه لغوٌ لا طائل تحتها؛ مثل أن يستعين بشخص ضعيف علَىٰ حمل شيء ثقيل.

الرابع: الاستعانة بالأموات مطلقًا أو بالأحياء علَىٰ أمر غائب لا يقدرون علَىٰ

مباشرته فهذا شرك؛ لأنه لا يقع إلا من شخص يعتقد أن لهؤلاء تصرفًا خفيًا في الكون.

الخامس: الاستعانة بالأعمال والأحوال المحبوبة إلَى الله تعالَى، وهذه مشروعة بأمر الله تعالَى في قوله: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾[البقرة:٤٥].

وقد استدل المؤلف -رحمه الله تعالَى- للنوع الأول بقوله تعالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، وقوله ﷺ: «إذا استعنت فاستعن بالله».

❑ قوله: (الاستِعَاذَةِ)

●الاستعاذة: طلب الإعاذة، والإعاذة: الحماية من مكروه فالمستعيذ محتمٍ بمن استعاذ به ومعتصم به، والاستعاذة أنواع:

الأول: الاستعاذة بالله تعالَى وهي المتضمنة لكمال الافتقار إليه والاعتصام به واعتقاد كفايته وتمام حمايته من كل شيء حاضرٍ أو مستقبلٍ، صغيرٍ أو كبيرٍ، بشرٍ أو غير بشرٍ ودليلها قوله تعالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾، إلَى آخر السورة وقوله تعالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤﴾، إلَى آخر السورة.

الثاني: الاستعاذة بصفة من صفاته ككلامه وعظمته وعزته ونحو ذلك ودليل ذلك قوله ﷺ: «أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق»(٩٩). وقوله: «أعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي»(١٠٠)، وقوله في دعاء الألم: «أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر»(١٠١)، وقوله: «أعوذ برضاك من سخطك»(١٠٢)، وقوله ﷺ حين نزل قوله تعالَى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾[الأنعام:٦٥] فقال: «أعوذ بوجهك»(١٠٣).

الثالث: الاستعاذة بالأموات أو بالأحياء غير الحاضرين القادرين علَى العوذ فهذا شرك ومنه قوله تعالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾[الجن:٦].

---

(٩٩) أخرجه مسلم (٢٧٠٨)، وأبو داود (٦/٣٧٧)، وغيرهما من حديث خولة بنت حكيم السلمية رضي الله عنها.

(١٠٠) أخرجه أبو داود (٥٠٧٤)، والنسائي (٥٥٢٩)، وأحمد (٢/٢٥)، وغيرهم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وصححه العلامة الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

(١٠١) أخرجه مسلم (٢٢٠٢)، وأبو داود (٣٨٩١)، وغيرهما من حديث عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه.

(١٠٢) أخرجه مسلم (٤٨٦)، وأبو داود (٨٧٩)، وغيرهما من حديث عائشة رضي الله عنها.

(١٠٣) أخرجه البخاري (٧٣١٣)، والترمذي (٣٠٦٥)، وأحمد (٣/٣٠٩)، وغيرهم من حديث جابر رضي الله عنهما.

الرابع: الاستعاذة بما يمكن العوذ به من المخلوقين من البشر أو الأماكن أو غيرها فهذا جائز، ودليله قوله ﷺ في ذكر الفتن: «**من تشرف لها تستشرفه، ومن وجد ملجأً أو معاذًا فليعذ به**»(١٠٤). متفق عليه، وقد بين ﷺ هذا الملجأ والمعاذ بقوله: «**فمن كان له إبل فليلحق بإبله**»(١٠٥). الحديث رواه مسلم، وفي «صحيحه»: أيضًا عن جابر رضي الله عنه أن امرأة من بني مخزوم سرقت فأتي بها النبي ﷺ فعاذت بأم سلمة رضي الله عنها(١٠٦). الحديث، وفي «صحيحه» أيضًا عن أم سلمة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «**يعوذ عائذ بالبيت فيبعث إليه بعث**»(١٠٧). الحديث.

ولكن إن استعاذ من شر ظالم وجب إيواؤه وإعاذته بقدر الإمكان، وإن استعاذ ليتوصل إِلَىٰ فعل محظور أو الهرب من واجب حرم إيوَاؤه.

❑ قوله: (الاستِغَاثَة)

● الاستغاثة: طلب الغوث وهو الإنقاذ من الشدة والهلاك، وهو أقسام:

الأول: الاستغاثة بالله عز وجل وهذا من أفضل الأعمال وأكملها وهو دأب الرسل وأتباعهم، ودليله ما ذكره الشيخ رحمه الله ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ۝٩﴾[الأنفال:٩] وكان ذلك في غزوة بدر حين نظر النبي ﷺ إِلَىٰ المشركين في ألف رجل وأصحابه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا فدخل العريش يناشد ربه ﷺ رافعًا يديه مستقبلًا القبلة يقول: «**اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض**»(١٠٨). وما زال يستغيث بربه رافعًا يديه حتىٰ سقط رداؤه عن منكبيه فأخذ أبو بكر رضي الله عنه رداءه فألقاه علَىٰ منكبيه ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله! كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله هذه الآية.

الثاني: الاستغاثة بالأموات أو بالأحياء غير الحاضرين القادرين علَىٰ الإغاثة فهذا

---

(١٠٤) أخرجه البخاري (٣٦٠١)، ومسلم (٢٨٨٦)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(١٠٥) أخرجه مسلم (٢٨٨٧)، وأبو داود (٤٢٥٦)، وغيرهما من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.
(١٠٦) أخرجه مسلم (١٦٨٩)، والنسائي (٤٨٩١)، وغيرهما من حديث جابر رضي الله عنه.
(١٠٧) أخرجه مسلم (٢٨٨٢)، أبو داود (٤٢٨٩)، وغيرهما من حديث أم سلمة رضي الله عنها.
(١٠٨) أخرجه مسلم (١٧٦٣)، والترمذي (٣٠٨١)، وغيرهما من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

شرك ؛ لأنه لا يفعله إلا من يعتقد أن لهؤلاء تصرفًا خفيًا في الكون فيجعل لهم حظًّا من الربوبية؛ قال الله تعالَىٰ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل:٦٢].

الثالث: الاستغاثة بالأحياء العالمين القادرين علَىٰ الإغاثة فهذا جائز؛ كالاستعانة بهم قال الله تعالَىٰ في قصة موسىٰ: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص:١٥].

الرابع: الاستغاثة بِحي غير قادر من غير أن يعتقد أن له قوة خفية مثل أن يستغيث الغريق برجل مشلول فهذا لغو وسخرية بمن استغاث به فيمنع منه لهذه العلة، ولعلة أخرىٰ وهي الغريق ربما اغتر بذلك غيره فتوهم أن لهذا المشلول قوة خفية ينقذ بها من الشدة.

❏ قوله: (الذَّبْح)

●الذبح: إزهاق الروح بإراقة الدم علَىٰ وجه مخصوص، ويقع علَىٰ وجوه:

الأول: أن يقع عبادة؛ بأن يقصد به تعظيم المذبوح له والتذلل له والتقرب إليه، فهذا لا يكون إلا لله تعالَىٰ علَىٰ الوجه الذي شرعه الله تعالَىٰ، وصرفه لغير الله شرك أكبر، ودليله ما ذكره الشيخ رَحِمَهُ اللهُ وهو قوله تعالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ [الأنعام:١٦٢،١٦٣].

الثاني: أن يقع إكرامًا لضيف أو وليمة لعرس أو نحو ذلك فهذا مأمور به إما وجوبًا أو استحبابًا؛ لقوله ﷺ «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه»(١٠٩)، وقوله ﷺ لعبد الرحمن بن عوف: «أولم ولو بشاة»(١١٠).

الثالث: أن يقع علَىٰ وجه التمتع بالأكل أو الإتجار به ونحو ذلك؛ فهذا من قسم المباح؛ فالأصل فيه الإباحة لقوله تعالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [يس:٧١، ٧٢] وقد يكون مطلوبًا أو منهيًا عنه حسبما يكون وسيلة له.

---

(١٠٩) أخرجه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(١١٠) أخرجه البخاري (٥١٥٥)، ومسلم (١٤٢٧)، وغيرهما من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

❑ قوله: (وَدَلِيلُ النَّذْرِ)

● أي: دليل كون النذر من العبادة قوله تعالَىٰ: ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧ ﴾ [الإنسان:٧].

❑ قوله: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾

● وجه الدلالة من الآية: أن الله أثنىٰ عليهم لإيفائهم النذر؛ وهذا يدل علَىٰ أن الله يحب ذلك، وكل محبوب لله من الأعمال فهو عبادة.

ويؤيد ذلك قوله: ﴿ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧ ﴾.

واعلم أن النذر الذي امتدح الله تعالَىٰ هؤلاء القائمين به هو جميع العبادات التي فرضها الله ﷻ، فإن العبادات الواجبة إذا شرع فيها الإنسان فقد التزم بها، ودليل ذلك قوله تعالَىٰ: ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ۝٢٩ ﴾ [الحج:٢٩].

والنذر الذي هو إلزام الإنسان نفسه بشيء ما، أو طاعة لله غير واجبة مكروه، وقال بعض العلماء: إنه محرم؛ لأن النبي ﷺ نهىٰ عن النذر، وقال: «**إنه لا يأتي بخير، وإنما يستخرج به من البخيل**»[١١١]. ومع ذلك فإذا نذر الإنسان طاعة لله وجب عليه فعلها؛ لقول النبي ﷺ: «**من نذر أن يطيع الله فليطعه**».

والخلاصة: أن النذر يطلق علَىٰ العبادات المفروضة عمومًا، ويطلق علَىٰ النذر الخاص وهو إلزام الإنسان نفسه بشيء لله ﷻ، وقد قسم العلماء النذر الخاص إلَىٰ أقسام ومحل بسطها كتب الفقه.

قال العلامة الفوزان:

❑ قوله: (وَدَلِيلُ الإِنَابَةِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ ﴾)

● **الإنابة**: الرجوع وهي بمعنىٰ التوبة، والتوبة والإنابة بمعنىٰ واحد.

ولكن بعض العلماء يقول: الإنابة أخص من التوبة؛ أي: آكد؛ لأنها توبة مع إقبال إلىٰ الله ﷻ؛ أي: توبة خاصة، والإنسان قد يتوب ويترك الذنب ولا يعود إليه، ويندم عليه؛ ولكن قد يكون في الإقبال علىٰ الله إقبال ضعيف.

---

(١١١) سبق تخريجه.

أما الإنابة فهي إقبال على الله ﷻ، ولهذا قال: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ ﴾، أي: ارجعوا له، وأقبلوا عليه سبحانه وتعالى: ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾إذا جاء العذاب المهلك الماحق فإنها لا تقبل توبة من تاب عند ذلك: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ ﴾[يونس:٩٨] هذا مستثنى وإلا فإنه إذا نزل العذاب المهلك فإنها لا تقبل التوبة، ولهذا قال: ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾.

فالتوبة والإنابة لها أجل ولهما حد، فهي لا تقبل توبة من غَرْغَرَ أو من حضره الموت، ولا تقبل توبة من نزل به العذاب الماحق المهلك، ولا تقبل التوبة إذا خرجت الشمس من مغربها قبل قيام الساعة، لا تقبل التوبة حينئذ؛ فالله يحث العبد على التوبة والإنابة قبل انتهاء أجله: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾.

الشاهد قوله: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ دل على أن الإنابة نوع من أنواع العبادة؛ لأنه قال: ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾فهذا يدل على أنها نوع من أنواع العبادة.

□قوله: (وَدَلِيلُ الاسْتِعَانَةِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ وفي الحديث: «إذا استعنت فاستعن بالله»)

●الاستعانة: طلب العون، وهي على نوعين:

النوع الأول: الاستعانة بشيء لا يقدر عليه إلا الله، فهذه صرفها لغير الله شرك، من استعان بغير الله في شيء لا يقدر عليه إلا الله فإنه قد أشرك؛ لأنه صرف نوعًا من أنواع العبادة لغير الله ﷻ.

النوع الثاني: الاستعانة فيما يقدر عليه المخلوق، فأنت تستعين بأحد أن يبني معك الجدار، أو أن يحمل معك متاعك، أو أن يعينك على مطلوب مباح، كما قال تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾[المائدة:٢].

فالاستعانة في الأمور العادية التي يقدر عليها الناس، هذا النوع لا بأس فيه؛ لأنه من التعاون على البر والتقوى، وقال ﷺ: «والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه»[١١٢].

أما الاستعانة بالمخلوق في شيء لا يقدر عليه إلا الله؛ مثل جلب الرزق ودفع

---

(١١٢) أخرجه مسلم (٢٦٩٩)، وأبو داود (٤٩٤٦)، وغيرهما من حديث أبي هريرة ﵁.

الضرر، فهذا لا يكون إلا لله، كالاستعانة بالأموات، والاستعانة بالجن والشياطين، والاستعانة بالغائبين، وهم لا يسمعونك تهتف بأسمائهم، هذا شرك أكبر؛ لأنك تستعين بمن لا يقدر على إعانتك.

فقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾: هذا فيه تقديم المعمول على العامل، المعمول إياك في محل نصب، ونعبد هذا هو العامل الذي نصب إياك، وتقديم المعمول على العامل يفيد الحصر.

فمعنى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾أي: لا نعبد غيرك، فحصر العبادة في الله ﷻ.

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾: حصر الاستعانة بالله ﷻ، وذلك في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله سبحانه وتعالى.

وفي قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، براءة من الحول والقوة، وأن الإنسان لا قوة له إلا بالله ولا يقدر إلا بالله ﷻ وهذا غاية التعبد لله إذا تبرأ من الشرك وتبرأ من الحول ومن القوة فهذا غاية التعبد لله ﷻ.

❑قوله: (وَدَلِيلُ الاستِعَاذَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١﴾)

●الاستعاذة: طلب الالتجاء إلى من يمنعك من محذور تخافه من أجل أن يدفع عنك هذا الشيء، هذه هي الاستعاذة.

والاستعاذة نوع من أنواع العبادة، لا يجوز أن تستعيذ بغير الله ﷻ فمن استعاذ بقبر أو بوثن أو بأي شيء غير الله ﷻ فإنه يكون مشركًا الشرك الأكبر، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ [الجن:٦]

كان العرب في جاهليتهم إذا نزلوا في مكان من الأرض يقول أحدهم: أعوذ بسيد هذا الوادي؛ أي: كبير الجن، يستعيذ به من شر سفهاء قومه.

فقال النبي ﷺ مبطلًا لذلك ومبينًا لما يشرع بدله: «من نزل منزلًا فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك»[(١١٣)]

هذا هو البديل الصحيح، الاستعاذة بكلمات الله التامات بدلًا من الاستعاذة بالجن.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١﴾.

---

(١١٣)أخرجه مسلم (٢٧٠٩)، وأبو داود (٣٨٩٨)، وغيرهما من حديث خولة بنت حكيم السلمية رضي الله عنها.

الفلق: هو الصبح، ورب الفلق: هو الله -سبحانه وتعالى - كما قال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام:٩٦] أي: مظهر نور الصبح في ظلام الليل. من الذي يقدر على هذا إلا الله سبحانه وتعالى.

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ①﴾ أي: رب الصبح إذا أصبح، المالك المتصرف فيه القادر عليه.

﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ②﴾ : هذا يشمل شر جميع المخلوقات، يستعيذ بالله من شر جميع المخلوقات. هذا يكفيك عن كل استعاذة أو تعوذ مما يفعله الناس

﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ③﴾.

الغاسق: هو ظلام الليل؛ لأن ظلام الليل تخرج فيه الوحوش والسباع، فأنت تقع في خطر، تستعيذ بالله من شر هذا الظلام وما تحته من هذه المؤذيات.

﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ④﴾ وهي: السواحر تستعيذ بالله من السحر وأهله؛ لأن السحر شر عظيم.

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ⑤﴾.

الحاسد: هو الذي يتمنى زوال النعمة عن الغير، إذا رأى على أحد نعمة فإنه يغتاظ ويتمنى زوال هذه النعمة حسدًا وبغيًا والعياذ بالله، وهو من أعظم الخصال المذمومة؛ لأن فيه اعتراضًا على الله، وفيه إساءة إلى الخلق.

ويدخل فيه العائن، الذي يصيب بنظرته؛ لأن الإصابة بالعين نوع من الحسد، فأنت تستعيذ بالله من هذه الشرور، فدل على أن الاستعاذة عبادة لا يجوز أن تصرف لغير الله، فلا تستعيذ بالمخلوق ومن استعاذ بمخلوق فقد أشرك بالله ﷻ، والنبي ﷺ يقول لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «وإذا استعنت فاستعن بالله».

□قوله: (قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ①﴾)

●وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ① مَلِكِ ٱلنَّاسِ ② إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ③ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ④ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ⑤ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ⑥﴾ [سورة الناس] .أمر الله ﷻ بالاستعاذة برب الناس ملك الناس إله الناس، هذه كلها أسماء وصفات لله ﷻ وفيها أنواع التوحيد الثلاثة، توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات.

استعذ بالله، وبهذه الأسماء والصفات، استعذ من شر الوَسواس وهو الشيطان، أما الوِسواس بالكسر فهو مصدر وَسْوَسَ يُوَسْوِسُ، أما الوَسواس فهذا اسم من أسماء الشيطان؛ لأنه يوسوس للإنسان ويخيل إليه ويشغله من أجل أن يلقي في قلبه الرعب والتردد والحيرة في أموره خصوصًا في أمر العبادة، فإن الشيطان يوسوس للإنسان في العبادة حتى يلبس عليه صلاته أو عبادته، ثم ينتهي به الأمر إلى أن يخرج من الصلاة ويعتقد أنها بطلت، أو يصلي ثم يعتقد أنه على غير وضوء، أو أنه ما قام لكذا أو أنه ما فعل كذا، ويصبح في وسواس ولا يطمئن إلى عبادته.

فالله - جل وعلا- أعطانا الدواء لهذا الخطر، وذلك بأن نستعيذ بالله من شر هذا الوسواس.

﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾: الذي يتخلف ويبتعد، فهو يوسوس إذا غفلت عن ذكر الله، ويخنس؛ أي: يتأخر إذا ذكرت الله ﷻ فهو وسواس مع الغفلة، وخناس عند ذكر الله ﷻ.

﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾: كأن المعنى -والله أعلم- أنه هناك موسوسين من الجن ومن الإنس يوسوسون للناس، يأتون الناس ويشككونهم، فكما أن للجن شياطين يوسوسون فكذلك للإنس شياطين يوسوسون، فأنت تستعيذ بالله من شر القبيلين.

ولهذا يقول النبي ﷺ : «ما تعوذ متعوذ بمثلهما»[(١١٤)] أي: هاتين السورتين فينبغي للمسلم أن يقرأهما في أدبار الصلوات ويكررهما ويقرأهما عند النوم مع آية الكرسي وسورة الإخلاص.

يقرأ آية الكرسي، وسورة الإخلاص والمعوذتين، يقرؤهما دبر كل صلاة ويكررهما ثلاثًا بعد المغرب وبعد الفجر، وكذلك يقرؤهما عند النوم من أجل أن يبتعد عنه الشيطان فلا يكدر عليه نومه ويزعجه بالأحلام.

الشاهد من هاتين السورتين: أن الله أمر بالاستعاذة به وحده، فدل على أن الاستعاذة بغيره من الجن أو من الإنس أو من أي مخلوق أنه لا يجوز؛ لأنها نوع من أنواع العبادة.

---

(١١٤) أخرجه النسائي (٥٤٢٩)، وفي «الكبرى» (٧٧٨٩)، من حديث عقبة بن عامر ﷺ، وقال العلامة الألباني في «صحيح سنن النسائي»: «صحيح الإسناد».

☐قوله: (وَدَلِيلُ الاستِغَاثَةِ)

●الاستغاثة: هي نوع من أنواع العبادة، وهي طلب الغوث، وهي لا تكون إلا عند الشدة، إذا وقع الإنسان في شدة فإنه يطلب الغوث من الله والنجاة من هذه الشدة.

والاستغاثة على نوعين:

النوع الأول: الاستغاثة بالمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله ﷻ وهذا شرك، فمن استغاث بغير الله من جن أو إنس أو غائبين أو أموات فإن هذا شرك بالله ﷻ.

فالاستغاثة بالأموات، وبالغائبين من الشياطين والجن هذا شرك بالله ﷻ.

النوع الثاني: الاستغاثة بالمخلوق الحاضر الحي فيما يقدر عليه، هذا جائز، قال - تعالى - في قصة موسى: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾[القصص:١٥].

☐قوله: (وَدَلِيلُ الذَّبحِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ ومن السنة: «لعن الله من ذبح لغير الله»)

●الذبح على أربعة أقسام:

الأول: الذبح على وجه التقرب والتعظيم لأحد ما، وهذا لا يجوز إلا لله سبحانه وتعالى؛ لأنه من العبادات المالية، فلا يجوز الذبح للجن ولا للشياطين ولا للملوك والرؤساء تعظيمًا لهم؛ لأن هذه عبادة لا تجوز إلا لله ﷻ.

فالذين يذبحون للجن من أجل السلامة من شرهم، أو من أجل شفاء المرضى، كما يفعله الكهان والمنجمون الذين يدعون العلاج ويقولون للناس: اذبحوا كذا لأجل شفاء مريضكم، ولا تذكروا اسم الله عليه، هذا شرك أكبر مخرج من الملة، وهذا الذي قال الله - تعالى - محذرًا من فعله لغير الله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾، وقال: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾﴾[الكوثر:٢]،أي: واذبح لربك.

الثاني: الذبح من أجل أكل اللحم، هذا لا بأس به؛ لأنه ما ذبح من أجل التقرب والتعظيم لأحد، وإنما ذبح لحاجة، والأكل منه، فهذا لا بأس به؛ لأنه ليس نوعًا من العبادة ويذبح لبيع اللحم.

الثالث: الذبح على وجه الفرح والسرور، بمناسبة زواج، أو مناسبة نزول مسكن جديد، أو قدوم غائب، أو ما أشبه ذلك بجمع الأقارب، ويذبح من باب إظهار الفرح

والسرور بما حصل له، هذا لا بأس به؛ لأنه ليس فيه تعظيم لأحد ولا تقرب لأحد، وإنما هو من باب الفرح والسرور في شيء حصل.

الرابع: الذبح من أجل التصدق باللحم على الفقراء والمساكين والمعوزين هذا يعتبر سنة وهو داخل في العبادة.

❑قوله: (وَدَلِيلُ النَّذْرِ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾)

●النذر: هو إلزام الإنسان نفسه بشيء لم يلزمه بأصل الشرع، كأن ينذر أن يصوم، أو ينذر أن يتصدق بكذا، فيلزمه الوفاء بنذره؛ لقول النبي ﷺ: «من نذر أن يطيع الله فليطعه»، والنذر نوع من أنواع العبادة لا يجوز إلا لله، فمن نذر لقبر أو صنم أو غير ذلك فقد أشرك بالله ﷻ، وهو نذر معصية وشرك، وقد قال النبي ﷺ: «ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه».

قال العلامة صالح آل الشيخ:

❑ قوله: (ودَلِيلُ الإِنَابَةِ...)

● وحقيقة الإنابة: الرجوع؛ رجوع القلب عما سوى الله جل وعلا إلى الله جل وعلا وحده، والإنابة إذ كان معناها الرجوع، فإن القلب إذا توجه إلى غير الله جل وعلا قد يتعلق به تعلقًا، بحيث يكون ذلك القلب في تعلقه تاركًا غير ذلك الشيء، وراجعًا ومنيبًا إلى ذلك الشيء، كما يحصل عند الذين يتعلقون بغير الله؛ تتعلق قلوبهم بالأموات والأولياء أو بالأنبياء والرسل أو بالجن ونحو ذلك، فتجد أن قلوبهم قد فُرِّغَت إما على وجه التمام، أو على وجه كبير، أن فُرِّغَت من التعلق إلا من ذلك الشيء، هذا الذي يسمى الإنابة، أَنَابَ رجع، ترك غيره ورجع إليه، وهذا الرجوع ليس رجوعًا مجردًا، ولكنه رجوع للقلب مع تعلقه ورجائه، فحقيقة الإنابة أنها لا تقوم وحدها، القلب المنيب إلى الله جل وعلا إذا أناب إليه فإنه يرجع، وقد قام به أنواع من العبودية، منها: الرجاء والخوف والمحبة ونحو ذلك، فالمنيب إلى الله جل وعلا هو الذي رجع إلى الله جل وعلا عما سوى الله جل وعلا، ولا يكون رجوعه هذا إلا بعد أن يقوم بقلبه أنواع من العبوديات أعظمها المحبة والخوف والرجاء؛ محبة الله، الخوف من الله، الرجاء في الله؛ فإذن الإنابة صارت عبادة بهذا الدليل، وسيأتي بيان وجه الاستدلال، وأيضًا؛ لأنها شيء متعلق بالقلب، ولأنها لا تقوم بالقلب إلا مع أنواع أخر من العبوديات، ولهذا استدل له بقوله

تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾، ووجه الاستدلال: أن الله جل وعلا قال: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾، فأمر بالإنابة، وإذ أمر بها فمعنى ذلك أنه يحبها ويرضاها ممن أتى بها، فهي إذن داخلة في تعريف العبادة سواء عند الأصوليين أو عند شيخ الإسلام رحمه الله تعالى، وهذا الدليل العام على كونها من العبادة، ما الدليل على كون هذه العبادة يجب إفراد الله جل وعلا بها؟ فإن في هذا: الأمر بالإنابة إلى الله جل وعلا.

ما دليل كون هذه العبادة وهي الإنابة لا يجوز ولا يسوغ أن يتوجه بها إلى غير الله جل وعلا؟

هناك دليل عام ألا وهو أنه إذ ثبت أنه عبادة، فالأدلة العامة كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ١٨﴾، وقوله: ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ١١٧﴾، وغير ذلك، وقوله عليه الصلاة والسلام: «الدعاء هو العبادة»، «الدعاء مخ العبادة» ونحو هذه الأدلة، تدل على أن أي نوع من العبادة لا يجوز أن يتوجه به إلى غير الله، ومن توجه به إلى غير الله جل وعلا فقد كفر، فهذا الاستدلال العام، وهناك دليل خاص في الإنابة: أنه يجب إفراد الله جل وعلا بالإنابة، وذلك في قوله تعالى: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾، في سورة هود: قالها شعيب عليه السلام، وأخبر الله جل وعلا بها عن شعيب، في معرض الثناء عليه، قال: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾؛ عليه وحده لا غير، توكلت؛ فوَّضت أمري وأخليت قلبي من الاعتماد على غيره، ومجيء الجارّ والمجرور متقدم على ما يتعلق به وهو الفعل، دل على وجوب حصرها وقصرها واختصاصها بالله جل وعلا، ثم قال: ﴿وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾، إليه وحده لا إلى سواه أنيبُ؛ أرجعُ -محبًا راجيًا خائفًا- عن كل ما سوى الله جل وعلا إلى الله وحده، فلما قدم الجارّ والمجرور على ما يتعلق به وهو الفعل، دل على أن هذه العبادة وهي الإنابة مختصة بالله جل وعلا، وهذا أتى في معرض الثناء على شعيب، وهناك أدلة أخرى.

فإذن هذه المسألة مع غيرها؛ أحيانًا يورد الشيخ دليلًا عامًّا على كونها من العبادة، وأحيانًا يورد دليلًا عامًّا على كونها عبادة، وخاصًّا في أنه يجب إفراد الله جل وعلا بها، والحمد لله؛ ما من مسألة من مسائل العبادة القلبية أو العملية، عمل الجوارح أو عمل القلب أو عمل اللسان؛ إلا وثَمّ دليل عام على أنها من العبادة، وثم دليل خاص على أن

من صرفها لغير الله جل وعلا فقد أشرك، وهذا والحمد لله بيّن ظاهر، وهذا التوحيد في بيانه ووضوحه وظهور براهينه وأدلته وآياته مما هو بمكان واضح ظاهر، لا يكون معه بعد ذلك حجة للمخالفين، الذين تنكبوا هذا الطريق، ولم يسلموا وجوههم لله جل وعلا، ويخلصوا دينهم لله جل وعلا وحده.

❑ قوله: (وَدَلِيلُ الاسْتِعَانَةِ...)

● بعد الإنابة ذكر الاستعانة حيث قال: (ودليل الاستعانة قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، هذا دليل عام في العبادات جميعًا، حيث قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، و ﴿إِيَّاكَ﴾، كما هو معلوم ضمير منفصل في محل نصب مفعول به مقدم، أصل الكلام: (نَعْبُدُ إِيَّاكَ). ومن المعلوم أن المفعول به يتأخر عن فعله، فإذا قُدّم كان ثم فائدة في علم المعاني -من علوم البلاغة- ألا وهي أنه يُفيد الاختصاص، وطائفة من البلاغيين يقولون: يفيد الحصر والقصر، وعلى العموم: الخطب يسير؛ يفيد الاختصاص أو يفيد الحصر والقصر، هنا أفاد أن العبادة من خصوصيات الله جل وعلا؛ خاصة بالله جل وعلا. ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾؛ يعني: لا نعبد إلا أنت، ثم قال بعدها -وهو مراد الشيخ بالاستدلال-: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ وهذه الآية من سورة الفاتحة؛ السورة العظيمة التي هي أم القرآن، التي يرددها المسلمون في صلواتهم، فيها إفراد الله جل وعلا بالعبادة، وعقد العهد والإقرار على النفس بأن القائل لتلك الكلمات لا يعبد إلا الله جل وعلا. قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، كذلك لا يستعين إلا بالله جل وعلا، وجه الاستدلال: أنه قدم الضمير المنفصل الذي هو في محل نصب مفعول به على الفعل الذي هو العامل فيه، وتقديم المعمول على العامل يفيد الاختصاص أو يفيد الحصر والقصر؛ فإذن هنا أثبت أنها عبادة، وأثبت أنه لا يجوز صرفها لغير الله إذ هي مختصة بالله جل وعلا.

وهاهنا قال العلماء -شيخ الإسلام ابن تيمية وجماعة من أهل العلم-: إن عبادة غير الله أعظم كفرًا من الاستعانة بغير الله، مع أن جنس الاستعانة قد يكون من الربوبية، يعني: طلب الإعانة هو طلب لمقتضيات الربوبية؛ لأن الله جل وعلا هو مدبر الأمر، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، هذا فيه معنى الألوهية ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، طلب الإعانة من الله؛ استعانة المسلم بالله، هذا فيها طلب لمقتضى الربوبية، ومن حيث كون الاستعانة طلبًا صارت عبادة، ولهذا

قال: إن عبادة غير الله أعظم كفرًا من الاستعانة بغير الله، وهذا لأجل أن العبادة إذا صرفت لغير الله جل وعلا فإنها يكون معها تحول في القلب الذي هو المضغة إذا صلحت -صلح العمل كله- صلح الجسد كله، إذا توجه بقلبه لغير الله في عبادته؛ صار قلبه فاسدًا، ومقتضيات الربوبية أحيانًا تطرأ، ولهذا الإشراك في الإلهية في بعض أوجهه أعظم من إنكار بعض أفراد الربوبية، ألم تر ذلك الرجل من بني إسرائيل الذي قال في وصيته: «إن مت فأحرقوني ثم ذروني في البحر فوالله إن قدر الله علي ليعذبني عذابًا لم يعذبه أحدًا من العالمين»[115]. وغفر الله جل وعلا له؛ لأنه شك في بعض أفراد القدرة والتي هي راجعة إلىٰ شيء من معنىٰ الربوبية، كذلك قال جل وعلا عن حواريي عيسىٰ: ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾، وأُجيبوا ولم يؤاخذوا بكلمتهم تلك؛ لأنها شك في بعض أفراد القدرة، وهذا راجع إلىٰ شك في بعض مقتضيات الربوبية، أما العبادة لغير الله جل وعلا فهي التي لا يُقبل من أحد أن يصرف شيئًا منها لغير الله، قال جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[النساء:٤٨]، وعيسىٰ عليه السلام قال لقومه: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ ﴾[المائدة:٧٢] وقال جل وعلا لعيسىٰ في آخر السورة؛ -سورة المائدة-: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ ﴾[المائدة:١١٦،١١٧] إلىٰ آخر الآيات.

المقصود من هذا: أن ما قاله شيخ الإسلام وجماعة: أن العبادة لغير الله أعظم كفرًا من الاستعانة بغير الله، هذا صحيح ومتّجه، ولهذا قدمت في سورة الفاتحة العبادة علىٰ الاستعانة؛ لأنها أعظم شأنًا وأجلُّ خطرًا؛ لأنها هي التي وقع فيها الابتلاء، ولهذا كان حريًّا بأهل الإيمان أن يعتنوا بأمر إخلاص القلب لله جل وعلا، وتوجُّه المرء في عباداته وعبودياته لله وحده دون ما سواه.

---

(١١٥) أخرجه البخاري (٦٤٨٠) وغيره من حديث حذيفة رضي الله عنه.

❑ قوله: (وَفِي الحَدِيثِ: «إِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ»...)

●وجه الاستدلال: أن الأمر بالاستعانة بالله رُتِّبَ على إرادة الاستعانة، قال: «إذا استعنت فاستعن بالله»؛ يعني: إذا كنت متوجهًا للاستعانة فلا تستعن بأحد إلا بالله؛ لأن الأمر جاء في جواب الشرط، قال: «إذا استعنت»، (إذا) هذه شرطية غير جازمة، و(استعنت) هذا فعل الشرط، «إذا استعنت» إذا حصل منك حاجة للاستعانة؛ فاستعن بالله، لما أمر به علمنا أنه من العبادة، ثم لما جاء في جواب الشرط صار مُتَرَتِّبًا مع ما قبله لما يفيد الحصر والقصر.

ما معنى ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؟ ما حقيقة الاستعانة؟

الاستعانة: طلب العون؛ لأن كثيرا فيما أوله السين والتاء يدل على الطلب؛ استعان: استغاث، استسقى ونحو ذلك، استعان: يعني طلب الإعانة، استغاث: طلب الغوث، استعاذ: طلب العوذ، استسقى: طلب السقيا. ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ [البقرة:٦٠] يعني: وإذ طلب موسى السقيا لقومه، هذا هو النوع الأول.

النوع الثاني؛ تأتي استفعل ويراد بها الفعل بدون طلب، كقوله: واستغنى الله، وغني الله، والله غني حميد في أمثال ذلك، وكذلك استقام؛ فليس فيها طلب.

المقصود: أن كثيرًا ما يأتي استفعل بطلب الفعل، هنا استعان طلب العون، استعاذ طلب العوذ، استغاث: طلب الغوث، وهكذا.

فإذن إذ كان جميعًا في معنى الطلب، أو فيها معنى الطلب، يصلح دليلًا لها كل ما فيه وجوب إفراد الله جل وعلا بما يحتاجه المرء في طلباته، الدعاء؛ جميع أدلة الدعاء تصلح لما كان فيه نوع طلب، أيُّ دليل فيه وجوب إفراد الله جل وعلا بالدعاء يصلح دليلًا بإفراد الله جل وعلا بأنواع الطلب ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، يصلح دليلًا للاستغاثة، والاستعاذة، والاستعانة ونحو ذلك.

❑ قوله: (وَدَلِيلُ الاستِعَاذَةِ...)

●الاستعاذة كما ذكرت لك هي طلب العوذ، وأعوذ: معناها: ألتجئُ وأعتصمُ وأتحرز، تقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم؛ معناها: ألتجئ وأعتصم وأتحرز بالله من شر الشيطان الرجيم، فإذن الاستعاذة طلب العوذ طلب المعتصَم، طلب الحِرز، طلب ما

يعصم، طلب ما يحمي، هذه الاستعاذة؛ من حيث كونها طلبًا ظاهرة، ومن حيث كونها فيها الاعتصام والالتجاء والتّحرُّز صارت عبادة قلبية؛ ولهذا قال كثير من أهل العلم: إن الاستعاذة عبادة قلبية.

وطلب العوذ؛ يكون باللسان، بقول أحدٍ لآخر: أعوذ بك، أعذني ونحو ذلك. ولكنها هي تقوم بالقلب؛ يعني يقوم بالقلب الاعتصام بهذا المطلوب منه العوذ، يقوم بالقلب الالتجاء لهذا المطلوب منه العوذ، يقوم بالقلب التحرز بهذا المطلوب منه العوذ، فإذا قام بالقلب هذه الأشياء وهذه الأمور صار مستعيذًا، ولو لم يُفصح لسانه بطلب العوذ؛ يعني: أنها عبادة قلبية.

الاستعاذة عبادة قلبية؛ لأن حقيقتها طلب العوذ، فإذا قام بالقلب اعتصامه بالله احترازه وتحرُّزُه بالله، التجاءه إلى الله من شر من فيه شر، صار ذلك استعاذة، قد يُفصح اللسان عنها، يطلب: اللهم أعذني من مُضِلاَّت الفتن، بقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أعوذ برب الفلق. ونحو ذلك، «أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق»[١١٦]؛ يعني: ألتجئ وأعتصم وأتحرز بكلمات الله الكونية التامة التي لا يلحقها نقص من شر كل من فيه شر، مما خلقه الله جل وعلا ونحو ذلك.

لأجل هذا المعنى قال جمع من أهل العلم: إنه لا يجوز أن يقول قائل أعوذ بالله ثُم بك. وذلك لأن العوذ عبادة قلبية، وهذا هو الصحيح، فإن العوذ؛ إذا قيل: أعوذ بالله ثم بك، الاستعاذة عمل قلبي بحت، لهذا لا يصلح أن يتعلق بغير الله جل وعلا.

وقال آخرون من أهل العلم: الاستعاذة طلب للجء والاحتراز والاعتصام، وقد يكون المطلوب منه يمكن ويملك أن يعطي هذا معتصمًا، وأن يقيه شرًّا، مثلًا: يأتي واحد من الناس إلى قوي من الناس إلى كبير، ملك، أو أمير، أو رئيس قبيلة، أو نحو ذلك؛ فيقول له أعوذ بك، أو أعوذ بالله ثم بك من شر هذا الذي أتاني؛ رجل مثلًا يأتي يطلبه بشيء، يقولون: هذا يمكن أن يكون؛ يعني: أن يقيه شرًّا أن يمنعه ممن يريد به سوءًا، يمكن أن يكون ممن يقدر عليه البشر، فإذا كان بهذا المعنى يجوز أن يقول: أعوذ بك بمخلوق، أعوذ بالله ثم بك بمخلوق.

---

(١١٦) سبق تخريجه.

ولكن قَول أعوذ بك، هذا أبعد في الإجازة، وأما قول أعوذ بالله ثم بك، فهذا من راعىٰ المعنىٰ الظاهر، وإمكانَ المخلوق أن يعيذ صحoriginally، وقال: لا بأس أن يقول: أعوذ بالله ثم بك، ولكن الأظهر أن العوذ عبادة قلبية، وأنها إنما تكون بالله جل وعلا، وهذا علىٰ نحو ما أمرنا بقوله: توكلت علىٰ الله ثم عليك ونحو ذلك، فمن أهل العلم من يجيز مثل هذه الألفاظ مع أن أصلها عمل قلبي؛ عبادة قلبية، مراعيًا الظاهر، ما يراعي تعلق القلب، مُراعيًا الحماية الظاهرة، مُراعيًا التحرز الظاهر، مُراعيًا الاعتصام الظاهر، ومنهم من لم يجزْها مراعيًا أنها عبادة قلبية، وأنك إذا أجزتها في الظاهر فإنه قد يكون تبعًا لتلك الإجازة؛ تعلق القلب عند من لا يفهم المراد.

وعلىٰ العموم: هما قولان مشهوران حتىٰ عند مشايخنا المفتين في هذا الوقت ومن قبل.

يقابل الاستعاذة التي هي طلب العوذ؛ لأن طلب العوذ من شيء فيه شر، لهذا قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤﴾، فالاستعاذة مما فيه شر. وأما اللّياذ، واللَّوذ فإنه مما فيه خير، قال: ألوذ بك. يعني إذا كنت مؤملًا خيرًا، وإذا كنت خائفًا من شر تقول لربك جل وعلا: أعوذ بك، وإذا كنت مؤملًا خيرًا تقول: ألوذ بك وهكذا. الدليل قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾، وجه الاستدلال: أنه أمر نبيه الكريم أن يستعيذ برب الناس، ما دام أنه أمر به فهو عبادة قلبية؛ لأنه لا يأمر إلا بشيء يحبه ويرضاه، فذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٩٨﴾؛ أمر بالاستعاذة به فدل علىٰ أنها عبادة.

❏ قوله: (وَدَلِيلُ الاستِغَاثَةِ...)

● الاستغاثة: طلب الغوث، والغوث يُفسر بأنه الإغاثة، المدد، النصرة ونحو ذلك، فإذا وقع مثلًا أحد في غرق ينادي: أَغثني أغثني، يطلب الإغاثة، يطلب إزالة هذا الشيء، يطلب النصرة.

الاستغاثة عبادة؛ وجه كونها عبادة: أن الله جل وعلا قال هنا: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾، وجه الاستدلال: أنه أتىٰ بها في معرض الثناء عليهم، وأنه رتّب عليها الإجابة، وما دام الله جل وعلا رتّب علىٰ استغاثتهم به إجابته جل وعلا دل علىٰ أنه يحبها، وقد رضيها منهم، فنتج أنها من العبادة، و﴿إِذْ﴾ هنا بمعنىٰ حين، ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ

رَبَّكُمْ ﴾؛ يعني: حين ﴿ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾، وتلاحظ أنّ الآية هنا: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ﴾، وقبلها: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ ﴾، الاستغاثة -كما ذكرت لك- والاستعاذة والاستعانة ونحو ذلك، تتعلق بالربوبية كثيرًا، هنا: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾، قال قبلها: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ ﴾؛ لأن حقيقتها من مقتضيات الربوبية، من الذي يُغيث؟ هو المالك، هو المدبر، هو الذي يُصرِّف الأمر، وهو ربّ كل شيء جل وعلا. الاستغاثة عمل ظاهر، ولهذا يجوز أن يستغيث المرء بمخلوق، لكن بشروطه، وهي أن يكون هذا المطلوب منه الغوث حيًا، حاضرًا، قادرًا، يسمع، فإذا لم يكن حيًا بأن كان ميتًا صارت الاستغاثة بهذا الميت كفرًا، ولو كان يسمع ولو كان قادرًا، مثل الملائكة أو الجن؛ قلنا: أن يكون حيًا حاضرًا قادرًا يسمع؛ صحيح؟ فإنه إذا لم يكن حيًا كان ميتًا، ولو اعتقد المستغيث أنه يسمع وأنه قادر، فإنه إذ كان ميتًا فإن الاستغاثة به شرك. الأموات جميعًا لا يقدرون على الإغاثة؛ لكن قد يقوم بقلوب المشركين بهم أنهم يسمعون، وأنهم أحياء مثل حال الشهداء، وأنهم يقدرون مثل ما يزعم في حال النبي عليه الصلاة والسلام ونحو ذلك، فنقول إذ كان ميتًا فإنه لا يجوز الطلب منه، فإن قالوا: فما يحصل يوم القيامة من استغاثة الناس بآدم، ثم استغاثتهم بنوح إلى آخر أنهم استغاثوا بنبينا محمد ﷺ.

نقول: هذا ليس استغاثة بأموات يوم القيامة، هؤلاء أحياء، يُبعث الناس ويُحيَوْن من جديد، كانوا في حياة ثم ماتوا ثم أعيدوا إلى حياة أخرى؛ فهي استغاثة بحي، حاضر، قادر، يسمع. بهذا ليس فيما احتجوا به من حال أولئك الأنبياء يوم القيامة حُجة على جواز الاستغاثة بغير الله جل وعلا، والاستغاثة بغير الله جل وعلا أعظم كفرًا من كثير من المسائل التي صَرْفها لغير الله جل وعلا شرك، إذن فالشروط:

- **أن يكون حيًا**: إذا كان ميتًا لا يجوز الاستغاثة به.

- **أن يكون حاضرًا**: إذا كان غائبًا لا يجوز الاستغاثة به؛ حي قادر لكنه غائب. مثل لو استغاث بجبريل عليه السلام فليس بحاضر؛ حي نعم، وقادر قد يطلب منه ما يقدر عليه، ولكنه ليس بحاضر. مثل أن يطلب من حي قادر من الناس؛ يَطلب من ملك يملك أو أمير يستغيث به أغثني يا فلان، وهو ليس عنده، مع أنه لو كان عنده لأمكن بقوّته، لكنه لما لم يكن حاضرًا صارت الاستغاثة -تعلُّق القلب- بغير حاضر هذا شرك بالله جل وعلا.

- أن يكون قادرًا: إذا لم يكن قادرًا فالاستغاثة به شرك، ولو كان حيًا حاضرًا يسمع، مثل لو استغاث بمخلوق بما لا يقدر عليه، وهو حيٌ حاضرٌ يسمعه، وتعلق القلبُ -قلب المستغيث- على هذا النحو، تعلق قلبُه بأن هذا يستطيع ويقدر أن يغيثه، معنى ذلك أنه استغاث بمن لا يقدر على الإغاثة، فتعلق القلب بهذا المستغاث به؛ فصارت الاستغاثة وهي طلب الغوث شركًا على هذا النحو.

- وكذلك يسمعُ: لو كان حيًا قادرًا، ولكنه لا يسمع، حاضر لا يسمع كالنائم ونحوه، كذلك لا تجوز الاستغاثة به.

وقد تلتبس بعض المسائل بهذه الشروط في أنها في بعض الحالات تكون شركًا أكبرًا، وفي بعض الحالات يكون منهي عنها، علي أنها من ذرائع الشرك، ونحو ذلك. مثل الذي يسأل ميت، يسأل أعمى بجنبه، أو يسأل مشلول بجنبه أن يغيثه ونحو ذلك.

المقصود: أن العلماء اشترطوا لجواز الاستغاثة بغير الله جل وعلا: أن يكون المستغاث به حيًا حاضرًا قادرًا يسمع.

❑ قوله: (وَدَلِيلُ الذَّبحِ...)

● الذبح الذي هو النحر، والذبح يشمل النحر الخاص ويشمل الذبح الذي هو قسيم النحر لأن:

النحر: هو الطعن بسكين أو بالحَرْبَة في الوَحدة، مثل ما يُفعل بالإبل فهي لا تذبح ذبحًا؛ بل تطعن في وَحدتها وإذا طُعنت وحُرِّكت السكين واندثر الدم وماتت، ليس ثَم ذبح. كذلك البقر قد تُنحر.

وأما الذبح: فيكون في الغنم من الضأن والماعز، وكذلك في البقر.

الذبح والنحر عبادة، المقصود منها إراقة الدم، وإراقة الدم -من حيث هو- لا يكون إلا بتعلقٍ للقلب، فإذا أراق الدم لله جل وعلا تعلق القلب بالله جل وعلا؛ فالذبح عبادة ظاهرة يتبعها أو يكون معها عبادة باطنة قلبية، فمن ذبح لغير الله وقع في شرك ظاهر؛ لأن هذه عبادة صرفها لغير الله، وكذلك قلبه تعلق بغير الله؛ فصار شركه من جهتين.

وجه الاستدلال من قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾، أنه قال: ﴿وَنُسُكِي﴾ والنسك فُسِّرت بعدة تفسيرات عن السلف منها الذبح

والنحر، وهذا كما قال جل وعلا في الآية الأخرى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾[الكوثر:١،٢]، ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ أمره بأن يوحد الله جل وعلا بالصلاة، وكذلك أمره بالنحر لربه جل وعلا وحده، إذن النسك هنا الذبح.

قال: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ﴾، الصلاة لمن؟ لله. وجه اللام هنا، أنها لام الاستحقاق، قل إن صلاتي لله؛ يعني: صلاتي مستحقة لله، هذا وجه الاستدلال. ونسكي لله؛ يعني: نسكي الذي هو ذبحي مستحق لله وحده لا شريك له. ومحياي لله ومماتي لله، هذه لام أخرى وهي لام الملك، الصلاة والنسك لله استحقاقًا، والمحيا والممات لله مُلكًا؛ لأن اللام -قلنا أنها- تأتي للاستحقاق وتأتي للملك، في هذه الآية جعل هذه الأفعال الأربعة الصلاة والنسك والمحيى والممات جعلها جميعًا باللام مؤخرة، بقوله: ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢﴾، لكن تختلف، الصلاة والنُّسُك لله استحقاقًا، والمحيا والممات لله جل وعلا مُلكًا، فجمعت هذه الآية بين توحيدي الله جل وعلا: في إلهيته وهو الأول، وفي ربوبيته وهو الثاني.

قل إن صلاتي ونسكي لله؛ هذا توحيد لله جل وعلا في إلهيته، ومحياي ومماتي لله؛ هذا توحيد لله جل وعلا في ربوبيته، فكما أنه جل وعلا هو مالك محياي ومماتي، فكذلك هو المستحق لصلاتي ونسكي، قال جل وعلا لنبيه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى﴾مستحقة لله، ﴿وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى﴾ ملك لله جل وعلا ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾، فذكر الربوبية ثم ذكر الألوهية، ثم بيّن أن هذا من علامات الإسلام العظيمة فقال: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾وهذا وجه استدلال آخر إذ أن هذه مأمور بها، قال: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٦٣﴾[الأنعام:١٦٣].

الذبح كما أنه عمل ظاهر وهو إراقة الدم، والدم الذي بَثَّهُ في أعضاء المذبوح هو الله جل وعلا، وهو علامة الحياة، فلا يُزهق إلا لمن خلَقه، ولمن بثه في أعضاء من به الحياة.

ولهذا قال العلماء: إن العبد حال الذبح يجتمع في قلبه أنواع من العبوديات:

- منها: الذل لربه جل وعلا.
- ومنها: التعظيم له جل وعلا.
- ومنها: الرجاء؛ رجاء ما عنده حال ذبحه.
- ومنها: طلب البركة؛ لأنه ما ذبح إلا لله.

وهذه كلها عبادات قلبية، فكما أن الذبح عمل ظاهر؛ به تحريك اليد، تحريك اللسان ببعض القول، كذلك يقوم بالقلب حال الذبح أنواع من العبوديات، قد ما يقوم بالقلب شيء البتة، مثل ما يُذبح لضيافة أو نحو ذلك، فهذا يجب أن يكون ظاهرًا لله جل وعلا وحده، وإذا اجتمع أن يكون في الذبيحة، أن تكون اجتمعت فيها العبادة الظاهرة والعبادة الباطنة؛ العبادة القلبية، كانت أكمل في رجاء ثواب الذبح، ولو كان في الأمور العادية من ضيافة ونحوها، فيكون الذبح لله جل وعلا ظاهرًا لم يُرد بهذا إلا الله جل وعلا، وباسمه لم يذكر إلا اسم الله جل وعلا، ثم يكون بالقلب ذل لله جل وعلا وخضوع وتعظيم ورجاء المثوبة منه وحده، فتجتمع العبادات القلبية وعبادات الجوارح حال الذبح.

لهذا، الذبح من العبادات العظيمة، لكن قد يغفل الناس عن تعلق القلب وفعل الجوارح حين الذبح، وكيف تكون لله جل وعلا، ولهذا على طالب العلم أن يتعلم هذا إن لم يحسنه، يتعلم كيف يكون حال الذبح؛ حال ذبحه لذبيحته للأضحية وهي آكد وآكد وآكد، أو لغيرها، أن يكون موحدًا تمامًا، يرجو في ذبحه أن يكون على غاية من العبودية في لسانه وقلبه وجوارحه؛ لأنه فيه حركة لسان للتسمية والتكبير، وفيه عمل القلب بأنواع من العبوديات ذكرت بعضها، وفيه أيضًا حركة اليد، وهذا كله مما يجب أن يكون لله جل وعلا وحده.

❑ قوله: (وَمِنَ السُّنَّةِ:«لَعَنَ الله مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ الله»)

● وجه الاستدلال: أن من ذبح لغير الله لم يذبح لله، وإنما ذبح لغيره، أنه ملعون لعنه الله، وهذا الدعاء من النبي عليه الصلاة والسلام بقوله: «لعن الله من ذبح لغير الله» يدل على أن الذبح لغير الله كبيرة من الكبائر، وإذا كانت كذلك فهي إذن يُبغضها الله جل وعلا، وإذا كان يُبغض الله جل وعلا الذبح لغيره؛ معنى ذلك أن الذبح له وحده محبوب له، في مقابله، فيستقيم بذلك الاستدلال.

❑ قوله: (وَدَلِيلُ النَّذْرِ...)

● النذر: هو إيجاب المرء على نفسه شيئًا لم يجب عليه، وتارة يكون النذر مطلقًا، وتارة يكون -بالمقابلة- مُقيّدًا، والنذر المطلق غير مكروه، والنذر المقيد مكروه.

لهذا استشكل جمع من أهل العلم؛ كون النذر عبادة مع أن النذر مكروه، والنبي عليه

الصلاة والسلام يقول في النذر: «إنه لا يأتي بخير وإنما يُستخرج به من البخيل»[١١٧] يقولون: إذا كان مكروهًا كيف يكون عبادة؟ ومعلوم أن العبادة يحبها الله جل وعلا، والنذر يكون مكروهًا كما دل عليه هذا الحديث، فكيف إذا كان مكروهًا يكون عبادة؟ وهذا الاستشكال منهم غير وارد أصلًا؛ لأن النذر ينقسم إلىٰ قسمين: نذر مطلق، ونذر مقيد.

النذر المطلق: لا يكون عن مقابلة، وهذا غير مكروه، أن يوجب علىٰ نفسه عبادة لله جل وعلا بدون مقابلة، فيقول: لله عليَّ نذر؛ مثلًا يقول قائل: لله عليَّ نذر أن أصلّي الليلة عشرة ركعات طويلات. بدون مقابلة، هذا إيجاب المرء علىٰ نفسه عبادة لم تجب عليه دون أن يقابلها شيء، هذا النوع مطلق، وهذا محمود.

النوع الثاني المكروه: وهو ما كان عن مقابلة، وهو أن يقول قائل مثلًا: إن شفىٰ الله جل وعلا مريضي صُمْتُ يومًا، إن نجحت في الاختبار صليت ركعتين، إن تزوجت هذه المرأة تصدقت بخمسين ريالًا -مثلًا- أو بمائة ريالٍ. هذا مشروط يوجب عبادة علىٰ نفسه، مشروطة بشيء يحصل له قدرًا، من الذي يحصل الشيء ويجعله كائنًا؟ هو الله جل وعلا. فكأنه قال: إن أعطيتني هذه الزوجة، وإن يسرت لي الزواج بها، صليت لك ركعتين أو تصدقت بكذا. إن أنجحتني في الاختبار صمت يومًا ونحو ذلك، وهذا كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «إنما يُستخرج به من البخيل»؛ لأن المؤمن المقبل علىٰ ربه ما يعبد الله جل وعلا بالمقايضة، يعبد الله جل وعلا ويتقرب إليه؛ لأن الله يستحق ذلك منه، فهذا النوع مكروه. النوع الأول محمود، وهذا النوع مكروه.

والوفاء بالنذر في كلا الأمرين واجب كما قال النبي ﷺ: «**من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه**»، فتحصل عندنا أن النذر في أربعة أشياء: الأول: نذر محمود -نحن ما نقول نذر مشروع فيفهم أحد أنه واجب أو مستحب، لا، نقول محمود، غير مكروه في الشرع، محمود وهو المطلق الذي ما فيه مقايضة ولا مقابلة، الثاني مكروه وهو الذي يكون عن مقابلة، الوفاء بالأول بنذر التبرر والطاعة واجب، الوفاء

(١١٧) سبق تخريجه.

بالثاني حتى ولو كان مكروها واجب، وهو الذي أثنى الله جل وعلا على أهله في الحالين بقوله: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾؛ لأنه أوجب على نفسه، فلما كان واجبًا صار الوفاء به واجبًا، فامتثل للوجوب الذي أوجبه على نفسه؛ لأنه يخشى عقابه، فتحصّل من هذه الأربع اثنتان واجبتان وهما الوفاء، وواحد محمود، وواحد مكروه، ولهذا إذ كان عبادة- صار غالب الحال هو الحال التي أنه محمود فيها أو واجب.

وبهذا صار النذر عبادة من العبادات التي يرضاها الله جل وعلا ويحبها، إلا في حال واحدة وهي حال نذر المقابلة.

اتضح إذن هذا المقام؛ لأن بهذا التحرير نتخلص من إشكالات عِدَّة، ربما أوردها علينا خصوم الدعوة والخرافيون في مسألة النذر. فلتتأملها! لأنه قد لا تجد هذا التحرير في كثير من الكتب.

وجه الاستدلال في قوله: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾: أن الله جل وعلا امتدحهم بذلك ؛ وإذ امتدحهم بذلك دل على أن هذا العمل منهم -وهو الوفاء بالنذر- محبوبٌ له جل وعلا، فثبت أنه عبادة لله جل وعلا.

والنذر له شقان:

الشق الأول: النذر.

والثاني: الوفاء به؛ وعلى كلا الأمرين إذا صُرفت لغير الله جل وعلا فهي شرك.

من نذر لغير الله، أن ينذر لأصحاب المشاهد والأولياء أو القبور، ينذر للمشهد الفلاني، ينذر مثلًا للنبيﷺ، أو أن ينذرَ لأحد من الموتى، ينذر لفاطمة رضي الله عنها، أو ينذر لأحد آل البيت، أو لخديجة، أو ينذر لأحد من الأولياء أو نحو ذلك، يقول: عليَّ نذر للولي الفلاني، ولو كان غير مقابلة هذا إيجاب على نفسه عبادة لغير الله؛ فصار شركًا أكبر.

القسم الثاني أن يقول: إن شفى الله -لاحظ- إن شفى الله مريضي فللولي الفلاني عليّ نذر بكذا وكذا، فهذا على المقابلة، ولو كان على هذا النحو، فصرفه لغير الله جل وعلا شرك؛ لأن القول الأول منه وهو قوله: (إن شفى الله مريضي) هذا ربوبية، وقوله: (فللولي

الفلاني علي نذر) هذا شرك في العبودية، هو أقر بالربوبية ولكنه أشرك بالعبودية، هذا جهة النذر، الوفاء لأصحاب القبور أو نحوهم، أو الجن، أو الملائكة، هذا كله شرك، فلو حصل منها النذر لغير الله فلا يجوز أن يوفي به، فإن وفَّى به لغير الله سيكون ذلك شرك بعد شرك، لهذا قال عليه الصلاة والسلام: «من نذر أن يعصي الله فلا يعصه»، يدخل في ذلك إذا كان النذر لغير الله جل وعلا، قال: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ مدحهم بذلك، فدل أن وفاءهم بالنذر عبادة يحبها الله جل وعلا.

الدرس العاشر:

[الأصل الثاني: معرفة دين الإسلام]

الأَصْلُ الثَّانِي: مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلام، بالأَدِلَّةِ وَهُوَ: الاستسلامُ لله بِالتَّوحِيدِ. والانقيَادُ لَهُ بالطَّاعَةِ، والبَرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ وأَهْلِهِ؛ وَهُوَ ثَلاثُ مَرَاتِبَ: الإِسْلاَمُ، والإِيمَانُ، والإِحْسَانُ، وكُلُّ مَرْتَبَةٍ لَهَا أَرْكَانٌ.

الشرح

قال العلامة ابن باز:

❑قوله: (مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلام، بالأَدِلَّة...)

●هذا هو الأصل الثاني: وهو دين الإسلام، وهو ثلاث مراتب بيّنها الرسول ﷺ. فأولها: الإسلام وهو الإخلاص لله وحده؛ يعني: الاستسلام لله بالعبادة، وتخصيصه بها دون كل ما سواه، والبراءة من الشرك وأهله، فإذا فعل ذلك فقد أسلم؛ يعني: انقاد وذل وخضع لله وحده بالعبادة دون كل ما سواه، وتبرأ من الشرك وأهله. قال تعالى: ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾[البقرة:٢٦٥] والكفر بالطاغوت معناه: البراءة من الشرك وأهله، وإنكار ذلك، واعتقاد بطلانه. وهناك مرتبة الإيمان، ومرتبة الإحسان، وكلها داخلة في دين الإسلام، الدين الذي شرعه الله لعباده، وأرسل به الرسل جميعًا، ومرتبة الإسلام تشمل الأعمال الظاهرة.

قال العلامة ابن قاسم:

❑ قوله: (الأَصْلُ الثَّانِي: مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلام بالأَدِلَّة)

● لما فرغ المصنف -قدس الله روحه- من الأصل الأول وشرحه وبسطه، شرع في ذكر الأصل الثاني من أصول الدين، الذي لا ينبني إلا عليها، وهو معرفة دين الإسلام بالأدلة من الكتاب والسنة.

والدين: الطاعة والتوحيد وجميع ما يتعبد به، وقوله: «بالأدلة» تنبيه على أنه لا يسوغ التقليد في ذلك؛ فيصير الرجل إمّعة، بل لابد أن يكون معه أدلة من كتاب الله وسنة

رسوله ﷺ على ما خلق له؛ ليكون على نور وبرهان وبصيرة من دينه، فإن من لم يكن على حقيقة من دينه فإنه يخشى عليه في حياته، وبعد مماته عند سؤال الملكين إذا سألاه في القبر أن يصل له الشك؛ فيجيب الجواب السيئ يقول: هاه هاه لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته، بخلاف من يعرف أدلة دينه من الكتاب والسنة، وكان على القول الثابت في الدنيا فإنه يقول عند سؤال الملكين: ربي الله، وديني الإسلام، ونبي محمد ﷺ فإن من أسباب الثبات عند السؤال معرفة الدين بالحجج من الكتاب والسنة والعمل به.

❑ قوله: (وَهُوَ: الاستسلامُ لله بِالتَّوحِيدِ)

● أي: الذل والخضوع لله بإفراده بالربوبية والخلق والتدبير، وإفراده بجميع أنواع العبادة. مشتق من التسليم للمنية، واستسلم فلان للقتل أسلم نفسه وانقاد وذل وخضع، أو من المسألة وهو ترك المنازعة.

❑ قوله: (والانقيَادُ لَهُ بالطَّاعَةِ)

● أي: بفعل المأمورات من الطاعات، وفعل الخيرات وترك المنهيات والمنكرات؛ طاعة لله تعالى وابتغاء وجهه، ورغبة فيما عنده، وخوفًا من عقابه، وفعل الأمر وترك النهي ابتغاء وجه الآمر الناهي هو الَّذي جاءت به جميع الرسل.

❑ قوله: (والبَرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ وأَهْلِهِ)

● فلابد أن يتبرأ من الشرك ومن أهل الشرك في الاعتقاد والعمل والمسكن، بل في كل خصلة من خصالهم، ومن كل نسبة من النسب إليهم، معاديًا أشد معاداة، غير مشتبه بهم في قول أو فعل.

❑ قوله: (وَهُوَ ثَلاثُ مَرَاتِب)

● المرتبة والرتبة: المنزلة العالية، ورتب الشيء ترتيبًا: نظمه وقرن بعضه ببعض.

❑ قوله: (الإسْلامُ، والإِيمَانُ، والإِحْسَانُ)

● أي: الإسلام مرتبة، والإيمان مرتبة، والإحسان مرتبة؛ وهذه هي مراتب الدين التي بعث بها النبي ﷺ والمصنف رَحِمَهُ اللَّهُ ذكرهن هنا مجملة، ثم فصّلهن وبيّن أدلّتهن.

❑ قوله: (وكُلُّ مَرْتَبَةٍ لَهَا أَرْكَانٌ)

● أي: وكل مرتبة من مراتب الدين الثلاثة لها أركان لا تقوم إلا عليها، وأركان

الشيء: أجزاؤه في الوجود التي لا يحصل إلا بحصولها، وداخلة في حقيقته، سميت بذلك تشبيهًا لها بأركان البيت الذى لا يقوم إلا بها، فمراتب الدين لا تتم إلا بأركانها، وفي الاصطلاح: عبارة عن جزء الماهية.

قال العلامة ابن عثيمين:

❑ قوله: (الأصلُ الثَّاني)

●أي: من الأصول الثلاثة: معرفة دين الإسلام بالأدلة؛ يعني: أن يعرف دين الإسلام بأدلته من الكتاب والسنة.

❑ قوله: (دينِ الإِسْلامِ بِالأَدِلَّةِ)

●وإن شئت فقل: الإسلام هو: «الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله» فهو متضمن لأمور ثلاثة.

❑ قوله: (بالتوحيدِ)

●أي: بأن يستسلم العبد لربه استسلامًا شرعيًا، وذلك بتوحيد الله ﷻ وإفراده بالعبادة، وهذا الإسلام هو الذي يحمد عليه العبد ويثاب عليه، أما الاستسلام القدري فلا ثواب فيه؛ لأنه لا حيلة للإنسان فيه، قال الله تعالَى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ۝٨٣﴾[آل عمران:٨٣].

❑ قوله: (والانقيادُ لَهُ بالطَّاعَةِ)

●وذلك بفعل أوامره واجتناب نواهيه، لأن الطاعة طاعة في الأمر بفعله وطاعة في النهي بتركه.

❑ قوله: (والبَرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ وأَهْلِهِ)

●البراءة من الشرك؛ أي: أن يتبرأ منه، ويتخلَّى منه وهذا يستلزم البراءة من أهله، قال الله تعالَى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾[الممتحنة:٤].

❑ قوله: (ثلاثُ مَرَاتِبَ)

●بين المؤلف -رحمه الله تعالَى- أن الدين الإسلامي ثلاث مراتب بعضها فوق

بعض؛ وهي الإسلام، والإيمان، والإحسان.

❑ قوله: (كُلُّ مَرْتَبَةٍ لَهَا أَرْكَان)

●دليل ذلك قوله ﷺ في الحديث الذي رواه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين جاء جبريل يسأل النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان وبين له ﷺ ذلك وقال: «هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم»[(١١٨)].

قال العلامة الفوزان:

❑قوله: (الأَصْلُ الثَّانِي: مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلام، بالأَدِلَّة)

●لما فرغ الشيخ من بيان معرفة الأصل الأول وهو معرفة الله -سبحانه وتعالى- بالأدلة، انتقل إلى بيان الأصل الثاني، وهو معرفة دين الإسلام بالأدلة.

فقال: **الأصل الثاني**: معرفة دين الإسلام بالأدلة، ثم عرفه وبين معناه ثم ذكر مراتبه.

❑قوله: (مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلام)

● الدين يراد به الطاعة، يقال: دان له إذا أطاعه فيما أمر وترك ما نهى.

ويطلق الدين ويراد به الحساب، كما في قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾[الفاتحة:٤] ويقال: دانه إذا حاسبه، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٨﴾[الانفطار:١٧،١٨] أي: يوم الحساب ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ۝١٩﴾[الانفطار:١٩].

❑قوله: (بالأدلة)

●أي: أن معرفة دين الإسلام لا تكون بالتقليد أو تكون بالتخرص من عند الإنسان، الدين لابد له من أدلة من الكتاب والسنة.

أما الإنسان الذي لا يعرف دينه وإنما يقلد الناس، ويكون إمعة مع الناس فهذا لن يعرف دينه وَجَرِيٌّ به أنه إذا سئل عنه في القبر أن يقول: «هاه، هاه، لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته» فواجب على الإنسان أن يعرف دينه بالأدلة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ولا يعرف هذا إلا بالتعلم.

---

(١١٨) أخرجه مسلم (٨)، والنسائي (٤٩٩٠)، وغيرهما من حديث عمر رضي الله عنه.

□قوله: (وَهُوَ: الاستسلامُ لله بِالتَّوحِيدِ...)

●الإسلام مأخوذ من: أسلم للشيء إذا انقاد له، أسلم نفسه للقتل؛ أي: خضع للقتل، فأسلم نفسه للشيء إذا انقاد له.

فالإسلام هو إسلام الوجه والقصد والنية لهﷻ: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾[النساء:١٢٥] ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ﴾[البقرة:١١٢]؛ أي: أخلص عمله للهﷻ وانقاد لله عن طواعية واختيار ورغبة ومحبة.

الاستسلام لله بالتوحيد: وهو إفراد الله -جل وعلا - بالعبادة، وهذا هو معنى التوحيد، فمن عبد الله وحده لا شريك له فقد استسلم له.

قوله: «والانقياد له سبحانه بالطاعة»: فيما أمرك به وما نهاك عنه، فما أمرك به تفعله، وما نهاك عنه تجتنبه طاعة لله سبحانه وتعالى.

□قوله: (والبَرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ وأَهْلِهِ ...)

● البراءة معناها: الانقطاع والاعتزال، والبعد عن الشرك وأهل الشرك، بأن تعتقد بطلان الشرك فتبتعد عنه، وتعتقد وجوب عداوة المشركين؛ لأنهم أعداء اللهﷻ فلا تتخذهم أولياء، إنما تتخذهم أعداء؛ لأنهم أعداء لله ولرسوله ولدينه فلا تحبهم ولا تواليهم، وإنما تقاطعهم في الدين وتبتعد عنهم، وتعتقد بطلان ما هم عليه، فلا تحبهم بالقلب ولا تناصرهم بالقول والفعل؛ لأنهم أعداء لربك وأعداء لدينك، فكيف تواليهم وهم أعداء الإسلام؟!

لا يكفي أنك تستسلم لله وتنقاد له بالطاعة، وأنت لا تتبرأ من الشرك ولا من المشركين، هذا لا يكفي، ولا تعدُّ مسلمًا حتى تتصف بهذه الصفات:

أولًا: الاستسلام لله بالتوحيد.

ثانيًا: الانقياد له بالطاعة.

ثالثًا: البراءة مما يضاد التوحيد ويضاد الطاعة وهو الشرك.

رابعًا: البراءة من أهل الشرك.

بتحقيق هذه الصفات تكون مسلمًا، أما إذا نقصت صفة واحدة منها فإنك لا تكون مسلمًا، فبهذه الكلمات الثلاث لخص الشيخ تعريف الإسلام، وكم من إنسان لا يعرف معنى

الإسلام؛ لأنه لم يتعلم هذا الشيء، ولو قيل له: ما هو الإسلام؟ لم يجب جوابًا صحيحًا.

قوله: (وَهُوَ ثَلاثُ مَرَاتِب: الإسْلامُ...)

● معنى المراتب: الدرجات؛ لأننا قلنا: إن الدين ثلاث درجات بعضها أعلى من بعض، أول مرتبة من مراتب الدين هي الإسلام، ثم بعدها الإيمان، ثم بعدها الإحسان فالإسلام أوسع، والإيمان أضيق من الإسلام، والإحسان أضيق من الإيمان.

فدائرة الإسلام واسعة، المنافقون يدخلون فيها إذا انقادوا إلى الإسلام وأظهروه والتزموا به ظاهرًا، إذا صلوا مع المسلمين وزكوا وعملوا الأعمال الظاهرة، يسمون مسلمين، وتطبق عليهم أحكام المسلمين في الدنيا، فلهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، لكنهم في الآخرة في الدرك الأسفل من النار؛ لأنهم ليس عندهم إيمان وإنما عندهم إسلام ظاهري فقط.

قوله: (الإيمَانُ)

●هذه هي المرتبة الثانية، والمؤمنون يتفاوتون: منهم المقربون، ومنهم الأبرار، والمقربون هم أصحاب أعلى الدرجات، والأبرار دونهم، ومنهم الظالم لنفسه وهو المرتكب للكبائر التي هي دون الشرك، فهو مؤمن فاسق، أو مؤمن ناقص الإيمان، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ۝٣٢﴾[فاطر:٣٢].

قوله: (الإحْسَانُ)

●هذه هي المرتبة الثالثة، وهي الإحسان، وهي أن يحسن العبد فيما بينه وبين الله، في عبادة الله ﷻ وذكر النبي ﷺ الإحسان فقال: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[١١٩]؛ أي: يكون عندك علمًا يقينيًا أن الله يراك أينما كنت.

قوله: (وكُلُّ مَرْتَبَةٍ لَهَا أَرْكَانٌ)

●والأركان جمع ركن، وهو ما يقوم عليه الشيء.

فأركان الشيء: جوانبه التي يقوم عليها ولا يقوم بدونها، وتكون بداخل الشيء، خلاف الشروط فهي تكون خارج الشيء، مثل شروط الصلاة فهي خارج الصلاة قبلها،

(١١٩)سبق تخريجه.

وأما أركان الصلاة فإنها بداخلها، مثل تكبيرة الإحرام وقراءة الفاتحة، فإذا اختل شيء منها فإن الصلاة لا تصح، كما لو فقد شيء من أركان البنيان فإنه لا يقوم ولا يعتمد.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

❑ قوله: (الأَصْلُ الثَّانِي: مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلام، بالأَدِلَّة)

● ما هو الإسلام؟

قال: «وهو: الاستسلامُ لله بالتوحيدِ، والانقيادِ له بالطاعةِ، والبراءة[١٢٠] من الشرك».

والإسلام يُراد به تارة الإسلام العام، ويراد به تارة الإسلام الخاص؛ يأتي هذا في القرآن وهذا.

فالإسلام العام: يراد به الإسلام الذي خوطب به جميع الناس من لدن آدم عليه السلام إلى أن يرث الله جل وعلا الأرض ومن عليها، بل خوطب به جميع المخلوقات كما قال جل وعلا: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾[آل عمران:٨٣] أسلم له كل شيء كما قال ورقة بن نوفل في ما أحسب قال:[١٢١]

وأسلمتُ وجهي لمن أسلمت ... له المزن تحملُ عذبًا زلالا

فالإسلام العام: (الاستسلام لله)؛ استسلام لله عن طواعية واختيار، هذا الإسلام العام الذي خوطب به جميع الخلق، حصل التكليف على آدم وبنيه، قال جل وعلا: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾[الأحزاب:٧٢]، يعني: حمل الإنسان الأمانة، وهي أمانة التكليف بالإسلام، قال

---

(١٢٠) في بعض النسخ وردت عبارة «الخلوص» بدلًا من «البراءة» وقال الشيخ -حفظه الله- معلقًا: «هذه العبارة وهي «الخلوص من الشرك»؛ ليست في النسخ المعتمدة، والصواب أنها: «والبراءة من الشرك وأهله» ومن المعلوم أن البراءة من الشرك وأهله أدلُّ على المراد من لفظ «الخلوص من الشرك»؛ لأن الخلوص من الشرك؛ إنما هو خروج عن الشرك، وليس فيه معنى البراءة من الشرك وأهله؛ ولهذا كان الأصح أن يُجعل بدل الخلوص من الشرك: «البراءة من الشرك وأهله» وهذا هو الذي يناسب الاستدلال الذي استدل به الشيخ وهو قوله تعالى في سورة الزخرف: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾[الزخرف:٢٦،٢٧]؛ فذكر البراءة وهو الذي يناسب هذا التعريف».

(١٢١) قائل هذا البيت هو زيد بن عمرو بن نفيل.

جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[آل عمران:١٩]، وهذا هو الإسلام العام الذي دعا إليه كل رسول وكل نبي من آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ، الجميع يدعو إلى الإسلام، وهذا الإسلام يسميه العلماء: الإسلام العام؛ الذي يشترك فيه جميع الرسل.

أما الإسلام الخاص: فهو القسم الثاني، وهو المراد هاهنا، فمعرفة دين الإسلام، لا يريد دين الإسلام العام، وإنما بعد بعثة محمد ﷺ صار المقصود بالإسلام الذي طُلب من الناس أن يدينوا به، وأن يعتقدوه، هو الإسلام الذي جاء به النبي عليه الصلاة والسلام، وهو دين الإسلام الخاص، حتى صار الإطلاق؛ إذا أطلق الإسلام لا يراد به إلا دين الإسلام الذي بعث به نبينا محمد ﷺ؛ الذي يشمل عقيدة الإسلام وشريعة الإسلام.

ثبت في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: «لا يسمع بي أحد من هذه الأمة ولا يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا أكبه الله في النار»(١٠٢)، (لا يسمع بي)، يعني: ببعثتي برسالتي، وبما أرسلت به، ثم لا يؤمن بي أحد من هذه الأمة ولا يهودي ولا نصراني، وفي الرواية الأخرى «أحد من هذه الأمة يهودي أو نصراني»(١٠٣)، المراد أمة الدعوة، «ثم لا يؤمن بي إلا أكبه الله في النار»، فمن كان على دين الإسلام العام، وقد بُعث النبي ﷺ فإنه لا يقبل منه، لا يقبل بعد بعثة النبي ﷺ من أحد إلا أن يتبع دين الإسلام الخاص، يعني: الذي بُعث به النبي عليه الصلاة والسلام، وهو المراد هاهنا، وهو الذي يحصل به الابتلاء في القبر والفتنة في القبر، يحصل الابتلاء والفتنة بدين الإسلام الذي بُعث به محمد ﷺ.

❑ قوله: (وَهُوَ: الاستسلامُ لله بِالتَّوحِيدِ.)

● الاستسلام: أن يكون فاعله -فاعل الاستسلام- كهيئة المستسلم، والمستسلم لغيره تابع له لا يفعل إلا ما يريد، خلُص قلبه إلا من رغبة من استسلم له، ولو قال: وهو الإسلام لله بالتوحيد؛ لصح تعريفه، فالاستسلام هنا بمعنى الإسلام، وله أسلم، ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾[الزمر:٥٤]، كلها بمعنى الاستسلام والإسلام؛ الإسلام لله والاستسلام لله بمعنى واحد قيّدها في هذا الموضع بقوله :(بالتوحيد) والتوحيد يشمل

---

(١٠٢) أخرجه مسلم (١٥٣)، وأحمد (٢/٣١٧)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١٠٣) سبق فيما قبله.

توحيد الله جل وعلا في ربوبيته وفي ألوهيته وفي أسمائه وصفاته، والمقصود الأخص من هذه الثلاثة توحيد العبادة؛ لأن الخصومة وقعت فيه، ومعلوم أن توحيد العبادة متضمن لتوحيد الربوبية ولتوحيد الأسماء والصفات.

❑ قوله: (والانقيَادُ لَهُ بالطَّاعَةِ)

● الانقياد لله جل وعلا بالطاعة؛ يعني: أن يكون منقادًا غير ممانع ولا متولٍّ عن طاعة الله جل وعلا، إنما ينقاد ويذعن، كما قال جل وعلا: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ [النور:٥٤] أمر بطاعة الله وطاعة رسوله؛ يعني: الانقياد لله وللرسول فيما أمر الله جل وعلا به وفيما أمر به النبي ﷺ، قال: فإن تولوا وأعرضوا ولم يذعنوا ولم ينقادوا ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ﴾؛ يعني: على الرسول ﴿مَا حُمِّلَ﴾، إياه وهو الرسالة، ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾، وهو الاستجابة لله وللرسول؛ فإذن هنا الانقياد له بالطاعة لله جل وعلا بطاعته وطاعة رسوله ﷺ الذي بعث بهذا الإسلام الأخير.

❑ قوله: (والبَرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ وأَهْلِهِ)

● فُسِّرت البراءة بعدة تفسيرات أصلٌ وفروعه؛ أصل البراءة: البُغض في القلب؛ يعني: بغض الشرك وأهله، ويتبع ذلك -أي بُغضَهم- معاداتُهم وتكفير من كفره الله جل وعلا ورسوله؛ تكفير المشركين ومقاتلتهم عند مشروعية ذلك، وهذا هو معنى الكفر بالطاغوت أيضًا، فإن الكفر بالطاغوت هو بُغضه ومعاداة أهله، وتكفير أهل الطاغوت؛ وهم أهل عبادة غير الله جل وعلا، وقتالهم عند مشروعية ذلك، البراءة من الشرك أصلها البغض، يتبع البغض أشياء؛ أولًا: المعاداة، ثانيًا: التكفير ومعلوم أن التكفير تَبَعٌ للعلم، ثم قتالهم عند مشروعية ذلك، وذلك أيضًا مستلزم للعلم، فتلخص أن على العامة -وهم من ليسوا علماء- عليهم من البراءة، أصلها وهو البُغض، وأما فروعها فإنما هي بحسب درجات العلم، البغضُ لابد أن يُبْغِضُ فإن لم يبغضُ الشرك؛ فإنه ليس بمسلم، إذا كان يحب الإسلام وأهله، ويحب التوحيد وأهله؛ ولكن لا يبغض الشرك وأهله فإنه ليس بمسلم؛ لكن قد يبغض الشرك وأهل الشرك باعتبار الأصل، لكنه يحب بعض المشركين لغرض من أغراض الدنيا؛ فهذا ليس بمشرك؛ وإنما ناقص إسلامه، كما أوضحت لكم

فيما سبق في تقسيم الموالاة إلىٰ موالاة وتولي.

المقصود من هذا: أن مسألة البراءة هذه؛ من الشرك وأهله، أصل البراءة: البغض يتبعها أشياء: المعاداة، التكفير، المقاتلة، وكلها تبع للعلم، ويتنوع ذلك بحسب الناس، وأسهل ما يكون في الموحدين، عند الموحدين، عند عامتهم؛ معاداة المشركين، ولو لم يكن عندهم من الحجة أو من بيان تكفيرهم، ومن إقامة الدلائل علىٰ مشروعية مقاتلة أهل الشرك، فإنه قائم في قلبه بغضهم ومعاداتهم، وهذا به يحصل الإسلام.

إذن تعريف الإسلام شمل ثلاثة أشياء:

أولًا: الاستسلام لله بالتوحيد.

ثانيًا: الانقياد لله بالطاعة.

ثالثًا: البراءة من الشرك وأهله.

نلاحظ أنه بهذا شمل هذا التعريف معنىٰ الشهادتين كما سيأتي.

❐ قوله: (وَهُوَ ثَلاثُ مَرَاتِبَ: الإِسْلامُ، والإِيمَانُ، والإِحْسَانُ)

●هذا الدين؛ دين الإسلام الذي جاء به محمدﷺ ثلاث مراتب، قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ (وهو ثلاث مراتب: الإسلام...) هذه مرتبة في دين الإسلام، نتيجة هذه المرتبة أن يحكم لأهلها بأنهم مسلمون، (والإيمان)، ونتيجة هذه المرتبة أن يحكم لأهلها بأنهم مؤمنون، (والإحسان)، ونتيجتها أن يحكم لأهلها أنهم محسنون، فالمحسن والمؤمن والمسلم، الجميع من أهل دين الإسلام، لكن لكلٍّ مرتبتُه الخاصة به، هم درجات عند الله.

فالإسلام: هو إقامة الأعمال الظاهرة؛ الشهادتين مع الأركان الأربعة المعروفة؛ إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، مع بعض الإيمان الذي يُصحح هذا العمل الظاهر.

والإيمان: الإيمان بأركانه الستة؛ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره مع بعض العمل الظاهر الذي معه يصح هذا الإيمان الباطن.

والإحسان: هو مقام المراقبة لله جل وعلا.

الدرس الحادي عشر:

[المرتبة الأولى: الإسلام وأركانه]

فَأَرْكَانُ الإِسْلاَمِ خَمْسَةٌ: شَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلَه إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وإِقَامُ الصَّلاَةِ، وإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ، وَحَجُّ بَيْتِ اللهِ الحَرَامِ. فَدَلِيلُ الشَّهَادَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران:١٨] ومَعْنَاهَا: لاَ مَعْبُودَ بِحَقٍّ إِلاَّ اللهُ؛ «لاَ إِلَهَ» نَافِيًا جَمِيعَ مَا يُعْبَدُ مِن دُونِ اللهِ «إِلاَّ اللهُ» مُثْبِتًا العِبَادَةَ للهِ وَحْدَه لاَ شَرِيكَ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ، كَمَا أَنَّهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ فِي مُلْكِهِ. وَتَفْسِيرُهَا الَّذِي يُوَضِّحُهَا، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي[١٢٤] فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف:٢٦-٢٨] وقوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾[١٢٥] [آل عمران:٦٤]

الشرح

قال العلامة ابن باز:

- قوله: (فَأَرْكَانُ الإِسْلاَمِ خَمْسَةٌ:....)

- وأركانه خمسة: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة،

---

(١٢٤) أي: خلقني وأوجدني من العدم [الدمشقي]

(١٢٥) هو خطاب لليهود والنصارى حسب ظاهر النظم القرآني ﴿تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾ عدل ونصف نستوي نحن وأنتم فيها، ثم فسرها بقوله تعالى: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ لا وثنا ولا صليبا ولا صنما ولا طاغوتًا ولا نارًا ولا غير ذلك، بل نفرد العبادة لله وحده لا شريك له وهذه هي دعوة جميع الرسل إلى الله تعالى ذكره وتنزهت صفاته، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ تبكيت لمن اعتقد ربوبية المسيح وعزير، وإشارة إلى أن هؤلاء من جنس البشر وبعض منهم، وإزراء بمن قلد الرجال في دين الله فحلل ما حللوه وحرم ما حرموه عليه، فإن من فعل ذلك فقد اتخذ من قلده ربًا، ومنه: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ قال ابن جريج: لا يطيع بعضنا بعضا في معصية الله.
وقال عكرمة: لا يسجد بعضنا لبعض ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أعرضوا عن التوحيد ﴿فَقُولُوا﴾، أي: أنت يا محمد والمؤمنون لهم: ﴿اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾؛ أي: موحدون لما لزمتكم الحجة فاعترفوا بأنا مسلمون دونكم [الدمشقي].

وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلًا. كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ في قوله: «بُنِيَ الإسلامُ على خمسٍ: شهادةِ أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقامِ الصلاة، وإيتاءِ الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت»(١٢٦).

فأول أركان الإسلام: شهادة أن لا إله إلا الله، وبها يدخل العبد في الإسلام ؛ فيشهد أن لا إله إلا الله؛ أي: لا معبود حق إلا الله. وهي نفي وإثبات، فلا إله نفي، وإلا الله إثبات، قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾[الفاتحة:٥]، وقال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾[البينة:٥] الآية. وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾[الحج:٦٢]. أما قولها بدون العمل بها، فلا تنفع كأن يقول: لا إله إلا الله، ولا يخص الله بالعبادة ؛ فإن شهادته لا تنفع؛ كالمنافقين، فإنهم يقولونها، ولا يعتقدونها، فهم في الدرك الأسفل من النار. فالذي يقول لا إله إلا الله، ويعبد القبور والأصنام ؛ لا تنفعه بل هي باطلة.

قال العلامة ابن قاسم:

❑ قوله: (فَأَرْكَانُ الإِسْلاَمِ خَمْسَةٌ)

● لا يستقيم إلا بها، ولا يثبت بدونها، وما فقد منها زال الإسلام بفقده.

❑ قوله: (شَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ...)

● ذكرها المصنف رحمه الله، كما جاء في الحديث الصحيح: «بني الإسلام على خمس»(١٢٧)؛ أي: قواعد أو دعائم، وفي رواية «على خمسة»(١٢٨) أي: أركان، مثل الإسلام ببناء أقيم على خمسة أعمدة لا يستقيم إلا بها، وقدم الأهم فالأهم، فبدأ بقطبها شهادة أن لا إله إلا الله، ثم ثنى بشهادة أن محمدًا رسول الله، وكثيرًا ما تقرن بها، ثم قال: وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج بيت الله الحرام، فهذه مباني الإسلام التي ابتنى وتركب منها، وتأتي أدلتها، وكل خصلة من خصال الإيمان داخلة في الإسلام، وكل

---

(١٢٦) أخرجه البخاري (٨)، ومسلم (١٦)، وغيرهما من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(١٢٧) سبق تخريجه.

(١٢٨) أخرجه مسلم (١٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

خصلة من خصال الإسلام داخلة في الإيمان، فما كان من الأعمال الباطنة فوصف الإيمان عليه أغلب من وصف الإسلام، وما كان من الأعمال الدينية الظاهرة؛ كالشهادتين والصلاة وأنواع العبادات التي تظهر ويطلع عليها الناس، فوصف الإسلام عليها أغلب من وصف الإيمان، فدائرة الإسلام أوسع من دائرة الإيمان، كما أن دائرة الإيمان أوسع من دائرة الإحسان.

❑ قوله: (فَدَلِيلُ الشَّهَادَةِ)

● هذا شروع من المصنف في بيان أدلة أركان الإسلام الخمسة.

والشهادة: خبر قاطع، وأطلق لفظ الشهادة على شهادة أن لا إله إلا الله؛ لأنها أعظم شهادة في الوجود على أعظم مشهود به، فلا ينصرف الإطلاق إلا إليها.

❑ قوله: (قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ...﴾)

● أي: لا معبود بحق في الوجود إلا هو وحده، فهو الإله الحق، ومن ادعيت فيه الألوهية سواه فهو أبطل الباطل وأضل الضلال،فالله الإله الحق المستحق للعبادة وحده دون كل ما سواه، وعبارات السلف في الشهادة تدور على الحكم والقضاء والإعلام والبيان والإخبار، وذكر ابن القيم وغيره أنه لا تنافي بينها، فإن الشهادة تتضمن كلام الشاهد وخبره وقوله، وتتضمن إعلامه وإخباره وبيانه، وأول مراتبها: علم، ومعرفة، واعتقاد لصحة المشهود به، وتكلمه بذلك، وإعلامه غيره بما شهد به، وإلزامه بمضمونها، وشهادته سبحانه لنفسه بالوحدانية والقيام بالقسط تضمنت هذه المراتب الأربع، علمه بذلك، وتكلمه به، وإعلامه، وإخباره لخلقه به، وأمرهم وإلزامهم به، فأما العلم فالشهادة تتضمنه ضرورة، ومن تكلم به فقد شهد به، ولفظ الشهادة يستعمل في الإعلام، وتدل على الأمر، وشهادته سبحانه هي أعظم شهادة في الوجود أنه لا إله إلا هو المتفرد بالإلهية، من أعظم شاهد، وهو الله سبحانه وتعالى وتقدّس، على أعظم مشهود به وهو وحدانيته جلّ وعلا؛ فإنه لا شهادة أعظم ولا أجل ولا أثبت من شهادته تعالى لنفسه بالألوهية، وشهادة رب العالمين لا ينقصها شيء ألبتة، وذكر الكلبي أن حَبْرَيْن من أحبار الشام قدما على

النبي ﷺ فقالا: أخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله فأنزل الله هذه الآية، فأسلما.

❑ قوله: (﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ﴾...)

● أي: والملائكة شهدوا لله: بأنه لا إله إلا هو، كما شهد الله بذلك لنفسه المقدسة، وأولوا العلم شهدوا بذلك أيضًا: أنه لا إله إلا هو، وفسرت بالإقرار والتبيين و الإظهار، واستشهادهم فيه تعديل وتزكية لأهل العلم إذا ارتقوا إلى هذا المقام الذي استشهدهم الله تعالى فيه على وحدانيته ﷻ، ولينتف جحد الجاحدين وانتحال المبطلين، وهذا فيه أعظم حاثٍ لك على طلب العلم.

فإن الله شهد واستشهد الملائكة، واستشهد أهل العلم، ففي هذه الشهادة رفعة أهل العلم، حيث استشهدوا على ما شهد به رب العالمين، وأي ثناء أشرف من هذا الثناء عليهم وتعديلهم، وشهادته لهم أنهم أولوا العلم، وجعلهم حجة على من أنكرها، فدل على فضل العلم، وفي الحديث: «يحمل هذا العلم من كل أمة عدو لها»(١٢٩)،وهذا أعظم مرغب في العلم وإن زهد فيه الأكثر، والمراد بالعلم: العلم الشرعي الذي هو نور القلوب وحياتها، وغيره علم نسبي إضافي إما إلى أمور دنيوية، أو علوم حسابية وصناعية أو غير ذلك، وأهله ليسوا من أهل العلم الذين استشهدهم الله، فلا يطلق هذا العلم إلا على العلم الشرعي الديني.

❑ قوله: (﴿قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾)

● أي: قائمًا بالعدل، فشهد سبحانه: أنه قائم بالعدل في توحيده، وبالوحدانية في عدله، والتوحيد والعدل هما جماع صفات الكمال، ونظم الآية شهد الله قائمًا بالقسط أنه لا إله إلا هو، فـ«قائمًا» نصب على الحال، و«لا إله إلا هو» توكيد لما سبق؛ لعظم شأن التوحيد، ثم أثنى على نفسه المقدسة فأخبر بأنه: ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي لا يرام جنابه عظمةً وكبرياءً.

﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾: في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، فتضمنت هذه الآية الكريمة أجلّ شهادة وأعظمها وأعدلها وأصدقها من أجلّ شاهد، بأجلّ مشهود به، وتضمنت توحيده

---

(١٢٩) أخرجه البيهقي (١٠/٢٠٩)، من حديث إبراهيم بن عبد الرحمن العذري مرسلًا، بلفظ: «يرث»، وصححه العلامة الألباني في «المشكاة» (٢٤٨)، وأخرجه الطبراني في «مسند الشاميين»، من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعًا، وفي إسناده: «مسلمة بن علي»، وهو متروك.

تعالىٰ وعدله وعزته وحكمته.

❑ قوله: (ومَعْنَاهَا: لاَ مَعْبُودَ بِحَقٍّ إلاَّ الله)

● أي: ومعنىٰ هذه الكلمة العظيمة شهادة أن لا إله إلا الله: (لا معبود)؛ أي: لا مألوه (بحق إلا الله) وحده دون كل ما سواه، بل كل مألوه سوىٰ الله ﷻ فإلهيته أبطل الباطل وأضل الضلال، ففيها نفي الإلهية عن غير الله وإثباتها لله وحده، وسيقت لتوحيد الإلهية مطابقة، لا كما يقوله بعض الجهلة: أن معناها: لا يخلق ولا يرزق إلا الله، ولا يدبر الأمر إلا الله، فإنها وإن دلت عليه بطريق التضمن فهي موضوعة لتوحيد الإلهية الذي هو إفراد الله بجميع أنواع العبادة، الذي أرسلت الرسل وأنزلت الكتب في تقريره وإيضاحه، وأما توحيد الربوبية فقد أقر به المشركون كأبي جهل وأضرابه، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾[يونس:٣١]؛ أي: أنه الذي يفعل ذلك، ولم ينازعوا فيه ولا امتنعوا من الإقرار به، بل احتج تعالىٰ عليهم بإقرارهم بتوحيد الربوبية علىٰ توحيد الإلهية، فقال: ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٣١﴾[يونس:٣١]؛ أي: الشرك به في عبادته، فإنهم يعرفون معناها، وأنها دلت علىٰ إفراد الله بالعبادة؛ ولهذا أنكروا أن يكون الله هو المعبود وحده، وقالوا: شتم آلهتنا، وقالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾[ص:٥]، بل يريدون أن يجعلوا بينهم وبين الله وسائط وشركاء في العبادة، فإن نفوسهم وإحساسهم امتزجت بالشرك وأنشأت عليه وألفته؛ فصاروا كالمريض الذي فسد مزاجه، فإذا أوتي بالطعام الحلو قال: هذا مر، وهو ليس بمر، ولكن الآفة من مزاجه الفاسد، بالنسبة إلىٰ عقولهم الفاسدة، فكذلك الحق والنور المبين الذي جاء عن النبي ﷺ هو عندهم وأمثالهم مر بالنسبة إلىٰ مزاجاتهم، والمقصود: أنهم عرفوا أن مدلولها أن يكون المعبود هو الله وحده، وبهذا تعرف أن مدلول لا إله إلا الله مطابقةً: هو إفراد الله بالعبادة.

❑ قوله: (لاَ إِلَه. نَافِيًا جَمِيعَ مَا يُعْبَدُ مِن دُونِ الله)

● الإله: فعال بمعنىٰ: مفعول؛ ككتاب بمعنىٰ: مكتوب، مشتق من أله، يأله إلهة؛ أي: عبد يعبد عبادةً لفظًا ومعنىٰ، والإله: هو المعبود المطاع، فالنفي في كلمة الإخلاص (لا إله) أي: لا مألوه يستحق أن يعبد إلا الله، فإذا قلت: لا إله، كنت نافيًا جميع ما يعبد

من دون ما سوى الله، يعني: والآلهة غير الله كثيرة طبق الأرض ولكن بالباطل و الضلال، وإنما الإله المستحق للعبادة هو الله وحده، وآلهة المشركين التي يعبدونها من دون الله إنما هي مجرد ظن منهم وإتباع لهواهم، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾﴾، إلى قوله: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾ [النجم:١٩-٢٣].

❑ قوله: (إلاَّ الله: مُثْبِتًا العِبَادَةَ لله وَحْدَه)

● أي: والإثبات في كلمة الإخلاص قولك: (إلا الله) هو المستثنى في هذه الكلمة العظيمة، ودلالتها على إثبات الإلهية لله وحده أعظم من دلالة قولنا: الله إله، فـ(لا) نافية للجنس، وخبرها المرفوع محذوف تقديره حق، و(إلا الله) استثناء من الخبر المرفوع، فالله هو الحق، وعبادته وحده هي الحق، وعبادة غيره منفية بـ(لا) في هذه الكلمة، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج:٦٢]، والقرآن كله يدل على إثبات العبادة لله وحده، فـ(لا إله إلا الله) اشتملت على أمرين هما ركناها: النفي، و الإثبات، فـ(لا إله) نافيًا وجود معبود بحق سوى الله، و(إلا الله) مثبتًا العبادة لله وحده دون كل ما سواه، والنفي المحض ليس بتوحيد، وكذلك الإثبات المحض؛ فلابد من الجمع بين النفي والإثبات، وشروطها ثمانية: أحدها: العلم المنافي للجهل، الثاني: اليقين المنافي للشك، الثالث: القبول المنافي للرد، الرابع: الانقياد المنافي للترك، الخامس: الإخلاص المنافي للشرك، السادس: الصدق المنافي للنفاق، السابع: المحبة المنافية لضدها، الثامن: الكفر بما سوى الله تعالى.

❑ قوله: (لاَ شَرِيكَ لَهُ...)

● يعني: فكما أنه المتفرد في ملكه فهو يدل على أن يفرد بالعبادة، فإن من أظلم الظلم أن يجعل المخلوق الذي ليس شريكًا لله في الملك شريكًا لله في العبادة، تعالى الله وتقدّس؛ ولهذا يحتج على من أنكر ألوهيته بما أقر به من ربوبيته؛ فإن توحيد الربوبية هو الدليل على توحيد الإلهية؛ ولهذا قال: (كما أنه لا شريك له في ملكه).

❑ قوله: (وَتَفْسِيرُهَا الَّذِي يُوَضِّحُهَا)

● أي: تفسير شهادة أن لا إله إلا الله الذي بيّنها بيانًا تاما من القرآن، فإنه تعالى بينها

في كتابه في غير موضع، ولم يكل عباده في بيان معناها إلى أحد سواه.

❑ قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾﴾

● أخبر تعالى عن عبده ورسوله وخليله إمام الحنفاء ووالد من بعده من الأنبياء أنه قال لأبيه آزر وقومه أهل بابل وملكهم النمرود -وكانوا يعبدون الأصنام-: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ﴾، أي: بريء ﴿مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ من الأوثان، وهذا في معنى (لا إله).

❑ قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾

● أي: ابتدأ خلقي وبرأني، وفيه معنى (إلا الله)، فدلت الآية على ما دلت عليه (لا إله إلا الله)، ولهذا يقال لـ(لا) النافية للجنس عند النحاة: لام التبرئة، فالخليل ﷺ تبرأ من آلهتهم سوى الله، ولم يتبرأ من عبادة الله، بل استثنى من المعبودين ربه.

❑ قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾

● أي: يرشدني لدينه القويم وصراطه المستقيم، وقد أمرنا تعالى أن نتأسى به، كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الآية [الممتحنة: ٤].

❑ قوله: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

●أي: وجعل كلمة التوحيد، وهي: لا إله إلا الله، باقية في نسله وذريته يقتدي به فيها من هداه الله من ذريته، ﴿لَعَلَّهُمْ﴾؛ أي: لعل أهل مكة وغيرهم ﴿يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾إلى دين إبراهيم الخليل، والكلمة هي: (لا إله إلا الله) بإجماع المفسرين، فعبر عن معنى لا إله بقوله: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾﴾، وعبر عن معنى إلا الله بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾، فتبين أن معنى لا إله إلا الله هو البراءة من عبادة كل ما سوى الله وإخلاص العبادة بجميع أنواعها لله كما تقدم؛ وبين تعالى معنى لا إله إلا الله في آيات كثيرة من كتابه يتعذر حصرها؛ كقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[الإسراء: ٢٣]، وفي﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟﴾ ما في معنى لا إله، وقوله: ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾هو الإثبات الذي أثبتته (لا إله إلا الله)؛ إذ لا يعبر عن الشيء إلا بمعناه، فبهذا ونحوه تعرف أن معنى (لا إله إلا الله) النفي والإثبات، والولاء والبراء، والتجريد والتفريد، وهذه التفاسير ونحوها ترجع إلى معنى واحد، وهو: تجريد غير الله عن الألوهية وتفريدها لله وحده دون كل من سواه، والبراءة من تأله غير الله بالكلية، ومن اعتقد: أنه بمجرد تلفظه بالشهادة يدخل الجنة ولا يدخل النار فهو ضال

مخالف للكتاب والسنة وإجماع الأمة.

❑ قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾

● أي: ودليل الشهادة أيضًا قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، أمر نبيه محمدًاﷺ أن يقول لأهل الكتاب: اليهود، والنصارى: ﴿تَعَالَوْا۟﴾؛ أي: هلموا ﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ﴾واحدة لا غير، والكلمة تطلق على الجملة المفيدة كما هنا ﴿سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾؛ أي: عدل ونصف لا يختلف فيها رسول ولا كتاب، نستوي نحن وأنتم في فرضيتها ووجوبها علينا وعليكم.

ومن المعلوم أن الكلمة هي التي يدعو إليها جميع الناس؛ فإنه ليس في الوجود سوى كلمة التوحيد عند الاستقراء والتتبع، فإنهﷺ قال لقريش: «قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا»[١٣٠]، وهي الكلمة التي تدعو إليها الرسل جميع الخلق، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾[الأنبياء:٢٥]، فتقرر: أنه ليس كلمة هنا غيرها، وقد فسرها تعالى بذلك.

❑ قوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾

● أي: لا نوحد نحن وأنتم بالعبادة إلا الله، فوضح معنى الكلمة، فإن في قوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾؛ معنى (لا إله إلا الله)، فتبين أن لا معبود بحق إلا الله وحده.

❑ قوله: ﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾

● لا صليبًا، ولا صنمًا، ولا طاغوتًا، ولا نارًا، ولا شيئًا غير الله، بل نفرده تعالى بالعبادة وحده لا شريك له، وهذه دعوة جميع الرسل.

❑ قوله: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾

● لا يطيع بعضنا بعضًا في معصية الله، كما فعلت اليهود والنصارى.

❑ قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾

● أي: فإن امتنعوا وأدبروا وأعرضوا عن الإجابة إلى إفراد الله بالعبادة فقولوا – أنتم

---

(١٣٠) أخرجه أحمد (٤٩٢/٣، ٣٤١/٤)، والطبراني (٤٥٨٢)، وغيرهما من حديث ربيعة بن عباد الديليﷺ، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد»(٢٠/٦): «رواه أحمد وابنه والطبراني في الكبير بنحوه، و«الأوسط» باختصار بأسانيد، وأحد أسانيد عبد الله بن أحمد ثقات الرجال» ا.هـ.

يا أمة محمد-لهم: ﴿ أَشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾مخلصون لله بالتوحيد دونهم؛ أي: صرحوا لهم مشافهةً أنكم مسلمون وأنهم كفار، وأنكم براء منهم وهم براء منكم، وهذا دال على أنه لابد أن تبين للكفار؛ حتى يتفهموا ويتحققوا: أنهم ليسوا على دين، وأن دينك خلاف دينهم الذي هم عليه، وأن دينهم خلاف دينك.

قال العلامة العثيمين:

❏ قوله: (فَأَرْكَانُ الإِسْلاَمِ خَمْسَة)

●دليل ذلك حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ «**بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج بيت الله الحرام**».

❏ قوله: (شَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله)

●شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ركن واحد؛ وإنما كانتا ركنًا واحدًا مع أنهما من شقين؛ لأن العبادات تنبني على تحقيقهما معًا، فلا تقبل العبادة إلا بالإخلاص لله ﷻ، وهو ما تتضمنه شهادة أن لا إله إلا الله واتباع الرسول ﷺ وهو ما تتضمنه شهادة أن محمدًا رسول الله.

❏ قوله: (قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ... ﴾)

●في الآية الكريمة شهادة الله لنفسه بأنه لا إله إلا هو، وشهادة الملائكة وشهادة أهل العلم بذلك وأنه تعالى قائم بالقسط؛ أي: العدل، ثم قرر ذلك بقوله: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾، وفي هذه الآية منقبة عظيمة لأهل العلم، حيث أخبر أنهم شهداء معه ومع الملائكة والمراد بهم أولو العلم بشريعته ويدخل فيهم دخولًا أوليًا رسله الكرام.

وهذه الشهادة أعظم شهادة؛ لعظم الشاهد والمشهود به، فالشاهد هو الله وملائكته، وأولو العلم، والمشهود به توحيد الله في ألوهيته وتقرير ذلك في قوله: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

❏ قوله: (وَمَعْنَاهَا: لاَ مَعْبُودَ بِحَقٍّ إِلاَّ الله...)

●أي: معنى لا إله إلا الله: لا معبود بحق إلا الله، فشهادة أن لا إله إلا الله أن يعترف الإنسان بلسانه وقلبه بأنه لا معبود حق إلا الله ﷻ؛ لأن «إله» بمعنى: مألوه، والتأله: التعبد،

وجملة «لا إله إلا الله» مشتملة علىٰ نفي وإثبات، أما النفي فهو «لا إله» وأما الإثبات فهو «إلا الله»، و«الله» لفظ الجلالة بدل من خبر «لا» المحذوف والتقدير «لا إله حق إلا الله». وبتقديرنا الخبر بهذه الكلمة «حق» يتبين الجواب عن الإشكال التالي: وهو كيف يقال: «لا إله إلا الله» مع أن هناك آلهة تعبد من دون الله وقد سماها الله تعالىٰ آلهة وسماها عابدوها آلهة قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾[هود:١٠١] وكيف يمكن أن نثبت الألوهية لغير الله ﷻ والرسل يقولون لأقوامهم ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾[الأعراف:٥٩].

والجواب علىٰ هذا الإشكال يتبين بتقدير الخبر في «لا إله إلا الله» فنقول: هذه الآلهة التي تعبد من دون الله هي آلهة لكنها آلهة باطلة ليست آلهة حقة وليس لها من حق الألوهية شيء، ويدل لذلك قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾[الحج:٦٢]، ويدل لذلك أيضًا قوله تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾[النجم:١٩-٢٣]، وقوله تعالىٰ عن يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾[يوسف:٤٠]؛ إذَنْ فمعنىٰ «لا إله إلا الله»: لا معبود حق إلا الله ﷻ، فأما المعبودات سواه فإن ألوهيتها التي يزعمها عابدوها ليست حقيقية؛ أي: ألوهية باطلة.

❑ قوله: (إِبْرَٰهِيمُ ...)

● هو خليل الله إمام الحنفاء، وأفضل الرسل بعد محمد ﷺ، وأبوه آزر.

❑ قوله: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾

● ﴿بَرَآءٌ﴾: صفة مشبهة من البراءة وهي أبلغ من بريء. وقوله: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ يوافي قول: «لا إله».

❑ قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾

● خلقني ابتداء علىٰ الفطرة وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ يوافي قول: «إلا الله» فهو

سبحانه وتعالىٰ لا شريك له في عبادته، كما أنه لا شريك له في ملكه، ودليل ذلك قوله تعالىٰ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝﴾[الأعراف:٥٤] ففي هذه الآية حصر الخلق والأمر لله رب العالمين وحده فله الخلق وله الأمر الكوني والشرعي.

❑ قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾

●﴿سَيَهْدِينِ﴾: سيدلني علىٰ الحق ويوفقني له.

❑ قوله: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً﴾

●﴿وَجَعَلَهَا﴾، أي: هذه الكلمة وهي البراءة من كل معبود سوىٰ الله.

❑ قوله: ﴿بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾

●﴿فِى عَقِبِهِۦ﴾: في ذريته.

❑ قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

●أي: إليها من الشرك.

❑ قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾

●﴿قُلْ﴾: الخطاب للنبي ﷺلمناظرة أهل الكتاب اليهود والنصارىٰ.

❑ قوله: ﴿تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾

●﴿كَلِمَةٍ﴾: هذه الكلمة هي ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئًا ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله فلا نعبد إلا الله، هي معنىٰ «لا إله إلا الله»، ومعنىٰ ﴿سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾أننا نحن وإياكم سواء فيها.

❑ قوله: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾

●أي: لا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله ﷻ بحيث يعظم كما يعظم الله ﷻ، ويعبد كما يعبد الله، ويجعل الحكم لغيره.

❑ قوله: (﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾

●أي: أعرضوا عما دعوتموهم إليه.

❑ قوله: ﴿فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾

●أي: فأعلنوا لهم وأشهدوهم أنكم مسلمون لله، بريئون مما هم عليه من العناد

والتولي عن هذه الكلمة العظيمة «لا إله إلا الله».

❑ قوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾

● ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾؛ أي: من جنسكم بل هو من بينكم أيضًا كما قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ [الجمعة:٢].

❑ قوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾

● أي: يشق عليه ما شق عليكم.

❑ قوله: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾

● أي: علىٰ منفعتكم ودفع الضر عنكم.

❑ قوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

● أي: ذو رأفة ورحمة بالمؤمنين، وخص المؤمنين بذلك؛ لأنه ﷺ مأمور بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم، وهذه الأوصاف لرسول الله ﷺ تدل علىٰ أنه رسول الله حقًّا كما دل علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح:٢٩] وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الاعراف:١٥٨] والآيات في هذا المعنىٰ كثيرة جدًّا تدل علىٰ أن محمدًا رسول الله حقًّا.

قال العلامة الفوزان:

❑ قوله: (فَأَرْكَانُ الإِسْلَامِ خَمْسَةٌ...)

● لا يقوم الإسلام إلا علىٰ هذه الأركان، إذا فُقِدَتْ فإن الإسلام لا يستقيم، وبقية الطاعات مكملات لهذه الأركان، كل الطاعات وأفعال الخير كلها مكملات لهذه الأركان، ولهذا سأل جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ بحضرة الصحابة قال: «أخبرني عن الإسلام، قال: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلًا».

ففسر الإسلام بأنه هذه الأركان الخمسة، لكن حديث ابن عمر بيّن أن هذه الخمسة هي مباني الإسلام فقال: «بني الإسلام علىٰ خمس» أي: أن هذه الخمس ليست هي الإسلام كله لكنها أركانه ومبانيه التي يقوم عليها وبقية المشروعات مكملات ومتممات لهذه الأركان.

❑قوله: (فَدَلِيلُ الشَّهَادَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ...﴾)

●قوله تعالى: ﴿شَهِدَ﴾؛ أي: حكم وقضى وأعلم وبين وألزم، فالشهادة من الله تدور على هذه المعاني الخمسة: الحكم، والقضاء، والإعلان، والبيان، والإلزام.

فمعنى شهد: أي: قضى -سبحانه - وأعلم وأخبر وألزم عباده بذلك، أنه لا إله إلا هو.

لا إله: لا نافية تنفي جميع ما عبد من دون الله.

إلا هو: مثبت العبادة لله وحده.

ومعنى أنه لا إله إلا هو؛ أي: لا معبود بحق إلا الله سبحانه وتعالى، أما من عبد غير الله فإن عبادته باطلة لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾[الحج:٦٢]

شهد لنفسه سبحانه وتعالى بالوحدانية وهو أصدق القائلين، وشهادته - سبحانه وتعالى - أصدق الشهادات؛ لأنها صادرة عن حكيم خبير عليم، يعلم كل شيء فهي شهادة صادقة.

والملائكة: شهدوا أنه لا إله إلا هو، وهم عالم خلقهم الله لعبادته، ملائكة كرام عباد مكرمون خلقهم الله لعبادته، يسبحون الليل والنهار لا يفترون، وأيضًا خلقهم الله لتنفيذ أوامره في الكون، وكِّل إليهم تنفيذ ما يأمر به سبحانه وتعالى من أمور الكون، فكل ملك منهم موكل بعمل، وشهادتهم شهادة صدق؛ لأنهم أهل علم وعبادة ومعرفة بالله ﷻ وهم من أفضل الخلق على الخلاف، هل صالح البشر أفضل من الملائكة أو الملائكة، أفضل من صالح البشر؟ على خلاف.

وأولو العلم: صنفان: الملائكة، والصنف الثاني: أولو العلم من البشر، وأولو العلم لا يشهدون إلا بما هو حق، بخلاف الجهال لا اعتبار بشهادتهم، وكل عالم من خلق الله يشهد لله بالوحدانية وأنه لا إله إلا هو، وهذا فيه تشريف لأهل العلم حيث إن الله قرن شهادتهم مع شهادته سبحانه وتعالى وشهادة ملائكته، اعتبر شهادة أهل العلم من الخلق ودل على فضلهم وشرفهم ومكانتهم، على أعظم مشهود به وهو التوحيد.

والمراد بأولي العلم: أهل العلم الشرعي لا كما يقوله بعض الناس: إن أهل العلم المراد بهم: أهل الصناعة والزراعة، فهؤلاء لا يقال لهم: أهل العلم على وجه الإطلاق؛

لأن علمهم محدود مقيد، بل يقال: هذا عالم بالحساب، عالم بالهندسة، عالم بالطب، ولا يقال لهم: أهل العلم مطلقًا؛ لأن هذا لا يطلق إلا على أهل العلم الشرعي.

وأيضًا أكثر هؤلاء أهل علم دنيوي، وفيهم ملاحدة يزيدهم علمهم -غالبًا- جهلًا بالله ﷻ وغرورًا وإلحادًا كما تشاهدون الآن في الأمم الكافرة، متقدمون في الصناعات وفي الزراعة لكنهم كفار، فكيف يقال: إنهم أهل العلم الذين ذكرهم الله في قوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران:١٨] هذا غير معقول أبدًا.

وكذلك قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨] المراد: علماء الشرع الذين يعرفون الله حق معرفته، ويعبدونه حق عبادته، ويخشونه.

أما هؤلاء فأغلبهم لا يخشون الله ﷻ؛ بل يكفرون بالله ويجحدونه، ويدعون أن العالم ليس له رب، وإنما الطبيعة هي التي توجده وتتصرف فيه، كما هو عند الشيوعيين، إنهم ينكرون الرب -سبحانه وتعالى- مع أن عندهم علما دنيويًا كيف نقول: إن هؤلاء هم أهل العلم؛ هذا غلط، فالعلم لا يطلق إلا على أهله، وهو لقب شريف لا يطلق على الملاحدة والكفار، ويقال: هؤلاء أهل العلم.

فالملائكة وأولو العلم شهدوا لله بالوحدانية.

إذن لا عبرة بقول غيرهم من الملاحدة والمشركين والصابئين الذين يكفرون بالله ﷻ، هؤلاء لا عبرة بهم ولا بقولهم؛ لأنه مخالف لشهادة الله وشهادة ملائكته وشهادة أولي العلم من خلقه.

وقوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ منصوب على الحال من شهد؛ أي: حالة كونه قائمًا سبحانه وتعالى.

والقسط: العدل؛ أي: أن الله -سبحانه وتعالى- قائم بالعدل في كل شيء والعدل ضد الجور، وهو -سبحانه وتعالى- حكم عدل لا يصدر عنه إلا العدل في كل شيء.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: تأكيد للجملة الأولى.

﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾: اسمان لله ﷻ يتضمنان صفتين من صفاته وهما العزة والحكمة.

❑ قوله: (وَمعنَاهَا: لاَ مَعْبُودَ بِحَقٍّ إلاَّ الله...)

● أي: معنى لا إله إلا الله ليس - كما يقول أهل الباطل: لا خالق ولا رازق إلا الله؛ لأن هذا توحيد الربوبية يقر به المشركون، وهم لا يقولون: لا إله إلا الله، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ۝٣٦﴾ [الصافات:٣٥،٣٦] آلهتنا، أي: معبوداتنا ﴿لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ۝٣٦﴾، يعنون: الرسول ﷺ

وصفوه بالشعر والجنون؛ لأنه قال لهم: قولوا: لا إله إلا الله، ونهاهم عن عبادة الأصنام.

ولما قال لهم: قولوا: لا إله إلا الله، قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾[ص:٥] يحسبون الآلهة متعددة.

فدل على أن معناها: لا معبود بحق إلا الله، ولو كان معناها: لا خالق، ولا رازق إلا الله، فإن هذا يقرون به ولا يمارون فيه، فلو كان هذا معناها ما امتنعوا من قول: لا إله إلا الله؛ لأنهم يقولون: إذا سئلوا من خلق السماوات والأرض يقولون: الله، إذا سئلوا من الذي يخلق؟ من الذي يرزق؟ من الذي يحيي ويميت؟ ويدبر الأرض؟ يقولون: الله، هم يعترفون بهذا فلو كان هذا معنى لا إله إلا الله لأقروا بهذا، لكن معناها: لا معبود بحق إلا الله.

لو قلت: لا معبود إلا الله، هذا غلط كبير؛ لأن المعبودات كلها تكون هي الله -تعالى الله عن هذا- لكن إذا قيدتها وقلت: بحق؛ انتفت المعبودات كلها إلا الله سبحانه وتعالى، لابد أن تقول: لا معبود حق، أو لا معبود بحق إلا الله، ثم بين ذلك على لفظ الكلمة.

لا إله: النفي، نفي للعبودية عما سوى الله.

إلا الله: هذا إثبات للعبودية لله وحده لا شريك له.

فلا إله إلا الله تشتمل على نفي وإثبات، ولابد في التوحيد من النفي والإثبات لا يكفي الإثبات وحده، ولا يكفي النفي وحده، بل لابد من النفي والإثبات كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾[البقرة:٢٦٥] ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾[النساء:٣٦].

فلو قلت: الله إله، هذا لا يكفي، اللات: إله، والعزى: إله، ومناة: إله، كل الأصنام تسمى آلهة.

فلابد أن تقول: لا إله إلا الله، فلابد من الجمع بين النفي والإثبات حتى يتحقق التوحيد وينتفي الشرك.

□قوله: (وَتَفْسِيرُهَا الَّذِي يُوَضِّحُهَا﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦﴾

●خير ما يفسر القرآن القرآنُ، فلا إله إلا الله فسرها الله في القرآن، وذلك في قول الخليل - عليه الصلاة والسلام - فيما ذكر الله عنه: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ﴾[الزخرف:٢٦] هذا النفي، لا إله، ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾[الزخرف:٢٧] يعني: إلا الله، هذا الإثبات.

فهذه الآية تفسير معنىٰ لا إله إلا الله تمامًا.

□قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾

●هذه الآية من سورة آل عمران نزلت في وفد نجران النصارىٰ الذين قدموا علىٰ النبي ﷺ وناظروه وسألوه، وحصل بينهم وبينه كلام طويل، وهم نصارىٰ من نصارىٰ العرب، وفي النهاية طلب النبي ﷺ منهم المباهلة: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾[آل عمران:٦١].

فلما طلب منهم المباهلة خافوا ولم يباهلوه - عليه الصلاة والسلام، ودفعوا له الجزية؛ لأنهم يعلمون أنهم علىٰ باطل، وأنه رسول الله ﷺ.

نبتهل؛ أي: ندعو باللعنة علىٰ الكاذب منا، وكانوا يعلمون أنهم هم الكاذبون، ولو باهلوه لنزلت عليهم النار وأحرقتهم في مكانهم، فقالوا: لا، لكن ندفع الجزية ولا نباهلكم، فقبل النبي ﷺ منهم الجزية، لقد تبين أن الله أمره بما في هذه الآية.

وهذه الآية فيها معنىٰ لا إله إلا الله، قوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ﴾، هذا النفي، وقوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾هذا الإثبات، وهذا هو العدل الذي قامت له السماوات والأرض، فالسماوات والأرض قامت علىٰ التوحيد والعدل، لا نشرك في عبادته شيئًا لا المسيح الذي تزعمون أنه رب، وتعبدونه من دون الله، ولا غير المسيح، ولا محمد عليه الصلاة والسلام، ولا أحد من الأنبياء، ولا من الصالحين، ولا من الأولياء، ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾.

﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، كما اتخذتم الأحبار والرهبان أربابًا من دون الله تعالىٰ: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾[التوبة:٣١]، واتخاذ الأحبار والرهبان من دون الله بيَّنه رسول الله ﷺ في أنه طاعتهم في تحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحل الله، هذا معنىٰ اتخاذهم أربابًا من دون الله، إذا كانوا يحللون ما حرم الله ويحرمون ما أحل، فإذا أطاعوهم في ذلك، فقد اتخذوهم أربابًا؛ لأن الذي يشرع للناس ويحلل ويحرم

هو الله سبحانه وتعالى.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾: ولم يقبلوا دعوة التوحيد ﴿فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾أشهدوهم على أنكم موحدون وأنهم كفار، بينوا لهم بطلان ما هم عليه، ففي هذه الآية البراءة من دين المشركين والمصارحة بذلك، اشهدوا بأنا مسلمون ففي هذا وجوب إعلان بطلان ما عليه المشركون وعدم السكوت عن ذلك، والإعلان عن بطلان الشرك والرد على أهله.

والخلاصة:

أن لا إله إلا الله لها ركنان: هما النفي والإثبات، فإذا قيل لك: ما هي أركان لا إله إلا الله، فتقول النفي والإثبات.

وشروطها سبعة لا تنفع إلا بهذه الشروط نظمها بعضهم بقوله:

علم يقين وإخلاص وصدقك ... مع محبة وانقياد والقبول لها

فالعلم: ضده الجهل، فالذي يقول: لا إله إلا الله بلسانه ويجهل معناها هذا لا تنفعه لا إله إلا اله.

واليقين: فلا يكون عنده شك؛ لأن بعض الناس قد يعلم معناها ولكن عنده شك في ذلك، فليس علمه بصحيح، لابد أن يكون عنده يقين بلا إله إلا الله، وأنها حق.

والإخلاص: ضده الشرك، بعض الناس يقول: لا إله إلا الله، ولكنه لا يترك الشرك، مثل ما هو الواقع الآن عند عباد القبور، هؤلاء لا تنفعهم لا إله إلا الله؛ لأن من شروطها ترك الشرك.

والصدق: ضده الكذب؛ لأن المنافقين يقولون: لا إله إلا الله، لكنهم كاذبون في قلوبهم، لا يعتقدون معناها، قال الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾﴾[المنافقون:١،٢].

والمحبة: أن تكون محبًا لهذه الكلمة وليًا لأهلها، أما الذي لا يحبها، أو لا يحب أهلها؛ فإنها لا تنفعه.

والانقياد: ضد الإعراض والترك، وهو الانقياد لما تدل عليه من عبادة الله وحده لا شريك له، وامتثال أوامره، ما دمت اعترفت وشهدت أنه لا إله إلا الله يلزمك أن تنقاد

لأحكامه ودينه، أما أن تقول: لا إله إلا الله، ولا تنقاد لأحكام الله وشرعه؛ فإنها لا تنفعك لا إله إلا الله.

والقبول: القبول المنافي للرد، بأن لا ترد شيئًا من حقوق لا إله إلا الله، وما تدل عليه بل تقبل كل ما تدل عليه لا إله إلا الله، تتقبله تقبلًا صحيحًا.

وزيد شرط ثامن:

وزيد ثامنها الكفران بما مع الإله من الأشياء قد ألها

أي: البراءة من الشرك، فلا يكون موحدًا حتى يتبرأ من الشرك: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الزخرف:٢٦].

هذه شروط لا إله إلا الله، ثمانية شروط.

الركن الأول من أركان الإسلام مكون من شيئين:

الأول: شهادة أن لا إله إلا الله.

والثاني: شهادة أن محمدًا رسول الله.

فهما ركن واحد، الشق الأول؛ يعني: الإخلاص في العبادة، والشق الثاني: يعني متابعة الرسول ﷺ.

ودليل شهادة أن محمدًا رسول الله قوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة:١٢٨].

قال العلامة صالح آل الشيخ:

❑ قوله: (فَأَرْكَانُ الإِسْلَامِ خَمْسَةٌ...)

●قال: (فأركان الإسلام خمسة) ذكرها ثم ذكر الأدلة على ذلك.

❑ قوله: (فَدَلِيلُ الشَّهَادَةِ قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾)

● وجه الاستدلال: أن الله جل وعلا شهد بذلك لنفسه، وشهد له بذلك الملائكة، وهم عُمّار السماء، وشهد له بذلك أيضًا أولوا العلم من الثقلين، قال جل وعلا: ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران:١٨] فبعد أن شهد بذلك لنفسه، وأخبر بشهادة ملائكته له بذلك، وبشهادة أولي العلم له بذلك، أخبر مرة أخرى بمضمون ذلك

فقال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨﴾، ووجه الاستدلال من هذه الآية واضح ظاهر.

❑ قوله: (ومعناها: لاَ مَعْبُودَ بِحَقٍّ إلاَّ اللهُ)

●ما معنىٰ لا إله إلا الله؟

قال: (معناها لا معبود بحق إلا الله وحده)، لا إله إلا الله، أربع كلمات: (لا) ثم (إله) ثم (إلا) ثم (الله)، معنىٰ (لا) هذه حرف لنفي الجنس، وهي من أخوات إنَّ، أو تعمل عمل إنَّ، كما قال ابن مالك:

عَمَـلَ إنَّ اجْعَـلْ لِـلا فِـي نَكِـرَة ... ...

ويكون اسمها نكرة، كما قال هنا:(لا إله)، إله؛ الإله فعال بمعنىٰ مفعول يعني معبود، إله بمعنىٰ مألوه يعني معبود؛ لأن الإلهة بمعنىٰ العبادة، والألوهة بمعنىٰ العبودية، وأصلها من أَلَهَ يَأْلَهُ، إِلَهَةً، وألوهة؛ إذا عبد مع الحب والخوف والرجاء؛ إذا عبد عابد ما يعبده خائفًا راجيًا محبًا فإنه يكون قد ألهه، قال الراجز برجزه المشهور:

لله درّ الغانيـــات المُــــدَّهِ سبّحن واسـترجعن مـن تـألهي

يعني: من عبادتي التأله هو العبادة؛ يعني: لا إله، كما قال هنا، معناها لا معبود، فسر الإله بمعنىٰ المعبود؛ لأن ذلك الذي يقتضيه لسان العرب، وكذلك هو الذي جاء في القرآن، قال جل وعلا: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾[هود:١،٢]، والذي جاء من عند الله جل وعلا هو لا إله إلا الله قال هنا: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ فتفسير الإله بالمعبود، هذا موافق للقرآن وموافق للغة العرب، وبه تعلم أن من فسر الإله في هذا الموطن بالرب؛ يعني: بأنه القادر علىٰ الاختراع، كما هو تفسير أهل الكلام المذموم والأشاعرة والماتريدية ونحوهم، فإن هذا من أبطل ما يكون؛ لأنه مناقض للغة العرب وتردُّه لغة العرب، ومناقض للقرآن ويردُّه القرآن والسنة، فإن مادة الإله غير مادة الرب، والإله هو المعبود كما أوضحت لكم في الاشتقاق.

❑ قوله: (لاَ إله إلا الله)

●يقولون: معنىٰ (لا إله إلا الله)؛ أي: لا قادر علىٰ الاختراع إلا الله، ولهذا لا يكفرون من أشرك مع الله جل وعلا إلهًا آخر في العبادة، يقولون: ما دام أنه مقر بتوحيد الربوبية، وبأن الله جل وعلا هو المتوحّد في أفعاله؛ في رزقه وخلقه وإحيائه وإماتته، وفي

تدبيره الأمر، وفي ملكه، وفيما يفعل، فإن هذا مؤمن. وهذا باطل، وبعضهم يفسر الإله بتفسير آخر يرجع إلى معنى الربوبية، يقول أحد كبار وأئمة الأشاعرة، وهو السَّنوسي في كتابه المعروف بـ«أم البراهين» في العقائد الأشعرية يقول: فالإله هو المستغني عما سواه، المفتقر إليه كل ما عداه. يقول: فمعنى لا إله إلا الله لا مستغنيًا عما سواه، ولا مفتقرًا إليه كلّ ما عداه إلا الله. فصار معنى كلمة التوحيد عندهم؛ توحيد الله جل وعلا في ربوبيته. وهذا من أبطل الباطل؛ لأن المشركين قد أخبر الله جل وعلا في كتابه بأنهم مقرون بهذا الذي جعله معنى كلمة التوحيد، يقول: معنى لا إله إلا الله: لا مستغنيًا عما سواه، ولا مفتقرًا إليه كل ما عداه إلا الله. أرأيتم أبا جهل وصحبه ألم يكونوا موقنين بأنه لا مستغنيًا عما سواه ولا مفتقرًا إليه كل ما عداه إلا الله؟! هم يؤمنون بذلك كما بينه الله جل وعلا في القرآن في آيات كثيرة جدًا كقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت:٦١]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف:٨٧]، ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [يونس:٣١] إلى آخر الآية قال: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يونس:٣١]، ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾﴾ [المؤمنون:٨٦]، ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون:٨٨، ٨٩] إلى آخر ما جاء في هذه الآيات.

إذن فتفسير لا إله إلا الله بأنها لا معبود إلا الله هذا التفسير ليس تفسيرًا اجتهاديًا، وإنما هو تفسير قرآني لهذه الكلمة قال جل وعلا: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [هود:١، ٢]، فمن زعم أن هذا التفسير من اجتهادات إمام هذه الدعوة، فهذا مناقض أو راد أو جاهل بالقرآن العظيم، فإن الذي فسر الإلهية بهذا المعنى هو الله جل وعلا في كتابه في غير ما آية، قال جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [المؤمنون:٢٣] وهذا واضح ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ أتى بعد أمرهم بعبادة الله جل وعلا وحده دون ما سواه، وهذا مبين كثير في الكتاب والسنة والنبي ﷺ قال لحصين بن عبد الرحمن: «كم إله تعبد؟ قال: أعبد سبعة، ستة في الأرض وواحد في السماء. قال: «فمن ذا الذي تعد لرغبك ولرهبك؟ قال: الذي في السماء»(١٣١). فهذا معنى الإله، وهذا

---

(١٣١) أخرجه الترمذي (٣٤٨٣)، والطبراني (١٨/١٧٤)، وغيرهما من حديث عمران بن حصين ﷺ.

≡

معنى لا إله؛ أي: لا معبود، فهذا التفسير تفسير من القرآن، تفسير جاء من الله جل وعلا ومن نبيه ﷺ ليس تفسيرًا اجتهاديًا من أئمة هذه الدعوة كما زعمه الخرافيون وأعداء التوحيد.

إذن هنا قال: معناها لا معبود بحق إلا الله، الكلمة الثانية: «إله»، الكلمة الثالثة «إلا»، وإلا هذه عند بعض العلماء أداة استثناء، وعند بعضهم أداة حصر، فصار معنى لا إله إلا الله: لا معبود إلا الله، خبر لا: أين هو؟ لا معبود إلا الله؛ يعني: لا معبود موجود إلا الله؟ لا معبود بحق إلا الله، لا معبود يُعبد إلا الله. خبر لا: أين هو؟ قال العلماء: خبر لا محذوف، ذلك لأن العرب ترى في لغتها أن لا النافية للجنس يحذف خبرها إذا كان واضحًا. ومن الواضح أن المشركين لم ينازعوا في وجود آلهة أخرى، يعلمون أن هناك آلهة كثيرة موجودة؛ لهذا لا يصح أن يقال: أن خبر (لا إله) موجود؛ لأنهم قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا﴾[ص:٥] لو كان خبر (لا إله) موجودًا، قالوا له: هذه الآلهة موجودة، فكلمتك هذه ليست بصحيحة، لكن الخبر معلوم لأنه زبدة الرسالة، وهو ما قدره الشيخ هنا (بحق) أو يقدر (حق) بدون الباء، وذلك لأن خبر (لا) إذا حذف قُدر بالمناسب الذي يعلم، وإذا حذف الخبر كان لأجل العلم به ولوضوحه، كما ذكر ابن مالك في الألفية في آخر باب لا النافية للجنس يقول:

وَشَاعَ فِي ذَا الْبَابِ إِسْقَاطُ الخَبَرِ ... إِذَا الْمُرَادُ مَعْ سُقُوطِهِ ظَهَرْ

إذا ظهر المراد مع الحذف فإنه يُحذف، ولهذا لا يحذف خبر لا النافية للجنس إلا إذا كان واضحًا، إذا كان الخبر واضحًا، وهنا الخبر واضح؛ لأنه هو زبدة الرسالة؛ زبدة ما بعث به النبي ﷺ، بل هو عين ما بعث به النبي ﷺ، أن يكون تقدير الكلام: لا معبود حق إلا الله؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام بُعث لتوحيد الله جل وعلا بالعبادة ولإبطال عبادة غيره، وأنه لا معبود حق إلا الله وأن كل معبود سوى الله جل وعلا فعبادته بالباطل والظلم والطغيان والتعدي من الخلق؛ إذن هنا حُذِف لأنه معلوم، فصار تقديره لا إله حق -أو لا إله بحق- إلا الله، وذلك لأن الله جل وعلا قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَـٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾[لقمان:٣٠]، وفي الآية الأخرى ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ

=

وضعفه العلامة الألباني في «ضعيف سنن الترمذي».

﴿ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾[الحج:٦٢]، فلما كانت هذه الآية وقد جاءت في القرآن في سورتين مشتملة على أن عبادة الله حق، وأن عبادة غيره باطلة؛ ناسب أن يكون المحذوف هنا كلمة (حق) أو كلمة (بحق)؛ لا إله بحق أو لا إله حق؛ لأنها هي التي دلت عليها الآيات.

إذن فصار معنى لا إله إلا الله: لا أحد يستحق العبادة إلا الله جل وعلا، لا معبود بحق إلا الله، هناك معبودات غير الله ﷻ، ولكنها معبودات بالباطل، وصار التقدير هذا من أنسب ما يكون.

قال: (معناها لا معبود بحق إلا الله وحده) فسر ذلك بقوله: (لا إله نافيًا جميع ما يعبد من دون الله) يعني: الذي يقول: لا إله إلا الله، ماذا يقول حين يقول: لا إله؟ يقول: أنفي جميع ما يعبد من دون الله، إلا الله، تقول: وأُثبت العبادة لله وحده؛ لأن لا إله إلا الله نفي وإثبات؛ نفي لاستحقاق العبادة عما سوى الله وإثبات للعبادة المستحقة لله جل وعلا.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا: (لا شريك له في عبادته كما أنه ليس له شريك في ملكه) عدم الشِّركة في الملك تتنوع أحيانًا؛ تكون -الشركة في الملك؛ يعني: مطلقًا دون إضافتها إلى الله طبعًا- الشركة في الملك تكون:

أولًا: بأن يكون لكل شريك قسم خاص ليس مشاعًا، له قسم خاص مما اشتركا فيه؛ اشتركت أنا وأنت في ملك إبل مثلًا لك خمسون ولي خمسون معروفة، هذه خمسيني معروفة بأعيانها، وهذه خمسون لك معروفة بأعيانها، أو اشتركت أنا وأنت في كتب معروفة، هذه الكتب لك وهذه الكتب لي، هذه شركة، كل من الشريكين له قسمه استقلالًا.

ثانيًا: أن تكون شركة مشاعة؛ للشريكين شركة مشاعة، هذا وهذا مشتركان في ملك لا يتميز منه أحدهما عن الآخر، بل هو لهما جميعًا.

الله جل وعلا بيّن في القرآن أنه لو كان له شريك في الملك -في ملكه- لابتغى إليه سبيلًا، قال جل وعلا: ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾[الإسراء:٤٢]، ولو كان معه آلهة؛ معبودات تستحق العبادة فعلًا، ما الذي يلزم من ذلك؟ يلزم أنه لهم نصيبًا في ملك الله، بأنه لا يستحق العبادة إلا من يملك النفع

والضر ﴿لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا ۝٤٢﴾، قال: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ۝٤٣﴾ [الإسراء:٤٣] ليس مع الله أحد في ملكه، بل هو المتوحد في ملكه، ينتج من ذلك ويلزم أنه هو المستحق للعبادة وحده، لهذا قال هاهنا: (**لا شريك له في عبادته كما أنه ليس له شريك في ملكه**)، لهذا يقول العلماء: إن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الإلهية، الإقرار أن الله ﷺ ليس له شريك في ملكه لا على وجه الاستقلال ولا على وجه الإشاعة؛ شيوع، هذا يلزم منه لزومًا أكيدًا أن الله جل وعلا وهو واحد في استحقاقه العبادة، لا يستحق العبادة إلا هو، هو وحده المستحق للعبادة لا شريك له، كما أنه هو وحده له الملك لا شريك له، كما جاء في آية الأنعام: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ [الأنعام:١٦٢، ١٦٣] قد بينت لكم معناها، وأن معناها: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ لله استحقاقًا ﴿وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ﴾ ملكًا ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ في عبادته، و ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ في ملكه ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝١٦٣﴾ [الأنعام:١٦٣] هذا معنى الآية، وهذا التفسير من الشيخ لكلمة التوحيد تفسير ضابط ظاهر.

قوله: (وَتَفْسِيرُهَا الَّذِي يُوَضِّحُهَا قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ۝٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ۝٢٨﴾)

● قال: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ﴾ ماذا قال إبراهيم؟ المقول سيأتي، قال: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ [الزخرف:٢٦، ٢٧] اشتملت كلمته هذه على نفي وإثبات؛ على بغض ومحبة، فشقها الأول؛ -جزؤها الأول- نفي وبغض قال: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ۝٢٦﴾ هذا فيه نفي ما دام أنه تبرأ منها في نفي لاستحقاقها العبادة، ومن معنى البراءة البغض، أو معنى البراءة البغض، فاشتمل قوله: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ۝٢٦﴾ على النفي والبغض، ثم أتى بالإثبات والمحبة فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾؛ أُثبت له العبادة، ثم أتى بما يدل على المحبة فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ۝٢٧﴾، محبة فيها الرجاء. هذه كلمة وهي معنى لا إله إلا الله؛ لأنه اشتملت على براءة وعلى ولاء، اشتملت على بغض و على محبة، اشتملت على نفي وعلى إثبات. قال: ﴿وَجَعَلَهَا﴾؛ يعني: تلك الكلمة، ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ۝٢٨﴾؛ يعني: في ولد إبراهيم، ومعلوم

أن إبراهيم عليه السلام هو أبو الأنبياء، والأنبياء من بعده جاءوا لتقرير هذه الكلمة، قال: ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ يرجو أن يرجع إليها عقبه من بعده، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾، يعني: إليها، أيضًا يفسرها قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٤] قل يا محمد: يا أهل الكتاب؛ يا أهل التوراة ويا أهل الإنجيل ويا أهل الزبور، ﴿ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ ﴾ إلى كلمة وسط، كلمة عدل بيننا وبينكم، نعلم أنه قد جاء بها رسولكم، وقد جاء بها محمد ﷺ ما هذه الكلمة؟ ﴿ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ﴾ [آل عمران: ٦٤] وجه الاستدلال: أن هذه الكلمة بيننا وبينهم وهي كلمة التوحيد، تفسيرها أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئًا، هذا واضح؛ التفسير لكلمة التوحيد، قال مؤكدًا معناها ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤] يعني: آلهة من دون الله؛ لأنهم ما ادعوا في الخلق أنه رب، بمعنى أنه يخلق استقلالًا، ويرزق استقلالًا، ويحيي ويميت استقلالًا، هذا ما أُدعي، وكان تفسير الربوبية هنا بالإلهية، قال: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤] آخر الآية يبين أن من ترك ما دل عليه أولها فإنه ليس بمسلم؛ لأنه قال: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾؛ إذْ خالفناكم، وإذْ لم تذعنوا لهذه الكلمة السواء التي بيننا وبينكم ﴿ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ﴾ [آل عمران: ٦٤] فأنتم لستم من أهل الإسلام.

الدرس الثاني عشر:

[شهادة أن محمدًا رسول الله]

وَدَلِيلُ شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ(١٣٢) عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾[التوبة:١٢٨].

ومَعْنَى شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله: طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ، وتَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ، واجْتِنَابُ مَا عَنْهُ نَهَى وَزَجَرَ، وأَنْ لاَ يُعْبَدَ الله إلاَّ بِمَا شَرَعَ.

الشرح

قال العلامة ابن باز:

❑ قوله: (وَدَلِيلُ شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله...)

وأما الشهادة الثانية، وهي: أن محمدًا رسول الله؛ فدليلها قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، يعني: محمدًا عليه الصلاة والسلام تعرفونه؛ لأنه من أنفسكم، وهو من أشرف قبائلكم: من بني هاشم: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾[التوبة:١٢٨]؛ أي: يشق عليه ما يشق عليكم، ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾[التوبة:١٢٨]، يعني: على هدايتكم، وإنقاذكم من النار. وقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ﴾[الفتح:٢٩]. وبعد هذه الشهادة، على العبد أن يطيعه فيما

---

(١٣٢) الخطاب للعرب عند جمهور المفسرين و﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ من جنسكم في كونه عربيًا قرشيًا مثلكم تعرفون نسبه وحسبه؛ وقرئ أنفس أفعل تفضيل من النفاسة، والمراد: الشرف؛ أي: أشرفكم وأفضلكم ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ ما مصدرية، والعنت: التعب لهم والمشقة عليهم ولقاء المكروه بعذاب الدنيا بالسيف ونحوه أو بعذاب الآخرة بالنار أو بمجموعهما، والمعنى: شاق عليه عنتكم لكونه من جنسكم ومبعوثًا لهدايتكم ﴿حَرِيصٌ﴾ شحيح عليكم بأن تدخلوا النار، أو حريص على إيمانكم وهدايتكم ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ فسماه الله -تعالى- رءوفًا رحيمًا، ولم يجمع لأحد من أنبيائه بين اسمين من أسمائه -تعالى- إلا للنبي محمدﷺ، وإذا كانت صفة النبيﷺ هكذا ألم يكن عندنا رحمة وشفقة في دينه من العمل به وحث الناس على اتباعه والذب عن شريعته والمحافظة على أوامره ونواهيه؟ اللهم أهد الأمة ووفقها لدينك المستقيم[الدمشقي].

أمر، وأن يصدقه فيما أخبر، وأن يجتنب ما عنه نهى وزجر، وألا يعبد الله إلا بما شرع.

فلابد من هذه الأمور الأربعة:

الأول: طاعته فيما أمر من الصلاة والزكاة وغيرها.

الثاني: تصديقه فيما أخبر عن الآخرة والجنة والنار وغير ذلك.

الثالث: واجتناب ما عنه نهى وزجر؛ كالزنا، والربا وغير ذلك مما نهى الله عنه ورسوله.

الرابع: وألا يعبد الله إلا بما شرع، فلا يبتدع في الدين مما لم يشرعه الله؛ لقول النبي ﷺ: «من عمل عملًا ليس عليهِ أمرُنا فهو رَدٌّ»[١٣٣]. وفي رواية: «مَنْ أحْدَثَ في أمرنا ما ليس منه فهو ردّ»[١٣٤]؛ أي: مردود.

قال العلامة ابن قاسم:

قوله: بدليلُ شهادةِ أنَّ مُحمَّدًا رَسُولُ الله)

● يعني: من النقل، وأما العقل فنبّه عليه القرآن، كما ذكر المصنف وغيره.

ومنه قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ الآية [الأنعام: ٩١]، وقول الرجل: إن رسول الله، إما أن يكون خير الناس وأصدقهم، وإما أن يكون شرهم وأكذبهم، والتمييز بين ذلك يعرف بأمور كثيرة؛ نبه تعالى على ذلك بقوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾ [الشعراء: ٢٢١، ٢٢٢].

ومنه شهادة الله عليه بقوله: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ [الرعد: ٤٣]، ومن حكمته تعالى: أنه لم يبعث نبيًا إلا ومعه آية تدل على صدقه فيما أخبر به إقامة للحجة، فأخبر أنه أرسلهم بالبيانات، وأعظم الآيات العقلية هذا القرآن العظيم الذي تحداهم الله بحديث مثله أو عشر سور أو سورة من مثله، مع عداوة أهل الأرض له: علمائهم وفصحائهم، واستعجازهم به، ولم يتعرضوا لذلك مع شدة حرصهم على تكذيبه.

ومنه: نصرة من اتبعه ولو كان أضعف الناس.

ومنه: خذلان من عاداه وعقوبته في الدنيا ولو كان أكثر الناس وأقواهم.

---

(١٣٣) سبق تخريجه.

(١٣٤) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، وغيره من حديث عائشة رضي الله عنها.

ومنها: كونه ﷺ لا يخط ولا يقرأ الخط، ولا أخذ عن العلماء.

ومنها: إخباره عن المغيبات التي أطلعه الله عليها، فإن ما غاب عنا أو كان قبلنا فلا يعرف إلا بالخبر عنه.

ومنها: انشقاق القمر، وحنين الجذع، ونبوع الماء بين أصابعه، وإطعام مئين من صاع شعير، وغير ذلك من آياته المتعلقة بالقدرة والفعل والتأثير، مما لا يحصىٰ كثرة.

ومنها: إذعان ملوك اليمن والبحرين وغيرهما لأمره؛ للآيات التي صحت عندهم عنه، فتنزلوا عن ملكهم طوعًا، وكذا كل من اتبعه لما بهرهم من آياته.

❑ قوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾

● يمتنّ تعالىٰ علىٰ المؤمنين بإرسال محمدﷺ إليهم رسولًا من أنفسهم يعرفون نسبه وصدقه، ليس بملك لا يتمكنون من سؤاله، بل بشر يتمكنون من سؤاله، بما شاءوا من أمور دينهم ودنياهم، وعلىٰ القراءة الثانية بفتح الفاء؛ أي: من أشرفهم وأكرمهم، وأيضًا كونه معروف النسب، والمدخل والمخرج، أمينًا صدوقًا، حتىٰ إنه يسمىٰ قبل مبعثه: الأمين، ومن كان كذلك فإن النعمة به علىٰ العباد تكون أكبر وأعظم.

❑ قوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾

● أي: شديد شاق عليه الذي يعنت أمته ويشق عليها ويدخلها في الآصار والأغلال، وقال: «بعثت بالحنيفية السمحة»[١٣٥]، وقال: «إن هذا الدين يسر»[١٣٦] وشريعته ﷺ سمحة وسهلة، ومع ذلك فهي كاملة.

❑ قوله: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾

● أي: علىٰ هدايتكم وإنقاذكم من النار.

❑ قوله: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨﴾

● أي: رأفته ورحمته خاصة بالمؤمنين، كما أن غلظته وشدّته علىٰ الكافرين.

---

(١٣٥) أخرجه أحمد (٥/٢٦٦)، والطبراني، برقم (٧٨٦٨) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وصححه العلامة الألباني في «الصحيحة»، برقم (٢٩٢٤).

(١٣٦) أخرجه البخاري (٣٩)، والنسائي (٥٠٣٤)، واللفظ له، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

❑ قوله: (ومَعْنَى شَهَادَةِ أنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله: طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ)

● وقد تقرر وجوب طاعته بالكتاب والسنة، وقرن سبحانه طاعته بطاعته في غير موضع من كتابه، ومن عصاه فقد عصى الله، ومن عصى الله فله نار جهنم.

❑ قوله: (وتَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ)

● فهو الصادق المصدوقﷺ، وأمين الله على وحيه فكل شيء أخبر به فهو حق وصدق، لا كذب فيه ولا خلف.

❑ قوله: (واجْتِنَابُ مَا عَنْهُ نَهَى وَزَجَرَ)

● قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٧﴾[الحشر:٧]، وقال عليه الصلاة والسلام: «ما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه»[١٣٧].

❑ قوله: (وألاَّ يُعْبَدَ الله إلاَّ بِمَا شَرَعَ)

● لا بالأهواء والبدع، فإن الأصل في العبادات التشريع، وكل بدعة ضلالة، هذا معنى شهادة أن محمدًا رسول الله من طريق اللزوم، ولا ريب أنها تقتضي الإيمان به وتصديقه فيما أخبر به وطاعته فيما أمر والانتهاء عما عنه نهي وزجر، وأن يعظم أمره ونهيه، ولا يقدم عليه قول أحد، ولابد مع النطق بها من العمل بما دلت عليه، فقولها باللسان دون العمل بما دلت عليه لا يصير به من أهل شهادة أن محمدًا رسول الله، كما أن قوله: (لا إله إلا الله) بدون العمل بما دلت عليه لا يصير به من أهل شهادة أن لا إله إلا الله على الحقيقة، فأول ما يجب على الإنسان أن يعلم بقلبه علم يقين، وينطق بلسانه بالشهادتين،ويعمل بما دلت عليه.

قال العلامة العثيمين:

❑ قوله: (ومَعْنَى شَهَادَةِ أنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله...)

● أمَّا معنى شهادة «أن محمدًا رسول الله» هو: الإقرار باللسان والإيمان بالقلب بأن محمد بن عبد الله القرشي الهاشمي رسول اللهﷺ إلى جميع الخلق من الجن والإنس كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾[الذاريات:٥٦] ولا عبادة لله تعالى

---

(١٣٧) أخرجه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

إلا عن طريق الوحي الذي جاء به محمدﷺ كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾[الفرقان:١].

ومقتضى هذه الشهادة: أن تصدق رسول اللهﷺ فيما أخبر، وأن تمتثل أمره فيما أمر، وأن تجتنب ما عنه نهى وزجر، وأن لا تعبد الله إلا بما شرع، ومقتضى هذه الشهادة أيضًا أن لا تعتقد أن لرسول اللهﷺ، حقًّا في الربوبية وتصريف الكون، أو حقًّا في العبادة، بل هوﷺ عبد لا يُعبد ورسول لا يكذب، ولا يملك لنفسه ولا لغيره شيئًا من النفع أو الضر إلا ما شاء الله كما قال الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾[الأنعام:٥٠]. فهو عبد مأمور يتبع ما أمر به، وقال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۝٢١ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ۝٢٢﴾[الجن:٢١،٢٢] وقال سبحانه: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝١٨٨﴾[الأعراف:١٨٨].

وبهذا تعلم أنه لا يستحق العبادة لا رسول اللهﷺ ولا من دونه من المخلوقين، وأن العبادة ليست إلا لله تعالى وحده. ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٦٣﴾[الأنعام:١٦٢،١٦٣]. وأن حقهﷺ أن تنزله المنزلة التي أنزله الله تعالى إياها وهو أنه عبد الله ورسوله، صلوات الله وسلامه عليه.

قال العلامة الفوزان:

ـ قوله: (وَدَلِيلُ شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ..)

● وأدلة شهادة أن محمدًا رسول الله كثيرة: من الكتاب، والسنة، والمعجزات الباهرات الدالة على رسالته ﷺ.

ومن الكتاب هذه الآية، يقول تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨﴾[التوبة:١٢٨]، فهذه شهادة من الله لهذا الرسول ﷺ بالرسالة وبيان صفاته.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ﴾ اللام هذه لام القسم، ففيها قسم مقدر، تقديره: والله لقد جاءكم.

﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق وتأكيد بعد تأكيد.

﴿جَآءَكُمْ﴾: أيها الناس، هذا خطاب لجميع الناس؛ لأن رسالته ﷺ عامة لجميع الثقلين: الإنس والجن.

﴿رَسُولٌ﴾: هو من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه سمي رسولًا؛ لأنه مرسل من قبل الله سبحانه وتعالىٰ.

﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، أي: من جنسكم من البشر، وليس ملكًا من الملائكة، وهذه سنة الله -سبحانه وتعالىٰ- أنه يرسل إلىٰ البشر رسلًا منهم من أجل البيان، ومن أجل أن يتخاطبوا معهم، ولأنهم يعرفونه.

لو أرسل إليهم ملكًا ما استطاعوا أن يتخاطبوا معه؛ لأنه ليس من جنسهم، وأيضًا لا يقدرون علىٰ رؤية الملك؛ لأنه ليس من جنسهم، من رحمته سبحانه وتعالىٰ أن أرسل إلىٰ الناس رسولًا من جنسهم، بل ومن العرب ومن أشرف بيوت العرب نسبًا، من بني هاشم الذين هم أشرف أنساب قريش، وقريش أشرف أنساب العرب، فهو خيار من خيار يعرفونه، ويعرفون شخصه، ويعرفون نسبه، ويعرفون قبيلته، ويعرفون بلده، ولو كانوا لا يعرفونه فكيف يصدقونه؟ ولو كان بغير لغتهم فكيف يفهمون كلامه؟ ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾.

فقوله: ﴿عَزِيزٌ﴾؛ يعني: شاق عليه ﷺ.

﴿مَا عَنِتُّمْ﴾؛ يعني: ما يشق عليكم، العنت معناه: التعب والمشقة، والرسول ﷺ يشق عليه ما يشق علىٰ أمته، وكان لا يريد لها المشقة وإنما يريد لها اليسر والسهولة.

ولذلك جاءت شريعته ﷺ سهلة سمحة، قال ﷺ: «بعثت بالحنيفية السمحة»(١٣٨)، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[الحج:٧٨].

وقال: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾[المائدة:٦]، فشريعته سهلة تتماشىٰ مع قدرة الناس واستطاعة المكلفين ولا تحملهم ما لا يطيقون.

ولهذا كان النبي ﷺ يحب لهم التيسير، وما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا، وكان يحب أن يأتي بالعمل ويتركه شفقة بأمته، يترك العمل وهو يحب أن يأتي به من الأعمال الصالحة من أجل ألا يشق علىٰ أمته، هذه من صفاته، أنه يشق عليه ما يشق

(١٣٨) سبق تخريجه.

علىٰ أمته، ويسرُّ بسرورها، ويفرح بفرحها، ومن كانت هذه صفته فلا شك أنه لا يأتي إلا بالخير والرحمة ﷺ.

﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُم ﴾، أي: علىٰ هدايتكم وإخراجكم من الظلمات إلىٰ النور؛ ولذلك كان يتحمل المشاق في دعوة الناس طلبًا لهدايتهم وإخراجهم من الظلمات إلىٰ النور حتىٰ قال الله له: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ [الشعراء:٣]؛ أي: لعلك مهلك نفسك ألا يكونوا مؤمنين من أجل الحزن عليهم، فلا تحزن عليهم، وهذا من كمال نصحه ﷺ.

وقوله: ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨﴾، ﴿ رَءُوفٌ ﴾: من الرأفة وهي: الرفق واللطف.

﴿ رَّحِيمٌ ﴾: وصفه بالرحمة فليس بغليظ ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩].

كان ﷺ متواضعًا لينًا مع المؤمنين، يخفض لهم جناحه ويستقبلهم بالبشر، والمحبة، والعطف، والإحسان، هذه من صفاته ﷺ.

ذكر الله خمس صفات في هذا الرسول ﷺ.

الأولىٰ: أنه منكم.

الثانية: عزيز عليه ما عنتم.

الثالثة: حريص عليكم.

الرابعة: بالمؤمنين رءوف.

الخامسة: رحيم.

خمس صفات من صفات هذا النبي ﷺ وخص المؤمنين بالرأفة والرحمة؛ لأنه ﷺ كان غليظًا علىٰ المشركين والمعاندين، يغضب لغضب الله -سبحانه وتعالىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٧٣﴾ [التوبة:٧٣] الرحمة، والرأفة خاصة بالمؤمنين، وهكذا المؤمنون بعضهم مع بعض: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح:٢٩]هذه صفاته ﷺ.

□قوله: (وَمَعْنَىٰ شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله: طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ...)

●شهادة أن محمدًا رسول الله لها معنىٰ ومقتضىٰ ليست لفظًا يقال فقط، فمعناها: أن

تعترف بلسانك، وبقلبك: أنه رسول الله، تنطق بلسانك وتعتقد ذلك بقلبك أنه رسول الله ﷺ.

أما التلفظ باللسان والإنكار بالقلب فهذه طريقة المنافقين كما أخبرنا الله عنهم بقوله: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ۝١ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾[المنافقون:١،٢] جعلوا أيمانهم؛ أي: شهاداتهم سترة يسترون بها، فصدوا عن سبيل الله، فدل على أن النطق باللسان لا يكفي.

وكذلك اعتقاد القلب مع عدم النطق باللسان لمن يقدر على النطق أيضًا لا يكفي، فإن المشركين يعلمون أنه رسول الله لكنهم يعاندون، كما قال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝٣٣﴾[الأنعام:٣٣]، فهم بقلوبهم يعترفون بالرسالة، ويعرفون أنه رسول الله، لكن منعهم الكبر، ومنعهم العناد من الإقرار برسالته.

وكذلك منعهم الحسد، كما عند اليهود، وعند مشركي العرب، وكان أبو جهل -عمرو بن هشام- يعترف ويقول: كنا نحن وبنو هاشم متساوين في كل الأمور لكنهم قالوا: منا رسول وليس منكم رسول من أين نأتي برسول؟ فلذلك أنكروا رسالته حسدًا لبني هاشم. ويقول أبو طالب في قصيدته:

ولقد علمت بأن دين محمد ... من خير أديان البرية دينًا

لولا الملامة أو حذار مسبة ... لوجدتني سمحًا بذاك مبينًا

يعترف بقلبه برسالة محمد، لكن منعته الحمية الجاهلية لقومه فلم يكفر بدين عبد المطلب الذي هو عبادة الأصنام، فهم يعترفون بنبوته بقلوبهم، فلا يكفي الاعتراف بالقلب أنه رسول الله بل لابد أن ينطق بلسانه.

ثم لا يكفي النطق باللسان والاعتراف بالقلب، بل لابد من أمر ثالث وهو الاتباع، قال الله تعالى فيه: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝١٥٧﴾[الأعراف:١٥٧] حتى لو نصره مثل أبي طالب وحامى دونه، وهو يعرف أنه رسول الله لكن لم يتبعه، فإنه ليس بمسلم حتى يتبعه؛ ولهذا قال الشيخ: ومعنى شهادة أن محمدًا رسول الله طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وألا يعبد الله إلا بما شرع.

فلابد مع الاعتراف برسالته ظاهرًا وباطنًا واعتقادًا، ولابد من اتباعه ﷺ ويتلخص ذلك في هذه الأربع كلمات التي ذكرها الشيخ رحمه الله:

الأولى: طاعته فيما أمر: يقول الله جل وعلا: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[النساء:٨٠] ويقول سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[النساء:٦٤]. فقرن طاعة الرسول مع طاعته سبحانه وتعالى، وقرن معصية الرسول مع معصيته ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۝٢٣﴾[الجن:٢٣]، وقال: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾[النور:٥٤]، وقال: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٥٦﴾[النور:٥٦]

فلابد من طاعته ﷺ فالذي يشهد أنه رسول الله تلزمه طاعته فيما أمر لقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[الحشر:٧].

وقوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٦٣﴾[النور:٦٣]، عن أمره؛ أي: عن أمر الرسول فلابد من طاعة الرسول ﷺ .

الثانية: تصديقه فيما أخبر؛ لأن الرسول ﷺ أخبر عن أمور كثيرة مغيبة، أخبر عن الله، وعن الملائكة، وأخبر عن أمور غائبة، وأخبر عن أمور مستقبلة؛ من قيام الساعة، وأشراط الساعة، والجنة والنار، وأخبر عن أمور ماضية عن أحوال الأمم السابقة، فلابد من تصديقه فيما أخبر؛ لأنه صِدْقٌ لا كَذِبَ فيه، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾[النجم:٣،٤].

الرسول ﷺ لا يتكلم بهذه الأخبار، أو هذه الأوامر والنواهي، لا يتكلم بشيء من عنده عليه الصلاة والسلام، إنما يتكلم بوحي من الله ﷻ فأخباره صدق، ومن لم يصدقه فيما أخبر فليس بمؤمن ولا صادق في شهادته أنه رسول الله، كيف يشهد أنه رسول الله ويكذبه في أخباره؟! كيف يشهد أنه رسول الله ولا يطيع أمره؟!

الثالثة: اجتناب ما نهى عنه وزجر: اجتنب ما نهاك عنه الرسول ﷺ؛ نهاك عن أقوالٍ وأفعالٍ وصفات كثيرة، ولا ينهى ﷺ إلا عن شيء فيه ضرر وفيه شر، ولا يأمر إلا بشيء فيه خير وفيه بر، فإذا لم يجتنب ما نهى عنه رسول الله ﷺ لم يكن شاهدًا له بالرسالة بل صار متناقضًا، كيف يشهد أنه رسول الله ولا يجتنب ما نهاه عنه الرسول ﷺ، والله تعالى يقول: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[الحشر:٧].

قال ﷺ: «إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»[١٣٩] فلابد من اجتناب ما نهىٰ عنه ﷺ.

الرابعة: ألَّا يُعبد الله إلا بما شرع: تقيد في العبادات بما شرعه الله لرسوله ﷺ، فلا تأت بعبادة لم يشرعها الرسول ﷺ وإن كان قصدك حسنًا، وإن كنت تريد الأجر، لكن هذا عمل باطل؛ لأنه لم يأت به الرسول ﷺ، النية لا تكفي، بل لابد من الاتباع.

فالعبادات توقيفية لا يجوز الإتيان بعبادات لم يشرعها رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد»[١٤٠]، وقال ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»[١٤١].

فالإتيان بعبادة لم يشرعها رسول الله ﷺ تعتبر بدعة منكرة منهيًّا عنها، وإن قال بها فلان أو فلان، أو فعلها من فعلها من الناس ما دامت خارجة عما جاء به الرسول ﷺ فإنها بدعة وضلالة، فلا يعبد الله إلا بما شرع علىٰ لسان رسوله، والمحدثات والخرافات كلها عمل باطل ونقص وضلال علىٰ من أتىٰ بها، وإن كان يقصد بها الخير ويريد الأجر، فإن العبرة ليست بالمقاصد، وإنما العبرة بالاتباع والطاعة والانقياد، ولو كنا أحرارًا نأتي بما نشاء ونستكثر من العبادات ما نشاء لما احتجنا إلىٰ بعثة الرسول ﷺ.

ولكن من رحمة الله بنا لم يكلنا إلىٰ عقولنا، ولم يكلنا إلىٰ فلان وعلان من الناس؛ لأن هذه الأمور مردها إلىٰ الشرع إلىٰ الله ورسوله، ولا ينفع منها إلا ما كان موافقًا لما شرعه الله ورسوله، ففي هذا الابتعاد عن جميع البدع، ومن ابتدع شيئًا في الدين لم يأت به الرسول ﷺ؛ فإنه لم يشهد أنه رسول الله، لم يشهد الشهادة الحقيقية؛ لأن الذي يشهد أنه رسول الله ﷺ شهادة حقيقية يتقيد بما شرعه، ولا يحدث شيئًا من عنده أو يتبع شيئًا محدثًا ممن سبقه.

---

(١٣٩) أخرجه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١٤٠) سبق تخريجه.

(١٤١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، وأحمد (١٢٦/٤)، والترمذي (٢٦٧٦)، وغيرهم من حديث العرباض رضي الله عنه، وصححه العلامة الألباني في «الصحيحة» (٩٣٧)، وفي «المشكاة» (١٦٥).

هذا معنى شهادة أن محمدًا رسول الله ليست ألفاظًا تقال باللسان فقط من غير التزام ومن غير عمل ومن غير تقيد بما جاء به هذا الرسول ﷺ.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

❑ قوله: (وَدَلِيلُ شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله ...)

● قال بعد ذلك: ودليل شهادة أن محمدًا رسول الله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة:١٢٨] هذا قسم، اللام هذه هي التي تسمى الموطئة للقسم، دائمًا تصحب قد؛ ﴿لَقَدْ﴾، نعلم أن ثم قسمًا محذوفًا: والله لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ، هنا المقسِم هو الله جل وعلا، أقسم بأنه قد جاءكم رسول، وهذا لتأكيد الكلام وتعظيمه بنفس السامع؛ لأنه أُكد بالقسم، والمقسِم هو الله، والمقسَم به هو الله جل وعلا، على مجيء الرسول لنا من أنفسنا، ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، يعني: من جنسكم، من بني جلدتكم، يتكلم بلسانكم وتعقلون عنه، هذا واضح الدلالة على الشهادة بأن محمدًا رسول الله؛ لأن معنى شهادة أن محمدًا رسول الله: أن تعتقد أن محمدًا أرسله الله جل وعلا بدين الإسلام، تعتقد ذلك اعتقادًا يصحبه قول وإخبار عنه، وهذه الآية واضحة الدلالة على المراد.

❑ قوله: (وَمَعْنَى شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله: طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ)

● بيّن معنى شهادة أن محمدًا رسول الله، قال: (**ومعنى شهادة أن محمدًا رسول الله طاعته فيما أمر**) هذا التفكير والمعنى بالمقتضى؛ يعني: معناها التي تقتضيه؛ تقتضي طاعته فيما أمر، إذن فمعنى شهادة أن محمدًا رسول الله طاعته فيما أمر، كونك شهدتَّ أنه مرسل من عند الله، معنى ذلك: أنه إذا أمرك فإن الآمر هو الله جل وعلا، كما جاء في الحديث الذي رواه أبو داوود وغيره، الحديث الصحيح قال عليه الصلاة والسلام: «**ألا إن ما حرّم رسول الله مثل ما حرّم الله**»[١٤٢] إذا اعتقدت أن هذا الذي جاء به محمد ﷺ لم يأتِ به من عنده وإنما هو رسول، فمعنى ذلك أن تطيعه فيما أمر، هذا مقتضى لكونك شهدت بأنه رسول الله، فإن لم تطعه فيما أمر اعتقادًا أنه لا يطاع، كان ذلك تكذيبًا لشهادته، فمن قال: أشهد أن محمدًا رسول الله، وهو يعتقد أنه لا تلزمه طاعة الرسول ﷺ فحاله حال

---

(١٤٢) أخرجه أبو داود (٤٦٠٤)، والترمذي (١٢)، وغيرهما من حديث المقدام بن معديكرب رضي الله عنه، وصححه العلامة الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

المنافقين؛ شهادته مردودة، كاذب في شهادته، وأما إذا اعتقد أنه تجب عليه طاعة الرسول ﷺ فيما أمر وخالف لغلبة هوى، فهذا يكون عاصيًا قد نقص من تحقيقه لشهادة أن محمدًا رسول الله بقدر مخالفته.

❑ قوله: (وتَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ)

● ما أخبر به النبي ﷺ من الغيب وحي من عند الله، ولا يتخرّف عليه الصلاة والسلام، لهذا ما أتى من أخبار الغيبيات؛ يعني: الكلام على الله جل وعلا، أسمائه وصفاته وأفعاله، عن الجنة والنار، عن أخبار الغيب، عن قصص الماضين، هو كله بوحي من الله جل وعلا، فمقتضى أنك شهدت أنه رسول الله أن تصدقه فيما أخبر، وألا يكون في قلبك شك، في أن ما أخبر به حق، وأن كل خبر أخبر به النبي ﷺ نقول: عليه الصلاة والسلام فيه صادق. ولو كنا لا نرى ذلك الشيء، كما ثبت في «الصحيحين» من حديث ابن مسعود أنه قال: «حدثني الصادق الصدوق...»(١٤٣). يعني به رسول الله ﷺ فالمؤمن يصدق رسول الله بما أخبر به، سواء عقل ذلك أو لم يعقله، وسواء أدرك ذلك بنظره أو لم يدركه، فقد كان الصحابة يتناقلون فيما بينهم الأخبار الكثيرة عن رسول الله ﷺ بأن عيسى بن مريم عليه السلام سينزل، وكان أبو هريرة إذا حدث بهذا الحديث يقول لأصحابه، ولمن ينقل عنه الحديث من تلامذته، يقول: «فإذا لقيه أحدكم فليقرئه مني السلام». تصديق لا يصاحبه شك، إذا كان المؤمن يعتقد أنه رسول الله، فمعنى ذلك: أن كل خبر أخبر به فهو حق، بلا شك وبلا ريب عليه الصلاة والسلام.

❑ قوله: (واجْتِنَابُ مَا عَنْهُ نَهَى وَزَجَرَ)

●أي: ومن معناها اجتناب ما عنه نهى وزجر، والأصل في النهي والزجر: التحريم؛ لأنها نهي زاجر كما هو مقرر في الأصول، فما نهى عنه الرسول ﷺ أو زجر عنه أو حرمه فإنه يجب اجتنابه طاعة له عليه الصلاة والسلام، كما قال جل وعلا: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر:٧]،أي: وما أتاكم الرسول من الأوامر أو من الأخبار فخذوه امتثالًا للأمر وتصديقًا بالخبر، وما نهاكم عنه فانتهوا، ما نهاكم عنه يجب عليكم أن تتركوه طاعة لله جل وعلا ولرسوله، وهنا نقول مثل ما قلنا أولًا: أن من لم يجتنب ما

---

(١٤٣) أخرجه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣)، وغيرهما من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

نهى عنه الرسول ﷺ وزجر، اعتقادًا أنه لا يجب عليه الانتهاء؛ يعني: لم يلتزم ذلك، لم يلتزم أنه مخاطب بهذه المنهيات، فهذا قدح في الشهادة، فلا يكون شاهدًا بأن محمدًا رسول الله، وإن كان يقولها بلسانه، وإن التزم ذلك، قال: نعم، نلتزم بالذي نهى عنه النبي ﷺ ويجب تركه، لكن غلبته نفسه وخالف ذلك قليلًا كانت المخالفة أو كثيرًا في نفسه أو في غيره فإن ذلك يكون نقصًا في شهادته ومعصية لله ولرسوله.

❑ قوله: (وألاَّ يُعْبَدَ الله إلاَّ بِمَا شَرَعَ)

● يعني: لا يُعبد بالبدع والأهواء والمحدثات، وإنما يُعبد الله جل وعلا بالطريق وعلى الطريق التي شرعها نبيه ﷺ لا يُعبد الله جل وعلا بالأهواء والآراء والاستحسانات المختلفة، إنما يُعبد الله جل وعلا عن طريق واحدة وهي طريق الرسول ﷺ بما شرعه هذا الرسول، فإذا اعتقد المسلم ذلك كملت له شهادته بأن محمدًا رسول الله وصار مسلمًا حقًّا.

الدرس الثالث عشر:

[الأركان العملية للإسلام]

وَدَلِيلُ الصَّلاَةِ والزَّكَاةِ، وتَفْسِيرُ التَّوْحِيدِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ (١٤٤) وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥﴾ (١٤٥) [البينة:٥].

دَلِيلُ الصِّيَامِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ (١٤٦) عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ (١٤٧) عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾ [البقرة:١٨٣]. ودَلِيلُ الحَجِّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٧﴾ [آل عمران:٩٧].

الشرح

قال العلامة ابن باز:

❑ قوله: (وَدَلِيلُ الصَّلاَةِ والزَّكَاةِ، وتَفْسِيرُ التَّوْحِيدِ...)

● وكذلك من الأدلة: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾ [التوبة:١١]. وقال تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡ﴾ [التوبة:٥].

❑ قوله: (دَلِيلُ الصِّيَامِ)

● ودليل الصيام: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ﴾ [البقرة:١٨٥]؛ أي: أن الصيام واجب عليكم كل عام في شهر رمضان.

❑ قوله: (ودَلِيلُ الحَجِّ)

● ودليل الحج قوله تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى

---

(١٤٤) أي: متنحين عن الشرك إلى التوحيد[الدمشقي].

(١٤٥) أي: القائمة العادلة، أو الأمة المستقيمة المعتدلة[الدمشقي].

(١٤٦) أي: الفرض[الدمشقي].

(١٤٧) أي: كما فرض على الأمم السابقة فهو مشروع قديما[الدمشقي]

﴿ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩٧﴾ [آل عمران:٩٧] الآية، وهو مرة في العمر؛ لقول النبي ﷺ: «الحج مرة، فمن زاد فهو تطوع»(١٤٨).

قال العلامة ابن قاسم:

❑ قوله: (وَدَلِيلُ الصَّلاَةِ والزَّكَاةِ، وتَفْسِيرُ التَّوْحِيدِ)

● أي: ودليل الصلاة والزكاة، فإنهما ركنان من أركان الدين الخمسة التي لا يستقيم إسلام عبد إلا بهما، وكذا في الآية تفسير التوحيد أيضًا، وهو الأساس الذي لا يستقيم إسلام عبد إلا به.

❑ قوله: (قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾)

● أي: وما أمر الذين كفروا إلا ليوحدوا الله ويفردوه بالعبادة، حنفاء مائلين عن الأديان كلها إلىٰ دين الإسلام، قال ابن عباس: «ما أمروا في التوراة والإنجيل إلا بإخلاص العبادة لله موحدين»، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ۝٢٥﴾ [الأنبياء:٢٥]، وهذا هو تفسير التوحيد.

❑ قوله: ﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾

● أي: يقيموا الصلاة المكتوبة بأركانها وواجباتها في أوقاتها، ويؤتوا الزكاة عند محلها، وهذا هو دليل الصلاة والزكاة، وأنهما ركنان من أركان الإسلام لا يستقيم بدونهما، وكثيرًا ما يقرنهما تعالىٰ في كتابه العزيز.

❑ قوله: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥﴾

● أي: الذي أمروا به في هذه الآية الكريمة هو الملة والشريعة المستقيمة.

❑ قوله: (دَلِيلُ الصِّيَامِ)

● وأنه أحد أركان الإسلام الخمسة التي لا يستقيم الإسلام إلا بها.

والصيام في اللغة: الإمساك، وفي الشرع: هو الإمساك عن الأكل والشرب والجماع، مع النية في وقت مخصوص، من شخص مخصوص.

❑ قوله: (قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝١٨٣﴾)

● أمر تعالىٰ عباده المؤمنين من هذه الأمة بالصيام، لما فيه من زكاة النفوس

---

(١٤٨) أخرجه أبو داود (١٧٢١)، وابن ماجه (٢٨٨٦)، وغيرهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وتطهيرها، وتنقيتها من الأخلاط الرديئة، والأخلاق الرذيلة، وفرض في السنة الثانية من الهجرة، وذكر تعالىٰ أنه فرضه وأوجبه عليهم، كما أوجبه علىٰ من كان قبلهم، فلهم فيهم أسوة، قال شيخ الإسلام: كانوا يعرفونه قبل الإسلام ويستعملونه، كما في «الصحيحين»: «يوم عاشوراء كان يومًا تصومه قريش في الجاهلية»(١٤٩)، ثم هو من العلم العام الذي توارثته الأمة خلفًا عن سلف. ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝١٨٣﴾؛ يعني: بالصوم؛ لأنه وصلة إلىٰ التقوىٰ، لما فيه من قهر النفس وكسر الشهوات.

❑ قوله: (ودَلِيلُ الحَجِّ)

● وأنه أحد أركان الإسلام، والحج لغة: قصد الشيء وإتيانه، وشرعًا: قصد مكة لعمل مخصوص، في زمن مخصوص.

❑ قوله. ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾

● أي: ﴿وَلِلَّهِ﴾ فرض واجب علىٰ الناس، ﴿حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ قصده أداء النسك، فهو أحد أركان الإسلام، كما هو معلوم بالكتاب والسنة وإجماع الأمة.

❑ قوله: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾

● أي: علىٰ المستطيع من الناس أن يحج البيت، والاستطاعة: القدرة بنفسه علىٰ الذهاب، ووجود الزاد والراحلة، بعد قضاء الواجبات عليه وغير ذلك مما هو معلوم في كتب التفسير والفقه.

❑ قوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩٧﴾

● أي: من وجد ما يحج به ولم يحج حتىٰ مات فهو كفر به، وقد سمىٰ تعالىٰ تارك الحج كافرًا، فقد دل علىٰ كفره، وإذا كان دل علىٰ كفره فقد دل علىٰ آكدية ركنيته، وفي الأثر: «من مات ولم يحج فلا عليه أن يموت يهوديًّا أو نصرانيًّا»(١٥٠).

قال العلامة العثيمين:

❑ قوله: (وَدَلِيلُ الصَّلَاةِ والزَّكَاةِ)

● أي: الدليل علىٰ أن الصلاة والزكاة من الدين قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ

---

(١٤٩) أخرجه البخاري (٢٠٠٢)، ومسلم (١١٢٥)، وغيرهما من حديث عائشة رضي الله عنها.

(١٥٠) أخرجه الترمذي (٨١٢)، من حديث علي رضي الله عنه، والدارمي (١٧٨٥)، من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وضعفه العلامة الألباني في «المشكاة» (٢٥٢١).

ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البينة:٥] وهذه الآية عامة شاملة لجميع أنواع العبادة فلابد أن يكون الإنسان فيها مخلصًا لله ﷻ حنيفًا متبعًا لشريعته.

❑ قوله: ﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾

● هذا من باب عطف الخاص علىٰ العام؛ لأن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة من العبادة ولكنه سبحانه وتعالىٰ نص عليهما لما لهما من الأهمية، فالصلاة عبادة البدن، والزكاة عبادة المال وهما قرينتان في كتاب الله ﷻ.

❑ قوله: ﴿وَذَٰلِكَ﴾

● أي: عبادة الله مخلصين له الدين حنفاء، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة.

❑ قوله: ﴿دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾

● أي: دين الملة القيمة التي لا اعوجاج فيها؛ لأنها دين الله ﷻ، ودين الله مستقيم كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣].

وهذه الآية الكريمة كما تضمنت ذكر العبادة والصلاة والزكاة فقد تضمنت حقيقة التوحيد؛ وأنه الإخلاص لله ﷻ من غير ميل إلىٰ الشرك، فمن لم يخلص لله لم يكن موحدًا، ومن جعل عبادته لغير الله لم يكن موحدًا.

❑ قوله: (دَلِيلُ الصِّيَامِ)

● أي: دليل وجوبه قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ [البقرة:١٨٣] وفي قوله: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ فوائد:

أولًا: أهمية الصيام حيث فرضه الله ﷻ علىٰ الأمم من قبلنا وهذا يدل علىٰ محبة الله ﷻ له وأنه لازم لكل أمة.

ثانيًا: التخفيف علىٰ هذه الأمة، حيث إنها لم تكلف وحدها بالصيام الذي قد يكون فيه مشقة علىٰ النفوس والأبدان.

ثالثًا: الإشارة إلىٰ أن الله تعالىٰ أكمل لهذه الأمة دينها، حيث أكمل لها الفضائل التي سبقت لغيرها.

❑ قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾

● بين الله ﷻ في هذه الآية حكمة الصيام بقوله: ﴿ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ [البقرة:١٨٣]؛ أي: تتقون الله بصيامكم وما يترتب عليه من خصال التقوىٰ، وقد أشار النبي ﷺ إلىٰ هذه الفائدة بقوله: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»[١٥١].

❑ قوله. (وَدَلِيلُ الحَجِّ)

● أي: دليل وجوبه: قوله تعالىٰ: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ ﴾ [آل عمران:٩٧] إلخ.

وهذه الآية نزلت في السنة التاسعة من الهجرة وبها كانت فريضة الحج، ولكن الله ﷻ قال. ﴿ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ ﴾ [آل عمران:٩٧] ففيه دليل علىٰ أن من لم يستطع فلا حج عليه.

❑ قوله: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾

● دليل علىٰ أن ترك الحج ممن استطاع إليه سبيلًا يكون كفرًا، ولكنه كفر لا يخرج من الملة علىٰ قول جمهور العلماء؛ لقول عبد الله بن شقيق: «كان أصحاب رسول الله ﷺ لا يرون شيئًا من الأعمال تركه كفر غير الصلاة».

قال العلامة الفوزان:

❑ قوله: (وَدَلِيلُ الصَّلاَةِ والزَّكَاةِ، وتَفْسِيرُ التَّوْحِيدِ)

● فالصلاة هي الركن الثاني من أركان الإسلام، والزكاة هي الركن الثالث وهي قرينة الصلاة في كتاب الله، الصلاة عمل بدني، والزكاة عمل مالي.

وقد قال أبو بكر الصديق ﷺ: «والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة»[١٥٢] لما امتنع أناس من دفع الزكاة بعد وفاة الرسول ﷺ قاتلهم أبو بكر ﷺ وقال: «والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، والله لو منعوني عقالًا -وفي رواية: عناقًا- كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه»[١٥٣].

---

(١٥١) أخرجه البخاري (١٩٠٣)، وأبو داود (٢٣٦٢)، وغيرهما من حديث أبي هريرة ﷺ.

(١٥٢) أخرجه البخاري (١٤٠٠)، ومسلم (٢٠)، وغيرهما من حديث أبي هريرة ﷺ.

(١٥٣) انظر: ما قبله.

فالزكاة حق واجب في الأموال، وهي ركن من أركان الإسلام، وهي قرينة الصلاة في كتاب الله ﷻ في كثير من الآيات ومنها هذه الآية: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البينة:٥].

دليل التوحيد في أولها في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ هذا هو تفسير التوحيد، وهو عبادة الله مع الإخلاص له وترك عبادة ما سواه، فالدين والتوحيد والعبادة بمعنى واحد.

﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾؛ أي: العبادة، هذا تفسير التوحيد، لا كما يقوله علماء الكلام: إنه الإقرار بأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت هذا توحيد الربوبية، والمطلوب هو توحيد الألوهية الذي دعت إليه الرسل، ولا يصير المسلم مسلمًا إلا إذا جاء به.

أما من جاء بتوحيد الربوبية فقط فهذا ليس مسلمًا بدليل أن المشركين يعتقدونه وينطقون به ويعترفون به؛ ولم يدخلهم في الإسلام، ولم يمنع من قتلهم، وسبي أموالهم توحيدهم هذا؛ لأنهم ليسوا موحدين لما أشركوا بالله ﷻ في العبادة، هذا هو تفسير التوحيد من كتاب الله لا من كتاب فلان وعلان؛ كتاب «الجوهرة» أو كتاب «المواقف» أو كتب علماء الكلام، لا يؤخذ تفسير التوحيد من هذه الكتب، وإنما يؤخذ من كتاب الله ومن سُنة رسول الله ﷺ ومن كتب أهل السنة والجماعة الذين يتمسكون بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

ودليل الصلاة في قوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، والمعنى أن يأتوا بها كما أمر الله ﷻ بشروطها، وأركانها، وواجباتها، أما مجرد صورة الصلاة فإنها لا تكفي؛ ولهذا لم يقل: ويصلوا، بل قال: ويقيموا الصلاة، ولا تكون الصلاة قائمة إلا إذا أتى بها كما أمر الله سبحانه وتعالى، أما الذي يصلي مجرد صورة في أي وقت يشاء، أو بدون طهارة وبدون طمأنينة، ولا يأتي بمتطلبات الصلاة، هذا لم يصل؛ ولهذا قال ﷺ للمسيء في صلاته الذي لا يطمئن في صلاته قال له: «ارجع فصل فإنك لم تصل»(١٥٤) ليس مقصودًا صورة الصلاة من قيامٍ وركوعٍ وسجودٍ وجلوسٍ فقط، ليس هذا المقصود، بل المقصود: أن يؤتى بها كما شرع الله -سبحانه وتعالى- مستوفية لكل متطلباتها الشرعية.

---

(١٥٤) أخرجه البخاري (٧٥٧)، ومسلم (٣٩٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ثم ذكر دليل الزكاة بقوله تعالى: ﴿ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾؛ أي: يدفعوا الزكاة للمستحقين لها، الذين ذكرهم الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ [التوبة:٦٠]

ذكر ثمانية مصارف وحصرها بـ«إنما»، فلا يكون صرفها في غير هذه المصارف الثمانية، فمن صرفها في غير مصارفها الثمانية لم يكن قد آتى الزكاة ولو أنفق أموالًا طائلة ملايين أو مليارات وسماها زكاة، ولا تكون زكاة حتى توضع في مواضعها التي حصرها الله تعالى فيها، هذا معنى إيتاء الزكاة.

وأيضًا في وقتها؛ أي: يخرجها وقت وجوبها لا يتباطأ ويتأخر ويتكاسل، طيبة بها نفسه؛ أي: لا يعتبرها مغرمًا أو خسارة، وإنما يعتبرها مغنمًا له.

هذه الأمور الثلاثة هي: ﴿دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البينة:٥] الدين: الملة، القيمة: صفة لموصوف محذوف تقديره دين الملة القيمة؛ أي: المستقيمة.

هذا دليل الصلاة والزكاة وتفسير التوحيد.

□قوله: (دَلِيلُ الصِّيَامِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾)

●الصيام لا يجب إلا على المسلمين، أما الكفار لو فعلوه ما صح منهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ ما داموا على الكفر؛ فإنهم لا تنفعهم العبادات لا صيام ولا غير صيام؛ ولذلك خاطب به المؤمنين خاصة؛ لأنهم هم الذين يستجيبون، وهم الذين يصح منهم الصيام، ويقبل منهم الصيام.

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ [البقرة:١٨٣] معنى كتب: فرض، مثل قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ﴾ [البقرة:٢١٦]؛ يعني: فرض عليكم القتال، فالكَتْبُ في كتاب الله معناه الفرض.

﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [البقرة:١٨٣]؛ أي: كما فرض على الذين من قبلكم من الأمم، فدل على أن الصيام كان معروفًا عند الأمم السابقة وفي الشرائع القديمة، ولم تختص به شريعة محمد ﷺ.

والنفس قد تتثاقل الصيام لما فيه من كبح جماحها ومنعها من الشهوات، والله -جل

وعلا - بين أنه سنته في خلقه، وأنه على جميع الأمم، حتى في الجاهلية كان الصيام معروفًا، كانوا يصومون يوم عاشوراء.

﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ [البقرة:١٨٣] هذا بيان للحكمة من الصيام، فلعلكم تتقون: بيان للحكمة في مشروعية الصيام، وهو أنه يسبب التقوى؛ لأن الصيام يترك به الإنسان مألوفاته وشهواته ومرغوباته تقربًا إلى الله -سبحانه وتعالى- فيكسبه التقوى، كما أنه يكسر -أيضًا - شهوة النفس وحدتها؛ لأن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، فمع تناول الشهوات يتسلط الشيطان، ومع ترك الشهوات يضعف مجرى الدم فيطرد الشيطان عن المسلم، ففي الصيام حصول التقوى التي هي جماع الخير كله.

فهذه فائدة الصيام: أنه يسبب التقوى، تقوى الله سبحانه وتعالى، واتقاء المحارم والشهوات المحرمة؛ لأن الإنسان إذا ترك المباحات طاعة لله كان من باب أولى أن يترك المحرمات، الصيام يدربه على تجنب الحرام، ويدربه على التمكن من نفسه الأمارة بالسوء، ويطرد عنه الشيطان، ويلين قلبه للطاعة.

ولذلك تجد الصائم أقرب إلى الخير من المفطر: تجده يحرص على تلاوة القرآن وعلى الصلاة، ويذهب إلى المسجد مبكرًا، الصيام لينه للطاعة وهذبه، كل هذا داخل في قوله: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾.

فالشاهد من الآية قوله: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ هذا دليل على فرضية الصيام، وفسره بقوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ [البقرة:١٨٥]؛ لأن قوله: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ مجمل فسره بقوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ [البقرة:١٨٥].

قوله: (ودَلِيلُ الحَجِّ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾).

● ادعى اليهود أنهم مسلمون، وأنهم على دين إبراهيم، فامتحنهم الله -جل وعلا - في هذه الآية وقال: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [آل عمران:٩٧]، فإن كنتم مسلمين فحجوا؛ لأن الله فرض حج البيت على المسلمين، فإذا لم تحجوا، وأبيتم الحج؛ فهذا دليل على أنكم لستم مسلمين، ولستم على ملة إبراهيم ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾.

﴿وَلِلَّهِ﴾؛ أي: هذا فرض وحق وواجب لله -سبحانه وتعالى- على الناس.

حجّ: معناه في اللغة: القصد.

الحج شرعًا: قصد الكعبة المشرفة والمشاعر المقدسة في وقت مخصوص لأداء عبادات مخصوصة، وهي مناسك الحج.

﴿حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾؛ أي: الكعبة، وما حولها من المشاعر تابع لها.

﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾: هذا بيان شرط الوجوب، وهو الاستطاعة البدنية والاستطاعة المالية؛ الاستطاعة البدنية: بأن يكون قادرًا على المشي، والركوب، والانتقال من بلده إلى مكة في أي مكان من الأرض، هذه البدنية، يخرج العاجز عجزًا مستمرًا كالمريض مرضًا مزمنًا والكبير الهرم، فهذا ليس عنده استطاعة بدنية، فإن كانت عنده استطاعة مالية فإنه ينيب من يحج عه حجة الإسلام.

أما الاستطاعة المالية فهي: توفر المركب الذي ينقله، الراحلة، أو السيارة، أو الطيارة، أو الباخرة، كل وقت بحسبه، ويكون عنده مال يستطيع أن يوفر له المركب الذي يمتطيه؛ لأداء الحج، وأيضًا الزاد: يكون عنده زاد ونفقة له في السفر ذهابًا وإيابًا، ولمن يمونهم يكون عندهم كفايتهم إلى أن يرجع إليهم، فالزاد معناه: أن يكون عنده ما يكفيه في سفره، ويكفي من يمون من أولاده ووالديه وزوجته، وكل من تلزمه نفقته، يؤمن لهم ما يكفيهم حتى يرجع إليهم بعد تأمين سداد الديون إن كان عليه ديون، يكون هذا المال فاضلًا بعد سداد الديون. فإذا توفر هذا فيكون هذا هو السبيل، «الزاد والراحلة»[١٥٥] كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما:

ومن لم يستطع؛ أي: من ليس عنده زاد ولا راحلة فليس عليه حج؛ لأنه غير مستطيع، فشرط وجوب الحج هو الاستطاعة.

ولما كان الحج يؤتى إليه من بعيد من كل أقطار الأرض، من كل فج عميق، ويحتاج إلى مؤنة، وفيه مشقة وتعب، وقد يحصل فيه أخطار، فمن رحمة الله أن جعله في العمر مرة واحدة، وما زاد عليها فهو تطوع، هذا من رحمة الله -سبحانه وتعالى- حيث لم يوجبه

---

(١٥٥) أخرجه ابن ماجه (٢٨٩٧)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وضعفه العلامة الألباني في «ضعيف سنن ابن ماجه».

على المسلم كل سنة، كما قال النبيﷺ : «إن الله فرض عليكم الحج فحجوا، قال الأقرع بن حابس رضي الله عنه: أكل سنة يا رسول الله؟ فسكت عنه الرسولﷺ، ثم أعاد السؤال، فسكت عنه النبيﷺ، ثم أعاد السؤال، فقال النبيﷺ: لو قلت نعم لوجبت، ولما استطعتم، الحج مرة واحدة، فما زاد فهو تطوع»(١٥٦) هذا من رحمة الله.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝﴾ فيه دليل على أن من امتنع عن الحج وهو يقدر ولم يحج فإنه كافر؛ لأن الله قال: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾؛ أي: من أبى أن يحج وهو قادر على الحج، فإن هذا كفر، قد يكون كفرًا أصغر، فمن تركه جاحدًا لوجوبه هذا كفر أكبر بإجماع المسلمين.

أما من اعترف بوجوبه وتركه تكاسلًا فهذا كفر أصغر، ولكن إذا توفي وكان له مال فإنه يحج من تركته؛ لأنه دين عليه لله ﷻ، وهذه الآية فيها وجوب الحج، وهو ركن من أركان الإسلام، وبين الرسولﷺ أنه ركن من أركان الإسلام في حديث جبريل وفي حديث ابن عمر.

وقد فُرِضَ الحج في السنة التاسعة على قول، ولم يحج النبيﷺ في هذه السنة، وإنما حج في السنة التي بعدها في السنة العاشرة، لماذا؟ لأنهﷺ أرسل عليًا ينادي في الناس في الموسم: «ألا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان»(١٥٧) فلما مُنِعَ المشركون والعراة من الحج في العام العاشرحج النبيﷺ حجة الوداع.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

❑ قوله: (وَدَلِيلُ الصَّلَاةِ والزَّكَاةِ، وتَفْسِيرُ التَّوْحِيدِ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝﴾)

● بين أن هذه الأشياء مأمور بها، وهي دليل على أنها من دين الإسلام، ثم ذكر دليل الصيام، ثم ذكر دليل الحج وهذه واضحة ظاهرة.

بهذا يتبين المرتبة الأولى من الأصل الثاني؛ ألا وهي مرتبة الإسلام، وأعظم أركان الإسلام الشهادتان، فعلى طالب العلم أن يكون معنى الشهادتين واضحًا في قلبه، واضحًا

---

(١٥٦) سبق تخريجه.

(١٥٧) أخرجه البخاري (١٦٢٢)، ومسلم (١٣٤٧)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

في ذهنه، فاهمًا له، بحيث يستطيع أن يعبر عن ذلك بأيسر عبارة وبتنوع العبارة؛ لأن أعظم ما يدعا إليه ما دلت عليه الشهادتان، فعلى طالب العلم أن يعوّد لسانه على تفسير الشهادتين بتنويع العبارة، وعلى حفظ الأدلة التي فيها معنى الشهادتين، وعلى تفسير ذلك، وإذا دَرَجَ على ذلك، فسوف يرى أنه ستفتح له أبواب بفضل الله جل وعلا وبرحمته بمعرفة التوحيد وحسن التعبير عنه، وأما أن يترك طالب العلم نفسه لفهم ما دلّت عليه، دون أن يمرن نفسه على تأدية المعنى وتعليمه لأهله وللصغار، ولمن حوله ولمن يلقاه ممن لا يعلم حقيقة معنى هذه الكلمة، فإن هذا تضيعه النفس ولا يصدق على فاعله أنه طالب العلم؛ لأن العامي هو الذي يفهم ذلك؛ يفهم ذلك فهمًا، لكن لا يستطيع أن يعبر عن فهمه بالتعبير العلمي الصحيح، وأما طالب العلم فعليه أن يهتم بأصل الأصول وهو تفسير الشهادتين، ومر معنا بعض ما يتصل بتفسيرها.

الدرس الرابع عشر:

[المرتبة الثانية: الإيمان]

الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ: الإِيمَانُ، وَهُوَ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، فَأَعْلاَهَا قَوْلُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَىٰ عَنِ الطَّرِيقِ، والْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ.

وَأَرْكَانُهُ سِتَّةٌ: أَنْ تُؤْمِن باللهِ، ومَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ. والدَّلِيلُ عَلَىٰ هذِهِ الأَرْكَانِ السِّتَّةِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾[البقرة:١٧٧]. وَدَلِيلُ الْقَدَرِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾[القمر:٤٩].

الشرح

قال العلامة ابن باز:

❏قوله: (الإِيمَانُ: وَهُوَ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً...)

● الإيمان: هو ما يتعلق بالقلوب، من التصديق بالله، وأنه رب العالمين، وأنه هو المستحق للعبادة، والتصديق بالملائكة، وبالكتب وبالرسل، وبالبعث بعد الموت، والجنة والنار، وبالقدر خيره وشره. كل هذا يتعلق بالقلوب، فهو أصل من الأصول التي لابد منها، فلا إسلام إلا بإيمان، ولا إيمان إلا بإسلام. فلابد من هذا وهذا. لابد من إسلام الجوارح، ولابد من إسلام القلوب وإيمانها؛ ولهذا جمع الله بين الأمرين في كتابه العظيم. وهكذا الرسول ﷺ ذكرهما جميعًا، فالإسلام هو الانقياد الظاهر بطاعة الله وترك معصيته. والإيمان يشمل الأعمال الباطنة مما يتعلق بالقلوب وتصديقها، ويطلق الإسلام على الإيمان، ويطلق الإيمان على الإسلام. فإذا قيل الإيمان ؛ عم الجميع، وإذا قيل الإسلام؛ عم الجميع. قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[آل عمران:١٩]، فيعم ما يتعلق بالباطن والظاهر، وهكذا الإيمان إذا أطلق عم الجميع ؛ لقوله ﷺ في الحديث الصحيح: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، فأفضلها: قول لا إله إلا الله، وأدناها: إماطة الأذىٰ عن

الطريق»(١٥٨). فالإيمان هنا يعم الجميع، فيعم أركان الإسلام، ويعم جميع الأعمال الظاهرة، كما يعم الباطنة، كما أنه يشمل الإحسان.

قال العلامة ابن قاسم:

❑ قوله: (الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ: الإِيمَانُ)

● قدم المرتبة الأولى: وهي الإسلام، وثنى بمرتبة الإيمان، وهي أعم من مرتبة الإسلام من جهة نفسها، وأخص من جهة أصحابها، وأهله هم خواص أهل الإسلام، وأهل الإسلام أكثر من أهل الإيمان، بخلاف العكس، كما قال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾[الحجرات:١٤]، فإن من حكمت له النصوص أنه مؤمن فإنه مسلم على كل حال، فإن الإيمان وصف أعلى من وصف الإسلام، لأنه مشتق من الأمن فهو من الأمور الباطنة الذي يؤتمن عليه، ويكون خفية، والإسلام من الأمور المدركة المحسوسة في الظاهر،مشتق من التسليم أو المسالمة كما تقدم، فإذا أطلق الإيمان في النصوص دخل فيه الإسلام، وإذا أطلق الإسلام لم يدخل فيه الإيمان، ومن أثبت له الإيمان في النصوص، فإنه ثابت له الإسلام، والمسلم لابد أن يكون معه إيمان يصحح إسلامه، وإلا كان منافقًا، ولكن لا يستحق أن يمدح به ويثنى عليه، بل إيمانه ناقص، ويأتي تمثيله، والإيمان الشرعي: قول وعمل، قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، ويزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، فدخل فيه جميع المأمورات، سواء كان من الواجبات أو المستحبات، ودخل فيه ترك جميع المنهيات، سواء كان ذلك المنهي ينافي أصول الدين بالكلية أو لا، فإن تعريفه المذكور يشمل ذلك، فما من خصلة من خصال الطاعات إلا وهي من الإيمان، ولا ترك محرم من المحرمات إلا وهو من الإيمان.

❑ قوله: (وَهُوَ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً)

● البضع: بكسر الباء من الثلاثة إلى التسعة، والشعبة: الطائفة من الشيء والقطعة منه، والشعبة من شعب الإيمان يدخل تحتها أفراد من الخصال، فهي من حيث هذا العدد يكون تحتها أفراد من الخصال.

---

(١٥٨) أخرجه البخاري (٩)، بلفظ: «بضع وستون»، ومسلم (٣٦) واللفظ له، وغيرهما من حديث أبي هريرة ﷺ.

❑ قوله: (فَأَعْلاَهَا قَوْلُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله)

● أي: فأعلىٰ شعب الإيمان قول العبد: (لا إله إلا الله)، فهي كلمة الإخلاص، وكلمة الإسلام، وهي العروة الوثقىٰ، وكلمة التقوىٰ، وأساس الملة، ومفتاح الجنة.

❑ قوله: (وأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَىٰ عَنِ الطَّرِيقِ)

● أي: وأصغر شعب الإيمان إزالة الأذىٰ عن الطريق، من شوك وحجر ونحو ذلك، مما يتأذىٰ المار به.

❑ قوله: (والْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ)

● أي: بعض منه، وإنما جعله بعضه؛ لأن المستحي ينقطع بحيائه عن المعاصي؛ ولأن الإيمان ينقسم إلىٰ ائتمار وانتهاء، فإذا حصل الانتهاء بالحياء كان بعض الإيمان، والحياء من أفضل الأخلاق، و أجلها و أعظمها قدرًا، بل هو خاصة الإنسانية، وفي الحديث: «إذا لم تستح فاصنع ما شئت»[١٥٩]، وهو غريزة يحمل المرء علىٰ فعل ما يجمل و يزين، و يمنعه من فعل ما يدنس ويشين.

❑ قوله: (وَأَرْكَانُهُ سِتَّةٌ)

● أي: أصول الإيمان التي تركب منها، والتي يزول بزوالها ستة أركان، ويكون بزوال الواحد من تلك الستة كافرًا كفرًا يخرج من الملة، وما عداها لا يزول بزواله، لكن منها ما يزول بزواله كمال الإيمان الواجب، ومنها ما يزول بزواله كمال الإيمان المندوب.

❑ قوله: (أَنْ تُؤمِن بالله)

● هذا أعظم أركان الإيمان، وهو أصل الأصول، ومعناه: الإيمان بوحدانية الله تعالىٰ، وتفرده بأسمائه وصفاته، والإيمان بأنه الإله الحق، وأن من عبد من دونه فعبادته أبطل الباطل، وأضل الضلال.

❑ قوله: (ومَلائِكَتِهِ)

● يعني: وأن تؤمن بجميع ملائكته، وهم الجنس المعروف من خلق الله بتعريف النصوص، عباد مكرمون، خلقوا من نور، يؤمن بهم إجمالًا في الإجمالي، وتفصيلًا في التفصيل، وتعيينًا في التعيين، مثل ما ورد في الكتاب العزيز والسنة المطهرة: كجبرائيل،

---

(١٥٩) أخرجه البخاري (٣٤٨٤)، وأبو داود (٤٧٩٧)، وغيرهما من حديث أبي مسعود ﷺ.

وميكائيل، وإسرافيل، ومالك، ورضوان، وغيرهم.

❑ قوله: (وَكُتُبِهِ)

● المنزلة على الأنبياء من السماء، إجمالًا في الإجمالي، وتفصيلًا في التفصيلي، ويفصل بالإيمان، بالقرآن، والزبور، والتوراة، والإنجيل، إلى آخر الكتب المنزلة.

❑ قوله: (وَرُسُلِهِ)

● أي: وكذا الإيمان بجميع رسله إجمالًا في الإجمالي، وتفصيلًا في التفصيلي، فيؤمن بمن جاء تفصيلهم في الكتاب والسنة على التعين، وأعظم ذلك الإيمان بنبينا محمدﷺ، وممن يؤمن بهم تفصيلًا أولو العزم من الرسل: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد عليه أفضل الصلاة و السلام، ويؤمن بغيرهم ممن سمى الله في كتابه أو على لسان رسوله في السنة المطهرة، ومن لم يسمى في النصوص يؤمن بهم إجمالًا ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾[البقرة:٢٨٥]، والإيمان بهم فرض، وهو: التصديق بأنهم رسل الله إلى عباده، صادقون فيما أخبروا به عن الله تعالى.

❑ قوله: (وَالْيَوْمِ الآخِرِ)

● أي: بما يكون بعد الموت في البرزخ، وبالحساب، والميزان، والجنة، والنار، و الإيمان بعذاب القبر و نعيمه، وأكبر ذلك و أعظمه الإيمان ببعث هذه الأجساد وإعادتها كما كانت أجسادًا بعظامها وأعصابها، حتى يقع الثواب على هذا الجسد والروح جميعًا، على ما فعلا من طاعة الله، أو يعاقبا على المعاصي التي صدرت منهما جميعًا، فإن الطاعة والمعصية صدرت منهما جميعًا، فلابد أن يثابا على ما فعلا، أو يعاقبا على ما تركا فتؤمن أن الذي أوجد هذا الجسد و انفرد بخلقه يبعثه حيًا ويعيده كما كان.

❑ قوله: (وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّه)

● أي: بما قدره الله، يعني: كتبه من خير وشر، والإيمان بالقدر يتضمن الإيمان بأربعة أشياء: الإيمان بعلم الله القديم، فإن الرب تعالى علم بعلمه القديم ما هو كائن، والإيمان بأن الله كتب ما علم أنه كائن من العباد، والإيمان بأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه ما في السموات وما في الأرض من حركة ولا سكون إلا بمشيئة الله تعالى، وأن الله تعالى اوجد جميع الخلق، وأن ما في الكون بتقدير الله وإيجاده، فلا يصير المرء

مؤمنًا بالقدر إلا بالإيمان بهذه الأربعة الأشياء، وأن يعلم أنما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وفي الأثر: «ما لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله بالنار»[٦٦٠].

❑ قوله: (والدَّلِيلُ عَلَى هذِهِ الأرْكَانِ السِّتَّةِ)

● أي: أنها أركان للإيمان، لا يستقيم إيمان العبد إلا بها جميعها، وأنه متى انتفى واحد منها لم يكن المرء مؤمنًا.

❑ قوله: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾

● قد اشتملت هذه الآية على جُمل عظيمة، وعقيدة مستقيمة، وروي أنه ﷺ سئل عن الإيمان، فتلا هذه الآية: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ﴾ وهو كل عمل خير يفضي بصاحبه إلى الجنة. ﴿أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ أي: ليس بالبر كله أن تصلوا إلى بيت المقدس إن لم يكن أمر الله وشرعه، وذلك لمَّا حولوا إلى الكعبة.

❑ قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾

● أي: ولكن البر امتثال أوامر الله واتباع ما شرع، وأعظم ما ذكر في هذه الآية، أو هذه أنواع البر كلها، وبدأ بالإيمان؛ أي: ولكن البر الإيمان بالله، أو ولكن البر بر من آمن بالله، أو ذا البر بر من آمن بالله؛ أي: بتفرده جلّ وعلا بالربوبية والإلهية، والأسماء الحسنى والصفات العليا؛ إذ هو أصل الأصول، والإيمان باليوم الآخر، وهو البعث بعد الموت، ينقضي بقضاء الخلق في الدنيا، و يموت كل من فيها ثم يحيي الله الموتى، ويعيد الأجساد كما كانت، ويرد إليها الأرواح كما كانت، ويجمع الأولين والآخرين ويوفي كل عامل عمله.

❑ قوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾

● أي: وصدق بوجود الملائكة كلهم، وأشرفهم السفرة بين الله ورسوله، وآمن بالكتاب، وهو اسم جنس يشمل الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- حتى ختمها بالكتاب العزيز، وهو القرآن الكريم، المهيمن على ما قبله من الكتب، وجاء أنها مائة كتاب وأربعة كتب، وآمن بأنبياء الله كلهم من أولهم إلى آخرهم، خاتمهم محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

---

(٦٦٠) لم أقف عليه.

❑ قوله: (وَدَلِيلُ الْقَدَرِ)

● وأنه ركن من أركان الإيمان لا يستقيم الإيمان إلا به.

❑ قوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾

● أي: ما خلقناه فمقدور مكتوب في اللوح المحفوظ، وفي الحديث: «كل شيء بقدر حتى العجز والكيس»(١٦١).

<u>قال العلامة العثيمين:</u>

❑ قوله: (الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ)

●أي: من مراتب الدين.

❑ قوله: (الإِيمَانُ)

●الإيمان في اللغة: التصديق.

وفي الشرع: «اعتقاد بالقلب وقول باللسان وعمل بالجوارح وهو بضع وسبعون شعبة».

❑ قوله: (بِضْعٌ)

●البضع: بكسر الباء من الثلاثة إلى التسعة.

❑ قوله: (شُعْبَةً)

●الشعبة: الجزء من الشيء.

❑ قوله: (إِمَاطَةُ الأَذَى)

●أي: إزالة الأذى وهو ما يؤذي المارة من أحجار وأشواك، ونفايات وقمامة وماله رائحة كريهة ونحو ذلك.

❑ قوله: (الْحَيَاءُ)

●الحياء: صفة انفعالية تحدث عند الخجل وتحجز المرء عن فعل ما يخالف المروءة.

والجمع بين ما تضمنه كلام المؤلف -رحمه الله تعالى- من أن الإيمان بضع وسبعون شعبة وأن الإيمان أركانه ستة أن نقول: الإيمان الذي هو العقيدة أصوله ستة وهي المذكورة في حديث جبريل عليه الصلاة والسلام حينما سأل النبي ﷺ عن الإيمان

(١٦١) أخرجه مسلم (٢٦٥٥)، وأحمد (٢/١١٠)، وغيرهما من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

فقال: «الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»(١٦٢).

وأما الإيمان الذي يشمل الأعمال وأنواعها وأجناسها فهو بضع وسبعون شعبة ولهذا سمى الله تعالى الصلاة إيمانًا في قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾[البقرة:١٤٣] قال المفسرون: يعني صلاتكم إلى بيت المقدس؛ لأن الصحابة كانوا قبل أن يؤمروا بالتوجه إلى الكعبة يصلون إلى بيت المقدس.

❑ قوله: (أَنْ تُؤمِن بالله)

● الإيمان بالله يتضمن أربعة أمور:

الأول: الإيمان بوجود الله تعالى.

وقد دل على وجوده تعالى: الفطرة، والعقل، والشرع، والحس.

١- أما دلالة الفطرة على وجوده: فإن كل مخلوق قد فطر على الإيمان بخالقه من غير سبق تفكير أو تعليم، ولا ينصرف عن مقتضى هذه الفطرة إلا من طرأ على قلبه ما يصرفه عنها لقول النبي ﷺ «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه»(١٦٣). رواه البخاري.

٢- وأما دلالة العقل على وجود الله تعالى؛ فلأن هذه المخلوقات سابقها ولاحقها لابد لها من خالق أوجدها؛ إذ لا يمكن أن توجد نفسها بنفسها، ولا يمكن أن توجد صُدفة.

لا يمكن أن توجد نفسها بنفسها لأن الشيء لا يخلق نفسه؛ لأنه قبل وجوده معدوم فكيف يكون خالقًا؟!

ولا يمكن أن توجد صدفة؛ لأن كل حادث لابد له من محدث؛ ولأن وجودها على هذا النظام البديع، والتناسق المتآلف، والارتباط الملتحم بين الأسباب ومسبباتها، وبين الكائنات بعضها مع بعض يمنع منعًا باتًا أن يكون وجودها صدفة؛ إذ الموجود صدفة ليس على نظام في أصل وجوده فكيف يكون منتظمًا حال بقائه وتطوره؟! وإذا لم يمكن أن توجد هذه المخلوقات نفسها بنفسها، ولا أن توجد صدفة تعين أن يكون لها موجد وهو

---

(١٦٢) سبق تخريجه.

(١٦٣) أخرجه البخاري (٤٧٧٥) ومسلم (٢٦٥٨)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الله رب العالمين.

وقد ذكر الله تعالىٰ هذا الدليل العقلي والبرهان القطعي في سورة الطور، حيث قال: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝٣٥﴾[الطور:٣٥]؛ يعني: أنهم لم يخلقوا من غير خالق، ولا هم الذين خلقوا أنفسهم، فتعين أن يكون خالقهم هو الله تبارك وتعالىٰ، ولهذا لما سمع جبير بن مطعم رضي الله عنه رسول الله ﷺ يقرأ سورة الطور فبلغ هذه الآيات: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ۝٣٧﴾[الطور:٣٥-٣٧] وكان جبير يومئذ مشركًا قال: «كاد قلبي أن يطير، وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي»[١٦٤] رواه البخاري مفرقًا.

ولنضرب مثلًا يوضح ذلك، فإنه لو حدثك شخص عن قصر مُشيَّد، أحاطت به الحدائق، وجرت بينها الأنهار، وملئ بالفرش والأسرة، وزين بأنواع الزينة من مقوماته ومكملاته، وقال لك: إن هذا القصر وما فيه من كمال قد أوجد نفسه، أو وُجِدَ هكذا صدفة بدون مُوجِد، لبادرت إلىٰ إنكار ذلك وتكذيبه، وعددت حديثه سفهًا من القول، أفيجوز بعد ذلك أن يكون هذا الكون الواسع بأرضه وسمائه، وأفلاكه وأحواله، ونظامه البديع الباهر، قد أوجد نفسه، أو وجد صدفة بدون موجد؟!

٣- وأما دلالة الشرع علىٰ وجود الله تعالىٰ؛ فلأن الكتب السماوية كلها تنطق بذلك، وما جاءت به من الأحكام المتضمنة لمصالح الخلق دليل علىٰ أنها من رب حكيم عليم بمصالح خلقه، وما جاءت به من الأخبار الكونية التي شهد الواقع بصدقها دليل علىٰ أنها من رب قادر علىٰ إيجاد ما أخبر به.

٤- وأما أدلة الحس علىٰ وجود الله فمن وجهين:

أحدهما: أننا نسمع ونشاهد من إجابة الداعين، وغوث المكروبين، ما يدل دلالة قاطعة علىٰ وجوده تعالىٰ، قال الله تعالىٰ: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾[الأنبياء:٧٦]، وقال تعالىٰ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾[الأنفال:٩]، وفي «صحيح البخاري» عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أن أعرابيًا دخل يوم الجمعة والنبي ﷺ يخطب، فقال: يا رسول الله، هلك المال، وجاع العيال، فادع الله لنا، فرفع يديه ودعا فثار

---

(١٦٤) سبق تخريجه.

السحاب أمثال الجبال فلم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته. وفي الجمعة الثانية قام ذلك الأعرابي أو غيره فقال: يا رسول الله تهدم البناء وغرق المال، فادع الله لنا، فرفع يديه وقال: اللهم حوالينا ولا علينا، فما يشير إلى ناحية إلا انفرجت»(١٦٥).

وما زالت إجابة الداعين أمرًا مشهودًا إلى يومنا هذا لمن صدق اللجوء إلى الله تعالى وأتى بشرائط الإجابة.

الوجه الثاني: أن آيات الأنبياء التي تسمى (المعجزات) ويشاهدها الناس، أو يسمعون بها، برهان قاطع على وجود مرسلهم، وهو الله تعالى؛ لأنها أمور خارجة عن نطاق البشر، يجريها الله تعالى تأييدًا لرسله ونصرًا لهم.

مثال ذلك: آية موسى ﷺ حين أمره الله تعالى أن يضرب بعصاه البحر، فضربه فانفلق اثني عشر طريقًا يابسًا، والماء بينها كالجبال، قال الله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ۝٦٣﴾[الشعراء:٦٣].

ومثال ثان: آية عيسى ﷺ حيث كان يحيي الموتى، ويخرجهم من قبورهم بإذن الله، قال الله تعالى عنه: ﴿وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[آل عمران:٤٩] وقال: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى﴾[المائدة:١١٠].

ومثال ثالث: لمحمد ﷺ حين طلبت منه قريش آية، فأشار إلى القمر فانفلق فرقتين فرآه الناس، وفي ذلك قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾[القمر:١،٢]. فهذه الآيات المحسوسة التي يجريها الله تعالى تأييدًا لرسله، ونصرًا لهم، تدل دلالة قطعية على وجوده تعالى.

الثاني: الإيمان بربوبيته:

أي: بأنه وحده الرب لا شريك له ولا معين.

والرب: من له الخلق والملك، والأمر، فلا خالق إلا الله، ولا مالك إلا هو، ولا أمر إلا له، قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾[الأعراف:٥٤] وقال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝١٣﴾[فاطر:١٣].

ولم يعلم أن أحدًا من الخلق أنكر ربوبية الله سبحانه، إلا أن يكون مكابرًا غير معتقد بما يقول، كما حصل من فرعون حين قال لقومه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٤﴾[النازعات:٢٤] وقال:

---

(١٦٥) أخرجه البخاري (١٠١٣)، ومسلم (٨٩٧)، وغيرهما من حديث أنس ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾[القصص:٣٨] لكن ذلك ليس عن عقيدة، قال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗا﴾[النمل:١٤] وقال موسى لفرعون فيما حكى الله عنه: ﴿قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ۝١٠٢﴾[الإسراء:١٠٢].

ولهذا كان المشركون يقرون بربوبية الله تعالى، مع إشراكهم به في الألوهية، قال الله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٨٥ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٨٧ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٨٨ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ۝٨٩﴾[المؤمنون:٨٤-٨٩].

وقال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٩﴾[الزخرف:٩]، وقال: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ۝٨٧﴾[الزخرف:٨٧].

وأمر الرب سبحانه شامل للأمر الكوني والشرعي فكما أنه مدبر الكون القاضي فيه بما يريد حسب ما تقتضيه حكمته، فهو كذلك الحاكم فيه بشرع العبادات وأحكام المعاملات حسبما تقتضيه حكمته، فمن اتخذ مع الله تعالى مشرعًا في العبادات أو حاكمًا في المعاملات فقد أشرك به ولم يحقق الإيمان.

الثالث: الإيمان بألوهيته:

أي: (بأنه وحده الإله الحق لا شريك له) و«الإله» بمعنى: «المألوه»؛ أي: «المعبود» حبًا وتعظيمًا، وقال الله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٦٣﴾[البقرة:١٦٣] وقال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١٨﴾[آل عمران:١٨]. وكل ما اتخذ إلهًا مع الله يعبد من دونه فألوهيته باطلة، قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ۝٦٢﴾[الحج:٦٢] وتسميتها آلهة لا يعطيها حق الألوهية قال الله تعالى في (اللات والعزى ومناة): ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍ﴾[النجم:٢٣]، وقال عن هود أنه قال لقومه: ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي

فِي أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾[الأعراف:٧١] وقال عن يوسف أنه قال لصاحبي السجن: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾[يوسف:٣٩، ٤٠] ولهذا كانت الرسل عليهم الصلاة والسلام يقولون لأقوامهم: ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾[الأعراف:٥٩] ولكن أبى ذلك المشركون، واتخذوا من دون الله آلهة، يعبدونهم مع الله سبحانه وتعالى، ويستنصرون بهم، ويستغيثون.

وقد أبطل الله تعالى اتخاذ المشركين هذه الآلهة ببرهانين عقليين:

الأول: أنه ليس في هذه الآلهة التي اتخذوها شيء من خصائص الألوهية، فهي مخلوقة لا تخلق، ولا تجلب نفعًا لعابديها، ولا تدفع عنهم ضررًا، ولا تملك لهم حياة ولا موتًا، ولا يملكون شيئًا من السموات ولا يشاركون فيه.

قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾[الفرقان:٣].

وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾[سبأ:٢٢، ٢٣].

وقال: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾[الأعراف:١٩١، ١٩٢].

وإذا كانت هذه حال تلك الآلهة، فإن اتخاذها آلهة من أسفه السفه، وأبطل الباطل.

الثاني: أن هؤلاء المشركين كانوا يقرون بأن الله تعالى وحده الرب الخالق الذي بيده ملكوت كل شيء، وهو يجير ولا يجار عليه، وهذا يستلزم أن يوحدوه بالألوهية كما وحّدوه بالربوبية كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾[البقرة:٢١، ٢٢] وقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾[الزخرف:٨٧] وقال: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ

وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾[يونس: ٣١، ٣٢].

الرابع: الإيمان بأسمائه وصفاته

أي: (إثبات ما أثبته الله لنفسه في كتابه، أو سنة رسوله ﷺ من الأسماء والصفات على الوجه اللائق به من غير تحريف، ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾[الأعراف: ١٨٠] وقال: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾[الروم: ٢٧] وقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾[الشورى: ١١].

وقد ضل في هذا الأمر طائفتان:

إحداهما: (المعطلة) الذين أنكروا الأسماء، والصفات، أو بعضها، زاعمين أن إثباتها لله يستلزم التشبيه؛ أي: تشبيه الله تعالى بخلقه، وهذا الزعم باطل لوجوه منها:

الأول: أنه يستلزم لوازم باطلة كالتناقض في كلام الله سبحانه، وذلك أن الله تعالى أثبت لنفسه الأسماء والصفات، ونفى أن يكون كمثله شيء، ولو كان إثباتها يستلزم التشبيه لزم التناقض في كلام الله، وتكذيب بعضه بعضًا.

الثاني: أنه لا يلزم من اتفاق الشيئين في اسم أو صفة أن يكونا متماثلين، فأنت ترى الشخصين يتفقان في أن كلًّا منهما إنسان سميعٌ، بصيرٌ، متكلمٌ، ولا يلزم من ذلك أن يتماثلا في المعاني الإنسانية، والسمع والبصر، والكلام، وترى الحيوانات لها أيدٍ وأرجل، وأعين، ولا يلزم من اتفاقها هذا أن تكون أيديها وأرجلها، وأعينها متماثلة.

فإذا ظهر التباين بين المخلوقات فيما تتفق فيه من أسماء، أو صفات، فالتباين بين الخالق والمخلوق أبين وأعظم.

الطائفة الثانية: (المشبهة) الذين أثبتوا الأسماء والصفات مع تشبيه الله تعالى بخلقه زاعمين أن هذا مقتضى دلالة النصوص؛ لأن الله تعالى يخاطب العباد بما يفهمون وهذا الزعم باطل لوجوه منها:

الأول: أن مشابهة الله تعالى لخلقه أمرٌ باطلٌ يبطله العقل، والشرع، ولا يمكن أن

يكون مقتضى نصوص الكتاب والسنة أمرًا باطلًا.

الثاني: أن الله تعالَىٰ خاطب العباد بما يفهمون من حيث أصل المعنىٰ، أما الحقيقة والكنه الذي عليه ذلك المعنىٰ فهو مما استأثر الله تعالَىٰ بعلمه فيما يتعلق بذاته، وصفاته.

فإذا أثبت الله لنفسه أنه سميع، فإن السمع معلوم من حيث أصل المعنىٰ (وهو إدراك الأصوات) لكن حقيقة ذلك بالنسبة إلَىٰ سمع الله تعالَىٰ غير معلومة؛ لأن حقيقة السمع تتباين حتىٰ في المخلوقات، فالتباين فيها بين الخالق والمخلوق، أبين وأعظم.

وإذا أخبر الله تعالَىٰ عن نفسه أنه استوىٰ علَىٰ عرشه فإن الاستواء من حيث أصل المعنىٰ معلوم، لكن حقيقة الاستواء التي هو عليه غير معلومة بالنسبة إلَىٰ استواء الله علَىٰ عرشه؛ لأن حقيقة الاستواء تتباين في حق المخلوق، فليس الاستواء علَىٰ كرسي مستقر كالاستواء علَىٰ رحل بعير صعب نفور، فإذا تباينت في حق المخلوق، فالتباين فيها بين الخالق والمخلوق أبين وأعظم.

والإيمان بالله تعالَىٰ علَىٰ ما وصفنا يثمر للمؤمنين ثمرات جليلة منها:

الأولَىٰ: تحقيق توحيد الله تعالَىٰ بحيث لا يتعلق بغيره رجاء، ولا خوفًا، ولا يعبد غيره.

الثانية: كمال محبة الله تعالَىٰ، وتعظيمه بمقتضىٰ أسمائه الحسنىٰ وصفاته العليا.

الثالثة: تحقيق عبادته بفعل ما أمر به، واجتناب ما نهىٰ عنه.

❏ قوله: (ومَلائِكَتِهِ)

● **الملائكة:** عالم غيبي مخلوقون، عابدون لله تعالَىٰ، وليس لهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء، خلقهم الله تعالَىٰ من نور، ومنحهم الانقياد التام لأمره، والقوة علَىٰ تنفيذه. قال الله تعالَىٰ: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾[الأنبياء:١٩، ٢٠]. وهم عدد كثير لا يحصيهم إلا الله تعالَىٰ، وقد ثبت في «الصحيحين» من حديث أنس ﷺ في قصة المعراج: «**أن النبي ﷺ رفع له البيت المعمور في السماء يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخر ما عليهم**»[١٦٦].

---

(١٦٦) أخرجه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤)، وغيرهما من حديث مالك بن صعصعة ﷺ.

والإيمان بالملائكة يتضمن أربعة أمور:

الأول: الإيمان بوجودهم.

الثاني: الإيمان بمن علمنا اسمه منهم باسمه كـ«جبريل» ومن لم نعلم اسمه نؤمن بهم إجمالًا.

الثالث: الإيمان بما علمنا من صفاتهم، كصفة «جبريل» فقد أخبر النبي ﷺ: «أنه رآه علَىٰ صفته التي خلق عليها وله ستمائة جناح قد سد الأفق»(١٦٧).

وقد يتحول الملك بأمر الله تعالَىٰ إلَىٰ هيئة رجل، كما حصل لـ«جبريل» حين أرسله تعالَىٰ إلَىٰ مريم فتمثل لها بشرًا سويًا، وحين جاء إلَىٰ النبي ﷺ وهو جالس في أصحابه جاءه بصفة رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرىٰ عليه أثر السفر، ولا يعرفه أحد من الصحابة، فجلس إلَىٰ النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلَىٰ ركبتيه، ووضع كفيه علَىٰ فخذيه، وسأل النبي ﷺ عن الإسلام، والإيمان، والإحسان، والساعة، وأماراتها، فأجابه النبي ﷺ فانطلق. ثم قال النبي ﷺ: «هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم»(١٦٨). رواه مسلم.

وكذلك الملائكة الذين أرسلهم الله تعالَىٰ إلَىٰ إبراهيم، ولوط كانوا في صورة رجال.

الرابع: الإيمان بما علمنا من أعمالهم التي يقومون بها بأمر الله تعالَىٰ، كتسبيحه، والتعبد له ليلًا ونهارًا بدون ملل ولا فتور.

وقد يكون لبعضهم أعمال خاصة.

مثل: جبريل الأمين علَىٰ وحي الله تعالىٰ يرسله الله به إلَىٰ الأنبياء والرسل.

ومثل: ميكائيل الموكَّل بالقطر؛ أي: بالمطر والنبات.

ومثل: إسرافيل الموكَّل بالنفخ في الصور عند قيام الساعة وبعث الخلق.

ومثل: ملك الموت الموكل بقبض الأرواح عند الموت.

ومثل: مالك الموكل بالنار وهو خازن النار.

ومثل: الملائكة الموكلين بالأجنة في الأرحام إذا تم للإنسان أربعة أشهر في بطن أمه، بعث الله إليه ملكًا وأمره بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد.

---

(١٦٧) أخرجه البخاري (٤٨٥٦)، ومسلم (١٧٤)، وغيرهما من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(١٦٨) سبق تخريجه.

ومثل: الملائكة الموكلين بحفظ أعمال بني آدم وكتابتها لكل شخص، ملكان: أحدهما عن اليمين، والثاني عن الشمال.

ومثل: الملائكة الموكلين بسؤال الميت إذا وضع في قبره يأتيه ملكان يسألانه عن ربه، ودينه، ونبيه.

والإيمان بالملائكة يثمر ثمرات جليلة منها:

الأولَى: العلم بعظمة الله تعالَى، وقوته، وسلطانه، فإن عظمة المخلوق من عظمة الخالق.

الثانية: شكر الله تعالَى علَى عنايته ببني آدم، حيث وكل من هؤلاء الملائكة من يقوم بحفظهم، وكتابة أعمالهم، وغير ذلك من مصالحهم.

الثالثة: محبة الملائكة علَى ما قاموا به من عبادة الله تعالَى.

وقد أنكر قوم من الزائغين كون الملائكة أجسامًا، وقالوا: إنهم عبارة عن قوى الخير الكامنة في المخلوقات، وهذا تكذيب لكتاب الله تعالَى، وسنة رسوله ﷺ وإجماع المسلمين.

قال الله تعالَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [فاطر:١].

وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ [الأنفال:٥٠].

وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام:٩٣].

وقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سبأ:٢٣].

وقال في أهل الجنة: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد:٢٣،٢٤].

وفي «صحيح البخاري» عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«إذا أحب الله العبد نادى جبريل إن الله يحب فلانًا فأحبه، فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء، إن الله يحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض»**(١٦٩).

---

(١٦٩) أخرجه البخاري (٣٢٠٩)، ومسلم (٢٦٣٧)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وفيه أيضًا عنه قال: قال النبي ﷺ: «إذا كان يوم الجمعة كان علَىٰ كل باب من أبواب المسجد الملائكة يكتبون الأول فالأول، فإذا جلس الإمام طووا الصحف وجاءوا يستمعون الذكر»(١٧٠).

وهذه النصوص صريحة في أن الملائكة أجسام لا قوىٰ معنوية، كما قال الزائغون وعلَىٰ مقتضىٰ هذه النصوص أجمع المسلمون.

❏ قوله: (وَكُتُبِهِ)

●الكتب: جمع (كتاب) بمعنىٰ: (مكتوب).

والمراد بها هنا: الكتب التي أنزلها تعالَىٰ علَىٰ رسله رحمة للخلق، وهداية لهم، ليصلوا بها إلَىٰ سعادتهم في الدنيا والآخرة.

والإيمان بالكتب يتضمن أربعة أمور:

الأول: الإيمان بأن نزولها من عند الله حقًّا.

الثاني: الإيمان بما علمنا اسمه منها باسمه كالقرآن الذي نزل علَىٰ محمدﷺ، والتوراة التي أنزلت علَىٰ موسىٰﷺ، والإنجيل الذي أنزل علَىٰ عيسىٰﷺ، والزبور الذي أوتيه داودﷺ، وأما ما لم نعلم اسمه فنؤمن به إجمالًا.

الثالث: تصديق ما صح من أخبارها، كأخبار القرآن، وأخبار ما لم يبدل أو يحرف من الكتب السابقة.

الرابع: العمل بأحكام ما لم ينسخ منها، والرضا والتسليم به سواء فهمنا حكمته أم لم نفهمها، وجميع الكتب السابقة منسوخة بالقرآن العظيم قال الله تعالَىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[المائدة:٤٨]؛ أي: حاكمًا عليه، وعلَىٰ هذا فلا يجوز العمل بأي حكم من أحكام الكتب السابقة إلا ما صح منها وأقره القرآن.

والإيمان بالكتب يثمر ثمرات جليلة منها:

الأولَىٰ: العلم بعناية الله تعالَىٰ بعباده حيث أنزل لكل قوم كتابًا يهديهم به.

الثانية: العلم بحكمة الله تعالَىٰ في شرعه حيث شرع لكل قوم ما يناسب أحوالهم.

---

(١٧٠) أخرجه البخاري (٩٢٩)، ومسلم (٨٥٠)، وغيرهما من حديث أبي هريرة ﷺ.

كما قال الله تعالَىٰ: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة:٤٨].

الثالثة: شكر نعمة الله في ذلك.

❑ قوله: (وَرُسُلِهِ)

● الرسل: جمع (رسول) بمعنى: (مرسل)؛ أي: (مبعوث) بإبلاغ شيء.

والمراد هنا: من أوحي إليه من البشر بشرع وأمر بتبليغه.

وأول الرسل نوح وآخرهم محمد ﷺ قال الله تعالَىٰ: ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ [النساء:١٦٣].

وفي «صحيح البخاري» عن أنس بن مالك رضي الله عنه في حديث الشفاعة أن النبي ﷺ: «ذكر أن الناس يأتون إلَىٰ آدم ليشفع لهم فيعتذر إليهم ويقول: ائتوا نوحًا أول رسول بعثه الله»[١٧١] وذكر تمام الحديث.

وقال الله تعالَىٰ في محمد ﷺ: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب:٤٠].

ولم تخل أمة من رسول يبعثه الله تعالَىٰ بشريعة مستقلة إلَىٰ قومه، أو نبي يوحىٰ إليه بشريعة من قبله ليجددها، قال الله تعالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦]، وقال تعالَىٰ: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [فاطر:٢٤]، وقال تعالَىٰ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ ﴾ [المائدة:٤٤].

والرسل بشر مخلوقون ليس لهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء، قال الله تعالَىٰ عن نبيه محمد ﷺ وهو سيد الرسل المرسلين وأعظمهم جاهًا عند الله: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ [الأعراف:١٨٨].

وقال تعالَىٰ: ﴿ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [الجن:٢١، ٢٢].

وتلحقهم خصائص البشرية من المرض، والموت، والحاجة إلَىٰ الطعام والشراب،

---

(١٧١) أخرجه البخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٣)، وغيرهما من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

وغير ذلك، قال الله تعالَىٰ عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام في وصفه لربه تعالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ۝٨١﴾[الشعراء:٧٩-٨١].

وقال النبي ﷺ: «**إنما أنا بشر مثلكم أنسىٰ كما تنسون فإذا نسيت فذكروني**»(١٧٢).

وقد وصفهم الله تعالَىٰ بالعبودية له في أعلَىٰ مقاماتهم، وفي سياق الثناء عليهم فقال تعالَىٰ في نوح ﷺ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾[الإسراء:٣]، وقال في محمد ﷺ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾[الفرقان:١].

وقال في إبراهيم، وإسحاق ويعقوب صلَّىٰ الله عليهم وسلم: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ۝٤٥ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ۝٤٦ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ۝٤٧﴾[ص:٤٥-٤٧]. وقال في عيسىٰ بن مريم ﷺ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩﴾[الزخرف:٥٩].

والإيمان بالرسل يتضمن أربعة أمور:

الأول: الإيمان بأن رسالتهم حق من الله تعالَىٰ، فمن كفر برسالة واحد منهم فقد كفر بالجميع. كما قال الله تعالَىٰ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٠٥﴾[الشعراء:١٠٥] فجعلهم الله مكذبين لجميع الرسل مع أنه لم يكن رسول غيره حين كذبوه، وعلَىٰ هذا فالنصارىٰ الذين كذبوا محمدًا ﷺ ولم يتبعوه هم مكذبون للمسيح بن مريم غير متبعين له أيضًا، لا سيما وأنه قد بشرهم بمحمد ﷺ ولا معنىٰ لبشارتهم به إلا أنه رسول إليهم ينقذهم الله به من الضلالة، ويهديهم إلَىٰ صراط مستقيم.

الثاني: الإيمان بمن علمنا اسمه منهم باسمه مثل: محمد وإبراهيم، وموسىٰ، وعيسىٰ ونوح عليهم الصلاة والسلام، وهؤلاء الخمسة هم أولو العزم من الرسل، وقد ذكرهم الله تعالَىٰ في موضعين من القرآن في سورة الأحزاب في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾[الأحزاب:٧]. وفي سورة الشورىٰ في قوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾[الشورىٰ:١٣].

وأما من لم نعلم اسمه منهم فنؤمن به إجمالًا قال الله تعالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا

---

(١٧٢) أخرجه البخاري (٤٠١)، ومسلم (٥٧٢)، وغيرهما من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

مِن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ [غافر:٧٨].

الثالث: تصديق ما صح عنهم من أخبارهم.

الرابع: العمل بشريعة من أرسل إلينا منهم، وهو خاتمهم محمد ﷺ المرسل إلَىٰ جميع الناس قال الله تعالَىٰ: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء:٦٥].

وللإيمان بالرسل ثمرات جليلة منها:

الأولَىٰ: العلم برحمة الله تعالَىٰ وعنايته بعباده حيث أرسل إليهم الرسل ليهدوهم إلَىٰ صراط الله تعالَىٰ، ويبينوا لهم كيف يعبدون الله؛ لأن العقل البشري لا يستقل بمعرفة ذلك.

الثانية: شكره تعالَىٰ علَىٰ هذه النعمة الكبرىٰ.

الثالثة: محبة الرسل عليهم الصلاة والسلام وتعظيمهم، والثناء عليهم بما يليق بهم؛ لأنهم رسل الله تعالَىٰ، ولأنهم قاموا بعبادته، وتبليغ رسالته، والنصح لعباده.

وقد كذب المعاندون رسلهم زاعمين أن رسل الله تعالَىٰ لا يكونون من البشر، وقد ذكر الله تعالَىٰ هذا الزعم وأبطله بقوله: ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾ [الإسراء:٩٤،٩٥] فأبطل الله تعالَىٰ هذا الزعم بأنه لابد أن يكون الرسول بشرًا؛ لأنه مرسل إلَىٰ أهل الأرض، وهم بشر، ولو كان أهل الأرض ملائكة لنزل الله عليهم من السماء ملكًا رسولًا، ليكون مثلهم، وهكذا حكىٰ الله تعالَىٰ عن المكذبين للرسل أنهم قالوا: ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [إبراهيم:١٠،١١].

❏ قوله: (وَالْيَوْمِ الآخِرِ)

● اليوم الآخر يوم القيامة الذي يبعث الناس فيه للحساب والجزاء. وسمي بذلك؛ لأنه لا يوم بعده، حيث يستقر أهل الجنة في منازلهم، وأهل النار في منازلهم.

والإيمان باليوم الآخر يتضمن ثلاثة أمور:

الأول: الإيمان بالبعث: وهو إحياء الموتىٰ حين ينفخ في الصور النفخة الثانية، فيقوم

الناس لرب العالمين، حفاة غير متنعلين، عراة غير مستترين، غُرلًا غير مختتنين، قال الله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ۝١٠٤﴾[الأنبياء:١٠٤].
والبعث: حق ثابت دل عليه الكتاب، والسنة، وإجماع المسلمين. قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ۝١٦﴾[المؤمنون:١٥،١٦].

وقال النبي ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة حفاة غرلًا»(١٧٣). متفق عليه.

وأجمع المسلمون على ثبوته، وهو مقتضى الحكمة حيث تقتضي أن يجعل الله تعالى لهذه الخليقة معادًا يجازيهم فيه على ما كلفهم به على ألسنة رسله قال الله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝١١٥﴾[المؤمنون:١١٥] وقال لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾[القصص:٨٥].

الثاني: الإيمان بالحساب والجزاء: يحاسب العبد على عمله، ويجازى عليه، وقد دل على ذلك الكتاب، والسنة، وإجماع المسلمين، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝٢٦﴾[الغاشية:٢٥،٢٦] وقال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝١٦٠﴾[الأنعام:١٦٠] وقال: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ۝٤٧﴾[الأنبياء:٤٧].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «إن الله يدني المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أي رب حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى أنه قد هلك قال: قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطى كتاب حسناته، وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رءوس الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على ربهم، ألا لعنة الله على الظالمين»(١٧٤). متفق عليه.

وصح عن النبي ﷺ: «أن من همّ بحسنة فعملها، كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وأن من همّ بسيئة فعملها كتبها الله سيئة واحدة»(١٧٥).

---

(١٧٣) أخرجه البخاري (٦٥٢٦)، ومسلم (٢٨٥٩)، وغيرهما من حديث عائشة رضي الله عنها.

(١٧٤) أخرجه البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨)، وغيرهما من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(١٧٥) أخرجه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١)، وغيرهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وقد أجمع المسلمون علَىٰ إثبات الحساب والجزاء علَىٰ الأعمال، وهو مقتضىٰ الحكمة فإن الله تعالَىٰ أنزل الكتب، وأرسل الرسل، وفرض علَىٰ العباد قبول ما جاءوا به، والعمل بما يجب العمل به منه، وأوجب قتال المعارضين له وأحل دماءهم، وذرياتهم، ونساءهم، وأموالهم. فلو لم يكن حساب، ولا جزاء لكان هذا من العبث الذي يُنَزَّهُ الرب الحكيم عنه، وقد أشار الله تعالَىٰ إلَىٰ ذلك بقوله: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾ [الأعراف:٦،٧].

الثالث: الإيمان بالجنة والنار، وأنهما المآل الأبدي للخلق، فالجنة دار النعيم التي أعدها الله تعالَىٰ للمؤمنين المتقين، الذين آمنوا بما أوجب الله عليهم الإيمان به، وقاموا بطاعة الله ورسوله، مخلصين لله متبعين لرسوله. فيها من أنواع النعيم «ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علَىٰ قلب بشر». قال الله تعالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾ [البينة:٧،٨].

وقال تعالَىٰ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٧﴾ [السجدة:١٧].

وأما النار فهي دار العذاب التي أعدها الله تعالَىٰ للكافرين الظالمين، الذين كفروا به وعصوا رسله، فيها من أنواع العذاب والنكال مالا يخطر علَىٰ البال قال الله تعالَىٰ: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ۝١٣١﴾ [آل عمران:١٣١]، وقال: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ۝٢٩﴾ [الكهف:٢٩] وقال تعالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۝٦٤ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝٦٥ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ۝٦٦﴾ [الأحزاب:٦٤-٦٦].

ويلتحق بالإيمان باليوم الآخر: الإيمان بكل ما يكون بعد الموت مثل:

(أ) **فتنة القبر**: وهي سؤال الميت بعد دفنه عن ربه، ودينه، ونبيه، فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت، فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد ﷺ. ويضل الله الظالمين فيقول الكافر: هاه هاه، لا أدري. ويقول المنافق أو المرتاب: لا أدري، سمعت

الناس يقولون شيئًا فقلته.

(ب) عذاب القبر ونعيمه: فيكون العذاب للظالمين من المنافقين والكافرين قال الله تعالَىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾[الأنعام:٩٣].

وقال تعالَىٰ في آل فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾[غافر:٤٦].

وفي «صحيح مسلم» من حديث زيد بن ثابت عن النبي ﷺ قال: «فلولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه، ثم أقبل بوجهه فقال: تعوذوا بالله من عذاب النار. قالوا: نعوذ بالله من عذاب النار. فقال: تعوذوا بالله من عذاب القبر. قالوا: نعوذ بالله من عذاب القبر. قال: تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن. قالوا: نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن. قال: تعوذوا بالله من فتنة الدجال. قالوا: نعوذ بالله من فتنة الدجال»(١٧٦).

وأما نعيم القبر؛ فللمؤمنين الصادقين قال الله تعالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾[فصلت:٣٠].

وقال تعالَىٰ: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾[الواقعة:٨٣-٨٩] إلَىٰ آخر السورة.

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال في المؤمن إذا أجاب الملكين في قبره: «ينادي منادٍ من السماء أن صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له بابًا إلَىٰ الجنة، قال: فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مدّ بصره»(١٧٧). رواه

(١٧٦) أخرجه مسلم (٢٨٦٧)، وأحمد (١٩٠/٥)، وغيرهما من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه.

(١٧٧) أخرجه أبو داود (٤٧٥٣)، وأحمد (٢٨٧/٤)، وغيرهما من حديث البراء رضي الله عنه، وصححه العلامة الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

أحمد وأبو داود في حديث طويل.

وللإيمان باليوم الآخر ثمرات جليلة منها:

الأولى: الرغبة في فعل الطاعة والحرص عليها رجاءً لثواب ذلك اليوم.

الثانية: الرهبة عند فعل المعصية والرضا بها خوفًا من عقاب ذلك اليوم.

الثالثة: تسلية المؤمن عما يفوته من الدنيا بما يرجوه من نعيم الآخرة وثوابها.

وقد أنكر الكافرون البعث بعد الموت زاعمين أن ذلك غير ممكن.

وهذا الزعم باطل دل علىٰ بطلانه الشرع، والحس، والعقل.

أما الشرع: فقد قال الله تعالىٰ: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝٧﴾[التغابن:٧] وقد اتفقت جميع الكتب السماوية عليه.

وأما الحس: فقد أرىٰ الله عباده إحياء الموتىٰ في هذه الدنيا، وفي سورة البقرة خمسة أمثلة علىٰ ذلك وهي:

المثال الأول: قوم موسىٰ حين قالوا له: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾[البقرة:٥٥] فأماتهم الله تعالىٰ، ثم أحياهم، وفي ذلك يقول الله تعالىٰ مخاطبًا بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٥ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٥٦﴾[البقرة:٥٥،٥٦].

المثال الثاني: في قصة القتيل الذي اختصم فيه بنو إسرائيل، فأمرهم الله تعالىٰ أن يذبحوا بقرة فيضربوه ببعضها ليخبرهم بمن قتله، وفي ذلك يقول الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَاۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٞ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ۝٧٢ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٧٣﴾[البقرة:٧٢،٧٣].

المثال الثالث: في قصة القوم الذين خرجوا من ديارهم فرارًا من الموت وهم ألوف فأماتهم الله تعالىٰ، ثم أحياهم وفي ذلك يقول الله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۝٢٤٣﴾[البقرة:٢٤٣].

المثال الرابع: في قصة الذي مر علىٰ قرية ميتة فاستبعد أن يحييها الله تعالىٰ، فأماته الله تعالىٰ مئة سنة، ثم أحياه، وفي ذلك يقول الله تعالىٰ: ﴿أَوْ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ

عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ ﴾[البقرة:٢٥٩]

المثال الخامس: في قصة إبراهيم الخليل حين سأل الله تعالَىٰ أن يريه كيف يحيي الموتىٰ؟ فأمره الله تعالَىٰ أن يذبح أربعة من الطير، ويفرقهن أجزاءً علَىٰ الجبال التي حوله، ثم يناديهن فتلتئم الأجزاء بعضها إِلَىٰ بعض، ويأتين إِلَىٰ إبراهيم سعيًا، وفي ذلك يقول الله تعالَىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾[البقرة:٢٦٠]

فهذه أمثلة حسية واقعية تدل علَىٰ إمكانية إحياء الموتىٰ، وقد سبقت الإشارة إِلَىٰ ما جعله الله تعالَىٰ من آيات عيسىٰ بن مريم من إحياء الموتىٰ وإخراجهم من قبورهم بإذن الله تعالَىٰ.

وأما دلالة العقل فمن وجهين:

أحدهما: أن الله تعالَىٰ فاطر السموات والأرض وما فيهما، خالقهما ابتداء، والقادر علَىٰ ابتداء الخلق لا يعجز عن إعادته، قال الله تعالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[الروم:٢٧]، وقال تعالَىٰ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾[الأنبياء:١٠٤]، وقال آمرًا بالرد علَىٰ من أنكر إحياء العظام وهي رميم: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾[يس:٧٩].

الثاني: أن الأرض تكون ميتة هامدة ليس فيها شجرة خضراء، فينزل عليها المطر فتهتز خضراء حية فيها من كل زوج بهيج، والقادر علَىٰ إحيائها بعد موتها، قادر علَىٰ إحياء الأموات. قال الله تعالَىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾[فصلت:٣٩] وقال تعالَىٰ: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ ﴾[ق:٩-١١].

وقد ضل قوم من أهل الزيغ فأنكروا عذاب القبر، ونعيمه، زاعمين أن ذلك غير

ممكن لمخالفة الواقع، قالوا: فإنه لو كشف عن الميت في قبره لوجد كما كان عليه، والقبر لم يتغير بسعة ولا ضيق.

وهذا الزعم باطل بالشرع، والحس، والعقل:

أما الشرع: فقد سبقت النصوص الدالة علىٰ ثبوت عذاب القبر، ونعيمه في فقرة (ب) مما يلتحق بالإيمان باليوم الآخر.

وفي «صحيح البخاري» من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «**خرج النبي ﷺ من بعض حيطان المدينة، فسمع صوت إنسانين يعذبان في قبورهما**». وذكر الحديث، وفيه: «**أن أحدهما كان لا يستتر من البول -وفي رواية: من بوله- وأن الآخر كان يمشي بالنميمة**»[١٧٨].

وأما الحس: فإن النائم يرىٰ في منامه أنه كان في مكان فسيح بهيج يتنعم فيه، أو أنه كان في مكان ضيق موحش يتألم منه، وربما يستيقظ أحيانًا مما رأىٰ، ومع ذلك فهو علىٰ فراشه في حجرته علىٰ ما هو عليه، والنوم أخو الموت؛ ولهذا سماه الله تعالىٰ «وفاة» قال الله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[الزمر:٤٢].

وأما العقل: فإن النائم في منامه يرىٰ الرؤيا الحق المطابقة للواقع، وربما رأىٰ النبي ﷺ علىٰ صفته، ومن رآه علىٰ صفته فقد رآه حقًّا، ومع ذلك فالنائم في حجرته علىٰ فراشه بعيدًا عما رأىٰ، فإذا كان هذا ممكنًا في أحوال الدنيا، أفلا يكون ممكنًا في أحوال الآخرة؟!.

وأما اعتمادهم فيما زعموه علىٰ أنه لو كشف عن الميت في قبره لوجد كما كان عليه، والقبر لم يتغير بسعة ولا ضيق، فجوابه من وجوه منها:

الأول: أنه لا تجوز معارضة ما جاء به الشرع بمثل هذه الشبهات الداحضة التي لو تأمل المعارض بها ما جاء به الشرع حق التأمل لعلم بطلان هذه الشبهات وقد قيل:

وكم من عائب قولًا صحيحًا وآفته من الفهم السقيم

الثاني: أن أحوال البرزخ من أمور الغيب التي لا يدركها الحس، ولو كانت تدرك بالحس لفاتت فائدة الإيمان بالغيب، ولتساوىٰ المؤمنون بالغيب، والجاحدون في التصديق بها.

---

(١٧٨) أخرجه البخاري (٢١٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

الثالث: أن العذاب والنعيم وسعة القبر وضيقه إنما يدركها الميت دون غيره، وهذا كما يرىٰ النائم في منامه أنه في مكان ضيق موحش، أو في مكان واسع بهيج، وهو بالنسبة لغيره لم يتغير منامه هو في حجرته وبين فراشه وغطائه. ولقد كان النبي ﷺ يوحىٰ إليه وهو بين أصحابه فيسمع الوحي، ولا يسمعه الصحابة، وربما يتمثل له الملك رجلًا فيكلمه والصحابة لا يرون الملك، ولا يسمعونه.

الرابع: أن إدراك الخلق محدود بما مكنهم الله تعالَىٰ من إدراكه، ولا يمكن أن يدركوا كل موجود، فالسموات السبع والأرض ومن فيهن، وكل شيء يسبح بحمد الله تسبيحًا حقيقيًّا يُسمعه الله تعالَىٰ من شاء من خلقه أحيانًا. ومع ذلك هو محجوب عنا، وفي ذلك يقول الله تعالَىٰ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾ [الإسراء:٤٤] وهكذا الشياطين، والجن، يسعون في الأرض ذهابًا وإيابًا، وقد حضرت الجن إلَىٰ رسول الله ﷺ واستمعوا لقراءته وأنصتوا وولوا إلَىٰ قومهم منذرين. ومع هذا فهم محجوبون عنا وفي ذلك يقول الله تعالَىٰ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧﴾ [الأعراف:٢٧] وإذا كان الخلق لا يدركون كل موجود، فإنه لا يجوز أن ينكروا ما ثبت من أمور الغيب، ولم يدركوه.

❑ قوله: (وَتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ)

● القدر بفتح الدال: «تقدير الله تعالَىٰ للكائنات، حسبما سبق به علمه، واقتضته حكمته».

والإيمان بالقدر يتضمن أربعة أمور:

الأول: الإيمان بأن الله تعالَىٰ علم بكل شيء جملةً وتفصيلًا، أزلًا وأبدًا، سواء كان ذلك مما يتعلق بأفعاله أو بأفعال عباده.

الثاني: الإيمان بأن الله كتب ذلك في اللوح المحفوظ، وفي هذين الأمرين يقول الله تعالَىٰ: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧٠﴾ [الحج:٧٠].

وفي «صحيح مسلم» عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول

الله ﷺ يقول: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة»[١٧٩].

الثالث: الإيمان بأن جميع الكائنات لا تكون إلا بمشيئة الله تعالىٰ، سواء كانت مما يتعلق بفعله أم مما يتعلق بفعل المخلوقين، قال الله تعالىٰ فيما يتعلق بفعله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص:٦٨] وقال: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۝٢٧﴾ [إبراهيم:٢٧] وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [آل عمران:٦] وقال تعالىٰ فيما يتعلق بفعل المخلوقين: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَـٰتَلُوكُمْ﴾ [النساء:٩٠] وقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ۝١١٢﴾ [الأنعام:١١٢].

الرابع: الإيمان بأن جميع الكائنات مخلوقة لله تعالىٰ بذواتها، وصفاتها، وحركاتها، قال الله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ۝٦٢﴾ [الزمر:٦٢] وقال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾ [الفرقان:٢]. وقال عن نبي الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنه قال لقومه: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصافات:٩٦].

والإيمان بالقدر علىٰ ما وصفنا لا ينافي أن يكون للعبد مشيئة في أفعاله الاختيارية وقدرة عليها، لأن الشرع والواقع دالان علىٰ إثبات ذلك له.

أما الشرع: فقد قال الله تعالىٰ في المشيئة: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ۝٣٩﴾ [النبأ:٣٩] وقال: ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة:٢٢٣] وقال في القدرة: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟﴾ [التغابن:١٦] وقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة:٢٨٦].

وأما الواقع: فإن كل إنسان يعلم أن له مشيئة وقدرة بهما يفعل وبهما يترك، ويفرق بين ما يقع بإرادته كالمشي، وما يقع بغير إرادته كالارتعاش، لكن مشيئة العبد وقدرته واقعتان بمشيئة الله تعالىٰ، وقدرته لقول الله تعالىٰ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢٩﴾ [التكوير:٢٨،٢٩] ولأن الكون كله ملك لله تعالىٰ فلا يكون في ملكه شيء بدون علمه ومشيئته.

---

(١٧٩) أخرجه مسلم (٢٦٥٣)، والترمذي (٢١٥٦)، وغيرهما من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

والإيمان بالقدر علىٰ ما وصفنا لا يمنح العبد حجة علىٰ ما ترك من الواجبات أو فعل من المعاصي، وعلىٰ هذا فاحتجاجه به باطل من وجوه:

الأول: قوله تعالىٰ: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأنعام:١٤٨] ولو كان لهم حجة بالقدر ما أذاقهم الله بأسه.

الثاني: قوله تعالىٰ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء:١٦٥] ولو كان القدر حجة للمخالفين لم تنتف بإرسال الرسل، لأن المخالفة بعد إرسالهم واقعة بقدر الله تعالىٰ.

الثالث: ما رواه البخاري ومسلم واللفظ للبخاري عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما منكم من أحد إلا قد كتب مقعده من النار أو من الجنة. فقال رجل من القوم: ألا نتكل يا رسول الله؟ قال: لا، اعملوا فكل ميسر، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾﴾ [الليل:٥]»(١٨٠). الآية. وفي لفظ لمسلم: «فكلٌ ميسرٌ لما خلق له»(١٨١). فأمر النبي ﷺ بالعمل ونهىٰ عن الاتكال علىٰ القدر.

الرابع: أن الله تعالىٰ أمر العبد ونهاه، ولم يكلفه إلا ما يستطيع، قال الله تعالىٰ: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦] وقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦] ولو كان العبد مجبرًا علىٰ الفعل لكان مكلفًا بما لا يستطيع الخلاص منه، وهذا باطل ولذلك إذا وقعت منه المعصية بجهلٍ، أو نسيانٍ، أو إكراهٍ، فلا إثم عليه لأنه معذور.

الخامس: أن قدر الله تعالىٰ سر مكتوم لا يُعلم به إلا بعد وقوع المقدور، وإرادة العبد لما يفعله سابقة علىٰ فعله فتكون إرادته الفعل غير مبنية علىٰ علم منه بقدر الله، وحينئذ تنتفي حجته بالقدر؛ إذ لا حجة للمرء فيما لا يعلمه.

السادس: أننا نرىٰ الإنسان يحرص علىٰ ما يلائمه من أمور دنياه حتىٰ يدركه ولا يعدل عنه إلىٰ ما لا يلائمه ثم يحتج علىٰ عدوله بالقدر، فلماذا يعدل عما ينفعه في أمور

---

(١٨٠) أخرجه البخاري (٤٩٤٥).

(١٨١) أخرجه مسلم (٢٦٤٧)، وغيره من حديث علي رضي الله عنه.

دينه إلَىٰ ما يضره ثم يحتج بالقدر؟! أفليس شأن الأمرين واحدًا؟!

وإليك مثالًا يوضح ذلك: لو كان بين يدي الإنسان طريقان أحدهما ينتهي به إلَىٰ بلد كلها فوضىٰ، وقتل ونهب، وانتهاك للأعراض، وخوف، وجوع، والثاني ينتهي به إلَىٰ بلد كلها نظام، وأمن مستتب، وعيش رغيد، واحترام للنفوس والأعراض والأموال، فأي الطريقين يسلك؟

إنه سيسلك الطريق الثاني الذي ينتهي به إلَىٰ بلد النظام والأمن، ولا يمكن لأي عاقل أبدًا أن يسلك طريق بلد الفوضىٰ، والخوف، ويحتج بالقدر، فلماذا يسلك في أمر الآخرة طريق النار دون الجنة ويحتج بالقدر؟!

مثال آخر: نرىٰ المريض يؤمر بالدواء فيشربه ونفسه لا تشتهيه، وينهىٰ عن الطعام الذي يضره فيتركه ونفسه تشتهيه، كل ذلك طلبًا للشفاء والسلامة، ولا يمكن أن يمتنع عن شرب الدواء أو يأكل الطعام الذي يضره ويحتج بالقدر، فلماذا يترك الإنسان ما أمر الله ورسوله، أو يفعل ما نهىٰ الله ورسوله ثم يحتج بالقدر؟!

السابع: أن المحتج بالقدر علَىٰ ما تركه من الواجبات أو فعله من المعاصي، لو اعتدىٰ عليه شخص فأخذ ماله أو انتهك حرمته ثم احتج بالقدر، وقال: لا تلمني فإن اعتدائي كان بقدر الله، لم يقبل حجته. فكيف لا يقبل الاحتجاج بالقدر في اعتداء غيره عليه، ويحتج به لنفسه في اعتدائه علَىٰ حق الله تعالَىٰ؟!

ويذكر أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه رفع إليه سارق استحق القطع، فأمر بقطع يده فقال: مهلًا يا أمير المؤمنين، فإنما سرقت بقدر الله. فقال عمر: ونحن إنما نقطع بقدر الله.

وللإيمان بالقدر ثمرات جليلة منها:

الأولَىٰ: الاعتماد علَىٰ الله تعالَىٰ، عند فعل الأسباب بحيث لا يعتمد علَىٰ السبب نفسه؛ لأن كل شيء بقدر الله تعالَىٰ.

الثانية: أن لا يعجب المرء بنفسه عند حصول مراده، لأن حصوله نعمة من الله تعالَىٰ، بما قدره من أسباب الخير، والنجاح، وإعجابه بنفسه ينسيه شكر هذه النعمة.

الثالثة: الطمأنينة، والراحة النفسية بما يجري عليه من أقدار الله تعالَىٰ فلا يقلق بفوات

محبوب، أو حصول مكروه؛ لأن ذلك بقدر الله الذي له ملك السماوات والأرض، وهو كائن لا محالة وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾[الحديد:٢٢،٢٣] ويقول النبي ﷺ: «عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له»(١٨٢). رواه مسلم.

وقد ضل في القدر طائفتان:

إحداهما: الجبرية الذين قالوا: إن العبد مجبر على عمله وليس له فيه إرادة ولا قدرة.

الثانية: القدرية الذين قالوا إن العبد مستقل بعمله في الإرادة والقدرة، وليس لمشيئة الله تعالى وقدرته فيه أثر.

والرد على الطائفة الأولى (الجبرية) بالشرع والواقع:

أما الشرع: فإن الله تعالى أثبت للعبد إرادة ومشيئة، وأضاف العمل إليه قال الله تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾[آل عمران:١٥٢] وقال: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾[الكهف:٢٩] الآية. وقال: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾[فصلت:٤٦].

وأما الواقع: فإن كل إنسان يعلم الفرق بين أفعاله الاختيارية التي يفعلها بإرادته كالأكل، والشرب، والبيع والشراء، وبين ما يقع عليه بغير إرادته كالارتعاش من الحمى، والسقوط من السطح، فهو في الأول فاعل مختار بإرادته من غير جبر، وفي الثاني غير مختار ولا مريد لما وقع عليه.

والرد على الطائفة الثانية (القدرية) بالشرع والعقل:

أما الشرع: فإن الله تعالى خالق كل شيء، وكل شيء كائن بمشيئته، وقد بين الله تعالى في كتابه أن أفعال العباد تقع بمشيئته فقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ

(١٨٢) أخرجه مسلم (٢٩٩٩)، وأحمد (٣٣٢/٤)، وغيرهما من حديث صهيب رضي الله عنه.

مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ ﴾[البقرة:٢٥٣] وقال تعالَىٰ: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ ﴾[السجدة:١٣].

وأما العقل: فإن الكون كله مملوك لله تعالَىٰ، والإنسان من هذا الكون فهو مملوك لله تعالَىٰ، ولا يمكن للمملوك أن يتصرف في ملك المالك إلا بإذنه ومشيئته.

قال العلامة الفوزان:

قوله: (الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ: الإِيمَانُ وَهُوَ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً...)

● فالإيمان أعم من الإسلام، فكل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمنًا، فالإيمان أعم من جهة نفسه، وأخص من جهة أهله.

والإيمان في اللغة: التصديق، قال تعالىٰ علىٰ لسان إخوة يوسف: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾[يوسف:١٧]؛ أي: بمصدق لنا.

وأما الإيمان في الشرع: فهو كما فسره أهل السنة والجماعة: قول باللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية.

وهو بهذا التفسير يكون حقيقة شرعية؛ لأن الحقائق ثلاث: حقيقة لغوية، وحقيقة شرعية، وحقيقة عرفية.

فتفسير الإيمان بهذا التفسير هو حقيقة شرعية، فالإيمان نقل من المعنىٰ اللغوي إلىٰ المعنىٰ الشرعي.

فالإيمان: قول باللسان، لابد من النطق والاعتراف باللسان، واعتقاد بالقلب، لابد من أن يكون ما ينطق به بلسانه معتقدا له بقلبه، وإلا كان مثل إيمان المنافقين الذين: ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ﴾[آل عمران:١٦٧].

ولا يكفي القول باللسان والاعتقاد بالقلب، بل لابد من العمل بالجوارح أيضًا، لابد من أداء الفرائض، وتجنب المحرمات، فيفعل الطاعات، ويتجنب المحرمات، كل هذا من الإيمان، وهو بهذا التعريف يشمل الدين كله، لكن هذه الطاعات والشرائع الكثيرة منها ما هو جزء من حقيقة الإيمان، ومنها ما هو مكملات للإيمان.

والإيمان له أركان وله شعب، وقد بينها النبي ﷺ في حديثين، بين أركان الإيمان في

حديث جبريل، وبين شعب الإيمان في حديث: «الإيمان بضع وسبعون شعبة»(١٨٣)، وهذا يأتي إن شاء الله.

والإيمان والإسلام إذا ذكرا جميعًا صار لكل واحد معنى، وإذا ذكر منهما واحد فقط دخل في الآخر، فإذا ذكرا جميعًا فسر الإسلام بالأعمال الظاهرة، وهي أركان الإسلام الخمسة، وفسر الإيمان بالأعمال الباطنة، وهي الأركان الستة، ومحلها القلب، ولابد من اجتماعها في المسلم، لابد أن يكون مسلمًا مؤمنًا، يقيم أركان الإسلام، ويقيم أركان الإيمان، لابد من اجتماعها.

قال ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، أو بضع وستون شعبة»، روايتان.

قوله: «بضع» : البضع: هو ما بين الثلاثة إلى التسعة، فإذا قيل: بضعة عشر: هو ما بين ثلاثة عشر إلى تسعة عشر، وإذا قيل: بضع فقط فهو ما بين الثلاثة إلى التسعة.

قوله: «شعبة» : الشعبة هي القطعة من الشيء؛ أي: أن الأركان بضع وسبعون قطعة أو جزءًا.

قوله: «أعلاها»؛ أي: أعلى هذه الشعب قول: لا إله إلا الله، فهي رأس الإسلام، ورأس الإيمان، وهي الركن الأول، وهي مدخل الدين.

قوله: «أدناها»؛ أي: آخرها وأقلها.

قوله: «إماطة الأذى عن الطريق»؛ أي: إزالة الأذى عن الطريق المسلوك، والأذى: كل ما يؤذي الناس من شوك أو حجر أو قاذورات أو مخلفات، كل ما يؤذي الناس في طريقهم، ووضع الأذى في الطريق محرم؛ لأن الطريق للمارة، فالأذى يعطل المارة، أو يعرضهم للخطر، مثل أن يوقف سيارته في الطريق، هذا من الأذى، إرسال الماء من البيت في الطريق، هذا من الأذى، وضع القمامات في الطريق هذا من الأذى، سواء كان الطريق في البلد أو في البر، وضع الحجارة، وضع الأخشاب، وضع الحديد بطرقات الناس، حفر الحفر في طرقات الناس، كل هذا من الأذى.

فإذا جاء مسلم وأزاح هذا الأذى: أخلى الطريق منه فهذا دليل على إيمانه، فوضع الأذى في الطريق من شعب الكفر، وإزالة الأذى عن الطريق من شعب الإيمان.

قوله: «والحياء شعبة من الإيمان»؛ الحياء: خلق يجعله الله في الإنسان، يحمله على

(١٨٣) سبق تخريجه.

فعل ما يجمله ويزينه، ويمنعه مما يدنسه ويشينه، والحياء الذي يحمل صاحبه على الخير، ويبعده عن الشر، هذا محمود، أما الحياء الذي يمنع الإنسان من فعل الخير، وطلب العلم، والسؤال عما أشكل عليه، فهذا حياء مذموم؛ لأنه خجل.

وشعب الإيمان كثيرة كما عرفتم: بضع وسبعون، وقد كتب الإمام البيهقي مؤلفًا كبيرًا بين فيه شعب الإيمان، وله مختصر مطبوع.

ومن أدلة العلماء على أن الإيمان قول باللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح، قوله ﷺ: «**أعلاها لا إله إلا الله**»، هذا يدل على القول، وقوله ﷺ: «**أدناها إماطة الأذى عن الطريق**»، هذا عمل دل على أن الأعمال من الإيمان، وقوله ﷺ: «**الحياء شعبة من الإيمان**»، هذا في القلب، الحياء إنما يكون في القلب، فهذا دليل على أن الإيمان قول باللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح.

❑قوله: (وَأَرْكَانُهُ سِتَّةٌ أَنْ تُؤمِن بالله)

●**الإيمان يتكون من أركان وشعب، فما الفرق بينهما؟**

الفرق أن الأركان لابد منها، فإذا زال واحد منها زال الإيمان؛ لأن الشيء لا يقوم إلا على أركانه، فإذا فقد ركن من أركان الشيء لم يتحقق، وأما الشعب فإنها مكملات، لا يزول الإيمان بزوال الشيء منها، لكنها مكملات إما واجبات أو مستحبات، فالواجبات لكمال الإيمان الواجب والمستحبات لكمال الإيمان المستحب.

فإذا ترك المسلم شيئًا من الواجبات، أو فعل شيئًا من المحرمات، فإنه لا يزول إيمانه بالكلية عند أهل السنة والجماعة، ولكن يزول كماله الواجب، فيكون ناقص الإيمان أو فاسقًا، كما لو شرب الخمر أو سرق أو زنى، أو فعل شيئًا من الكبائر، هذا يكون فاعلًا لمحرم وكبيرة من كبائر الذنوب، لكنه لا يكفر بذلك، ولا يخرج من الإيمان، بل يكون فاسقًا، ويقام عليه الحد إن كانت المعصية ذات حد.

وكذلك من ترك واجبًا، كمن ترك بر الوالدين، أو صلة القرابة، هذه واجبات، فمن تركها نقص إيمانه، وكان عاصيًا بترك الواجب، فيكون عاصيًا إما بترك الواجب، وإما بفعل محرم، وعلى كل حال لا يخرج من الإيمان، وإنما يكون مؤمنًا ناقص الإيمان.

هذا مذهب أهل السنة والجماعة، خلافًا للخوارج والمعتزلة الذين يكفران مرتكب الكبيرة.

فالخوارج يكفرونه ويخرجونه من الدين.

والمعتزلة يخرجونه من الدين، لكن لا يدخلونه في الكفر، وإنما يقولون: هو في منزلة بين منزلتين، لا هو مؤمن، ولا كافر.

هذا مذهبهم، وهو مذهب مبتدع، مخالف للأدلة، ومخالف لما هو عليه أهل السنة والجماعة، والسبب في ذلك تقصيرهم في الاستدلال، حيث أخذوا أدلة الوعيد، وتركوا أدلة الوعد مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[النساء:٤٨]، هذه من أدلة الوعد، دلت على أن العاصي الذي لم يصل إلى حد الشرك والكفر أنه مرجو له المغفرة، ومعرض للوعيد والعقوبة.

فإذا جمعت بين قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾[الجن:٢٣]، من أخذ بظاهرها كفر بالمعصية مطلقًا، وإن ردها إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[النساء:٤٨] تبين له الحق، وأنه لا يخرج من الدين، ولكنه متوعد بالنار، إن شاء الله غفر له، وإن شاء عذبه، فقد يأتي عليه مكفرات في الدنيا، أو عذاب في القبر، تكفر هذه السيئات.

والمكفرات كثيرة، يبتلى بمصائب، يبتلى بعقوبات في الدنيا، أو يعذب في قبره، أو يؤجل إلى يوم القيامة، ويكون تحت المشيئة.

هذا مذهب أهل السنة والجماعة، وهذا هو الفرق بين الشعب والأركان، فمن ترك شيئًا من الأركان فإنه يكفر، من جحد التوحيد وأشرك بالله ﷻ هذا يكفر؛ لأنه ترك الركن الأول، ومن جحد أحد الرسل يكفر؛ لأنه ترك ركنًا من أركان الإسلام، ومن جحد الملائكة يكفر ويخرج من الملة، ومن كفر بالبعث، أو جحد الجنة أو النار أو الصراط أو الميزان، أو شيئًا مما ثبت من أمور الآخرة فإنه بذلك يكفر؛ لأنه أنكر ركنًا من أركان الإيمان.

كذلك من جحد القدر وقال: الأمر أنف، ولم يسبق قدر من الله، إنما هي المصادفة، والأمور بالصدفة، وليس هناك قدر، كما يقوله غلاة المعتزلة، فإنه يكفر أيضًا؛ لأنه جحد القدر، أما من ترك شيئًا من الشعب فإن هذا ينقص إيمانه، إما أن يكون نقصًا لكماله الواجب، أو نقصًا لكماله المستحب، لكنه لا يكفر بذلك.

وما دليل الزيادة والنقصان في الإيمان؟

أما دليل الزيادة: فقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾[الأنفال:٢] ، فدل على أن الإيمان يزيد بسماع القرآن.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾[التوبة:١٢٤] .

دل على أن الإيمان يزيد بنزول القرآن وسماعه وتدبره، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾[المدثر:٣١] ، فدل على أن الإيمان يزيد بالطاعات والتصديق.

وأما النقصان: فإن كل شيء يزيد فإنه ينقص، كل شيء قابل للزيادة فإنه قابل للنقص هذا من ناحية.

ودل عليه قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «إن الله -سبحانه وتعالى- يوم القيامة يقول: أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان»[(١٨٤)] ، فدل على أن الإيمان ينقص حتى يكون على وزن خردل في القلب، وكذلك قوله تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾[آل عمران:١٦٧] دل على أن الإيمان ينقص حتى يكون أقرب إلى الكفر، وفي قوله ﷺ: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[(١٨٥)] ، دل على أن الإيمان يضعف؛ أي: ينقص، فالإيمان إذًا يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية.

قوله: «وأركانه ستة»؛ أي: دعائمه التي يقوم عليها، ويفقد بفقدها أو بفقد واحد منها ستة أركان، وهي:

الأول: أن تؤمن بالله: فالركن الأول وهو الإيمان بالله، يشمل أنواع التوحيد الثلاثة: الإيمان بأن الله -سبحانه وتعالى واحد أحد فرد صمد، لا شريك له في ربوبيته، ولا في ألوهيته، ولا في أسمائه وصفاته.

الثاني: الإيمان بالملائكة: والملائكة جمع مَلَك، وأصله ملأك ثم سهل وقيل: ملك، والملائكة خلق من خلق الله في عالم الغيب، خلقهم الله لعبادته، ولتنفيذ أوامره سبحانه

---

(١٨٤) أخرجه البخاري (٢٢)، ومسلم (١٨٤)، وغيرهما من حديث أبي سعيد ﷺ.

(١٨٥) أخرجه مسلم (٤٩)، والترمذي (٢١٧٢)، وغيرهما من حديث أبي سعيد ﷺ.

وتعالى في ملكه، وهم أصناف، كل صنف له عمل موكل به ويقوم به، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، فمنهم من هو موكل بالوحي، وهو جبريل ﷺ، وهو أشرف الملائكة، وهو الروح الأمين، شديد القوي، ومنهم من هو موكل بحمل العرش ﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ ﴾[غافر:٧]، قال تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ۝١٧﴾[الحاقة:١٧].

العرش هو أعظم المخلوقات، ولا يعلم عِظَمَه إلا الله ﷻ يحمله الملائكة، وهذا دليل على عِظَم الملائكة، وعِظَم قواهم وخلقهم، قال تعالى: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ ﴾[فاطر:١]، فمنهم من له ستمائة جناح كجبريل عليه الصلاة والسلام، فلا يعلم عظم خلقتهم إلا الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ۝٢٧﴾[الأنبياء:٢٦،٢٧].

ومنهم: الموكل بالقطر والنبات، وهو ميكائيل.

ومنهم: من هو موكل بالنفخ في الصور، وهو إسرافيل، ينفخ في الصور، فيهلك كل شيء، قال تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ﴾[الزمر:٦٨]، ثم ينفخ فيه مرة ثانية، فتطير الأرواح في أجسادها ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ۝٦٨﴾[الزمر:٦٨].

تطير الأرواح من القرن وهو الصور إلى أجسادها، وتدخل فيها، فيحيون بإذن الله، ثم يسيرون إلى المحشر.

ومنهم: من هو موكل بقبض الأرواح عند نهاية آجالها، وهو ملك الموت، قال تعالى: ﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ۝١١﴾[السجدة:١١]، ومعه أعوان من الملائكة: ﴿تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ۝٦١﴾[الأنعام:٦١]؛ يعني: أعوان ملك الموت.

ومنهم: من هو موكل بالأجنة في الأرحام، قال رسول الله ﷺ: **«إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك»**(١٨٦) الحديث.

---

(١٨٦) أخرجه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣)، وغيرهما من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

ومنهم: الموكلون بحفظ أعمال بني آدم، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١﴾[الانفطار:١٠،١١]، يلازمونكم بالليل والنهار.

قال ﷺ : «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار»(١٨٧) ويجتمعون في صلاة الفجر، وفي صلاة العصر، ويشهدون للمصلين عند الله سبحانه وتعالى؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۝٧٨﴾[الإسراء:٧٨] أي: يحضره الملائكة، ملائكة الليل وملائكة النهار.

ومنهم: من هو موكل بحفظ بني آدم من المكاره، يحفظونه من الآفات، ومن الأعداء ومن الهوام ومن السباع ومن الأفاعي والحيات، ما دام له بقية حياة فإن له ملائكة يحفظونه من الأخطار.

ينام بين السباع وبين الحيات في البر، من الذي يدفع عنه الحيات والسباع والهوام؟ معه ملائكة سخرهم الله سبحانه وتعالى، قال الله فيهم: ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾[الرعد:١١]؛ أي: بأمر الله هؤلاء يحفظون بني آدم من المكاره والأخطار إلى أن يحين الأجل، فإذا حان الأجل تخلوا عنه، فوقع ما قدر الله له من الموت أو الإصابة التي تفضي إلى الموت.

ومنهم: ملائكة موكلون بتنفيذ الأوامر في أقطار السماوات والأرض، لا يعلمهم إلا الله سبحانه وتعالى.

منهم: ملائكة يطلبون مجالس الذكر ويحضرونها، كما قال رسول الله ﷺ : «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة»(١٨٨) ملائكة سياحون في الأرض، يطلبون حلق الذكر ويشهدونها.

ولا يعلم الملائكة وأصنافهم وأوصافهم إلا الله، لكن ما جاء في النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة أثبتناه واعتقدناه، وما لم يذكر لنا نمسك عنه ولا نبحث فيه؛ لأن هذا من علم الغيب الذي لا ندخل فيه إلا بدليل.

---

(١٨٧) أخرجه البخاري (٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١٨٨) أخرجه مسلم (٢٦٩٩)، وابن ماجه (٢٢٥)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فالإيمان بالملائكة ركن من أركان الإسلام، فمن جحد الملائكة وقال: لا يوجد ملائكة لأننا لا نراهم، هذا يكون كافرًا ملحدًا زنديقًا والعياذ بالله؛ لأنه لم يؤمن بالغيب، وكذلك الذي يؤول الملائكة فيقول: الملائكة إنما هي معانٍ وليست أجسامًا، وهي الهواجس التي تأتي على الإنسان، إن كانت هواجس خير فهي ملائكة، وإن كانت هواجس شر فهي شياطين، فهذا قول إلحادي والعياذ بالله، ومع الأسف هو في «تفسير المنار» نقله محمد رشيد رضا عن شيخه محمد عبده.

وهذا كلام الفلاسفة، وهو كلام باطل، من اعتقده فهو كافر، لكن نرجو أنه نقله ولم يعتقده لكن نقله من غير تعقيب فيه خطورة، وهذا كلام باطل وكفر بالملائكة، نسأل الله العافية والسلامة.

فالإنسان لا يدخل بعقله وتفكيره، أو ينقل عن الفلاسفة أو عن الزنادقة شيئًا من أمور الدين وأمور الغيب، وإنما يعتمد على الكتاب والسنة هذا هو الواجب، ويذكر في «تفسير المنار» أنه منقول من كتاب «إحياء علوم الدين» للغزالي، والله أعلم.

وكتاب «إحياء علوم الدين» للغزالي فيه طوام وفيه بلايا، وإن كان فيه شيء من الخير والفوائد، لكن فيه من المهلكات والسموم الشيء الكثير، وهو كتاب مختلط، شره أكثر من خيره، فلا يليق بالمبتدئ أو العامي أن يطالع فيه إلا إذا كان عنده علم وتمييز بين الحق والباطل.

والملائكة ليسوا معاني كما يقول، بل الملائكة أجسام وأشكال، يتشكلون بأشكال أعطاهم الله القدرة عليها؛ ولهذا كان جبريل عليه السلام يأتي إلى النبي ﷺ في صورة رجل، فأعطاهم الله القدرة على التشكل في أشكال من أجل مصلحة بني آدم؛ لأن بني آدم لا يطيقون رؤية الملائكة على خلقتهم التي خلقهم الله عليها، وإنما يأتون إلى النبي ﷺ في صورة رجل رفقًا ببني آدم، ولا يرون على صورتهم وحقيقتهم إلا عند العذاب، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الفرقان: ٢٢]، وعند الموت يعاينهم الإنسان، يرى ملائكة الموت، لكن في الدنيا وعلى قيد الحياة لا يراهم؛ لأنه لا يطيق رؤيتهم؛ خلقهم الله من نور، وخلق الشياطين من نار كما في القرآن، وخلق آدم من تراب، فالله على كل شيء قدير.

والكفار يعتقدون أن الملائكة بنات الله، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ

عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ [الزخرف:١٩].

الثالث: الإيمان بكتبه: وهي الكتب التي أنزلها الله على الرسول لهداية البشر، نؤمن بأنها كلام الله حقيقة، ونؤمن بما سمى الله منها وما لم يسم، سمى الله لنا منها التوراة والإنجيل والقرآن العظيم وصحف إبراهيم وموسى والزبور، فنؤمن بها.

ونؤمن بما لم يسمه الله منها، فالإيمان بالكتب السابقة يكون إيمانًا مجملًا، والإيمان بالقرآن يكون إيمانًا مفصلًا بكل ما فيه؛ لأنه كتابنا، وأنزل على نبينا محمدﷺ؛ فمن جحد آية أو حرفًا من حروفه فهو كافر مرتد عن الإسلام.

وكذلك من آمن ببعض القرآن وكفر ببعض فهو كافر، وكذلك من آمن ببعض الكتب وكفر ببعض فهو كافر، ومن قال: أنا أؤمن بالقرآن ولا أؤمن بالتوراة والإنجيل فهو كافر، أو قال: أؤمن بالتوراة والإنجيل ولا أؤمن بالزبور الذي أنزل على داودعليه السلام فهو كافر، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾﴾ [النساء:١٦٣]، أو أنكر صحف إبراهيم فهو كافر؛ لأنه مكذب للهﷻ ومكذب لرسله، فهو كافر؛ لأنه جحد ركنًا من أركان الإيمان.

الرابع: الإيمان برسله: الإيمان بالرسل جميعهم من أولهم إلى آخرهم، من سمى الله منهم ومن لم يسم، نؤمن بهم جميعًا، وأنهم رسل الله حقًا، جاءوا بالرسالة، وبلغوها لأممهم.

فمن كفر بنبي واحد فهو كافر بجميع الرسل لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٥٢﴾﴾ [النساء:١٥٠-١٥٢].

فالكفر بنبي واحد أو برسول كفر بالجميع؛ ولهذا قال: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الشعراء:١٠٥]، مع أنهم كذبوا نوحًا، فتكذيبهم لنوح صار تكذيبًا لبقية المرسلين، وكذلك من كفر بعيسى ومحمد كاليهود، أو كفر بمحمد كالنصارى، فإنه كافر بالجميع، لابد من الإيمان بجميع الرسل عليهم الصلاة والسلام، من سمى الله منهم ومن لم يسم.

وقد سمى الله منهم، كما في سورة الأنعام: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ

وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾[الأنعام:٨٣-٨٦]، فذكر جملة منهم في هذه الآيات، وفي آيات أخرىٰ، فنؤمن بمن سمىٰ الله منهم، ونؤمن بمن لم يسم الله منهم.

الخامس: اليوم الآخر: الإيمان باليوم الآخر هو الركن الخامس، واليوم الآخر المراد به: يوم القيامة، سمي باليوم الآخر ؛ لأنه بعد اليوم الأول، وهو يوم الدنيا، الدنيا هي اليوم الأول، والقيامة هي اليوم الآخر.

والإيمان باليوم الآخر هو: الإيمان بما بعد الموت من عذاب القبر ونعيمه، وسؤال الملكين في القبر، وكل ما يكون بعد القبر فهو من الإيمان باليوم الآخر، وكذلك الإيمان بالبعث والنشور والمحشر والحساب ووزن الأعمال، والصراط والميزان الذي توزن به الحسنات والسيئات، والجنة والنار.

فتفاصيل ما يحصل في اليوم الآخر نؤمن بها جملةً وتفصيلًا، بداية من الموت إلىٰ أن يستقر أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، كل ما صح من هذا نؤمن به، ولا نشك في شيء منه، فمن شك في شيء منه فهو كافر مرتد عن الإسلام، كل هذا يطلق عليه اليوم الآخر وما فيه.

الركن السادس: تؤمن بالقدر خيره وشره: تؤمن بأن ما يجري في هذا الكون من خير أو شر، من كفر وإيمان، من نعمة ونقمة، من رخاء وشدة، من مرض وصحة، من حياة وموت، كل ما يجري في هذا الكون فإنه مقدر، لم يكن صدفة، أو يكن أمرا مستأنفًا؛ أي: أنه مبتدأ لم يسبق أن قدّر، تؤمن بهذا كله بأنه بقضاء الله وقدره، وتؤمن بأن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، وأن هذا بقضاء الله وقدره، قال تعالىٰ: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾[الحديد:٢٢]، هذا هو الإيمان بالقدر.

والإيمان بالقدر يتضمن أربع درجات، من لم يؤمن بها كلها فليس مؤمنا بالقدر:

المرتبة الأولىٰ: العلم: بأن الله علم كل شيء في الأزل، علم كل ما يجري، ما كان وما يكون إلىٰ ما لا نهاية، فالله قد علمه في الأزل قبل أن يكون وقبل أن يقع، علمه -

سبحانه وتعالى- بعلمه القديم الأزلي الذي هو موصوف به أزلًا وأبدًا، هذه مرتبة العلم، فمن جحدها فهو كافر.

المرتبة الثانية: مرتبة الكتابة في اللوح المحفوظ: وهي أن الله كتب كل شيء في اللوح المحفوظ، فما يجري شيء إلا وهو مكتوب في اللوح المحفوظ، ليس هناك شيء يجري وهو غير مكتوب؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾[الحديد:٢٢]؛ يعني: اللوح المحفوظ، كتب الله فيه مقادير كل شيء، قال رسول الله ﷺ: «أول ما خلق الله القلم، قال: اكتب، قال: وما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة»[١٨٩] فمن جحد الكتابة، وقال: الله يعلم كل شيء، لكنه لم يكتب في اللوح المحفوظ شيئًا، هذا كافر مرتد عن دين الإسلام.

المرتبة الثالثة: مشيئة الله النافذة: وهي أن الله -سبحانه- يشاء الشيء ويريده، فما من شيء يحدث إلا وقد شاءه الله وأراده كما في اللوح المحفوظ، وكما علمه سبحانه وتعالى، يشاء كل شيء في وقته، ويريد كل شيء في وقت حدوثه، لا يقع شيء بدون مشيئة الله، أو بدون إرادة الله، فمن قال: إن الأشياء تحدث بدون أن يشاءها الله أو يريدها فهذا كافر.

المرتبة الرابعة: مرتبة الخلق والإيجاد: الله خالق كل شيء، إذا شاءه وأراده خلقه - سبحانه وتعالى- وأوجده، فكل شيء هو مخلوق لله سبحانه وتعالى، وهو من خلق الله، وهو فعل العباد وكسب العباد.

فهذه المراتب الأربع لابد من الإيمان بها، وإلا لم يكن الإنسان مؤمنًا بالقدر: مرتبة العلم، والكتابة، والمشيئة، والخلق والإيجاد، كل هذه لابد من الإيمان بها، فمن جحد شيئًا منها فإنه كافر مرتد عن دين الإسلام؛ لأنه جحد ركنًا من أركان الإيمان، وهو الإيمان بالقدر.

❑قوله: (والدَّلِيلُ عَلَى هذِهِ الأَرْكَانِ السِّتَّةِ ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾

●لما ذكر الشيخ هذه الأركان ذكر دليلها من القرآن ومن السنة؛ لأن أي شيء من أمور الدين والعبادة والعقيدة وأمور الأحكام الشرعية يحتاج إلى دليل، وإن لم يكن له

---

(١٨٩) أخرجه أبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٢١٥٥)، وأحمد (٣١٧/٥)، وغيرهم من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه، وصححه العلامة الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

دليل لم يكن صحيحًا، لما ذكر الشيخ أركان الإيمان الستة ذكر دليلها من القرآن أولًا ثم من السنة.

فمن القرآن قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ ﴾[البقرة:١٧٧].

﴿ ٱلْبِرَّ ﴾: هو فعل الخير الذي يقرب من الله، ويوصل إلى جنته، فكل أفعال الخير هي من البر، فالبر: لفظ عام يجمع جميع أنواع الخير، وأنواع الطاعات كلها داخلة تحت مسمى البر، وتحت مسمى التقوى.

فالبر والتقوى من الأسماء العامة التي تجمع كل خصال الخير، وقوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ﴾ هذا رد على اليهود الذين استنكروا تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة، استنكروا هذا وجحدوه مع العلم أنهم يعلمون أنه حق، لكن جحدوه من باب العناد والمكابرة والحسد للنبي ﷺ ولهذه الأمة.

يقول الله: ليس البر أن تولوا وجوهكم جهة من الجهات من غير أمر من الله، ولكن البر طاعة الله -سبحانه وتعالى- إذا أمركم بأمر وجب عليكم امتثاله، هذا هو البر، فإذا أمركم باستقبال بيت المقدس فالبر في ذاك الوقت هو استقبال بيت المقدس؛ لأنه طاعة لله ﷻ، ثم إذا أمركم أن تستقبلوا الكعبة فالبر هو استقبال الكعبة، فالبر يدور مع أمر الله سبحانه وتعالى.

أنتم عبيد يجب عليكم الامتثال، إذا أمركم الله أن تستقبلوا جهة من الجهات وجب عليكم الامتثال، أما أن تتعصبوا لجهة معينة، وتقولوا: لا يصح إلا استقبالها فهذا معناه اتباع الهوى والعصبية.

والعبد الصادق يدور مع أوامر الله حيث دارت، ولا يعترض على أمر الله؛ لأن استقبال جهة بعد نسخ استقبالها لا يكون طاعة لله ﷻ، فالعمل بالمنسوخ وترك الناسخ ليس طاعة لله ﷻ وإنما هو طاعة للهوى والعصبية، فالبر متعلق بطاعة الله، فحيث وجهك تتوجه إن كنت محقًّا في عبوديتك لله ﷻ: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ ﴾.

□قوله: (وَدَلِيلُ القَدَرِ: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾).

●دليل الركن السادس من أركان الإيمان: قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾؛

أي: كل شيء خلقه الله فإنه مقدر في علمه وكتابته ومشيئته وإرادته سبحانه وتعالى، وليس هو عفويا أو صدفيا، إنما هو أمر سابق في علم الله، ومكتوب في اللوح المحفوظ، وسابق في مشيئة الله وإرادته سبحانه وتعالى.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

❑ قوله: (الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ: الإِيمَانُ)

● هذه المرتبة الثانية، وهي مرتبة الإيمان، والإيمان أصله:

في اللغة: كما سبق أن ذكرت هو التصديق الجازم، فهو تصديق وجزم.

وفي الشرع: الإيمان قول وعمل واعتقاد، أو نقول الإيمان في الشرع: قول وعمل؛ لأن القول هو قول اللسان وقول القلب، والعمل عمل القلب وعمل الجوارح.

فإذا قال من قال من أهل السنة: إن الإيمان قول وعمل. فهو بمعنى من يقول: قول وعمل واعتقاد.

لأن القول ينقسم إلى قول اللسان وقول القلب:

قول اللسان: هو النطق والإقرار ظاهرًا بنطقه.

- وقول القلب: النية.

عمل القلب وعمل الجوارح:

- عمل القلب: أقسامه كثيرة، منها أنواع الاعتقادات، ومنها أنواع العبادات القلبية؛ الخشية والخوف والرجاء، والعلم؛ أنواع العلميات هذه من أعمال القلب، وكذلك عبادات القلب المتنوعة؛ هذه أعمال قلبية.

- وكذلك عمل الجوارح.

وهذا بمعنى قول من قال: إن الإيمان قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان، يزيد بطاعة الرحمان، وينقص بطاعة الشيطان.

قال أهل العلم: إن هذا الإيمان الشرعي هو الذي حصل الابتلاء به، فهو من الأسماء التي نقلت من اللغة إلى الشرع، وصارت حقيقتها الشرعية هي ما وصفت لك من أن الإيمان يشتمل على قول اللسان والعمل بالأركان والاعتقاد وأنه يزيد وينقص.

الإيمان كثيرًا ما يأتي في القرآن ويراد به اللغوي، وكثيرًا ما يأتي في القرآن ويُراد به

الشرعي، بمثل الألفاظ الأخرى كالصلاة فإنها تأتي ويراد بها اللغوي؛ الصلاة اللغوية وهي الدعاء والثناء، ويأتي ويراد بها الصلاة المعروفة ومما ذكره بعض أهل العلم من ذوي التحقيق:

- أن الإيمان اللغوي في القرآن كثيرًا ما يعدىٰ باللام كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ۝١٧﴾[يوسف:١٧]، كقوله: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾[العنكبوت:٢٦]، ونحو ذلك من الأمثلة وما سبق أن ذكرت لك.

- والإيمان الشرعي المنقول عن أصله اللغوي الذي يراد به العمل والقول والاعتقاد هذا يعدىٰ كثيرًا بالباء ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾[البقرة:٢٨٥]، إلىٰ آخر الآية، قال: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾[البقرة:١٣٧]، ونحو ذلك من الآيات وكقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ۝١٣٦﴾[النساء:١٣٦].

هذا الإيمان قول وعمل واعتقاد، ويراد به تارة الاعتقادات الباطنة، وهو الذي يناسب المرتبة الثانية؛ لأن المرتبة الأولىٰ هي الإسلام، وهي ما يشمل العمل الظاهر كما جاء في حديث جبريل، فقد جاء في بعض طرقه: أنه ذكر عليه الصلاة والسلام لجبريل أن من الإسلام بعد الحج الغسل من الجنابة، ومنه الذكر، ونحو ذلك مما هو من جنس الأعمال الظاهرة. وأما الإيمان: فهو العقائد الباطنة؛ الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر.

❑ قوله: (وَهُوَ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً...)

●الشيخ رحمه الله تعالىٰ هنا قال: (الإيمان بضع وسبعون شعبة) وهذا يعني به اسم الإيمان العام الذي يدخل فيه الإسلام؛ لأن الإيمان أوسع من الإسلام، والإسلام بعض الإيمان، وأهل الإيمان أخص مرتبة من أهل الإسلام؛ لهذا الإيمان يشمل الإسلام وزيادة، بهذا المعنىٰ.

ولهذا المعنىٰ قال الشيخ رحمه الله: «وهو بضع وسبعون شعبة فأعلاها قول لا إله إلا الله». ومن المعلوم أن قول لا إله إلا الله أول أركان الإسلام؛ شهادة لله بالتوحيد بقول: لا إله إلا الله مع توابع ذلك هذا الركن الأول، فهنا عد قول لا إله إلا الله أعلىٰ شعب الإيمان، وهذا لأن الإيمان يشمل الإسلام وزيادة، وهذا قد جاء مبينًا في الحديث

الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم وغيرهما أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «**الإيمان بضع وستون، أو قال: بضع وسبعون شعبة أعلاها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذىٰ عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**»(١٩٠) فذكر أن أعلىٰ شعب الإيمان لا إله إلا الله، وقوله: «شعب»؛ هذا تمثيل للإيمان بالشجرة التي لها شعب ولها فروع، وقد مثل عليه الصلاة والسلام بأعلىٰ الشعب وبأدنىٰ الشعب، ومثل بشعبة من الشعب، وهذه الثلاث التي ذكرها عليه الصلاة والسلام متنوعة:

- فالأول وهو أعلاها: قول لا إله إلا الله.
- وأدناها إماطة الأذىٰ عن الطريق؛ هذا عمل.
- والحياء شعبة من الإيمان، الحياء عمل القلب.

فذكر في هذا قول لا إله إلا الله، وهذا قول باللسان، ولا شك أنه يتبعه اعتقاد بالجنان، وذكر الحياء أيضًا وهو عمل بالقلب، وذكر إماطة الأذىٰ عن الطريق وهو عمل الجوارح، فتمثيله عليه الصلاة والسلام لذلك لأجل أن يستدل لكل واحد من هذه الثلاثة؛ لكل شعبة من هذه الشعب علىٰ نظائرها:

فيستدل بكلمة التوحيد بقول: لا إله إلا الله علىٰ الشعب القولية.

ويستدل بإماطة الأذىٰ عن الطريق بالشعب العملية؛ عمل الجوارح.

ويستدل بذكره الحياء علىٰ الشعب القلبية.

وهذا من أبلغ ما يكون من التشبيه والتمثيل، وذلك لأن التنويع -كما نوع عليه الصلاة والسلام- يجعل الناظر يعدي هذا الذي ذكر إلىٰ أمثال تماثلها كثيرة، ولهذا العلماء اختلفوا في شعب الإيمان، عدها جماعة وصنفوا فيها مصنفات، كما صنف الحليمي كتابه، «المنهاج في شعب الإيمان» وهو مطبوع، وتلاه علىٰ ترتيبه وعلىٰ نسقه البيهقي موسعًا داعمًا بالأدلة في كتابه «شعب الإيمان»، ونحو ذلك، عدوها علىٰ اجتهاد منهم، وهذا الاجتهاد يختلف فيه العلماء، فمنهم من يعد خصالًا من شعب الإيمان، ومنهم من يعد أخرىٰ، وسبب ذلك اجتهادهم في قياس ما لم يذكر علىٰ ما ذكر، فيجعل بعضًا منها قولية، ويجعلون بعضًا منها عملية، ويجعلون بعضًا منها لعبادات القلب، وهم

---

(١٩٠) سبق تخريجه.

يقسمونها في الغالب أثلاثًا: فيجعلون للقوليات نحوًا من خمس وعشرين شعبة، ويجعلون للعمليات نحوًا من خمس وعشرين شعبة، ويجعلون لأعمال القلوب نحوًا من سبع وعشرين أو خمس وعشرين شعبة، يزيدون و ينقصون.

المقصود: أن هذا اجتهاد، من العلماء، لكن هذا التمثيل يدل على ما ذكرت لك من استيعابه للأقوال وأعمال الجوارح وأعمال القلوب؛ إذن فيدخل في هذه الشعب -شعب الإسلام-: إقام الصلاة، إيتاء الزكاة، صوم رمضان، الحج، الجهاد، الغسل، الطهارة، ونحو ذلك، يدخل فيها الأعمال الاجتماعية التي أمر بها؛ صلة الأرحام، بر الوالدين إلى آخره، يدخل فيها أعمال القلوب من الخشية والإنابة والحياء والمحبة والرجاء والخوف والرهب والرغب إلى آخر هذه الأمثلة، فكل هذه من الإيمان، ودليل ذلك الحديث الصحيح الذي جاء في «الصحيحين».

❑ قوله: (وَأَرْكَانُهُ سِتَّةٌ)

● بعد أن ذكر ذلك قال رحمه الله تعالى: (وأركانه ستة)؛ أوضحت في شرح الأربعين النووية تفصيل شرح هذه الأركان، لكن أذكر ذلك باقتضاب، ليكمل الشرح لهذا الكتاب.

❑ قوله: (أَنْ تُؤمِن بالله)

● الإيمان بالله يشمل: الإيمان بوجود الله؛ بأن الله واحد في ربوبيته، وأنه واحد في إلهيته لاستحقاقه العبادة، أنه واحد في أسمائه وصفاته؛ يعني: ليس كمثله شيء في أسمائه، وليس كمثله شيء في صفاته كما قال تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ⑪ ﴾[الشورى:١١] ، فبيان قوله أن تؤمن بالله هو شرح التوحيد كله.

❑ قوله: (ومَلائِكَتِهِ)

● الملائكة: جمع ملك وهو: المرسل لأن أصلها (مألك) من: (ألك)؛ يعني: أرسل رسالة خاصة، ألك يألك ألوكة، والمرسل مألك أو ملأك، وأصلها مألك؛ لأنها من ألك، خففت الهمزة كما تخفف كثيرًا فصارت ملك، وجمعها: ملائكة؛ لهذا ظهر في الجمع الهمز؛ لأن أصله في المفرد موجود، الملك جمعه: ملائكة ظهر الهمز، ومفرد الملائكة: ملأك إلى آخره؛ يعني: المرسلون الموكلون بما وكلهم الله جل وعلا به.

هذا الركن من أركان الإيمان تحقيقه يكون: بأن يؤمن المسلم بأن لله جل وعلا ملائكة، خَلْقٌ من خلقه جل وعلا، جعلهم موكلين بتصريف هذا العالم، يأمرهم فينفذون ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴾[الأنبياء:٢٦]، ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[التحريم:٦]، فمن أيقن أن هذا الجنس من خلق الله موجود، وآمن بذلك، وأن منهم من ينزل بالوحي إلى الرسل، يبلغهم رسالات الله فقد حقق هذا الركن من أركان الإيمان، ثم بعد ذلك يكون الإيمان التفصيلي على نحو ما فصلت في شرح الأربعين، وهذا يختلف فيه الناس بحسب العلم، لكن المقصود هنا: أن تحقيق هذا الركن من أركان الإيمان يكون بتحقيق ما ذكرت.

وبعد ذلك: الإيمان بكل ما جاء بالكتاب والسنة من أوصاف الملائكة ومن أحوالهم؛ صفة خلقهم ومقامهم عند ربهم، وأنواع أعمالهم وأعمال ما وكلوا به، فكله من الإيمان التفصيلي، من علم شيئًا من النصوص في ذلك وجب عليه الإيمان، لكن تحقيق الركن يكون بالمعنى الأول.

❑ قوله: (وَكُتُبِهِ)

● الإيمان بالكتب أيضًا إيمان إجمالي، يتحقق الإيمان بهذا الركن بأن يؤمن العبد أن الله جل وعلا أنزل كتبًا مع رسله إلى خلقه، جعل في هذه الكتب الهدى والنور والبينات وما به يصلح العباد، وأن هذه الكتب التي أنزلت مع الرسل كلها حق؛ لأنها من عند الله جل وعلا، والله جل وعلا هو الحق المبين، وما كان من جهة الحق فهو حق، ويوقن بذلك يقينًا تامًا، ثم يوقن ويؤمن إيمانًا خاصًا بآخر هذه الكتب ألا وهو القرآن، فكما أنه يؤمن بالكتب السابقة؛ التوراة، والإنجيل، والزبور، وصحف إبراهيم، وصحف موسى ونحو ذلك، يؤمن بها إيمانًا عامًا بما أنزله الله جل وعلا على أنبيائه ورسله، فإنه يؤمن به إيمانًا خاصًا؛ بهذا القرآن، وأنه كلام الله منه بدأ وإليه يعود، وأنه حجة الله على الناس إلى قيام الساعة، وأنه به نسخت جميع الرسالات وجميع الكتب من قبل، وأنه حجة الله الباقية على الناس، وأن هذا الكتاب مهيمن على جميع الكتب وما فيه مهيمن على جميع ما سبق، كما قال جل وعلا في وصف كتابه: ﴿ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾[المائدة:٤٨]، وأن ما فيه من الأخبار يجب تصديقها، وما فيه من الأحكام يجب امتثالها، وأن من حكم

بغيره فقد حكم بهواه، ولم يحكم بما أنزل الله. هذا كله من الإيمان الخاص بالقرآن.

❑ قوله: (وَرُسُلِهِ)

●كذلك الإيمان بالرسل، إذا آمن المسلم بأن الله جل وعلا أرسل رسلًا؛ بعثهم بالتوحيد، يدعون أقوامهم إلىٰ التوحيد، وأنهم بلغوا ما أمروا به، وأيدهم الله بالمعجزات، بالبراهين والآيات الدالة علىٰ صدقهم، وأنهم كانوا أتقياء بررة، بلغوا الأمانة وأدوا الرسالة. بهذا يكون آمن بالرسل جميعًا، ثم يؤمن إيمانًا خاصًا بمحمدﷺ بأنه خاتم الرسل، وأنه جل وعلا بعثه بالحنيفية السمحة، بعثه بدين الإسلام الذي جعله خاتم الأديان وآخر الرسالات، القسم الثاني الإيمان التفصيلي بالرسل علىٰ نحو ما أوضحت لكم، فيه مقامات كثيرة في ذلك، يتبع العلم التفصيلي بأحوال الرسل وأسمائهم وأحوالهم مع أقوامهم وما دعوا إليه وكتبهم ونحو ذلك.

❑ قوله: (وَالْيَوْم الآخِرِ)

● هذا هو الركن الخامس؛ الإيمان باليوم الآخر؛ يعني: الإيمان بيوم القيامة، وتحقيق هذا الركن يكون بأن يوقن هذا العبد -يؤمن بغير شك- بأن ثَمَّ يوم يعود الناس إليه، يبعثون فيه وإليه، يحاسبون فيه، وأن كل إنسان مجزي بما فعل؛ لأن الأمر ليس منتهيًا بالموت، بل ثَمَّ يوم يجتمع فيه الناس فيقتص من الظالم للمظلوم ويحاسب الناس علىٰ أعمالهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝٧٠﴾[الزمر:٧٠]، إذا آمن بهذا القدر، وأن هناك يوم سيكون، وأنه سيبعث من جديد، فإنه قد حقق هذا الركن.

بعد ذلك الإيمان التفصيلي باليوم الآخر هذا يتبع العلم بما جاء في الكتاب والسنة من أحوال القبور، وأحوال ما يكون يوم القيامة؛ الإيمان بالحوض، بالميزان، الإيمان بالصحف، الإيمان بالصراط، الإيمان بأحوال الناس في العرصات، أحوال الناس بعد أن يجوزوا الصراط؛ يعني: المؤمنين الذين يدخلون الجنة، وما يكون بعد أن يجوزوا الصراط، ومن يدخل الجنة أولًا، وأحوال الناس في النار ونحو ذلك، أحوال الظلمة، أحوال الجسر، هذه كلها أمور تفصيلية لا يجب الإيمان بها علىٰ كل أحد، إلا من سمعها في النصوص فإنه يجب عليه الإيمان بما سمع، لكن لو قال قائل: أنا لا أعلم هل ثَمَّ حوض أم لا؟ لا أدري هل ثَمَّ ميزان أم لا؟ ونحو ذلك، يعرف بالنصوص فإن عرف فأنكر

وكذب فيكون مكذبًا بالقرآن وبالسنة، أما تحقيق هذا المقام الذي هو اليوم الآخر، يؤمن بأن ثَمَّ يوم يعود فيه الناس، فيجازئ المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته. فلو سألت أحدًا قلت له: هل ثَمَّ يوم آخر يعود فيه الناس؟ قال: بلا شك هناك يوم القيامة يبعث فيه ويحاسب الناس، فيه أهوال. وسكت، بهذا حقق الركن وهو الإيمان باليوم الآخر، إذا سألته هل تؤمن بالحوض؟ قال: ما الحوض؟ أنا ما أعرف هذا الحوض. هل تؤمن بالميزان؟ أنا ما أعرف. يعرف النصوص الدالة على ذلك؛ لأن هذا من العلم التفصيلي الذي إنما يجب العلم به بعد إخباره بما جاء في النصوص عليه.

❑ قوله: (وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ)

● تحقيق هذا الركن: أن يعلم ويعتقد؛ يؤمن بأن كل شيء يحدث في هذا الملكوت بخلق الله، قد سبق به قدره، وأن الله جل وعلا عالم بهذه الأحوال وتفصيلاتها، بخلقه قبل أن يخلقهم، وكتب ذلك، وإذا آمن أن كل شيء قد سبق به قدر الله فيكون حقق هذا الركن، والإيمان بالقدر؛ الإيمان الواجب يكون على مرتبتين:

- المرتبة الأولى: الإيمان بالقدر السابق لوقوع المقدر: وهذا يشمل درجتين:

الأولى: العلم السابق: فإن الله جل وعلا يعلم ما كان وما سيكون وما يكون وما هو كائن وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، علم الله السابق بكل شيء بالكليات وبالجزئيات، بجلائل الأمور وبتفصيلات الأمور، هذا العلم السابق كما قال جل وعلا في آخر سورة الحج: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحج:٧٠] وقال جل وعلا: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام:٥٩] فبين الله جل وعلا أن علمه بالأشياء سابق، وأنه يعلم كل شيء؛ الكليات والجزئيات، الأمور الجلية وتفاصيل الأمور، هذا العلم الأول، وهذا العلم لم يزل الله جل وعلا عالمًا به، علمه جل وعلا بهذه الأشياء، بجميع تفاصيل خلقه، علمه بها أول؛ يعني: ليس له بداية.

الدرجة الثانية الكتابة: أن يؤمن العبد أن الله جل وعلا كتب ما الخلق عاملون، كتب أحوال الخلق وتفصيلات ذلك قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وذلك عنده في كتاب جعله في اللوح المحفوظ، كما قال جل وعلا: ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ

ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ فأثبت أنه في كتاب، وقال جل وعلا: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾[القمر:٥٣]؛ يعني: قد سطر وكتب في اللوح المحفوظ، وقال جل وعلا: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾[الحج:٧٠]، بين أن كل شيء إنما هو في كتاب، وهذا قد جاء أيضًا في «صحيح الإمام مسلم» من حديث عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ قال: «قدر الله مقادير الخلائق يعني: بالكتابة قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة»(١٩١).

هاتان الدرجتان في المرتبة الأولىٰ؛ والتي تسبق وقوع المقدر.

- المرتبة الثانية أيضًا تحوي درجتين وهي تواكب أو تقارن وقوع المقدر:

أولىٰ الدرجتين: الإيمان بأن مشيئة الله جل وعلا نافذة: وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لا يكون، فليس ثم شيء يحدث ويحصل في ملكوت الله جل وعلا إلا وقد شاءه الله جل وعلا، وقد أراده الله جل وعلا كونًا، سواء في ذلك طاعات المطيعين أو عصيان العاصين، سواء في ذلك إيمان المؤمنين أو كفر الكافرين، فكل شيء يحصل في ملكوت الله إنما هو بإذنه ومشيئته وإرادته الكونية؛ لأن المشيئة ما تنقسم، التي تنقسم الإرادة، بإذنه ومشيئته وإرادته الكونية، ومشيئة الله إذا أطلقت يعنىٰ بها الإرادة الكونية، الإرادة تنقسم إلىٰ إرادة كونية وإرادة شرعية، فأما المشيئة فهي مشيئة الله جل وعلا في كونه، هذه الدرجة الأولىٰ هذه تواكب وقوع المقدر، فلا يمكن أن يعمل العبد شيئًا يكون مقدرًا من الله جل وعلا إلا وهذا الشيء قد شاءه الله جل وعلا.

الدرجة الثانية: أن يؤمن بأن الله جل وعلا خالق كل شيء:

كل شيء مخلوق الله جل وعلا خالقه؛ أعمال العباد، أحوال العباد، السماوات، الأرض، من في السماوات ومن في الأرض، ما في السماوات وما في الأرض، الجميع الذي خلقه هو الله جل وعلا، فإذا أراد العبد أن يعمل شيئًا فإنه لا يكون إلا إذا شاءه الله جل وعلا، وخلق الله جل وعلا ذلك الشيء، طاعات المطيعين خلقها الله جل وعلا، عصيان العاصين خلقه الله جل وعلا، إذا توجه العبد بإرادته إلىٰ أن يفعل شيء إذا شاءه الله كونًا وقع بعد خلقه له، إذا لم يشأه ولو أراده العبد لم يقع، كما قال جل وعلا: ﴿وَمَا

---

(١٩١) سبق تخريجه.

تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾ [الإنسان:٣٠]، مرتبة الخلق عامة.

إذن هذا الإيمان الواجب يصح أن نقول أنه إيمان تفصيلي، مرتبة قبل وقوع المقدر، العلم الأزلي؛ العلم الأول، والكتابة التي هي قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، ثم ما يواكب وقوع المقدر وهو أن العبد عنده إرادة وعنده قدرة؛ إذا اجتمعت الإرادة الجازمة والقدرة التامة حصل منك الفعل، توجهت إلى الفعل حصل منك، الفعل، لكن لا يحصل منك إلا بعد أن يشاء الله جل وعلا ذلك منك، وإلا بعد أن يخلق الله جل وعلا ذلك الفعل منك، الفعل فعل العبد حقيقة، لكن الخالق لهذا الفعل هو الله جل وعلا؛ لأن من العبد لا يكون إلا بإرادة جازمة وبقدرة تامة، والإرادة والقدرة قد خلقها الله جل وعلا، الله جل وعلا خلق ما به يكون الفعل ويخلق الفعل نفسه إذا توجه إليه العبد.

فحصل بهذا الإيمان التفصيلي الواجب بالقدر.

وبهذا البيان تتضح لك أركان الإيمان الستة؛ الإيمان بالله، وبملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره.

☐ قوله: (والدَّلِيلُ عَلَىٰ هذِهِ الأَرْكَانِ السِّتَّةِ...)

● يعني: الذي يمدح أصحابه ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة:١٧٧] النبيين؛ يعني: الرسل، وهنا ذكر الخمسة؛ آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين فهذه الآية دليل على خمسة من أركان الإيمان، وكثيرًا ما تأتي هذه الخمسة مقترنة كقوله جل وعلا في آخر سورة البقرة: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾، ذكر الأربعة ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة:٢٨٥]، وكقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ [النساء:١٣٦]، وكقوله جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾ [النساء:١٥٠، ١٥١]، ونحو ذلك من الآيات، وقد جاءت أيضًا في حديث جبريل المشهور.

❑ قوله: (وَدَلِيلُ الْقَدَرِ...)

● القدر أدلته في القرآن أدلة عامة بذكر القدر، وأدلة مفصلة لكل مرتبة من مراتب القدر، فمن الأدلة العامة ما ذكره الشيخ رحمه الله تعالى وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾[القمر:٤٩] وجه الاستدلال: مجيء ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾، يعني: ليس ثَمَّ مخلوق من مخلوقات الله إلا وقد خلق بقدر سابق من الله جل وعلا، لا يخرج شيء عن هذه الكلية ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾ و﴿كُلَّ﴾ من ألفاظ الظهور في العموم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾[الفرقان:٢]، وكل دليل فيه ذكر مرتبة من المراتب التي ذكرت يصلح دليلًا على القدر لأنه دليل لبعضه.

الدرس الخامس عشر:

[المرتبة الثالثة: الإحسان]

الْمَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ: الإِحْسَانُ، رُكْنٌ وَاحِدٌ وَهُوَ: «أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»(١٩٢). والدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ۝١٢٨﴾[النحل:١٢٨] وَقَوْلُهُ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢١٧ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٢١٩ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٢٢٠﴾[الشعراء:٢١٧-٢٢٠] وقوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾[يونس:٦١].

وَالدَّلِيلُ مِنَ السُّنَّةِ: حَدِيثُ جِبْرَائيل الْمَشْهُورُ عَنْ عُمَرَ ﷺ قَالَ: «بَيْنَما نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رسول الله ﷺ(١٩٣) ذَاتَ يَوْمٍ إذ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ(١٩٤) شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ لا يُرَىٰ عَلَيْه أَثَرُ السَّفَرِ(١٩٥) ولاَ يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّىٰ جَلَسَ إِلَىٰ النبي ﷺ فَأَسْنَدَ رُكبَتَيْهِ إِلَىٰ رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَىٰ فَخِذَيْه(١٩٦) وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرنِي عَنِ الإسْلاَمِ، فَقَالَ رسول الله ﷺ: الإسلامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لا إله إلاَّ الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله(١٩٧)، وتُقِيمُ الصَّلاةَ(١٩٨)، وتُؤتِيَ الزَّكَاةَ(١٩٩)، وتَصُومَ رَمَضَانَ(٢٠٠)، وَتَحُجَّ البَيْتَ إِنِ

---

(١٩٢) أخرجه مسلم (٨)، وأبو داود (٤٦٩٥)، وغيرهما من حديث عمر ﷺ.

(١٩٣) أي: في أثناء أوقات شريفة وأزمنة لطيفة، نحن حاضرون لديه واقفون بين يديه، و«بينما» أصلها: «بين»، زيدت ما للإشباع[الدمشقي].

(١٩٤) أي: ظهر لنا شخص بصورة رجل من جنسنا بغتة حين كنا جالسين عند رسول الله ﷺ[الدمشقي].

(١٩٥) أي: لا يرىٰ الرائي إذا نظر إليه أثر السفر عليه من نحو: غبرة وشعث وغير ذلك مما يغير حال الشخص[الدمشقي].

(١٩٦) وهذه هيئة الأدب وكمال التواضع، نسأل الله إلهام طلاب العلم آدابه[الدمشقي].

(١٩٧) أي: تقر وتعترف بأن لا إله بحق يعبد في الوجود إلا الله، وأن محمدًا رسول الله يبلغ أحكامه، ويبين للأمة ما ينفعها في معاشها ومعادها، معصوم من الزلل في القول والعمل[الدمشقي].

(١٩٨) أي: تأتي بها في أوقاتها المحدودة مع المحافظة علىٰ شرائطها ورعاية أركانها ومندوباتها، كما كان يأتي بها رسول الله ﷺ، جماعات وفرادىٰ، وتداوم عليها إلىٰ أن ينقضي أجلك وتلقىٰ ربك[الدمشقي].

(١٩٩) أي: تخرج الزكاة وتضعها في مصارفها وتعطيه مستحقيها بشروطها المبينة في كتب السنة الثابتة عن صاحب الشريعة بدون نقص ولا زيادة[الدمشقي].

(٢٠٠) أي: تمسك في شهر رمضان عن الأكل والشرب والجماع من طلوع الفجر إلىٰ غروب الشمس، وكذلك عن الغيبة والكذب والنميمة وكل منهي عنه شرعًا مع الاجتهاد في العبادة، والإكثار من إحياء

استَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلاً(٢٠١). قَالَ: صَدَقْتَ، فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ(٢٠٢). قَالَ: فَأَخْبِرني عَنِ الإِيمَانِ، قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بالله(٢٠٣) وَمَلائِكَتِهِ(٢٠٤) وَكُتُبِهِ(٢٠٥) وَرُسُلِهِ(٢٠٦) واليَومِ الآخِرِ(٢٠٧) وَتُؤمِنَ بِالقَدَرِ(٢٠٨) خَيْرِهِ وشَرِّهِ(٢٠٩) قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَأَخْبِرنِي عَنِ الإِحْسَانِ، قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فإِنَّهُ يَرَاكَ. قَالَ: فَأَخْبِرنِي عَنِ السَّاعَةِ(٢١٠) قَالَ: مَا المَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ(٢١١) قَالَ: فَأَخْبِرنِي عَنْ أَمَارَاتِها(٢١٢) قَالَ: أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ

الليالي التي أمر الشرع بإحيائها والحث عليها [الدمشقي]

(٢٠١) أي: تقصد بيت الله الحرام في وقت مخصوص، وعلى هيئة مخصوصة وشرائط معلومة جاءت عن صاحب الرسالةﷺ [الدمشقي]

(٢٠٢) وجه عجب الصحابة من السائل أن كون الرجل سائلًا يقتضي عدم علمه بالمسئول عنه، وتصديقه يوجب خلاف حاله، ثم زال هذا التعجب الناشئ عن الجهل بسبب الشيء يعلمهم أن السائل جبريل جاءهم في صورة متعلم وطالب ليعلمهم أمر يدنهم؛ لأنهم كانوا على خلق عظيم ومهابة وحياء وكمال أدب، فلا يجسر أحد منهم رضي الله عنهم على سؤال الرسول فيما لم يخبرهم الرسولﷺ به من نفسه، ومن يطلع على (كتب السير) يرى ما يخجل من حال طلاب العلم الآن مع علمائهم ومعلميهم، ويوجب الأسف والحزن، مع أن هؤلاء هم مثال الأدب والكمال لكافة الناس [الدمشقي]

(٢٠٣) أي: تصدق بالله -تعالى- وأنه متصف بكل كمال منزه عن كل نقص، وقد وصف الله جل ذكره نفسه في كتابه المنزل على نبيه المرسل، وقد جاءت السنن بصفات الباري -تعالى- فنؤمن بما جاء وصح عن الرسولﷺ بدون تأويل ولا تصحيف، ولا صرف عن ظاهرها ولا تحريف، وقد بينا عقيدة السلف في ذلك في كتابنا «نموذج من الأعمال الخيرية في إدارة الطباعة المنيرية» بأدلة نقلية صحيحة لا شك فيها ولا ريب فانظره [الدمشقي]

(٢٠٤) جمع ملك وهي أجسام نورانية لطيفة مبرأة من الكدورات النفسانية والشهوات الحيوانية مقتدرة على تشكلات مختلفة لا يعصون الله ما أمرهم و يفعلون ما يؤمرون [الدمشقي]

(٢٠٥) جمع كتاب؛ أي: ما أنزل الله على أنبيائه بطريق الوحي، والكتب المنزلة هي مائة كتاب وأربعة كتب، وتفصيل ذلك تجده في الكتب المطولة [الدمشقي]

(٢٠٦) جمع رسول وهو إنسان أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه والأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه معصومون عن الكبائر والصغائر عمدًا [الدمشقي]

(٢٠٧) أي: يوم القيامة [الدمشقي]

(٢٠٨) بفتح القاف والدال وسكونها لغتان هو ما قضاه الله تبارك وتعالى وحكم به من الأمور أزلًا [الدمشقي]

(٢٠٩) أي: حلوه ومره [الدمشقي]

(٢١٠) أي: عن قيام الساعة، كما صرح به في رواية مسلم أي: وقت وقوع القيامة [الدمشقي]

(٢١١) أي: أنا وأنت في عدم العلم بزمنها ووقوعها سواء؛ لأنها من مفاتيح الغيب التي لا يعلمها إلا هو. [الدمشقي]

(٢١٢) بفتح الهمزة، أي: علامتها الدالة على مجيئها ووقوعها [الدمشقي].

رَبَّتَهَا(٢١٣)، وَأَنْ تَرَى الحُفَاةَ العُرَاةَ العَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ(٢١٤) يَتَطَاوَلُونَ فِي البُنْيَانِ. قَالَ: فَمَضَى فَلَبِثْنَا مَلِيًّا(٢١٥) فَقَالَ: يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟ قُلْتُ: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: هَذَا جِبْرِيلُ أَتَاكُم يُعَلِّمُكُم أَمْرَ دِينِكُم»(٢١٦).

الشرح

قال العلامة ابن باز:

❑قوله: (الإِحْسَانُ رَكْنٌ وَاحِدٌ)

● **أما الإحسان:** فهو إكمال العبادة ظاهرًا وباطنًا، وهو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك. فمن عبد الله على هذا الاستحضار؛ فقد أدرك مرتبة الإحسان، واجتمع له الخير كله. كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾[النحل:١٢٨]، وقالﷻ: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦﴾[الأعراف:٥٦]. والآيات في هذا المعنى كثيرة.

قال العلامة ابن قاسم:

❑ قوله: (الْمَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ: الإِحْسَانُ)

● قدم مرتبتي الإسلام والإيمان، وثلث بالمرتبة الثالثة من مراتب الدين، وهي الإحسان، والإحسان: نهاية الإخلاص، والإخلاص: هو إيقاع العمل على أكمل وجوهه في الظاهر و الباطن، بحيث يكون قائمًا به في الباطن والظاهر على أكمل الوجوه، وهذا هو الإحسان، ولذا يفسر بالإخلاص، واشتقاقه من الحسن نهاية الإخلاص الناشئ عن

---

(٢١٣) يعني: أن الخادم التي يتسرى بها تلد سيدتها أو سيدها، وهذا والله أعلم كناية عن إسداء الأمر إلى غير أهله، وأن حثالات الناس وأسافلها يصحبون وبيدهم مقاليد الحل والربط، والله أعلم[الدمشقي].

(٢١٤) أي: وحتى ترى الحفاة العراة الفقراء رعاء الغنم يتغالون في رفع البناء ويتفاخرون في حسنه، والمعنى: أن أهل البادية وأشباههم من أهل الفاقة تبسط عليهم الدنيا فيتوطنون البلاد، ويبنون القصور الشاهقة المرتفعة، ويباهون العباد في ذلك، وهو إشارة -أيضًا- إلى تغلب الأسافل الأراذل على الكرام وأرباب الكمال، فإنا لله وإنا إليه راجعون[الدمشقي].

(٢١٥) أي: وقتًا طويلًا[الدمشقي].

(٢١٦) سبق تخريجه.

حقيقة الاستحضار، ومن حيث الظاهر كمال المتابعة، وتفسيره بالإخلاص تفسير له بنتيجته وثمرته، فإن من اتصف بذلك فإنه يكمل العلم في الظاهر و الباطن فالإحسان أعلى المراتب وأعمها من جهة نفسها وأخصها من جهة أصحابها، كما أن الإيمان أعم من جهة نفسه وأخص من جهة أصحابه؛ ولهذا يقال: كل محسن مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمنًا محسنًا، وكلما أطلق الإحسان فإنه يدخل فيه الإيمان والإسلام فإن الإسلام و الإيمان و الإحسان دوائر، أوسعها دائرة الإسلام ثم يليها في السعة الإيمان، ثم أضيقها الإحسان، كدوائر كل واحدة منها محيطة بالأخرى، ومعلوم أن من كان في دائرة الإحسان فهو داخل في الإسلام و الإيمان، وإذا خرج عن الأولى فهو داخل في الثانية، وهي دائرة الإيمان، وإذا خرج عنها فهو داخل في الثالثة وهي دائرة الإسلام، ومن خرج عن هذه الدوائر الثلاث فهو خارج إلى غضب الله و عقابه، وداخل في دوائر الشيطان -والعياذ بالله- فظهر بالتمثيل بهذه الدوائر صحة قول من قال: كل محسن مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمنًا محسنًا، فلا يلزم من دخوله في الإسلام أن يكون داخلًا في الإحسان والإيمان، و ليس المراد: أن من لم يكن في الإحسان و الإيمان أن يكون كافرًا، بل يكون مسلمًا ومعه من الإيمان ما يصحح إسلامه؛ لكن لا يكون مؤمنًا الإيمان الكامل الذي يستحق أن يثنى عليه به، فإنه لو كان مؤمنًا الإيمان الكامل لمنعه من المعاصي و المحرمات، و قيل للنبي ﷺ: أعطيتهم وتركت فلانًا وهو مؤمن، فقال: «أو مسلم»[٢١٧]، وقال: «**لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ...**»[٢١٨] الحديث، وقال: «**والله لا يؤمن من لم يأمن جاره بوائقه**»[٢١٩].

فالنصوص ما نفت عنهم الإسلام، بل أثبتت لهم أحكام الإسلام من عصمة الدم، و إذا ماتوا غسلوا وكفنوا وصلي عليهم، فأهل الإحسان هم خواص أهل الإيمان، كما أن أهل الإيمان هم خواص أهل الإسلام، فإن أهل الإحسان كملوا عبادة الله حتى وصلوا إلى

---

(٢١٧) أخرجه البخاري (٢٧)، ومسلم (١٥٠)، وغيرهما من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ.

(٢١٨) أخرجه البخاري (٥٥٧٨)، ومسلم (٥٧)، وغيرهما من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢١٩) أخرجه البخاري (٦٠١٦)، ومسلم (٤٦)، وغيرهما من حديث أبي شريح وأبي هريرة ﷺ.

حد المراقبة.

❑ قوله: (رَكْنٌ وَاحِدٌ)

● أي: شيء واحد، ولم يذكر له أركانًا كما ذكر للإسلام و الإيمان.

❑ قوله: (أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ)

● أي: والإحسان: هو أن تعبد الله العبادة البدنية كالصلاة، أو المالية كالذبح، كأنك تشاهد معبودك الذي قمت بين يديه وقربت له القربان وأطعته فيما أمرك به، فإنه إذ انكشفت الحقيقة للقلب و بلغ العبد في مقام المعرفة إلى حد كأنه يطالع ما اتصف به الرب سبحانه من صفات الكمال ونعوت الجلال وأحست الروح بالقرب الخاص الذي ليس كقرب المحسوس من المحسوس حتى يشاهد رفع الحجاب بين روحه وقلبه وبين ربه أفضى القلب والروح حينئذٍ إلى الرب فصار يعبده كأنه يراه.

❑ قوله: (فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ)

● أي: وإن لم تعبده على استحضار الدرجة الأولى -درجة المراقبة- فاعلم أنه يراك سميع عليم بصير، مطلع على جميع خفياتك، فهاتان درجتان: إحداهما أكمل من الأخرى، فإن لم تحصل على عبادة الله كأنك تشاهده فاعبده على مرأى من الله، وأنه سمع عليم بجميع ما تفعله.

❑ قوله: (والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾)

● أي: أن الله ﷻ مع عباده الذين اتقوا المنهيات، والذين هم محسنون في العمل، يحفظهم ويكلؤهم ويؤيدهم، وهذه معية خاصة، ومقتضاها مقتضى العامة، وتقتضي المعية الخاصة معنى زائدًا بحسب مواطنها.

❑ قوله: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ٢١٧﴾

● في جميع أمورك فإنه مؤيدك وحافظك.

❑ قوله: ﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ٢١٨﴾

● ومعتن بك في جميع حركاتك وسكناتك.

❑ قوله: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ٢١٩﴾

● أي: يراك في صلاتك في حال قيامك وركوعك وسجودك وقعودك.

❑ قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٢٢٠﴾

●أي: السميع لأقوال عباده، العليم بحركاتهم وسكناتهم، وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤﴾[العلق:١٤]، وغيرها من الآيات الدالة على رؤية الله ﷻ واطلاعه على أفعال خلقه.

❑ قوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٍ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٍ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾

● أي: ﴿وَمَا تَكُونُ﴾، يا محمد في عمل من الأعمال، ﴿وَمَا تَتۡلُواْ﴾من الله من قرآن نازل، أو من شان من قرآن نزل فيه، ﴿وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ﴾ أنت و أمتك ﴿إِلَّا كُنَّا﴾؛ أي: إلا ونحن عليكم شهودًا مشاهدون لكم راءون سامعون، ﴿إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾؛ أي: تأخذون في ذلك الشيء.

❑ قوله: (وَالدَّلِيلُ مِنَ السُّنَّةِ)

● أي: والدليل على مراتب الدين الثلاث: الإسلام والإيمان والإحسان من الأحاديث الواردة عن النبي ﷺ في ذلك.

❑ قوله: (حَدِيثُ جِبْرَائِيل الْمَشْهُورُ عَنْ عُمَرَ ﷺ)

●من طرق عن النبي ﷺ، و إنما ذكر المصنف رحمه الله ما أخرجه مسلم من حديث عمر ﷺ، لما فيه من زوائد الفوائد، وهو في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة، ولأحمد وغيره نحوه من حديث ابن عباس و غيره، وهو حديث جليل عظيم الشأن، يشتمل على بيان الدين كله.

❑ قوله: (قَالَ: «بَيْنَما نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رسول الله ﷺ»)

● وفي «الصحيحين»من حديث أبي هريرة كان النبي ﷺ بارزًا يومًا للناس.

❑ قوله: (إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ)

● ولأبي فروة: فإنا لجلوس عنده، إذ أقبل رجل أحسن الناس وجهًا، و أطيب الناس ريحًا، كأن ثيابه لم يمسها دنس.

❑ قوله: (شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ)

● ولابن حبان: شديد سواد اللحية.

❑ قوله: (لا يُرَىٰ عَلَيه أَثَرُ السَّفَرِ ولاَ يَعرِفُهُ مِنَّا أحَدٌ)

● ولسليمان التيمي: ليس عليه سحناء السفر، و ليس من البلد. ا.هـ.

فتعجب الصحابة من هذا الرجل حيث كان شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، والمسافر من شأنه أن لا يكون كذلك، ومع ذلك لا يرىٰ عليه أثر السفر، ولم يعرفه الحاضرون، وفي رواية عثمان: فنظر القوم بعضهم إلىٰ بعض فقالوا: ما نعرف هذا، وفي رواية لمسلم: أن رسول الله ﷺ قال:«سلوني»[٢٢٠] فهابوا أن يسألوه، قال: فجاء رجل.

❑ قوله: (حَتَّىٰ جَلَسَ إِلَىٰ النبي ﷺ فَأَسْنَدَ رُكبَتَيهِ إِلَىٰ رُكْبَتَيهِ، وَوَضَعَ كَفَّيهِ عَلَىٰ فَخِذَيه)

● وفي حديث ابن عباس و غيره: ثم وضع يده علىٰ ركبتي النبي ﷺ، ولسليمان التيمي: فتخطىٰ حتىٰ برك بين يدي النبي ﷺ كما يجلس أحدنا في الصلاة، ثم وضع يديه علىٰ ركبة النبي ﷺ. وصنيعه ﷺ منبه للإصغاء إليه، وفيه إشارة لما ينبغي للمسئول من التواضع والصفح عما يبدوا من جفاء السائل؛ كوضعه يده علىٰ ركبته، ولعل مبالغة جبرائيل تعمية لأمره.

❑ قوله: (وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخبِرنِي عَنِ الإِسلاَمِ)

● ولفظ الترمذي وغيره: أنه بدء بالسؤال عن الإيمان قبل الإسلام، كما في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة، وفي بعض روايات حديث عمر: أنه سأله عن الإحسان بين الإسلام و الإيمان، قال الحافظ: ولا شك أن القصة واحدة اختلف الرواة في تأديتها، و ليس في السياق ترتيب، وفي رواية أبي فروة أنه قال: السلام عليك يا رسول الله قبل السؤال، وقوله: يا محمد، أخبرني عن الإسلام، لعله مبالغة في التعمية.

❑ قوله: (أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لا إله إلاَّ الله ...)

● ولفظ «الصحيحين» قال: «أن تعبد الله لا تشرك به شيئا»[٢٢١].

والمراد بالعبادة: النطق بالشهادتين، وإنما احتاج أن يوضحها بقوله: لا تشرك به شيئًا، ولم يحتج إليها في رواية عمر لاستلزامها ذلك، وفيه: «تقيم الصلاة المكتوبة،

---

(٢٢٠) أخرجه مسلم (١٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢٢١) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩)، وغيرهما من حديث أبي هريرة ﷺ.

وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلًا»[٢٢٢]، وهذه الأركان الخمسة هي الإسلام، وفي بعض الروايات: فإذا فعلت ذلك فأنا مسلم؟ قال: نعم. فدل على أن من أكمل الإتيان بمباني الإسلام الخمس؛ صار مسلمًا حقًا، وهذا هو دليل المرتبة الأولى، وفسره بأعمال الجوارح الظاهرة، والإسلام: هو الدين، قال تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[المائدة:٣]، وهو الصراط المستقيم الذي أمر الله بالاستقامة عليه.

❑ قوله: (قَالَ: صَدَقْتَ، فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ)

● عجب الصحابة ﷺ منه، فإن من شأن السائل أن يجهل ما يسأل عنه.

❑ قوله: (قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ)

● وقد ذكر الله الإيمان بهذه الأصول في مواضع من كتابه، والنبي ﷺ جعل هذه الستة أركان ومبانيه، وإعادة «تؤمن» عند ذكر القدر، للاهتمام بشأنه، وبهذا الحديث احتج عبد الله بن عمر، وقال في القدرية: والذي يحلف به ابن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبًا فأنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر، وفي رواية: «وتؤمن بالجنة والنار»[٢٢٣]، فإذا فعلت ذلك فأنا مؤمن؟ قال: نعم، وهذا دليل المرتبة الثانية، وفسره بالأعمال الباطنة، ودل الحديث على أن الإسلام والإيمان إذا اقترنا فسر الإسلام بالأعمال الظاهرة، والإيمان بالأعمال الباطنة.

❑ قوله: (قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ، قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ)

● هذا القدر من الحديث أصل من أصول الدين، وقاعدة مهمة من قواعد العلم، وهو من جوامع الكلم التي أوتيها ﷺ، فإن إحسان العبادة: هو الإخلاص فيها، والخشوع، وفراغ البال حال التلبس بها، ومراقبة المعبود، وأشار في الجواب إلى حالتين: أرفعهما: أن يغلب عليه مشاهدة الحق بقلبه حتى كأنه يراه، والثانية: أن يستحضر الحق تعالى مطلعًا عليه، يرى كل ما يعمل، وهاتان الحالتان تثمرهما معرفة الله وخشيته، وفي رواية: «أن

---

(٢٢٢) أخرجه مسلم (٨)، من حديث عمر رضي الله عنه.

(٢٢٣) أخرجه أحمد (٣١٩/١)، وابن حبان (١٧٣/إحسان) من حديث عمر رضي الله عنه.

تخشى الله كأنك تراه» فجعل النبي ﷺ هذا هو الإحسان، وهو دليل المرتبة الثالثة، ففي هذا الحديث دليل هذه المراتب الثالث، وأن أركانها هي ما عدها المصنف رحمه الله، وفي رواية: فعجبنا له يسأله و يصدقه، كما ذكر ذلك بعد الإسلام و الإيمان، وفي رواية أبي فروة: «فلما سمعنا قول الرجل: صدقت، أنكرناه»[٢٢٤] وفي رواية مطر: انظر إليه كيف يسأله؟ انظروا إليه كيف يصدقه كأنه أعلم منه، وفي حديث أنس: انظروا هو يسأله وهو يصدقه كأنه أعلم منه، وفي رواية سليمان بن بريدة: قال القوم ما رأينا رجلًا مثل هذا، كأنه يعلم رسول الله ﷺ، يقول له: صدقت صدقت، قال القرطبي: إنما عجبوا من ذلك؛ لأن ما جاء به النبي ﷺ لا يعرف إلا من جهته، وليس هذا السائل ممن عرف بلقاء النبي ﷺ ولا بالسماع منه، ثم هو يسأل سؤال عارف بما يسأل عنه؛ لأنه يخبره بأنه صادق فتعجبوا من ذلك تعجب المستبعد لذلك.

❑ قوله: (قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ)

● ولفظ «الصحيحين»: «متى الساعة؟»[٢٢٥] أي: متى تقوم الساعة؟ والمراد: يوم القيامة.

❑ قوله: (قَالَ: مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ)

● وفي رواية أبي فروة: فنكس فلم يجبه، ثم أعاد فلم يجبه ثلاثًا، ثم رفع رأسه فقال: «ما المسئول أعلم من السائل»؛ أي: أنا وأنت سواء في العلم بها، فإنها مما استأثر الله بعلمه، كما في الآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾[لقمان:٣٤]، وفي الحديث: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله»[٢٢٦] قال: «ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله»[٢٢٧]، وفي حديث ابن عباس هنا فقال: «سبحان الله، خمس من الغيب لا يعلمهن إلا الله»[٢٢٨] ثم تلا الآية، وفيه التعميم تعريضًا للسامعين أن كل مسئول وسائل عنها فهو كذلك، وكف السامعين عن السؤال عن وقتها فإنهم قد أكثروا عليه ﷺ في ذلك.

---

(٢٢٤) أخرجه النسائي (٤٩٩١)، وفي «الكبرى» (٥٢٨/٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢٢٥) سبق تخريجه.

(٢٢٦) أخرجه البخاري (٤٦٩٧)، وغيره من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢٢٧) سبق فيما قبله.

(٢٢٨) أخرجه أحمد (٣١٩/١)، وغيره من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وصححه العلامة الألباني في «الصحيحة» (١٣٤٥).

❑ قوله: (قَالَ: فَأَخْبِرنِي عَنْ أَمَارَاتِها)

● وفي حديث أبي هريرة: «وسأخبرك عن أشراطها» (٢٢٩)، وفي رواية أبي فروة: «ولكن لها علامات تعرف بها» (٢٣٠)، وفي رواية سليمان التيمي: «ولكن إن شئت نبأتك عن أشراطها» (٢٣١) قال: «أجل»، فالأشراط و العلامات: الأمارات، جمع أمارة، بالفتح: الدلالة والبرهان على اقتراب قيامها، والمراد: العلامات السابقة، وأما ما يقارنها فكطلوع الشمس من مغربها.

❑ قوله: (قَالَ: أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا)

● أي: سيدتها، والمعنى: أن السراري تكثر في العرب حتى يوجد أن الأمة تلد سيدتها، وفسر بغير ذلك، وحاصله: الإشارة إلى أن الساعة يقرب قيامها عند انعكاس الأمور بحيث يصير المربي مربيًا، و السافل عاليًا.

❑ قوله: (وَأَنْ تَرَىٰ الحُفَاةَ العُرَاةَ ...)

● أي: ومن أماراتها «أن ترى الحفاة»: جمع حاف، وهو الذي لا نعال عليه، «العراة»: جمع عارٍ، وهو الذي لا ثياب عليه. «العالة»: جمع عائل، والعائل: هو الفقير. «رعاء الشاء»: يعني الغنم، «يتطاولون في البينيان»، والعرب كانوا قبل بعثة النبي ﷺ حفاة عراة، كما في هذا الحديث وكانوا في أشد حالة وأدناها، فمن الله عليهم بالإسلام وقواهم حتى استنفقوا خزائن كسرى وقيصر، ثم وصلوا إلى أن وقعوا فيما أخبر به النبي ﷺ أنه من علامات قيام الساعة، ولفظ «الصحيحين» من حديث أبي هريرة: «وإذا رأيت الحفاة الرعاة رءوس الناس»؛ أي: ملوكهم «فذلك من أشراطها، وإذا تطاول الرعاء إليهم في البنيان فذلك من أشراطها». فعدَّها ثلاثًا، والمراد: أن أسافل الناس يصيرون روءساءهم وتكثر أموالهم حتى يتباهوا بطول البنيان وزخرفته، وفي الحديث: «إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة» (٢٣٢)؛ لأنه يفسد نظام الدين و الدنيا، وهذا كله من انقلاب الحقائق

---

(٢٢٩) أخرجه البخاري (٥٠)، وابن ماجه (٤٠٤٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢٣٠) أخرجه النسائي (٤٩٩١)، وفي «الكبرى» (١١٧٢٢)، وإسحاق بن راهويه (١٦٥) عن أبي فروة عن أبي زرعة عن أبي هريرة وأبي ذر رضي الله عنهما.

(٢٣١) أخرجه صحيح ابن حبان (١٧٣)، وصحيح ابن خزيمة (١)، والبيهقي (٨٥٣٧).

(٢٣٢) أخرجه البخاري (٥٩)، وأحمد (٢/٣٦١)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

في آخر الزمان وانعكاس الأمور.

❑ قوله: (قَالَ: فَمَضَىٰ فَلَبِثْنَا مَلِيًّا)

● أي: زمانًا بعد انصرافه، فكان النبيﷺ أعلمهم بعد مضي الوقت، لكنه في ذلك المجلس إلا أن في رواية الترمذي وغيره: فلبث ثلاثًا، ولفظ «الصحيحين»: ثم أدبر، فقال: «ردوه»(٢٣٣) فأخذوا ليردوه فلم يروا شيئًا، وفي رواية سليمان التيمي: فولىٰ، فقال رسول اللهﷺ: «علي بالرجل»(٢٣٤)، فطلبناه كل مطلب فلم نقدر عليه، فقال: «هل تدرون...» إلخ، وفي روايات أخر تدل علىٰ أن النبيﷺ أخبر الصحابة بشأنه في المجلس بعد أن التمسوه، وأما خبر عمر؛ فلعله خطاب له وحده، أو من تصرف بعض الرواة.

❑ قوله: (فَقَالَ: يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟ قُلْتُ: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ)

● هذا فيه أن من سأل عما لا يعلم أن يكل العلم إلىٰ عالمه، ولا يتكلف ما ليس له به علم، كما قالﷺ فيما حكىٰ الله عنه: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾[ص:٨٦]،فإن من أعظم التكلف أن تسأل الإنسان عن شيء فيتكلف العلم به؛ ولهذا قيل في (الله أعلم): نصف العلم؛ يعني: أن العلم ينقسم إلىٰ قسمين: فوظيفة ما تعلم أن تجيب عنه بما تعلمه، وما لا تعلمه تقول فيه: الله أعلم.

❑ قوله: (قَالَ: هَذَا جِبْرِيلُ أَتَاكُم يُعَلِّمُكُم أَمْرَ دِينِكُم)

● وفي رواية: «يعلمكم دينكم»، فأخبر النبيﷺ، أن ما ذكر في هذا الحديث هو أمر الدين، بل هو الدين، فإنه قد اشتمل علىٰ أصول الدين والعقائد بل انحصر في العلوم الشرعية التي يتكلم عليها فرق المسلمين في هذا الحديث، ورجعت كلها إليه، وعقيدة أهل السنة و الجماعة عليه، وشرفه وجلالته أمر مجمع عليه.

قال العلامة العثيمين:

❑ قوله: (الإِحْسَانُ...)

●الإحسان: ضد الإساءة وهو أن يبذل الإنسان المعروف ويكف الأذىٰ فيبذل المعروف لعباد الله في ماله، وجاهه، وعلمه، وبدنه.

فأما المال فأن ينفق ويتصدق ويزكي وأفضل أنواع الإحسان بالمال: الزكاة؛ لأن

---

(٢٣٣) أخرجه مسلم (١٠).

(٢٣٤)أخرجه صحيح ابن حبان (١٧٣)، والدارقطني (٢٠٧)، ابن أبي شيبة (٣٠٤٢٩).

الزكاة أحد أركان الإسلام، ومبانيه العظام، ولا يتم إسلام المرء إلا بها، وهي أحب النفقات إلى اللهﷻ ويلي ذلك، ما يجب على الإنسان من نفقة لزوجته، وأمه، وأبيه، وذريته، وإخوانه، وبني إخوته، وأخواته، وأعمامه، وعماته، وخالاته إلى آخر هذا، ثم الصدقة على المساكين وغيرهم، ممن هم أهل للصدقة؛ كطلاب العلم مثلًا.

وأما بذل المعروف في الجاه فهو أن الناس مراتب، منهم من له جاه عند ذوي السلطان فيبذل الإنسان جاهه، يأتيه رجل فيطلب منه الشفاعة إلى ذي سلطان يشفع له عنده، إما بدفع ضرر عنه، أو بجلب خير له.

وأما بعلمه فأن يبذل علمه لعباد الله، تعليمًا في الحلقات والمجالس العامة والخاصة، حتى لو كنت في مجلس قهوة، فإن من الخير والإحسان أن تعلِّم الناس، ولو كنت في مجلس عام فمن الخير أن تعلِّم الناس؛ ولكن استعمل الحكمة في هذا الباب، فلا تثقل على الناس حيث كلما جلست في مجلس جعلت تعظهم وتتحدث إليهم؛ لأن النبيﷺ كان يتخولهم بالموعظة، ولا يكثر؛ لأن النفوس تسأم وتمل فإذا ملت كلت وضعفت، وربما تكره الخير لكثرة من يقوم ويتكلم.

وأما الإحسان إلى الناس بالبدن فقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: **«وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها، أو ترفع له عليها متاعه صدقة»**[(٢٣٥)]. فهذا رجل تعينه تحمل متاعه معه، أو تدله على طريق أو ما أشبه ذلك فكل ذلك من الإحسان، هذا بالنسبة للإحسان إلى عباد الله.

وأما بالنسبة للإحسان في عبادة الله: فأن تعبد الله كأنك تراه، كما قال النبيﷺ؛ وهذه العبادة؛ أي: عبادة الإنسان ربه كأنه يراه عبادة طلب وشوق، وعبادة الطلب والشوق يجد الإنسان من نفسه حاثًا عليها؛ لأنه يطلب هذا الذي يحبه، فهو يعبده كأنه يراه، فيقصده وينيب إليه ويتقرب إليه سبحانه وتعالى، «فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، وهذه عبادة الهرب والخوف، ولهذا كانت هذه المرتبة ثانية في الإحسان، إذا لم تكن تعبد اللهﷻ كأنك تراه وتطلبه، وتحث النفس للوصول إليه فاعبده كأنه هو الذي يراك، فتعبده عبادة خائف منه، هارب من عذابه وعقابه، وهذه الدرجة عند أرباب السلوك أدنى من الدرجة الأولى.

---

(٢٣٥) أخرجه البخاري (٢٨٩١)، ومسلم (١٠٠٩)، وغيرهما من حديث أبي هريرةﷺ.

وعبادة الله -سبحانه وتعالىٰ- هي كما قال ابن القيم رحمه الله:

وعبــادة الــرحمن غايــة حبــه ... مــع ذل عابــده همــا ركنــان

فالعبادة مبنية علىٰ هذين الأمرين: غاية الحب، وغاية الذل، ففي الحب الطلب، وفي الذل الخوف والهرب، فهذا هو الإحسان في عبادة الله ﷻ. وإذا كان الإنسان يعبد الله علىٰ هذا الوجه، فإنه سوف يكون مخلصًا لله ﷻ لا يريد بعبادته رياء ولا سمعة، ولا مدحًا عند الناس، وسواء اطلع الناس عليه أم لم يطلعوا، الكل عنده سواء، وهو محسن العبادة علىٰ كل حال، بل إن من تمام الإخلاص أن يحرص الإنسان علىٰ ألا يراه الناس في عبادته، وأن تكون عبادته مع ربه سرًّا، إلا إذا كان في إعلان ذلك مصلحة للمسلمين أو للإسلام، مثل أن يكون رجلًا متبوعًا يقتدىٰ به، وأحب أن يبين عبادته للناس ليأخذوا من ذلك نبراسًا يسيرون عليه، أو كان هو يحب أن يظهر العبادة ليقتدي بها زملاؤه وقرناؤه وأصحابه ففي هذا خير، وهذه المصلحة التي يلتفت إليها قد تكون أفضل وأعلىٰ من مصلحة الإخفاء، لهذا يثني الله ﷻ علىٰ الذين ينفقون أموالهم سرًّا وعلانية، فإذا كان السر أصلح وأنفع للقلب وأخشع وأشد إنابة إلىٰ الله أسرّوا، وإذا كان في الإعلان مصلحة للإسلام: بظهور شرائعه، وللمسلمين يقتدون بهذا الفاعل وهذا العامل، أعلنوه.

والمؤمن ينظر ما هو الأصلح، كل ما كان أصلح، وأنفع في العبادة فهو أكمل وأفضل.

❑ قوله: (وَالدَّلِيلُ مِنَ السُّنَّةِ: حَدِيثُ جِبْرَائِيل)

●رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الإيمان والإسلام، وغالب هذا الحديث تقدم شرحه، ولنا شرح عليه في مجموع الفتاوىٰ والرسائل (١٤٣/٣).

قال العلامة الفوزان:

❑قوله: (الْمَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ: الإِحْسَانُ: رَكْنٌ وَاحِدٌ)

●**الإحسان في اللغة:** إتقان الشيء وإتمامه، مأخوذ من الحسن، وهو الجمال ضد القبح، وهو ينقسم إلىٰ أقسام

أولًا: إحسان بين العبد وبين ربه، وهذا هو المقصود.

ثانيًا: إحسان بين العبد وبين الناس.

ثالثًا: إحسان الصنعة وإتقانها، إذا صنع الإنسان شيئًا أو عمل عملًا فإنه يجب عليه

أن يتقنه ويتمه.

النوع الأول: وهو الإحسان بين العبد وربه، بينه الرسولﷺ لما سأله جبريل بحضرة الصحابة كما يأتي، فقال: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

فالإحسان بين العبد وبين ربه هو إتقانه العمل الذي كلفه الله به، بأن يأتي به صحيحًا خالصًا لوجه الله ﷻ، وعمل الإحسان بين العبد وربه، ما توفر فيه الإخلاص لله ﷻ والمتابعة للرسولﷺ، وقد بين النبيﷺ أن الإحسان على مرتبتين، واحدة أعلى من الأخرى.

الأولى: أن تعبد الله كأنك تراه، بأن يبلغ بك اليقين والإيمان بالله كأنك تشاهد الله عيانًا، ليس عندك تردد أو أي شك، بل كأن الله أمامك -سبحانه وتعالى - تراه عيانا، فمن بلغ هذه المرتبة فقد بلغ غاية الإحسان، تعبد الله كأنك تراه من كمال اليقين وكمال الإخلاص، كأنك ترى الله عيانًا، والله -جل وعلا - لا يرى في الدنيا، وإنما يرى في الآخرة، ولكن تراه بقلبك حتى كأنك تراه بعينيك؛ ولذلك يجازى أهل الإحسان بالآخرة بأن يروه سبحانه وتعالى، لما عبدوه وكأنهم يرونه في الدنيا جازاهم الله بأن أفسح لهم المجال بأن يروه بأبصارهم في دار النعيم، قال تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾[يونس:٢٦]، الزيادة: هي النظر لوجه الله، السبب أنهم أحسنوا في الدنيا، فأعطاهم الله الحسنى، وهي الجنة، وزادهم رؤية الله ﷻ تعبد الله كأنك تراه على المشاهدة، والمحبة والشوق إلى لقائه سبحانه وتعالى، تتلذذ بطاعته، وتطمئن إلى طاعته سبحانه وتعالى، تشتاق إليها، هذه طريقة المحسنين.

المرتبة الثانية: إذا لم تبلغ هذه المرتبة العظيمة فإنك تعبده على طريقة المراقبة، بأن تعلم أن الله يراك، ويعلم حالك، ويعلم ما في نفسك، فلا يليق بك أن تعصيه، وأن تخالف أمره، وهو يراك ويطلع عليك، وهذه حالة جيدة، ولكنها أقل من الأولى، وما دمت أنك تعلم أنه يراك فإنك تحسن عبادته وتتقنها؛ لأنك تعلم أن الله يراك، ولله المثل الأعلى لو كنت أمام مخلوق له منزلة وأمرك بأمر، وأنت تنفذ هذا الأمر أمامه وينظر إليك، هل يليق بك أن يقع منك إخلال بهذا الفعل؟

الحاصل: أن الإحسان على مرتبتين:

مرتبة المشاهدة القلبية: وهي أن تعبد الله كأنك تراه من شدة اليقين والإيمان، كأنك ترى الله ﷻ عيانًا.

والمرتبة الثانية: وهي أقل منها، أن تعبد الله وأنت تعلم أنه يراك ويطلع عليك، فلا تعصيه ولا تخالف أمره سبحانه وتعالى.

هذه مرتبة الإحسان، وهي أعلى مراتب الدين، من بلغها فإنه بلغ أعلى مراتب الدين، وقبلها مرتبة الإيمان، وقبلها مرتبة الإسلام.

فالدين دوائر:

الدائرة الأولى: الإسلام، وهي واسعة حتى إنه يدخل فيها المنافق، ويقال له: مسلم ويعامل معاملة المسلمين؛ لأنه استسلم في الظاهر، فهو داخل في دائرة الإسلام، ويدخل فيها ضعيف الإيمان الذي ليس معه من الإيمان إلا مثقال حبة خردل.

الدائرة الثانية: وهي أضيق من الأولى، وأخص دائرة الإيمان، وهذه لا يدخل فيها المنافق النفاق الاعتقادي أبدًا، وإنما يدخل فيها أهل الإيمان، وهم على قسمين: إيمان كامل، وإيمان ناقص، فيدخل فيها مؤمن فاسق، أو مؤمن تقي.

الدائرة الثالثة: وهي أضيق من الثانية -دائرة الإحسان- وهي كما بينها النبي ﷺ ولا يدخل فيها إلا أهل الإيمان الكامل.

❑ قوله: (والدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ۝١٢٨﴾

●هذا دليل المرتبة الأولى من الإحسان: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ۝١٢٨﴾[النحل:١٢٨]، دلت الآية أن الله مع المحسنين، وهم الذين عبدوا الله كأنهم يرونه، فإن الله معهم معية خاصة، معية النصرة والتأييد والتوفيق.

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢١٧ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٢١٩ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٢٢٠﴾[الشعراء:٢١٧-٢٢٠] هذا دليل المرتبة الثانية، هذا دليل قوله: «فإنه يراك».

﴿وَتَوَكَّلْ﴾؛ أي: فوض أمورك. ﴿عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢١٧﴾: وهو الله سبحانه وتعالى.

﴿حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨﴾: تقوم للعبادة والصلاة.

﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٢١٩﴾: يراك وأنت راكع، وأنت ساجد، يراك في جميع أحوال

العبادة قائما وراكعا وساجدا، فهو يراك سبحانه وتعالىٰ.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾: السميع لأقوالك، العليم بأقوالك سبحانه وتعالىٰ.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ هذا دليل المرتبة الثانية.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ هذا خطاب للرسول ﷺ في أي شأن من أمورك، من أمور العبادة أو من غيرها، جميع أفعالك وتحركاتك ما تكون في شأن من الشئون.

﴿وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾[يونس:٦١]، أي: من الله لأن القرآن من عند الله ﷻ أو الضمير راجع إلىٰ الشأن؛ أي: ومن الشأن الذي تكون فيه تلاوة القرآن.

﴿وَلَا تَعْمَلُونَ﴾هذا لجميع الأمة، للرسول ﷺ وغيره.

﴿مِنْ عَمَلٍ﴾أي: عمل من الأعمال خير أو شر.

﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾نراكم ونبصركم ونشاهدكم، هذا دليل لقوله ﷺ : «فإنه يراك».

﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ تباشرونه وتعملونه، فهذا يعطي دليلًا علىٰ المرتبة الثانية من مراتب الإحسان، وأنه -جل وعلا - شهيد علىٰ كل عامل بعمله، يراه -سبحانه وتعالىٰ - ويعلمه ويبصره، ولا يغيب عنه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾﴾[آل عمران:٥].

وأما الإحسان بين العبد والخلق فمعناه: بذل المعروف لهم، وكف الأذىٰ عنهم، بأن تطعم الجائع، وتكسو العاري، وتعين بجاهك المحتاج، وتشفع لمن احتاج الشفاعة، تبذل المعروف، جميع وجوه المعروف، تكرم الضيف، تكرم الجار، لا يصدر منك إلا خير لجارك، وتكف أذاك عنه -أيضا - فلا يصدر منك أذىٰ له ولا لغيره، من الناس من لا يصدر منه إلا أذىٰ، ومن الناس من يصدر منه أذىٰ وخير، ومن الناس من لا يصدر منه إلا خير، فهذا في أعلىٰ الطبقات.

بذل الخير للناس وكف الأذىٰ عنهم هو الإحسان للناس: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾[البقرة:١٩٥]، حتىٰ البهائم يجب أن تحسن إليها بأن تهيئ لها ما تحتاج إليه، وتمنع الأذىٰ عنها، وترفق بها، هذا من الإحسان إلىٰ البهائم.

حتىٰ المستحق للقتل لا تعذبه، بل تقتله قتلة حسنة ومريحة، من وجب عليه القصاص، ومن وجب عليه الحد، فإنه ينفذ فيه برفق، لا تمثيل، ولا تعذيب، ولا صبر.

قال ﷺ : «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح»[٢٣٦] في القصاص أو غير ذلك مما يلزم الحد.

فإذ ذبحتم؛ أي: ذبحتم الحيوانات المأكولة، فأحسنوا الذبحة، «وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته»[٢٣٧]، فتحسن حتى للبهائم، وقد غفر الله للبغي من بني إسرائيل بسبب أنها سقت كلبًا رأته يلهث من العطش، فسقته فشكر الله لها، فغفر الله لها ذنبها وهو ذنب عظيم، وهو البغاء؛ أي: الزنى، فغفر الله لها بسبب ذلك؛ لأنها أحسنت إلى هذا البهيم العطشان.

فكيف بغير الكلب؟ إذا أحسنت إلى جائع من المسلمين، أو حتى من بني آدم ولو كان كافرًا، إذا أحسنت إليه فإن الله جل وعلا يشكر لك ذلك الإحسان، قال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾[البقرة:١٩٥].

النوع الثالث: وهو إتقان العمل، أي عمل تعمله يجب عليك أن تتقنه، لا ليقال: إن فلانا يحسن كذا، وقد جاء في الحديث: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه»[٢٣٨].

قوله: (وَالدَّلِيلُ مِنَ السُّنَّةِ حَدِيثُ جبريل الْمَشْهُورُ عَنْ عُمَرَ رضي الله عنه)

●قد تقدم الكلام عن الإسلام والإيمان والإحسان، وأركان كل مرتبة، وذكر الشيخ رحمه الله أدلة كل مرتبة من القرآن، وهذا كله تقدم وانتهى.

ثم ذكر الشيخ رحمه الله دليل هذه المراتب من السنة، سنة الرسول ﷺ؛ فذكر حديث جبريل؛ وأنه أتى النبي ﷺ وهو مع أصحابه، أتاهم في صورة رجل، وجلس إلى النبي ﷺ وسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان.

ثم سأله عن الساعة، وسأله عن أماراتها، هذا ما يسمى بحديث جبريل أو حديث عمر، وهو حديث ورد من عدة طرق عن جماعة من الصحابة، فهو حديث صحيح.

وذكر الشيخ رحمه الله رواية عمر بن الخطاب في هذا الحديث مع اختلاف في ألفاظ

---

(٢٣٦) أخرجه مسلم (١٩٥٥)، وأبو داود (٢٨١٥)، وغيرهما من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه.

(٢٣٧) انظر ما قبله.

(٢٣٨) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٨٩٧)، وأبو يعلى (٤٣٨٦)، وغيرهما من حديث عائشة رضي الله عنها، وصححه العلامة الألباني في «الصحيحة» (١١١٣).

الحديث في طرق أخرىٰ، ولكن المعنىٰ واحد.

قال: «بينما نحن جلوس عند النبيﷺ » كان من عادتهم أنهم يجتمعون عند النبيﷺ في المسجد، ويتلقون عنه العلم، ويستمعون إلىٰ أجوبتهﷺ علىٰ ما يرده من الأسئلة، فبينما هم كذلك -علىٰ عادتهم- إذ دخل عليهم رجل من الباب، رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر؛ أي: أن جبريلﷺ تمثل في صورة هذا الرجل، ولم يأتهم بصورته الملكية؛ لأنهم لا يطيقون النظر إليه في صورته الملكية.

❏قوله: (لا يُرَىٰ عَلَيه أَثَرُ السَّفَرِ ولاَ يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ ...)

●لا يرىٰ عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا -أي: من الحاضرين- أحد، فهذا من العجائب أنه ليس قادمًا من سفر حتىٰ يقال: إنه من غير أهل المدينة، وهم لا يعرفونه، وهو ليس من أهل البلد حتىٰ يعرفوه، فتحيروا في شأنه، لا هو قادم، ولا هو من أهل البلد، لو كان قادمًا من سفر لظهر عليه أثر السفر في ثيابه وفي لونه؛ لأن المسافر تظهر عليه آثار السفر، فلا يعرفه أحد من الحاضرين، فليس هو من أهل البلد، وليس هو قادمًا من سفر، فمن أين يكون هذا الرجل؟ هذا الذي استغربوه.

فجلس إلىٰ النبيﷺ : بين يديه جلوس المتعلم من معلمه.

وأسند ركبتيه إلىٰ ركبتي النبيﷺ ؛ أي: أنه قريب منه جدًا.

ووضع يديه علىٰ فخذيه؛ أي: فخذي النبيﷺ .

فقال: يا محمد، خاطبه باسمه، ولم يقل: يا رسول الله، ولعله فعل ذلكﷺ من أجل أن يظن الصحابة أنه من البادية؛ لأن من عادة أهل البادية أنهم يخاطبون النبيﷺ باسمه؛ لأن أهل البادية علىٰ طبيعتهم وعادتهم، وهو زيادة في الإغراب والتعمية حتىٰ لا يعرفوه.

قال: يا محمد، أخبرني عن الإسلام؛ أي: اشرح لي معنىٰ الإسلام.

❏قوله: (قال: أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لا إله إلاَّ الله ...)

●قال: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا» ذكر له النبيﷺ أركان الإسلام التي لا بد منها، والتي إن تحققت ووجدت تحقق الإسلام، وما زاد عليها من الأمور الأخرىٰ فهي مكملات.

فالرسول ﷺ اقتصر على بيان أركان الإسلام؛ لأن الجواب كلما كان مختصرًا كان أسهل على المتعلم والسامع، وسهل عليه حفظه ووعيه، بينما لو طول الجواب تشعب على الحاضرين، وربما أن أكثرهم لا يستوعبه، فهذا دليل على أن المسئول ينبغي أن يتوخى الاختصار مهما استطاع، ويقتصر على الشيء الضروري، وإلا فالإسلام أكثر من ذلك، هذه أركانه ودعائمه التي يقوم عليها.

قال: «صدقت»، هذه عجيبة ثانية.

قال: «فعجبنا له يسأله ويصدقه»: فدل على أنه عالم، وأنه لا يسأل سؤال جاهل، وإنما يسأل وهو عالم، بدليل أنه قال: صدقت، فدل على أنه عالم، فلماذا يسأل؟

قوله: «فأخبرني عن الإيمان، قال: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره، قال: صدقت».

قال: «أخبرني عن الإيمان، قال: أن تؤمن بالله ملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره»، فذكر له ﷺ أركان الإيمان الستة بعدما ذكر له أركان الإسلام.

والإسلام والإيمان إذا ذكرا جميعًا فالإسلام معناه الأعمال الظاهرة، والإيمان هو الأعمال الباطنة، أعمال القلوب، وما يقوم به من التصديق والعلم، ولا بد من الإسلام والإيمان جميعًا، الإسلام: الأعمال الظاهرة، والإيمان: الأعمال الباطنة؛ لقوله ﷺ: «الإسلام علانية، والإيمان في القلب»[(٢٣٩)].

فإن ذكرا جميعا صار لكل واحد معنى خاص به، وإذا ذكر واحد منهما دخل فيه الآخر، إذا ذكر الإيمان وحده دخل فيه الإسلام، وإذا ذكر الإسلام وحده دخل فيه الإيمان؛ لأنه لا يصح إسلام بدون إيمان، ولا يصح إيمان بدون إسلام، لا بد من الاثنين، فهما متلازمان؛ ولهذا يقولون: إن الإسلام والإيمان من الأسماء التي إذا اجتمعت افترقت، وإذا انفردت اجتمعت؛ أي: يدخل بعضها في بعض؛ لأنهما متلازمان، لا ينفك أحدهما عن الآخر.

فسأله عن الأعمال الظاهرة والأعمال الباطنة، وبين له ﷺ أركان كل من الإسلام والإيمان.

---

(٢٣٩) أخرجه أحمد (٣/١٣٤)، وأبو يعلى، برقم (٢٩٢٣)، من حديث أنس رضي الله عنه، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» برقم (٢٢٨٠).

❑قوله: (قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ ...)

●قال: «فأخبرني عن الإحسان، قال: أن تعبد الله»، سبق أن المحسن: هو من يعبد الله على المشاهدة واليقين كأنه يرى الله، أو يعبده على المراقبة، وهو يعلم أن الله يراه فيحسن العمل؛ لأن الله مطلع عليه، فالمحسن يعبد الله إما على المشاهدة في القلب، وهذا أكمل، وإما على المراقبة، وأن يعلم أن الله يراه في أي مكان، أو في أي عمل يعمله، هذا هو الإحسان.

قال: «صدقت، فأخبرني عن الساعة»؛ أي: عن قيام الساعة متى؟ ولما كان هذا السؤال لا يعلم أحد الجواب عنه إلا الله سبحانه وتعالى؛ لأن قيام الساعة لا يعلم تحديده إلا الله ﷻ.

نحن نعلم أنها ستقوم الساعة لا نشك في هذا، من شك في هذا فهو كافر، نعلم أنها ستقوم الساعة ولا بد، ولكن الوقت الذي تقوم فيه الساعة الله ﷻ لم يخبرنا عنه، ولم يبينه لنا، واستأثر بعلمه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾[لقمان:٣٤]، وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾[الأعراف:١٨٧]، هو الذي يعلمها سبحانه.

وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾[الأنعام:٥٩]، ومنها وقت قيام الساعة.

قال ﷺ لجبريل: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل»؛ أي: أنا وأنت سواء لا نعلم متى تقوم الساعة، الله -جل وعلا- لم يطلع على هذا لا الملائكة، ولا الرسل، ولا أحدًا، بل استأثر بعلمها سبحانه وتعالى.

قوله: « فأخبرني عن أماراتها، قال: أن تلد الأمة ربتها».

قال: «أخبرني عن أماراتها»، الأمارات: جمع أمارة، وهي العلامة، أما الإمارة بالكسر: فهي الولاية.

«أخبرني عن أماراتها»؛ أي: العلامات التي تدل على قرب قيامها.

نعم، الساعة لها أمارات، وقد بينها الله سبحانه وتعالى، منها أمارات صغيرة، ومنها علامات كبيرة، ومنها متوسطة، ومنها علامات مقاربة للساعة تكون عند قيام الساعة،

تكون قريبًا من قيامها، أما العلامات الأخرى فإنها متقدمة.

العلماء يقولون: علامات الساعة على ثلاثة أنواع: هي علامات صغيرة ومتقدمة، وعلامات متوسطة، وعلامات كبيرة.

العلامات الصغيرة والعلامات المتوسطة كلها حصلت أو حصل معظمها، أما العلامات الكبار ظهور الدجال، ونزول عيسى عليه السلام، وخروج الدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، فهذه تكون عند قيام الساعة وتتتابع.

قال: «أخبرني عن أماراتها:» ولما كانت أماراتها معلومة أجابه الرسول ﷺ، قال: «أن تلد الأمة ربتها» هذا من علامات الساعة، الأمة هي المملوكة، وربتها سيدتها.

□قوله: (وَأَنْ تَرَىٰ الحُفَاةَ العُرَاةَ ...)

●قال الشراح: معناه -والله أعلم- أنه في آخر الزمان يكثر التسري، يعني يكثر وطء الإماء -أي: المملوكات- فيلدن بنات، تكون بنتها حرة، وتكون سيدة لأمها ومالكة لها، وقيل: معناه أنه يكثر العقوق، فتكون البنت كأنها سيدة لأمها.

وأن ترى الحفاة: هذه علامة ثانية.

الحفاة: الذين ليس لهم نعال من الفقر والفاقة.

العراة: الذين ليس لهم لباس.

العالة: الفقراء.

رعاء الشاء: جمع راعٍ، الذين يرعون الأغنام، هؤلاء كانوا في الأصل في البراري في بيوت ينتقلون من محل إلى آخر، وفي آخر الزمان يستوطنون في المدن، ويبنون القصور والعمارات الشاهقة، هذا من علامات الساعة، إذا تحولت البادية إلى حاضرة، وصاروا يتطاولون في المباني، ويتباهون بها ويدمقونها، وهم ليس من عادتهم، يتحولون إلى أغنياء، إلى أصحاب ثروة وأصحاب مظاهر، هذه من علامات الساعة.

وكما تعلمون فإن الرسول ﷺ لا ينطق عن الهوى، كما تعلمون الآن كيف حال الناس، لقد تغيرت الأحوال وتحول الفقراء إلى أغنياء أصحاب ثروات، وتحضرت البادية وبنوا وتطاولوا في البنيان، وهذا مصداق ما قاله رسول الله ﷺ .

□قوله: (قَالَ: فَمَضَىٰ فَلَبِثْنَا مَلِيًّا ...)

●قال: «ثم خرج ولبثنا مليًا»؛ يعني: وقتًا قصيرًا.

فقال النبي ﷺ :«يا عمر أتدري من السائل؟» أو «أتدرون من السائل؟» وفي رواية أن النبي ﷺ قال: «علي بالرجل»[٢٤٠] فطلبوه فلم يقدروا عليه.

قال: «هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم» هذا الذي دخل وسأل هذه الأسئلة هو جبريل عليه السلام، وجاء في صورة رجل كما وصف لغرض تعليم الحاضرين أمور دينهم علىٰ طريق السؤال والجواب.

فدل هذا الحديث علىٰ مسائل عظيمة:

الأولىٰ: أن الدين ينقسم إلىٰ ثلاث مراتب: الإسلام والإيمان والإحسان، كل مرتبة أعلىٰ من التي قبلها، وأن كل مرتبة لها أركان: أركان الإسلام، وأركان الإيمان والإحسان ركن واحد.

الثانية: فيه التعليم بطريق السؤال والجواب، وهذه طريقة تعليمية ناجحة؛ لأنها أدعىٰ للانتباه وتلقي العلم، كونه يسأل ويتهيأ ذهنه يتطلب الجواب، ثم يلقي عليه الجواب وهو يتطلع إليه، يكون هذا أثبت.

الثالثة: في الحديث دليل علىٰ أن من سأل عن علم وهو لا يدري أن يقول: الله ورسوله أعلم، يكل العلم إلىٰ عالمه، فلا يتكلم بالجواب وهو لا يعرفه ويتخرص، هذا لا يجوز، والرسول ﷺ لمَّا سئل عن الساعة؛ قال: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل»ولما قال للصحابة: «أتدرون من السائل؟ وهم لا يعرفونه قالوا: الله ورسوله أعلم».

فدل ذلك علىٰ أن مسائل الشرع ومسائل الدين لا يجوز التخرص فيها؛ لأن هذا من التكلف، ولكن من كان عنده علم فإنه يجيب، ومن ليس عنده علم يقول: الله أعلم، ومن قال: لا أدري فقد أجاب.

قد سئل الإمام مالك رحمه الله عن أربعين مسألة فأجاب عن ست منها، وقال في الباقية: لا أدري، فقال له السائل: أنا جئت من كذا وكذا، وسافرت وأتعبت راحلتي، وتقول: لا أدري، قال: اركب راحلتك، واذهب إلىٰ البلد الذي جئت منه، وقل: سألت مالكا؛ فقال:

---

(٢٤٠) سبق تخريجه.

لا أدري، هذا ليس عيبًا أن الإنسان إذا كان لا يعرف الجواب في الأمور الشرعية أنه يقول: لا أدري ولو كان عالمًا، الرسول ﷺ قال:«ما المسئول عنها بأعلم من السائل».

وكان ﷺ إذا سئل في بعض الأسئلة ولم يكن عنده وحي من اللهﷻ، انتظر حتىٰ ينزل الوحي من اللهﷻ ألستم تقرءون: يسألونك عن كذا، يسألونك عن كذا، قل كذا؟ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾[البقرة:٢١٩]، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾[البقرة:١٨٩].

فالرسول ﷺ كان إذا سئل ولم يكن عنده جواب ينتظر حتىٰ ينزل عليه الوحي من الله، وكذلك غيره من باب أولىٰ ينتظر حتىٰ يسأل غيره، أو غيره يبحث عن المسألة في كتب أهل العلم ليتحصل علىٰ جواب، أما أن يستعجل فهذا فيه خطورة عظيمة، وفيه سوء أدب مع اللهﷻ؛ لأن الذي يجيب يجيب عن شرع الله، يقول: الله أحل كذا أو حرم كذا أو شرع كذا، فالأمر فيه خطورة جدًّا.

المسألة الرابعة: في الحديث دليل علىٰ آداب المتعلم، جبريل وهو سيد الملائكة يجلس بين يدي الرسول ﷺ وهو يسند ركبتيه إلىٰ ركبتي الرسول ﷺ ويضع يديه علىٰ فخذيه، يسأل بأدب، هذا من أجل أن يعلم الناس كيف يتأدبون مع العلماء.

هذا بعض ما يدل عليه الحديث وفيه:

مسألة خامسة: وهي بيان بعض علامات الساعة، ذكر علامتين: أن تلد الأمة ربتها، وبعض العلماء يقول: معنىٰ أن تلد الأمة ربتها: أنه يكثر العقوق في آخر الزمان حتىٰ تصبح البنت كأنها سيدة علىٰ والدتها، تأمرها وتنهاها وتغلظ عليها.

<u>**قال العلامة صالح آل الشيخ:**</u>

❑ قوله: (الْمَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ: الإِحْسَانُ)

● الإحسان الذي هو مرتبة من المراتب؛ إحسان العابد أثناء عبادته؛ وهو مقام المراقبة؛ مراقبة العابد لله جل وعلا؛ لربه جل وعلا أثناء عباداته، بل في أحواله كلها؛ لأنه إذا راقب ربه، بأنه قد علم أن الله جل وعلا مطلع عليه، كأنه يرىٰ الله جل وعلا، فإن هذا يدعوه إلىٰ إحسان العمل، وأن يجعل عمله أحسن ما يكون، وأن يجعل حاله في إقبال قلبه، وإنابته، وخضوعه، وخشوعه، ومراقبته لأحوال قلبه، وتصرفات نفسه، يجعل ذلك

أكمل ما يكون لحسنه وبهائه؛ لأنه يعلم أن الله جل وعلا مطلع عليه.

❑ قوله: (رُكْنٌ وَاحِدٌ وَهُوَ: «أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»)

●هذا المقام -مقام المراقبة- ركن واحد، وهو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك. أن تكون عابدًا لله على النحو الذي أمر الله جل وعلا به وأمر به رسوله، وحالتك أثناء تلك العبادة التي تكون فيها مخلصًا موافقًا للسنة، حالتك أن تكون كأنك ترى الله جل وعلا، فإن لم تكن تراه، فلتعلم أن الله جل وعلا مطلع عليك، عالمَ بحالك، يرى ويبصر ما تعمل، يعلم ظاهر عملك وخفيه، يعلم خلجات صدرك، ويعلم تحركات أركانك وجوارحك. وبضعفه تضعف المراقبة لله جل وعلا؛ إذن فمقام الإحسان -مرتبة الإحسان- تعظم بعظم مراقبة الله جل وعلا، وتضعف بضعف مراقبة الله جل وعلا، فالعبد المؤمن أثناء عبادته إذا كان يعبد الله جل وعلا مخلصًا على وفق السنة، وحاله كأنه يرى الله عالم بأنه مطلع عليه يراه، هذه تجعله يحسن عمله، بل يجعل عمله وحاله أثناء العمل أحسن ما يكون.

❑ قوله: (والدليل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ١٢٨ ﴾)

●وجه الاستدلال: أن الله جل وعلا ذكر ها هنا معيته للذين اتقوا ولمن هم محسنون قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ١٢٨ ﴾ وهذه المعية تقتضي في هذا الموضع شيئين:

الأول: أنه جل وعلا مطلع عليهم، عالم بهم، محيط بأحوالهم، لا يفوته شيء من كلامهم، ولا من أحوالهم، ولا من تقلباتهم.

والثاني: أنه جل وعلا معهم ناصر لهم بتأييده، ونصره وتوفيقه، المعية هاهنا معية خاصة بالمؤمنين، ومعلوم أن المعية الخاصة للمؤمنين تفسر بما تقتضيه، وهو أنها معية نصر وتأييد وتوفيق وإلهام ونحو ذلك، وهذا متضمن للمعية العامة، وهي معية الإحاطة والعلم ونحو ذلك.

إذن وجه الاستدلال:

أولًا: أنه ذكر المعية.

ثانيًا: أنه ذكر معيته للمحسنين فقال: ﴿ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ١٢٨ ﴾والمحسنون هاهنا

جمع المحسن، والمحسن: اسم لفاعل الإحسان، ففاعل الإحسان اسمه: محسن، والإحسان هو الذي نتكلم عليه؛ المرتبة الثالثة.

فإذن وجه الاستدلال من جهتين: أولًا: ذكر المعية، ثانيًا: ذكر المحسنين.

❑ قوله: (وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾)

● وجه الاستدلال من هذه الآية: أنه ذكر رؤية الله جل وعلا لنبيه حال عبادة نبيه، وأنه يراه في جميع أحواله حين يقوم وتقلبه في الساجدين بين صحابته أثناء صلاته بهم عليه الصلاة والسلام؛ قال واصفًا نفسه جل وعلا:﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾[الشعراء:٢١٨،٢١٩]، وهذا دليل الشق الثاني من ركن الإحسان وهو قوله:(فإن لم تكن تراه فإنه يراك)، دليل الرؤية هاهنا قوله: ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾،يعني: في المصلين.

❑ قوله: (قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾)

●وجه الاستدلال قوله تعالى هنا: ﴿ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾[يونس:٦١] وشهود الله جل وعلا بما يعمله العباد من معانيه رؤيته جل وعلا لهم وإبصاره جل وعلا بهم، رؤيته جل وعلا من معانيه كونه جل وعلا شهيدًا، قال جل وعلا هنا: ﴿ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾[يونس:٦١] هذا الاستدلال ظاهر؛ لأن الإحسان هو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

قال جل وعلا هنا: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ ﴾ أي شأن تكون فيه ﴿ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾أنواع تلاوتك للقرآن، وأحوال ذلك في الصلاة، خارج الصلاة، وأنت على جنبك، وأنت قائم، ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ أحوال عملكم، كل ذلك منكم، الله جل وعلا شهيد عليه، يرى أحوالكم فيه على تفصيلاتها، شاهد وشهيد عليكم، يرى أعمالكم، يسمع كلامكم، ويبصر أعمالكم جل وعلا، وهذا دليل أيضًا ظاهر الاستدلال.

❑ قوله: (وَالدَّلِيلُ مِنَ السُّنَّةِ: حَدِيثُ جِبْرَائِيل...)

●ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الدليل من السنة، وهو حديث جبريل المشهور عن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وهو الذي

شرحناه في الأربعين النووية، وهو ثاني الأحاديث النووية الأربعين، وبهذا يتم ذكر الأصل الثاني من أصول دين الإسلام، ألا وهو معرفة دين الإسلام بالأدلة.

ملخص ذلك: ذكر الشيخ أن الأصل الثاني: معرفة دين الإسلام بالأدلة، عرف الإسلام، وذكر أركانه، وذكر معنى الشهادتين، معنى شهادة أن لا إله إلا الله، فسر التوحيد وأدلة ذلك شهادة أن محمدًا رسول الله، وبين معنى الشهادة بأن محمدًا رسول الله، ثم بين أدلة أركان الإسلام الباقية، ثم ذكر المرتبة الثانية وهي الإيمان، ثم ذكر المرتبة الثالثة وهي الإحسان، ودلائل ذلك كله على نسق ووضوح يسهل معه الفهم ويسهل معه الإفهام.

ولهذا ينبغي لنا أن نحرص على هذه الرسالة؛ تعليمًا لها للعوام، وللنساء في البيوت، وللأولاد ونحو ذلك، على حسب مستوى من يخاطب في ذلك، وقد كان علماؤنا رحمهم الله تعالى يعتنون بثلاثة الأصول هذه تعليمًا وتعلمًا، بل كانوا يلزمون عددًا من الناس بعد كل صلاة فجر أن يتعلموها، أن يحفظوا هذه الأصول ويتعلموها، وذلك هو الغاية في رغبة الخير، ومحبة الخير لعباد الله المؤمنين، إذ أعظم ما تسدي للمؤمنين من الخير، أن تسدي لهم الخير الذي ينجيهم حين سؤال الملكين للعبد في قبره؛ لأنه إذا أجاب جوابًا حسنًا -جوابًا صحيحًا- عاش بعد ذلك سعيدًا، وإن لم يكن جوابه مستقيمًا ولا صحيحًا عاش بعد ذلك، والعياذ بالله على التوعد بالشقاء والعذاب.

الدرس السادس عشر:

[الأصل الثالث: معرفة النبي ﷺ]

الأَصْلُ الثَّالِثُ: مَعْرِفَةُ نَبِيِّكُم مُحَمَّدٍ ﷺ وَهُوَ: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله بن عَبْدِ الْمُطَّلِب بن هَاشِمٍ(٢٤١) وهَاشِمٌ مِن قُرَيش، وقُرَيش مِنَ العَرَب، والعَرَبُ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ، ابن إِبْرَاهِيمَ الخَلِيلِ، عَلَيْهِ وَعَلَىٰ نَبِيِّنَا أَفْضَلُ الصَّلاَةِ والسَّلاَمِ. وَلَهُ مِن الْعُمُرِ: ثَلاثٌ وَسِتُّونَ سَنَةً، مِنْهَا أَرْبَعُونَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ، وثَلاثٌ وَعِشْرُونَ نَبِيًّا وَرَسُولاً، نُبِّئَ بِإقْرَأْ. وَأُرْسِلَ بِالمُدَّثِّرِ، وَبَلَدُهُ مَكَّةُ، وَهَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ.

الشرح

قال العلامة ابن باز:

ـ قوله: (مَعْرِفَةُ نَبِيِّكُم مُحَمَّدٍ ﷺ)

● هذا هو الأصل الثالث، وهو: معرفة نبينا محمد ﷺ فعلى الإنسان أن يعرف نبيه الذي أرسله الله إليه، وبلغه الرسالة، وبين له الشرائع التي أمره بها، وأوضح له العبادة التي خلقنا الله لها.

ـ قوله: (وَهُوَ: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله...)

● هذا النبي هو: محمد -عليه الصلاة والسلام-، خاتم الأنبياء، ورسول الله لهذه الأمة من الجن والإنس، أرسله الله للناس جميعًا، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨] وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ:٢٨] فاسمه محمد، واسمه أحمد، واسمه الحاشر، والماحي، والمقفي ؛ لأنه خاتم الأنبياء، وهو نبي التوبة، ونبي الرحمة، ونبي الملحمة. هذه كلها

---

(٢٤١) لم يذكر المؤلف -رحمه الله- [للنبي] ﷺ إلا جدين وهاك سرد نسبه الشريف -بأبي هو وأمي أفديه- عليه الصلاة والسلام، هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة ابن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان [الدمشقي]

أسماؤه -عليه الصلاة والسلام- لكن أشهرها، وأفضلها، وأعظمها محمد، الذي سماه به أهله، وجاء به القرآن، قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾[الفتح:٢٩]. وهكذا (أحمد) كما بشر به عيسى: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾[الصف:٦]، فهو محمد، وأبوه اسمه: عبد الله، وجده اسمه: عبد المطلب، وعبد المطلب لقب، وإلا فاسمه شيبة وأبو جده اسمه هاشم وهو سيد من سادات قريش كما أن عبد المطلب كذلك، وهاشم من قريش قبيلة عظيمة، وهي أفضل العرب، والنبيﷺ من خاصتهم من بني هاشم وهم أفضل قريش، واسمه فهر بن مالك، وقيل: قريش هو: النضر بن كنانة جد فهر بن مالك. وقريش من العرب المستعربة التي استعرب لسانها فصار لها لسان عربي واضح، فهي أكثر عروبة من قحطان ولهذا يقال لهم: العرب العاربة، والعرب المستعربة؛ وهم من ذرية إسماعيل ابن إبراهيم الخليل.

قوله: (نُبِّئَ بِاقْرَأْ ...)

● وهذا النبي العظيم وهو محمد -ﷺ- نبئ بـ (اقرأ) ؛ فأول ما نزل عليه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾[العلق:١]، وصار بها نبيًا.

وقال: أتاه جبريل وهو في الغار -غار حراء- فأقرأه هذه السورة.

قوله: (وَأُرْسِلَ بِالمُدَّثِّرِ)

● ثم بعد مدة يسيرة جاءه بـ (المدثر)؛ فصار رسولًا بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾[المدثر:١، ٢]. و﴿ٱلْمُدَّثِّرُ﴾: الملتحف.

لأنه جاء بعد ما جاءه الوحي، اشتد عليه الأمر، وقال: زملوني زملوني... دثروني دثروني ؛ من شدة ما أصابه من الخوف لما ضغط عليه جبريل -عليه الصلاة والسلام- مرات. ثم قال: اقرأ؛ تمهيدًا لأعباء الرسالة وعظمتها. ثم قال الله: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾، أي: قم فأنذر الناس. فصار رسولًا بأمره بالنذارة. ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾[المدثر:٣]، أي: عظمه بالتوحيد. ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾[المدثر:٤]، أي: طهر أعمالك من الشرك ؛ لأن تطير الملابس غير مراده في هذه الآية ؛ لأن الصلاة لم تفرض في ذلك الوقت، فالمراد هنا: الأعمال كما قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾[الأعراف:٢٦]، فالعمل يسمى لباسًا. ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾[المدثر:٥] : فالرجز: الأصنام، وهجرها تركها، والبراءة منها وأهلها.

قال العلامة ابن قاسم:

❑ قوله: (الأَصْلُ الثَّالِثُ)

● أي: من أصول الدين الثلاثة التي يجب على الإنسان معرفتها.

❑ قوله: (مَعْرِفَةُ نَبِيِّكُم مُحَمَّدٍ ﷺ)

● فمعرفة نبينا محمد ﷺ هي أحد الأصول الثلاثة، فكما أن الأصل الأول: وهو معرفة الله عظيمٌ وواجب معرفته، وكذلك الأصل الثاني: وهو معرفة دين الإسلام الذي خلقنا الله له وتعبدنا بالقيام به أصل عظيم وواجب معرفته، فكذلك هذا الأصل الثالث: وهو معرفة نبينا محمد ﷺ أصل عظيم يجب معرفته، فإنه ﷺ هو الواسطة بيننا وبين الله تعالى، ولا وصول لنا ولا اطلاع لنا ولا طريق لنا ولا نعرف ما ينجينا من غضب الله وعقابه ويقربنا من رضي الله وثوابه إلا بما جاء به نبينا محمد ﷺ وإذا كان كذلك عرفنا وجه كون معرفته أحد الأصول الثلاثة التي يجب معرفتها، فإنا لا نعرف الأصل الأول الذي هو معرفة الرب ﷻ، ولا الأصل الثاني الذي هو دين الإسلام إلا بالواسطة بيننا وبين الله، فتحتمت معرفته ﷺ وصارت أصلًا ثالثًا؛ إذ لا يمكن معرفة المرسل إلا بمعرفة رسوله، فصار من الضروريات معرفة الرسول ﷺ وبذلك ظهر أن معرفته ﷺ أحد الأصول الثلاثة، ومعرفته تنتظم أشياء عديدة: منها: معرفة اسمه ونسبه وعمره، وبقائه في الدنيا ووفاته، ومعرفة ما نبئ به، وما أرسل به، وبلده ومهاجره، ومنها -وهو أعظمها-: معرفة ما بعث به،و غير ذلك مما ذكر المصنف وغيره.

❑ قوله: (وَهُوَ: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ)

● كان له ﷺ عدة أسماء أشهرها محمد؛ ولهذا جاء في القرآن بهذا الاسم على وجه التنويه، كما في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب:٤٠]، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران:١٤٤]، ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ [الفتح:٢٩]، فهذا أشهر أسمائه ﷺ، ومعناه: الذي يحمد أكثر مما يحمد غيره، وهو علم مشتق من التحميد، ولما فيه من الخصال الحميدة، ولقبه: أبو القاسم، وأبوه: عبد الله، وهو الذبيح الثاني المفدى بمائة من الإبل.

❑ قوله: (ابن عَبْدِ المُطَّلِب بن هَاشِمٍ)

● عبد المطلب اسمه: شيبة، ويقال له: شيبة الحمد، لجوده، وجماع أمر قريش إليه، وإنما سمي بعبد المطلب؛ لأن عمه المطلب قدم به مكة، وهو رديفه، وهو تغير لونه بالسفر فحسبوه عبدًا له، فقالوا: هذا عبد المطلب، فعلق به هذا الاسم، وهاشم اسمه: عمرو، وإنما سمي هاشمًا، لهشمه الثريد مع اللحم لقومه في سني المحل.

❑ قوله: (وهَاشِمُ مِن قُرَيش، وقُرَيش مِنَ العَرَب)

● قريش: هو النضر، فإن إليه جماع قريش، ولا خلاف بين العلماء أن هاشمًا ابن لعبد مناف، و اسمه المغيرة بن قصي بن كلاب مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، وما فوقه فيه خلاف، والعرب هنا المراد بهم: المستعربة، فإن العرب قسمان: عاربة، و مستعربة، والعاربة قحطان، والمستعربة عدنان، وهم أفضل من العرب العاربة، كيف ومنهم النبيﷺ، وهو القائل: «إن الله اصطفى بني إسماعيل من العرب، واصطفى من بني إسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريشًا، واصطفى من قريش بني هاشم، و اصطفاني من بني هاشم، فأنا خيار من خيار»[٢٤٢]، وقال أبو سفيان لهرقل لما سأله: كيف هو فيكم؟ قال: هو فينا ذو نسب، قال: وهكذا الرسل تبعث في أنساب قومها؛ يعني: في أكرمها أحسابًا

❑ قوله: (والعَرَبُ مِنْ ذُرِّيَةِ إِسْمَاعِيلَ ...)

● وهذا لا خلاف فيه، ولا خلاف أن الخليل من ذرية سام بن نوح، وذكر جمهور المؤرخين أن الخليل عليه السلام بن تارخ بن ناحور بن ساروغ بن راعو بن فالغ بن عابر بن شالح بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام.

❑ قوله: (وَلَهُ مِن العُمْرِ: ثَلاثٌ وَسِتُّونَ سَنَة)

● ولد عليه الصلاة والسلام يوم الاثنين ثاني عشر ربيع الأول عام الفيل، وفيه بعث وفيه عرج به إلى السماء، وفيه هاجر إلى المدينة، وفيه توفي صلوات الله وسلامه عليه،

(٢٤٢) أخرجه مسلم (٢٢٧٦)، وأحمد (١٠٧/٤)، والترمذي (٣٦٠٥)، وغيرهم من حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه.

قال ﷺ «ذلك يوم ولدت فيه وأنزل عليه فيه»[٢٤٣]، وارتجَّ لمولده ﷺ إيوان كسرىٰ، وخمدت النيران، وخر كثير من الأصنام، وظهر النور معه، حتىٰ أضاءت له قصور الشام، وهتفت به الجن، وجرىٰ من معجزات آياته غير ذلك، وتوفي أبوه وهو حمل، وكان عند جده، ثم عمه أبي طالب، وتزوج خديجة وله خمسة وعشرون سنة، ومنها أولاده إلا إبراهيم فمن مارية، وشهد حلف المطيبين وبناء الكعبة، وكان يسمىٰ: الأمين قبل مبعثه صلوات الله وسلامه عليه.

❏ قوله: (مِنْهَا أَرْبَعُونَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ)

● عند جماهير أهل العلم بسيرة رسول الله ﷺ والنبوة: من النبأ وهو الخبر؛ لأنه يخبر عن الله، وقيل: من النبوة، وهو الارتفاع، لارتفاع رتبته، وإنما كان كذلك؛ لأنه ارتفع علىٰ غيره.

❏ قوله: (وثَلاثٌ وَعِشْرُونَ نَبِيًّا وَرَسُولاً)

● والنبي: إنسان ذكر، أوحي إليه بشرع وإن لم يؤمر بتبليغه، وإن أمر بتبليغه فهو رسول، وبينهما عموم وخصوص، فالرسالة أعم من جهة نفسها وأخص من جهة أصحابها، والنبوة أخص من جهة نفسها وأعم من جهة أصحابها، فالنبوة جزء من الرسالة، إذ الرسالة تتناول النبوة وغيرها، وكل رسول نبي وليس كل نبي رسولًا.

❏ قوله: (نُبِّئَ بِإقْرَأْ)

● أي: أنزل عليه يوم الاثنين بلا خلاف، والمشهور أنه أنزل عليه في رمضان بغار حراء صدر سورة ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾[العلق:١، ٢]ففيها التنبيه علىٰ ابتداء خلق الإنسان من علقة، وخص بالإنسان، لما أودعه من عجائب آياته، ومن كرم الله أن علمه ما لم يعلم فشرفه بالعلم، والعلم: تارة يكون في الأذهان، وتارة يكون في اللسان، وتارة في الكتابة بالبنان، ولهذا قال: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾[العلق:٣-٥]، ورجع بها يرجف فؤاده، فقالت له خديجة: والله لا يخزيك الله، وأخبرت ورقة بن نوفل، فقال: هذا الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسىٰ.

---

(٢٤٣) أخرجه مسلم (١١٦٢/١٩٧)، وأبو داود (٢٤٢٦)، وغيرهما من حديث أبي قتادة رضي الله عنه.

❑ قوله: (وَأُرْسِلَ بِالمُدَّثِّرِ)

●أي: بصدر سورة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ الآيات. بعد فترة الوحي. ولما جاء الملك فرق منه فقال:«دثروني»[٢٤٤] فانزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ①﴾ [المدثر:١] ثم حمىٰ الوحي وتتابع، وكان أول ما أنزل عليه بعد فترة الوحي.وحينئذ شمر رسول الله ﷺ عن ساق العزم ودعا إلىٰ الله.

❑ قوله: (وَبَلَدُهُ مَكَّةَ)

●ولد بها في شعب علي.ونشأ بها إلا ما كان منه وهو مع مرضعته السعدية في البرية. ثم رجع إليها في حضانة جده، ثم عمه، وأوحىٰ إليه بها، وبقىٰ بها ثلاث عشرة سنة بعد أن أوحىٰ إليه.

❑ قوله: (وَهَاجَرَ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ)

●بعد أن هموا بقتله ﷺ. فتغيب في الغار ثم سار هو وأبو بكر مهاجرًا إلىٰ المدينة. وذلك بعد أن بايعوه ﷺ علىٰ النصرة والمؤازرة. وأرخت الأمة من مهاجره ﷺ.

قال العلامة العثيمين:

❑ قوله: (الأَصْلُ الثَّالِثُ)

●أي: من الأصول الثلاثة التي يجب علىٰ الإنسان معرفتها وهي معرفة العبد ربه، ودينه، ونبيه.

وقد سبق الكلام علىٰ معرفة العبد ربه ودينه.

وأما معرفة النبي ﷺ فتتضمن خمسة أمور:

الأول: معرفته نسبًا فهو أشرف الناس نسبًا فهو هاشمي قرشي عربي فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم إلىٰ آخر ما قاله الشيخ رحمه الله.

الثاني: معرفة سنه، ومكان ولادته، ومهاجره وقد بينها الشيخ بقوله: «وله من العمر ثلاث وستون سنة، وبلده مكة، وهاجر إلىٰ المدينة» فقد ولد بمكة وبقي فيها ثلاثًا وخمسين سنة، ثم هاجر إلىٰ المدينة فبقي فيها عشر سنين، ثم توفي فيها في ربيع الأول سنة إحدىٰ عشرة بعد الهجرة.

---

(٢٤٤) أخرجه البخاري (٤٩٢٥)، ومسلم (١٦٠/٢٥٤)، وغيرهما من حديث جابر ﷺ.

الثالث: معرفة حياته النبوية وهي ثلاث وعشرون سنة فقد أوحي إليه وله أربعون سنة كما قال أحد شعرائه:

وأتـــت عليـــه أربعـــون فأشـــرقت   شـــمس النبـــوة منـــه فـــي رمـــضـان

الرابع: بماذا كان نبيا ورسولًا؟ فقد كان نبيًا حين نزل عليه قول الله تعالىٰ: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾[العلق:١-٥]، ثم كان رسولًا حين نزل عليه قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝٧﴾[المدثر:١-٧]، فقام ﷺ فأنذر وقام بأمر الله ﷻ.

والفرق بين الرسول والنبي كما يقول أهل العلم: أن النبي هو من أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه، والرسول من أوحىٰ الله إليه بشرع وأمر بتبليغه والعمل به؛ فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولًا.

الخامس: بماذا أرسل ولماذا؟ فقد أرسل بتوحيد الله تعالىٰ وشريعته المتضمنة لفعل المأمور وترك المحظور، وأُرسل رحمة للعالمين لإخراجهم من ظلمة الشرك والكفر والجهل إلىٰ نور العلم والإيمان والتوحيد حتىٰ ينالوا بذلك مغفرة الله ورضوانه وينجوا من عقابه وسخطه.

قال العلامة الفوزان:

☐قوله: (الأَصْلُ الثَّالِثُ)

● أي: من الأصول الثلاثة؛ لأن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر في أول الرسالة أنه يجب علىٰ كل مسلم ومسلمة معرفة هذه الأصول الثلاثة، وهي معرفة الله، ومعرفة دين الإسلام، ومعرفة نبيه محمد ﷺ بالأدلة.

أما الأصل الأول والثاني: فقد تقدم شرحهما وبيان أدلتهما.

الأصل الثالث: وهو معرفة النبي ﷺ؛ لما كان النبي ﷺ واسطة بين الله وبين خلقه في تبليغ دينه ورسالته وجب معرفته -عليه الصلاة والسلام-، وإلا كيف تتبع شخصًا لا تعرفه؟ فلا بد أن تعرفه من حيث الاسم، ومن حيث البلد الذي ولد ونشأ فيه، والبلد الذي هاجر إليه، وتعرف مدة عمره عليه الصلاة والسلام.

وأقسام عمره عليه الصلاة والسلام، وأقسام المدة التي أقامها في هذه الدنيا، تعرفها -أيضا- قبل النبوة وبعدها، وقبل الهجرة وبعد الهجرة، تعرف كيف ابتدأ بالوحي عليه الصلاة والسلام، ومتى ابتدأ بالوحي، وما هي الآية التي تدل على نبوته، والآية التي تدل رسالته، تأتي بالآيات التي تدل على نبوته، والآيات التي تدل على إرساله، فلا بد أن تعرف هذا، تعرف نسبه من أي قبيلة؛ لأن العرب قبائل، وهو عربي بلا شك، فلا بد من معرفة هذه الأشياء عن الرسول ﷺ بأن تدرس الآيات والأحاديث المتعلقة بهذه المسائل، وتنظر في سيرة الرسول ﷺ ودعوته؛ لأجل أن تعرف هذه الأمور عن نبيك الذي أنت مأمور باتباعه، والاقتداء به.

□قوله: (وَهُوَ: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله بن عَبْدِ المُطَّلِب بن هَاشِم...)

●هذا اسمه ونسبه، اسمه محمد عليه الصلاة والسلام، وله أسماء غير محمد، لكن أشهر أسمائه محمد قد ذكر الله ذلك في القرآن في عدة آيات: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ﴾[الفتح:٢٩]، وقوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾[آل عمران:١٤٤]، وقوله: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾[الأحزاب:٤٠]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾[محمد:٢]، فذكر الله اسمه محمدًا في عدة آيات.

ومن أسمائه أحمد، قد ذكره الله في قوله في بشارة المسيح عليه السلام: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾[الصف:٦].

فهو محمد وأحمد، ومعنى ذلك أنه كثير المحامد عليه الصلاة والسلام، وكثير الصفات التي يحمد عليها، ومن أسمائه نبي الرحمة، ونبي الملحمة -يعني الجهاد في سبيل الله، والحاشر، والعاقب عليه الصلاة السلام الذي يحشر الناس بعد بعثته؛ لأنه آخر الرسل ﷺ فليس بعده إلا قيام الساعة، فبعد رسالته تقوم الساعة، ويحشر الناس للجزاء والحساب، ومن أراد أن يلم بهذه الأمور فليرجع إلى كتاب «جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام» للإمام ابن القيم رحمه الله.

وأما نسبه ، فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي

بن كلاب.

وهو من قبيلة قريش التي هي أشرف القبائل، وقريش من ذرية إسماعيل عليه الصلاة والسلام، والعرب علىٰ قسمين في المشهور:

العرب العاربة، وهم: القحطانية.

والعرب المستعربة، وهم: العدنانية من ذرية إسماعيل عليه السلام بن إبراهيم الخليل عليه السلام، سُمُّوا بالمستعربة؛ لأنهم تعلموا العربية من العرب العاربة لما جاءت جرهم، ونزلوا في مكة عند هاجر أم إسماعيل وابنها إسماعيل وهو صغير لما وجدوا ماء زمزم نزلوا، واصطلحوا مع هاجر أن ينزلوا عندها، وأن تسمح لهم أن يستقوا من الماء.

فإسماعيل عليه السلام كان رضيعًا في ذلك الوقت، ثم إنه تربىٰ ونشأ وأخذ العربية عن جرهم وهي من العرب العاربة، وتزوج من جرهم، وجاءه ذرية تعلموا العربية ونشئوا مع العرب، فصاروا عربًا مستعربة وهي العدنانية.

أما العاربة فهم القحطانية، أصلها من اليمن.

وبعض العلماء يقول: العرب العاربة علىٰ قسمين: عرب بائدة، وعرب باقية، العرب البائدة هم الذين هلكوا، وهم قوم نوح وعاد وثمود وشعيب.

أما العرب الباقية فهم الذين ينقسمون إلىٰ عرب عاربة، وعرب مستعربة وهي العرب الباقية، والنبي من بني هاشم، وهاشم من ذرية إسماعيل عليه الصلاة والسلام، واسمه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب.

وعبد المطلب، ليس هذا اسمه، اسمه شيبة، ولكن سمي عبد المطلب؛ لأن عمه المطلب بن عبد مناف جاء به من المدينة وهو صغير من أخواله بني النجار، فلما رآه الناس أسود من السفر ظنوا أنه عبد مملوك للمطلب، فقالوا: عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، وعبد مناف له أربعة أولاد: هاشم جد الرسول ﷺ، والمطلب، وعبد شمس، ونوفل.

بنو هاشم يقال لهم: الهاشميون، وبنو المطلب يقال لهم: المطلبيون، وأما عبد شمس فمنهم عثمان رضي الله عنه ومنهم بنو أمية، هؤلاء من بني عبد شمس.

ونوفل كذلك له ذرية منهم: جبير بن مطعم وحكيم بن حزام.

وإبراهيم -عليه الصلاة والسلام- له إسماعيل وهو الأكبر، وهو جد العرب العدنانية، وإسحاق وهو جد بني إسرائيل، وجميع الأنبياء كلهم من ذرية إسحاق إلا نبينا عليه الصلاة والسلام فهو من ذرية إسماعيل خاتم النبيين.

أما مولده: فقد ولدﷺ عام الفيل، وهو العام الذي جاء فيه أبرهة ملك اليمن، انتدبه ملك الحبشة ليهدم الكعبة ومعه فيل عظيم، فلما وصل إلىٰ مكان يقال له: المغمس، ولم يبق إلا أن يدخل مكة ويهدم الكعبة، وتفرق أهل مكة وصعدوا الجبال؛ لأنهم لا طاقة لهم به، فأراد أن يتوجه إلىٰ الكعبة، فانحبس الفيل، وأبىٰ أن يقوم من الأرض؛ حبسه الله، فإذا وجهه إلىٰ غير جهة مكة قام وهرول، وإذا وجهه إلىٰ جهة مكة انحبس ولم يستطع المشي، وبينما هم كذلك رأوا فرقان طير من قِبَل البحر معها حجارة، كل طائر معه حجران: حجر في منقاره وحجر في رجليه، فرمتهم فصارت الحصاة تضرب هامة الرجل، فتخرج من دبره وتشقه نصفين، فأهلكهم اللهﷻ فأنزل الله في ذلك يذكر قريشًا سورة الفيل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤﴾ من جهنم والعياذ بالله ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ۝٥﴾[الفيل:١-٥]، أصبحوا مثل التبن الذي أكلته الدواب وراثته.

هذه قصة الفيل، حمىٰ الله بيته الحرام، وأهلك هذا الجبار، وفي هذا العام ولد محمدﷺ وظهر مع ولادته آيات، حيث ظهر معه نور أشرقت له قصور الشام، وفي ليلة ولادته ارتجت الأصنام، وارتج إيوان كسرىٰ وسقطت منه شرفات في ليلة ولادة النبيﷺ هذه إرهاصات لبعثة النبيﷺ والجن والشياطين حصل عندهم ضجة في الليلة العظيمة.

ولد في مكان يقال له: شعب علىٰ مقربة من الكعبة، ولد في مكة، لكن لا يوجد تحديد ثابت لموضع الدار.

□قوله: (وَلَهُ مِنَ الْعُمُرِ: ثَلَاثٌ وَسِتُّونَ سَنَةً مِنْهَا أَرْبَعُونَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ...)

●فهو ولد في مكةﷺ، واسترضع في بني سعد عند حليمة السعدية، ومات عبد الله أبوه وهو في بطن أمه، ثم ماتت أمه بعد ولادته بقليل، فحضنته أم أيمن الحبشية التي ورثها عن أبيه، وصار في كفالة جده عبد المطلب.

ثم مات عبد المطلب وانتقلت كفالته إلىٰ عمه أبي طالب، وعاشﷺ أربعين سنة

قبل النبوة معروفًا بالأمانة والصدق والكرم، وتجنب عبادة الأصنام، وتجنب شرب الخمر، ما كان يعمل ما يعمله أهل الجاهلية، بل كان عليه الصلاة والسلام يخرج إلىٰ غار حراء ويتعبد فيه الأيام ذات العدد، يعبد الله علىٰ ملة إبراهيم علىٰ التوحيد.

ثم لما بلغ الأربعين من عمره -عليه الصلاة والسلام- نزل عليه الوحي، بأن جاءه جبريل وهو في غار حراء وقال له: «اقرأ، قال: ما أنا بقارئ -أي: لا أحسن القراءة- فضمه ضمة شديدة، ثم أرسله وقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ، ثم ضمه مرة ثانية، ثم أرسله وقال له: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ، فقال له: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ﴾ [العلق: ١، ٢]» (٢٤٥).

هذه هي نبوته ﷺ نبأه الله باقرأ: أي جعله نبيًا بذلك، ثم ذهب إلىٰ بيته يرتجف من الخوف؛ لأنه لقي شيئًا ما كان يعرفه من قبل، أمرًا هائلًا، فوجد زوجه خديجة رضي الله عنها فغطته وهدأته، وقالت له: كلا، والله لا يخزيك الله، إنك لتصل الرحم، وتقري الضيف، وتحمل الكل، وتعين علىٰ نوائب الدهر، فوطأته وذهبت به إلىٰ ابن عمها ورقة بن نوفل، وكان قد تحنث وقرأ في الكتب السابقة تعبدًا لله ﷻ فلما أخبره بما رأىٰ قال: هذا هو الناموس الذي كان ينزل علىٰ موسىٰ؛ يعني: جبريل عليه الصلاة والسلام.

□قوله: (وَأُرْسِلَ بِالْمُدَّثِّر وَبَلَدُهُ مَكَّةُ)

ثم نزل عليه قوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ ﴾ [المدثر: ١، ٢] هذا هو الإرسال وهذا معنىٰ قول الشيخ: نبأه باقرأ وأرسله بالمدثر.

والفرق بين النبي والرسول: أن النبي هو من أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه، والرسول هو من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه، وتوضيح ذلك: أن الرسول تنزل عليه شريعة وكتاب فهو نبئ باقرأ وأرسل بالمدثر علىٰ رأس الأربعين، وكذلك الأنبياء، والنبي يبعث بشرع من قبله، وكتاب من قبله، ويوحىٰ إليه ببعض المسائل كأنبياء بني إسرائيل من بعد موسىٰ.

والمدثر معناه: الملتحف ؛ لأنه ﷺ أصابه شيء من الفزع، فقال: دثروني دثروني؛ أي: غطوني، فأنزل الله عليه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ ﴾ [المدثر: ١-٣] أي:

(٢٤٥) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠)، وغيرهما من حديث عائشة رضي الله عنها.

عظمه ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾، أي: طهر أعمالك من الشرك، فالأعمال تسمى الثياب، قال الله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾[الأعراف:٢٦]، سمى التقوى لباسًا.

﴿وَٱلرُّجْزَ﴾، الرجز معناه: الأصنام.

﴿فَٱهْجُرْ﴾، أي: اتركها وابتعد عنها.

فبعثه الله على رأس الأربعين، وبقي في مكة ثلاث عشرة سنة يدعو الناس إلى التوحيد وترك عبادة الأصنام، وحصلت مداولات بينه وبين المشركين، حصل عليه أذى وعلى من آمن به واتبعه، وحصلت مضايقات من المشركين في خلال ثلاث عشرة سنة، وقبل الهجرة بثلاث سنوات أسري به إلى بيت المقدس وعرج به إلى السماء، وفرضت عليه الصلوات الخمس فصلى بمكة ثلاث سنين، ثم تآمرت قريش على قتله وعلى الفتك به، فأذن الله له بالهجرة إلى المدينة فهاجر إلى المدينة، بعدما التقى بالأنصار في بيعة العقبة الأولى وبيعة العقبة الثانية.

هاجر إلى المدينة وأقام بها عشر سنوات، فالمجموع ثلاث وعشرون سنة، بعد النبوة، عاش ﷺ ثلاثا وعشرين سنة، ثلاث عشرة في مكة يؤسس دعوة التوحيد، وعشر سنوات في المدينة، ثم توفاه الله على رأس الثالثة والستين من عمره عليه الصلاة والسلام، فمدة عمره في الرسالة ثلاثة وعشرون سنة، وهذه البركة التي أنزلها الله ﷻ عليه وهذا العلم الغزير، وهذا الجهاد، وهذا التمكين في هذه المدة الوجيزة -ثلاث وعشرين سنة-، هذا من آيات الله سبحانه وتعالى، ومن بركات هذا النبي ﷺ وبركات دعوته، وبركات الوحي الذي أنزل إليه، وقبل هذا كله بإعانة الله ﷻ وهو الذي أعانه، وهو الذي حماه وأيده ونصره حتى بلغت دعوته المشارق والمغارب، والحمد لله رب العالمين.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

❑ قوله: (الأَصْلُ الثَّالِثُ: مَعْرِفَةُ نَبِيِّكُم مُحَمَّدٍ ﷺ)

● المراد هاهنا بالمعرفة العلم به على نحو ما أوضحت لكم في الكلام على الأصل الأول، فمعرفة نبيكم محمد ﷺ معناه العلم به وبحاله؛ العلم بنسبه، وأنه من العرب، بل من أشرف العرب قبيلة، وأنه كان في عمره له كذا وكذا، نبئ وأرسل، قام داعيا يدعو إلى التوحيد، وينذر عن الشرك، وما يتصل بذلك من المباحث.

فحقيقة هذا الأصل العلم ببعض سيرة النبي ﷺ، وهذا العلم متعين لتكون الشهادة بأن محمدا رسول الله على علم ومعرفة، فإنه إذا قال أشهد أن محمدًا رسول الله، فإذا قيل له: من محمد هذا؟ فلم يعرفه، كانت شهادته مدخولة، ولهذا فإن معرفة هذا الأصل يكون به الجواب بتوفيق الله على سؤال القبر الثالث؛ ألا وهو من نبيك؟ يشهد المسلم أن محمدًا رسول الله، لكن هذه الشهادة يتبعها أن يكون عالمًا وعارفًا بمحمد هذا من هو عليه الصلاة والسلام.

❑ قوله: (وَهُوَ: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله بن عَبْدِ المُطَّلِب بن هَاشِمٍ، وهَاشِمُ مِن قُرَيش، وقُرَيش مِنَ العَرَب)

●فقال رحمه الله تعالى موضحًا هذا الأمر (وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم). تسميته عليه الصلاة والسلام بمحمد:

- قال طائفة من أهل العلم: لم يسم قبله عليه الصلاة والسلام في العرب أحد بهذا الاسم، وإنما كانت العرب تسمي أحمد، وتسمي حمد، وكل ذلك مشتق من الحمد، يعني رغبة في أن يكون هذا الولد من ذوي الحمد، ممن يحمده الناس على خصاله.

- وقال آخرون: بل العرب تسمت بمحمد، لكن قليل، إما اثنان أو ثلاثة، وهذا الثاني صحيح، إن صح النقل عن أهل التاريخ بتسمية أولئك النفر بمحمد، ممن هم في عصره عليه الصلاة والسلام، أو قبل ذلك بقليل.

محمد: معناه كثير الخصال التي يستحق عليها الحمد، فذو العرش محمود وهذا محمد؛ ذو العرش الله جل وعلا صفاته وأفعاله وأسمائه كلها يحمد عليها؛ يثنى عليه بها، وتسمية المولود بمحمد تسمية جد النبي عليه الصلاة والسلام له بمحمد، على رجاء أن يكون من أهل خصال الخير، التي يكثر من أجلها حمد الناس له عليها، وهذا كان وصار ظاهرًا، فإنه عليه الصلاة والسلام خصاله كلها، وصفاته كلها يحمد عليها؛ لأن خصاله عليه الصلاة والسلام خير؛ حتى ما كان منه قبل البعثة قبل النبوءة وقبل الرسالة. وقد كان كثير صفات الخير، فإذن التسمية بمحمد تسمية من قبيل التفاؤل، كانت العرب تعرف ذلك، كانوا يسمون خالدًا؛ تفاؤلًا بأن يكون من أهل المكث الطويل في الدنيا؛ يعني: من أهل الأعمار الطويلة، كانوا يسمون عاصيًا تفاؤلًا بأن يكون على أعدائهم من ذوي

العصيان، كانوا يسمون صخرًا؛ ليكون شديدًا كالصخر على أعدائهم... وهكذا، فكثير من العرب إذا سموا رأوا المعنى، وتسمية النبي عليه الصلاة والسلام لوحظ فيها ذلك، على رجاء أن يكون عليه الصلاة والسلام كثير الصفات التي يحمد عليها، وكان ما أمله جده في تسميته بمحمد، أمل ما أمله، فأعظم ذلك أنه كان عليه الصلاة والسلام رسولًا منزلًا من عند الله جل وعلا.

محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشي، وقريش أفضل العرب وصفوتهم، فأفضل قبائل العرب قريش، وهذا كما جاء في الحديث: «إن الله اصطفى قريشا من كنانة»(٢٤٦)، وأفضل قريش بنو هاشم، وأفضل بني هاشم محمد عليه الصلاة والسلام، فكما جاء في الحديث الصحيح قال بعد ذلك: «فأنا خيار من خيار من خيار»(٢٤٧). قريش من العرب، والمراد بالعرب العرب المستعربة؛ لأن العرب قسمان عند أهل النسب:

عرب عاربة: وهؤلاء انقرضوا إلا قحطان في اليمن.

وعرب مستعربة: وهم الذين لم يكونوا أصلًا من العرب، لكنهم دخلوا وصاروا عربًا بانفتاق لسانهم عن العربية، وبتكلمهم بالعربية، وأكثر قبائل العرب من هذا الجنس؛ العرب المستعربة وهم العرب، وقد جاء في الحديث الصحيح أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «أول من فتق لسانه بالعربية الفصحى إسماعيل عليه السلام»(٢٤٨) وذلك كما هو معلوم أن إسماعيل لما أتى به أبوه إبراهيم، وأتى بأمه وجعله في مكة، ناسب العرب فصار ملهمًا من عند الله جل وعلا بالانفتاق؛ بانفتاق اللسان عن العربية الفصحى، وهذا كما جاء في الحديث على أن كثير من أهل النسب ينازعون في هذا الأخير.

❑ قوله: (والعَرَبُ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ...)

● يعني: أن قبائل العرب، القبائل المعروفة؛ قريش، وهذيل، بنو تميم، بنو دوس إلى

---

(٢٤٦) سبق تخريجه.

(٢٤٧) سبق تخريجه.

(٢٤٨) أخرجه المناوي في فيض القدير (٢/١٦١)، و(٣/٩٢)، وصححه العلامة الألباني في «صحيح الجامع» (٢٥٨١).

آخره، أن هؤلاء جميعًا من ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، النسابون يصلون بالنسب تارات بأنساب القبائل إلى إسماعيل، ولكن المعروف عند العرب في عهد النبي ﷺ وقبله، أنهم يمكنهم وصل أنسابهم إلى عدنان، وأما بعد ذلك إلى إسماعيل فإنه لا يثبت ولا يمكن التصديق به.

العرب كثيرون، فالنبي عليه الصلاة والسلام بعث من العرب كما قال جل وعلا: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾[التوبة:١٢٨] ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾؛ يعني: من جنسكم، من قبائلكم من جنسكم العربي، ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾[التوبة:١٢٨] وقال جل وعلا: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾[آل عمران:١٦٤]، ونحو ذلك من الآيات؛ فإذن النبي عليه الصلاة والسلام ابن لعبد الله، وهو والده الأدنى، وابن لإسماعيل بن إبراهيم، وهو والده الأعلى، وهذان وهما عبد الله وإسماعيل هما الذبيحان، فقد جاء في حديث ضعيف السند لكنه صحيح المعنى، أنه قال: «أنا ابن الذبيحين»[٢٤٩] المراد بالذبيحين عبد الله؛ لأنه كما تعلمون قصة أبيه لما استقسم فنذر أن يذبح من خرج سهمه من ولده، ثم حصل قصة ما هو معروف؛ فصار ذبيحًا؛ يعني: قد كاد أن يذبح، إسماعيل كذلك، فهو الذي جاء فيه قول الله جل وعلا: ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾[الصافات:١٠٢] وهذا هو الصحيح، فإن الابن الذي استسلم لأبيه، صابرًا، محتسبًا، مطيعًا، لأبيه ومطيعًا لربه جل وعلا، هو إسماعيل أبو العرب.

واليهود تزعم أن الذبيح هو إسحاق، وهذا باطل؛ ذلك لأن الله جل وعلا قال في سورة الصافات: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾[الصافات:١٠١،١٠٢]، فوصف هذا الابن بأنه حليم، وهذا الوصف بالحلم في القرآن لإسماعيل عليه السلام، وأما إسحاق فإنه يوصف بأنه عليم؛ قال: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ هذا من صفة إسماعيل، ولهذا في هذه الآيات بعدها قال: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾[الصافات:١١٣]؛ فبشر بإسحاق بعد ذلك،

---

(٢٤٩) أخرجه الحاكم (٤٠٤٨)، وابن جرير في «تفسيره» (٥١٠/١٠)، وقال العلامة الألباني في «الضعيفة»(٣٣١): لا أصل له بهذا اللفظ.

فالصحيح أن النبي ﷺ هو ابن الذبيح عبد الله والده الأدنى، وهو ابن الذبيح إسماعيل والده الأعلى، وأما القول بأن الذبيح إسحاق، فإن هذا باطل، وإنما دسه اليهود في المسلمين، حتى كثر في كتب التفسير، حتى يأخذوا هذا الفخر وهو أن إسحاق عليه السلام هو الذي صبر، واحتسب واستسلم وابتلي بهذا البلاء العظيم.

قال: (والعرب من ذرية إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام) الخليل هو إبراهيم كما قال جل وعلا: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ۝١٢٥﴾[النساء:١٢٥]، ووصف بالخلة إبراهيم ونبينا محمد ﷺ فإبراهيم هو خليل الله، وموسى كليم الله، وأما محمد عليه الصلاة والسلام نبينا فإنه اجتمع فيه الوصفان اللذان خص بهما إبراهيم وموسى، فهو خليل الله، كما أن إبراهيم خليل الله، وهو كليم الله، كما أن موسى كليم الله، كلمه الله جل وعلا ليلة المعراج.

❑ قوله: (وَلَهُ مِنَ الْعُمُرِ: ثَلاثٌ وَسِتُّونَ سَنَةً)

● يعني: من مبدأ ميلاده إلى وفاته عليه الصلاة والسلام عمره ثلاث وستون سنة، ولد عليه الصلاة والسلام عام الفيل، العام المعروف، وعاش أربعين سنة، ثم بعد ذلك نبئ وبعدها أرسل، ولما مضى عليه بعد ذلك عشر سنين عرج به كما ذكر، وبعد ذلك بثلاث سنين ترك مكة إلى المدينة مهاجرًا، فصار عمره إذن حين الهجرة ثلاثا وخمسين سنة، ومكث في المدينة عشرة أعوام وأشهر، وصار عمره ثلاثا وستين سنة عليه الصلاة والسلام.

❑ قوله: (مِنْهَا أَرْبَعُونَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ، وثَلاثٌ وَعِشْرُونَ نَبِيًّا وَرَسُولاً)

● ثم فصل ذلك فقال: (منها أربعون قبل النبوة)؛ النبوة تسبق الرسالة، (أربعون قبل النبوة، وثلاث وعشرون نبيًا رسولًا) قال بعض أهل العلم: أنه عليه الصلاة والسلام مكث ثلاث سنين نبيًا، ثم عشرين سنة نبيًا رسولًا،

❑ قوله: (نُبِّئَ بِاقْرَأْ)

●لأنه كما قال الشيخ هنا: (نبئ باقرأ) قال: (أربعون قبل النبوة)، ثم قال:(نبئ) وهذان لفظان مختلفان الأول النبوة، والثاني: قال نبئ، نبئ من النبوءة بالهمز، ونبي من النبوة، وفرق بين النبوة والنبوءة، وفرق بين النبي والنبيء لغة، أما من حيث الشرع فالنبي والنبيء واحد، وهما قراءتان مشهورتان سبعيتان متواترتان بالقرآن كله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ

مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ﴾[التحريم:١]، القراءة الأخرى: «يا أيها النبيء لم تحرم ما أحل الله»، والنبيين، والقراءة الأخرى والنبيئين ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾[الأحزاب:١]، «يا أيها النبيء اتق الله»، قراءتان مشهورتان، أشهر من يقرأ بالنبي عاصم وأشهر من يقرأ بالنبيء نافع، النبوة من الارتفاع، كأنه صار في نبوة من المكان؛ يعني: في مرتفع منه، وسبب هذا الارتفاع الإنباء، والنبوءة من الإنباء أنبأه فصار نبيئًا؛ يعني: منبئًا قال: (نبئ بإقرأ) هذا من الإنباء، (نبي بإقرأ) لا يصلح؛ لأن نبي من الارتفاع، ليس من الإنباء والإخبار والإيحاء، نبي من الارتفاع فيقال: نبوة فإذا أردت الفعل تقول: نبئ، أنبئ؛ لأنه من الإنباء؛ فإذن نقول: يأيها النبي، السلام على النبي ورحمة الله وبركاته، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته؛ لأنه صار مرتفعًا عن غيره من أهل الأرض بما أوحى الله جل وعلا إليه، أو النبوءة وهي التي هنا قال (نبئ) بمعنى أوحي إليه منبئًا به، نبئ بإقرأ، قبل ذلك قال: (ثلاث وعشرون نبيًا رسولًا)،يعني: يريد بعضا منها نبيًا، وبعضا منها نبيًا رسولًا.

مر معنا الفرق بين النبي والرسول، وأن النبي هو من أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه، أو أمر بتبليغه لقوم موافقين، معلوم أنه إذا قلنا: لم يؤمر بتبليغه، أن هذا على سبيل الوجوب، لكن قد يبلغ ولا يكون التبليغ واجبًا عليه، فالنبي هو من أوحي إليه بشرع، يعني: بدين، وأمر بتبليغه أو لم يؤمر بتبليغه. إذا قلنا لم يؤمر بتبليغه؛ يعني: وجوبًا، وقد يبلغ ذلك استحبابًا، فالنبي عليه الصلاة والسلام قبل أن يرسل بالمدثر بلغ ما أوحى الله جل وعلا إليه، بلغه خاصته كأبي بكر، وكخديجة، ونحو ذلك. وهذا التبليغ على التعريف ليس على سبيل الوجوب، بل هذا من جهة الاستحباب، لأن هذه فترة النبوة، فإذا كان تعريف النبي هو من أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه، يعني: وجوبًا، أو أمر بتبليغه لقوم موافقين فإنه يكون تبليغه فيما لو بلغ يكون على وجه الاستحباب، ليس على وجه المطالبة من الله جل وعلا له بذلك، وقد يطالب؛ يؤمر بتبليغه، فإذا أمر بتبليغه لقوم يخالفونه، لقوم مشركين، فإنه يكون ذلك الأمر إرسالًا؛ ولهذا قال نبئ بـ(اقرأ) قال جل وعلا: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ ﴾[العلق:١] كما هو معروف في حديث عائشة المشهور أنها قالت -وهذا في أول «الصحيح»-: «أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء فكان يتحنث؛

أي: يتعبد الليالي ذوات العدد». وساقت خبر إتيانه بالوحي، ورجوعه إلىٰ خديجة، وما حصل في ذلك. فنبئ باقرأ جاءه الوحي، فقال: «ما أنا بقارئ»، قال: اقرأ، قال: «ما أنا بقارئ» ظن عليه الصلاة والسلام أن جبريل يريده أن يقرأ شيئًا مكتوبًا، فقال: «ما أنا بقارئ»، يعني: لست من أهل القراءة، خلافا لما قد يظن، أو ما حمل عليه بعضهم أن قوله: «ما أنا بقارئ»، لست بقارئ،يعني: لن أقرأ، ولم يرفض هذا الطلب عليه الصلاة والسلام، لكن قال: «ما أنا بقارئ»، يعني: لست بقارئ، لست من أهل القراءة، لأنه لا يقرأ ولا يكتب عليه الصلاة والسلام، فقال له مرة أخرىٰ: اقرأ. قال: «ما أنا بقارئ»[٢٥٠]، ثم جاءه في الأخيرة ككل مرة غطه، ثم قال ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤﴾[العلق:١-٤]، فنزل بها رسول الله ﷺ من غار حراء الذي كان يتحنث فيه يرجف بها فؤاده، حتىٰ أتىٰ خديجة، فقص عليها الخبر، فقالت له: كلا والله لا يخزيك الله أبدًا، إنك لتحمل الكل، وتعين علىٰ نوائب الدهر، وتصل الرحم. أو كما قالت، ثم قالت لورقة بن نوفل ما قاله لها عليه الصلاة والسلام، وقص عليه -عليه الصلاة والسلام- الخبر، فقال: هذا والله هو الناموس الذي كان يأتي موسىٰ. الناموس يعني ملك الوحي الذي كان يأتي موسىٰ، ليتني كنت فيها -يعني في مكة- حيًا، إذ يخرجك قومك، قال: أو مخرجي هم؟ قال: لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي. فما لبث ورقة أن توفي وفتر الوحي. أو كما جاء في الحديث، حديث عائشة المعروف المخرج في «الصحيحين»، وهو في أوائل «صحيح البخاري»[٢٥١].

نبئ بـ(اقرأ) فمكث فيها مدة، وهذه المدة فتر فيها الوحي، ثم بعد ذلك أرسل بالمدثر، أنزل الله جل وعلا عليه ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾[المدثر:١، ٢]، فصار الواجب هنا الإنذار، والإنذار يكون -كما سيأتي-، يكون لقوم وقعوا في شيء ينذرون عنه، فصار هذا علامة علىٰ الرسالة، ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ ينذر من؟ جاء مبينًا في الآية الأخرىٰ حيث قال: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾[الشعراء:٢١٤]، هذه كانت بداية الإرسال وبداية الإنذار. عليه الصلاة والسلام.

---

(٢٥٠) سبق تخريجه.

(٢٥١) إشارة إلىٰ ما أخرجه البخاري (٣).

❑ قوله: (وَأُرْسِلَ بِالمُدَّثِّرِ)

● أرسل؛ يعني: صار رسولًا بنزول أول سورة المدثر عليه.

❑ قوله: (وَبَلَدُهُ مَكَّةَ)

● هو من أهل مكة عليه الصلاة والسلام؛ فقد كان يقول في مكة: «إنك لأحب بلاد الله إلي ولولا أن قومك أخرجوني ما خرجت منك»[٢٥٢] بلده مكة، وكان عليه الصلاة والسلام يحبها، وذكر لما هاجر إلى المدينة أو قبل ذلك -وهي مِنَى الآن- قال: «إني لأعرف حجرًا بمكة ما لقيته إلا سلم علي»[٢٥٣] كانت أحجار مكة تحبه عليه الصلاة والسلام، وهذا الحجر بخصوصه أنطقه الله للسلام عليه، عليه الصلاة والسلام قال: «إني لأعرف حجرًا بمكة ما مررت عليه إلا سلم علي»[٢٥٤]؛ يعني: بصريح السلام: السلام عليك يا رسول الله.

(وبلده مكة) وهذه البلد هي التي نبئ فيها، وهي التي أرسل فيها، وهي التي بها عشيرته وقومه وأهله وقرابته، وبعثه الله جل وعلا ينذر ويبشر ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ① قُمۡ فَأَنذِرۡ ②﴾[المدثر:١، ٢]، أوضح الشيخ هنا قال: (بعثه الله بالنذارة عن الشرك يدعو إلى التوحيد)، ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ ②﴾ ينذر عن أي شيء؟ ينذر عن الشرك، يخوف، الإنذار إعلام فيه تخويف عن شيء يمكن تداركه، لكن وقت تداركه يطول بخلاف الإشعار، هناك عندنا ثلاثة ألفاظ: إعلام، إنذار، إشعار:

الإعلام: مجرد إيصال العلم؛ خبر.

الإنذار: إعلام فيه تخويف، وهناك فترة يمكن تصحيحها.

الإشعار: إعلام فيه تخويف، لكن مدة استدراكه قليلة كما قال الشاعر:

أنـــذرت عمـــرًا وهـــو فـــي مهـــل   قبـــل الـــصباح فقـــد عـــصىٰ عمـــرو

فدل على أن الإنذار يكون بعده مدة يمكن الاستدراك بها، (ينذر عن الشرك) أيضًا

---

(٢٥٢) أخرجه الترمذي (٣٩٢٦)، من حديث ابن عباس ﷺ، وصححه العلامة الألباني في «صحيح سنن الترمذي»

(٢٥٣) أخرجه مسلم (٢٢٧٧)، والترمذي (٣٦٢٤)، وغيرهم من حديث جابر بن سمرة ﷺ.

(٢٥٤) سبق فيما قبله.

يخوف من النار، يخوف من عذاب الله، يخوف من سخط الله، كما قال جل وعلا: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۝﴾[فصلت:١٣] فإذا الإنذار يكون عن الشرك، وعما يكون عقابًا لأهل الشرك من أنواع العقوبات، في الدنيا بالهلاك والاستئصال، وفي الآخرة بالعذاب والنكال.

الدرس السابع عشر:

[بعثة النبي ﷺ]

بَعَثَهُ الله بِالنِّذَارَة عنِ الشِّرْكِ، ويَدْعو إِلَىٰ التَّوْحِيدِ. والدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ[٢٥٥] ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾[المدثر:١-٧]. ومَعْنَىٰ ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾[المدثر:٢]: يُنْذِرُ عَنِ الشِّرْكِ ويَدْعُو إِلَىٰ التَّوْحِيدِ. ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾[المدثر:٣] أي: عَظِّمه بِالتَّوْحِيدِ، ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾[المدثر:٤] أَيْ: طَهِّرْ أَعْمَالَكَ عِنِ الشِّرْكِ. ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾[المدثر:٥] الرُّجْزُ: الأَصْنَامُ وَهَجْرُهَا تَرْكُهَا، والبَرَاءَةُ مِنْهَا وَأَهْلِهَا.

أَخَذَ عَلَىٰ هَذَا عَشْرَ سِنِينَ يَدْعُو إِلَىٰ التَّوْحِيدِ وَبَعْدَ العَشْرِ عُرِجَ بِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ.وَفُرِضَتْ عَلَيْهِ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَصَلَّىٰ فِي مَكَّةَ ثَلاثَ سِنِينَ.

الشرح

قال العلامة ابن باز:

☐قوله: (أَخَذَ عَلَىٰ هَذَا عَشْرَ سِنِينَ يَدْعُو إِلَىٰ التَّوْحِيدِ)

● أخذ علىٰ هذا الأمر عشر سنين، يدعو إلىٰ التوحيد، ويحذر من الشرك، ويأمر بخلع عبادة ما سوىٰ الله سبحانه، وترك عبادة الأصنام والأوثان، ويأمرهم أن يخصوا الله بالعبادة في دعائهم ونذرهم وذبائحهم وغير ذلك.

☐قوله: (وَبَعْدَ العَشْرِ عُرِجَ بِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ)

● ثم بعد العشر عُرج بهﷺ إلىٰ السماء مع جبرائيل، وفتحت له السماوات إلىٰ موضع رفيع فوق السماء السابعة، حتىٰ سمع فيه صريف الأقلام، ثم ناداه الله -جل وعلا- وكلمه، وفرض عليه الصلوات الخمس، فرضها خمسين صلاة ثم لم يزل يطلبه التخفيف حتىٰ جعلها الله خمسًا، فقال الله سبحانه: هي خمس في العدد، وهي خمسون في أم

(٢٥٥) أي: قم يا أيها الذي تدثر بثيابه وتغشىٰ بها من الرعب الذي حصل له من رؤية الملك عند نزول الوحي، كما في الحديث الوارد في سبب النزول[الدمشقي].

الكتاب، فمن حافظ على الصلوات الخمس وأداها، كتب الله له أجر خمسين، فالحسنة بعشر أمثالها؛ فنزل بذلك -عليه الصلاة والسلام-، فاستقرت الصلاة خمس صلوات في اليوم والليلة: الظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، والفجر. صلاهم في مكة ثلاث سنين قبل أن يهاجر.

قال العلامة ابن قاسم:

❑ قوله: (بَعَثَهُ الله بِالنِّذَارَة عنِ الشِّرْكِ، وَيَدْعو إِلَى التَّوْحِيدِ)

● ذكر المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ جملة مما يعرف به النبي ﷺ، وأعظمها وأعلاها معرفة ما بعث به ﷺ، وأنه بعث بالنذارة عن الشرك والدعوة إلى التوحيد، وقدم المصنف النذارة عن الشرك قبل الدعوة إلى التوحيد؛ لأن هذا مدلول كلمة التوحيد (لا إله إلا الله)، ولأن الآية الآتية تقتضي ذلك، فبدأ بجانب الشرك لكون العبادة لا تصح مع وجود المنافي، فلو وجدت والمنافي لها موجود لم تصح، ثم ثنى بالتوحيد؛ لأنه أوجب الواجبات، ولا يرفع عمل إلا به.

❑ قوله: (والدليل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾)

● هذه أول آية أرسل بها، وأول أمر طرق سمعه في حال إرساله ﷺ، وذلك أنه ﷺ لما رأى الملك الذي جاءه بحراء حين أنزل عليه: ﴿ٱقْرَأْ﴾ رعب منه، فأتى إلى أهله فقال: «دثروني»[٢٥٦] فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾؛ أي: المتدثر بثيابه، المتغشي بها من الرعب الذي حصل من رؤية الملك عند نزول الوحي: ﴿قُمْ﴾؛ أي: من دثارك فأنذرهم وحذرهم من عذاب ربك إن لم يؤمنوا،و بهذا حصل الإرسال، كما حصل بالأول النبوة.

❑ قوله: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾

● أي: عظم ربك عما يقوله عبدة الأوثان.

❑ قوله: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾

● أي: نفسك طهرها عن الذنوب، كنى عن النفس بالثوب؛ لأنها تشتمل عليه، وهذا قول المحققين من أهل التفسير، أو عملك فأصلح، وفسر بغير ذلك.

---

(٢٥٦) سبق تخريجه.

❑ قوله: ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥﴾

● أي: اترك الأوثان ولا تقربها، ﴿وَٱلرُّجۡزَ﴾: القذر؛ مثل الرجس. وقال تعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾[الحج:٣٠]، بل فسر المصنف رحمه الله هذه الآيات بما فيه كفاية.

❑ قوله: ﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦﴾

● أي: لا تعط مالك مصانعة لتعطى أكثر منه، أو لا تمنن على الله بعملك فتستكثره، أو لا يكثر من عملك في عينك، أو لا تضعف أن تستكثر من الخير.

❑ قوله: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ۝٧﴾

● أي: على طاعته وأوامره أو على ما أوذيت في الله.

❑ قوله: (ومعنى: ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢﴾: يُنْذِرُ عَنِ الشِّرْكِ وَيَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ)

● فإن الشرك أعظم ذنب عصي الله به، ولا يرفع معه عمل، والتوحيد أوجب الواجبات، وأول دعوة الرسل من أولهم إلى آخرهم: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾[الأعراف:٥٩]، فشمر ﷺ عن ساق العزم وأنذر الناس، وعم وخص وأوذي على ذلك هو ومن اتبعه، وجرى للمصنف -مجدد هذه الدعوة رحمه الله- نحو مما جرى عليه ﷺ هو وأصحابه، وصبروا، وكانت لهم العاقبة، وأظهر الله الدين بعد دروسه على يديه وأتباعه، فلله الحمد والمنة، وجزاه الله -ومن آواه ونصره- عن الإسلام والمسلمين أحسن الجزاء.

❑ قوله: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣﴾ أي: عَظِّمه بِالتَّوْحِيدِ)

● فهو سبحانه الإله الحق لا ند له ولا مثل له، فلا شريك له في إلهيته ولا في ربوبيته، بل هو المستحق أن يعبد وحده لا يشرك معه أحد في عبادته، فإن الشرك مع كونه أظلم الظلم فهو هضم للربوبية، وتنقص للألوهية، وسوء ظن برب العالمين.

❑ قوله: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤﴾ أي: طَهِّرْ أَعْمَالَك عِنِ الشِّرْكِ)

● وهو أعظم ذنب عصي الله به، أو طهر نفسك مما يستقذر من الأقوال والأفعال.

❑ قوله: ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥﴾ الرُّجْزُ: الأَصْنَامُ)

● قال ابن عباس وغيره من المفسرين، ويقال: الشرك، ويقال: الزاي منقلبة عن السين، ويدل عليه قوله: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾[الحج:٣٠]، وقال ابن

عباس أيضًا: اترك المآثم، والمعنى: اترك كل ما أوجب العذاب من الأقوال والأفعال.

❑ قوله: (وَهَجْرُهَا: تَرْكُهَا)

● والإعراض عنها، وهجر الشيء يهجره، صرمه وقطعه، والهجر: ضد الوصل، فالنبي ﷺ أمر بترك الأوثان ومباعدتها ومصارمتها وجميع المآثم.

❑ قوله: (والبَرَاءَةُ مِنْهَا وَأَهْلِهَا)

● قال تعالى عن الخليل: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[مريم:٤٨]، ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[مريم:٤٩]، فلا يتم توحيد العبد حتى يتبرأ من الكفر وأهل الكفر ويباعدهم وينابذهم.

❑ قوله: (أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ يَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ)

● أي: أخذ رسول الله ﷺ في بيان التوحيد والدعوة إليه، وبيان الشرك والإنذار عنه، والتحذير منه عشر سنين، قبل فرض الصلاة التي هي عماد الدين، وقبل بقية الشرائع، وبهذا يتبين لك حقيقة ما بعث به النبي ﷺ ودعت إليه الرسل كلهم هو الإنذار عن الشرك، والنهي عنه، والدعوة إلى التوحيد، وبيانه وتوضيحه، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾[الأنبياء:٢٥]،وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[النحل:٣٦]، وقال عن نوح وهود وصالح وشعيب: أول شيء بدأوا به قومهم أن قالوا: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾[الأعراف:٥٩]، وخاتمهم محمد ﷺ، أول شيء دعاهم إليه أن قال: «قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا»[٢٥٧]، فقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾[ص:٥]، وقال ﷺ لمعاذ لما بعثه إلى اليمن: «فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله»[٢٥٨] وفي رواية «إلى أن يوحدوا الله»[٢٥٩] ، وفي رواية: «فادعهم إلى توحيد الله»[٢٦٠]، وهذه الروايات يفسر بعضها بعضا، فالنبي ﷺ إنما بعث بالدعوة إلى التوحيد؛ وذلك لأنه أساس

(٢٥٧) أخرجه أحمد (٤٩٢/٣)، والحاكم (٣٩)، وغيرهما من حديث ربيعة بن عباد الديلي ﷺ.

(٢٥٨) أخرجه البخاري (١٣٩٥)، ومسلم (١٩)، وغيرهما من حديث ابن عباس ﷺ.

(٢٥٩) أخرجه البخاري (٧٣٧٢).

(٢٦٠) أخرجه الدارقطني (١٣٦/٢) من حديث ابن عباس ﷺ، وفي سنده: «سعيد بن مسلمة» ضعيف.

الملة الذي تبنى عليها، وبدونه لا يبني شيء من الأعمال، فالتوحيد هو الأصل، وبقية شرائع الدين فرع عنه، فإذا زال الأصل زال الفرع، فأي بيان أبين من هذا؟ على أن التوحيد أوجب الواجبات، ومعرفته أفرض الفرائض، كونه ﷺ أخذ عشر سنين يدعو إلى التوحيد، وينذر عن الشرك قبل أن تفرض عليه الفرائض.

❑ قوله: (وَبَعْدَ العَشْرِ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ)

● أسري بجسده ﷺ وروحه جميعًا من المسجد الحرام على البراق إلى البيت المقدس يقظةً لا منامًا، كما أخبر الله عنه، ثم صعد به جبرائيل إلى السماء على المعراج، وهو المصعد الذي تصعد فيه الملائكة، كلما مر بسماء تلقاه مقربوها حتى جاوزهم إلى سدرة المنتهى، فبلغ من الارتفاع والعلو إلى ما الله به عليم، ودنا من الجبار ﷻ، وكلَّمَهُ بلا واسطة، فأوحى إليه ما أوحى.

❑ قوله: (وَفُرِضَتْ عَلَيْهِ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ)

● وكان أول فرضها خمسين صلاة، ولم يزل يتردد بين موسى وربه حتى وضعها إلى خمس، وقال: «هي خمس، وهي خمسون..الحسنة بعشر أمثالها»(٢٦١)، ثم هبط إلى البيت المقدس وهبط الأنبياء معه، وأمَّهم في بيت المقدس، ثم ركب البراق ورجع إلى مكة، وحدثهم عما رآه مسيره صلوات الله وسلامه عليه.

❑ قوله: (وَصَلَّى فِي مَكَّةَ ثَلاثَ سِنِينَ)

● يعني: بعد أن عرج به وفرضت عليه قبل الهجرة، كما هو ظاهر في سياق ابن إسحاق: أن الإسراء قبل الهجرة بثلاث سنين، وقيل: سنة، وقيل: ونصف، وقيل: بخمس؛ فالله أعلم.

<u>قال العلامة العثيمين:</u>

❑ قوله: (بَعَثَهُ الله بِالنِّذَارَة عنِ الشِّرْكِ، ويَدْعو إِلَى التَّوْحِيدِ)

● أي: ينذرهم عن الشرك ويدعوهم إلى توحيد الله ﷻ في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

---

(٢٦١) أخرجه البخاري (٣٨٨٧)، ومسلم (١٦٢)، وغيرهما من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

❑ قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ①﴾

●النداء لرسول الله ﷺ

❑ قوله: ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ ②﴾

●يأمر اللهﷻ نبيه ﷺ أن يقوم بجد ونشاط وينذر الناس عن الشرك ويحذرهم منه وقد فسر الشيخ هذه الآيات.

❑ قوله: (أَخَذَ عَلَىٰ هَذَا عَشْرَ سِنِينَ يَدْعُو إِلَىٰ التَّوْحِيدِ وَبَعْدَ العَشْرِ عُرِجَ بِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ)

●أي: أن النبي ﷺ بقي عشر سنين يدعو إلىٰ توحيد اللهﷻ وإفراده بالعبادة سبحانه وتعالىٰ.

❑ قوله: (وَبَعْدَ العَشْرِ عُرِجَ بِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ)

●العروج: الصعود ومنه قوله تعالىٰ: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾ [المعارج:٤] وهو من خصائص النبي ﷺ العظيمة التي فضله الله به قبل أن يهاجر من مكة،فبينما هو نائم في الحجر في الكعبة أتاه آتٍ فشق ما بين ثغرة نحره إلىٰ أسفل بطنه ثم استخرج قلبه فملأه حكمةً وإيمانًا تهيئة لما سيقوم به ثم أتي بدابة بيضاء دون البغل وفوق الحمار يقال لها: البراق يضع خطوه عند منتهىٰ طرفه فركبه ﷺ ويصحبته جبريل الأمين حتىٰ وصل بيت المقدس فنزل هناك وصلىٰ بالأنبياء إمامًا، بكل الأنبياء والمرسلين يصلون خلفه؛ ليتبين بذلك فضل رسول الله ﷺوشرفه وأنه الإمام المتبوع، ثم عرج به جبريل إلىٰ السماء الدنيا فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟

قال: نعم. قيل: مرحبًا به فنعم المجيء جاء ففتح له فوجد فيها آدم فقال جبريل: هذا أبوك آدم فسلم عليه، فَسَلَّم عليه فردﷺ، وقال: مرحبًا بالابن الصالح والنبي الصالح، وإذا علىٰ يمين آدم أرواح السعداء وعلىٰ يساره أرواح الأشقياء من ذريته، فإذا نظر إلىٰ اليمين سُرَّ وضحك وإذا نظر قبيل شماله بكىٰ، ثم عرج به جبريل إلىٰ السماء الثانية فاستفتح. إلخ.

فوجد فيها يحيىٰ وعيسىٰ عليهما الصلاة والسلام وهما ابنا الخالة كل واحد منهما ابن خالة الآخر فقال جبريل: هذان يحيىٰ وعيسىٰ فسلِّم عليهما، فسلَّم عليهما فردا السلام

وقالا: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم عرج به جبريل إلى السماء الثالثة فاستفتح... إلخ. فوجد فيها يوسف عليه الصلاة والسلام فقال جبريل: هذا يوسف فسلم عليه فسلم عليه، فرد السلام، وقال: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم عرج به جبريل إلى السماء الرابعة فاستفتح... إلخ فوجد فيها إدريسﷺ فقال جبريل: هذا إدريس فسلم عليه فسلم عليه فرد السلام، وقال: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح ثم عرج به جبريل إلى السماء الخامسة فاستفتح.... إلخ. فوجد فيها هارون بن عمران أخا موسىﷺ فقال جبريل: هذا هارون فسلم عليه، فسلم عليه فردﷺ وقال: مرحبًا بالأخ الصالح، والنبي الصالح ثم عرج به جبريل إلى السماء السادسة فاستفتح.... إلخ. فوجد فيها موسىﷺ فقال جبريل: هذا موسى فسلم عليه، فسلم عليه فردﷺ وقال: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح فلما تجاوزه بكى موسى فقيل له: ما يبكيك قال: أبكي لأن غلامًا بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي فكان بكاء موسى حزنًا على ما فات أمته من الفضائل لا حسدًا لأمة محمدﷺ، ثم عرج به جبريل إلى السماء السابعة فاستفتح... إلخ. فوجد فيها إبراهيم خليل الرحمنﷺ فقال جبريل: هذا أبوك إبراهيم فسلم عليه، فسلم عليه فردﷺ وقال: مرحبًا بالابن الصالح والنبي الصالح. وإنما طاف جبريل برسول اللهﷺ، على هؤلاء الأنبياء تكريمًا له وإظهارًا لشرفه وفضلهﷺ، وكان إبراهيم الخليل مسندًا ظهره إلى البيت المعمور في السماء السابعة الذي يدخله كل يوم سبعون ألفًا من الملائكة يتعبدون ويصلون ثم يخرجون ولا يعودون، في اليوم الثاني يأتي غيرهم من الملائكة الذين لا يحصيهم إلا الله، ثم رفع النبيﷺ إلى سدرة المنتهى فغشيها من أمر الله من البهاء والحسن ما غشيها حتى لا يستطيع أحد أن يصفها من حسنها، ثم فرض الله عليه الصلاة خمسين صلاة كل يوم وليلة فرضي بذلك وسلّم ثم نزل فلما مرّ بموسى قال: ما فرض ربك على أمتك؟ قال: خمسين صلاة في كل يوم. فقال: إن أمتك لا تطيق ذلك وقد جربت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك. قال النبيﷺ: «فرجعت فوضع عني عشرًا وما زال يراجع ربه حتى استقرت الفريضة على خمس، فنادى مناد أمضيت فريضتي وخففت على عبادي». وفي هذه الليلة أدخل النبيﷺ الجنة فإذا فيها قباب اللؤلؤ وإذا ترابها المسك ثم

نزل رسول الله ﷺ حتى أتى مكة بغلس وصلى فيها الصبح.[٢٦٢]

❑ قوله: (وَصَلَّىٰ فِي مَكَّةَ)

●وكان يصلي الرباعية ركعتين حتى هاجر إلى المدينة فأقرت صلاة السفر وزيد في صلاة الحضر.

قال العلامة الفوزان:

❑قوله: (بَعَثَهُ الله بِالنِّذَارَة عنِ الشِّرْكِ، ويَدْعو إِلَىٰ التَّوْحِيدِ)

هذه دعوته ﷺ النذارة عن الشرك، والدعوة إلى التوحيد، وهذا الذي يجب أن يسير عليه الدعاة في دعوتهم: أن يركزوا على الإنذار عن الشرك، والدعوة إلى التوحيد قبل كل شيء، وإلا لم تكن دعوتهم على منهج الرسول ﷺ.

الرسول ﷺ بعثه الله بالنذارة عن الشرك والدعوة إلى التوحيد، فلا بد من تأصيل هذا الشيء أولًا، ثم بعد ذلك يتجه إلى بقية الأمور؛ لأنها لا تصلح الأمور إلا بوجود التوحيد، لو أن الناس تركوا الزنا، والخمر، والسرقة، واتصفوا بكل فضيلة من الأعمال والأخلاق لكنهم لم يتركوا الشرك؛ فلا فائدة من هذه الأمور ولا تنفعهم، بينما لو سلم الإنسان من الشرك وعنده كبائر دون الشرك فهو مرجو أن يغفر الله له، أو يعذب بقدر ذنوبه، ولكن مآله إلى الجنة؛ لأنه موحد.

فالتوحيد هو الأصل والأساس، ولا نجاة إلا بوجود التوحيد أولًا؛ ولذلك يجب التركيز عليه، والعناية به دائمًا وأبدًا، ودعوة الناس إليه وتعليم الناس إياه، وأن يبين لهم التوحيد ما معنى التوحيد، وما معنى الشرك، لا بد أن يعرف المسلم هذا الأمر ويتحقق منه، ويتفقد نفسه حتى لا يقع في شيء من الشرك أو يخل بالتوحيد، فلا بد من هذا الأمر، ولا بد أن تقوم الدعوة على هذا الأساس.

❑قوله: (أَخَذَ عَلَىٰ هَذَا عَشْرَ سِنِينَ يَدْعُو إِلَىٰ التَّوْحِيدِ)

●أي: أخذ على دعوة الناس إلى التوحيد والإنذار عن الشرك عشر سنين في مكة، وهو يدعو إلى التوحيد وينهى عن الشرك؛ لأنهم كانوا يعبدون الأصنام، والحكمة أن الله بعثه في مكة؛ لأن مكة هي أم القرى التي ترجع إليها القرى، والله جل وعلا يقول: ﴿وَمَا

(٢٦٢) أخرجه البخاري (٣٢٠٧)، وغيره من حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه.

كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا ﴾[القصص:٥٩]، والأم: هي المرجع الذي يرجع إليه، الأصل الذي يرجع إليه، هذا هو الأم.

قوله تعالىٰ: ﴿ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾[آل عمران:٧]؛ أي: الأصل الذي ترد إليه الآيات المتشابهات.

كذلك مكة -شرفها الله- هي الأصل الذي يرجع إليه أهل الأرض، والمسلمون في أقطار الأرض يرجعون إلىٰ مكة، فهي أم القرىٰ بمعنىٰ هي المرجع؛ ولذلك بعث الله نبيه ﷺ من مكة؛ لأنها أم القرىٰ، ومكث فيها ثلاث عشرة سنة، ينهىٰ أهل مكة عن الشرك ويأمرهم بالتوحيد؛ لأن أهل مكة هم القدوة لغيرهم؛ ولهذا يجب أن تبقىٰ مكة إلىٰ قيام الساعة دارًا للتوحيد ومنارًا للدعوة إلىٰ الله، وأن يبعد عنها كل ما يخالف ذلك، يبعد عنها الشرك والبدع والخرافات؛ لأن الناس ينظرون إليها دائمًا وأبدًا، ما يفعل فيها ينتشر في العالم، فإن كان ما يفعل فيها خيرًا انتشر الخير، وإن كان علىٰ عكس ذلك انتشر الشر.

فيجب أن تطهر مكة دائمًا وأبدًا؛ ولهذا يقول جل وعلا: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ ﴾[البقرة:١٢٥]، فيجب أن تطهر مكة من كل ما يخالف الإسلام حتىٰ يصدر منها الدين والدعوة إلىٰ مشارق الأرض ومغاربها؛ لأن الله بعث نبيه فيها، ويبدأ دعوته فيها عليه الصلاة والسلام، مكث النبي ﷺ في مكة ثلاث عشرة سنة، منها عشر يدعو إلىٰ التوحيد وينهىٰ عن الشرك، ولم يؤمر بشيء غير ذلك، لم يؤمر بصلاة، ولا زكاة، ولا صيام، ولا حج، بل كانت دعوته مقتصرة علىٰ التحذير من الشرك والأمر بالتوحيد، يقول لهم: «قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا»، وهم يقولون: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ ﴾[ص:٥].

☐قوله: (وَبَعْدَ الْعَشْرِ عُرِجَ بِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ)

●بقي ﷺ عشر سنين علىٰ هذا ينهىٰ عن الشرك ويدعو إلىٰ التوحيد، يؤسس هذا الأساس، ثم في السنة الحادية عشرة أسري به من المسجد الحرام إلىٰ المسجد الأقصىٰ.

قال تعالىٰ: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ﴾[الإسراء:١]، بينما هو ﷺ نائم في بيت أم هانئ جاءه جبريل -عليه الصلاة

والسلام- ومعه دابة يقال لها: «البراق»، أقل من البغل وفوق الحمار، ويقع خطوه عند مد بصره، فأركبه ﷺ عليها، وذهب به إلى بيت المقدس في الليل.

أسرى: من السرى وهو: السير بالليل، وهذا من خواصه ﷺ ومن معجزاته عليه الصلاة والسلام، فالتقى هناك مع الأنبياء في بيت المقدس، ثم إنه ﷺ عُرِجَ به إلى السماء؛ يعني: رفع من بيت المقدس إلى السماء بصحبة جبريل، ومعنى العروج: الصعود.

فأُسْرِيَ به من مكة إلى بيت المقدس، وعرج به من بيت المقدس إلى السماء؛ يعني: صعد به جبريل ﷺ ومر بأهل السماوات، كل سماء يستفتح جبريل فيفتح له، ثم انتهى إلى السماء السابعة.

ثم صعد فوق السماوات إلى سدرة المنتهى، وعندها كلمه الله ﷻ من وحيه بما شاء، ففرض عليه الصلوات الخمس، فرضها في اليوم والليلة خمسين صلاة، ولكن موسى ﷺ أشار على نبينا محمد ﷺ بأن يسأل ربه التخفيف، فإن أمته لا تطيق خمسين صلاة في اليوم والليلة، فما زال رسول الله ﷺ يراجع ربه يسأله التخفيف حتى انتهت إلى خمس.

فقال الله ﷻ كما في حديث الإسراء والمعراج: «أمضيت فريضتي، وخففت عن عبادي، وأجزي الحسنة عشر»[٢٦٣].

وفي رواية أنس عن أبي ذر فقال: «هي خمس وهي خمسون»[٢٦٤] أي: خمس في العمل، وخمسون في الميزان.

خمس صلوات في اليوم والليلة تعادل خمسين صلاة في الميزان؛ لأن الحسنة بعشر أمثالها، فالصلاة الواحدة عن عشر صلوات، فالإسراء ذكر أول سورة سبحان، سورة بني إسرائيل، والمعراج ذكر أول سورة النجم: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾[النجم:١٣-١٨] هذا في المعراج.

ثم إنه نزل من السماء إلى بيت المقدس، ثم إنه رجع إلى مكة في ليلته، فلما أصبح وأخبر الناس بذلك، المؤمنون زاد إيمانهم، وأما الكفار فزاد شرُّهم، وفرحوا بهذا وراحوا

---

(٢٦٣) أخرجه البخاري (٣٢٠٧)، وغيره من حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه.

(٢٦٤) سبق تخريجه.

يشهرون به، كيف يزعم صاحبكم أنه ذهب إلىٰ بيت المقدس ورجع منه في ليلة واحدة، ونحن نضرب أكباد الإبل إليها شهرًا ذهابًا، وشهرًا إيابًا، يقيسون قدرة الخالق بقدرة المخلوق؛ فكان الإسراء والمعراج امتحانًا من اللهﷻ للناس، المشركون زاد تندرهم وشرهم وتنقصهم للرسول ﷺ والمؤمنون زاد إيمانهم.

فلهذا لما قال المشركون لأبي بكر الصديقرضي الله عنه: انظر إلىٰ صاحبك ماذا قال؟

قال: وماذا قال؟

قالوا: يزعم أنه ذهب به إلىٰ بيت المقدس وعرج به إلىٰ السماء، وإنه جاء في ليلة واحدة.

قال أبو بكر الصديق: إن كان قاله فهو كما قال، لقد صدق.

قالوا: كيف ذلك؟

قال: أنا أصدقه في ما هو أعظم من ذلك، أنا أصدقه في خبر السماء ينزل عليه؛ فكيف لا أصدقه في الإسراء إلىٰ بيت المقدس.

وهذا بقدرة اللهﷻ لا بقدرة الرسول ﷺإنما هو بقدرة اللهﷻ وهذا من معجزات هذا الرسول ﷺومن كرامته عند ربهﷻ.

ولابد من الاعتقادات بأنه ﷺأسري وعرج بروحه وجسمه معًا يقظة لا منامًا؛ لأن بعض الناس يقولون: أسري بروحه، وأما جسده فلم يبرح مكة، وإنما أسري وعرج بروحه وهذا كلام باطل، بل إنه أسري بروحه وجسده - عليه الصلاة والسلام - وحمل علىٰ البراق، وكان ذلك يقظة لا منامًا ؛ إذ لو كان بروحه فقط أو كان منامًا فما الفرق بينه وبين الرؤيا، والله جل وعلا يقول: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ [الإسراء:١]

فالعبد يطلق علىٰ الروح والبدن جميعًا، لا يطلق علىٰ الروح وحدها أنها عبد، ولا يطلق علىٰ البدن وحده أنه عبد، لا يطلق إلا علىٰ مجموع الروح والبدن، لم يقل: سبحان الذي أسرىٰ بروح عبده، بل قال: أسرىٰ بعبده، والعبد هو مجموع الروح والبدن، والله - جل وعلا - لا يعجزه شيء وهو القادر علىٰ كل شيء.

❑قوله: (وَفُرِضَتْ عَلَيْهِ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ وَصَلَّىٰ فِي مَكَّةَ ثَلاثَ سِنِينَ)

●وكان يصليها ركعتين ركعتين فلما هاجر النبي ﷺأتمت الرباعية إلىٰ أربع إلا

الفجر فإنها تطول فيها القراءة فبقيت ركعتين كما هي، وإلا المغرب فإنه ثلاث من أول ما فرضت ؛ لأنها وتر النهار، أما الظهر، والعصر، والعشاء، وكانت في مكة ركعتين ركعتين فلما هاجر النبيﷺ أتمت أربع ركعات.

كما في الحديث: «أول ما فرضت الصلاة ركعتين، فلما هاجر النبيﷺ أتمت صلاة الحضر وبقيت صلاة السفر»(٢٦٥)، هذا بإجماع أهل العلم: أن الصلاة فرضت بمكة، وأن النبيﷺ صلاها بمكة، لكن اختلفوا هل هي فرضت قبل الهجرة بثلاث سنين؟

هذا هو الراجح، كما ذكر الشيخ هنا، وقيل: قبل الهجرة بخمس سنين، وقيل: قبل الهجرة بسنة واحدة، وقيل: بسنة ونصف، لكن الراجح هو ما ذكره الشيخ أنها قبل الهجرة بثلاث سنين.

وهل فرض مع الصلاة شيء آخر من أركان الإسلام؟ هذا محل خلاف بين العلماء، منهم من يرى أن الزكاة فرضت - أيضًا - بمكة وإنما بينت أنصبتها ومقاديرها وأهل الزكاة في المدينة، أما أصل فرضيتها فهو في مكة.

والدليل قوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾[الأنعام:١٤١]. والمراد بحقه هنا: الزكاة، والسورة مكية كلها، وكذلك في قوله: ﴿وَالَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾[المعارج:٢٤،٢٥].

أيضا هذه السورة مكية، والمراد بالحق المعلوم: الزكاة، ففرض أصلها في مكة، لكن بينت تفاصيلها بالمدينة؛ هذا قول.

والقول الثاني: وهو الذي يظهر من كلام الشيخ هنا: أن الزكاة إنما فرضت في المدينة، ولم يفرض في مكة غير الركن الأول وهو التوحيد، والركن الثاني: وهو الصلاة، هذا ظاهر كلام الشيخ.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

❏ قوله: (بَعَثَهُ الله بِالنِّذَارَة عنِ الشِّرْكِ، ويَدْعو إِلَىٰ التَّوْحِيدِ...)

● الإنذار والنهي عن الشرك مقدم هنا، قدمه على الدعوة إلى التوحيد، وهذا التقديم هو المفهوم من كلمة التوحيد لا إله إلا الله، وهو المفهوم من قوله تعالى: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ

(٢٦٥) أخرجه البخاري (٣٥٠)، ومسلم (٦٨٥)، وغيرهما من حديث عائشة رضي الله عنها.

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ [المدثر:٢،٣] ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾؛ يعني: أنذر عن الشرك، ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ كما سيأتي معناه، أن معناه عظمه بالتوحيد؛ فإذن قال: (بالنذارة عن الشرك ويدعو إلى التوحيد) هو معنى لا إله إلا الله، ذكر العلماء أن ثم مناسبة هاهنا وهي أن الإنذار عن الشرك هذا فيه تخلية، والدعوة إلى التوحيد تحلية، ومن القواعد المقررة أن التخلية تسبق التحلية، لهذا النهي عن الشرك والإنذار عنه؛ إخراج لكل ما يتعلق به القلب؛ لأنه قال لا يتعلق القلب بأي أحد من هذه الآلهة، ثم إذا خلا القلب من التعلق بأحد، أمره بأن يتعلق بالله جل وعلا وحده دون ما سواه.

❑ قوله: والدليل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾...)

● المدثر هو المتغطي؛ المتدثر بأغطيته وأكسيته وملابسه أو نحو ذلك. قال: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ هذا للوجوب، قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ ومعنى ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ ينذر عن الشرك ويدعو إلى التوحيد، ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ عظمه بالتوحيد؛ يعني: أن قوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ معناه خص ربك بالتكبير؛ لأنه قدم المفعول؛ أصل الكلام: كبر ربك. فقدم المفعول على العامل فيه وهو الفعل، فدل على الاختصاص، فقال: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾، قال الشيخ معنى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ [المدثر:٣] أي: عظمه بالتوحيد، وهذه لاشك من الشيخ رحمه الله تعالى من العلم الغزير العظيم الذي يحتاج إلى إيضاح وبسط، ذلك أن التكبير جاء في القرآن وله خمسة موارد:

الأول: فتكبير الله جل وعلا يكون في ربوبيته؛ يعني: اعتقاد أنه أكبر من كل شيء يرى أو يتوهم أو يتصور أنه موجود، هو أكبر من كل شيء في ربوبيته، في ملكه، في تصريفه لأمره، في خلقه، في رزقه، في إحيائه، في إماتته، إلى آخر معاني الربوبية هذا الأول، قال جل وعلا: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ۝١١١﴾ [الإسراء:١١١] الله أكبر يشمل هذا المعنى، ويشمل غيره من معاني التكبير التي ستأتي؛ إذن قوله هنا: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ يدخل فيه أولًا اعتقاد أن الله جل وعلا أكبر من كل شيء في مقتضيات ربوبيته.

الثاني: أن الله جل وعلا أكبر من كل شيء في استحقاقه الإلهية والعبادة وحده دونما سواه، فإن العبادة صرفت لغير الله، وهو جل وعلا أكبر وأعظم وأجل من كل هذه الآلهة التي صرفت لها أنواع من العبادة، فالتكبير يرجع إلى الربوبية وهو الأول، وهذا التكبير

يرجع إلى استحقاقه إلى الإلهية.

الثالث: وهو تكبير اعتقاد -كما قال: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾- أن ربك أكبر من كل شيء في أسمائه وصفاته، فإنه في أسمائه أكبر من كل ذوي الأسماء، الأشياء لها أسماء، لكن أسماء الله جل وعلا أكبر من ذلك، أكبر: يرجع الكبر هنا لأي شيء؟ لما فيها من الحسن، والبهاء، والعظمة، والجلال، والجمال ونحو ذلك، وكذلك في الصفات، فصفاته علا، كما قال جل وعلا: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[الروم:٢٧]، وقال جل وعلا: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[النحل:٦٠]؛ يعني: له الاسم الأعلى، وله النعت الأعلى، وقال جل وعلا: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾[الإخلاص:٤]، وقال جل وعلا: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥﴾[مريم:٦٥]، ونحو ذلك، فهو جل وعلا أكبر من كل شيء في أسمائه وصفاته.

الرابع: كذلك قوله: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾، يعني: في قضائه وقدره الكوني، فالله جل وعلا في قضائه وقدره الكوني أكبر؛ يعني: أن قضاءه وقدره له فيه الحكمة البالغة، وأما ما يقضيه ويقدره العباد لأنفسهم، يقدر الأمر بنفسه، ويفعل الأمر لنفسه، فإن هذا يناسب نقص العبد، والله جل وعلا في قضائه وقدره بما يحدثه في كونه فهو أكبر.

الخامس: الأخير، تكبير الله جل وعلا في شرعه وأمره.

قال: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ تدخل فيها هذه الخمسة، الأخير؛ يعني: اعتقاد الله جل وعلا أكبر فيما أمر به ونهى، وفيما أنزله من هذا القرآن العظيم، أكبر وأعظم من كل ما يشرعه العباد، أو يحكم به العباد، أو يأمر العباد به و ينهون عنه، ولهذا صارت هذه الكلمة (الله أكبر) من شعارات المسلمين العظيمة، يدخلون في الصلاة بها، ويرددونها في الصلاة، وهي من الأوامر الأولى التي جاءت للنبي عليه الصلاة والسلام، قال تعالى له: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾[المدثر:٣].

إذا لاحظت هذه المعاني الخمسة، وكل واحدة منها لها أدلة كثيرة من القرآن، تدبر وأنت تقرأ القرآن، الآيات التي فيها ذكر تكبير الله تجد أن بعضها فيها ذكر الربوبية، وبعض الآيات فيها ذكر الألوهية، وبعضها فيها ذكر الأسماء والصفات، وبعضها فيها ذكر قضاء الله الكوني؛ أفعال الله جل وعلا، وبعضها فيه شرع الله جل وعلا، إذا اجتمعت هذه الخمس رأيت أن هذا التفسير من أحسن وأعظم ما يكون.

قال: ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ ﴾ عظمه بالتوحيد: إذا اجتمعت هذه الخمس في الفهم، قال: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ ﴾ عظمه بالتوحيد؛ لأن معاني التكبير هي معاني التعظيم، وتلك المتعلقات هي التوحيد بأنواعه، فصار تفسير الشيخ هنا بقوله: ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ ﴾؛ أي: عظمه بالتوحيد وهو من التفاسير المنقولة عن السلف، أنه صار ها هنا اختيارًا مناسبًا ملائمًا واضح الدلالة.

قال بعدها: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ ﴾ [المدثر:٤] أي: طهر أعمالك عن الشرك، فسر الثياب بالعمل، الثوب أصله في اللغة ما يثوب إلىٰ صاحبه؛ يعني: ما يرجع إلىٰ صاحبه، سمي اللباس -سواء كان قميصًا أو إزارًا أو كان سراويل، أو نحو ذلك، أو كانت عمامة-، يسمىٰ ثوبًا؛ لأنه يرجع إلىٰ صاحبه في التباسه به حال لبسه، هذا أصل الثوب، ولهذا يقال للعمل أيضًا: ثوب، وتجمع علىٰ ثياب، باعتبار أنه يرجع إلىٰ صاحبه، لهذا فسر قوله تعالىٰ هنا: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ ﴾، أي: طهر أعمالك فسر الثياب بالأعمال؛ لأنها راجعة إلىٰ صاحبها باعتبار أصلها اللغوي، أو يقال: إن العمل مشبه بالثوب لملازمته لصاحبه، فالثوب يلازم لابسه، والعمل كذلك يلازم عامله، كما قال جل وعلا: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾ [الإسراء:١٣] الطائر هو ما يطير منه من العمل من خير أو شر، ألزم به، صار ملازمًا له كملازمة ثوبه له، هنا اختار الشيخ أحد التفسيرين المنقولين عن السلف، وهو أن معنىٰ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ ﴾؛ أي: طهر أعمالك عن الشرك، وفسرت بـ: طهر ثيابك من النجاسات، هذا التفسير الأعم أنسب ها هنا؛ لأنه يناسب ما قبله وما بعده، فإن ما قبله فيه الإنذار وتعظيم الله بالتوحيد، وما بعده فيه ترك للرجز وهجر للأصنام والبراءة منها؛ ذن قوله: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ ﴾ فاتساق الكلام وكونه جميعًا جاء بمعنىً مترابط يقضي بأن يختار تفسير الثياب بالأعمال؛ لأن ما قبله: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ ﴾ لينذر عن الشرك ويدعو إلىٰ التوحيد، ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ ﴾؛ يعني: وعظمه بالتوحيد، ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ ﴾، ثم قال: ﴿وَالرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ ﴾ [المدثر:٥] التي هي الأصنام والأوثان، اتركها وتبرأ منها، الجميع في البراءة من الشرك، والبعد عن الشرك، والنهي عنه، والدعوة والالتزام بالتوحيد، بقي قوله: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ ﴾ لها تفسيران؛ تفسير للثياب بالثياب المعروفة؛ ثياب تطهرها من النجاسة، وثيابك التي هي الأعمال، طهرها من الشرك، فصار الأنسب للثياب أن يفسر: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ ﴾ بطهر

أعمالك من الشرك، وهذا مما يعتني به المحققون من المفسرين، أنهم يختارون في التفسير التفسير الذي يناسب السياق، يناسب ما بعده وما قبله، واللغة لها محامل كثيرة، ولهذا اختلف السلف في تفسيراتهم.

❑ قوله: (وَهَجْرُهَا تَرْكُهَا، والبَرَاءَةُ مِنْهَا وَأَهْلِهَا)

قال: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥﴾ الرجز: الأصنام وهجرها تركها وأهلها والبراءة منها وأهلها؛ يعني: ترك الأصنام، وترك أهلها، والبراءة من الأصنام، والبراءة من أهلها، قال: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥﴾ الرجز: اسم عام لما يعبد من دون الله، قد يكون صنمًا، وقد يكون وثنًا، قال ها هنا: (الرجز الأصنام) يعني قوله: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥﴾؛ أي: الأصنام اترك، ويلزم من ذلك أن يترك أهلها ويتبرأ منها ومن أهلها، الرجز: الأصنام، الأصنام: جمع صنم، والصنم: اسم لما عبد من دون الله، مما كان على هيئة صورة، عند كثير من العلماء؛ يعني: الصنم يكون مصور على هيئة صورة؛ صورة كوكب، أو صورة جني، أو صورة شجرة، أو صورة آدمي، أو صورة نبي، أو صورة صالح، أو طالح، أو صورة حيوان، أن يكون على هيئة صورة، فإذا كان هناك شيء مصنوع على هيئة صورة -إما صورة كوكب، أو صورة مما هو على الأرض مما يعبد من دون الله- صار صنمًا، فإن كان ما يعبد من دون الله ليس على هيئة صورة صار اسمه؛ الوثن لهذا قال عليه الصلاة والسلام: «**اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد**»(٢٦٦) لا يصلح صنمًا يعبد، لأن القبر لا يكون على هيئة مصورة، قال: «وثنا يعبد»؛ لأن الوثن اسم لما يعبد من دون الله على هيئة صورة، أو على غير هيئة صورة، الوثن: اسم لما يعبد من دون الله إذا لم يكن مصورًا على هيئة صورة. قال بعض أهل العلم: الوثن قد يكون أيضًا على هيئة صورة، فيكون الصنم ما له صورة، والوثن: يشمل ما كان له صورة وما لم يكن له صورة. وهذا هو القول الثاني، فيكون كل صنم وثنًا، وليس كل وثن صنمًا، وأخذوا هذا من قوله تعالى في سورة العنكبوت، قال جل وعلا مخبرًا عن قول إبراهيم لقومه: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾[العنكبوت:١٧] ، فحصر فقال: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا﴾ قد بين الله جل وعلا

(٢٦٦) أخرجه مالك مرسلًا (٤١٤)، وأحمد (٢/٢٤٦)، من حديث أبي هريرة ﷺ، وصححه العلامة الألباني في «المشكاة» (٧٥٠).

في آيات أخر أن إبراهيم سألهم عن عبادتهم قال: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ ۝٧٠﴾[الشعراء:٧٠]، قالوا: ﴿نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ۝٧١﴾[الشعراء:٧١]؛ صار الوثن يشمل الصنم وغير الصنم، فهذا القول أدق -وهو الذي أختار- أن الوثن يشمل الصنم وغير الصنم؛ يعني: ما له صورة مما عبد من دون الله وما ليس له صورة، وأما الصنم فهو في الغالب ما كان على هيئة صورة، قال: (والرجز الأصنام) ومعلوم أنه إذا نهاهم عن عبادة الأصنام، فإنه بذلك ينهاهم عن عبادة الأوثان، لأن العلة فيهما واحدة، وهي عبادة غير الله جل وعلا، وهجرها تركها وأهلها، والبراءة منها وأهلها.

❑ قوله: (أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ يَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ)

● يعني بذلك أنه مكث عليه الصلاة والسلام عشر سنين يدعو قومه، ويدعو عشيرته الأقربين وجوبًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ۝٢١٤﴾[الشعراء:٢١٤]، يدعو إلى التوحيد قبل أن تنزل الفرائض، لم تنزل فريضة الصلاة على هذا النحو، ولا فريضة الزكاة على هذا النحو، ولا سائر التشريعات على هذا النحو، لم تحرم الخمر، ولم يحرم الزنا، ولم يحرم الربا في تلك المدة، وهذا معنى قوله: (أخذ على هذا)؛ يعني: على الدعوة إلى التوحيد والنهي عن الشرك، (أخذ على هذا) على الإنذار عن الشرك، والدعوة إلى التوحيد، أخذ عشر سنين يدعو إلى التوحيد، ما كان يدعو فيها إلى الأعمال، لا إلى صلاة ولا إلى زكاة مع أنه كان له صلاة في ذلك، قال كثير من أهل العلم: كانت الصلاة المفروضة في العشر سنين تلك صلاتين في اليوم والليلة، أحدها في إقبال النهار، والأخرى في إقبال الليل، يعني: أحدها الفجر، والثانيه المغرب، وحملوا عليه قوله تعالى في سورة طه: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَا﴾[طه:١٣٠]، كذلك قوله في سورة ق: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ۝٣٩﴾[ق:٣٩]، ونحو ذلك من الآيات، أما الصلوات الخمس فلم تفرض إلا بعد ذلك.

❑ قوله: (وَبَعْدَ العَشْرِ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ)

● المعراج معناه: الصعود، (عرج به إلى السماء)؛ يعني: صعد به إلى السماء، ومن أسماء السلم والمرقاة التي يرتقى عليها: المعراج، فمعنى المعراج: السلم الذي يصعد عليه، (عرج به)؛ أي: صعد به، «ليلة المعراج» يعني: الليلة التي صعد بالنبي ﷺ فيها على

المعراج؛ يعني: علىٰ السلم، تسمية الليلة بوسيلة الصعود وهو المعراج.

عليه الصلاة والسلام أسري به تلك الليلة من مكة إلىٰ بيت المقدس، وبعد ذلك (عرج به)؛ الدابة ربطت عند بيت المقدس، ثم أخذه جبريل وعرج به بالمعراج -يعني بالسلم الخاص الذي يصعد عليه- إلىٰ السماء.

(إلىٰ السماء) المقصود به: جنس السماء، يعني السماوات- حتىٰ ارتفع في مستوىٰ يسمع فيه صريف الأقلام عليه الصلاة والسلام، حتىٰ إنه قرب من ربه جل وعلا، وكلمه ربه جل وعلا بدون واسطة، رأىٰ عليه الصلاة والسلام تلك الليلة نور الله جل وعلا، ورأىٰ الحجاب الذي احتجب الله جل وعلا به عن خلقه فلا يرونه، كما جاء في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ سئل هل رأيت ربك؟ -يعني ليلة المعراج- فقال: «رأيت نورا»(٢٦٧). وفي رواية أخرىٰ قال: «نور أنّى أراه»(٢٦٨)، يعني: ثَمّ نور فكيف أراه؟! وهذا من الفضل العظيم له عليه الصلاة والسلام؛ أنه ارتفع من الأرض إلىٰ ما بعد السماء السابعة، ورأىٰ الجنة، ورأىٰ النار، في ليلة، ورجع، والسماء الواحدة لا يقطعها القاطع إلا بمسيرة خمسمائة سنة، وما بين السماء والسماء لا يقطعها القاطع إلا بمسيرة خمسمائة سنة، وهكذا حتىٰ تصل إلىٰ السماء السابعة، ثم بعد ذلك الماء، وبعد ذلك الكرسي إلىٰ آخره، ولا شك أن المعراج له عليه الصلاة والسلام مما يدل علىٰ عظم قدره عند ربه جل وعلا؛ لهذا قال تعالىٰ في الإسراء وهو من العجب بمكان

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾[الإسراء:١]، يعني: في بعض الليل من المسجد الحرام إلىٰ المسجد الأقصىٰ، ثم رجع، هذا من مكة إلىٰ بيت المقدس محل عجب عند العرب ولا شك أنه محل عجب، حيث ما كان عندهم من المركوبات، فكيف من بيت المقدس إلىٰ ما بعد السماء السابعة، ثم يرجع إلىٰ بيت المقدس، ثم يرجع من بيت المقدس إلىٰ مكة، وفراشه لم يبرد بعد، هذا لاشك أنه مما أكرم الله جل وعلا به نبيه عليه الصلاة والسلام.

---

(٢٦٧) أخرجه مسلم (١٧٨/٢٩٢)، وابن حبان (٥٨)، وغيرهما من حديث أبي ذر ﷺ.

(٢٦٨) أخرجه مسلم (١٧٨/٢٩١)، والترمذي (٣٢٨٢)، وغيرهما من حديث أبي ذر ﷺ.

❑ قوله: (وَفُرِضَتْ عَلَيْهِ الصَّلَوَاتُ)

● يعني: على هذا النحو، بعد أن فرضت عليه خمس صلوات وأصبح صباحه في مكة، نزل عليه جبريل يعلمه أوقات الصلوات وأنواعها.

❑ قوله: (وَصَلَّىٰ فِي مَكَّةَ ثَلاثَ سِنِينَ)

● يعني: صلىٰ السنة العاشرة، والحادية عشر، والثانية عشر، من البعثة، ثم بعد ذلك أمر بالهجرة إلىٰ المدينة.

بعد أن فرضت عليه الصلاة، صلىٰ الصلوات الخمس علىٰ هذا النحو الذي نصليه، قد حدت صفاتها، أركانها، واجباتها، وحدت أوقات الصلوات كليا، جاء إلىٰ النبي جبريل وبين له أوقات الصلوات، بعد ثلاث سنين من فرض الصلاة هاجر النبي عليه الصلاة والسلام إلىٰ المدينة، بعد أن أمر بذلك وبعد هجرته عليه الصلاة والسلام إلىٰ المدينة ابتدأ التاريخ الهجري كما هو معروف، لما أتىٰ إلىٰ هذا الموضع.

الدرس الثامن عشر:

[هجرة النبي ﷺ إلى المدينة]

وبَعْدَهَا أُمِرَ بِالْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ.

وَالهِجْرَةُ: الانْتِقَالُ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بَلَدِ الإسْلاَمِ.

والهِجْرَةُ فَرِيضَةٌ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بَلَدِ الإسْلاَمِ، وَهِيَ بَاقِيَةٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ(٢٦٩). والدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النساء:٩٧-٩٩].

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [العنكبوت:٥٦]

قَالَ البَغَوِيُّ -رحمه الله تعالى-: سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الآيَةِ فِي الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ بِمَكَّةَ لَمْ يُهَاجِرُوا؛ نَادَاهُمُ الله بِاسْمِ الإيمَانِ. والدَّلِيلُ عَلَى الْهِجْرَةِ مِنَ السُّنَّةِ قَوْلُهُ ﷺ: «لاَ تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ ولاَ تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»(٢٧٠).

الشرح

قال العلامة ابن باز:

قوله: (وبَعْدَهَا أُمِرَ بِالْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ...)

● ثم هاجر إلى المدينة بعد ما اشتد عليه أذى قريش له ولأصحابه، فأذن الله له بالهجرة من مكة -لأجل أذى وظلم قريش- إلى المدينة إلى الأنصار، وقد بايعوه في موسم الحج على أن ينتقل إليهم وينصروه -رضي الله عنهم وأرضاهم- فلما تمت البيعة،

---

(٢٦٩) انظر شرح النووي في «الأربعين» فإنه -رحمه الله تعالى- قسم الهجرة إلى ثمانية أنواع وأطال الكلام في ذلك وأجاد فعليك به [الدمشقي].

(٢٧٠) أخرجه أبو داود (٢٤٧٩)، والدارمي (٢٥١٣)، وغيرهما من حديث معاوية ﷺ، وصححه العلامة الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

وأذن الله له بالهجرة هاجر إليهم، وكان بعض أصحابه قد هاجر قبل ذلك إلىٰ الحبشة، ومكثوا عند النجاشي مدة، ثم هاجر بقيتهم إلىٰ المدينة، فلما استقر بالمدينة جاء الذين في الحبشة إلىٰ المدينة، واستقر الجميع في المدينة، والحمد لله.

قال العلامة ابن قاسم:

❑ قوله: (وَبَعْدَهَا أُمِرَ بِالْهِجْرَةِ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ)

● أي: وبعد الثلاث عشرة من بعثته ﷺ أمر بمفارقة المشركين وأوطانهم بحيث يتمكن من إظهار دينه، والدعوة إلىٰ الله في غير بلادهم، فإن ذلك واجب وفرض، وما لايتم الواجب إلا به فهو واجب، ولا يتم الفرض والواجب إلا مع مفارقة المشركين عن الأوطان، فإنه إذا كان في بلد لا يقدر علىٰ إظهار دينه والتصريح به وتبيينه، وجب عليه مفارقة ذلك الوطن لإظهار دينه.

❑ قوله: (وَالهِجْرَةُ:...)

● إحرازًا للدين، وسمي المهاجرون مهاجرين؛ لأنهم هجروا ديارهم ومساكنهم التي نشأوا بها لله، ولحقوا بدار ليس لهم فيها أهل ولا مال، حين هاجروا إلىٰ المدينة، فكل من فارق بلده فهو مهاجر، والمهاجرة في الأصل: مصارمة الغير ومقاطعته ومباعدته.

❑ قوله: (والهِجْرَةُ فَرِيضَةٌ عَلَىٰ هَذِهِ الأُمَّةِ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَىٰ بَلَدِ الإِسْلاَمِ)

● معلوم ثبوتها بالكتاب والسنة والإجماع، متوعد من تركها، وقد حكىٰ الإجماع علىٰ وجوبها من بلد الشرك إلىٰ بلد الإسلام غير واحد من أهل العلم، بل فرضها الله علىٰ رسوله ﷺ والصحابة قبل فرض الصوم والحج، كما هو مقرر في كتب الأصول والفروع، معلوم بالضرورة من الدين.

❑ قوله: (وَهِيَ بَاقِيَةٌ إِلَىٰ أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ)

● باتفاق من يعتد به من أهل العلم، قال شيخ الإسلام: لا يسلم أحد من الشرك إلا بالمباينة لأهله.

❑ قوله: (والدليل قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾)

● يعني: بالإقامة بين أظهر الكفار، نزلت في أناس من أهل مكة تكلموا بالإسلام

ولم يهاجروا، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾[النساء:٩٧] أراد ملك الموت وأعوانه، أو ملك الموت وحده، فإن العرب قد تخاطب الواحد بلفظ الجمع. ﴿ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ بترك الهجرة.

❑ قوله: ﴿قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ﴾

● أي: لِمَ مكثتم هاهنا وتركتم الهجرة؟ استفهام إنكار وتوبيخ وتقريع، يعود معناه إلى لم مكثتم هاهنا وتركتم الهجرة، وفي أي فريق كنتم؟ والملائكة تعلم في أي فريق كان فيه التاركون للهجرة بعدما وجبت عليهم.

❑ قوله: ﴿قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾

● عاجزين عن الهجرة، لا نقدر عن الخروج من البلد، ولا الذهاب في الأرض.

❑ قوله: ﴿قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾

● يعني: إلى المدينة فتخرجوا من بين أهل الشرك، ولم تعذرهم الملائكة، وفي الحديث: «من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله»[٢٧١] رواه أبو داود وغيره في أحاديث أخر.

❑ قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝٩٧﴾

● أي: بئس المصير إلى جهنم، وهذا فيه أن تارك الهجرة بعدما وجبت عليه مرتكب كبيرة من كبائر الذنوب.

❑ قوله: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾

● العاجز عن الهجرة، ﴿وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾: جمع وليد ووليدة والوليد: الغلام قبل أن يحتلم.

❑ قوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ .

● أي: من مفارقة المشركين، فلا يقدرون على حيلة ولا على نفقة، ولا على القوة للخروج.

❑ قوله: ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ۝٩٨﴾

● لا يعرفون طريقًا إلى الخروج من مكة إلى المدينة، حيث كانت هي إذ ذاك بلد الإسلام.

---

(٢٧١) أخرجه أبو داود (٢٧٨٧)، والطبراني (٧٠٢٣)، وغيرهما من حديث سمرة بن جندب ﷺ، وحسنه العلامة الألباني في «الصحيحة» (٢٣٣٠).

□ قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ﴾

● أي: يتجاوز عن المستضعفين وأهل الأعذار بترك الهجرة، وعسىٰ من الله واجب؛ لأنه للأطماع.

□ قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورٗا ۝٩٩﴾

● ﴿عَفُوًّا﴾ يتجاوز عن سيئاتهم، ﴿غَفُورٗا﴾ لمن تاب إليه، لا يكلف نفسًا إلا وسعها، قال ابن عباس: كنت أنا وأمي من المستضعفين، وكان النبي ﷺ يدعو للمستضعفين في الصلاة.

□ قوله: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ﴾

● أمر تعالىٰ عباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذي لا يقدرون فيه علىٰ إقامة الدين إلىٰ أرضه الواسعة، وأخبر أن الأرض غير ضيقة، بل واسعة تسع جميع الخلائق، فإذا كان الإنسان في أرض لم يتمكن من إظهار الدين فيها، فإن الله قد وسع له الأرض ليعبده فيها كما أمر، وكذلك يجب علىٰ كل من كان ببلد يعمل فيها بالمعاصي ولا يمكن تغييرها أن يهاجر منها.

□ قوله: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ۝٥٦﴾

●أي: وَحِّدُونِ في أرضي الواسعة التي خلقتها وما عليها لكم، وخلقتكم عليها لعبادتي، وفي الحديث القدسي: «ابن آدم خلقتك لأجلي، وخلقت كل شيء لأجلك»[٢٧٢].

□ قوله: (قَالَ البَغَوِيُّ)

● الملقب: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء، صاحب التفسير وشرح السنة وغيرهما، المتوفىٰ سنة خمسمائة وستة عشر سنة.

□ قوله: (سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الآيَةِ فِي الْمُسْلِمِينَ...)

● حكاه عن جماعة من التابعيين، فأفاد: أن تارك الهجرة بعدما وجبت عليه ليس بكافر، لكنه عاص بتركها، فهو مؤمن ناقص الإيمان، عاص من عصاة الموحدين المؤمنين.

(٢٧٢)لم أجد لأحد من أهل العلم-فيما أعلم- كلامًا علىٰ هذا الحديث.

❑ قوله: (وَالدَّلِيلُ عَلَىٰ الْهِجْرَةِ مِنَ السُّنَّةِ)

● أي: علىٰ وجوب الهجرة من بلد الشرك إلىٰ بلد الإسلام من سنة النبيﷺ التي أمرنا باتباعها.

❑ قوله: (قَوْلُهُﷺ : لاَ تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ حَتَّىٰ تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ)

● أي: لا تنقطع الهجرة من بلد الشرك إلىٰ بلد الإسلام حتىٰ تنقطع التوبة؛ أي: حتىٰ لا تقبل التوبة ممن تاب، فدل الحديث علىٰ أن التوبة ما دامت مقبولة فالهجرة واجبة بحالها، وأما حديث ابن عباس: «**لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية**»[٢٧٣]، فالمراد: لا هجرة بعد فتح مكة منها إلىٰ المدينة، حيث كانت مكة بعد فتحها بلد إسلام، فإن أناسًا أرادوا أن يهاجروا منها إلىٰ المدينة ظنًّا منهم أنه مرغب فيها، فبين لهمﷺ أنه إنما حث عليها لما كانت مكة بلد كفر، أما وقد كانت بلد إسلام فلا، فالمعنىٰ: لا هجرة من مكة إلىٰ المدينة، أما ثبوت الهجرة من بلد الشرك إلىٰ بلد الإسلام، وبقاؤها فمعلوم بالنص والإجماع.

❑ قوله: (ولاَ تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّىٰ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا)

● فإذا طلعت الشمس من مغربها فهو أوان قيام الساعة، وهي أقرب علاماتها، وإذا طلعت لا تقبل توبة، قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا﴾[الأنعام:١٥٨]، وجاء في ذلك أحاديث كثيرة، وهذا يفسر بقيام الساعة، فدل علىٰ أنها تقبل قبل طلوع الشمس من مغربها، وما دامت تقبل التوبة فلا تنقطع الهجرة، وفي الحديث: «**أنا بريء من مسلم بات بين ظهراني المشركين**»[٢٧٤]، وقال: «**لا تراءىٰ ناراهما**»[٢٧٥]، وقال: «**الهجرة باقية ما قوتل العدو**»[٢٧٦]، وقال: «**لا يسلم لذي دين دينه إلا من فر من شاهق إلىٰ شاهق**»[٢٧٧].

---

(٢٧٣) أخرجه البخاري (١٨٣٤)، ومسلم (١٣٥٣)، وغيرهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢٧٤) أخرجه أبو داود (٢٦٤٥)، وغيرهما من حديث جرير بن عبد الله، والنسائي (٤٧٨٠)، عن قيس يرفعه، وصححه العلامة الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٢٧٥) سبق فيما قبله.

(٢٧٦) أخرجه النسائي (٤١٧٢،٤١٧٣)، وأحمد (٥/٢٧٠)، والبيهقي (٩/١٧)، والطبراني في «مسند =

قال العلامة العثيمين:

❑ قوله: (أُمِرَ بِالْهِجْرَةِ)

●أمر اللهﷻ نبيه محمدًا ﷺ بالهجرة إلىٰ المدينة؛ لأن أهل مكة منعوه أن يقيم دعوته، وفي شهر ربيع الأول من العام الثالث عشر من البعثة وصل النبي ﷺ إلىٰ المدينة مهاجرًا من مكة البلد الأول للوحي، وأحب البلاد إلىٰ الله ورسوله، خرج من مكة مهاجرًا بإذن ربه بعد أن قام بمكة ثلاث عشرة سنة يبلغ رسالة ربه ويدعو إليه علىٰ بصيرة فلم يجد من أكثر قريش وأكابرهم سوىٰ الرفض لدعوته والإعراض عنها، والإيذاء الشديد للرسول ﷺ، ومن آمن به حتىٰ آل الأمر بهم إلىٰ تنفيذ خطة المكر والخداع لقتل النبي ﷺ حيث اجتمع كبراؤهم في دار الندوة وتشاوروا ماذا يفعلون برسول الله ﷺ حين رأوا أصحابه يهاجرون إلىٰ المدينة؛ وأنه لابد أن يلحق بهم ويجد النصرة والعون من الأنصار الذين بايعوه علىٰ أن يمنعوه مما يمنعون منه أبناءهم ونساءهم، وحينئذ تكون له الدولة علىٰ قريش، فقال عدو الله أبو جهل: الرأي أن نأخذ من كل قبيلة فتىٰ شابًا جَلْدًا ثم نعطي كل واحد سيفًا صارمًا ثم يعمدوا إلىٰ محمد فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه ونستريح منه فيتفرق دمه في القبائل فلا يستطيع بنو عبد مناف- يعني عشيرة النبي ﷺ- أن يحاربوا قومهم جميعًا فيرضون بالدية فنعطيهم إياها.

فأعلم الله نبيه ﷺ بما أراد المشركون وأذن له بالهجرة وكان أبو بكر ﷺ قد تجهز من قبل للهجرة إلىٰ المدينة فقال له النبي ﷺ: علىٰ رسلك فإني أرجو أن يؤذن لي، فتأخر أبو بكر ﷺ ليصحب النبي ﷺ، قالت عائشة: «**فبينما نحن في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة في منتصف النهار إذا برسول الله ﷺ علىٰ الباب متقنعًا فقال أبو بكر: فداء له أبي وأمي والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر فدخل النبي ﷺ وقال لأبي بكر: أخرج من عندك. فقال: إنما هم أهلك بأبي أنت وأمي. فقال النبي ﷺ: قد أذن لي في الخروج فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله. قال: نعم. فقال: يا رسول الله، فخذ إحدىٰ راحلتي هاتين. فقال النبي ﷺ: بالثمن،**

=

(٢٧٧) أخرجه الحارث (٧٧٤/بغية)، من حديث ابن مسعود ﷺ، وضعفه العلامة الألباني في «الضعيفة» (٣٢٧٠).

ثم خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر فأقاما في غار جبل ثور ثلاث ليال يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر وكان غلامًا شابًا ذكيا واعيًا فينطلق في آخر الليل إلى مكة فيصبح من قريش فلا يسمع بخبر حول النبي ﷺ وصاحبه إلا وعاه حتى يأتي به إليهما حين يختلط الظلام، فجعلت قريش تطلب النبي ﷺ من كل وجه وتسعى بكل وسيلة ليدركوا النبي ﷺ حتى جعلوا لمن يأتي بهما أو بأحدهما ديته مئة من الإبل، ولكن الله كان معهما يحفظهما بعنايته ويرعاهما برعايته حتى إن قريشًا ليقفون على باب الغار فلا يرونهما. قال أبو بكر رضي الله عنه: قلت للنبي ﷺ ونحن في الغار: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا. فقال: لا تحزن إن الله معنا، ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما. حتى إذا سكن الطلب عنهما قليلًا خرجا من الغار بعد ثلاث ليال متجهين إلى المدينة على طريق الساحل.

ولما سمع أهل المدينة من المهاجرين والأنصار بخروج رسول الله ﷺ إليهم كانوا يخرجون صباح كل يوم إلى الحرة ينتظرون قدوم رسول الله ﷺ، وصحبه حتى يطردهم حر الشمس، فلما كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله ﷺ وتعالى النهار واشتد الحر رجعوا إلى بيوتهم وإذا رجل من اليهود على أطم من آطام المدينة ينظر لحاجة له فأبصر رسول الله ﷺ وأصحابه مقبلين يزول بهم السراب فلم يملك أن نادى بأعلى صوته يا معشر العرب هذا جدكم، يعني: هذا حظكم وعزكم الذي تنتظرون فهب المسلمون للقاء رسول الله ﷺ معهم السلاح تعظيمًا وإجلالًا لرسول الله ﷺ وإيذانًا باستعدادهم للجهاد والدفاع دونه فتلقوه ﷺ بظاهر الحرة فعدل بهم ذات اليمين ونزل في بني عمرو بن عوف في قباء، وأقام فيهم بضع ليال وأسس المسجد، ثم ارتحل إلى المدينة والناس معه وآخرون يتلقونه في الطرقات، قال أبو بكر رضي الله عنه: خرج الناس حين قدمنا المدينة في الطرق وعلى البيوت، والغلمان والخدم يقولون: الله أكبر جاء رسول الله، الله أكبر جاء محمد»[٢٧٨].

❑ قوله: (الهِجْرَةُ...)

● الهجرةفي اللغة: «مأخوذة من الهجر وهو الترك».

وأما في الشرع فهي كما قال الشيخ: «الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام». وبلد الشرك هو الذي تقام فيه شعائر الكفر ولا تقام فيه شعائر الإسلام كالأذان والصلاة

---

(٢٧٨) أخرجه البخاري (٣٩٠٥)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

جماعة، والأعياد، والجمعة على وجه عام شامل، وإنما قلنا: على وجه عام شامل ليخرج ما تقام فيه هذه الشعائر على وجه محصور كبلاد الكفار التي فيها أقليات مسلمة؛ فإنها لا تكون بلاد إسلام بما تقيمه الأقليات المسلمة فيها من شعائر الإسلام، أما بلاد الإسلام فهي البلاد التي تقام فيها هذه الشعائر على وجه عام شامل.

❑ قوله: (والهِجْرَةُ فَرِيضَةٌ...)

●فهي واجبة على كل مؤمن لا يستطيع إظهار دينه في بلد الكفر فلا يتم إسلامه إذا كان لا يستطيع إظهاره إلا بالهجرة، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

❑ قوله: (والدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾)

●في هذه الآية دليل على أن هؤلاء الذين لم يهاجروا مع قدرتهم على الهجرة أن الملائكة تتوفاهم وتوبخهم وتقول لهم: ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها، أما العاجزون عن الهجرة من المستضعفين فقد عفا الله عنهم لعجزهم عن الهجرة ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها.

❑ قوله: (وقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ...﴾ سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الآيَةِ فِي الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ بِمَكَّةَ لَمْ يُهَاجِرُوا)

●الظاهر: أن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ نقل هذا عن البغوي بمعناه، هذا إن كان نقله من التفسير؛ إذ ليس المذكور في تفسير البغوي لهذه الآية بهذا اللفظ.

❑ قوله: (حَتَّىٰ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا)

●وذلك حين انتهاء العمل الصالح المقبول قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾[الأنعام:١٥٨] والمراد ببعض الآيات هنا: طلوع الشمس من مغربها.

(تتمة): نذكر هنا حكم السفر إلى بلاد الكفر.

فنقول: السفر إلى بلاد الكفار لا يجوز إلا بثلاثة شروط:

الشرط الأول: أن يكون عند الإنسان علم يدفع به الشبهات.

الشرط الثاني: أن يكون عنده دين يمنعه من الشهوات.

الشرط الثالث: أن يكون محتاجًا إلى ذلك.

فإن لم تتم هذه الشروط فإنه لا يجوز السفر إلىٰ بلاد الكفار لما في ذلك من الفتنة أو خوف الفتنة وفيه إضاعة المال لأن الإنسان ينفق أموالًا كثيرة في هذه الأسفار.

أما إذا دعت الحاجة إلىٰ ذلك لعلاج أو تلقي علم لا يوجد في بلده وكان عنده علم ودين علىٰ ما وصفنا فهذا لا بأس به.

وأما السفر للسياحة في بلاد الكفار فهذا ليس بحاجة، وبإمكانه أن يذهب إلىٰ بلاد إسلامية يحافظ أهلها علىٰ شعائر الإسلام، وبلادنا الآن والحمد لله أصبحت بلادًا سياحية في بعض المناطق، فبإمكانه أن يذهب إليها ويقضي زمن إجازته فيها.

وأما الإقامة في بلاد الكفار فإن خطرها عظيم علىٰ دين المسلم، وأخلاقه، وسلوكه، وآدابه وقد شاهدنا وغيرنا انحراف كثير ممن أقاموا هناك فرجعوا بغير ما ذهبوا به، رجعوا فساقًا، وبعضهم رجع مرتدًا عن دينه وكافرًا به وبسائر الأديان -والعياذ بالله- حتىٰ صاروا إلىٰ الجحود المطلق والاستهزاء بالدين وأهله السابقين منهم واللاحقين، ولهذا كان ينبغي بل يتعين التحفظ من ذلك ووضع الشروط التي تمنع من الهوي في تلك المهالك.

فالإقامة في بلاد الكفر لا بد فيها من شرطين أساسيين:

الشرط الأول: أمن المقيم علىٰ دينه بحيث يكون عنده من العلم والإيمان، وقوة العزيمة ما يطمئنه علىٰ الثبات علىٰ دينه والحذر من الانحراف والزيغ، وأن يكون مضمرًا لعداوة الكافرين وبغضهم مبتعدًا عن موالاتهم، ومحبتهم، فإن موالاتهم ومحبتهم، مما ينافي الإيمان بالله، قال تعالىٰ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢] الآية.

وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [المائدة: ٥١، ٥٢]، وثبت في الصحيح عن النبي ﷺ «أن من أحب قومًا فهو منهم، وأن المرء مع من أحب»[٢٧٩].

---

(٢٧٩) أخرجه البخاري (٦١٧٠)، ومسلم (٢٦٣٩)، بلفظ: «أنت مع من أحببت»، وغيرهما من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

ومحبة أعداء الله من أعظم ما يكون خطرًا على المسلم؛ لأن محبتهم تستلزم موافقتهم واتباعهم، أو على الأقل عدم الإنكار عليهم، ولذلك قال النبي ﷺ: «من أحب قومًا فهو منهم».

الشرط الثاني: أن يتمكن من إظهار دينه بحيث يقوم بشعائر الإسلام بدون ممانع، فلا يمنع من إقامة الصلاة والجمعة والجماعات إن كان معه من يصلي جماعة ومن يقيم الجمعة، ولا يمنع من الزكاة والصيام والحج وغيرها من شعائر الدين، فإن كان لا يتمكن من ذلك لم تجز الإقامة لوجوب الهجرة حينئذ، قال في «المغني» ص: «٤٥٧ جـ ٨» في الكلام على أقسام الناس في الهجرة: أحدها من تجب عليه وهو من يقدر عليها ولا يمكنه إظهار دينه، ولا تمكنه إقامة واجبات دينه مع المقام بين الكفار فهذا تجب عليه الهجرة لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [النساء:٩٧]. وهذا وعيد شديد يدل على الوجوب، ولأن القيام بواجب دينه واجب على من قدر عليه، والهجرة من ضرورة الواجب وتتمته، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. اهـ.

وبعد تمام هذين الشرطين الأساسيين تنقسم الإقامة في دار الكفر إلى أقسام:

القسم الأول: أن يقيم للدعوة إلى الإسلام والترغيب فيه فهذا نوع من الجهاد فهي فرض كفاية على من قدر عليها، بشرط أن تتحقق الدعوة وأن لا يوجد من يمنع منها أو من الاستجابة إليها؛ لأن الدعوة إلى الإسلام من واجبات الدين وهي طريقة المرسلين وقد أمر النبي ﷺ، بالتبليغ عنه في كل زمان ومكان فقال ﷺ: «بلغوا عني ولو آية»[(٢٨٠)].

القسم الثاني: أن يقيم لدراسة أحوال الكافرين والتعرف على ما هم عليه من فساد العقيدة، وبطلان التعبد، وانحلال الأخلاق، وفوضوية السلوك ؛ ليحذر الناس من الاغترار بهم، ويبين للمعجبين بهم حقيقة حالهم، وهذه الإقامة نوع من الجهاد أيضًا لما يترتب عليها من التحذير من الكفر وأهله المتضمن للترغيب في الإسلام وهديه؛ لأن فساد الكفر دليل على صلاح الإسلام، كما قيل: وبضدها تتبين الأشياء. لكن لا بد من شرط أن يتحقق مراده بدون مفسدة أعظم منه، فإن لم يتحقق مراده بأن منع من نشر ما هم عليه

---

(٢٨٠) أخرجه البخاري (٣٤٦١)، والترمذي (٢٦٦٩)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

والتحذير منه فلا فائدة من إقامته، وإن تحقق مراده مع مفسدة أعظم مثل أن يقابلوا فعله بسب الإسلام ورسول الإسلام وأئمة الإسلام وجب الكف لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٠٨﴾ [الأنعام:١٠٨].

ويشبه هذا أن يقيم في بلاد الكفر ليكون عينًا للمسلمين؛ ليعرف ما يدبرونه للمسلمين من المكايد فَيَحْذَرُهُمُ المسلمون، «كما أرسل النبي ﷺ حذيفة بن اليمان إلى المشركين في غزوة الخندق ليعرف خبرهم»[٢٨١].

القسم الثالث: أن يقيم لحاجة الدولة المسلمة وتنظيم علاقاتها مع دولة الكفر كموظفي السفارات فحكمها حكم ما أقام من أجله. فالملحق الثقافي مثلًا يقيم ليرعى شئون الطلبة ويراقبهم ويحملهم على التزام دين الإسلام وأخلاقه وآدابه، فيحصل بإقامته مصلحة كبيرة ويندرئ بها شر كبير.

القسم الرابع: أن يقيم لحاجة خاصة مباحة: كالتجارة، والعلاج فتباح الإقامة بقدر الحاجة، وقد نص أهل العلم رحمهم الله على جواز دخول بلاد الكفار للتجارة وأثروا ذلك عن بعض الصحابة رضي الله عنهم.

القسم الخامس: أن يقيم للدراسة وهي من جنس ما قبلها إقامة لحاجة، لكنها أخطر منها وأشد فتكًا بدين المقيم وأخلاقه، فإن الطالب يشعر بدنو مرتبته وعلو مرتبة معلميه، فيحصل من ذلك تعظيمهم والاقتناع بآرائهم وأفكارهم وسلوكهم فيقلدهم إلا من شاء الله عصمته، وهم قليل، ثم إن الطالب يشعر بحاجته إلى معلمه فيؤدي ذلك إلى التودد إليه ومداهنته فيما هو عليه من الانحراف والضلال. والطالب في مقر تعلمه له زملاء يتخذ منهم أصدقاء يحبهم ويتولاهم ويكتسب منهم، ومن أجل خطر هذا القسم وجب التحفظ فيه أكثر مما قبله فيشترط فيه بالإضافة إلى الشرطين الأساسيين شروط:

الشرط الأول: أن يكون الطالب على مستوى كبير من النضوج العقلي الذي يميز به بين النافع والضار وينظر به إلى المستقبل البعيد، فأما بعث الأحداث «صغار السن» وذوي العقول الصغيرة فهو خطر عظيم على دينهم، وخلقهم، وسلوكهم، ثم هو خطر على أمتهم

---

(٢٨١) أخرجه مسلم (١٧٨٨)، وابن حبان (٧١٢٥/إحسان)، وغيرهما من حديث حذيفة رضي الله عنه.

التي سيرجعون إليها وينفثون فيها من السموم التي نهلوها من أولئك الكفار كما شهد ويشهد به الواقع، فإن كثيرًا من أولئكم المبعوثين رجعوا بغير ما ذهبوا به، رجعوا منحرفين في دياناتهم، وأخلاقهم، وسلوكهم، وحصل عليهم وعلى مجتمعهم من الضرر في هذه الأمور ما هو معلوم مشاهد؛ وما مثل بعث هؤلاء؛ إلا كمثل تقديم النعاج للكلاب الضارية.

الشرط الثاني: أن يكون عند الطالب من علم الشريعة ما يتمكن به من التميز بين الحق والباطل، ومقارعة الباطل بالحق؛ لئلا ينخدع بما هم عليه من الباطل فيظنه حقًّا أو يلتبس عليه أو يعجز عن دفعه فيبقى حيران أو يتبع الباطل.

وفي الدعاء المأثور: «اللهم أرني الحق حقا وارزقني اتباعه، وأرني الباطل باطلًا وارزقني اجتنابه، ولا تجعله ملتبسًا علي فأضل»[٢٨٢].

الشرط الثالث: أن يكون عند الطالب دين يحميه ويتحصن به من الكفر والفسوق، فضعيف الدين لا يسلم مع الإقامة هناك إلا أن يشاء الله؛ وذلك لقوة المهاجم وضعف المقاوم، فأسباب الكفر والفسوق هناك قوية وكثيرة متنوعة فإذا صادفت محلًا ضعيف المقاومة عملت عملها.

الشرط الرابع: أن تدعو الحاجة إلى العلم الذي أقام من أجله، بأن يكون في تعلمه مصلحة للمسلمين ولا يوجد له نظير في المدارس في بلادهم، فإن كان من فضول العلم الذي لا مصلحة فيه للمسلمين، أو كان في البلاد الإسلامية من المدارس نظيره لم يجز أن يقيم في بلاد الكفر من أجله لما في الإقامة من الخطر على الدين والأخلاق، وإضاعة الأموال الكثيرة بدون فائدة.

القسم السادس: أن يقيم للسكن وهذا أخطر مما قبله وأعظم لما يترتب عليه من المفاسد بالاختلاط التام بأهل الكفر وشعوره بأنه مواطن ملتزم بما تقتضيه الوطنية من مودة، وموالاة، وتكثير لسواد الكفار، ويتربى أهله بين أهل الكفر فيأخذون من أخلاقهم وعاداتهم، وربما قلدوهم في العقيدة والتعبد، ولذلك جاء في الحديث عن النبيﷺ: «من جامع المشرك وسكن معه فهو مثله»[٢٨٣]. وهذا الحديث وإن كان ضعيف السند لكن له

---

(٢٨٢) انظر: تخريج «الإحياء»، للعراقي (٢/٢٨٧).

(٢٨٣) سبق تخريجه.

وجهة من النظر فإن المساكنة تدعو إلىٰ المشاكلة، وعن قيس بن أبي حازم عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين، قالوا: يا رسول الله ولم؟ قال: لا تراءىٰ ناراهما»[٢٨٤] رواه أبو داود والترمذي: وأكثر الرواة رووه مرسلًا عن قيس بن أبي حازم عن النبي ﷺ قال الترمذي: سمعت محمدًا -يعني البخاري- يقول: الصحيح حديث قيس عن النبي ﷺ مرسل. اهـ. وكيف تطيب نفس مؤمن أن يسكن في بلاد كفار تعلن فيها شعائر الكفر ويكون الحكم فيها لغير الله ورسوله وهو يشاهد ذلك بعينه ويسمعه بأذنيه ويرضىٰ به، بل ينتسب إلىٰ تلك البلاد ويسكن فيها بأهله وأولاده ويطمئن إليها كما يطمئن إلىٰ بلاد المسلمين مع ما في ذلك من الخطر العظيم عليه وعلىٰ أهله وأولاده في دينهم وأخلاقهم.

هذا ما توصلنا إليه في حكم الإقامة في بلاد الكفر، نسأل الله أن يكون موافقًا للحق والصواب.

قال العلامة الفوزان:

❑قوله: (وبَعْدَهَا أُمِرَ بِالْهِجْرَةِ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ)

●لما اشتد أذىٰ قريش، وزاد شرهم بالصد عن سبيل الله ومضايقة المسلمين، وتعذيب من ليس له جماعة تحميه من مستضعفي المسلمين، أذن الله -سبحانه وتعالىٰ- للمسلمين بالهجرة إلىٰ الحبشة، الهجرة الأولىٰ؛ لأن فيها ملكًا لا يظلم أحد عنده وكان نصرانيًا ولكنه كان عادلًا، هاجر منهم نفر كثير، فلما علمت قريش بهجرتهم إلىٰ الحبشة، أرسلوا في طلبهم مندوبين من دهاة قريش أحدهما: عمرو بن العاص، ومعهما الهدايا للنجاشي، وقالوا: إن هؤلاء فروا منا وهم أقاربنا نريد أن يرجعوا وإنهم أشرار؛ لا يفسدون في بلدك... إلخ.

وأعطوه الهدايا التي معهم ليغروه؛ ولكنه رحمه الله استدعىٰ المهاجرين وسمع منهم، وخيرهم فاختاروا البقاء في الحبشة، فرجع المندوبان خائبين، وبقي من بقي في الحبشة من المهاجرين.

ثم إن الله منَّ علىٰ النجاشي فأسلم وحسن إسلامه، فلما توفي صلىٰ عليه الرسول ﷺ هو وأصحابه رضي الله عنهم صلاة الغائب، فكان في هجرتهم إليه خيرٌ له أيضًا هداه الله

(٢٨٤) سبق تخريجه.

بسببهم فدخل في الإسلام.

ثم لقي النبي ﷺ نفرًا من الأنصار في منىٰ في موسم الحج، وكان النبي ﷺ يعرض نفسه علىٰ القبائل في موسم الحج، يذهب إلىٰ منازل العرب في منىٰ ويدعوهم إلىٰ الله، وصادف أن لقي أناسًا من الأنصار فدعاهم إلىٰ الله فعرض عليهم ما عنده، فقبلوا من الرسول ﷺ دعوته، وبايعوه علىٰ الإسلام، ورجعوا إلىٰ قومهم من موسم الحج فدعوهم إلىٰ الله ﷻ فوافىٰ في الموسم الذي بعده أكثر من الموسم الأول.

جاء ناس من الأنصار وبايعوا النبي ﷺ بيعة العقبة الثانية؛ أي: عند جمرة العقبة، بايعوه علىٰ الإسلام، وعلىٰ أن يناصروه إذا هاجر إليهم، وأن يحموه مما يحمون منه أنفسهم وأولادهم.

فعند ذلك؛ أي: بعد هذه البيعة المباركة أمر النبي ﷺ من كان في مكة من المسلمين بالهجرة إلىٰ المدينة، وهاجر من هاجر إلىٰ المدينة، وبقي الرسول وبعض أصحابه، ثم إن الله أذن لنبيه ﷺ بالهجرة.

فلما علمت قريش بهجرة الصحابة إلىٰ المدينة، وعلموا بالبيعة التي حصلت بينه وبين الأنصار، خافوا أن يلحق رسول الله ﷺ بأصحابه في المدينة، ويتكون له قوة، وتكون لهم منعة، ففي هذه الليلة التي أراد النبي ﷺ أن يخرج إلىٰ الهجرة جاءوا وحاصروا البيت، ووقفوا عند الباب معهم أسلحتهم يريدون الفتك برسول الله ﷺ فأخبر الله نبيه ﷺ فأمر النبي ﷺ عليًا أن ينام علىٰ فراشه حتىٰ يراه المشركون ويظنون أنه النبي ﷺ فنام علي رضي الله عنه علىٰ فراش رسول الله ﷺ فتغطىٰ بغطاء الرسول ﷺ فصار المشركون ينتظرون خروجه علىٰ أنه الرسول ﷺ وخرج النبي ﷺ من بينهم وهم لا يشعرون.

أعمىٰ الله بصائرهم عنه، وأخذ ترابًا وذرَّه علىٰ رءوسهم، وخرج من بينهم، وذهب إلىٰ أبي بكر رضي الله عنه وخرجا فذهبا إلىٰ غار ثور، فاختفيا فيه ثلاثة أيام، وقريش تطلب من الناس العثور عليه بأي وسيلة: حيًا أو ميتًا.

فلما يئسوا من العثور عليه بعد البحث والتنقيب؛ أغروا بالجوائز من يأتي به ﷺ حيًا أو ميتًا، فلما أيسوا خرج رسول الله ﷺ وصاحبه من الغار، وركبوا الرواحل وذهبوا إلىٰ المدينة.

❑قوله: (وَالهِجْرَةُ:...)

●الهجرة في اللغة: ترك الشيء.

أما الهجرة في الشرع: فهي -كما عرفها الشيخ- الانتقال من بلد الكفر إلىٰ بلد الإسلام، وهذه هي الهجرة الشرعية، والهجرة عمل جليل قرنه الله بالجهاد في كثير من الآيات.

لما هاجر النبيﷺ إلىٰ المدينة جاء المهاجرون الذين كانوا في الحبشة إلىٰ المدينة واجتمع المسلمون في المدينة، والحمد لله، وتكونت للمسلمين دولة في المدينة من المهاجرين والأنصار، ومن يسلم يأتي إليهم، عند ذلك شرع الله بقية شرائع الدين، ففرض علىٰ نبيهﷺ الصيام والزكاة في السنة الثانية من الهجرة، وفرض عليه الحج في السنة التاسعة من الهجرة علىٰ الصحيح، وبذلك تكاملت أركان الإسلام، أولها الشهادتان، وآخرها الحج إلىٰ بيت الله الحرام.

والحاصل من هذا: أن نعلم أن التوحيد هو المهمة الأولىٰ في الدعوة إلىٰ اللهﷻ، وأنه يبدأ الداعية به قبل أن يبدأ بالصلاة والصيام أو الزكاة أو الحج؛ لأن النبيﷺ بقي عشر سنين يدعو إلىٰ التوحيد، وينهىٰ عن الشرك، ولم يؤمر بصلاة، ولم يؤمر بزكاة ولا بحج ولا بصيام، وإنما فرضت عليه هذه الفرائض بعد أن تقرر التوحيد.

فالنبيﷺ كان إذا بعث الدعاة يأمرهم أن يدعو الناس أول ما يدعون إلىٰ التوحيد كما في حديث معاذ: «إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإن هم أجابوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات...»(٢٨٥) إلخ الحديث.

فدل علىٰ أنه لا يؤمر بالصلاة ولا الزكاة ولا بالصيام إلا بعد تحقيق التوحيد ووجود التوحيد، وأن من بدأ بغير التوحيد فإن دعوته فاشلة ومنهجه مخالف لمنهج الرسل كلهمعليهم السلام.

الرسل كلهم أول ما يبدءون به التوحيد وإصلاح العقيدة، وهذا منهج مهم معرفته للسالكين؛ لأنه كثر اليوم من يعكر علىٰ هذا المنهج فيغير هذا المنهج ويختار منهجًا لنفسه من عنده ومن عند غيره من الجهلة، لا بد من الرجوع إلىٰ منهج الرسولﷺ وهذه فائدة

---

(٢٨٥) أخرجه البخاري (١٣٩٥)، ومسلم (١٩)، وغيرهما من حديث ابن عباسرضي الله عنهما.

معرفة الرسول ﷺ وسيرته، وجعل ذلك من الأصول الثلاثة، تعرف كيف دعا الناس، وما منهجه ﷺ في دعوتهم؟ حتىٰ تسير عليه؛ لأنه هو القدوة عليه الصلاة والسلام.

قوله: (والهِجْرَةُ فَرِيضَةٌ عَلَىٰ هَذِهِ الأُمَّةِ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَىٰ بَلَدِ الإِسْلامَ...)

●الهجرة قرينة الجهاد في سبيل الله، وهي فريضة باقية غير منسوخة، يجب علىٰ كل مسلم يحتاج إلىٰ الهجرة أن يهاجر، ولا يجوز للمسلم أن يقيم في بلاد الكفر وهو لا يقدر علىٰ إظهار دينه، فيجب عليه أن يهاجر إلىٰ بلاد المسلمين فهي فريضة باقية؛ لقوله ﷺ: «لا تنقطع الهجرة حتىٰ تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتىٰ تخرج الشمس من مغربها»[٢٨٦].

قوله: (والدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ...﴾)

●هاتان الآيتان فيهما الوعيد علىٰ من ترك الهجرة وهو يقدر عليها، وأن مأواه جهنم وساءت مصيرًا، وإن كان لا يخرج من الإسلام، لكن هذه من نصوص الوعيد، وإن كان ترك الهجرة فقد ترك واجبًا وكان عاصيًا، ولكن لا يخرج من الإسلام بترك الهجرة، ولكن عليه وعيد شديد.

ثم بين الله بالآية التي بعدها العذر الذي يسقط وجوب الهجرة، قال تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ [النساء:٩٨] يعني: الأطفال ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾، ما عندهم إمكانيات، ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ۝٩٨﴾؛ أي: ما يعرفون الطريق إلىٰ البلد - المدينة؛ لأن الهجرة تحتاج إلىٰ سفر، وإلا فإن الإنسان يهلك خلال الهجرة إذا كان لا يعرف الطريق، فعذرهم في أمرين:

الأول: لا يستطيعون حيلة.

الثاني: ولا يهتدون سبيلًا، حتىٰ لو كان عندهم إمكانيات مادية، ولكنهم لا يعرفون الطريق الذي يسلكونه، من يدلهم؟هذا هو العذر الصحيح.

أما الإنسان الذي عنده إمكانيات ويعرف الطريق فهذا لا عذر له.

قوله: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ ...﴾

●هذه الآية من سورة العنكبوت، وفيها الأمر بالهجرة، وأن أرض الله واسعة، إذا كنت في بلد لا تتمكن من إظهار دينك فيها، فهناك أرض الله واسعة، انتقل منها، لا تبق

---

(٢٨٦) سبق تخريجه.

في هذه البقعة السيئة؛ بل اخرج منها إلىٰ أرض الله الواسعة، قد وسع الله الأرض سبحانه وتعالىٰ، والدليل علىٰ الهجرة من السنة قولهﷺ: «لا تنقطع الهجرة حتىٰ تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتىٰ تطلع الشمس من مغربها».

أما قولهﷺ: «لا هجرة بعد الفتح»(٢٨٧) ظاهر هذا الحديث أن الهجرة انتهت بعد فتح مكة، وظن بعض الناس التعارض بين هذا الحديث وبين قولهﷺ: «لا تنقطع الهجرة حتىٰ تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتىٰ تطلع الشمس من مغربها».

لكن أهل العلم أجابوا عن هذا الحديث، أن المراد لا هجرة بعد الفتح؛ أي: من مكة؛ لأنها صارت بالفتح دار إسلام.

يظنون أن الهجرة باقية من مكة بعد الفتح، فيريدون تحصيل ثواب الهجرة، وأما الهجرة من بلاد الكفر فهي باقية إلىٰ أن تقوم الساعة، والدليل الآيات السابقة والحديث النبوي السابق، هذا هو الجواب علىٰ هذا الإشكال.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

❑قوله: (وبَعْدَهَا أُمِرَ بِالْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ...)

●فسر الهجرة فقال: (والهجرة الانتقال من بلد الشرك إلىٰ بلد الإسلام) هذا تعريفها الاصطلاحي، والهجرة في اللغة: الترك، وفي الشرع: ترك ما لا يحبه الله ويرضاه إلىٰ ما يحبه ويرضاه، ويدخل في هذا المعنىٰ الشرعي: هجر الشرك، يدخل فيه ترك محبة غير الله ورسوله، يدخل فيه ترك بلد الكفر: لأن المقام فيه لا يرضاه الله جل وعلا ولا يحبه،

❑قوله: (والهِجْرَةُ فَرِيضَةٌ عَلَىٰ هَذِهِ الأُمَّةِ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَىٰ بَلَدِ الإِسْلَامَ)

●أما في الاصطلاح قال: (الهجرة الانتقال من بلد الشرك إلىٰ بلد الإسلام)، الانتقال؛ يعني: ترك بلد الشرك والذهاب إلىٰ بلد الإسلام، وسبب الهجرة؛ يعني: سبب إيجاب الهجرة، أو سبب مشروعية الهجرة: أن المؤمن يجب عليه أن يظهر دينه، معتزًّا بذلك، مبيِّنًا للناس، مخبرًا أنه يشهد شهادة الحق؛ لأن الشهادة لله بالتوحيد ولنبيه بالرسالة فيها إخبار الغير، وهذا الإخبار يكون بالقول والعمل، وإظهار الدين به يكون إخبار الغير عن مضمون الشهادة ومعنىٰ الشهادة، فلهذا كانت الهجرة من بلد الشرك إلىٰ بلد الإسلام

(٢٨٧) سبق تخريجه.

واجبة إذا لم يستطع المسلم إظهار دينه؛ لأن إظهار الدين واجب في الأرض، وواجب على المسلم أن يظهر دينه، وألّا يستخفي بدينه، فإذا كان إظهاره لدينه غير ممكن في دار وجب عليه أن يتركها؛ يعني: وجب عليه أن يهاجر، قال: (الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام)؛ بلد الشرك هي كل بلد يظهر فيها الشرك ويكون غالبًا؛ إذا ظهر الشرك في بلد وصار غالبًا كثيرًا أكثر من غيره؛ صارت تسمى بلد شرك، سواء كان هذا الشرك في الربوبية، أو كان في الإلهية، أو كان في مقتضيات الإلهية من الطاعة والتحكيم ونحوها. بلد الشرك هي البلد التي يظهر فيه الشرك ويكون غالبًا.

هذا معنى ما قرره الشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ اللَّهُ حينما سئل عن دار الكفر ما هي؟ قال: دار الكفر هي الدار التي يظهر فيها الكفر ويكون غالبًا.

إذن إذا ظهر الشرك في بلدة وصار ظهوره غالبا، معنى ذلك: أن يكون منتشرًا ظاهرًا بيّنًا غالبًا الخير، فإن هذه الدار تسمى بلد شرك، هذا باعتبار ما وقع وهو الشرك، أما باعتبار أهل الدار فهذه مسألة فيها خلاف بين أهل العلم أن ينظر في تسمية الدار بدار إسلام ودار شرك إلى أهلها.

وقد سئل شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ عن بلد تظهر فيها أحكام الكفر، وتظهر فيها أحكام الإسلام، فقال: هذه الدار لا يحكم عليها دار كفر، ولا أنها دار إسلام، بل يعامل المسلم فيها بحسبه، ويعامل فيها الكافر بحسبه.

وقال بعض العلماء: الدار إذا ظهر فيها الأذان وسمع وقت من أوقات الصلوات فإنها دار إسلام؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام كان إذا أراد أن يغزو قومًا أن يصبحهم، قال لمن معه: «انتظروا» فإن سمع أذانًا كف، وإن لم يسمع أذانًا قاتل، وهذا فيه نظر؛ لأن الحديث على أصله، وهو أن العرب حينما يعلون الأذان، معنى ذلك أنهم يقرون ويشهدون شهادة الحق لأنهم يعلمون معنى ذلك، وهم يؤدون حقوق التوحيد الذي اشتمل عليه الأذان، فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله ورفعوا الأذان بالصلاة، معنى ذلك أنهم انسلخوا من الشرك وتبرءوا منه، وأقاموا الصلاة، وقد قال جل وعلا: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١١]، ﴿فَإِن تَابُوا۟﴾ من الشرك، ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾، ذلك لأن العرب كانوا يعلمون

معنى التوحيد، فإذا دخلوا في الإسلام وشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، دل ذلك أنهم يعملون بمقتضى ذلك، أما في هذه الأزمنة المتأخرة فإن كثيرين من المسلمين، يقولون: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، ولا يعلمون معناها، ولا يعملون بمقتضاها، بل تجد الشرك فاشيًا فيهم، ولهذا نقول: إن هذا القيد أو هذا التعريف وهو أن دار الإسلام هي الدار التي يظهر فيها الأذان بالصلوات، أنه في هذه الأزمنة المتأخرة لا يصح أن يكون قيدًا، والدليل على أصله؛ وهو أن العرب كانوا ينسلخون من الشرك، ويتبرءون منه ومن أهله، ويقبلون على التوحيد، ويعملون بمقتضى الشهادتين، بخلاف أهل هذه الأزمان المتأخرة.

والأظهر هو الأول في تسمية الدار، ولا يلزم من كون دار ما دار شرك أو دار إسلام، أن يكون هذا حكم على الأفراد الذين في داخل الدار، بل قلنا: إن الحكم عليها بأنها دار كفر، أو دار شرك هذا في الأغلب بظهور الشرك والكفر، ومن فيها يعامل كل بحسبه، خاصة في هذا الزمن؛ لأن ظهور الكفر، وظهور الشرك بكثير من الديار، ليس من واقع اختيار أهل تلك الديار، بل هو ربما كان عن طريق تسلط، إما الطرق الصوفية مثلًا، أو عن تسلط الحكومات، أو نحو ذلك، كما هو مشاهد معروف، لهذا نقول: إن اسم الدار على نحو ما بينت، وأما أهلها يختلف الحال. قال: (**والهجرة الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام**) الهجرة من حيث مكانها تنقسم إلى هجرة عامة وإلى هجرة خاصة.

الهجرة العامة: هي التي عرفها الشيخ هنا ترك بلد الشرك إلى بلد الإسلام، الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام، بلد الشرك أي بلد إلى أن تطلع الشمس من مغربها؛ أي بلد ظهر فيها الشرك، وظهر فيها أحكام الشرك، وكان ذلك غالبًا، فإن الهجرة منها تسمى هجرة، وهذه الهجرة عامة، من حيث المكان يمكن أن تكون متعلقة بأي بلد.

أما الهجرة الخاصة: فهي الهجرة من مكة إلى المدينة، ومكة لما تركها النبي عليه الصلاة والسلام تركها وهي دار شرك، وذهب إلى المدينة؛ لأنه فشى فيها الإسلام فصار كل بيت من بيوت المدينة دخل فيه الإسلام، فصارت دار إسلام، فانتقل من بلد الشرك إلى بلد الإسلام، هاجر هجرة خاصة، وهذه الهجرة الخاصة هي التي جاء فيها قوله عليه الصلاة والسلام «**لا هجرة بعد الفتح بل جهاد ونية**» كما ثبت في الصحيح، فقوله: «لا

هجرة بعد الفتح»، يعني: لا هجرة من مكة، الهجرة الخاصة هذه من مكة إلى المدينة.

أما الهجرة العامة -الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام- فهي باقية إلى طلوع الشمس من مغربها؛ إلى قيام الساعة، إذا وجد بلد شرك، ووجد بلد إسلام، توجب الهجرة، هذا من حيث المكان.

ومن حيث الحكم، فإن الهجرة تارة تكون واجبة، وتارة تكون مستحبة؛ تكون الهجرة واجبة، -يعني من بلد الشرك إلى بلد الإسلام-إذا لم يمكن للمسلم المقيم بدار الشرك أن يظهر دينه، إذا ما استطاع أن يظهر التوحيد، ويظهر مقتضيات دينه، والصلاة وإتباع السنة، كل بلد بحسبه؛ بحسب ما فيه من الشرك، يظهر ما يخالف فيه هذا البلد، ويكون متميزًا فيهم، إذا لم يستطع ذلك، فإن الهجرة تكون واجبة عليه، وعليه حمل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[النساء:٩٧]، يعني: لم نستطع إظهار الدين، الاستضعاف هنا بمعنى عدم استطاعة إظهار الدين ﴿قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾[النساء:٩٧]، فدل هذا على أنها واجبة؛ لأنه توعدها عليهم بجهنم، فمعنى هذا: أن ترك الهجرة إذ لم يستطع إظهار الدين أنه محرم، وأن الهجرة واجبة.

القسم الثاني المستحب: وتكون الهجرة من بلد الشرك إلى بلد الإسلام مستحبة، إذا كان المؤمن في دار الشرك يستطيع أن يظهر دينه، تكون مستحبة، وذلك لأن الأصل الأول من الهجرة أن يتمكن المؤمن من إظهار دينه، وأن يعبد الله جل وعلا على عزة، قد قال جل وعلا: ﴿يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّـٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[العنكبوت:٥٦]، نزلت في من ترك الهجرة، وناداهم باسم الإيمان. هذه الأحكام متعلقة بالهجرة من دار الكفر والشرك إلى دار الإسلام، وهناك هجرة أخرى من دار يكثر فيها المعاصي والبدع إلى دار ليس فيها معاصٍ وبدع أو تقل فيها المعاصي والبدع، وهذه ذكر الفقهاء -فقهاء الحنابلة رحمهم الله- أنها مستحبة، وأن البلد إذا كثر فيه الكبائر والمعاصي، فإنه يستحب له أن يتركها إلى دار يقل فيها ذلك أوليس فيها شيء من ذلك؛ لأن بقاءه على تلك الحال مع أولئك، يكون مع المتوعدين بنوع من العذاب الذي يحيط بأهل القرى الذين ظلموا.

وقد هاجر جمع من أهل العلم من بغداد لما علا فيها صوت المعتزلة وصوت أهل

البدع، وكثرت فيها المعاصي والزنا وشرب الخمر، تركوها إلىٰ بلد أخرىٰ، وبعض أهل العلم بقي لكي يكون قائمًا بحق الله؛ بالدعوة وببيان العلم وبالإنكار وبنحو ذلك، أيضًا كثير من العلماء تركوا مصر لما استولت عليها الدولة العبيدية، وخرجوا إلىٰ غيرها، وهذا قد يحمل علىٰ أنها من الهجرة المستحبة، أو من الهجرة الواجبة، بحسب الحال في ذلك الزمن.

قال هنا رَحِمَهُ اللَّهُ: (والهجرة فريضة علىٰ هذه الأمة من بلد الشرك إلىٰ بلد الإسلام) فرض بقيد أن لا يستطيع إظهار دينه، فإن كان يستطيع كما ذكرت لك فإن الهجرة في حقه مستحبة.

☐قوله: (وَهِيَ بَاقِيَةٌ إِلَىٰ أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ...)

● يريد إلىٰ قرب قيام الساعة وهو طلوع الشمس من مغربها، كما جاء في الحديث: «لا تنقطع الهجرة حتىٰ تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتىٰ تطلع الشمس من مغربها».

قال رَحِمَهُ اللَّهُ مستدلًا: والدليل قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [النساء:٩٧] ظلم النفس بترك الهجرة؛ لأنهم عصوا الله جل وعلا في ترك الهجرة، ومكة لم يعد في إمكان المؤمنين أن يظهروا دينهم فيها، فقد تسلط الكفار علىٰ أهلها، فلم يستطيعوا -أعني المؤمنين- أن يظهروا دينهم، وهذا هو قائم من أول الدعوة، تسلطوا فترة وكان إظهار الدين في أول الدعوة ليس واجبًا، ثم أمروا بذلك بقوله تعالىٰ: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [الحجر:٩٤،٩٥] فابتلي من ابتلي من المؤمنين فلم يستطيعوا إظهار دينهم، فاستأذنوا النبي ﷺ بالهجرة إلىٰ الحبشة، فأذن بالهجرة إلىٰ الحبشة؛ الهجرة الأولىٰ ثم الثانية، وقيل: ثم هجرة ثالثة، ثم لما لم يعد في الإمكان أن يظهر الدين في مكة، وقد قامت بلد الإسلام في المدينة؛ صارت الهجرة متعينة وفرضًا من مكة إلىٰ المدينة، لهذا قال جل وعلا هنا: ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟﴾؛ يعني: الملائكة مخاطبين هؤلاء الذين توفتهم الملائكة وقد تركوا الهجرة ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾ يعني علىٰ أي حال كنتم! ﴿قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النساء:٩٧] فأجابت الملائكة ﴿قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ وهذا إنكار عليهم -ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها- لأن الاستفهام هنا في ﴿أَلَمْ﴾ استفهام للإنكار، وضابطه أن يكون ما بعده باطلًا، إذا أزلت الهمزة وقرأت ما بعدها، فإذا كان ما بعدها غير صحيح صارت الهمزة إذن للإنكار، إذا تركت الهمزة صار الكلام لم تكن أرض الله واسعة هل هذا صحيح؟ ليس بصحيح،

فأرض الله جل وعلا واسعة، ولما أتى الاستفهام في الهمزة بعدها كلام يكون بدون الهمزة باطلًا، تصير الهمزة للإنكار، كما هو مقرر في موضعه في كتب شروح المعاني في اللغة قال ﴿فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾ [النساء:٩٧] فدل على أنهم تركوا الهجرة، فهذه الآية على أن من ترك الهجرة مع القدرة على ذلك أنه مشرك وكافر، من دين من أقام معهم، وهذا ليس بصحيح، بل إن هذه الآية في المؤمنين ؛لأنه قال في أولها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾[النساء:٩٧] فهؤلاء ظلموا أنفسهم، ليس الظلم الأكبر، ولكن الظلم الأصغر بترك الهجرة، قال جل وعلا بعدها: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾﴾: رجال مستضعفون، لا يمكنهم أن يعرفوا الطريق، لا يهتدون سبيلًا إلى البلد الآخر ولا يستطيعون حيلة، ليس عندهم ما يركبون، وليس عندهم مال ينقلهم، فهم مستضعفون يريدون الهجرة؛ ولكنهم مستضعفون من جهة عدم القدرة على الهجرة من المال، والمركب، والدليل ونحو ذلك، فقال جل وعلا في هؤلاء: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾[النساء:٩٩] ويلحق بهؤلاء من لم يستطع الهجرة في هذا الزمن بالمعوقات القائمة من أنواع التأشيرات وأشباهها؛ لأن هذا لا يستطيع حيلة، هو يرغب أن يترك بلد الشرك إلى بلد الإسلام، لكن لا يمكنه ذلك لوجود المعوقات لا يستطيع حيلة ولا يهتدي سبيلًا، أو طريقًا إلى بلد الإسلام، فهؤلاء قال جل وعلا في حقهم: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ ثم ساق دليلًا آخر وهو قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[العنكبوت:٥٦].

❑قوله: (سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الآيَةِ فِي الْمُسْلِمِينَ ...)

● دَّل على أن ترك الهجرة لا يسلب الإيمان، فمعنى ذلك أن ترك الهجرة ليس شركًا أكبرًا، وليس كفرًا أكبرًا، وإنما هو معصية من المعاصي؛ لأنه نادى من ترك الهجرة باسم الإيمان، ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾، قال البغوي: نزلت هذه الآية في الذين لم يهاجروا من مكة ناداهم الله باسم الإيمان، دل أن من ترك الهجرة من مكة ليس كفرًا ولا شركًا، وأن قوله في الآية التي قبلها: ﴿مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ أن هذا لأجل أنهم تركوا واجبًا من الوجبات، وارتكبوا كبيرة من الكبائر، لكن لا يسلب منهم الإيمان بترك الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام.

❑قوله: (والدَّلِيلُ عَلَى الْهِجْرَةِ مِنَ السُّنَّةِ...)

● من الواضح أن التوبة لا تنقطع إلا إذا طلعت الشمس من مغربها، وطلوع الشمس من مغربها هو المراد بقوله تعالى في آخر سورة الأنعام: ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾[الأنعام:١٥٨]، قال المفسرون: إن معنى: ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾أنه طلوع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾، فلا تنفع التوبة بعد طلوع الشمس من مغربها، كما قال هنا: (ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها)، فالهجرة لا تنقطع حتى تنقطع التوبة، والتوبة لا تنقطع حتى تطلع الشمس من مغربها، وذلك لأن تارك الهجرة حتى طلعت الشمس من مغربها قد ترك فرضًا عليه، إذا طلعت الشمس من مغربها ليس ثم عمل ينفع العبد قال: ﴿لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾، والعمل بعض الإيمان.

الدرس التاسع عشر:

[اكتمال الشريعة]

فَلَمَّا اسْتَقَرَّ بِالْمَدِينَةِ أَمَرَ بِبَقِيَّةِ شَرائِعِ الإِسْلامِ مِثْلُ: الزَّكَاةِ، والصَّوم، وَالْحَجِّ، وَالجِهَادِ، والأَذَانِ، والأَمرِ بالمَعْرُوفِ والنَّهيِ عَنِ المُنْكَرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ شَرَائِعِ الإِسْلامِ.

أَخَذَ عَلَىٰ هَذَا عَشْرَ سِنِينَ وَبَعْدَهَا تُوفِّي صَلَوَاتُ الله وَسَلامُهُ عَلَيْهِ وَدِينُهُ بَاقٍ. وَهَذَا دِينُهُ، لاَ خَيْرَ إِلاَّ دَلَّ الأُمَّةَ عَلَيْهِ، وَلاَ شَرَّ إِلاَّ حَذَّرَهَا مِنْهُ. والخَيْرُ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ: التَّوْحِيدُ، وَجَمِيعُ مَا يُحِبُّهُ الله ويَرْضَاهُ. والشَّرُّ الَّذِي حَذَّر مِنْهُ: الشِّرْك وَجَمِيعُ مَا يَكْرَهُهُ الله ويَأْبَاهُ. بَعَثَهُ الله إِلَىٰ النَّاسِ كَافَّةً، وَافْتَرَضَ الله طَاعَتَهُ عَلَىٰ جَمِيعُ الثَّقَلَينِ: الجِنِّ وَالإِنْسِ، والدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨]. وَأَكْمَلَ الله بِهِ الدِّينَ، والدَّلِيل قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[٢٨٨] [المائدة:٣]. وَالدَّلِيلُ عَلَىٰ مَوْتِهِ ﷺ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ۝٣١﴾ [الزمر:٣٠،٣١].

الشرح

قال العلامة ابن باز:

١- قوله: (فَلَمَّا اسْتَقَرَّ بِالْمَدِينَةِ ...)

● فلما استقر في المدينة بعد الهجرة أمره الله ببقية شرائع الإسلام: من الزكاة،

---

(٢٨٨) والمراد باليوم يوم الجمعة، وكان يوم عرفة بعد العصر في حجة الوداع هكذا ثبت في «الصحيح» من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والمعنى: أن الله تبارك وتعالىٰ أخبر أن هذا اليوم المبارك العظيم أكمل في الدين الذي جاء به خاتم المرسلين فهو غير محتاج إلىٰ إكمال لظهوره علىٰ الأديان كلها وغلبته له، ولكمال أحكامه التي يحتاج إليها المسلمون من حلال وحرام ومشتبه وفرائض وسنن وحدود وأحكام، وقد قال ﷺ: «تركتكم علىٰ مثل البيضاء ليلها ونهارها سواء»

وفيه بيان جلي بأن كل ما أحدث في الدين فهو بدعة ضلالة لم يأذن بها الله ولا رسوله، والمتسبب لها ضال مضل زائد علىٰ ما في الكتاب والسنة، اللهم اهد خلقك لدينك الخالص وصراطك المستقيم [الدمشقي].

وصيام رمضان، وحج البيت، والجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؛ لأن المدينة صارت دار إسلام، وهي العاصمة الأولىٰ للمسلمين؛ فلهذا أمروا بهذه الأمور؛ لأنهم يتمكنون حينئذٍ من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا من رحمة اللهﷻ أنْ أَجَّل هذه الواجبات إلىٰ أن هاجر إلىٰ المدينة، وكان أصل الزكاة مشروعًا في مكة، كما قال -تعالىٰ- في سورة «الأنعام» وهي مكية: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾[الأنعام:١٤١]، ولكن أنصباؤها ومصارفها وتفاصيل أحكامها، كل هذا صار في المدينة، وهكذا صيام رمضان شرع في السنة الثانية من الهجرة، وهكذا الحج شرع في السنة التاسعة أو العاشرة من الهجرة، وأنزل الله فيه: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾[آل عمران:٩٧] في سورة «آل عمران» وهي مدنية، وهكذا الجهاد أمر به في المدينة، وكان في أول الأمر يجاهد من جاهده، ويكف عمن كف عنه، ثم أمر بأن يبدأ بالقتال، وأن يجاهد الكفار وإن لم يبدءوا، فيدعوهم إلىٰ الله يرشدهم إليه، فإن أجابوا وإلا قاتلهم حتىٰ يستجيبوا للحق إلا أهل الكتاب فإنه يقبل منهم الجزية. وسن الله في المجوس سنة أهل الكتاب؛ إما إسلام وإما جزية، وأما بقية الكفار؛ إما الإسلام، وإما السيف مع القدرة.

❑قوله: (أَخَذَ عَلَىٰ هَذَا عَشْرَ سِنِينَ ...)

● وبعدما أكمل الله به الدين توفاه الله إليه بعد عشر سنين من الهجرة، قال تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[المائدة:٣].

وقال جل وعلا: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ۝٣١﴾[الزمر:٣٠،٣١]

قال العلامة ابن قاسم:

❑ قوله: (فَلَمَّا اسْتَقَرَّ بِالْمَدِينَةِ أَمَرَ بِبَقِيَّةِ شَرَائِعِ الإِسْلامِ...)

● أي: لما هاجر من مكة إلىٰ المدينة واستقر بها وفشا التوحيد ودان به أولئك وأقاموا الصلاة، أمر ببقية شرائع الإسلام التي تَعَبَّد الله خلقه بها؛ إذ عامة شرائع الإسلام لم تشرع إلا في المدينة.

قال تعالىٰ: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[الأعراف:١٥٧]، وهذه صفته في الكتب المتقدمة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عام وفرض علىٰ كل

واحد بحسبه، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران:١١٠]، وقال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران:١٠٤]، وأعلاه باليد، فمن لم يقدر فبلسانه، فمن لم يقدر فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان، والأمر بالمعروف من أعظم شرائع الإسلام، وأعظمه الجهاد الذي هو ذروة الإسلام، وأمر به هو الزكاة والصوم سنة اثنتين من الهجرة، وأما الحج فسنة تسع عند الجمهور.

❑ قوله: (وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ شَرَائِعِ الإِسْلامِ)

● كَبِرِّ الوالدين، وصلة الأرحام، وأداء الأمانات، وسائر مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، كما هو معروف من شريعته ﷺ.

❑ قوله: (أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ)

● كلها توحى إليه فيها الشرائع، أركانها وواجباتها ومستحباتها، وما ينافي ذلك.

❑ قوله: (وَبَعْدَهَا تُوُفِّي صَلَوَاتُ الله وَسَلامُهُ عَلَيْهِ)

● بعدما أكمل الله به الدين، وبلغ البلاغ المبين، قال أبو ذر: «ما توفي رسول الله ﷺ إلا وما طائر يقلب جناحيه إلا ذكر لنا منه علمًا»[(٢٨٩)].

❑ قوله: (وَدِينُهُ بَاقٍ)

● موجود، وهو ما تضمنه الكتاب والسنة، مؤيد محفوظ إلى يوم القيامة، كاف لمن تمسك به، وقال ﷺ: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا: كتاب الله، وسنتي»[(٢٩٠)].

❑ قوله: (وَهَذَا دِينُهُ)

● الذي ترك أمته عليه، وتكفل الله بحفظه، فتوارثه أهل العلم والدين خلفًا عن سلف، قال السلف: هذا عهد رسول الله ﷺ إلينا، ونحن عهدناه إليكم، وهذه وصية ربنا وفرضه علينا، وهي وصيته وفرضه عليكم، فجرى الخلف على منهاج السلف، واقتفوا آثارهم، ولا يزالون إلى يوم القيامة.

---

(٢٨٩) سيأتي تخريجه إن شاء الله.

(٢٩٠) أخرجه الحاكم (٩٦/١)، والبيهقي (١١٤/١٠)، وغيرهما من حديث أبي هريرة ﷺ، وصححه العلامة الألباني في «صحيح الجامع» (٢٩٣٧).

❑ قوله: (لاَ خَيْرَ إلاَّ دَلَّ الأُمَّةَ عَلَيْهِ)

● كما تقدم في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾[التوبة:١٢٨]، فصلوات الله وسلامه عليه، كما بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة.

❑ قوله: (وَلاَ شَرَّ إلاَّ حَذَّرَهَا مِنْهُ)

● خوفًا على أمته من الوقوع في المهالك، وقد بلغ الدين كله، وبينه جميعه، كما أمره الله ﷺ، وفي الحديث الشريف: «ما بعث من نبي إلا كان حقا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، ويحذرهم من شر ما يعلمه لهم»(٢٩١).

❑ قوله: (والخَيْرُ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ: التَّوْحِيدُ)

● فهو أصل كل خير وأعظمه، وأوجب الواجبات، ولأجله أرسلت الرسل وأنزلت الكتب.

❑ قوله: (وَجَمِيعُ مَا يُحِبُّهُ الله ويَرْضَاهُ)

● من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

❑ قوله: (والشَّرُّ الَّذِي حَذَّر مِنْهُ: الشِّرْك)

● فهو أصل كل شر وأعظمه، وأول ما أمر به ﷺ الإنذار عنه، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ ﴾[المدثر:١،٢]؛ أي: عن الشرك، وكذا كل رسول يحذر أمته عن الشرك ويدعوهم إلى التوحيد.

❑ قوله: (وَجَمِيعُ مَا يَكْرَهُهُ الله ويَأبَاهُ)

● أي: يمنعه من الأقوال والأعمال.

❑ قوله: (بَعَثَهُ الله إلَى النَّاسِ كَافَّةً)

● يعني: بعث الله نبينا محمدًا ﷺ إلى كافة الناس، عربهم وعجمهم، ذكرهم وأنثاهم، حرهم وعبدهم، أحمرهم وأسودهم، ولا نزاع في ذلك بين المسلمين.

❑ قوله: (وَافْتَرَضَ الله طَاعَتَهُ...)

● بإجماع المسلمين، وقرن بطاعته في غير موضع من كتابه.

---

(٢٩١) أخرجه مسلم (١٨٤٤)، وابن ماجه (٣٩٥٦)، وغيرهما من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

❑ قوله: (والدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾)

● وهذا عموم ظاهر في عموم بعثه إلى الناس جميعًا، عربهم وعجمهم، و ﴿جَمِيعًا﴾ تأكيد بعثه إلى الناس كافة، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[سبأ:٢٨]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾﴾[الإسراء:١٠٥]، ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾[الفتح:٢٩]، وسورة الرحمن، وسورة الجن، وغيرهما، دالة أوضح دلالة على شمول رسالته إلى الجن والإنس، وقال: «إن الرسل قبلي يبعثون إلى قومهم خاصة، وبعثت إلى الناس كافة»[٢٩٢]، وهذا من شرفه ﷺ أنه خاتم النبيين، وأنه مبعوث إلى الناس كافة، وهو معلوم من الدين أنه صلوات الله وسلامه عليه رسول الله إلى الثقلين كلهم، وأن طاعته فرض عليهم كلهم، وهو مقتضى رسالته ﷺ لا يمتري في ذلك إلا مكابر معاند.

❑ قوله: (وَأَكْمَلَ اللهُ بِهِ الدِّينَ)

● أي: لم يتوف ﷺ حتى أكمل الله به الدين، وبلغ البلاغ المبين، حتى قال: «تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك»[٢٩٣].

❑ قوله: والدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾

● هذه الآية لم تنزل إلا قبل وفاته ﷺ بثمانين يومًا، نزلت عليه وهو واقف بعرفة يخطب الناس، وهذا أكبر نعم الله على هذه الأمة، حيث أكمل لها دينها، فلا يحتاجون إلى دين سواه، ولا إلى نبي غير نبيهم صلوات الله وسلامه عليه، وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾[الأنعام:١١٥]؛ أي: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأوامر والنواهي، وفيها بيان أن الله أكمل لنا الدين، وإنه كمل من جميع وجوهه، والكامل لا يزاد فيه، ولا ينقص منه، ولا يبدل، قال تعالى: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾، فمن ادعى أنه يحتاج إلى زيادة فقد كذب وافترى، ورد مدلول هذه الآية ومدلول قوله ﷺ: «إياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»[٢٩٤].

---

(٢٩٢) أخرجه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١)، وغيرهما من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٢٩٣) سبق تخريجه.

(٢٩٤) سبق تخريجه.

❑ قوله: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾

● لما أخبر تعالىٰ أنه أكمل لنا الدين، وهو أكبر نعمة علينا قال: ﴿وَأَتْمَمْتُ﴾؛ أي: أكملت ﴿عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾، ومن تمت عليه النعمة فقد أفلح كل الفلاح.

❑ قوله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾

● أي: فارضوه أنتم لأنفسكم، فإنه الدين الذي أحبه ورضيه، وبعث به أفضل الرسل، وأنزل به أشرف كتبه، قال كعب: لو نزلت هذه الآية علىٰ غير هذه الأمة لا اتخذوا اليوم الذي أنزلت عليهم فيه عيدًا، قال عمر: نزلت يوم جمعة يوم عرفة، وكلاهما بحمد الله لنا عيد، وكذا قال حبر الأمة.

❑ قوله: (وَالدَّلِيلُ عَلَىٰ مَوْتِهِ ﷺ)

● أي من النقل مما يطابق الحس.

❑ قوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾

● أي: أنك يا محمد ستموت، وقام أبو بكر لما توفي ﷺ يبكي، وقال: وقال بأبي أنت وأمي، أما الموتة التي كتبت عليك فقد متها، وقال تعالىٰ: ﴿أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾[آل عمران:١٤٤]، نعم هو حي ﷺ في قبره حياة برزخية أعلىٰ وأكمل من حياة الشهداء المذكورة في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾[آل عمران:١٦٩]، أما الحياة الجثمانية فلا ريب أنه مات ﷺ، غسل وكفن وصلي عليه، ودفن في ضريحه صلوات الله وسلامه عليه، ولم يقل: إنه لم يمت إلا المبتدعة الخارجة عن منهج الكتاب والسنة، مخافة أن ينتقص عليهم أصلهم الباطل في توجههم إليه، وسؤاله ما لا يقدر عليه، وإلا فموته ﷺ معلوم بالسمع والمشاهدة، مشهور يعلمه العام والخاص لا يمتري فيه إلا مكابر.

❑ قوله: ﴿وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾

● أي: سيموتون، قال تعالىٰ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾[آل عمران:١٨٥].

❑ قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾

● فيما أنتم فيه في الدنيا من التوحيد والشرك بين يدي الله تعالىٰ، كما في سورة القيامة، وآخر يس، وغيرهما من السور، فالإيمان بالبعث والنشور من القبور من جملة

الإيمان باليوم الآخر، فإن الإيمان باليوم الآخر يشمل الإيمان بالبعث، بل الإيمان بالبعث هو معظم الإيمان باليوم الآخر، وهو الذي كان ينكره أهل الجاهلية، أنكروا أن تعود هذه الأجساد كما كانت عظامها ولحمها وعصبها، وذلك من جهلهم بكمال علمه تعالىٰ وقدرته علىٰ كل شيء، ولهذا يقرر تعالىٰ بعث الأجساد وردها كما كانت في مواضع من كتابه بكمال علمه وقدرته.

قال العلامة العثيمين:

❑ قوله: (فَلَمَّا اسْتَقَرَّ بِالْمَدِينَةِ)

●أي: النبي ﷺ - في المدينة النبوية أمر ببقية شرائع الإسلام، وذلك أنه في مكة دعا إلىٰ التوحيد نحو عشر سنين، ثم بعد ذلك فرضت عليه الصلوات الخمس في مكة، ثم هاجر إلىٰ المدينة ولم تفرض عليه الزكاة ولا الصيام ولا الحج ولا غيرها من شعائر الإسلام. وظاهر كلام المؤلف رحمه الله: أن الزكاة فرضت أصلًا وتفصيلًا في المدينة، وذهب بعض أهل العلم إلىٰ أن الزكاة فرضت أولًا في مكة؛ لكنها لم تقدر أنصباؤها ولم يقدر الواجب فيها، وفي المدينة قدرت الأنصباء وقدر الواجب، واستدل هؤلاء بأنه جاءت آيات توجب الزكاة في سور مكية مثل قوله تعالىٰ في سورة الأنعام: ﴿ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ﴾[الأنعام:١٤١]، ومثل قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾[المعارج:٢٤،٢٥] وعلىٰ كل حال فاستقرار الزكاة وتقدير أنصبائها وما يجب فيها وبيان مستحقيها كان في المدينة، وكذلك الأذان والجمعة، والظاهر أن الجماعة كذلك لم تفرض إلا في المدينة؛ لأن الأذان الذي فيه الدعوة للجماعة فرض في السنة الثانية، فأما الزكاة والصيام فقد فرضا في السنة الثانية من الهجرة، وأما الحج فلم يفرض إلا في السنة التاسعة علىٰ القول الراجح من أقوال أهل العلم، وذلك حين كانت مكة بلد إسلام بعد فتحها في السنة الثامنة من الهجرة، وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغيرهما من الشعائر الظاهرة كلها فرضت في المدينة بعد استقرار النبي ﷺ فيها وإقامة الدولة الإسلامية فيها.

❑ قوله: (أَخَذَ عَلَىٰ هَذَا عَشْرَ سِنِينَ وَبَعْدَهَا تُوُفِّيَ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ)

●أخذ -أي النبي ﷺ- عشر سنين بعد هجرته فلما أكمل الله به الدين وأتم به النعمة

على المؤمنين اختاره الله لجواره واللحاق بالرفيق الأعلى مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، فابتدأ به المرض صلوات الله وسلامه عليه في آخر شهر صفر وأول شهر ربيع الأول، فخرج إلى الناس عاصبًا رأسه فصعد المنبر فتشهد وكان أول ما تكلم به بعد ذلك أن استغفر للشهداء الذين قتلوا في أحد ثم قال: «**إن عبدًا من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله** ففهمها أبو بكر رضي الله عنه فبكى وقال: بأبي وأمي نفديك بآبائنا وأمهاتنا، وأبنائنا، وأنفسنا، وأموالنا فقال النبي ﷺ: **على رسلك يا أبا بكر**؛ ثم قال: **إن أَمَنَّ الناس علي في صحبته وماله أبو بكر ولو كنت متخذًا خليلًا غير ربي لاتخذت أبا بكر ولكن خلة الإسلام ومودته**»(٢٩٥). وأمر أبا بكر أن يصلي بالناس ولما كان يوم الاثنين الثاني عشر أو الثالث عشر من شهر ربيع الأول من السنة الحادية عشرة من الهجرة اختاره الله لجواره فلما نزل به جعل يدخل يده في ماء عنده ويمسح وجهه ويقول: «**لا إله إلا الله إن للموت سكرات**»(٢٩٦) ثم شخص بصره نحو السماء وقال: «**اللهم في الرفيق الأعلى**»(٢٩٧). فتوفي ذلك اليوم فاضطرب الناس لذلك وحق لهم أن يضطربوا، حتى جاء أبو بكر رضي الله عنه فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإن من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ثم قرأ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ [آل عمران:١٤٤]، ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾ [الزمر:٣٠] فاشتد بكاء الناس وعرفوا أنه قد مات، فغسل صلوات الله وسلامه عليه في ثيابه تكريمًا له، ثم كفن بثلاثة أثواب؛ أي: لفائف بيض سحولية ليس فيها قميص ولا عمامة، وصلى الناس عليه إرسالًا بدون إمام، ثم دفن ليلة الأربعاء بعد أن تمت مبايعة الخليفة من بعده فعليه من ربه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

❑ قوله: (بَعَثَهُ الله إِلَىٰ النَّاسِ كَافَّةً)

● بعثه الله؛ أي: أرسله إلى الناس كافة؛ أي: جميعًا.

---

(٢٩٥) أخرجه البخاري (٣٩٠٤)، ومسلم (٢٣٨٢)، وغيرهما من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢٩٦) أخرجه البخاري (٤٤٤٩)، وغيره من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢٩٧) أخرجه البخاري (٤٤٦٣)، ومسلم (٢٤٤٤/٨٧)، وغيرهما من حديث عائشة رضي الله عنها.

❑ قوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾

●في هذه الآية دليل على أن محمدًا رسول الله ﷺ إلى الناس جميعًا، وأن الذي أرسله له ملك السموات والأرض، ومن بيده الإحياء والإماتة، وأنه سبحانه هو المتوحد بالألوهية كما هو متوحد في الربوبية، ثم أمر سبحانه وتعالى في آخر الآية أن نؤمن بهذا الرسول النبي الأمي وأن نتبعه وأن ذلك سبب للهداية العلمية والعملية، هداية الإرشاد، وهداية التوفيق فهو عليه الصلاة والسلام رسول إلى جميع الثقلين وهم الإنس والجن وسموا بذلك لكثرة عددهم.

❑ قوله: (وَأَكْمَلَ الله بِهِ الدِّينَ، والدَّلِيل...)

●أي: أن دينه عليه الصلاة والسلام باق إلى يوم القيامة فما توفي رسول الله ﷺ، إلا وقد بين للأمة جميع ما تحتاجه في جميع شئونها حتى قال أبو ذر رضي الله عنه: «ما ترك النبي ﷺ، طائرًا يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علمًا»(٢٩٨). وقال رجل من المشركين لسلمان الفارسي رضي الله عنه: علمكم نبيكم حتى الخراءة -آداب قضاء الحاجة- قال: «نعم، لقد نهانا أن نستقبل القبلة بغائط أو بول أو نستنجي بأقل من ثلاثة أحجار، أو أن نستنجي باليمين، أو أن نستنجي برجيع أو عظم»(٢٩٩). فالنبي ﷺ بيّن كل الدين؛ إما بقوله، وإما بفعله، وإما بإقراره ابتداءً أو جوابًا عن سؤال، وأعظم ما بين عليه الصلاة والسلام التوحيد.

وكل ما أمر به فهو خير للأمة في معادها ومعاشها، وكل ما نهى عنه فهو شر للأمة في معاشها ومعادها، وما يجهله بعض الناس ويدعيه من ضيق في الأمر والنهي فإنما ذلك لخلل البصيرة وقلة الصبر وضعف الدين، وإلا فإن القاعدة العامة أن الله لم يجعل علينا في الدين من حرج وأن الدين كله يسر وسهولة قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾[البقرة:١٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[الحج:٧٨] وقال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾[المائدة:٦] فالحمد لله على تمام نعمته وإكمال دينه.

---

(٢٩٨) أخرجه الطبراني (١٦٤٧)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه، وصححه العلامة الألباني في «الصحيحة» (١٨٠٣).

(٢٩٩) أخرجه مسلم (٢٦٢)، وأبو داود (٧)، والترمذي (١٦)، وغيرهم من حديث سلمان رضي الله عنه.

❑ قوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ۝٣١﴾

●ففي هذه الآية أن النبي ﷺ ومن أرسل إليهم ميتون، وأنهم سيختصمون عند الله يوم القيامة فيحكم بينهم بالحق ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلًا.

قال العلامة الفوزان:

❑قوله: (فَلَمَّا استَقَرَّ بالمَدِينَة...)

●هذا كما سبق بيانه أن الشريعة نزلت بالتدريج حتى تكاملت -ولله الحمد- قبل وفاة النبي ﷺ، وأنزل الله عليه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[المائدة:٣]، وبعد نزول هذه الآية بمدة يسيرة توفي النبي ﷺ ودينه باق إلى أن تقوم الساعة.

❑قوله: (وَأَكْمَلَ الله بِهِ الدِّينَ، والدَّلِيل...)

● فلم يُتوف ﷺ إلا بعد أن أكمل الله به الدين وأتم به النعمة، وأنزل عليه قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ وهو واقف في عرفة في حجة الوداع من يوم الجمعة، وعاش بعدها ﷺ مدة يسيرة وانتقل إلى الرفيق الأعلى، وترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك.

وفي هذه الآية شهادة من الله -سبحانه وتعالى- على كمال هذا الدين وشموله لمصالح العباد وحل قضاياهم ومشاكلهم إلى أن تقوم الساعة، وهو صالح لكل زمان ومكان لا يحتاجون بعده إلى شريعة أخرى، أو إلى كتاب ينزل، أو إلى رسول يبعث بعد الرسول ﷺ فما من قضية تَجِدُّ وما نازلة تنزل إلى يوم القيامة إلا وفي شريعة محمد ﷺ حلها والحكم فيها؛ ولكن الشأن فيمن يحسن الاستنباط والاستدلال في الأحكام والقضايا، فإذا توفر أهل العلم، وأهل الاجتهاد الذين تتوفر فيهم شروط الاجتهاد فإن هذه الشريعة كاملة وفيها حل المشاكل كلها، وإنما يحصل النقص من ناحيتنا نحن، من ناحية قصور العلم وعدم إدراك ما أنزل الله -سبحانه وتعالى، أو من ناحية الهوى بأن يكون هناك هوى يصرف عن الحق، وإلا فهذا الدين صالح وشامل وكامل قد أغنى الله به الأمة الإسلامية إلى أن تقوم الساعة إذا ما عملت به حق العمل، ورجعت إليه في أمورها.

قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[النساء:٥٩] الرد إلى الله هو الرد إلى كتاب الله، والرد إلى الرسول بعد وفاته هو الرد إلى سنته، قال تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[الشورى:١٠].

فهذه الآية فيها رد على الذين يرمون الشريعة الإسلامية بالقصور أو النقص من الملاحدة والزنادقة أو أنصاف المتعلمين الذين قصرت أفهامهم عن إدراك أسرار هذه الشريعة، فنسبوا القصور إلى الشريعة ولم يعلموا أن القصور من عندهم هم، ففيها رد على من اتهم الشريعة بالنقص، وأنها لم تتناول حاجات العباد، ومصالح العباد إلى أن تقوم الساعة.

أو قال: إنها مخصوصة بالزمان الأول؛ لأن كثيرًا من الجهال إذا قيل لهم هذا الحكم الشرعي قالوا: هذا زمان الرسول والزمان الأول، أما الآن تغيرت الأحوال وتبدلت الأمور، والأحكام الشرعية هذه لأناس مضوا ولمشاكل انتهت، يقولون هذا، وهذا كفر بالله ﷻ وتكذيب لقوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾[المائدة:٣] أكمل الله الدين لهذه الأمة إلى أن تقوم الساعة لكل زمان ولكل مكان ولكل جيل من الناس.

وفيها رد -أيضًا- على المبتدعة الذين يحدثون عبادة من عند أنفسهم وينسبونها إلى الدين وليس لها دليل من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وإنما ابتدعوها باستحسانهم أو بتقليدهم لمن يحسنون به الظن من المخرفين، وأصحاب المطامع والشهوات، فيحدثون في الدين عبادة ما أنزل الله بها من سلطان، وقد قال ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»[٣٠٠]، وقال عليه الصلاة والسلام: «وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»[٣٠١].

فالذي يحدث عبادات ليس لها دليل من كتاب الله ولا من سنة رسول الله؛ فإنه مُتَّهِمٌ لهذا الدين بعدم التمام، وهو يريد أن يكمل الدين من عنده، ولا يعترف بتكميل الله له، فما لم يكن دينًا في عهد النبي ﷺ؛ فإنه لا يكون من بعده دينًا أبدًا، فهذا رد على هذه الطوائف.

الطائفة التي تقول: إن الإسلام لا يصلح لكل زمان، أو الذين يبتدعون البدع

---

(٣٠٠) سبق تخريجه.

(٣٠١) سبق تخريجه.

المحدثات التي ليس لها دليل من كتاب الله وسنة رسوله وينسبونها إلى الدين ففي هذه الآية رد عليهم ؛ لأن الدين أكمله الله سبحانه وتعالى، فلا مجال للزيادة فيه، ولا النقصان، ولا مجال للتشكيك والتلبيس بأنه لا يصلح لأهل الزمان المتأخر: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ هذا كلام الله -سبحانه وتعالى- وهو أصدق القائلين وقال تعالى: ﴿ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ هذا آخر ما نزل على النبيﷺ، وهو شهادة من رب العاملين لهذا الدين بالكمال والشمولية والصلاحية لكل زمان ومكان.

فقوله تعالى خطاب لهذه الأمة من أولها إلى آخرها ليس خطابًا للجيل الأول فقط إنما هو خطاب لكل الأمة إلى أن تقوم الساعة.

أما الإجماع: فقد أجمعت الأمة على وفاتهﷺ لم يخالف في هذا إلا المخرفون الذين يقولون: إن الرسول -صلي الله عليه وسلم- ما مات، وينفون الموت عن الرسولﷺ هذا كلام ساقط كلام مردود واضح، يرده الحس والواقع، فإن الرسولﷺ توفي بين أصحابه وغُسِّل وكُفِّن وصُلِّي عليه ودُفِنَ -عليه الصلاة والسلام.

هل هذه الأعمال تعمل مع إنسان حي؟! عوملﷺ معاملة الأموات غُسِّل وكُفِّن وصُلِّي عليه ثم دُفِنَﷺ في قبره.

هذه سنة اللهﷻ في خلقه، ثم أين الرسل الذين من قبله؟ سنته سنة الرسل الذين من قبله، وقد ماتوا وهو واحد منهم يموت، هذا بإجماع أهل السنة والجماعة ولم يخالف في هذا إلا المخرفون الذين يتعلقون على الرسولﷺ ويستغيثون به من دون الله ويقولون: هو حي.

□قوله: (وَالدَّلِيلُ عَلَىٰ مَوْتِهِﷺ قوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ...﴾)

● النبيﷺ لما أكمل الله به الدن وأتم به النعمة توفاه إليه كما هي سنة الله -سبحانه وتعالى- في خلقه ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾[آل عمران:١٨٥] والأنبياء والرسل داخلون في هذا العموم: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾فالنبيﷺ قد توفي، وانتقل من هذه الدنيا إلى ربهﷻ.

وهذا ثابت بالنص، والإجماع، والقياس، أما النص ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾[الزمر:٣٠] هذا إخبار من الله لرسولهﷺ أنه سوف يموت ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾؛ أي:

تموت فيقال للذي يموت: هذا مَيّت، وأما الذي توفي بالفعل يقال له: مَيْت بالتخفيف؛ لقوله تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ ﴾[الأنعام:١٢٢]، فالمَيْت هو الذي فارقت روحه جسده، أما المَيِّت فهو الذي سيموت في المستقبل.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

❑ قوله: (فَلَمَّا اسْتَقَرَّ بِالْمَدِينَةِ أَمَرَ بِبَقِيَّةِ شَرائِعِ الإِسْلامِ مِثْلُ: الزَّكَاةِ، والصَّوم، وَالْحَجِّ)

● الزكاة فرضت في السنة الثانية من الهجرة، أريد بالزكاة التي فرضت في السنة الثانية من الهجرة هذه الزكاة على هذا النحو المقدر؛ زكاة بشروطها، وبأنصبائها، وقدر المخرج، وأوعية الزكاة ونحو ذلك، هذا فرض في السنة الثانية من الهجرة، أما جنس الزكاة فقد فرض في مكة، جنس الزكاة غير مقدر مثل الصلاة التي كانت في مكة، وهذا جاء في آخر سورة المزمل، قال جل وعلا في آخرها وهي مكية: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾ ﴾[المزمل:٢٠]، فأمر بإيتاء الزكاة قال: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾. والصواب من أقوال أهل العلم: أن الزكاة أوجبت في مكة، ومنها: بذل الماعون الذي جاء النهي عنه، في قوله: ﴿ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾ ﴾[الماعون:٧]، ومنها: الصدقة، منها إعطاء الفقير، ونحو ذلك، وهذه الزكاة غير محدودة، لا بقدر، ولا بصفة، وإنما يصدق عليها اسم الزكاة، أما الزكاة على هذا النحو المقدر الذي استقر فهذا فرض في السنة الثانية من الهجرة.

قال: (والصوم)؛ الصوم كذلك، هاجر النبي ﷺ فوجد اليهود يصومون يوم عاشوراء، فقال لهم: «لما تصومون هذا اليوم؟ قالوا: يوم نجى الله فيه موسى، فصامه موسى شكرًا، فنحن نصومه كما صام موسى. فقال عليه الصلاة والسلام: نحن أحق بموسى منكم»(٣٠٢) فصامه عليه الصلاة والسلام، وأمر بصيامه؛ يعني: كان صوم يوم عاشوراء فرضًا، ثم لما فرض صوم رمضان في السنة الثانية من الهجرة، وهي السنة التي كان فيها وقعة بدر، صار صوم عاشوراء على الصحيح مستحبًا، والفرض هو صيام شهر رمضان، كما قال جل وعلا في سورة البقرة: ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾[البقرة:١٨٥] وبها كان صيام رمضان واجبًا.

---

(٣٠٢) أخرجه البخاري (٢٠٠٤)، ومسلم (١١٣٠)، وغيرهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

قال: (والحج)، من أهل العلم من يقول أنه فرض في السنة السادسة، وهي السنة التي نزل فيها قول الله تعالىٰ: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾[البقرة:١٩٦]، ومنهم من قال: أنه لم يفرض إلا في السنة التاسعة، وهذا هو الصحيح، فإن الحج فرض متأخرًا، وذلك بعد فتح مكة، فأمر النبيﷺ بالحج في سورة آل عمران، وهي إنما نزلت في سنة الوفود أو في عام الوفود، وهي السنة التاسعة، والنبي عليه الصلاة والسلام ترك الحج تلك السنة، وأمر أبا بكر أن يحج بالناس، وبعث معه عليًّا رضي الله عنهم أجمعين، ثم حج عليه الصلاة والسلام بعد ذلك في السنة العاشرة حجة يتيمة لم يحج بعدها.

قال: (والأذان) كذلك فرض الأذان في أول العهد المدني.

(والجهاد) كان هناك تدرج في فرضه.

❑ قوله: (وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ شَرَائِعِ الإِسْلامِ)

● يعني: أن شرائع الإسلام الظاهرة إنما فرضت في المدينة، وأما في مكة فمكث عليه الصلاة والسلام، يدعو إلىٰ التوحيد، وينهىٰ عن الشرك عشر سنين، ثم فرضت الصلاة في السنة العاشرة، وأما بقية الشعائر؛ شعائر الإسلام الظاهرة، فإنما كانت في المدينة، حتىٰ تحريم المحرمات من الزنا والخمر والربا ونحو ذلك، فإنما كان في المدينة، وهذا يدلك علىٰ عظم شأن التوحيد في هذا الدين، وأن هذه الرسالة رسالة -النبي عليه الصلاة والسلام- حيث بلغها للناس، مكث يدعو إلىٰ التوحيد في عشر سنين، والتوحيد من حيث هو، أمر واحد، دعوة إلىٰ التوحيد ونهي عن الشرك، أمر واحد، وتلك الأوامر التي فرضت فيما بعد، والمناهي التي نهي عنها فيما بعد، كثيرة جدًّا، عددها كثير مئات الأشياء من أمور الإسلام الظاهرة، وأمور المعاملات، والصلات الاجتماعية، والنكاح، وتلك الأحوال، تلك بالمئات، فكان العهد المدني وهو عشر سنين متسعًا لتلك الأمور جميعًا، وأما التوحيد فمع أنه أمر واحد، وهو الدعوة إلىٰ توحيد الله والنهي والنذارة عن الشرك، فقد مكث فيه عليه الصلاة والسلام عشر سنين، وهذا من أعظم الأدلة علىٰ أن شأن التوحيد في هذا الدين هو أعظم شيء، وأن غيره من أمور الإسلام الظاهرة، أنه يليه بكثير في الاهتمام به في هذا الشرع، فالدعوة إنما تكون في توحيد الله؛ لأن القلب إذا وحد الله جل وعلا أحب الله وأحب رسوله، أطاع الله بعد ذلك وأطاع رسوله فرضًا، ترك الشرك، أبغض الشرك، ويبغض كل ما لا يحبه الله جل وعلا ولا يرضاه، وهذا من مقتضيات التوحيد.

❑ قوله: (أَخَذَ عَلَىٰ هَذَا عَشْرَ سِنِينَ)

●يعني: مكث في المدينة عليه الصلاة والسلام عشر سنين يدعو إلىٰ التوحيد وإلىٰ أمور الإسلام الظاهرة.

❑ قوله: (وَبَعْدَهَا تُوُفِّي صَلَوَاتُ الله وَسَلاَمُهُ عَلَيْهِ)

● (صلاة الله)؛ الصلاة من الله جل وعلا علىٰ نبيه، أو علىٰ المؤمنين هي ثناؤه عليهم في الملأ الأعلىٰ، هذا هو الصحيح أن الصلاة من الله جل وعلا هي الثناء؛ لأن حقيقة الصلاة في اللغة: الدعاء والثناء، وأما من قال: أن الصلاة بمعنىٰ الرحمة هذا ليس بصحيح، قال جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب:٥٦] الملائكة لا يمكنهم أن يرحموه، لكن يمكن أن يثنوا عليه، أو أن يدعوا له، والله جل وعلا في حقه الثناء، فمعنىٰ صلاة الله جل وعلا علىٰ نبيه هو ثناؤه عليه في الملأ الأعلىٰ؛ لهذا جاء في الحديث الصحيح: «من صلىٰ علي صلاة واحدة صلىٰ الله عليه بها عشرا»[٣٠٣] يعني: من أثنىٰ علي، من قال: اللهم صلي علىٰ محمد، سأل الله جل وعلا أن يثني علىٰ نبيه في الملأ الأعلىٰ، فإن الله جل وعلا يجزيه من جنس دعائه، وهو أنه يثني عليه بذلك عشر مرات في ملإه الأعلىٰ.

❑ قوله: (وَدِينُهُ بَاقٍ...)

● دينه باق عليه الصلاة والسلام، توفي ودفن في حجرة عائشة عليه الصلاة والسلام، ودينه باق إلىٰ قيام الساعة، لا يقبل الله جل وعلا من أحد دينًا إلا هذا الدين، (وهذا دينه) الضمير يرجع إلىٰ ما سبق إيضاحه في هذه الرسالة، هذا الذي وصف لك فيما قبل هو دينه؛ معرفة العبد ربه، ومعرفة دين الإسلام بالأدلة، ومعرفة العبد نبيه ﷺ.

❑ قوله: (لاَ خَيْرَ إلاَّ دَلَّ الأُمَّةَ عَلَيْهِ...)

● هذا من صفاته عليه الصلاة والسلام فقد كان بالمؤمنين رءوفًا رحيمًا، ومن رأفته بالمؤمنين ورحمته بهم أنه اجتهد أن يؤدي الأمانة كاملة لا خير يقرب إلىٰ الله، ويكون محبوبًا إلىٰ الله إلا بينه عليه الصلاة والسلام لهذه الأمة، وأعلىٰ ذلك التوحيد، ويتبع ذلك جميع الأمور من الفرائض والواجبات والمستحبات، ومن المناهي التي اجتنابها فرض

---

(٣٠٣) أخرجه مسلم (٣٨٤)، وأبو داود (٥٢٣)، وغيرهما من حديث ابن عمرو ﷺ.

ونحو ذلك، المسنونات، حتىٰ قال رجل لسلمان: لقد علمكم رسولكم كل شيء حتىٰ الخراءة، قال: نعم؛ يعني: حتىٰ هيئة الجلوس أثناء قضاء الحاجة، فإنه علمنا عليه الصلاة والسلام كيف يكون ذلك؛ إقبال واستدبار، وما ينبغي أن يكون إذا ذهب المرء أين يذهب، كما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود وغيره: «**كان عليه الصلاة والسلام إذا ذهب المذهب أبعد**»(٣٠٤)؛ يعني: لقضاء حاجته ونحو ذلك، علمنا عليه الصلاة والسلام كل شيء، من أعلىٰ أمر وهو التوحيد؛ بينه بيانًا شافيًا مفصلًا، إلىٰ أقل الأمور، كلها بينها عليه الصلاة والسلام، فالحجة قائمة علىٰ أمته، وأنه عليه الصلاة والسلام سيكون شهيدًا علىٰ هذه الأمة، وأنه بلغهم الرسالة، ودلهم علىٰ كل خير، يحبه الله ويرضاه، كذلك لا شر إلا حذرها منه، لا شر كان أو لا شر سيكون في هذه الأمة إلا حذرها منه، فحذر النبي عليه الصلاة والسلام أمته من الشرور التي كانت في وقته؛ من الشرك بالله بأنواعه، ومن أنواع المعاصي وأنواع الآثام، وأنواع المعاملات الباطلة، وكذلك ما سيحدث في المستقبل، فإن الله جل وعلا أطلع نبيه علىٰ ما سيكون، فحذر النبي عليه الصلاة والسلام أمته من ذلك، مثلًا كما جاء في الحديث: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع حتىٰ لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه قالوا: يا رسول الله فارس والروم؟ قال: فمن الناس إلا أولئك**»(٣٠٥) أو كما جاء في غير هذه الرواية، لها ألفاظ كثيرة، فحذرها من تقليد فارس والروم، حذر النبي عليه الصلاة والسلام أمته من الفتن التي ستظهر بأنواعها، ومنها فتنة الخوارج الذين خرجوا علىٰ الصحابة وخرجوا علىٰ ولاة أمر المسلمين، حذر من البدع بأنواعها، كما جاء في تفسير قول الله تعالىٰ: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ**﴾[الأنعام:١٥٩]، وكما قال عليه الصلاة والسلام: «**وإن هذه الأمة ستفترق إلىٰ ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة**»(٣٠٦) ونحو ذلك من أنواع ما أخبر به النبي عليه الصلاة والسلام أمته محذرًا، فهو عليه الصلاة والسلام بهذه الأمة رحيم رءوف، لا خير

(٣٠٤) أخرجه أبو داود (١)، والنسائي (١٧)، وغيرهما من حديث المغيرة بن شعبة ﷺ، وصححه العلامة الألباني في «صحيح سنن أبي داود»

(٣٠٥) أخرجه البخاري بنحوه (٧٣١٩)، وغيره من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣٠٦) أخرجه أبو داود (٤٥٩٦)، والترمذي (٢٦٤٠)، وغيرهما من حديث أبي هريرة ﷺ، وصححه العلامة الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

إلا دلها عليه وأرشد، ولا شر إلا حذر منه ونهى، سواء في ذلك ما حدث في وقته، أو ما سيحدث بعد موته عليه الصلاة والسلام بقليل، أو ما سيكون إلى قيام الساعة، حتى إنه حذر أمته وشدد، حذرها وشدد التحذير في أمر المسيح الدجال، حتى إنه قال عليه الصلاة والسلام: «إن خرج فيكم وأنا حي فأنا حجيجه دونكم وإن خرج عليكم بعدي»؛ يعني: بعد وفاته عليه الصلاة والسلام: «فامرؤ حجيج نفسه»[٣٠٧] وهذا يدل على عظم ما دل النبي عليه الصلاة والسلام هذه الأمة عليه.

❑ قوله: (وَافْتَرَضَ الله طَاعَتَهُ...)

قال رَحِمَهُ اللَّهُ بعد ذلك: وافترض طاعته على جميع الثقلين الجن والإنس، والدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[الأعراف:١٥٨]، طاعة الرسول ﷺ فرض على الجن والإنس؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام بعث إلى الناس جميعًا، قال جل وعلا: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[الأعراف:١٥٨]، وقال جل وعلا: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾[الأحقاف:٢٩]، لأنهم اتبعوا هذا الرسول، بعد أن سمعوا هذا القرآن.

❑ قوله: (وَأَكْمَلَ الله بِهِ الدِّينَ...)

● الدين كمل، والدين هو ما يدين به المرء؛ يعني: ما يكون عادة له في عبادته، عادة له في عبادته يألفه ويعتاده؛ لأن أصل الدين هو العادة، كما قال الشاعر:

تقول وقد برأت لها وظيني هذا دينه أبدا وديني

هذه عادته، وسمي الدين دينًا؛ لأنه يلتزمه الإنسان، وما كان من الاعتقادات، وما كان من العبادات يفعله بتكرر، حتى يصبح له عادة، نعم الدين ليس عادة، لكن أصل تسمية الدين سمي به؛ لأنه له شبه بالعادة، حيث لزومها وكثرة فعلها وترداد صاحبها لها.

(كمل الله به الدين) إذن فليس في الدين نقصان، ليس فيه مجال للزيادة، فمن أراد التقرب إلى الله جل وعلا، فإنما يكون ذلك بالتقرب عن طريق رسوله ﷺ؛ يعني: أن يكون متبعًا لسنته عليه الصلاة والسلام؛ لأن الدين كمل فلا سبيل إلا هذا السبيل، كما قال ابن القيم:

فلواحد كن واحدًا في واحد أعني سبيل الحق والإيمان

---

(٣٠٧) أخرجه مسلم (٢٩٣٧)، من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه.

والهجرة من الهجرة إلى الرسول ﷺ بطاعته، واتباع سنته، وامتثال أمره، والانتهاء عن نهيه، والاهتداء بهديه، وألا يعبد الله إلا بما شرع، ينسلخ القلب ويترك كل ما سوى الله جل وعلا، وسوى رسوله من الذين يطاعون، ويتجه بطاعته إلى الله جل وعلا ورسوله، قال: (والدليل قوله تعالى ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣].

❑ قوله: (وَالدَّلِيلُ عَلَىٰ مَوْتِهِ ﷺ...)

● مات عليه الصلاة والسلام، الذين يدعون أنه عليه الصلاة والسلام حي لم يمت، وأنه يحضر، روحه تحضر، وهو يحضر، وينتقل، ونحو ذلك، هؤلاء مكذبون للقرآن، كفرة بالله جل وعلا؛ لأن الله جل وعلا قال لنبيه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ [الزمر:٣٠] يعني: ستموت ﴿وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ إنهم سيموتون، ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ إنكم جميعًا أنت وهم ﴿عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾ وقال جل وعلا في الآية الأخرى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عمران:١٤٤] ومن المعلوم ما حصل من قيام أبي بكر في الناس، بعد موت الرسول ﷺ خطيبًا، قائلًا فيما يروى: من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾. قال عمر: كأني لم أسمع الآية إلا حين تلاها أبو بكر ﷺ؛ لكن هو بعد موته؛ في حياة برزخية، هي أكمل أنواع الحياة البرزخية، فهو حي، حياته أكمل من حياة الشهداء، وهو قد مات، توفاه الله جل وعلا، انقطع عن هذه الدنيا، حياته أكمل من حياة الشهداء، فهو عليه الصلاة والسلام قد توفي وانقضى أجله، وهو بالرفيق الأعلى بالجنة، وعند الله جل وعلا بأعلى المقامات عليه الصلاة والسلام.

الدرس العشرون:

[البعث وحكم من أنكره]

والنَّاس إِذَا مَاتُوا يُبْعَثُونَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴿٥٥﴾﴾[طه:٥٥]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾[نوح:١٧، ١٨]. وَبَعْدَ الْبَعْث مُحَاسَبُونَ وَمَجزِيُّونَ بِأَعْمَالِهِم، والدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾[النجم:٣١].

ومَنْ كَذَّبَ بالبَعْثِ كَفَرَ، والدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾[التغابن:٧].

الشرح

قال العلامة ابن باز:

☐قوله: (والنَّاس إِذَا مَاتُوا يُبْعَثُونَ...)

● والناس إذا ماتوا يبعثون، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾[نوح:١٧، ١٨].

وقال سبحانه: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾[التغابن:٧].

وقال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾[النجم:٣١]، فهم محاسبون ومجزيون يوم القيامة، ويعطون كتبهم بأيمانهم وشمائلهم، فالسعيد يعطى كتابه بيمينه، والشقي يعطى كتابه بشماله. السعيد يرجح ميزانه، والكافر يخف ميزانه، وأصحاب المعاصي على خطر فقد يرجح ميزانهم بالتوبة، أو بعفو الله، أو بالحسنات، وقد يخف ميزانهم فيكونوا من أهل النار؛ فيعذبون فيها ما شاء الله، ثم يخرجهم الله من النار بسبب موتهم على الإسلام. فالواجب على كل مكلف أن يحذر سيئات العمل، وأن يلزم التوبة والاستقامة؛ لأنه لا يدري متى يهجم عليه الأجل. فالحزم كل الحزم أن يأخذ المسلم بالعزيمة، ويجاهد نفسه حتى يستقيم على الحق، والتوبة النصوح من جميع الذنوب، حتى إذا هجم عليه الأجل؛ إذا هو على خير عمل، وعلى استقامة؛ فيفوز بالسعادة والنجاة يوم القيامة.

قال العلامة ابن قاسم:

❏ قوله: (والنَّاسُ إِذَا مَاتُوا يُبْعَثُونَ)

● ليجازىٰ كل بعلمه، ويقتص لبعضهم من بعض حتىٰ البهائم.

❏ قوله: (وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۝٥٥﴾)

● أي: من الأرض مبدؤكم، فإن أباكم آدم مخلوق من تراب من أديم الأرض، وفي الأرض نعيدكم؛ أي: إذا متم تصيرون إليها فتدفنون بها، ومن الأرض نخرجكم يوم البعث والحساب، ﴿تَارَةً﴾؛ أي: مرة أخرىٰ، كقوله: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ۝٢٥﴾، وفي الحديث أنه ﷺ: «أخذ قبضة من تراب الأرض فألقاها في القبر فقال: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۝٥٥﴾»(٣٠٨).

❏ قوله: (وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧﴾)

● أراد تعالىٰ مبدأ خلق آدم من الأرض والناس ولده، و ﴿نَبَاتًا﴾اسم وضع موضع المصدر؛ أي: إنبات.

❏ قوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۝١٨﴾

● أي: ﴿يُعِيدُكُمْ﴾ في الأرض إذا متم ﴿وَيُخْرِجُكُمْ﴾ منها بعد البعث أحياء، ﴿إِخْرَاجًا﴾ يعيدكم يوم القيامة كما بدأكم أول مرة.

❏ قوله: (وَبَعْدَ الْبَعْثِ مُحَاسَبُونَ)

● أي: علىٰ الأعمال حسنها وسيئها، والإيمان بالحساب والمجازاة علىٰ الأعمال من الإيمان باليوم الآخر أيضًا.

❏ قوله: (وَمَجْزِيُّونَ بِأَعْمَالِهِم)

● دقيقها وجليلها، صغيرها وكبيرها.

❏ قوله: (والدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ۝٣١﴾)

● يخبر تعالىٰ أنه مالك السماوات والأرض، الغني عما سواه، الحاكم بالعدل، خالق الخلق بالحق ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا﴾ [النجم:٣١] من الشرك فما دونه، ﴿وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ۝٣١﴾وحدوا ربهم وأخلصوا له الطاعة ﴿بِالْحُسْنَى﴾ الجنة، وقال:

---

(٣٠٨) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٣/١٦٠).

﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ۝١٥﴾[طه:١٥]، والآيات في هذا المعنى كثيرة، يقرر فيها تعالى أنه لا يجازي كلا بعمله، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

❑ قوله: (وَمَنْ كَذَّبَ بالبَعْثِ كَفَرَ)

● لتكذيبه الله ورسوله وإجماع المسلمين.

❑ قوله: (والدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ﴾)

● كفرهم الله تعالى بإنكارهم للبعث في زعمهم أن لن يبعثوا، فدل على إنكار البعث كفر، بل هو من أعظم كفر أهل الجاهلية.

❑ قوله: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾

● أي: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّى﴾، جواب تحقيق وقسم بالله العظيم ﴿لَتُبْعَثُنَّ﴾ يوم القيامة، وهذه الآية الثالثة التي أمر الله نبيه أن يقسم بربهﷻ على وقوع المعاد ووجوده، وفي يونس: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝٥٣﴾[يونس:٥٣]، وفي سبأ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾[سبأ:٣] الآية

❑ قوله: ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾

● أي: لتخبرن بجميع أعمالكم، جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها، قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ۝٤٧﴾[الأنبياء:٤٧].

❑ قوله: ﴿وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧﴾

● سهل هين عليه، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[الروم:٢٧]،فإن كان هذا النوع الإنساني في العدم لم يوجد قبل، ثم أوجده الله تعالى من طين، وذراريه من ماء مهين، ثم جعل هذا التناسل منه، فإنه لا يعجزه أن يعيدهم وهو الذي أبدعهم، وفي الحديث: «كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس الخلق بأهون علي من آخره»(٣٠٩).

---

(٣٠٩) أخرجه البخاري (٤٩٧٤)، والنسائي (٢٠٧٨)، وغيرهما من حديث أبي هريرة ﷺ.

قال العلامة العثيمين:

❑ قوله: (والنَّاس إذَا مَاتُوا يُبْعَثُونَ)

●بين -رحمه الله تعالى- في هذه الجملة أن الناس إذا ماتوا يبعثون، يبعثهم الله ﷻ أحياء بعد موتهم للجزاء، وهذا هو النتيجة من إرسال الرسل أن يعمل الإنسان لهذا اليوم؛ يوم البعث والنشور، اليوم الذي ذكر الله سبحانه وتعالى من أحواله وأهواله ما يجعل القلب ينيب إلى الله ﷻ ويخشى هذا اليوم، قال الله تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ۝١٧ السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ ۚ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ۝١٨﴾ [المزمل:١٧، ١٨].

وفي هذه الجملة إشارة إلى الإيمان بالبعث واستدل الشيخ له بآيتين.

❑ قوله: (وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾)

●أي: من الأرض خلقناكم حين خلق آدم عليه الصلاة والسلام من تراب.

❑ قوله: ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾

●أي: بالدفن بعد الموت.

❑ قوله: ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ﴾

●أي: بالبعث يوم القيامة.

❑ قوله: (وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧﴾)

●هذه الآية موافقة تمامًا لقوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۝٥٥﴾ [طه:٥٥] والآيات في هذا المعنى كثيرة جدًّا، وقد أبدى الله ﷻ وأعاد في إثبات المعاد حتى يؤمن الناس بذلك ويزدادوا إيمانًا ويعملوا لهذا اليوم العظيم الذي نسأل الله -سبحانه وتعالى- أن يجعلنا من العاملين له ومن السعداء فيه.

❑ قوله: (وَبَعْدَ الْبَعْثِ مُحَاسَبُونَ وَمَجْزِيُّونَ بِأَعْمَالِهِم، والدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ۝٣١﴾)

●يعني: أن الناس بعد البعث يجازون ويحاسبون على أعمالهم إن خيرًا فخير؛ وإن شرًّا فشر.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾[الزلزلة:٧،٨]، وقال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾[الأنبياء:٤٧]، وقال جل وعلا: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾[الأنعام:١٦٠].

فالحسنة بعشر أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف إلىٰ أضعاف كثيرة فضلًا من الله ﷻ وامتنانًا منه سبحانه وتعالىٰ، فهو جل وعلا قد تفضل بالعمل الصالح، ثم تفضل مرة أخرىٰ بالجزاء عليه هذا الجزاء الواسع الكثير، أما العمل السيئ فإن السيئة بمثلها لا يجازىٰ الإنسان بأكثر منها، قال تعالىٰ: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾[الأنعام:١٦٠]، وهذا من كمال فضل الله وإحسانه.

ثم استدل الشيخ لذلك بقوله تعالىٰ: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا﴾[النجم:٣١]؛ ولم يقل: بالسوأىٰ كما قال: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾[النجم:٣١].

❑ قوله: (وَمَنْ كَذَّبَ بالبَعْثِ كَفَرَ، والدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾)

● من كذب بالبعث فهو كافر لقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾[الأنعام:٢٩،٣٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾[المطففين:١٠-١٧]، وقال تعالىٰ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾﴾[الفرقان:١١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾[العنكبوت:٢٣] واستدل الشيخ -رحمه الله تعالىٰ- بقوله تعالىٰ: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[التغابن:٧] الآية.

وأما إقناع هؤلاء المنكرين فبما يأتي:

أولًا: أن أمر البعث تواتر به النقل عن الأنبياء والمرسلين في الكتب الإلهية، والشرائع السماوية، وتلقته أممهم بالقبول، فكيف تنكرونه وأنتم تصدقون بما ينقل إليكم

عن فيلسوف أو صاحب مبدأ أو فكرة، وإن لم يبلغ ما بلغه الخبر عن البعث لا في وسيلة النقل، ولا في شهادة الواقع؟!

ثانيًا: أن أمر البعث قد شهد العقل بإمكانه، وذلك من وجوه:

١- كل أحد لا ينكر أن يكون مخلوقًا بعد العدم، وأنه حادث بعد أن لم يكن، فالذي خلقه وأحدثه بعد أن لم يكن قادر على إعادته بالأولى، كما قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[الروم:٢٧]، وقال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾[الأنبياء:١٠٤].

٢- كل أحد لا ينكر عظمة خلق السموات والأرض لكبرهما وبديع صنعتهما، فالذي خلقهما قادر على خلق الناس وإعادتهم بالأولى؛ قال الله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾[غافر:٥٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾[الأحقاف:٣٣]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾[يس:٨١،٨٢].

٣- كل ذي بصر يشاهد الأرض مجدبة ميتة النبات، فإذا نزل المطر عليها أخصبت وحيي نباتها بعد الموت، والقادر على إحياء الأرض بعد موتها قادر على إحياء الموتى وبعثهم، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾[فصلت:٣٩].

ثالثًا: أن أمر البعث قد شهد الحس والواقع بإمكانه فيما أخبرنا الله تعالى به من وقائع إحياء الموتى، وقد ذكر الله تعالى من ذلك في سورة البقرة خمس حوادث، منها قوله: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَـٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾.

رابعًا: أن الحكمة تقتضي البعث بعد الموت لتجازى كل نفس بما كسبت، ولولا

ذلك لكان خلق الناس عبثًا لا قيمة له، ولا حكمة منه، ولم يكن بين الإنسان وبين البهائم فرق في هذه الحياة. قال الله تعالىٰ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون:١١٥،١١٦] وقال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾﴾ [طه:١٥] وقال تعالىٰ: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل:٣٨-٤٠] وقال تعالىٰ: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾ [التغابن:٧].

فإذا بينت هذه البراهين لمنكري البعث وأصروا علىٰ إنكارهم، فهم مكابرون معاندون، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

قال العلامة الفوزان:

☐قوله: (والنَّاسُ إِذَا مَاتُوا يُبْعَثُونَ ...)

●انتقل إلىٰ أصل آخر، وهو الإيمان بالبعث؛ أي: أنه ليس المراد موت فقط، نحن علمنا وكل يعلم حتىٰ الكفار والملاحدة والزنادقة، كلهم يعلمون أنه لا بد من الموت، لا أحد ينكر الموت؛ لأنه شيء محسوس، لكن الشأن في البعث بعد الموت، هذا هو محل النزاع بين المؤمنين والكفار، البعث بعد الموت، وهو إعادة الأجسام التي تفتت وصارت رميمًا وترابًا وتفرقت في الأرض، تعاد وتبنىٰ كما كانت؛ لأن القادر علىٰ إنشائها أول مرة قادر علىٰ إعادتها، ثم تنفخ فيها الأرواح، ثم تتحرك وتسير من القبور إلىٰ المحشر ؛ لقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [المعارج:٤٣].

وقال تعالىٰ: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ [القمر:٧،٨] لا أحد يتخلف، فهذا البعث حق لا ريب فيه، ومن أنكره فهو كافر بالله ﷻ والإيمان بالبعث هو أحد الأركان الستة للإيمان التي قال فيها النبي ﷺ: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره»(٣١٠).

(٣١٠) سبق تخريجه.

فمن لم يؤمن بالبعث واليوم الآخر فإنه يكون كافرًا بالله ﷻ ولو شهد بأن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ولو صلىٰ وصام وحج وزكىٰ وفعل الطاعات، فإذا أنكر البعث أو شك فيه؛ فإنه يكون كافرًا بالله ﷻ.

وأدلة البعث كثيرة منها قوله تعالىٰ: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾[طه:٥٥]؛ يعني: الأرض حينما خلق آدم ﷺ أبا البشرية ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾؛ يعني: بعد الموت في القبور ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۝﴾هذا هو البعث.

فهذه الآية تضمنت البدء والإعادة: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۝﴾[طه:٥٥].

قوله: (وقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۝﴾)

● ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۝﴾[نوح:١٧] حينما خلق منها آدم ﷺ، ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾[نوح:١٨] أي: بالموت والقبور ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۝﴾هذا هو البعث، يخرجون من القبور ويسيرون إلىٰ المحشر، قال تعالىٰ: ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ۝﴾[الأعراف:٢٥] ؛ أي: تحيون علىٰ ظهرها، وفيها تموتون ومنها تخرجون للبعث يوم القيامة.

هذه أدلة من القرآن علىٰ البعث، أيضًا يوجد دليل عقلي من القرآن نفسه وهو: أن الذي قدر علىٰ البداءة قادر علىٰ الإعادة من باب أولىٰ، قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝﴾[الروم:٢٧] الذي قدر علىٰ إيجاد الناس من عدم قادر علىٰ إعادتهم بعد الموت من باب أولىٰ، هذا دليل سمعي عقلي.

ومن الأدلة علىٰ البعث: ما يحصل للأرض من الحياة بالنبات، أنت ترىٰ الأرض ميتة ليس فيها نبات جرداء، ثم إن الله -سبحانه وتعالىٰ- يُنزل عليه المطر، ثم يُنبت النبات الذي كان هشيمًا ميتًا، كذلك الأجسام في الأرض كانت مخزنة في الأرض فينزل الله عليها مطرًا، ثم تنبت الأجسام وتتكامل، ثم تنفخ فيها الأرواح، فأنتم ترون الأرض كيف تكون قاحلة، ثم تحيا بما نبت فيها.

الله جل وعلا هو الذي يحيي الأرض بعد موتها: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً

فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [فصلت:٣٩]، فالذي قدر على إحياء الأرض بعد موتها قادر على إحياء الأجسام بعد موتها ؛ لأن الكل أحياء بعد الموت.

ومن الأدلة على البعث: أنه لو لم يكن هناك بعث؛ للزم أن يكون خلق الناس عبثًا حيث إنهم يعيشون. منهم المطيع المتقي المؤمن بالله ورسله، ومنهم الكافر الملحد والزنديق، والجبار، والمتكبر، والعاصي، كلهم يعيشون ثم يموتون دون أن ينال هذا المؤمن شيئًا من جزائه أو ينال هذا الكافر، وهذا الزنديق، وهذا الملحد، وهذا الطاغية المتجبر على الناس دون أن ينال جزاءه.

فهل يليق بالله أن يترك الناس هكذا دون أن يجازي أهل الإيمان بإيمانهم، وأهل الإحسان بإحسانهم، وأهل الإجرام والكفر بإجرامهم وكفرهم؟! هذا لا يليق بحكمة الله سبحانه وتعالى؛ ولهذا قال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾ [النجم:٣١] هذا لا يكون إلا في يوم القيامة، وكذلك في قوله سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية:٢١].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص:٢٨].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون:١١٥].

وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة:٣٦-٤٠].

ورد على الكافر الذي قال: ﴿مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾ [يس:٧٨] بقوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [يس:٧٩، ٨٠] الذي قدر على إخراج النار المحرقة من الشجر الأخضر الرطب الذي قدر على هذا، ألا يقدر على إحياء الأموات؟!

ومن أدلة البعث: الاستدلال بخلق السماوات والأرض، فالذي خلق هذه

المخلوقات الهائلة العظيمة الكبيرة قادر على أن يعيد الإنسان؛ لأن القادر على الشيء العظيم يقدر على ما دونه من باب أولى.

قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ [يس:٨١].

وقال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر:٥٧].

فهذه أدلة البعث التي تثبت أن الله -سبحانه وتعالى- يبعث من في القبور، وأنه يجازي كل عامل بعمله إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، فليكفر الكافر، وليفسق الفاسق، والزنديق، والملحد فإن أمامه البعث والنشور والجزاء والحساب.

أما المؤمن المتقي الذي يعبد الله، ويتقرب إلى الله؛ فإن عمله لن يضيع، فإن هناك موعدًا يوفيه الله فيه عمله ويضاعف له أجره ويعطيه ما لم يقع في ظنه وحسبانه.

❑قوله: (وَبَعْدَ الْبَعْثِ مُحَاسَبُونَ وَمَجْزِيُّونَ بِأَعْمَالِهِم...)

●من أعمال يوم القيامة الحساب والميزان، الحساب بمعنى مناقشة أهل المعاصي.

فالمسلمون على أقسام يوم القيامة:

القسم الأول منهم: من لا يحاسب ويدخل الجنة بلا حساب ولا عذاب، كما في حديث «السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب»[٣١١].

القسم الثاني من الناس: من يحاسب حسابًا يسيرًا وهو العرض فقط، لا يحاسب حساب مناقشة وإنما يحاسب حساب عرض فقط، وهذا -أيضًا- من السعداء، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾﴾ [الانشقاق:٧-٩]

القسم الثالث: من يحاسب حساب مناقشة وهذا تحت الخطر لقوله ﷺ: «من نوقش الحساب عذب»[٣١٢].

أما الكفار فقد اختلف العلماء فيهم هل يحاسبون، أو لا يحاسبون، فمن العلماء من

---

(٣١١)أخرجه البخاري (٥٧٥٢)، ومسلم (٢٢٠)، وغيرهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣١٢)أخرجه البخاري (٤٩٣٩)، ومسلم (٢٨٧٦)، وغيرهما من حديث عائشة رضي الله عنها.

يقول: إن الكفار لا يحاسبون ؛ لأنهم ليس لهم حسنات، وإنما يذهب بهم إلى النار ؛ لأنهم ليس لهم حسنات، ومن العلماء من يقول: إنهم يحاسبون حساب تقرير؛ أي: بأعمالهم وكفرهم وإلحادهم، ثم يذهب بهم إلى النار.

والميزان: معناه الآلة التي توزن بها أعمال العباد توضع الحسنات في كفة والسيئات في كفة، قال تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُۥ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُۥ فَأُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم﴾[الأعراف:٨،٩]، فإذا ثقلت السيئات خسر الإنسان، وإذا ثقلت الحسنات ربح الإنسان.

هذا الميزان ميزان الأعمال، كذلك من أوتي كتابه بيمينه فحسابه يسير، ومن أوتي كتابه بشماله فحسابه عسير، وسيرى الأهوال والأخطار جسيمة، ومن خطر إلى خطر في مواقف القيامة والحساب والحشر، هذه أمور هائلة لو فكرنا فيها.

❑قوله: (ومَنْ كَذَّبَ بالبَعْثِ كَفَرَ والدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧﴾)

●لأنه جحد ركنا من أركان الإيمان، ولأنه مكذب لله ولرسله ولكتبه؛ لأن الله - جل وعلا - أخبر عن البعث، والرسل أخبرت عن البعث، والكتب أخبرت عن البعث، فمن أنكره فهو كافر والدليل قوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ﴾الزعم: هو الكذب، ﴿أَن لَّن يُبْعَثُوا۟﴾.

فدلت الآية على أن إنكار البعث كفر، يقولون: ليس بعد الموت بعث، المشركون وعبدة الأصنام في عهد النبيﷺ كانوا يجادلون بالبعث: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ۝١١ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝١٢﴾[النازعات:١١،١٢] وقالوا: ﴿مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨﴾[يس:٧٨].

ومن مجادلتهم: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ۝٣٥ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ۝٣٦﴾[المؤمنون:٣٥،٣٦] إلى غير ذلك من مقالات الكفار من الأمم السابقة، ومن المشركين في عهد النبيﷺ، فمن كذب بالبعث؛ فهو مع هؤلاء الكفرة.

لا ينكر البعث إلا كافر، ولقد أمر الله -جل وعلا- نبيهﷺ أن يقسم به على البعث، قال: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى﴾[سبأ:٣] هذا قسم، ﴿لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾[التغابن:٧] هذه الآية إحدى الآيات الثلاث التي أمر الله نبيه فيها أن يقسم على البعث.

الآية الأولى: في سورة يونس: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم

بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [يونس:٥٣].

الثانية: في سورة سبأ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [سبأ:٣،٤]، فالله أمر نبيه أن يقسم به على البعث وعلى قيام الساعة.

الآية الثالثة: هي التي معنا من سورة التغابن: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾ [التغابن:٧]. فالحكمة من البعث هي جزاء العباد على أعمالهم، وقوله تعالى: ﴿لَتُنَبَّؤُنَّ﴾؛ أي: لتخبرن بأعمالكم وتجازون بها.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

❑ قوله: (والنَّاسُ إِذَا مَاتُوا يُبْعَثُونَ...)

● قال لما ذكر موته عليه الصلاة والسلام: (والناس إذا ماتوا يبعثون)؛ خص هنا البعث بذكر؛ مع أن مناسبته هي في ذكر اليوم الآخر؛ المرتبة الثانية من الأصل الثاني، اليوم الآخر معناه: أنه يبعث الناس بعد الموت، هنا قال: (والناس إذا ماتوا يبعثون) وذلك لسبب وهو أنه في وقت الشيخ رحمه الله تعالى كان يكثر في البادية إنكار البعث بعد الموت، قد جاء في رسائل للشيخ من العلماء، رسائل كثيرة فيها بيان أن البعث بعد الموت حق، وأن من كفر بالبعث وأنكر البعث فهو كافر بالله العظيم، ليس بمؤمن ولا مسلم؛ وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم، نص هنا على هذا لأجل الاهتمام بالمسألة ووضعها في هذا الموضع المناسب؛ لأنه ذكر وفاة النبي عليه الصلاة والسلام، وذكر قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الزمر:٣١]؛ فناسب أن يقرر البعث بعد الموت لجميع الناس، قال: (والناس إذا ماتوا يبعثون والدليل قوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه:٥٥]، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾ [نوح:١٧،١٨]، وبعد البعث محاسبون ومجزيون بأعمالهم)

والدليل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾

❑ قوله: (وَمَنْ كَذَّبَ بالبَعْثِ كَفَرَ...)

● ومن كذب بالبعث كفر مثل أولئك الأعراب في البادية، الذين كانوا في وقت الشيخ رحمه الله، ويكثر إلى الآن في بوادي بعض البلاد العربية أنهم يكذبون بالبعث، يعتقدون أن التزام الدين، أنه إنما يحصل له الإنسان السعادة في دنياه، وأن روحه تكون في نعيم أو في جحيم، لكن بعث بعد الموت، يكذبون بذلك قال هنا: ومن كذب بالبعث كفر والدليل قوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝٧﴾ [التغابن: ٧].

وجه الاستدلال أنه قال: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ فوصف الذين يزعمون أنهم لن يبعثوا بأنهم من الذين كفروا.

الدرس الحادي والعشرون:

[جميع الرسل مبشرين ومنذرين]

وأَرْسَلَ الله جَمِيعَ الرُّسُلِ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥]

وَأَوَّلُهُم نُوحٌ عليه السلام، وآخِرُهُم مُحَمَّدٌ ﷺ والدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ أَوَّلَهم نُوحٌ عليه السلام قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ (٣١٣) [النساء:١٦٣]

وَكُلُّ أُمَّةٍ بَعَثَ الله إِلَيْهَا رَسُولًا مِنْ نُوحٍ إِلَى مُحَمَّدٍ؛ يَأْمُرُهُم بِعِبَادَةِ الله وَحْدَهُ، وَيَنْهَاهُم عَنْ عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ، والدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]

الشرح

قال العلامة ابن باز:

قوله: (وأَرْسَلَ الله جَمِيعَ الرُّسُلِ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ...)

● والرسول ﷺ مرسل إلى جميع الناس؛ إلى الجن والإنس، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨] وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ:٢٨]؛ فهو خاتم الأنبياء ليس بعده نبي، وهكذا الرسل جميعًا أرسلوا إلى أممهم مبشرين ومنذرين، من أولهم إلى آخرهم، فأولهم

(٣١٣) الآية لا تدل على أن أول رسول نوح، بل الذي تدل عليه أن الله -جل ذكره- أخبر أنه أوحى إلى رسوله محمد ﷺ، كما أوحى إلى نوح ومن بعده من النبيين أيضا إلى إبراهيم وإسماعيل و... إلخ ما ذكره في الآية، وقد أخبر الله بعد هذه الآية بأنه قص على رسوله محمد ﷺ في القرآن رسلًا وترك رسلًا لم يقصصهم عليه، وقد جاء في الحديث الذي رواه ابن مردويه عن أبي ذر قال: قلت: «يا رسول الله، كم الأنبياء؟ قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا، قلت: يا رسول الله، كم الرسل منهم؟ قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا، قلت: يا رسول الله، كم الرسل منهم؟ قال: ثلاثمائة وثلاثة عشر جم غفير، قلت: يا رسول الله، من كان أولهم؟ قال: آدم، قلت: يا رسول الله، نبي مرسل، قال: نعم خلقه الله بيده»، الحديث، قال الحافظ ابن كثير في تفسيره، وقد روى هذا الحافظ أبو حاتم البستي في كتابه «الأنواع والتقاسيم» وقد وسمه بالصحيح .١هـ [الدمشقي]

نوح بعثه لما وقع الشرك في قومه.

وقبله آدم فإنه نبي رسول مكلف، أرسله الله إلى ذريته ؛ ليعبدوا الله بالشريعة التي جاء بها أبوهم آدم -عليه الصلاة والسلام- واستمروا على الإسلام والاستقامة، حتى وقع الشرك في قوم نوح، فلما وقع الشرك في قوم نوح ؛ أرسل الله إليهم نوحًا -عليه الصلاة والسلام- وهو أول الرسل إلى أهل الأرض بعد وقوع الشرك. وكل أمة بعث الله إليهم رسولا؛ فعادٌ أرسل الله إليهم هودًا، ثم أرسل الله صالحًا إلى قومه ثمود، ثم أرسل إبراهيم ولوطًا وشعيبًا في زمان متقارب، ثم جاءت الرسل بعد ذلك تترى، ففيهم موسى وهارون، وعيسى وأيوب، وداود وسليمان، ثم ختموا بمحمد -عليه الصلاة والسلام-.

❑قوله: (وآخِرُهُم مُحَمَّدٌ ﷺ)

● ثم ختموا بمحمد -عليه الصلاة والسلام- وهو خاتمهم وآخرهم وأفضلهم -عليه الصلاة والسلام- قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[النساء:١٦٥]، فقوله مبشرين؛ يعني: يبشرون من أطاعهم بالجنة؛ ومنذرين؛ يعني: ينذرون الناس من الشرك بالله ومن النار والعذاب الأليم إذا خالفوا أمر الله.

وهكذا محمد -ﷺ- أرسله الله بشيرًا ونذيرًا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ۝٤٦﴾[الأحزاب:٤٥،٤٦]، وقال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[الأحزاب:٤٠]، فالواجب على جميع الأمم اتباع رسلهم، فكل أمة يجب عليها أن تتبع رسولها، وتنقاد لما جاء به من الهدى. وقد وعدها الله على ذلك السعادة في الدنيا والآخرة، وأكثر الخلق قد عصوا رسلهم وخالفوا ما جاءت به الرسل، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ۝١٠٣﴾[يوسف:١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[الأنعام:١١٦]، وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣﴾[سبأ:١٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢٠﴾[سبأ:٢٠].

❑قوله: (وَكُلُّ أُمَّةٍ بَعَثَ الله إِلَيْهَا...)

● وكل رسول يدعو أمته إلى توحيد الله، وطاعته وترك الشرك به ومعصيته. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[النحل:٣٦]،

اعبدوا الله ؛ يعني: أطيعوه ووحدوه واستقيموا على دينه، واجتنبوا الطاغوت.

قال العلامة ابن قاسم:

❑ قوله: (وأَرْسَلَ الله جَمِيعَ الرُّسُلِ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ)

● أي: أرسل الله جميع رسله من أولهم نوح ﷺ إلى آخرهم محمد ﷺ كلهم يدعون إلى عبادة الله وحده، وترك عبادة ما سواه، مبشرين من أجابهم إلى ما دعوا إليه برضوان الله وكرامته، ومنذرين محذرين من عصاهم غضب الله وسخطه وعقابه.

❑ قوله: (وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾)

● فلا يقولون يوم القيامة: ما أرسلت إلينا رسولًا، ما أنزلت إلينا كتابًا، فانقطعت حجة الخلق على الله بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وإقامة الحجج عليهم، وتبيين الحق لهم، وركز الفطر في قلوبهم، وانقطعت المعذرة ولم يبق للناس على الله حجة.

❑ قوله: (وَأَوَّلُهُم نُوحٌ ﷺ)

● كان بينه وبين آدم عشرة قرون كلهم على الإسلام، فلما حدث الشرك بسبب الغلو في الصالحين أرسل إليهم، وهو أول رسول على أهل الأرض بإجماع المسلمين.

❑ قوله: (وآخِرُهُم مُحَمَّدٌ ﷺ)

●وهو آخر الرسل إلى أهل الأرض بالكتاب والسنة: وإجماع المسلمين، وهو خاتم النبيين لا نبي بعده، قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾[الأحزاب:٤٠]. وثبت عنه من غير وجه أنه لا نبي بعده، وأجمع المسلمون على ذلك، واشتهر كذب من ادعى النبوة بعده. وأخبر بذلك أنه سيأتي بعده كذابون دجالون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي. ووقع ما أخبر به ﷺ، وعيسى بن مريم إذا نزل في آخر الزمان إنما يحكم بشريعة محمد ﷺ. فهو من أمته بإجماع المسلمين.

❑ قوله: (والدَّلِيلُ عَلَى أنَّ أَوَّلَهم نُوحٌ ﷺ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾)

●أي: من بعد نوح. فهو أول رسول وأول نذير عن الشرك وقوله لنبيه محمد ﷺ: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ بناء على ما سبق من قوله: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا

﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [النساء:١٥٣]، ﴿إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام:٩١] وقال: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ [الأنعام:٩١] ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء:١٦٣]، وذكر عدة من الرسل؛ أي: فقد أنزل عليك كما أنزل عليهم، إلى أن قال: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥] ولابن مردويه وابن أبي حاتم عن أبي ذر قلت: «يا رسول الله كم الأنبياء قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا. قلت: كم الرسل منهم؟ قال: ثلاث مائة وثلاثة عشر جم غفير»(٣١٤)، فأقام تعالى الحجة وقطع المعاذير بإرسال الرسل وإنزال الكتب.

❑ قوله: (وَكُلُّ أُمَّةٍ بَعَثَ الله إِلَيْهَا رَسُولًا مِنْ نُوحٍ إِلَىٰ مُحَمَّدٍ)

● فنوح أول رسول من بني آدم إلى أهل الأرض، وخاتمهم محمد ﷺ وما من أمة من الأمم، ولا طائفة من الطوائف، إلا وقد بعث الله فيهم رسولًا، إقامة منه تعالى للحجة على عباده، وإيضاحًا للمحجة، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝١٥﴾ [الإسراء:١٥] ولما كانت الرسل قبل محمد ﷺ كلما هلك نبي خلفه نبي، قيض الله لهذه الأمة أئمة هدى حفظ الله بهم دينه، وأقام بهم الحجة على عباده،ولا تزال إلى قيام الساعة، كما أخبر به ﷺ في قوله: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة إلى قيام الساعة»(٣١٥).

❑ قوله: (يَأْمُرُهُم بِعِبَادَةِ الله وَحْدَهُ، وَيَنْهَاهُم عَنْ عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ)

● يدعوهم إلى هذا الذي بعثت به الرسل، ودعوتهم كلهم إلى عبادة الله وحده، وترك عبادة ما سواه، فزبدة جميع ما أرسلت به الرسل هو التوحيد، وما سواه من تحريم وتحليل ففروع، ولا يؤمر بها إلا بعد وجود التوحيد، ولا تقبل ولا يلتفت إليها إلا مع التوحيد الذي هو دين الرسل، من أولهم إلى آخرهم، ولأجله خلقت الخليقة، وأرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، وخلقت الجنة والنار.

❑ قوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾

● ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ

(٣١٤) أخرجه ابن حبان (٣٦١/إحسان)، والحاكم (٥٩٧/٢)، بلفظ: «مئة وعشرون ألفًا»، وغيرهما من حديث أبي ذر ﷺ.

(٣١٥) أخرجه مسلم (١٩٢٠)، والترمذي (٢٢٢٩)، وغيرهما من حديث ثوبان ﷺ.

إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾[الأنبياء:٢٥]، وغير ذلك من الآيات الدالة على عظم التوحيد، وكلا الآيتين فيهما العموم الواضح، أن أول شيء بدأت به الرسل قومهم هو التوحيد، وأيضًا في أفراد الرسل جاءت الآيات، كما قال عن نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وغيرهم أن أول شيء بدأوا به قومهم: ﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾[المؤمنون:٣٢]، فهذه دعوة الرسل، وزبدة الرسالة، وبه تعرف عظمة شأن التوحيد، ومعرفتك عظمه بأن تصرف همتك إليه، وإلى معرفته والعمل به غاية جهدك، وإلى معرفة ما يضاده، وما سواه من أنواع العلوم الفروعية بعد ذلك، فيهتم الإنسان غاية الاهتمام بمعرفة أصل الدين إجمالًا قبل الواجب من الفروع، الصلاة والزكاة وغير ذلك، فلا تصح الصلاة ولا الزكاة قبل الأصل، فلابد من معرفة أصل الدين إجمالًا، ثم معرفة فروعه تفصيلًا، وفي حديث معاذ لما بعثه إلى اليمن، قال له: «**إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله، فإن أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة**»[٣١٦]، وهذا يفيد أنهم إذا لم يعلموا التوحيد ولم يعملوا به فلا يدعوهم للصلاة إن لم يطيعوه في الدخول في الإسلام، فإن الصلاة لا تنفع ولا غيرها بدون التوحيد، فإنه لا يستقيم بناء على غير أساس، ولا فرع على غير أصل، والأصل والأساس هو التوحيد، والصلاة وإن كانت هي عمود الإسلام فمع ذلك لم تفرض إلا بعد الأمر بالتوحيد بنحو عشر سنين، ومما يبين أن التوحيد هو الأصل: كونه يوجد من يدخل الجنة ولو لم يصل ركعة واحدة، وذلك إذا اعتقد التوحيد وعمل به ومات متمسكًا به، كأن يقتل قبل أن يصلي أو يموت، والصلاة لا تنفع وحدها، ولو صلى وزكى وصام، إذا لم يعتقد التوحيد وبذلك يعرف عظم شأن التوحيد، وما هلك من هلك إلا بترك العلم بالتوحيد والعمل به، وما دخل الشيطان على من دخل، ولا مزق عقول من مزق، ولا وقع من وقع إلا من آفة قولهم: يكفي النطق بالشهادة، ومجرد المعرفة، حتى أن من علمائهم من لا يعرف التوحيد أصلًا، وذلك لأنهم ابتلوا بالشرك وعبادة الأوثان، وكثرة الشبهات الباطلة، فبذلك خفي التوحيد على كثير ممن يدعي العلم، لعدم المعرفة به، و إلا فمعرفة التوحيد والشرك من أهون ما يكون وأسهله إجمالًا، كما في زمن الصحابة رضي الله عنهم، فإنهم كانوا يعرفون التوحيد

---

(٣١٦) سبق تخريجه.

والشرك، فمن قال: (لا إله إلا الله) يترك الشرك، ويعلم أنه باطل منافٍ لكلمة الإخلاص، ولهذا لما دعاهم النبي ﷺ إلى التوحيد، وقال: «قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا»، قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص:٥] وأما حين كثرت الشبهات صعب معرفة التوحيد، والتخلص من ضده، وكثر النفاق، وصار الكثير يقولها ويعبد مع الله غيره، فالله المستعان.

قال العلامة العثيمين:

❑ قوله: (وأَرسَلَ الله جَمِيعَ الرُّسُلِ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ...)

●بين المؤلف -رحمه الله تعالى- أن الله أرسل جميع الرسل مبشرين ومنذرين كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [النساء:١٦٥] يبشرون من أطاعهم بالجنة وينذرون من خالفهم بالنار.

وإرسال الرسل له حكم عظيمة من أهمها بل هو أهمها أن تقوم الحجة على الناس حتى لا يكون لهم على الله حجة بعد إرسال الرسل كما قال تعالى ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥].

ومنها: أنه من تمام نعمة الله على عباده فإن العقل البشري مهما كان لا يمكنه أن يدرك تفاصيل ما يجب لله تعالى من الحقوق الخاصة به، ولا يمكنه أن يطلع على ما لله تعالى من الصفات الكاملة، ولا يمكن أن يطلع على ما له من الأسماء الحسنى ولهذا أرسل الله الرسل عليهم الصلاة والسلام مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه.

وأعظم ما دعا إليه الرسل من أولهم نوح عليه الصلاة والسلام إلى آخرهم محمد ﷺ التوحيد كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦] وقال ﷻ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ۝٢٥﴾ [الأنبياء:٢٥].

❑ قوله: (وَأَوَّلُهم نُوحٌ عليه السلام، وآخِرُهم مُحَمَّدٌ ﷺ...)

●بين شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله أن أول الرسل نوح عليه الصلاة والسلام، واستدل لذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ

بَعۡدِهِۦ﴾[النساء:١٦٣]. وثبت في الصحيح من حديث الشفاعة: «إن الناس يأتون إلى نوح فيقولون له: أنت أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض»[٣١٧]. فلا رسول قبل نوح وبهذا نعلم خطأ المؤرخين الذين قالوا: إن إدريس عليه الصلاة والسلام قبل نوح؛ بل الذي يظهر أن إدريس من أنبياء بني إسرائيل.

وآخر الأنبياء وخاتمهم محمدﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ۝٤٠﴾[الأحزاب:٤٠] فلا نبي بعده ومن ادعى النبوة بعده فهو كاذب كافر مرتد عن الإسلام.

❏ قوله: (وَكُلُّ أُمَّةٍ بَعَثَ الله إِلَيْهَا رَسُولًا)

●أي: أن الله بعث في كل أمة رسولًا يدعوهم إلى عبادة الله وحده وينهاهم عن الشرك، ودليل ذلك قول الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ۝٢٤﴾[فاطر:٢٤]، وقال: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[النحل:٣٦].

❏ قوله: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾

●هذا هو معنى لا إله إلا الله.

قال العلامة الفوزان:

❏قوله: (وأَرْسَلَ الله جَمِيعَ الرُّسُلِ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ...)

●الإيمان بالرسل هو أحد أركان الإيمان الستة، قالﷺ : «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله».

فالإيمان بالرسل هو أحد أركان الإيمان؛ فلا بد من الإيمان بالرسل جميعهم من أولهم إلى آخرهم، فمن جحد رسولًا واحدًا منهم فهو كافر بالجميع كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ۝١٥١﴾[النساء:١٥٠، ١٥١].

فلابد من الإيمان بجميع الرسل من أولهم إلى آخرهم، من سمى الله منهم في كتابه ومن لم يسم، فإن الرسل كثيرون؛ ولهذا جاء في الحديث: «أن عددهم مائة ألف وأربعة

---

(٣١٧) أخرجه البخاري (٦٥٦٥)، ومسلم (١٩٣)، وغيرهما من حديث أنس رضي الله عنه.

وعشرون ألفًا، الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جما غفيرًا»(٢١٨).

فهم رسل كثيرون منهم من سمىٰ الله في كتابه ومنهم من لم يسم؛ فيجب علينا الإيمان بجميعهم من أولهم إلىٰ آخرهم.

قوله: (وَأَوَّلُهُم نُوحٌ عليه السلام وآخِرُهُم مُحَمَّدٌ ﷺ)

●الدليل علىٰ أن أولهم نوح قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ﴾[النساء:١٦٣]، هذا خطاب للنبي ﷺ : ﴿ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣ ﴾[النساء:١٦٣] ذكر الله جملة من أسمائهم في هذه الآية.

كما ذكر جملة من أسمائهم في آية الأنعام: ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٨٤ ﴾[الأنعام:٨٤] إلىٰ آخر الآيات.

فأولهم نوح -عليه الصلاة والسلام- بدليل قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ ﴾بعثه الله إلىٰ قومه لما غلوا في الصالحين بعد أن كان الناس علىٰ دين التوحيد منذ آدم عليه السلام إلىٰ عشرة قرون وهم علىٰ التوحيد، فلما جاء قوم نوح كان فيهم رجال صالحون، فلما مات هؤلاء الصالحون حزنوا حزنًا شديدًا، فانتهز الشيطان هذه الفرصة وقال لهم: صوروا صور هؤلاء الصالحين وانصبوها علىٰ مجالسكم؛ من أجل إذا رأيتم هذه الصور تتذكرون أحوالهم وتنشطون علىٰ العبادة، فقاموا وصوروا صور هؤلاء الموتىٰ، ونصبوها علىٰ المجالس، فلم تعبد في أول الأمر لوجود العلماء الذين يبينون للناس التوحيد وينكرون الشرك.

فلما مات العلماء وذهب الجيل الأول، جاء جيل متأخر وقد مات العلماء، جاء الشيطان إليهم فقال لهم: إن آباءكم ما نصبوا هذه الصور إلا ليعبدوها، وبها كانوا يسقون المطر، فزين لهم عبادتها فعبدوها من دون الله، ومن ثم حدث الشرك في الأرض، فبعث الله نبيه نوحا -عليه الصلاة والسلام- يدعوهم إلىٰ الله ﷻ ويردهم إلىٰ التوحيد الذي هو دين أبيهم آدم عليه السلام؛ لكنهم عاندوا واستكبروا: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ٢٣ ﴾[نوح:٢٣].

قال ابن عباس: هذه أسماء رجال صالحين، صوروا صورهم ونصبوها علىٰ

(٢١٨) سبق تخريجه.

مجالسهم فآل بهم الأمر إلىٰ أن عبدوها من دون الله.

فلما جاءهم نوح -عليه الصلاة والسلام- ونهاهم عن عبادتها، وأمرهم بعبادة الله، قالوا: لا تذرون آلهتكم، لا تطيعوا نوحًا، واستمروا علىٰ كفرهم وطغيانهم وعنادهم.

هذا أول شرك حدث في الأرض وسببه الصور؛ ولذلك قال النبيﷺ: «إن أشد الناس عذابا عند الله يوم القيامة المصورون»[(٣١٩)] وقالﷺ: «إن الذين يصنعون هذه الصور يعذبون يوم القيامة، يقال لهم: أحيوا ما خلقتم»[(٣٢٠)] يؤمرون بنفخ الروح في هذه الصور من باب التعجيز والتعذيب لهم والعياذ بالله؛ لأن التصوير وسيلة من وسائل الشرك كما حصل لقوم نوح.

فأول الرسل نوح، وأما خاتم الرسل وآخرهم فهو محمدﷺ قال تعالىٰ: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[الأحزاب:٤٠].

وقالﷺ: «وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي»[(٣٢١)].

فبهﷺ ختمت الرسالات السماوية فلا يبعث بعده نبي إلىٰ أن تقوم الساعة؛ ولكن شريعته باقية إلىٰ أن تقوم الساعة، ودينه باق إلىٰ أن تقوم الساعة كما سبق؛ فمن ادعىٰ النبوة بعد محمدﷺ فهو كافر، ومن صدقه فهو كافر بالله؛ لأنه لا نبي بعدهﷺ.

وقد ادعىٰ النبوة بعده خلق كثير وفضحهم الله وأظهر كذبهم، ومن آخرهم -فيما نعلم- القادياني، غلام أحمد القادياني الهندي، الذي كان في الأول يدعي العلم والعبادة، ثم ادعىٰ أنه عيسىٰ بن مريم، ثم ادعىٰ النبوة، والآن له أتباع يسمون بالقاديانية.

وقد كفرهم المسلمون ونابذوهم واعتبروهم فرقة كافرة خارجة عن الإسلام، وهم منابذون ومطاردون -ولله الحمد- من بلاد المسلمين، ولهم نشاط؛ ولكن نشاطهم يبوء بالفشل.

الحاصل: أنه لا نبي بعد رسول اللهﷺ من ادعىٰ النبوة فهو كذاب، كما قالﷺ: «لا

---

(٣١٩) أخرجه البخاري (٥٩٥٠)، ومسلم (٢١٠٩)، وغيرهما من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣٢٠) أخرجه البخاري (٥٩٥١)، ومسلم (٢١٠٨)، وغيرهما من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣٢١) أخرجه أبو داود (٤٢٥٢)، والترمذي (٢٢١٩)، وغيرهما من حديث ثوبان رضي الله عنه، وصححه العلامة الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون، قريبًا من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله»[٣٢٢].

المتنبئون كثيرون؛ ولكن الله يفضح أمرهم ويكشف سترهم ويبين خزيهم للناس، ومن صدقهم فهو كافر؛ لأنه مكذب لله ولرسوله ﷺ ولإجماع المسلمين على ختم النبوة بمحمد ﷺ.

❑قوله: (وَكُلُّ أُمَّةٍ بَعَثَ الله إِلَيْهَا يَأْمُرُهُم بِعِبَادَةِ الله وَحْدَهُ)

●أي: كل أمة من الناس يبعث الله إليها رسولًا ليقيم الحجة عليهم؛ لئلا يقولوا: ما جاءنا من بشير ولا نذير، ولقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾[الإسراء:١٥] فكل أمة من الأمم السابقة يبعث الله إليها رسولًا كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾[فاطر:٢٤].

لكن يجب أن نعرف ما هي دعوة الرسل؟ دعوة الرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم هي إلى التوحيد؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[النحل:٣٦] فكل ما عبد من دون الله طاغوت، كما يأتي في أنواع الطواغيت أن من أنواعهم ما عبد من دون الله وهو راض بذلك كما سيأتي.

فمعنى قوله تعالى: ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾؛ أي: اجتنبوا عبادة الأوثان والأصنام والقبور والأضرحة هذه هي الطواغيت، فدلت الآية الكريمة على أن دعوة الرسل كلها تتركز على التوحيد من أولهم إلى آخرهم.

كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾[الأنبياء:٢٥]، وقوله: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾[النحل:٢].

فدعوة الرسل كلهم إلى التوحيد، وإفراد الله -جل وعلا- بالعبادة، والنهي عن الشرك، هذه هي دعوة الرسل، ثم بعد التوحيد تأتي الشرائع من الحلال والحرام، وتفاصيل الشرائع تختلف باختلاف الأمم وحاجة الأمم، وينسخ الله منها ما يشاء، ثم نسخت كلها بشريعة الإسلام الحلال والحرام والأحكام والعبادات والأوامر والنواهي، أما الأصل وهو التوحيد فهذا لا اختلاف فيه ولا نسخ، هذا دين واحد دين الرسل كلهم من

(٣٢٢) أخرجه البخاري (٣٦٠٩م)، ومسلم (٤٢/١٨/ برقم١٥٧/٨٤)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أولهم إلى آخرهم دينهم واحد.كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨]

ودين التوحيد هو عبادة الله بما شرع في كل وقت بحسبه، فإذا نسخ هذا الشرع انتقل إلى الناسخ، فمن أصر وبقي على المنسوخ وترك الناسخ فإنه يكون كافرًا بالله ﷻ؛ لأن الدين المنسوخ لا يكون دينًا بعد نسخه، وإنما هو دين قبل أن ينسخ، فإذا نسخ فلا يكون دينًا ويكون الدين هو الناسخ؛ فلهذا نسخت شريعة الإسلام ما قبلها من الشرائع، فمن بقي على اليهودية أو النصرانية بعد بعثة محمد ﷺ فهو كافر؛ لأنه يعمل بدين منسوخ انتهى وقته.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

❑ قوله: (وأَرْسَلَ الله جَمِيعَ الرُّسُلِ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ...)

●ذكر المؤلف رحمه الله أن الله أرسل جميع الرسل مبشرين ومنذرين والدليل قوله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥]

وأولهم نوح عليه السلام وآخرهم محمد ﷺ من كذب برسول من الرسل فقد كذب بالرسل أجمعين، ومحمد -عليه الصلاة والسلام- خاتم النبيين وخاتم المرسلين، كل دعوة لنبوة أو دعوة للرسالة بعده فهي ضلال، وكفر بالله جل وعلا، فمن وقت الصحابة وبعدهم إلى يومنا هذا لم يزل يظهر من يدعي النبوة، والنبي عليه الصلاة والسلام خاتم المرسلين وخاتم النبيين.

والدليل على أن أولهم نوح قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾ [النساء:١٦٣] هذا وحي خاص وحي رسالة، والمراد بالنبيين هنا المرسلين.

❑ قوله: (وَكُلُّ أُمَّةٍ بَعَثَ الله إليها...)

●﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ﴾؛ ﴿أَنِ﴾ ما يأتي بعدها هو مضمون البعث، بعثهم لأي شيء؟ لما يأتي بعد ﴿أَنِ﴾ وهو: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾.

عبادة الله سبق تفسيرها مفصلًا في الأصل الأول وهو معرفة العبد ربه، هنا لما ذكر الطاغوت كان مناسبًا لأهميته، أن يذكر معنى الطاغوت.

الدرس الثاني والعشرون:

[الإيمان بالله والكفر بالطاغوت]

وَافْتَرَضَ الله عَلَىٰ جَمِيعِ العِبَادِ الكُفْرَ بالطَّاغُوتِ والإِيمَانَ بالله. قَالَ ابنُ القَيِّم -رحمه الله تعالَىٰ- الطَّاغُوت: مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ مِن مَعْبُودٍ أَو مَتْبُوعٍ، أَو مُطَاعٍ. وَالطَّوَاغِيتُ كَثِيرةٌ وَرُءُوسُهُمْ خَمْسَةٌ: إِبْلِيسُ لَعَنَهُ الله، ومَنْ عُبِدَ وَهُوَ رَاضٍ، وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَىٰ عِبادَةِ نَفْسِهِ، وَمَنِ ادَّعَىٰ شَيْئًا مِنْ عِلْمِ الغَيْبِ وَمَنْ حَكَمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ الله. وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾[البقرة:٢٥٦] وهَذَا مَعْنَىٰ لاَ إِلَهَ إلاَّ الله. وَفِي الحَدِيثِ: «رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلاَمُ وَعَمُودُهُ الصَّلاَةُ وَذُرْوَةُ سَنَامِهِ الجِهَادُ فِي سَبِيلِ الله»(٣٢٣)(٣٢٤). والله أَعْلَمُ، وَصَلَّىٰ الله عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وآلِهِ وصَحْبِهِ وسَلَّمَ.

الشرح

قال العلامة ابن باز:

قوله: (وَافْتَرَضَ الله عَلَىٰ جَمِيعِ العِبَادِ الكُفْرَ بالطَّاغُوتِ.....)

● **والطاغوت:** هو كل ما عبد من دون الله وهو راض، وكل من حكم بغير ما أنزل

(٣٢٣) المعنىٰ: أن رأس هذا الأمر المسئول عنه الإسلام، ومن أسلم بأن نطق بالشهادتين سلم في الدنيا بحقن دمه، وفي الآخرة بالفوز بالجنة والتمتع بنعيمها، وعموده الذي يقوم به الصلاة فإن قيام شعائر الدين بها، كما أن العمود المحسوس هو الذي يقيم البيت، وذروة سنامه؛ أي: أعلىٰ مكان فيه وأحسنه الجهاد، فهو أعلىٰ العبادات من حيث إن به ظهور الدين وحمايته من العابثين، ومن ثم كان لا يناله إلا أفضلهم دينًا، وأجرأهم إقدامًا، وأصبرهم ثباتًا، وأقواهم إيمانًا، وأقربهم تصديقًا، وأصلبهم في دين الله تعالىٰ فهو أعلىٰ من هذه الجهة وإن كان غيره أعلىٰ من جهة أخرىٰ ولكن هذا في غير زمننا الذي نحن فيه القرن الرابع عشر الذي ترك فيه الجهاد رأسًا بكل أنواعه وأسبابه؛ ولذلك استحوذ علينا العدو من كل جهة نستنصر فلا ننصر، ونستغيث بالله تعالىٰ فلا نغاث، ونستشفع بأعمالنا فلا نشفع، وندعو فلا يستجاب لنا إلىٰ متىٰ ونحن في رقود؟ إلىٰ متىٰ ونحن في غفلة؟ إلىٰ متىٰ ونحن في تأخر عن الدين وإقبال علىٰ الدنيا الدنية؟ إلىٰ متىٰ ونحن في إعراض عن العمل بما جاء به ديننا الحنيف والانكباب علىٰ المعاصي والبدع الذميمة، ألم يكف أن يكون ما فعل في الغرب بالبربر المسلمين وفي برقة بالطرابلسيين آخيرًا منبهًا لنا، اللهم شكرا لك لا كفرًا، اللهم لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا يا أرحم الراحمين [الدمشقي].

(٣٢٤) أخرجه ابن ماجه (٣٩٧٣)، من حديث معاذ بن جبل ﷺ، وصححه العلامة الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

الله، أو دعا إلى ذلك، والطاغوت: هو الذي يتجاوز الحد إما بشركه وكفره، وإما بدعوته إلى ذلك، وشرهم ورأسهم إبليس -لعنه الله- وهكذا كل من دعا إلى عبادة نفسه، أو رضي أن يعبد من دون الله، كفرعون والنمرود، أو ادعى شيئًا من علم الغيب ؛ كالكهنة والعرافين والسحرة في الجاهلية وفي الإسلام. وكذلك من حكم بغير ما أنزل الله متعمدًا، فهؤلاء رءوس الطواغيت. وكل من جاوز الحد، وخرج عن طاعة الله ؛ يسمى طاغوت. قال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾[البقرة:٢٦٥] ؛ فالرشد: الإسلام وما جاء به النبي ﷺ والغي: الكفر بالله والضلال. قال تعالى: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝﴾[البقرة:٢٦٥]. فيكفر بالطاغوت؛ يعني: يتبرأ منه، ويعتقد بطلانه، فيتبرأ من الشرك، ﴿وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾يعني: يصدق أن الله معبوده، وإلهه الحق، ويؤمن بالشريعة وبمحمد -عليه الصلاة والسلام- وينقاد لذلك. هذا هو المؤمن. ثم قال: ﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ﴾؛ يعني: استعصم، ﴿بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾: وهي لا إله إلا الله ؛ كلمة التوحيد؛ يعني: فقد استمسك بالعروة التي لا انقطاع لها، بل من استمسك بها صادقًا واستقام عليها، وصل إلى الجنة والكرامة ؛ لأن لها حقوقًا، وهي: توحيد الله، وطاعته، واتباع شريعته. ومحمد ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين، وهو رسول الله إلى جميع أهل الأرض، من الجن والإنس، فيجب على جميع المكلفين طاعته و اتباع شريعته، ولا يجوز لأحد الخروج عنها. وجميع الشرائع الماضية كلها نسخت بشريعته -عليه الصلاة والسلام- كما قال الله ﷻ: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾[الأعراف:١٥٨] الآية. وقال قبلها سبحانه: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝﴾[الأعراف:١٥٧]. وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ﴾[هود:١٧]، وقال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح: «والذي نفسي بيده ؛ لا يسمع بي أحدٌ مِن هذه الأمة يهوديٌ ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمنْ بالذي أرسِلْتُ به إلا كان من أهل النار»(٣٢٥) أخرجه مسلم في «صحيحه»، والآيات والأحاديث في ذلك كثيرة، وقد أجمع أهل العلم -رحمهم الله- على أنه لا يسع أحدًا من هذه الأمة الخروج على شريعة محمد ﷺ وأن

(٣٢٥) أخرجه مسلم (١٥٣)، وأحمد (٣١٧/٢)، وغيرهما من حديث أبي هريرة ﷺ.

من اعتقد ذلك؛ فهو كافر كفرًا أكبر مخرجًا من الملة. نسأل الله العافية والسلامة.

❑قوله: (وَفِي الحَدِيثِ: «رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلامُ»[٣٢٦])

●وفي الحديث: «رأس الأمر: الإسلام، وعموده: الصلاة، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله».

فعلى جميع المكلفين أن يوحدوا الله،ويعبدوه دون كل ما سواه، وأن يكفروا بالطاغوت، وينكروا عبادته، ويلتزموا بالتوحيد،واتباع شريعته سبحانه وتعالى،وتعظيم أمره ونهيه.

ورأس الأمر يعني: رأس الدين هو الإسلام؛ يعني: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله. فمن التزم بها دخل الإسلام، وعموده الصلاة وهي الركن الثاني وهي أعظم الأركان بعد الشهادتين، ثم يلي ذلك الزكاة والصيام والحج وبقية أوامر الله. وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله؛ لأن به صيانة الدين وحمايته، وبه دعوة الناس إلى دين الله وإلزامهم بالحق.

فهو ذروة سنامه، من جهة ما تضمنه من حماية الدين، والدعوة إلى الحق. والله أعلم.

قال العلامة ابن قاسم:

❑ قوله: (وَافْتَرَضَ الله عَلَى جَمِيعِ العباد الكفر بالطاغوت والإيمان بالله)

● ولأجل ذلك أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، بل الدين أمران: كفر بالطاغوت، وإيمان بالله، ومن كفر بالطاغوت وآمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها.

❑ قوله: (قَالَ ابنُ القَيِّم)

● هو الإمام محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي، المعروف بابن قيم الجوزية، صاحب التصانيف المقبولة، المتوفى سنة سبعمائة وإحدى وخمسين

❑ قوله: (الطَّاغُوت: ماتجاوز به العبد حده من معبود...)

● يعني: كل شيء يتعدى به العبد حده؛ أي: قدره الذي ينبغي له في الشرع يصير به طاغوتًا، سواء تعدى حده من معبود مع الله بأي نوعه من أنواع العبادة، أو متبوع في معاصي الله، أو مطاع من دون الله في التحليل والتحريم، يحرم ما أحل الله ويحل ما حرم الله ثم قال ابن القيم: فإذا تأملت طواغيت العالم فإذا هي لا تخرج عن هذه الثلاثة.

---

(٣٢٦) سبق تخريجه.

❑ قوله: (وَالطَّوَاغِيتُ كَثِيرةٌ)

● أي: إذا عرفت ما حَدَّه ابن القيم بتحقق، تبين أن الطواغيت كثيرة جدًا من بني آدم بلا حصر، وذلك أن كل من تجاوز حده في الشرع صار بخروجه منه وتجاوزه طاغوتًا.

❑ قوله: (وَرُءُوسُهُمْ خَمْسَةٌ)

● أي: أكبر الطواغيت بالاستقراء والتأمل خمسة.

❑ قوله: (إِبْلِيسُ لَعَنَهُ الله)

● هو رأسهم الأكبر، واللعن في الأصل: الطرد والإبعاد، وتقدم، وإبليس مطرود مبعد عن رحمة الله.

❑ قوله: (وَمَنْ عُبِدَ وَهُوَ رَاضٍ)

● بتلك العبادة الصادرة من العابد بأي نوع من أنواعها، فهو طاغوت من روءساء الطواغيت وكبرائهم.

❑ قوله: (وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَىٰ عِبادَةِ نَفْسِهِ)

● ممن يقر الغلو والتعظيم بغير حق كفرعون ومشائخ الضلال الذين غرضهم العلو في الأرض والفساد واتخاذهم أربابًا والإشراك بهم مما يحصل في مغيبهم وفي مماتهم، وحكي عن بعض أئمة الضلال أنه قال: من كان له حاجة فليأتي إلىٰ قبري وليستغث بي.

❑ قوله: (وَمَنِ ادَّعَىٰ شَيئًا مِنْ عِلْمِ الغَيْبِ)

● كالمنجمين والرمالين ونحوهم.

❑ قوله: (وَمَنْ حَكَمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ الله)

● كمن يحكم بقوانين الجاهلية، والقوانين الدولية، بل جميع من حكم بغير ما أنزل الله، سواء كان بالقوانين، أو بشيء مخترع وهو ليس من الشرع، أو بالجور في الحكَم فهو طاغوت من أكبر الطواغيت.

❑ قوله: (وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾)

● أي: لا تكرهوا أحد علىٰ الدخول في الإسلام، فإنه بين واضح جلي دلائله وبراهينه لا يحتاج أن يكره أحد علىٰ الدخول فيه، فمن هداه الله للإسلام وشرح صدره

ونور بصيرته دخل على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره، فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرهًا مقسورًا، قيل: نزلت في عدد من أولاد الأنصار أرادوا استردادهم لما أجليت بنوا النضير، وقيل: كان في ابتداء الأمر ثم نسخ بالأمر بالقتال، قال الشيخ: شرع الجهاد على مراتب: فأول ما أنزل الله فيه الإذن فيه بقوله: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ﴾[الحج:٣٩]، ثم نزل وجوبه بقوله: ﴿ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ ﴾[البقرة:٢٤٦]، ولم يؤمروا بقتال من سالمهم، وكذا من هادنهم، ثم أنزل الله في (براءة) الأمر بنبذ العهد وقتال المشركين كافة، وبقتال أهل الكتاب إذا لم يسلموا حتى يعطوا الجزية، ولم يبح ترك قتالهم وإن سالموهم وهادنوهم هدنة مطلقة مع إمكان جهادهم، وقال ابن القيم: كان محرمًا، ثم مأذونًا فيه، ثم مأمورًا به لمن بدأهم بالقتال، ثم مأمورًا به لجميع المشركين، قال تعالى: ﴿ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾[التوبة:٥]، وقالﷺ: «قاتلوا من كفر بالله»(٣٢٧).

❑ قوله: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ﴾

● أي: ظهر وتميز الحق من الباطل، والإيمان من الكفر، والهدي من الضلال بالآيات والبراهين الدالة على ذلك.

❑ قوله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾

● أي: تمسك بالتوحيد وهو العروة الوثقى، واستمسك بالشيء وتمسك به وأمسك: أخذ به وتعلق واستعصم، والعروة الوثقى: القوية التي لا تنفك ولا تنفصم، فمن تمسك بالتوحيد -دين الله الذي أرسل به الرسل وأنزل به الكتب الذي لا يقبل الله من أحد دينًا سواه- وصل الجنة بكل حال.

❑ قوله: (وَهَذَا مَعْنَى لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله)

● فإن معنى (لا إله إلا الله): كفر بالطاغوت والإيمان بالله، كما تقدم.

❑ قوله: (وَفِي الحَدِيثِ: «رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلامُ...»)

● يعني: رأس الدين الذي جاء به النبيﷺ هو الإسلام، فمن انتسب إلى ما جاء به النبيﷺ وادعى أنه من أمة الإجابة، وقد فقد منه رأس الأمر وحقيقته -وهو: الإسلام-

(٣٢٧) أخرجه مسلم (١٧٣١)، وأبو داود (٢٦١٣)، وغيرهما من حديث بريدة ﷺ.

فليس من أمة الإجابة، والإسلام: هو الملة والدين، فمن فقد منه فقد كذب وافترىٰ في دعواه الاستجابة لله ورسوله، كما أن الحيوان إذا فقد منه رأسه فأي شيء ينفع سائر جسده، فمن ادعىٰ أنه من أمة الإجابة، وقد فقد منه الإسلام رأس الأمر -وأساسه إفراد الله بالعبادة- فلا وجود لما يدعيه؛ لفقد حقيقة الانتساب، قال شيخ الإسلام: كل اسم علق بأسماء الدين من إسلام أو إيمان أو غيرهما إنما يثبت لمن اتصف بتلك الصفة الموجبة لذلك.

كمن ادعىٰ أنه متبع لرسول اللهﷺ وهو يدعو مع الله غيره، كأن يسأله قضاء الحاجات وتفريج الكربات ويزعم أن ذلك قربة إلىٰ الله، وأنه مما يحبه النبيﷺ، ولا ريب أنه هو المضاد المعاند المعادي للنبيﷺ المنتقص المستهزئ بدين النبيﷺ، فإذا كان يقر أن اتباع النبيﷺ هو الحق ومع ذلك يعمل بخلافه، فقد عكس الدين والشرع جميعًا، وخالف ما جاء به الرسولﷺ، ومرق من الإسلام، حيث جعل الشرك توحيدًا، وزعم أن هذا مما أمر به، فعطل الشرع والدين جميعًا.

❑ قوله: (وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ)

● هذا فيه عظم شأن الصلاة، وأنها من الدين بهذا المكان العظيم، وهو أن مكانها من الدين مكان العمود من الفسطاط، فكما أن عمود الفسطاط إذا سقطت سقط الفسطاط، فكذلك إذا فقدت الصلاة سقط دين تاركها، ولم يبقىٰ له دين؛ لأن مجرد ترك الصلاة كفر مخرج من الملة، وهذا الحديث من أدلة ما اختاره الإمام أحمد وغيره أنه إذا تركها كسلًا فهو كافر، فإن قوله: «عموده الصلاة» يدل علىٰ أن المراد: فعل الصلاة، ليس المراد بالإقرار بها، فإن المبتدأ والخبر معرفتان يقتضيان الحصر، وأنها وحدها عمود الدين، وأما جحد وجوبها فكفر إجماعًا، وإن فعلها، كما أن جحد شيء مجمع عليه عند الأئمة كفر.

❑ قوله: (وَذُرْوَةُ سَنَامِهِ الجِهَادُ فِي سَبِيلِ الله)

● ذروة الشيء: أعلاه، وذروة البعير: سنامه، وهو أعلاه وأرفعه، وهذا يفيد أن الجهاد هو أعلىٰ وأرفع خصال الدين؛ وذلك لأن فيه بذل المُهَج التي ليس شيء أنفس منها، ولا يعادلها شيء البتة، فيبذل مهجته، ويبذل ماله لظهور الدين وتأييده، وجهاد الكفار والمنافقين، فبذلك استحق أن يكون من الدين بهذا المكان، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾[التوبة:٧٣]، ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ

ٱللَّهِ﴾[التوبة:٤١]، ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝﴾[الصف:١١،١٢]، وغير ذلك من الآيات والأحاديث المستفيضة في فضل الجهاد والحث عليه، وهو ركن من أركان الدين.

❏ قوله: (والله أَعْلَمُ، وَصَلَّىٰ الله عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وآلِهِ وصَحْبِهِ وسَلَّمَ)

● ختم المصنف رَحَمَهُ اللَّهُ هذه النبذة الجليلة كغيره برد العلم إلىٰ من هو بكل شيء محيط علمًا، وسأله أن يثني علىٰ نبيه وآله وصحبه، صلىٰ الله عليه، وعلىٰ آله وأصحابه، وسلم تسليمًا كثيرًا.

قال العلامة العثيمين:

❏ قوله: (وَافْتَرَضَ الله عَلَىٰ جَمِيعِ العِبَادِ الكُفرَ بِالطَّاغُوتِ...)

●أراد شيخ الإسلام رَحَمَهُ اللَّهُ بهذا أن التوحيد لايتم إلا بعبادة الله وحده لا شريك له واجتناب الطاغوت.

وقد فرض الله ذلك علىٰ عباده، والطاغوت مشتق من الطغيان، والطغيان: مجاوزة الحد؛ ومنه قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِي ٱلْجَارِيَةِ ۝﴾[الحاقة:١١]؛ يعني: لما زاد الماء عن الحد المعتاد حملناكم في الجارية؛ يعني: السفينة.

واصطلاحًا أحسن ما قيل في تعريفه ما ذكره ابن القيم رَحَمَهُ اللَّهُ أنه أي الطاغوت: «كل ما تجاوز به العبد حده من معبود، أو متبوع، أو مطاع». ومراده بالمعبود والمتبوع والمطاع: غير الصالحين، أما الصالحون فليسوا طواغيت وإن عبدوا أو اتبعوا أو أطيعوا فالأصنام التي تعبد من دون الله طواغيت، وعلماء السوء الذين يدعون إلىٰ الضلال والكفر، أو يدعون إلىٰ البدع، أو إلىٰ تحليل ما حرم الله، أو تحريم ما أحل الله طواغيت، والذين يزينون لولاة الأمر الخروج عن شريعة الإسلام بنظم يستوردونها مخالفة لنظام الدين الإسلامي طواغيت؛ لأن هؤلاء تجاوزوا حدهم، فإن حد العالم أن يكون متبعًا لما جاء به النبي ﷺ؛ لأن العلماء -حقيقة- ورثة الأنبياء، يرثونهم في أمتهم علمًا وعملًا، وأخلاقًا، ودعوة وتعليمًا، فإذا تجاوزوا هذا الحد وصاروا يزينون للحكام الخروج عن شريعة الإسلام بمثل هذه النظم فهم طواغيت؛ لأنهم تجاوزوا ما كان يجب عليهم أن يكونوا

عليه من متابعة الشريعة.

وأما قوله رحمه الله: «أو مطاع» فيريد به الأمراء الذين يطاعون شرعًا أو قدرًا، فالأمراء يطاعون شرعًا إذا أمروا بما لا يخالف أمر الله ورسوله، وفي هذه الحال لا يصدق عليهم أنهم طواغيت، والواجب لهم علَىٰ الرعية السمع والطاعة، وطاعتهم لولاة الأمر في هذه الحال بهذا القيد طاعة لله ﷻ؛ ولهذا ينبغي أن نلاحظ حين ننفذ ما أمر به ولي الأمر مما تجب طاعته فيه أننا في ذلك نتعبد لله تعالَىٰ ونتقرب إليه بطاعته، حتىٰ يكون تنفيذنا لهذا الأمر قربة إلَىٰ الله ﷻ، وإنما ينبغي لنا أن نلاحظ ذلك؛ لأن الله تعالَىٰ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ [النساء:٥٩].

وأما طاعة الأمراء قدرًا؛ فإن الأمراء إذا كانوا أقوياء في سلطتهم فإن الناس يطيعونهم بقوة السلطان وإن لم يكن بوازع الإيمان؛ لأن طاعة ولي الأمر تكون بوازع الإيمان وهذه هي الطاعة النافعة، النافعة لولاة الأمر، والنافعة للناس أيضًا، وقد تكون الطاعة بوازع السلطان بحيث يكون قويًا يخشىٰ الناس منه ويهابونه؛ لأنه ينكل بمن خالف أمره.

ولهذا نقول: إن الناس مع حكامهم في هذه المسألة لهم أحوال:

الحال الأولَىٰ: أن يقوىٰ الوازع الإيماني والرادع السلطاني وهذه أكمل الأحوال وأعلاها.

الحال الثانية: أن يضعف الوازع الإيماني والرادع السلطاني وهذه أدنىٰ الأحوال وأخطرها علَىٰ المجتمع، علَىٰ حكامه ومحكوميه؛ لأنه إذا ضعف الوازع الإيماني والرادع السلطاني حصلت الفوضىٰ الفكرية والخلقية والعملية.

الحال الثالثة: أن يضعف الوازع الإيماني ويقوىٰ الرادع السلطاني وهذه مرتبة وسطىٰ؛ لأنه إذا قوي الرادع السلطاني صار أصلح للأمة في المظهر؛ فإذا اختفت قوة السلطان فلا تسأل عن حال الأمة وسوء عملها.

الحال الرابعة: أن يقوىٰ الوازع الإيماني ويضعف الرادع السلطاني فيكون المظهر أدنىٰ منه في الحالة الثالثة؛ لكنه فيما بين الإنسان وربه أكمل وأعلَىٰ.

❏ قوله: (وَالطَّوَاغِيتُ)

● جمع طاغوت وسبق تفسيره.

❑ قوله: (وَرُءوُسُهُمْ خَمْسَةٌ)

●أي: زعماؤهم ومقلَّدوهم خمسة.

❑ قوله: (إِبْلِيسُ لَعَنَهُ الله)

●إبليس: هو الشيطان الرجيم اللعين الذي قال الله له: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٧٨﴾[ص:٧٨] وكان إبليس مع الملائكة في صحبتهم يعمل بعملهم، ولما أمر بالسجود لآدم ظهر ما فيه من الخبث والإباء والاستكبار فأبىٰ واستكبر وكان من الكافرين فطرد من رحمة الله، قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٣٤﴾[البقرة:٣٤].

❑ قوله: (ومَنْ عُبِدَ وَهُوَ رَاضٍ)

●أي: عبد من دون الله وهو راضٍ أن يعبد من دون الله فإنه من رءوس الطواغيت - والعياذ بالله- وسواء عبد في حياته أو بعد مماته إذا مات وهو راضٍ بذلك.

❑ قوله: (وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَىٰ عِبادَةِ نَفْسِهِ)

●أي: من دعا الناس إلىٰ عبادة نفسه وإن لم يعبدوه فإنه من رءوس الطواغيت سواء أجيب لما دعا إليه أم لم يُجب.

❑ قوله: (وَمَن إدَّعي شَيئًا مِن عِلمِ الغَيْبِ)

●الغيب: ما غاب عن الإنسان، وهو نوعان:

واقع، ومستقبل، فغيب الواقع نسبي يكون لشخص معلومًا ولآخر مجهولًا، وغيب المستقبل حقيقي لا يكون معلومًا لأحد إلا الله وحده أو من أطلعه الله عليه من الرسل، فمن ادعىٰ علمه فهو كافر؛ لأنه مكذب لله ولرسوله، قال الله تعالىٰ: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۝٦٥﴾[النمل:٦٥]، وإذا كان الله يأمر نبيه محمدًا ﷺ، أن يعلن للملإ أنه لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله، فإن من ادعىٰ علم الغيب فقد كذب الله ورسوله في هذا الخبر.

ونقول لهؤلاء: كيف يمكن أن تعلموا الغيب والنبي ﷺ، لا يعلم الغيب؟! هل أنتم أشرف أم الرسول ﷺ؟

فإن قالوا: نحن أشرف من الرسول، كفروا بهذا القول. وإن قالوا: هو أشرف،

فنقول: لماذا يحجب عنه الغيب وأنتم تعلمونه؟! وقد قال الله ﷻ عن نفسه: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾ [الجن:٢٦،٢٧]، وهذه آية ثانية تدل علىٰ كفر من ادعىٰ علم الغيب، وقد أمر الله تعالىٰ نبيه ﷺ أن يعلن للملإ بقوله: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الأنعام:٥٠].

❑ قوله: (وَمَنْ حَكَمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ)

●الحكم بما أنزل الله تعالىٰ من توحيد الربوبية؛ لأنه تنفيذ لحكم الله الذي هو مقتضىٰ ربوبيته، وكمال ملكه وتصرفه؛ ولهذا سمىٰ الله تعالىٰ المتبوعين في غير ما أنزل الله تعالىٰ أربابًا لمتبعيهم فقال سبحانه: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة:٣١]، فسمىٰ الله تعالىٰ المتبوعين أربابًا حيث جعلوا مشرعين مع الله تعالىٰ، وسمىٰ المتبعين عُبَّادًا حيث إنهم ذلوا لهم وأطاعوهم في مخالفة حكم الله سبحانه وتعالىٰ.

وقد قال عدي بن حاتم لرسول الله ﷺ إنهم لم يعبدوهم؛ فقال النبي ﷺ: «بل إنهم حرموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام، فاتبعوهم فتلك عبادتهم إياهم»[(٣٢٨)].

إذا فهمت ذلك فاعلم أن من لم يحكم بما أنزل الله، وأراد أن يكون التحاكم إلىٰ غير الله ورسوله وردت فيه آيات بنفي الإيمان عنه، وآيات بكفره وظلمه، وفسقه.

فأما القسم الأول:

فمثل قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا

(٣٢٨) أخرجه الترمذي (٣٠٩٥)، وحسنه العلامة الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾[النساء:٦٠-٦٥].

فوصف الله -تعالَىٰ- هؤلاء المدعين للإيمان وهم منافقون بصفات:

الأولَىٰ: أنهم يريدون أن يكون التحاكم إِلَىٰ الطاغوت، وهو كل ما خالف حكم الله تعالَىٰ ورسولهﷺ؛ لأن ما خالف حكم الله ورسوله فهو طغيان واعتداء علَىٰ حكم من له الحكم وإليه يرجع الأمر كله وهو الله، قال الله تعالَىٰ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾[الأعراف:٥٤].

الثانية: أنهم إذا دعوا إِلَىٰ ما أنزل الله وإِلَىٰ الرسول صدوا وأعرضوا.

الثالثة: أنهم إذا أصيبوا بمصيبة بما قدمت أيديهم -ومنها أن يعثر علَىٰ صنيعهم- جاءوا يحلفون أنهم ما أرادوا إلا الإحسان والتوفيق، كحال من يرفض اليوم أحكام الإسلام ويحكم بالقوانين المخالفة لها زعمًا منه أن ذلك هو الإحسان الموافق لأحوال العصر.

ثم حذر سبحانه هؤلاء المدعين للإيمان المتصفين بتلك الصفات بأنه سبحانه يعلم ما في قلوبهم وما يكنونه من أمور تخالف ما يقولون، وأمر نبيه أن يعظهم ويقول لهم في أنفسهم قولًا بليغًا، ثم بين أن الحكمة من إرسال الرسول أن يكون هو المطاع المتبوع لا غيره من الناس مهما قويت أفكارهم واتسعت مداركهم، ثم أقسم تعالَىٰ بربوبيته لرسوله التي هي أخص أنواع الربوبية والتي تتضمن الإشارة إِلَىٰ صحة رسالتهﷺ، أقسم بها قسمًا مؤكدًا أنه لا يصح الإيمان إلا بثلاثة أمور:

الأول: أن يكون التحاكم في كل نزاع إِلَىٰ رسول اللهﷺ.

الثاني: أن تنشرح الصدور بحكمه، ولا يكون في النفوس حرج وضيق منه.

الثالث: أن يحصل التسليم بقبول ما حكم به وتنفيذه بدون توانٍ أو انحراف.

وأما القسم الثاني:

فمثل قوله تعالَىٰ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾[المائدة:٤٤]، وقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾[المائدة:٤٥]، وقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾[المائدة:٤٧]، وهل هذه الأوصاف الثلاثة

تتنزل علىٰ موصوف واحد؟ بمعنىٰ أن كل من لم يحكم بما أنزل الله فهو كافر ظالم فاسق؛ لأن الله تعالىٰ وصف الكافرين بالظلم والفسق فقال تعالىٰ: ﴿ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [البقرة:٢٥٤]، وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [التوبة:٨٤]. فكل كافر ظالم فاسق، أو هذه الأوصاف تتنزل علىٰ موصوفين بحسب الحامل لهم علىٰ عدم الحكم بما أنزل الله؟ هذا هو الأقرب عندي والله أعلم.

فنقول: من لم يحكم بما أَنزل الله استخفافًا به، أو احتقارًا له، أو اعتقادًا أن غيره أصلح منه، وأنفع للخلق أو مثله فهو كافر كفرًا مخرجًا عن الملة، ومن هؤلاء من يضعون للناس تشريعات تخالف التشريعات الإسلامية لتكون منهاجًا يسير الناس عليه، فإنهم لم يضعوا تلك التشريعات المخالفة للشريعة الإسلامية إلا وهم يعتقدون أنها أصلح وأنفع للخلق، إذ من المعلوم بالضرورة العقلية، والجبلة الفطرية أن الإنسان لا يعدل عن منهاج إلىٰ منهاج يخالفه إلا وهو يعتقد فضل ما عدل إليه ونقص ما عدل عنه.

ومن لم يحكم بما أنزل الله وهو لم يستخف به، ولم يحتقره، ولم يعتقد أَن غيره أصلح منه لنفسه أو نحو ذلك؛ فهذا ظالم وليس بكافر، وتختلف مراتب ظلمه بحسب المحكوم به ووسائل الحكم.

ومن لم يحكم بما أنزل الله لا استخفافًا بحكم الله، ولا احتقارًا، ولا اعتقادًا أن غيره أصلح، وأنفع للخلق أو مثله، وإنما حكم بغيره محاباة للمحكوم له، أو مراعاة لرشوة أو غيرها من عرض الدنيا فهذا فاسق؛ وليس بكافر وتختلف مراتب فسقه بحسب المحكوم به ووسائل الحكم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيمن اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله: إنهم علىٰ وجهين:

أحدهما: أن يعلموا أنهم بدلوا دين الله فيتبعونهم علىٰ التبديل ويعتقدون تحليل ما حرم، وتحريم ما أحل الله اتباعًا لرؤسائهم مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل فهذا كفر، وقد جعله الله ورسوله شركًا.

الثاني: أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحليل الحرام وتحريم الحلال -كذا العبارة المنقولة عنه- ثابتًا؛ لكنهم أطاعوهم في معصية الله كما يفعل المسلم ما يفعله من

المعاصي التي يعتقد أنها معاصي فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب.

وهناك فرق بين المسائل التي تعتبر تشريعًا عامًّا والمسألة المعينة التي يحكم فيها القاضي بغير ما أنزل الله؛ لأن المسائل التي تعتبر تشريعًا عامًّا لا يتأتى فيها التقسيم السابق، وإنما هي من القسم الأول فقط؛ لأن هذا المشرع تشريعًا يخالف الإسلام إنما شرعه لاعتقاده أنه أصلح من الإسلام وأنفع للعباد كما سبقت الإشارة إليه.

وهذه المسألة -أعني مسألة الحكم بغير ما أنزل الله- من المسائل الكبرى التي ابتلي بها حكام هذا الزمان، فعلى المرء أن لا يتسرع في الحكم عليهم بما لا يستحقونه حتى يتبين له الحق؛ لأن المسألة خطيرة -نسأل الله تعالى أن يصلح للمسلمين ولاة أمورهم وبطانتهم- كما أن على المرء الذي آتاه الله العلم أن يبينه لهؤلاء الحكام لتقوم الحجة عليهم وتتبين المحجة فيهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيّ عن بينة، ولا يحقرن نفسه عن بيانه ولا يهابن أحدًا فيه فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين.

❑ قوله: (وَالدَّلِيلُ)

● أي: على وجوب الحكم بما أنزل الله والكفر بالطاغوت.

❑ قوله: (قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾)

● لا إكراه على الدين لظهور أدلته وبيانها ووضوحها ولهذا قال بعده: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ فإذا تبين الرشد من الغي فإن كل نفس سليمة لا بد أن تختار الرشد على الغي.

❑ قوله: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾

● بدأ الله ﷻ بالكفر بالطاغوت قبل الإيمان بالله؛ لأن من كمال الشيء إزالة الموانع قبل وجود الثوابت ولهذا يقال: التخلية قبل التحلية.

❑ قوله: ﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾

● أي: تمسك بها تمسكًا تامًّا والعروة الوثقى هي الإسلام، وتأمل كيف قال ﷻ: ﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ﴾، ولم يقل: (تمسك)؛ لأن الاستمساك أقوى من التمسك فإن الإنسان قد يتمسك ولا يستمسك.

❑ قوله: (وَفِي الحَدِيثِ: رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلامُ)

●أراد المؤلف -رحمه الله تعالَىٰ- الاستدلال بهذا الحديث علَىٰ أن لكل شيء رأسًا فرأس الأمر الذي جاء به محمد ﷺ الإسلام.

❑ قوله: (وَعَمُودُهُ الصَّلاَةُ)

●لأنه لا يقوم إلا بها ولهذا كان القول الراجح كفر تارك الصلاة وأنه ليس له الإسلام.

❑ قوله: (وَذُرْوَةُ سَنَامِهِ الجِهَادُ فِي سَبِيلِ الله)

●أي: أعلاه وأكمله الجهاد في سبيل الله، وذلك لأن الإنسان إذا أصلح نفسه حاول إصلاح غيره بالجهاد في سبيل الله ليقوم الإسلام ولتكون كلمة الله هي العليا، فمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله وصار ذروة السنام؛ لأن به علو الإسلام علَىٰ غيره.

❑ قوله: (والله أَعْلَمُ، وَصَلَّىٰ الله عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وآلِهِ وصَحْبِهِ وسَلَّمَ)

● ختم شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالَىٰ- رسالته هذه برد العلم إلَىٰ الله ﷻ والصلاة والسلام علَىٰ نبيه محمد ﷺ وبهذا انتهت الأصول الثلاثة وما يتعلق بها، فنسأل الله تعالَىٰ أن يثيب مؤلفها أحسن ثواب، وأن يجعل لنا نصيبًا من أجرها وثوابها، وأن يجمعنا وإياه في دار كرامته، إنه جواد كريم، والحمد لله رب العالمين، وصلَّىٰ الله وسلم علَىٰ نبينا محمد.

قال العلامة الفوزان:

❑قوله: (وَافْتَرَضَ الله عَلَىٰ جَمِيعِ...)

●ثم ذكر تعريف الطاغوت، فالطاغوت ذكره الله -جل وعلا- في آيات كثيرة منها قوله تعالىٰ في سورة البقرة: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة:٢٥٦، ٢٥٧]

وفي سورة النساء، قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [آل عمران:٢٣] وهذه الآية في اليهود.

ويقول سبحانه في المنافقين: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾ [النساء:٦٠] وفي سورة النحل يقول جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦] الطاغوت: مأخوذ من الطغيان وهو مجاوزة الحد، يقال: طغى الماء إذا ارتفع منسوبه.

قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾ [الحاقة:١١].

■ قوله: (قَالَ ابنُ القَيِّم: الطَّاغُوت...)

● أما معنى الطاغوت في الشرع فهو كما ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ ونقله عنه الشيخ هاهنا.

الطاغوت: ما تجاوز به العبد حده، العبد له حد لأنه عبد حدد الله له حدودًا يجب عليه أن يقف عندها، فإذا تجاوزها فإنه يكون طاغوتًا، فمن تجاوز حدود الله التي حددها لعباده وأمرهم ألَّا يتجاوزوها وألا يقربوها فهو طاغوت، فإذا عصى الله وتجاوز حدوده وطغى فإنه يسمى طاغوتًا لأنه طغى وتعدى حدود الله.

فقوله: «ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع».

هذا التعريف الشامل للطاغوت؛ لأن الله -جل وعلا - أمر بعبادته وحده لا شريك له، وأمر باتباع رسوله ﷺ وأمر بطاعته وطاعة رسوله فيما حلل وحرم، فمن تجاوز هذا الأمر فهو طاغوت، من تجاوز حد العبادة التي أوجبها الله واختص بها ونفاها عن غيره، فعبد مع الله غيره فهو طاغوت، المشرك طاغوت؛ لأنه تجاوز الحد في العبادة وعبد مع الله غيره، صرف العبادة لغير مستحقها.

وكذلك من عُبِدَ وهو راض، الذي يعبده الناس بهذا ويفرح ويترأس بهذا الشيء ويتزعم هذا طاغوت، مثل: فرعون، والنمرود، ومشايخ الطرق الصوفية الغلاة الذين يعبدهم أتباعهم ويرضون بذلك، أو يدعون الناس إلى هذا؛ أي: إلى أن يعبدوهم كما سيأتي، فهذا طاغوت في العبادة.

قوله: «أو متبوع»: الله -جل وعلا- أمر جميع الخلق أن يتبعوا محمدًا ﷺ فلا يجوز لأحد أن يتبع غيره عليه الصلاة والسلام، فمن اتبع غير الرسول ﷺ وزعم أن هذا جائز فإنه يكون طاغوتًا ؛ لأنه اتبع غير الرسول ﷺ الذي أمر باتِّباعه.

فالاتباع خاص بالرسول ﷺ أما غيره من العلماء والدعاة فهؤلاء يتبعون إذا اتبعوا طريقة الرسول ﷺ.

فالمتَّبَعُ هو الرسول ﷺ أما هؤلاء فإنهم مبلغون فقط يتبعون للحق وما وافقوا فيه اتباع الرسول ﷺ وما خالفوا فيه الرسول فلا يجوز اتباعه.

مثال ذلك: مشايخ الطرق الصوفية، يتبعهم مريدوهم وعبيدهم في غير طاعة الرسول ﷺ بل يقولون: إننا لسنا بحاجة إلىٰ الرسول ﷺ نحن نأخذ مما أخذ منه الرسول ﷺ ونتلقىٰ عن الله مباشرة، الرسول ﷺ يتلقىٰ عن الله بالواسطة، بواسطة جبريل، ونحن نتلقىٰ عن الله مباشرة، ويقولون: أنتم تروون دينكم عن ميت، ونحن نروي ديننا عن الله سبحانه وتعالىٰ؛ لأنهم يزعمون أن شيوخهم يتصلون بالله ويتلقون من الله مباشرة.

بلغ بهم الحد إلىٰ هذا الطغيان والعياذ بالله، هذه طريقتهم، لا شك أن هؤلاء هم رءوس الطواغيت والعياذ بالله؛ لأنه لا طريق إلىٰ الله -جل وعلا- إلا باتباع رسوله ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾[آل عمران:٣١،٣٢].

فالذي يتبع غير الرسول هذا يعتبر طاغوتًا، وكذلك من يدعو إلىٰ اتباعه ويقول للناس: أنا آتيكم بالأمر من الله مباشرة، هذا أكبر الطواغيت في العالم والعياذ بالله.

قوله: «أو مطاع»: الطاعة إنما هي لله ولرسوله بما حلل وحرم، قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾[النساء:٥٩].

فالحلال: ما أحله الله، والحرام: ما حرمه الله، وليس لأحد أن يشارك الله في التحليل والتحريم؛ ولذلك حكم الله علىٰ من حلل وحرم أو أطاع من فعل ذلك بأنه مشرك.

قال سبحانه وتعالىٰ: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [الأنعام:١١٨،١١٩] ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ

لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام:١٢٠، ١٢١].

لأن أهل الجاهلية يقولون: الميتة حلال لأن الله هو الذي ذبحها، فهي أولى بالحل مما ذبحتم وذكيتم، فالله -جل وعلا- يقول: لا تأكلوا إلا ما ذُكِّي ذكاة شرعية، وحرم عليكم الميتة.

وهؤلاء يقولون: لا، الميتة حلال هي أولى بالحل من المذكاة لأن المذكاة ذكيتموها أنتم، وأما الميتة فالله هو الذي ذبحها.

ولهذا رد على المشركين وقال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام:١٢١] أي: خروج عن طاعة الله سبحانه ﷺ، وقال بعدها: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾ يقولون: الميتة ذبحها الله، والمذكاة أنتم ذبحتموها فكيف تستحلون ما ذبحتم ولا تستحلون ما ذبحه الله؟ هذا مجادلة بالباطل.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام:١٢١] هذا من شرك الطاعة، التحليل والتحريم حق لله جل وعلا.

فلا يجوز لأحد أن يحلل أو يحرم من عند نفسه، أو يطيع من حلل أو حرم من عنده نفسه، ومن فعل ذلك فإنه طاغوت ومطيع للطواغيت الذين يحللون ويحرمون من دون الله، هذا معنى قوله: أو مطاع؛ أي: مطاع في التحليل والتحريم؛ لأن التحليل والتحريم حق لله جل وعلا، والرسول ﷺ مبلغ عن الله ما حلل وحرم.

قوله: (وَالطَّوَاغِيتُ كَثِيرةٌ، وَرُءُوسُهُمْ خَمْسَةٌ)

● الطواغيت الذين ينطبق عليهم هذا التعريف: كل معبودٍ، أو متبوعٍ، أو مطاعٍ كثيرون؛ ولكن رءوسهم خمسة؛ يعني: أكابرهم خمسة.

قوله: (إِبلِيس لَعَنَه الله)

● أي: طرده الله وأبعده عن رحمته بسبب أنه امتنع من السجود لآدم وعصى الله -سبحانه وتعالى- وتكبر وقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف:١٢] فعصى أمر الله وتكبر فلعنه الله وطرده وأبعده، وسمي إبليس قيل: لأنه أبلس من الرحمة، يعني: يئس من الرحمة، فالمُبْلِس هو: اليائس من الشيء، فإبليس لعنه الله رأس الطواغيت؛ لأنه هو الذي يأمر بعبادة غير الله، وهو الذي يأمر باتباع غير رسول الله ﷺ وهو الذي

يأمر بطاعة غير الله بالتحليل والتحريم، فإبليس هو: مصدر الشر، وهو رأس الطواغيت.

❑قوله: (من عُبِدَ وهو راضٍ)

●أي: عبد وهو راضٍ بعبادة الناس له فهو طاغوت، أما من عبد وهو غير راض بذلك فلا يدخل في هذا؛ لأن عيسى -عليه الصلاة والسلام - عبد من دون الله ولكنه غير راضٍ بذلك، وأمه وعزير والأولياء والصالحون من عباد الله لا يرضون بهذا، بل كانوا ينكرون هذا ويحاربون من فعله، فمن عبد وهو غير راضٍ بذلك فإنه لا يسمى طاغوتًا.

ولذلك لما أنزل الله قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾[الأنبياء:٩٨] فرح المشركون، وقالوا: نحن نعبد المسيح ونعبد ونعبد، إذًا هم معنا في النار، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾﴾[الأنبياء:١٠١،١٠٢].

وفي الآية الأخرى قالوا: ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾[الزخرف:٥٨]، يعنون عيسى ﷺ، ثم قال: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾[الزخرف:٥٨،٥٩].

فهو عبد لله ولا يرضى أن يعبد من دون الله بل بعثه الله بإنكار ذلك: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾[المائدة:١١٧] فالذي عبد وهو غير راض بذلك، لا يدخل في هذا الوعيد، ولا يكون طاغوتًا؛ لأنه منكر لذلك؛ لأن الطاغوت هو: الذي يرضى بأن يعبد من دون الله ﷻ.

❑قوله:(مَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَىٰ عِبادَةِ نَفْسِهِ)

●مثل رءوس المشركين الذين يدعون الناس إلى عبادة أنفسهم مثل: فرعون قال: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾[النازعات:٢٤].

ومثل: النمرود، ومثل: غلاة الصوفية الذين يدعون الناس إلى عبادتهم حتى إنهم يوصون الناس أن يعبدوهم بعدما يموتون فيقول أحدهم: إذا أعيتكم الأمور فأتوا إلى قبري؛ أي: إذا أعجزتكم الأمور فأتوا إلى قبري ولا يحول بينكم وبيني حفنة من التراب.

يوصون الناس أن يأتوا إلى قبورهم ويعدونهم أنهم سيقومون بحوائجهم، فمن دعا

الناس إلىٰ عبادة نفسه حيًا وميتًا فهو من رءوس الطواغيت، وكذلك من دعا الناس إلىٰ عبادة غيره من الطواغيت وهم دعاة الشرك، هؤلاء طواغيت، الذين يزينون الشرك للناس ويسمونه بغير اسمه ويقولون: هذا من باب التوسل، أو هذا من باب الشفاعة وهم كثير.

إن هؤلاء طواغيت؛ لأنهم يدعون إلىٰ الشرك، فهم يدعون إلىٰ عبادة غير الله ويسمون ذلك بغير اسمه، ويزينونه للناس بالشبهات وزخرف القول هؤلاء هم الطواغيت، دعاة الشرك طواغيت، وكل من عبد من دون الله ورضي بذلك، أو دعا الناس إلىٰ عبادة نفسه، أو دعا الناس إلىٰ عبادة غير الله فإنه من الطواغيت، بل هو من رءوس الطواغيت نسأل الله العافية.

قوله: (مَنِ ادَّعَىٰ شَيْئًا مِنْ عِلْمِ الغَيْبِ)

وهذا يدخل فيه السحرة، والمنجمون، والكهان، والرمالون، وكل من يدعي أنه يعلم الغيب ويقول للناس: سيحصل لكم كذا وكذا، أنت سيحصل لك سعادة أو يحصل لك شيء من التعب، أو توفق في زواج أو لا توفق هؤلاء يدعون علم الغيب، والغيب لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [النمل:٦٥] وقال تعالىٰ: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾ [الجن:٢٦، ٢٧] وقال تعالىٰ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام:٥٩].

﴿لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾: هذا حصر فلا يعلم الغيب إلا الله، من أطلعه الله علىٰ شيء من الغيب من رسله لأجل مصلحة البشر ومعجزة للرسول، لكن لم يعلم الغيب من ذات نفسه وإنما علمه للغيب من تعليم الله له، فلا يعلم الغيب إلا الله فمن ادعىٰ علم الغيب فإنه يكون مشاركًا لله فيما اختص به سبحانه، فيكون مشركًا وطاغوتًا وكافرًا، وهذا من أعظم أنواع الردة عن الإسلام.

قوله: (مَنْ حَكَمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ الله)

ودليله قوله تعالىٰ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء:٦٠] فالذي يحكم

بغير ما أنزل الله مستحلًا لذلك؛ يكون طاغوتًا، والذي يقول: إنه يجوز أن يتحاكموا إلىٰ القانون، أو إلىٰ العوائد في الجاهلية، أو عوائد القبائل والبادية ويتركوا الشرع، يقول: هذا حلال، أو: هذا يساوي ما أنزل الله، فإذا قال: إنه أحسن مما أنزل الله، أو يساوي ما أنزل الله، أو قال: إنه حلال فقط، ولم يقل: إنه يساوي، ولا أفضل، قال: حلال جائز، هذا يعتبر طاغوتًا، وهذا بنص القرآن.

قال تعالىٰ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ سمي طاغوتًا ؛ لأنه تجاوز حده.

أما من حكم بغير ما أنزل الله وهو يقر أن ما أنزل الله هو الواجب الاتباع والحق، وأن غيره باطل، وأنه يحكم بباطل، فهذا يعتبر كافرًا الكفر الأصغر الذي لا يخرج من الملة، لكنه علىٰ خطر عظيم، علىٰ طريق قد يصل به إلىٰ الكفر المخرج من الملة إذا تساهل في هذا الأمر.

وأما من حكم بغير ما أنزل الله عن غير تعمد بل عن اجتهاد، وهو من أهل الاجتهاد من الفقهاء واجتهد ولكن لم يصب حكم الله، وأخطأ في اجتهاده فهذا مغفور له.

قال ﷺ : «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر»[٣٢٩]؛ لأنه لم يتعمد الخطأ هو يريد الحق ويريد موافقة حكم الله ﷻ، لكنه لم يوفق له فهذا يعتبر معذورًا ومأجورًا؛ ولكن لا يجوز اتباعه علىٰ الخطأ، لا يجوز لنا أن نتبعه علىٰ الخطأ.

ومن هذا اجتهادات الفقهاء التي أخطئوا فيها أو اجتهادات القضاة في المحاكم إذا اجتهدوا وبذلوا وسعهم في طلب الوصول إلىٰ الحق ولكن لم يوفقوا فخطؤهم مغفور.

□قوله: (وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾)

● ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ معناه: أن أحدًا لا يكره علىٰ الدخول في الإسلام؛ لأن الدخول في الإسلام لابد أن يكون عن اقتناع واعتقاد بالقلب، ولا يكره عليه أحد، لا يمكن هذا؛ لأن القلوب لا يتصرف فيها إلا الله- سبحانه وتعالىٰ، لا يُكرَه أحد إلىٰ الإسلام؛ لأننا لا نملك القلوب، وإنما الله -جل وعلا- هو الذي يملكها ويتصرف فيها ولكن نحن ندعو للإسلام ونرغب فيه.

---

(٣٢٩)أخرجه البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦)، وغيرهما، من حديث عمرو بن العاص ﷺ.

نجاهد في سبيل الله من كفر؛ لأجل نشر الإسلام وإتاحة الفرصة لمن يريد أن يسلم، ولأجل قمع أعداء الله، أما الهداية فهي بيد الله -سبحانه وتعالىٰ- لا أحد يكره علىٰ الإيمان والإسلام، وإنما هذا شيء راجع إليه هو.

ثم قال تعالىٰ: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ فالإسلام -ولله الحمد- ليس فيه ما يكره بل كله محبوب ومرغوب، والكفر والشرك كله شر وكله مكروه، قد تبين هذا من هذا، تميز الرشد وهو الحق، من الغي وهو الباطل، والإنسان عنده عقل وعنده تفكير يوازن بين الحق والباطل، سيهديه تفكيره إن كان سليمًا وسالمًا من الهوىٰ والدوافع، سيهديه تفكيره السليم إلىٰ قبول الحق بدون أن يكره، هذا قول في الآية.

والقول الثاني: أن هذه الآية نزلت في أهل الكتاب، وأن أهل الكتاب لا يجبرون علىٰ الدخول في الإسلام، بل إذا أرادوا البقاء علىٰ دينهم مكنوا من ذلك بشرط أن يدفعوا الجزية للمسلمين وهم صاغرون؛ أما غيرهم من الكفرة فلا يقبل منهم غير الإسلام، أو القتل؛ لأنهم ليس لهم دين والوثنية دين باطل.

والقول الثالث: أن هذه الآية منسوخة بآية الجهاد، هذه في أول الأمر قبل أن يشرع الجهاد ثم شرع الجهاد فنسخت هذه الآية.

ولكن القول الأول هو الصحيح: أن الآية غير منسوخة، وأن الدين لا يدخل في القلوب بالإكراه وإنما يدخل بالاختيار؛ لكن من لم يقبل الدين يعامل المعاملة اللائقة به من قتل أو أخذ جزية مما شرع الله -سبحانه وتعالىٰ- في حقه.

﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾الطاغوت: المراد جميع الطواغيت في العبادة، أو الاتباع، أو في الطاعة؛ لأن كلمة الطاغوت هنا عامة.

قدم الكفر بالطاغوت علىٰ الإيمان بالله ؛ لأن الإيمان بالله لا ينفع إلا بعد الكفر بالطاغوت، فمن آمن بالله ولم يكفر بالطاغوت فإنه لا ينفعه إيمانه.

فالذي يقول: إنه مؤمن، ويصلي، ويصوم، ويزكي، ويحج، ويفعل الطاعات؛ لكنه لا يتبرأ من الشرك ولا المشركين، ويقول: لا دخل لي فيهم، هذا لا يعتبر مسلمًا ؛ لأنه لم يكفر بالطاغوت، فلابد من الكفر بالطاغوت، وهو رفض الطاغوت واعتقاد بطلانه، والابتعاد عنه وعن أهله، لا بد من هذا، فلا يصح إيمان إلا بعد الكفر بالطاغوت.

وفي الآية الأخرى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[النحل:٣٦] فلا تصح عبادة الله إلا باجتناب الطاغوت لا يجتمع ضدان، لا يجتمع الإيمان والكفر في القلب، الإيمان والكفر الأكبر لا يجتمعان في قلب، أما الكفر الأصغر فقد يجتمع.

□قوله: (وهَذَا مَعْنَىٰ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَفِي الحَدِيثِ: «رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلامُ»...)

●قال الشيخ: هذا معنىٰ لا إله إلا الله؛ يعني: الكفر بالطاغوت والإيمان بالله.

الإسلام: هو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك وأهله، هذا هو رأس أمر الدين، الشهادتان هما رأس الإسلام وهما أصل الإسلام، فلا يدخل الإنسان في الإسلام إلا إذا أتىٰ بالشهادتين نطقًا وعلمًا وعملًا واعتقادًا، لا يكون الإنسان مسلمًا إلا بذلك، شبه الدين بالجسم الذي له رأس وعمود وسنام، فإذا قطع الرأس، أو لم يكن هناك رأس فإنه لا بقاء للحياة، كذلك بدون التوحيد لا بقاء للدين؛ لأنه هو الرأس الذي إذا قطع أو زال زالت الحياة وفسد البدن.

وعموده الذي يقوم عليه هو الصلاة، فبدون عمود لا يقوم الإسلام، مثل: بيت الشعر أو الخيمة إذا لم يكن هناك عمود تقوم عليه فإنها لا تقوم، فلا يقوم بيت إلا بعمود فإذا فقد العمود لا يقوم البيت، كذلك الصلاة إذا فقدت فإن الإسلام لا يقوم.

ولذلك قال العلماء: إن من ترك الصلاة تكاسلًا فإنه يكفر علىٰ الصحيح ولو كان يعترف بوجوبها؛ لأنه لا فائدة من الاعتراف بالوجوب مع عدم التطبيق وعدم العمل، لا فائدة من ذلك؛ ولذلك حكم المحققون من أهل العلم بكفر من ترك الصلاة متعمدًا ولو كان يقر بوجوبها، أما من كان يجحد وجوبها فهذا كافر بإجماع المسلمين.

«وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله»: ذروة سنام الأمر: وهو الدين، الجهاد في سبيل الله فالجهاد دليل علىٰ قوة الإسلام، إذا وجد الجهاد في سبيل الله فهذا دليل علىٰ قوة الإسلام ؛ لأن الجهاد لا يكون إلا من قوة إيمان وقوة مادة.

فالنبي ﷺ جعل ثلاثة أشياء للدين: الرأس، والعمود، والسنام، فبعدم الرأس لا وجود للدين أصلًا، فالذي لا يحقق الرأس وهو التوحيد لا دين له. والله أعلم، وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد.

والذي لا يصلي؛ لا يقوم له دين وإن شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله؛ لأنه يحتاج إلى عمود يقيم عليه الدين وهو لا يوجد إلا بالصلاة.

وإذا فُقد الجهاد فُقدت القوة في الإسلام وصار إسلامًا ضعيفًا وصار المسلمون مستضعفين، فلا قوة للإسلام والمسلمين إلا بالجهاد في سبيل الله ﷻ فهو علامة القوة، وفقده علامة الضعف.

هذا وجه تشبيه الرسول ﷺ لهذه الأمور الثلاثة بالنسبة للدين، رأس، وعمود، وسنام، كما أن البعير إذا صار له سنام هذا يدل على أنه قوي، وإذا لم يكن له سنام فهذا يدل على أنه هزيل ضعيف.

ذلك المسلمون اليوم مستضعفون في الأرض؛ ولهذا في الحديث: «إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر، وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلًّا لا ينزعه منكم حتى ترجعوا إلى دينكم»[٣٣٠] فترك الجهاد ذل وضعف للمسلمين، ووجوده دليل القوة والسمن، كالسنام للحيوان.

والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

❑ قوله: (وَافْتَرَضَ الله عَلَى جَمِيعِ العباد الكفر بالطاغوت والإيمان بالله...)

● ما معنى الطاغوت إذن؟

الطاغوت: صيغة مبنية للكثرة والسَّعة؛ لأنها من طغى يطغى طغيانًا، ومعنى ذلك التجاوز تجاوز الحد، يقال: طغى الماء إذا تجاوز الحد، طغى الرجل إذا تجاوز حدّه، والطاغوت مبني من الطغيان؛ لكنه للكثرة مثل ملكوت، رحموت ونحو ذلك. ما هو الطاغوت؟

الطاغوت: اسم لكل ما تجاوز به العبد حدّه، كل ما تجاوز به العبد حدّه؛ أي: الحد الشرعي له، معلوم أن الشرع حدّ للأشياء حدودًا، وبين علاقة المسلم بها، فإذا تجاوز العبد بشيء ما حده، فذلك الشيء طاغوت، قال: (ما تجاوز به العبد حده من معبود) إذا

---

(٣٣٠) أخرجه أبو داود (٣٤٦٢)، من حديث ابن عمر ﷺ، وصححه العلامة الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

عبد أحد غير الله جل وعلا فذلك الغير طاغوت هذا العابد، متى يكون طاغوتًا؟ إذا كان راضيًا بهذه العبادة، أما إذا كان يكرهها فإنه لا يسمى طاغوتًا، لأنه يتبرأ منه والمتبرأ من الشيء ليس من أهله، كما قال جل وعلا: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝٩٨ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٩٩﴾[الأنبياء:٩٨،٩٩]، فلما نزلت هذه الآية فرح المشركون، قالوا سنكون وعيسى . عزير- وعدّوا آلهة- سنكون جميعًا في جهنم فنعم الصحبة، أنزل الله جل وعلا بعده: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ۝١٠١ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ۝١٠٢ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝١٠٣﴾[الأنبياء:١٠١-١٠٣]، فدل على أن الذي لا يرضى بعبادته فإنه ليس بمذموم، لهذا عُبدت الأنبياء والرسل، وعُبد الصالحون، وكلهم يتبرءون، عيسى عليه السلام أُله بعد رفعه، وقال له ربه جل وعلا: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۝١١٦ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى﴾[المائدة:١١٦،١١٧]، ﴿تَوَفَّيْتَنِى﴾؛ يعني: قبضتني؛ قبضت بدني ورفعتني عنهم، واستوفيت مدتي على الأرض؛ المدة الأولى، كنت أنت الرقيب عليهم، ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝١١٧ إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾ إلى آخر الآيات، معنى الطاغوت: ما تجاوز العبد حده من معبود أو متبوع من يُتبع، يُقلَّد، يهتدى بهديه (أو مطاع) إذا كان اتبع أحد فجاوز العبد بهذا المتبع حده الذي أذن به شرعًا، فقد صار ذلك طاغوتًا له إذا كان راضيًا بذلك، وإن كان لا يرضى فهذا هو الذي اتخذه طاغوتًا، وذاك ليس بطاغوت أو مطاع.

❑ قوله: (وَالطَّوَاغِيتُ كَثِيرةٌ، وَرُءوسُهُمْ خَمْسَةٌ: إِبْلِيسُ لَعَنَهُ الله، وَمَنْ عُبِدَ وَهُوَ رَاضٍ، وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَىٰ عِبادَةِ نَفْسِهِ)

● إبليس لعنه الله هو رأس الطواغيت لما؟ لأنه عُبد، ولأنه متبوع، ولأنه مطاع وهو راض بذلك، أطيع في معصية الله ويعتبر عند من أطاعه أنه مقدم، وأن طاعته مَزيّة؛ ولهذا قال جل وعلا في سورة إبراهيم: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ

ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾[إبراهيم:٢٢]، الاستجابة هنا في المتابعة والطاعة، وقال جل وعلا في آية سورة يس: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠﴾[يس:٦٠]، ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾، يعني: بالطاعة كما هو تفسيرها (ومن عُبد وهو راض) هذا القيد مهم، من عبد من دون الله، ورضي بهذه العبادة فهو من الطواغيت، من رءوس الطواغيت. (من دعا الناس إلى عبادة نفسه) هذا أعظم، الأول يُعبد وهو ساكت لم يدعُ إلى عبادة نفسه، يُطاع وتكون طاعته دينًا، في غير طاعة الله جل وعلا وطاعة رسوله، ويرضى بذلك، هذا طاغوت، الأعظم منه أن يدعو، ذاك ساكت-الأول-يكون فُعل به ذاك وهو راض، الأعظم أن يدعو إلى نفسه، مثل ما يفعل مشايخ الطرق الصوفية، يعني: بعض من مشايخ الطرق الصوفية، ورءوس الضلال.ورءوس الرافضة، ورءوس الإسماعيلية، ونحو ذلك. كل هؤلاء يعظمهم أتباعهم فوق الحد الشرعي، فيتخذونهم مطاعين، فيتخذونهم متابَعين من دون رسول الله ﷺ.

❑ قوله: (وَمَنِ ادَّعَى شَيْئًا مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ)

●من ادعى شيئًا من علم الغيب فهو من جنس الشياطين، فهو كاهن من الكهنة، أو ساحر من السحرة، أو مدعٍ لعلم الغيب، هذا من الطواغيت.

❑ قوله: (وَمَنْ حَكَمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ الله)

● الحاكم بغير ما أنزل الله فيه تفصيل:

إذا حكم بغير ما أنزل الله معتقدًا أن حكمه جائز، وأن له أن يحكم، وحكمه قرين لحكم الله أو مساوٍ لحكم الله، أو أفضل من حكم الله أو نحو ذلك. فإن هذا يعد طاغوتًا.

أما إن حكم بغير ما أنزل الله وهو يعلم أنه عاصٍ في حكمه، وأن حكم الله جل وعلا أفضل، وأن حكم الله جل وعلا هو المتعين، ولكن غلبته نفسه وشهوته بأن حكم بغير ما أنزل الله ببعض المسائل، كما يحصل لبعض المفتونين من القضاة، أنهم يحكمون في مسائل بشهوتهم، كما كان يحدث في نجد من قرون قبل الدعوة، أنه كان يُرشى القاضي -يرشى بمال- فيحكم لأحد الخصمين بغير حكم الله جل وعلا، ويحكم بغير حكم الله، وهذا هو الذي جاء فيه الحديث الذي رواه أبو داوود وغيره بإسناد قوي، أنه عليه الصلاة

والسلام قال: «القضاة ثلاثة: قاضيان في النار، وقاضٍ في الجنة، رجل قضىٰ بغير الحق وهو يعلم الحق فذاك في النار»[٣٣١] والعياذ بالله، هذا النوع يحكم لأجل مال، يحكم لأجل رِشوة بغير ما أنزل الله، هذه معصية من المعاصي، ولا شك أن معصية سمّاها الله جل وعلا كفرًا، أعظم من معصية لم يسمها الله جل وعلا كفرًا، كما يقول الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله تعالىٰ في رسالته «تحكيم القوانين»؛ فإذن هذا الصنف من الناس فعلهم معصية.

هناك نوع آخر حدث في هذا الزمان، وهو تحكيم القوانين؛ أن يستبدل الشرع بقوانين وضعية، يستبدل الشرع استبدالًا بقوانين، يأتي بها الحكام من عند غير الله ورسوله، يترك الدين، ويؤتىٰ بتلك القوانين، فهذه كما يقول الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله تعالىٰ في أول رسالته «تحكيم القوانين» ما نصه: إن من الكفر الأكبر المستبين، تنزيل القانون اللعين، منزلة ما نزل به الوحي الأمين، علىٰ قلب سيد المرسلين، للحكم به بين العالمين، وللرد إليه عند تنازع المتخاصمين، معاندة ومكابرة؛ لقول الله جل وعلا: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ۝٥٩﴾ [النساء:٥٩]. ورسالته هذه بسَط فيها القول، وهي رسالة دقيقة مهمّة في هذا الباب، إذن فصار تحكيم القوانين كفرًا أكبر بالله؛ لأنه استبدال شريعة مكان شريعة، بدل شريعة الإسلام يأتون بشريعة فرنسا، أو شريعة أوروبا، أو شريعة إنجلترا، شريعة أمريكا، هذا استبدال، فإذا كان الحكم به غالبًا صار تحكيمًا، يعني: صار الحكم في أكثر أمور الشريعة بهذه الأحكام القانونية استبدالًا، فمتىٰ يكون كفرًا؟ إذا كان استبدالًا، ومتىٰ يكون استبدالًا؟ إذا كان تحكيم القوانين غالبًا، كما ذكر الشيخ رحمه الله تعالىٰ في فتاويه -الشيخ محمد بن إبراهيم- أيضًا مقيِّدًا: متىٰ يكون الحكم بالقانون كفرًا؟ قال: إذا كان غالبًا فاشيًا. لما؟ لأنه استبدل شريعة مكان شريعة، فإذا غلب ذلك صار استبدالًا، وهذا قيد مهم، وهذه المسألة يكثر فيها الكلام في هذا العصر، بين كلام متعلمين وعلىٰ سبيل التعلم، وبين كلام جهال، وقلّ من يحرر الكلام فيها علىٰ نحو ما بينه العلماء بدقة وتفصيل.

---

(٣٣١) أخرجه أبو داود (٣٥٧٣)، والترمذي (١٣٢٢)، وغيرهما من حديث بريدة بن الحصيب رضي الله عنه، وصححه العلامة الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

قال هنا: والدليل قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾[البقرة:٢٦٥] قال بعد ذلك: (وهذا هو معنى لا إله إلا الله). ما معنى لا إله إلا الله؟ هو قوله: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾؛ لأن الكفر بالطاغوت هو معنى النفي بـ(لا إله) والإثبات وهو قوله: ﴿وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ هو المستفاد من قوله: (إلا الله).

قال بعد ذلك وفي الحديث: «رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله»، والله أعلم.

الفهرس